حالة وهم

عنوان الكتـاب: حالة وهم
المـــوضـــوع: فكـر
التـأليـــــف: محمد أبو سريع سليم
مراجعة لغوية : دعاء فرج
الإخـراج الفنى: محمود عنتر
تصميم الغـلاف: عبد الرحمن محمد
رقـــم الإيـداع: 2662/ 2021
الترقيم الدولى: 978-977-844-199-4
الناشـــــر: منشورات الفنار

www.facebook.com/elfnaar
elfnaar@gmail.com

ڤيلا الأشراف- أمام بوابة هليوبوليس- مدينة بدر- القاهرة الكبرى
المدير العام / أ. مصطفى أمين

01013483506
01550102499

منشورات الفنار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

حالة وهم

رحلة إلى أعماق النفس

محمد أبو سريع سليم

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة بين يدي الكتاب

لطالما كانت حياة الإنسان مسرحًا كبيرًا، لا تنتهي منه مرحلة عرض حتى تبدأ الأخرى، ما أن يفنى منه جيل حتى يخلفه غيره، فهي تجربة ممتدة بطول التاريخ الإنساني، وتطاول أعمار البشرية على الأرض. فكانت تجربته وفيرة في ماداتها، غنية في إنتاجها، أمَّا الإنسان فهو هذه الآلة العجيبة، والجسد المعجز الذي ألقى في فضاء فسيح من أرض مجهولة، وكون غامض مخيف، فكان عمله في ذلك استكشاف المجهول، والبحث عن الحقيقة، والوصول إلى معرفة طبائع الموجودات، وآلية عمل الأشياء وميكانيكيات الأمور، ثم تفسير كيفية عملها ونشاطها، ثم إصلاحها إذا دبَّ إليها شيئًا من الخلل، وطرأ عليها حادث من الفساد. ثم أخذ يجوب الأرض يمينًا وشمالًا، يلقي بظلال مخاوفه على الآلات والأشياء، فرأى في الأمور غير ماهيتها، فكان يرى من خلال نفسه ومشاعره وباطنه أمور الظاهر كلها في إطار ذاتي خاص، تختلف قوانينه بين أفراد جنسه، فأخذ يحب ويكره ويبغض ويصادق ويقرب ويبعد، وكل ذلك وعالمه الداخلي أخذ في النشأة والتكون، وهو ملقي بظلاله على الخارج.

ألزم نفسه بالارتحال والسير، فأخذ يجوب البقاع والأصقاع، ويلقي بنظره هنا، ويبعث أقدامه ويحثها على المسير هناك، ثم تعالى جدّه فبدأ بالنظر إلى نفسه بانيًا حولها أسوار المعاني من منسوجات الخيالات أحيانًا، واقتصاص الغرائب مرة أخرى

ثم ثنى بالمكان الذي فيه، فتناوله بالتحليل المجازف تارة لقصص لا تعد، إلا أنها نسيج طرزته إياه أحلامه وخيالاته وابتداعات نفسه، فبعضها راودته نفسه عليه، وآخر تلقفته ظامئة حائرة عمن سلفه من الأولين، فنظر إلى السماء والأرض، وإلى الوجود والعدم وإلى الحياة والموت. أخذت تتشكل في نفسه معانٍ جديدة، وهو سائر في طريق حياته من استيقاظه، وحرارة الشمس تلفح جبينه إلى رقدته على أشعة القمر في ظلام الليل.

اجتمع مع غيره بعد أن كان لا يرى إلا نفسه، وتشارك معه بعد أن كان همه امتلاء معدته، وسلامة نفسه فقط، فستأنس به وأقام بجواره وتحالف معه، وعقد الصلح وعرف المعاهدة ، بعد أن كان غروره وغريزته دافعة له على القتل وسفك الدماء. كان استحلاله للأشياء تابعًا لما تزينه وترتضيه نفسه ولما يهواه قلبه. فبعد أن كان الخوف هو ما يقوده، والجوع هو الذي يحركه، والألم هو الذي يبعث كوامن نفسه، اجتمع مع غيره وتشاركوا على الحماية، وجمع الطعام والشراب ، والبحث عن المأوى الأكثر أمانًا ووفرة في الخيرات والمنافع . كان اجتماعه حيث توجد المياه عند مصبات الأنهار، أو حيث ينزل المطر وتنبت الأرض، أو حيث يتشارك مع غيره في عمل البحر ونقل البضائع والأحمال، وممارسة فن الصيد، فكان موطنه الأول حيث يجد مأوى له، يؤمن فيه الاحتياجات الضرورية للمعيشة الآدمية، وحيث الأمن من المخاطر والوحوش والسباع، فكون الأسرة وعرف البيت، وأخذ يتشكل معهما مفاهيم جديدة ومصطلحات ناشئة، فعرف العادة واستحسنها، أحب الخير ورغب فيه، كره الشر ورغب عنه، ثم أخذ يبني الأساطير حول ذلك عن الطائع والعاصي والمذنب والمطيع.

ثم تعدلت أوضاع حياته، فعرف الاستقرار والموطن بعد أن كان انتقاله من مكان لآخر، يصيد فريسته ويقتل ذبيحته، ليقوم بعد انتهائه منها هائمًا على وجهه، يبحث عن أخرى وهو في هذا الطور أشبه بالهمجي المتوحش، الذي تأثر بالطبيعة وما فيها، فأخذ من صفات حيواناتها الشدة والشراسة والقوة والقتل. ثم ضرب الأرض استنباتًا

للزرع، لتفيض عليه من خيراتها وغلالها، وكون أسرته وأصبح أولاده أعوانه في زراعتها وخلفاءه بعده على أرضه، وأخذت تعمر الأرض بالخلق وتمور بالناس، فبعد أن اندفع إلى الخارج يستحرث الأرض، ويطلب خيرها ويستأنس الحيوان ويملك قيادته، ويصنع ما يعينه من صفائح والآلات حديدية بسيطة، أخذت سيطرته على الأرض والحيوان تبدأ ، وبدأ يشعر بالوجود النفسي المشبع بالانتصار والفرح الممزوج بالفخر، ثم بأنه صاحب أملاك وأرض وذو عيال. فتكونت القبيلة والعشيرة وعرفت الحماية والنصرة والنجدة. وكبر مجتمعه شيئًا فشيئًا وكل ذلك ورؤيته للأمور تتغير فتنشأ عنها رؤى جديدة، وتعريفات مخالفة لما سبق، فثري قاموسه اللغوي بكلمات جديدة، عرف الروابط والعلاقات والمجتمعات، وترسخت عنده الروابط المتنوعة كرابطة الزوجية والأبوة والقرابة والنسب، وأخذ يبني لكل رابطة معانٍ ومفاهيم، وتُعلمه الحياة من تجاربه فيها الكثير والكثير.

ثم سلكت به الحياة منحنى آخر بأحداث وتعليمات ومعطيات جديدة، استمهادًا لدخوله عصرًا ثان. فعرف الصناعة وانتقل من القرية إلى المدينة، وبدلًا من العمل في الأرض انتقل إلى الاشتغال في المصانع والشركات، وبعدما عرف مفهوم الأسرة والبيت والعائلة والدفء الأسري، إذا به يهجر البيت ليطوف في الأرض مسافرًا من قطر لقطر، طلبًا لنيل المعالي وشرفات العلو، واستدرارًا للمال بزيادة أو رفاهية، أو سدًا لحاجات ومتطلبات الأسرة المتزايدة، بتزايد حاجات العصر الجديد من أدوات ترفيهية مزينة للبيت، ليعمل عند صاحب العمل بعد أن كان مالكًا للأرض، وأخذت مفاهيمه تنصب حول المال والعمل والوظيفة، ثم انشغاله بكل متطلبات الحياة المادية من مستويات متقدمة في الأطعمة والأشربة والألبسة والزينة، وأصبح العمل عنده هو الشجاعة والكرم، فكانت المحمدة والمذمة عليه وحده ليكون القيمة المطلقة، فكلما ترقى الإنسان في السلم الوظيفي ترقى في سلم الأخلاق والمجد، وما ذلك إلا أن الاقتصاد

معياره الذهب والعملات الورقية والمعاملات المالية، فالعمل مطلوب لأجل الحصول على المال، والمال هو مقوم الحياة وأساس الاقتصاد، والاقتصاد هو مقوم الحكم والسيادة، ليصير المال عند طائفة منهم، هو الخلق الرفيع والمادية هي الأمان والطمأنينة، ليصبح كل شيء دائرًا حول محور المال وما ينتج عنه، فهو الفضيلة العظمى، والخلق القويم، فارتقى من منزلة التداول والمقايضة إلى مرتبة القداسة والتبجيل، أخذ العالم يبدع صورًا كثيرة، وأنماطًا متنوعة في كل شيء. فأصبحت أشياء كثيرة زائفة مقلدة منتسبة زورًا إلى غير حقائقها، فنزعت الأصالة وانعدم الرقي، واختلطت الأشياء حتى تاهت الحقائق، وغفل عن المسلمات، كل شيء إنما هو احتمال، والأمور نسبية أو مطلقة لا معنى لأي شيء إلا أنه عموم فكر وشيوع رأي، فانتشر الفساد وعمَّ حتى أصبح في عمق كل شيء، فتاريخ مفتري عليه، وجغرافيا متحولة ، وقيم منقلبة وفطر منكوسة . ارتدى كل شيء رداءً من الضعف، وعشش فيه الوهن والذل.

أصبحت الحقائق صولجانًا بيد المسيطر الغالب، أو الكبير الحاكم، فيحكي ما يشاء وما يريد، فقوله حِكمَة وكلامه عبرة، أصبح معيار الأشياء أقوامًا أو أفراد حتى ولو كانوا ضُلالًا يعيثون في الأرض فسادًا، وينشرون الفوضى بل حتى لو عجمت ألسنتهم، فما عرفوا كيف يخاطبوا بني جلدتهم بلسان فصيح مبين، عيت عقولهم حتى لكأنك تنسبها إلى الشذوذ والنكران، ثم همَّ بعد لا قيمة لهم إذا نصب ميزان العلم وتفاضل الناس . في مثل هذا تنتحر الحقائق في جو مشحون بالخبث والمكر والخداع، فمعالمه طمس البصائر، وانتكاس الفطر، وضياع القيم، وإحياء الشرور والفتن. لينشأ في موازاتها جو من الإلهاء والخداع والتخدير السمعي والبصري، ثم إعلاء هذه النغمة لتطغى، فتخمد روح التجديد والفكر ويسكن وطيس العفة والفضيلة، وتبرد ثورة الشجاعة والكرم ثم ما تهدأ حتى تُشجع نفس الرغبة في طريق الرغبة والشهوة واللا قيد، فتزل إلى مغاوي الشياطين، وبراثن الضلال ثم حين لا تغدو الحقائق غير

وجهـات نظر مجردة، والمسلمات مجرد أراء مفردة، والمعالم الثابتة الراسخة نوعًا من الفكر القابل للتغيير والمحو، حينما لا يكون أساسًا يعتمد عليه، غير الزوائل والمتغيرات والماديـات أشخاصًا وأشياءً فقط، حينما يعلو على الموقف بأكمله غمامات من التزييف والتزوير والخداع والغش، مجمَلة في أقوال براقة محلاة.

حينما يشكل المال الفكر، ويصيغ القرار والرأي، ويحدد النمط ويغير العقل، حينما يعلو فوق كل قيمة وجوهر، فيصبح هو القيمة الأولى والمعدن الأساسي، والجوهر الفرد الـذي يقاس كل شيء بقيمته، فيصبح تابعًا له فيقاسـ الإنسان عليه، وتقاس الأخلاق عليـه، ناهيك عن وقته ومجهـوده أصلًا. فالحياة كلها كقيمة من الوجود تعنو صاغرة، حتـى تتبعـه وتكون في فلك إرادته، وحيز أفراده المالكين لـه، وكأنه أعطى لكل شيء في الوجـود قيمة، فأوجد للإنسان قيمة ولحاجاته قيمـة، فكان هو مصدر التقييم، فجعل الإنسان آلة بشرية تتحرك لتعمل، وتنتج لأجل الحصول عليه، وهل للآلة وظيفة إلا العمل!

حينما تطغى على الحياة نبرات متعددة، كلها متطاحنة فيما بينها، فلا يتوصل من الأولى إلا إلى الثانيـة، ولا مـن الثانية إلا لما تليهـا في دائرة مغلقة الأحكام، لا تنتهي إلا لتبدأ ناسية أو متناسية، لما به صلاحها وبه اعتدال كفتي ميزانها، حينما يدور كل شيء في فلـك الرغبة والإرادة بعيدًا عن منطق الصـواب والخطأ، فتصبح الحرية مصبوبة في مفهـوم واحد لا يتعداه، بينما صاحبها يرتـع في مراثن العبودية من مفلق رأسه إلى أخمصـ قدميـه، فيطلب الحرية لا للحريـة، وإنما لاستحلال رغبـة نفسية في باطنه، ولعمـل شيء أخفـاه شعوره، فحبسه في صدره، فأخذ يتمتم بالكلمة ناطقًا بها على غير واقعهـا. حينمـا تصبح القيم تجسيدًا للرغبـة والمصلحة والمنفعيـة، فيصبح كل شيء عرضـ وطلب، كأن كل شيء قابل للمساومة والبيـع، فكل شيء عروض تجارة، وأدوات للربح والزيادة حينما تتشكل القيمة بيد الرغبة، والحقيقة بيد المصلحة، والصواب بيد المنفعيـة، حينما تعلو تلك النغمات مشكلة النشيد الأوحـد، الذي يطالب الكل بترديده

ليـلًا ونهارًا، واللحن الذي لا يقبل سواه حينما تكسب القيمة ما يضادها، فتحل محلها فتصيـغ الصواب بعكسه والحق بمغايره، فينقلب كل شـيء على عقبه. فحينها يصبح الوهم سيد الموقف. والأهواء هي محركته، والرغبة هي غايته.

ثـم إن هذا الوهم ليس ناشئ حادثـة أو موقف عابر، كأنه خلاء من العلم في حالة من حالات النفس أو الحياة بوجه عام، أو جهلًا بشيء من تصاريفها أو أقدارها، لا أنه حالة أكبر من ذلك بكثير، فهو نتاج حياة بأكملها، أو لعلك تقول ولست مبالغًا في شيء أنهـا تراث متراكم من أحمـال أجيال سابقة، رسخت فيها تلـك الأشياء، وأدمجت في عقيدتها حتى صارت جزءًا لا ينفك عن بعضه، فهو ليس نتاج مسألة بسيطة لصواب أو خطأ فقط، بل الأمر يتعدى ذلك إلى اتِّباع نمط في الحياة ومنهجية في التفكير بطريقة معينة، بحيث تتحاشى كل ما لا تريد أو ترغب، أو كل ما لا يتماشى مع واقع ذاتها، غير أنهـا لا ترفضـه مثلًا مبدية علـة أو غير معللة، ثم تسلم بأنهـا غايرت الحق فتبقى كل شيء على ما هو عليه، بل تحرف في الحقائق وتزور فيها وتسلبها مضمونها، فتغير وجه كل شـيء، أمَّا من باطنه، وهو مضمونه، أو ظاهره وهو شكله الخارجي، فيصبح الحق شيئًا آخر ما عرفه النـاس ولا تعاملوا به، فيتحايل على الأمور حتى يثبت منها عكس ما تدل عليه، فيخرج من النصوص بما لا تحتمله، ويورد الشواهد بأوجه تعجز عن التقبل، ويخـرج من الاستـدلالات بفظائع لا منطقية، ثم يرقعها واحـدة تلو الأخرى ثم يجعلها الدليـل الصحيح والحق المبرهن عليـه والشاهد العقلي الصادق، وإن كان فيه رد عليه وعلى من يسلك نهجه ويتبع طريقه، ولكن يأخذه الغرُ فيتَّبعه، ثم يعمم فينتشر، فيوافق رغبة في قلوب النـاس فيتبعونه، فيصير العرف السائد في تلك المرحلة، وماهو بالعرف، وإنمـا التقليـد الأعمى، فينتشر به مـن الوهم على أجيال لا تصحـو إلا عليه، فما رأت غيره، ولا رضعت إلا من لبانه، ولاقويت إلا بالتغذية عليه. وهكذا يصبح الوهم ظاهرة كبرى وطامة عظمى.

إن الوهـم ليس مبنيًا على الجهل فحسب، بل إنه يتجـاوز ذلك إلى أخطر مراحله وهـو التقليد الأعمى، فلـه من السيئات ما تسطـر فيه الصحف وتنشـر لأجله الكتب، ويكفيـك مـن سوءته، ما فيه من رد الحق واتِّباع الباطل وتزويـر الدلائل واتِّباع الهوى، الشـيء الكثير والأكبر منه وهم أن تظن أنك علـى الحق، وأنك متبع للصواب، وأن كل دفاعـك لا مردود له إلا في خدمة الحقيقة ونفع البشريـة، وأنت أبعد الناس عن ذلك، كأنك في عالم موازٍ للحقيقة، ولكنه مناقض لها أشدّ المناقضة، ومعادٍ لها أشدّ العداء، تتخـذ في هذا العالم نجومًا تجعلها نبراسًا لرؤيتـك، وهداية لك وقت قوتك وضعفك، ترشدك وقت وهنك، وتدلك عند حيرتك، فتقوى عليها وبها.

وقد يلبسك داعي الوهم حينما يباغتك الضعف والوهن، ويشتد بك الألم واليأس، فتأتـي الأمور بعاطفة خالصـة وتحاول الحلول بأمل كاذب وظن مهـترئ، حينما ينشأ بداخلـك الرغبة في الخلاص من الأمـر أو النجاح في الشيء فتقويها العاطفة ويؤيدها الهـوى، فيسجن العقل والفكر بتهمة إزعاج القلب ورغباته وسلطاته، فيبني لك صرحًا في الهـواء، أو يشـق لك نهرًا في السماء إرضاءً لك وتنفيذًا لاشتهائك. تتخيل في الأمور غير ما تحمل، وتأمل في الأشياء غير ما تثمر، تبتغي الماء في غير محله، تحاول الوصول وأنـت في سكـون وزر، تبتغي وصولًا، وكيف يكون؟! أمل باطل وخيال بعيد . تجتلب لأجل نفسـك مـن الصفـات والأمنيات والأحـلام الشيء الكثـير، وتبعد كذلـك عنك مثلها مـن الأحـوال والتصرفات، فهي بـين تقريب وإبعاد وحـب وكره ورغبة ورهبـة، فتأتي تصرفاتهـا تابعة لهذه الصفات مؤيدة للبعض، جاحدة للآخر، والإنسان حال الضعف قد يعتقد فيما يكفر به حال شدته وبأسه، وقد يأتي ما يغلظ به الإيمان حلفًا بعدم لمسه والاقتراب منه، وهو في هذه الحالة كأنه شخص آخر يقبل أي شيء على عاهنه بلا فكر أو نظـر، فيقبل فقط بالعاطفة والأمل والتمني، فقد يوافق الكاذب ويصدق الخائن، لا لأنه يريد أن يصدقه أو يوافقه، بل لأن الحالة التي هو ناشئ فيها تورثه نوعًا من الإنكار لكل ما سبق، والإيمان بأي شيء قد يظن فيه خلاصه اللحظي أو هدوءه المرحلي .

وهكذا، تجد بداية وجوده عند حدوث اضطراب مرحلي أو مستمر بنوع من الغضب أو الحـزن أو الانكسـار والوجـع أو الغربة بأنواعهـا، قد توجد لدى المـرء حالة مغايرة لتفكـيره القويم المعتدل، وتدخله في دوامة التجاوب مـع الحدث القادم، لينفعل له بكل أنـواع المؤثـرات، وليستجيب لما دعوا إليه مـن أعراض ظاهـرة أو باطنة، فيحدث فيه نوعًـا مـن الخلل، ليس لعدم معرفـة وفهم، بل ليلائم ما صعقه مـن تغيير، وما فاجعه من شعور.

فقضية الوهـم ناشئة من اعتقاد وجود أدلة وشواهد تعضد الرأي وتدعمه وتصب في تقويته. من اجتماع أكثر من دليل وشاهد يأخذ بيده ليأتي به من العدم إلى الوجود، ليثبـت به ما تسـول له نفسه، وما يراوده به شيطانه، فيسـير كأنه على نور إلى صراط مستقيـم، لا اعوجاج فيه ولا خلل، ثم يدعي أن من عاداه إنما هو قصير النظر ضعيف الفكر واهي الحجة والحق، ثم لا يكون لهذه القضية انعقاد إلا في مخيلته، ولا قوام لها إلا بذات نفسه، فهي والواقع ضدان لا يجتمعان ومحالان لا يتصالحان، كما قال أحدهم:

إثبات ضدين معًا في حال		أقبح ما يأتي من المحال

وقـد يكـون ملتبسًا لفـرد من النـاسـ، فيمضي معه تبعًـا لظروفه وتجاربـه وبيئته وطريقة فكره، وكيفية تخليصه للأمور، فيكون أمرًا فرديًا لشخص بعينه، يحاول شيئًا مـا لا يراه إلا هو ولا يكاد يشعر به أحدًا سواه، فيرى النـاظر إليه أنه سعى لوهم وحاول محـالًا. فيشبه بالظمآن الذي يظن في السراب ملجأ وماء، وما هو إلا بناء نفسه وفكره جسَّـده في هيئة رغبته وحاجته، ولهذا الحال طرفـان. الأول:ـ وهو الرائي نفسه، الذي يدعـي صواب ما ذهب إليه، وسلامة ما به وهذا لا يخلو من أمرين، أحدهما: أن يكون هـذا ممـا التبس عليه فكره، ودخـل في غياهب من الظن والعبث، وطـول الأمل الضار المهلك، فألقاه هذا الأمل في مفاوز لا خروج له منها، لأنه لا يكاد يلتمس لنفسه طريقًا، أو بابًا يخرج منه، أو هاديًا يرشده وأما الآخر، فهو قد ارتقى بعمله عمن جاوزه، وخلا

بنفسه عمن ناظره، فأعطى بطول النظر، وإدمان المعرفة شيء لا يصل إليه غيره ولا يحيط به علمًا إلا من خاض مثل تجربته، أو جمع خيوط معرفة فربط بينها لتعطي تلك الهيئة المتسقة من العلم أو الفن أو غيرهما، وقد يكون هذا كما يقولون "سابق عصره و بيئته " وهو الذي يأتي بجديد من جمع، وتخليط لما سبق ليقرنه بما وصل إليه عصره، ثم يزيدها بجديد فكره، وخاصة نفسه ليخرج في ثوب نظرية علمية جديدة أو اختراع علمي مذهل، وهذا النوع الثاني ليس على درجة واحدة من العلو في كل شيء، بل هو متفاوت، فأعلاها العبقري الألمعي الفذّ، وأقلها العارف الفاهم الذي عنده نوع من الإدراك بدرجة جيدة، وهذه قصة أخرى لا مجال لها الآن.

الثاني:- وهو الناظر إليه، وهو من يقيس من أمامه بقدرته وملكاته وحدود معرفته وماتلقاه من العلوم والآداب مما أثر فيه، وما ألقت به البيئة عليه من الظلال والأشكال، وما نمي فيه من الغرائز والأماني وغيره، مما يسهم في فكره ونظره الذي يساعده في تكوين تلك الرؤية، لتكون إمَّا سطحية ضحلة لا أساس إلا الظاهر، أو عميقة وعرة داخلة إلى صلب الموضوع المراد، محللة لجميع عناصرها، فاهمة لما قد يطرأ عليها أو بين بين وهو الذي يتوسط في الأمر، فلا يصل فيه لدرجة الإحكام والتمكن، وكذلك ليس صاحب رأى مريض وفكر فاسد، وتنقسم الناس حول كل درجة انقسامات متعددة من أعلاها إلى أقلها في المنزلة الواحدة، وهذه النظرة أي الثانية والثالثة داخلة في حيز التنبؤ والتكهن، لا في حدود اليقين والاعتقاد، فلا ينبني عليها حكم جازم أو تقييم معتمد، لأن اليقين لا يقوم بدليل ظن مبني على حدس داخلي مغزي بنوع من العاطفة والشعور، حاملًا لرغبة الشخص في الخير أو الشر على السواء، أمَّا القاطع في الأمر هو الدليل القطعي الثابت الدلالة، الذي تدعمه الأدلة الصحيحة والبراهين القويمة المستند على الثوابت والأصول.

ثم إنه قد يكون ملتبسًا بحالة أخرى، وهي حالة جماعية توجد لدى عدد من

الأفـراد متشابهـين في كثير من الأشيـاء، أو لعلك تقول إن ما جمعهـم في هذه البوتقة هـو ذاك الفكر، وهـذا النوع من الشعور فتعاهدوا عهدًا معنويًّـا مجازيًّا على الاجتماع حولـه، وضـرب الحصار حـول جنباته، فاتَّفقوا مـن غير اتفاق مسبـق، وتعاهدوا من غـير لقـاء حسي، وإنمـا هو سريان هـذا المعنـى في نفوسهم جميعًـا، وتهيجيه لمناطق الحس لديهم، فهبـوا منادين بنفس المبدأ، شارعين في إظهار هذه الفكرة، سواء كانوا مجتمعـين أو متفرقـين، فالجامع لهم في هذه الدائرة إنما هـو اشتراك الفكرة وعموم النظرة واتحاد الرؤية، بغض النظر عما إذا كان هذا صحيحًا في نسبة مطابقته للواقع أو إغفـال الواقـع لـه. وهذا لا يمكن أن يعـم الناس كلهم، لأنهم جميعًـا منقسمين إلى فـرق شتى وأحزاب متعددة، فالأمر دائر على أن يكون فريق منهم وطائفة من غيرهم وهكـذا، وهـم الذين يستعان بهم مثـلاً في تحقيق أسباب الانتصـار أو إلحاق الهزيمة أو تفريـج الكـروب، أو ظهـور حالات من التقـدم العلمي والثقافي إلى آخـره، أو أخرى مـن الجمود والتخلف، ويكون مجموع هذه الجماعات في إجمالها إمَّا عصر نور وثقافة وفكـر وطمأنينة، وإمّا عصر تخلف واضطراب وقلاقـل وفوضى. وهكذا فهم دائمًا في كل مجتمـع وبيئة يتشاركون صفات قد يختلف الناظر عليها، بين من يرميهم بالتكلف، والبعـد عن الصواب وجادة الحق، وبين اتهام بالجنون والطيش والحمق، وبين سخرية البعضـ الآخر، وتعليق أمراضهـم الداخلية عليهم، وبين آخرين يـرون فيهم شيئًا من الأمـل، وبارقة ضياء ونـور، فهم قد يكونـوا عنصر ثبات واستقـرار ونماء وخير، وقد يكونوا سببًا في ازدياد الشرور وتحريك القلاقل، واشتعال الفتن وهكذا.

والمقصد من هذا كله، أنها قد تظهر على هيئة فردية كنوع من التفكير المنفصل أو الشعور الخاص، وكذلك قد تظهر على هيئة جماعية كنوع من اتحاد الفكر واتساق الرؤى.

ومـن الشائع لدى بعض الناس إطلاق لفظ "الوهم" علـى أي شيء لا أساس له أو دليـل عليه، غير أن استعمالهم له قاصر على ما يخالـف آرائهم أو أفكارهم ونظرتهم

للأمـور، فيوظفـون كلمة "الوهم" لا بما تـدل عليه من معنى ظاهر، بـل بما تخبره به نفوسهـم وتمليـه عليه ضمائرهم، وهـذا شائع في أمور كثيرة، وهـو توظيف المعرفة أو العلـم لمصلحـة الشخص ولخدمة أغراضـه، وهو دفاع عما يرى هـو بغض النظر عما إذا كان هـذا الذي يـراه صحيحًا أو خاطئًا، مستند فيه على هـوى شخصي أم مستند علمـي. إنما الأمر هنا إعلاء ذاته وتضخيم نفسه، وأن يشعر بأنه هو الذي يصيب فلا يخطئ، ويقـول فلا يراجع. أو يكون ممن يطلق الألفاظ ارتجالًا وجُزافًا بغير تمحيص ولا فحـص، بل يطلق سهام غضبه في اللفظة الأولى، ويترك العنان لنفسه أن تقذع بما شاءت من غير محاولة لتهدئة أو انتظار لذلك الغضب حتى يهدأ أو يزول، راحة للقلب بـل يقذف بالألقاب والصفات هنا وهناك علـى حسب ما يطرأ أمامه، وهو هنا مدفوع إمَّـا بالغضب والسخط والألم، وإما بالسرعـة وعدم التروية في الأمور والعجلة بالشيء مـن غير أن ينمو في طوره الطبيعي، فيخرج مشوهًا لم تكتمل أعضائه وأجزائه، وهكذا تفعل العجلة بأربابها.

وحتـي لا يطيل بنا المقام عن غرض المقدمة، فهذا الكتاب ليس كتابًا علميًا يعرض الـرؤى العلميـة، والنظريات الحديثـة ويناقشها فيدعمهـا أو ينقضهـا بالأدلة، وليس كذلـك كتابًا بالمفهوم التقليـدي، وإنما هو نوع من المحـاورة والمسامرة غير أنها ليست مناظـرة الإنسان لنظيره من بنـي آدم، فهي ليست ثنائية الجانب، ولا حتى حوار ذاتي مكبـوت مندفـع في ثنايا الكتـب فتكون أحاديـة الجانب، فـلا تنقل إلا الـرأي الواحد والنظرة الذاتية للموضوع الذي تتعرض له، وإنما هي محاورة نفس وسجال عقل ورأي قلـب ونقاش فكر وخـبرة ذات، وآثار للتجربة، وما وصل إليه العقـل من إمداد رأى في قضية من القضايا، وإيصال الباطن بالظاهر، والغامض بالواضح في هيئة من الكلام، وضرب من القول.

فأطرافهـا النفـس والعقـل والقلـب والبدن، فهي متعـددة الأطـراف، وهؤلاء هم

المحاور للقضايا كلٌ يبين وجهة نظره، ويدافع عن رأيه ويدلوا بدلوه ويقص حجته، وأنا في كل هذا أقص أخبارهم وأحكي مقالتهم، بيد أني لا أسلم لقول أحدًا منهم صوابًا وصدقًا أو باطلًا وزورًا إلا أنني كثيرًا ما أخالف ذلك، فأثبت حجتي وأبين مقصدي، فأنا أحيانًا خارج عن هذه النسبة، لا أقص حكايتي ولا أخبر قولي، ولا أثبت مذهبي، وإنما أنا من وراء ستار غليظ، لا يشف ما وراءه، ولا يبين عما خلفه، أرى الكلام فأثبته، وأحكي القول ولي فيه نظر ورأي، غير أني أحيانًا لا أتعرض له بفحص أو تمحيص لضيق وقت أو خشية إطالة.

ولكن عملي في هذا المناظرة المتعددة الأطراف، أن أعمد إلى نقل الرأي كما هو، فلا أحشد له أقوال الخلق، وأجمع أحوال الناس جميعها كل بعينه وحالته، فهذا يطول ولا فائدة عظيمة الشأن ترجى منه، فالفكرة الجامعة والقول الصحيح لا يستشهد لهما بالواقع أو الوقائع، بل هما اللذان يشهدان بالصحة، ويعطيان دليل البراءة والحكيم الناظر هو الذي يميز برءه من خبثه، وصحته من ضعفه ثم ما حاجتي إلى الأقوال أنثرها من قول فلان وفلان، حتى أملأ بها بياض القرطاس، وأسود بهما ظاهره حتى يصبح الكلام ما هو إلا نقل محض، أمَّا بإضافته من غير اقتطاع من أصله الأول، ليتاخم السطور ويتراص بينها، والأمر في هذا دائر على الإكثار من النقل حتى يصير الكلام حاشية للسابقين، وليس في هذا مذمة أو انتقاص. نعوذ بالله من الجحود والنكران - وإنما يبذل صاحبه جهدًا مشكورًا وعملًا طيبًا، ثم هو يمدح في بعض الأحايين في إيقاف، وتبين النسبة والغرض من الكتاب والتأليف له، غير أن هذا لن نكثر منه في هذه الرحلة وتلك السفرة، وإنما لكل قول حكاية، ولكل حكاية سبب أولي ومغزى مستنتج، فأنا أقطع جميع الحكايات لأصل المغزى مباشرة من غير اعتماد على تصحيح قول القائل أو تضعيفه، أو دراسة نسبة القول إليه، وإني سأذكر الشواهد من الأبيات الشعرية لمناسبة الكلام أو لزيادة إيضاح وتقريب قول.

فأقـوال البشريـة جميعًـا وأحاديثهم إنما ترجـع إلى أفـكار ورؤى وتطلعات، فهي متشابهة على تنوعها وغزارتها، متقاربة على تباعد أماكن قائليها جغرافيًا، واختلافهم في اللغة والثقافة والعقيدة والفكر، فما جمعهم الشخص القائل، وإنما الفكرة الرئيسة والنظـرة العميقة، فمن فهمها وعلم مداخلها ومخارجهـا ومعوقاتها وأسباب الوصول إليهـا؛ حاز أغلب الرأي من غير أن يعدد أفراد قائليه، غير أن ذكر الكلام ونسبته إلى أصحابـه وتكثير القول به، والأخذ ممن سبـق والتقليد له لا يضر، وليست فيه منقصة أو عيـب بشـروط خاصة، بل فيه من المحمدة الشيء الكثير بل قد تكون الضرورة ملحة والحاجة ماسة والخطب مستلزم لهذا، طلبًا للسلامة ولعدم اندثار ما مضى من أقوال الأوائـل، وتقييـدًا للحكمة مـن أفواه ناطقيها بممارسـة إياها في تـوارث نقلها مسندة لأصحابهـا، إظهارًا لفضلهم وتعلية لشأنهم، ثم برًا بهم وإلحاقًا للخير لهم، بنسبة ما نطقوا به إليهم بل قد توجب قضية من القضايا التوسع في ذكر أقوال القوم وأخبارهم وأحداثهم، للاستشهاد بهم فيما لا يمكن القبول إلا بهم وبالإخبار عنهم، لأنهم في هذه المسألـة أساس الباب وأهل الصناعة، فهـم أهل السند المنقول الكلام عنهم والموصول بهـم والمعلق عليهم. والكلام في هذا يطول، غير أن الأمر دائر على الحاجة والمصلحة، وسبب التأليف وغاية الكتابة والنقل.

وقـد رجعت في هذه المناظرة إلى بعض كتب يسيرة، منها البيان والتبين للجاحظ، المقدمـة لابن خلدون، المستطرف للأبشيهي. وعلقت عليهـا بشيء من الأبيات بما راق لي مـن شعر أبي الطيب، وما سجلته لغيره وهم قلـة استوقفتني عبارتهم فاستودعتها صـدري قبـل أن أسطرها ورقـي وعمدتي قبل هذا كلـه القرآن الكـريم، ألتمس بعض رحيقـه، آخذًا من ينبوعـه ومستسقي الحكمة مـن آياته مأصلًا به الـكلام محددًا به بعض المعنى، راجيًا منه البركة ومن الله القبول.

وليس لهذا النثر من وحدة موضوع ظاهرة، فالمتصفح له يجد شتات قضايا جمعت

طياتهـا، فهـو مستوعـب ودامج لأشيـاء متنوعة، ومواضيـع شتى، فهي وحـدة معنوية مخفيـة في ثنايا الكلم، غير أني لم أستوعبها كلها أو أقيدها جميعًا، إلا أن ما حوى بين دفتيـه شيئًا متعلق بقضايـا الوهم في الفكر والنظر والاعتقاد والـرؤي في أشياء كثيرة لا أساسـ لها صحيح يعتمد عليه، أو هي مبنية علـى أحلام نفسية وخيالات عارضة أو حقائـق كاذبة، فتوافق القضية الأولى بالإشعار بشيء مـن المبالغة والبعد عن الصحة والاقتراب من الوهم، ولو من بعيد فلا ينعقد بذلك صدقها، وتكون إمَّا حالة من الظن أو الشك أو الوهم، وهو أقرب من الغشاوة على العين، تحجب النظر، والوقر على الآذان يمنع السمع.

وأخـيرًا، إن قضايـا الوهم ومتعلقاتـه أعصى من أن تجمع، ولكـن هذا نزر يسير وغيضـ من فيض . وهكذا، كلما تعلم الإنسان ونظر وقرأ وجرب اتَّسعت دائرة خبرته، وافتتـح له مـن أفق الغيب مالم يكـن يعلم، ولقارئهـا أن يغفر ما فيها مـن الزلل، وأن يصحـح ما فيها من النقص والخلل، والله مـن وراء القصد، نسأله القبول ونرجو منه العفو، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكما قال الشاطبي -رحمه الله تعالى-

وظن به خيرًا وسامح نسيجه ... بالإغضاء والحسنى وإن كان هلهلا

وسلم لأحد الحسنيين إصابة ... والأخرى اجتهادًا رام صوبا فأمحلا

وإن كان خرق فأدركه بفضلة ... من الحلم وليصلحه من جاد مقولا

القاهرة ـ حلوان

الثلاثاء 1 جمادى الآخرة 1441هـ

25 فبراير 2020

شيئًا من الموت

تُسلي بما مضى من الأحداث التي مرت عليها، فهي تجد فيها متعة منشودة و رغبة مفقودة، وأنس مصطنع تصيغه من تلقاء ذاتها، فتحذف وتضع وتنسخ وتكرر، دعني أقول لك: أيها الغريب إنها تعيد تدوير الأمور، وكأني بها والحدث ينشأ من مبدأه، ويعاد من أوله، ويصنع حالة أخرى أو إن شئت قلت حالات متعددة، كل حالة منها تلائم حال الفرد وكل تلك العملية في ثوب هذه النفس المستأنسة بهذا الغرض، غير أنها لا تمل من ترديده فتعيد نطقه مرة بعد مرة، وتقلبه في القلب حالة تلو أخرى، والعقل بين هذا وهذا ليس له إلا الانصياع والترديد. إذا أنه يصيبه كذلك من حلاوة هذا الأمر فيتلهى به من شقاء آخر فيأخذه ويلتبس به هاربًا أو راغبًا أو طالبًا، فيُوجد لهذا الأمر طعومًا متنوعة، دائرة بين الحلاوة والاشتهاء، فلا سبيل فيها إلى المقت والبغض، وكذلك ألوانًا شتى يصيغها من حالته هو، وروائح عبقة نفًاذة، ثم يأخذها ليضعها في قالب تشكيل، يصوغه بنفسه ليجعلها جليسه الذي يرافقه، ونديمه الذي لا يخالفه، ثم يلقي عليها خيالاته وآماله وأحلامه، ثم ينفخ فيه نفثة من صدره ليخاطبه ويحادثه فتنشأ حالة غريبة من الحديث والكلام بل والاشتياق!

اشتياق قاتل مريب، وكأنه يقتل، ألا ياليته قتل! ياليته نفًذ وعده وصدق في حديثه وأنجز مقولته، وكيف وهو المخادع الذي لا حقيقة لوجده، إلا حقيقة متلبسة من الجوهر الأول الذي وضع حقيقة خيالاته وأحلامه عليه. يتحدث بما لا يفهم، ويعرف بما لا يعرف، وينطق بما لا يحسن، فحًمل القلب فوق العبء أعباءً أخرى، ثم تركه وضيعه في غابات مطعمة بالخوف، مدججة بالريبة والشك، محفوفة بالألم، حتى أصبح الموت هناك من أغلى الأماني المطلوبة والأحلام المرغوبة، فنتاج الأمر هناك وحاصله إنما هو الخوف والرهبة والقلق والاضطراب والترقب، وكفى بواحدة منها لقاحًا للموت،

ومصلًا للإماتة كأنها جمعت كأسا للمنايا؛ فصبت فيه جميع طعوم الموت والإهانة، لتتجرعه النفس راضية كارهة، مضطرة موافقة. ثم أصبح هذا الطعم ملازمًا، حتى أفسد جميع الطعوم الأخرى الصالحة، فصارت كلها مشوبة منه، وإن بلغت الغاية في الاستطابة والتلذذ به. فلو عرفت اللغة طعمًا توصف به الأشياء من المرارة يجاوز مرارة العلقم بل ما هو أشد لأثبته، غير أنه طعم يعرف بالمعاينة والتجربة، فلا يؤتي الشعور به بكتابة كلمة أو اثنتين إلا أنه نوع من التقريب فحسب ثم هل الشعور بالألم أو نقيضه تبلغه الكلمات وتصل إليه البلاغة والبيان بإيراد حقيقة الشعور. بل إن المرء قد يفني عمره وهو يتكلم عن شيء ماذاقه ولا جربه غير أنه يكتب عنها ويشعر وينثر، وهو لا يدري حقيقة الشعور، فهو لم يخالط قلبه ولم يغمر آثاره صفحة وجهه، فالكلام عنده كالأصم الأعجم يبين معنى ولا يبين شعورًا أو إحساسًا، فالمتألم بألم ما قد يحدثك ويخبرك بألمه، غير أنك لا تستطيع فهم الألم من خلال تلك الكلمة، فتظل حبيسة في جدرانها الضيقة، إمَّا أن تتفاعل معها بقلبك أو تشاركها بوجدانك ونفسك، فتنكسر لها ذاتك، وتحدث في نفسك مزيجًا من مشاعر مختلطة. ساعتها ستشعر الفرق بين الأولى والثانية، وبين إطلاق اللفظ مجردًا وبين العيش خلال أروقته ومعانيه.

إنني مللتك – أيها الغريب – وضِقت بك ذرعًا، حتى أنني لا أريد أن أفهم عنك أو منك، بل قل إن السبل تقطعت بنا عن الفهم والتواصل والمحاورة. لعلك الآن تستهجن ذلك الحديث أو ترفضه، بل تشعر بصعوبة وقعه على أذنك ومعالجة نفسك له، حالة واحدة مصاحبة لحالات متعددة في نفس مستأنسة بهذا الغرض! تعيش بحالة من حالات النفس تصارعها نزعات من مزيج مكون من مخاليط مختلفة من جميع المشاعر!

دعني نمشي سريعًا إلى مشهد آخر، هل رأيت الموت وشاهدته؟ هل قُصت قصته، فعلمت حديثه وخبرت خبره؟ أم أنك فقط علمته كحقيقة ثابتة لم يقع خاطرها لقلبك أو تحاورها نفسك، فقلت إن الموت حادث للكائنات الحية، فهي تمضي في أطوار متعددة

من الولادة والطفولة ثم الرجولة والكهولة منتهيًا بالموت، أم ظننت أن الموت يأخذ الطفل الصغير ويترك الشيخ الكبير، ينازع سكراته الشاب الفتي، وينعم بزهرة الحياة الدنيا معمرًا، بلغ من الكبر عتيًا . أم أنك حسبت أن الموت يأتي طلبًا، فما أن يتمنى المرء الفناء راجيًا مغادرة الدنيا فيلقي بجسده من علو جبل شاهق، أو يقذف بنفسه في خضم بحر هائج تلاطمه الأمواج نازعة مادة حياته، أو يقطع أودجه وأوصاله بمدية قاطعة، فيتخلص من سقم الحياة، وشقاء العيش أم أنك خلت الموت يأتي جبرًا من ظالم يقتطع الأرواح من الأجساد قسرًا وعدوانًا، ويزهق الأنفس بطشًا وعتوا، فيهلك أنفس بريئة، ويقضي على حيوات بشرية، فينشر المجازر ويشيع القتل.

حقيقة واحدة بصور شتى متنوعة، غير أن الخطأ التي يهتدي بها والنبراس الذي يكشف به شيء من الحقيقة، هو أن الموت أجل مكتوب وعمر معدود وأمر محتوم وكتاب مؤجل، قد فرغ منه فيما سبق من الأزمنة والدور، بل إن الأمر فيه يسير وفق خطة عجيبة تامة الكتابة منتهية الأمر، كأن الأمر فيه فقط أن ينهي قراءة هذه الصفحات مشكلًا لها بأفعاله وأقواله، فنسبة أفعاله إلى الكتاب نسبة علم مطلق، وقدرة محكمة لخالق عليم، لا نسبة إجبارًا وقسر على الإتيان من العدم، فهو – أي الإنسان- الصائغ لها بما يقرره في نفسه، فينطق بها قولًا، أو يصيغها فعلًا فلديه مطلق الاختيار بين الحسن والقبيح، وله كذلك إلزام نفسه بالمصاعب أو استسهال الأمور، فالأمر بيده فهو كتاب تسطر فيه حركاته وتقلباته حتى يصبح كتابه هو، فتصح نسبة ما فيه إليه، ثم يمضي في قراءة كتابه بتصرفاته، والكتاب تنطوي صفحاته صفحة تلو أخرى حتى تفني ورقاته، وينتهي عمره.

أرى العيش كنزًا ناقصًا كل ليلة   وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخي وثنياه باليد

الموت يأتي من غير سبب أو مقدمات، إذا هو السبب والعلة، فلا تعليل له إلا

بالنهايـة إذا هــو المرادف لها، فلا يُعرف إلا بها، فهــو الفاجعة يبغت المرء في فترة من جبين الزمن، فلا يُعلمه بقدومه، ولا يخبره بوقت اجتماعه به، وإنما قد يحل عليه مبطأ فيقسم مراحل وصوله إليه ليكون هو آخر المراحل، ثم كذلك لا معرفة لهذا الآخر، فهو غيب مستتر وعلم محجوب .

ولكـن أهـل يختار المـوت ويصطفـى؟ إن النظـرة الأولى تجد وهانة هـذا السؤال وضعفـه، وهل الموت ذا قدرة وإرادة حتى يختـار هذا ويترك ذاك، ولو صح لمَ لمْ يبقى لنا أناس من غابر القرون الخالية، إنما الموت قضاء الله وقدره في جميع مخلوقاته، أن كتـب عليهم الفناء والموت ليقلبهم في أطوار الوجـود من دار لدار، ومن منزلة لأخرى، لذلك أنت حينما تقف أمام الموت، فأنت لا تواجه كائنا جبًارا لا يرحم، بل أنت تقف بين قضاء الله ومشيئته، فأحسن هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو –سبحانه- يختار من وصل لغاية حسنة ومآب جميل وعاقبة طيبة، سواء أكان كهلًا كبيرًا أو رجلًا شابا. فيقبضــه الله علــى أحسن أحواله، وأجمل حالاته، وأفضل ما وصـل إليه، أو على الأقل شيئًـا حسنًــا جميلًا، فيعجل له بذلـك حبًا وكرامة لأن ما ينتظره خـير وأفضل، لذلك كان من جميل الدعاء أن يقول الإنسان "اللهم اجعل خير عمري آخره" أو يكون لو آخر لــه في عمره حال أمــره إلى غير تلك الحال الأولى، فأخذ منحنــى آخر، وطريق مغاير معــوج، فالرحمة به والإحسان إليه أن ينتهي أثره في الدنيا وينقطع عمله فيها، ليواصل المسـير إلى باقي رحلتــه ومسيرته، وهو مختــوم له بالخير والصلاح آخـر لا يدري أن عجـل له خير أو آن آخر، فهــو في كلا الحالين إلى شر صرف ووعيد أكيد، وحالة تهوي به دركات تسفلها دركات، فلا تدري ما تقول في حاله أو تبين عنه بمقالة غير أنه عجل لــه نعيمه، وأعطي لــه فيه نصيبه ومقــداره، وأخذ فيه حقه بتمامه، بـل بما يزيد عنه أضعافًــا مضاعفة إلى ما لانهايــة، ولست أقول هذا عن رجم أو سخف وتظن، بل أقوله وقد أجريته على قلبي قبل أن ينطق به لساني، بل لما تخطه يدي.

وماحال الطفل الذي قتله الخضر بغريب عنك، وقد قال الله في شأنه ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَـوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خيرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾

فالله تعالى قبل أن يقبض عبده المؤمن يعسله بالأعمال الصالحات، ويوفقه لإتيان الخـيرات، ثـم يقبضه عليها وفي كلٍ، فهذا أجمعه بيـد الله تعالى، فما علم أحد لحظة موتـه، ولا أدرك كيفيـة وفاته، ولا علم سنين عمره. بل جعل تعـالى كل ذلك من الغيب المحجوب، الذي لا يطلع عليه بشر أو يدركه أحدًا إلا بإرادة منه وحده، فالأمر كله بيده.

المـوت حقيقة ليسـت بالغريبة، فكل يعلم أنـه يومًا راحل بلاشـك - إلى غير رجعة ولكنـه لا يتصـور ذلك حق التصور، أو قل إنه يدركـه إدراكًا ناقصًا غوش عليه بتفكير مكدر، ومادية طاغية، وحياة طاحنة، ومتطلبات لا تنتهي، فهو كأنه أزهق الشعور الأول بحقيقـة المـوت، وناسب بـدلًا منه أو بجواره شعـورًا آخر ينسيه تلـك الحقيقة، فما أن يطغى أحدهما على الآخر إلا ويغلبه، غير أنه ما ينتهي منه كليًّا، بل يبقى في قاع نفسه يظهـر كل أوبـة ينادي عليه منبهًا ومحـذرًا ومخوفًا، أو قد يصبح المـوت عنده مجردًا مـن معانيه المقصودة، فيكون لفظًا دال على الفراق فقط وانتهى الأمر، خلا من جميع معانيـه، إلا أضيقها فركنت إليه النفس وأعجبت به، لتناسب محلها الحالي في الدنيا، فتمتع به وكما قال القائل:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته، بادّكار الموت والهرم

فكيـف يطيب المقام ويستملح العيش ونظره إلى فنائـه وعينه على نهايته. غير أنه يرى الموت في وداع كل نفس حية، يراه في قبور متراصة وشواهد مبنية، وأنفس منازعة، غير أنه كما قال القائل

كـأن المـــوت لم يفجع بنفسٍ ... ولـــم يخطـر لمخلوق ببال

بـل إنـك إذا سَفِلْـت ونزلـت في حديثـك إلى الطفل الغافـل الذي بلغ حـد التميز

والفهـم، فقلت لـه مستدركًا أو سائلًا : ياصغيري، هل أنت مخلـد؟! أو هل ستعيش إلى نهايـة الدنيا؟! سيقـف حائرًا مترددًا لمباغتة بسؤال لم يطـرق مسامعه ولم يهز فكره، ولم يخـبره بـه أحد، فيقف قليلًا شـارًدا لتتحرك فطرته وتناديه سجيتـه لتهزه أن لا. فهـو يشعر بداخله أنه لابد من نهاية، فهي راسخة في قلبه مصبوغ عليها فؤاده، ولكنها لم تتشـكل معانيها بالوضوح الواجب، نعم هو لا يفهـم الموت، ولا يستطيع شرح تعريفه أو إيـراده بتوضيح، ولايدرك لكنه فهو لايـدرك إلا تلك الغريزة الملتهبة في أحشائه بأن الفناء لابد مدركه، والرحيل لاريب مختتم حياته.

أليس الموت -في حقيقته- هو الطبيعة الجلية البارزة للعين، مثل جبل أشم لا تزوغ الأبصار إلا إليه ولاتنشد إلا هو. ثم لو تأملت الحياة نفسها، لوجدتها تحوي الموت مئات بـل آلاف بل مليارات المرات من مـوت أصغر شيء في الكون، وهي الخلية وتجددها إلى مـوت الكائنات الحية، إلى موت الأجرام العظيمـة وفنائها، وكل ذلك في مسار طبيعي هُيئت عليه الحياة، وأصلحت به الخليقة . ومن عجيب الأقدار، أنك ترخي رأسك على وسادتـك، وتلقي بحمل نفسـك على سريرك راغبًا غير راهب. ثم ما الفرق بينك وبين مـن سلبت روحه في رقدة الموت، فلا عودة لـه، وبينك حال نومك، غير أنك مبقي على روحـك لا تفارقـك وبين ثالـث سقط مغشيًا عليـه لا ينطق ولا يتحـرك، فلا تدري هل مسـه ناموس الموت معجلًا بأخذ روحه، أم أنه فقد القدرة على النطق، ودخل حالة من اللاإدراك من فقدان الوعي، واختلال أحد وظائف الجسم أو تعطله.

انظر لحال هذا الميت الذي قام من رقاده، فصار حاله إلى غير ما كان عليه، فقد يمـوت معه شعور ليحيـا آخر، أو لعله يستيقظ من نومه ليصـارع شبحًا ألقى عليه بعد أن مـات ذلك الإحساس الأول فيه، ليخـرج صامتًا ساكتًا كالحجر الأبكم، ليغالب هذا الشعـور مرات عديدة ليملأ داخله ويغير نفسـه، فيصلب ظهره أو يلين، ليمتطي ظهره من قوارع الزمن وأرزاء الحياة، فيجد فيها نفسه مستميتة لا ريح للحياة فيها، ليفيض

فتـورًا وبرودًا على كل شيء وينكسر ظهره، فيخر صريعًـا مقتولًا لضعفه وقلة حيلته أو غيره، ليهب من نهضته إلى مقتبل أمل ورجاء سعادة قد انبسطت أساريره، وعلا وجهه تفاؤلًا واستبشارًا، وأخذ يردد ترانيم الحياة السعيدة في هدوء ورزانة.

هـل الموت مقصورًا على الأموات فقط؟ فهو ليسـ مقصورًا عليهم وحدهم، بل قد يعيش إنسانًا بنمـو جسده، وعمل أعضائه لوظائفها الحيوية غير أنه ميت، حياته ميتة بما تعنيه كلمة موت من معنى، فيذوق القلب من آلام الفراق والعذاب مصبوبًا عليه، أو الخذلان متجرعًا له ليذوقه مرة بعد مرة، ليموت بدل الموتة الواحدة موتات عديدة. أو يمـوت فلا تبقى فيه أثر حياة على الرحمة والشفقـة، فيقسوا قلبه حتى يتشقق ويموت وحـده، فيكون حاله في غلظة مجافيـة عن الطبع السوي، ومتنافـرة عن الفكر السليم فهـي كالحجـارة أو أشد قسوة، ثـم أن الله قد ضرب المثل بمن يذكـره وبمن غفل عنه بمثـل الحـي والميت والموت، هنا قصد به موت القلب من عدم إحيائه بمادة حياته، وهو الإيمـان واليقين، وهـذا موضوع آخر منفصـل، وقد يقصد بالموت تجربـة أنواع الآلام والأوجـاع التـي توجـب الموت، غـير أنه مبقـي عليه كما قـال تعالى "ويأتيـه الموت من كل مـكان وماهو بميـت" يشاهد الأهوال ويصـارع المصاعب التي تـؤدي إلى الموت ولا يمـوت، وقد يمـوت المرء، وهو في الخلق مذكور بالثنـاء والفضـل، معمرًا القلوب بالحب والاشتياق، والألسنة بالثناء والذكر، أو تمام نقيضه قد تموت الفكرة أو الرأي بانعدام أثرهـا أو فنـاء مضمونها، قد يأتي علـى المرء أوقاتًا يموت فيها الـكلام فيصبح ذكره تشويشًا وتعطيلًا ولغوًا ورفثًا، ويصبح الكلام حينئذٍ هو الصمت التام والسكون المطلق.

قد تموت أمة من الأمم، لتمضي بفنائها شواهدهم ولغاتهم وأحيائهم وأسمائهم، فيبتلعهـم الزمـن في ذاكرتـه فلا يبقى لهم شيئًـا، إلا دلالة خفية عنهـم، فيهلكوا بكل ماحملـوا إلى الدنيا، وأبدعوا وزينـوا وقالوا وكتبوا، لتخلوا ديارهـم لغيرهم، وليسكن أرضهـم قومًا بعدهم، قد يموت شعار بمختلـف علل، ليبقى في قلوب أنصاره ومؤيديه،

قـد يمـوت القلب بكلمة تجرحه فيظل يظل ينزف على إثرها حتى ينازع، بعد أن تحطم جدرانه وتصدع بنانه.

ثـم هل ذلك التراب الملقي على ظاهر الأرض، تـراب وفقط؟! ألا يحوي من رفات أمـوات خلو مـن غابر الزمان، وقديم الدهر عليها، كم فنـي على الأرض منذ خلقت؟! فكـم باشر وجه تربتها من بشـر لا يحصون، بل قل كل ما كان عليها ممن كان فيه من صفة الحياة ونمو الجسد، بتنوع أجناسهم وكثرت أصنافهم وفصائلهم، فلا تكاد تجد أحـدًا أو حيوانًـا بأنـواع أجناسه أو غيره ألقـى به خارج هذه الأرض، فـرد جسده إلى تراب آخر

صَـاحِ هَذِي قُبُورُنا تَمْلأ الرُّحْبَ فـأينَ القُبُـورُ مِنْ عَهدِ عادِ
خَفّفِ الوَطْءَ مـا أظُـنّ أديمَ الـ أرْضِ إلا مِنْ هَـذِهِ الأجْسادِ
وقَبيـحٌ بنَـا وإن قَـدُمَ العَهْدُ هَـوَانُ الآبَـاءِ والأجْـدادِ
سِرْ إن اسْتَطَعتَ في الهَوَاءِ رُوَيدًا لا اخْتِيـالًا عَلى رُفَاتِ العِبادِ
رُبّ لَحْـدٍ قَدْ صَـارَ لَحْدًا مرارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدادِ
وَدَفِيـنٍ عَلـى بَقـايـا دَفِيـنٍ في طَويـلِ الأزْمـانِ والآبادِ.

فتجد رائحة الموت قريبة في كل شيء، حتى في هذه الأجساد المتحركة ليلًا أو نهارًا، لتمضي قدمًا إلى نهايتها وفنائها، والعجيب في الأمر أن هذا التدافع والتناحر يكون إلى تلـك النهاية! فيتعجب من ذلك العاقل، الذي علم حقيقة حياته، وأيقن بانقضاء عمره وفناء جسده، فمشى بخطوات ثابتة راسخة، لا يلتفت في ذلك يمنة أو يسرة، فهو ماضٍ إلى مقصده وغايته، به من اليقين ما يعضد قوته ويشد من أزره. ثم يتعجب من القتال والصـراع إلى آخر ذلك، فتجده يقول في نفسه أظن صاحبه خلود الدهر وعيش الأبد! أم هو في غفلة لما بعد الموت.

بـل انظر إلى الإنســان أين كان؟ وكيف خلـق؟ أتى من الموت والفنــاء إلى الحياة، فطعـم وشرب ونمـا حتى استكمل، ثم ضعـف وخار فهلك وفارق وتـرك كأني بك وقد رأيـت المـوت الحقيقة الكـبرى، والطبيعـة القديمة، والقانـون الإلهي . بـل هي -عند التدقيـق- أوضـح من الحياة ذاتها، غير أن المرء ما رأى غير الحياة، وما طعم إلا فيها فاشتـد لصوقه وتعلقــه بها، والنفس إذا ذاقت تاقت وأغرمـت، وإذا أطعمت استلذَّت، ولم تكـد تصبر على النــزع والترك، وإذا عشقت أو أحبَّت لم تكد تنزع يدًا لفراق، وإذا باشـرت طيب أمر فرحت وطيرت به، حتى تبلغ به أُفق السحاب، ثم تركن إليه وتحدث عنه. فهي ما باشرت الموت الأول لأنها كانت في عدم، ولا الثاني لأنها في غفلة عنه، ولو أدركت بدايتها لعلمت نهايتها، ولو نظرت كيف خلقت لعلمت كيف تموت.

وفي النظائر في الكون والشواهد فيه، عبرة لمن تدبر، وفكرة لمن قرأ ثم نظر.

الحالة الجديدة القديمة

هـا نحن ذا في يوم جديد، أسفرت فيه الشمس عن حجابها، وأذنت بإعلام البشر بتكامل أشعتها وبغزوها البقاع، حتى ذلك الركن المنزوي في ناحية ضيقة، لا تكاد تبين بوضـوح، ثم أذنت الديكـة مُعْلِمَة البشر بانتهاء يوم وبزوغ فجـر آخر، بعد أن أسرعت الظلمـة بلملمت شِعارها ودثارها، لتندثر كاندثـار الجليد وذوبانه في حضرة الشمس، لتنصـرف تلك الغشاوة الليليـة، ولتتجلي الأشعة النهارية، لتزيل مـا صبغه الليل على الدنيـا من ثياب الحداد، التي دثر بهـا الكون، كأنها في حالة من العزاء لفقد الشمس، فبكاهـا ولبس لهـا الأسود. تعاقب النهار، وأتى بعد ليلـة غارقة في الظلام الدامس، لا تسمع فيها إلا الهدوء المطبق والصمت المهيب، إلا ما يقطعه من أناس خالفوا سنن الليل والنهـار، فجعلوا النهار لباسًا والليل معاشًا، وغير ما تسمعه من أصوات متناقلة يحمل صداهـا السكـون فيعلي منها، فتصبح مضخمة ظاهرة، فهي لمّـا انفردت في السكوت، ظنـت أن الدنيـا في حالة سماع لهـا، والكل في إنصات إليها، فأخـذت تزيد وتعلي جاء النهـار ليجتلب معه الحركة والعمل، معلنًـا النشاط والجد، لتنقلب حالة الصموت إلى ارتفـاع أصوات وصخب كلمـات من ضجيج الشوارع، وصـوت المصانع وحركة الحياة، لتقـوم الطيور مـن أوكارهـا وأعشاشها، منطلقـة في مسبح الجو، باحثـة عن غذائها والحيوانـات مـن حظائرها، ويهب الإنسان مـن مخبئ نومه وسريـر مضجعه، ينقلب العـالم إلى حالة أخرى من الجلبة والحركة، تلـك الحالة الديناميكية النشطة التي ما تلبـث أن تعود صائـرة إلى حالة سكونية، لتعيد الكرّة كل يوم حتى يفنى العالم، وينتهي عصر الإنسان البشري على الأرض.

تجد النظر إلى مثل هذا، واستجداء نظيره من كل مشابه، يوحي إليك بضروريات الحيـاة القائمـة، الحادثة كل يوم، غير أن بعضها متتابـع، والآخر مرحلي تجد أحدها

مثلًا، يظهر بوضوح بَيِّن في التدرج البديع الدقيق بين النهار وبياضه وجلاينه وشدته، وبين الليل وظلامه واسوداده وقتمته، أو التنوع المرحلي بين الفصول الأربعة ربيع مشرق، وصيف حار مشمس، وخريف معتدل رطب، وشتاء بارد قارس أو تحول المواد الأساسية بين حالاتها المعروفة من: الصلبة والسائلة والغازية، باختلاف العوامل الداخلة على كل واحد منها، وكميته ودرجته بل ككل شيء في دنيا الله تجده يمر بأطوار متعددة، تختلف فيها المدة الزمنية باختلاف بين هذا وذاك، أكان اختلافًا طبيعيًا أم كيميائيًا إلى آخره، بل إن التدرج العمري في حياة الكائنات الحية معلوم، من أصغر شيء مرورًا بالطفيليات الصغيرة، حتى تصل إلى ما عرف من أعتى الكائنات على الأرض؛ كالديناصورات التي عرفت في الأزمنة الفائتة.

والإنسان ليس معدومًا من ذلك، فهو متصف بأنه ذو حركة انتقالية، محتاج إلى النمو والمواصلة، ثم انظر إلى حركة الرياح، واتجاه المطر وكميته، ودوران الأرض عند محورها وطرفيها، وتجوال النجوم وحركتها. كل شيء يدفعك إلى رؤية هذه الحقيقة، بل هي أصلًا بديهية في العقول، معلومة بمجرد النظر حتى البسيط منه.

وهي طبيعة التغيير الحتمي في الوجود، وضرورة انتظام العوامل المتهيئة لذلك التغيير، من حيث اجتماعها زمنًا أو مكانًا، فهذا التغيير ليس يحدث اعتباطًا أو مصادفة في أي شيء. بل له قوانين ثابتة وعلامات واضحة، ثم أنه قد يكون أساسي في الشيء، فيحدث بانتظام ووقت محدود لا تتخلف عنه، وقد يكون عرضي في الشيء يحدث كل فترة مرة أو مرتين، فهو ليس دائم فيه أو أصلي، بل هو مؤقت بعارض معين متكرر أو طارئ، وقد يكون جوهريًا في الشيء، يحدث تبعًا لعوامل ذاتية متأصلة فيه بعد مرحلة محددة أو حادثة معينة، فالتغير سنة كونية وضرورة حياتية، إذ لا تستقيم

حيــاة المــرء إلا به، فهو يتقلب في أطوار عدة منــذ نشأته إلى يوم موته، بل كذلك في كل ناحيــة مــن حياته، فما يدوم عليــه سرور إلا ليخلفه حزن، وهكــذا فهو متقلب من هذه لتلك، منتقل من حال إلى ما سواها، لا يبقى على شيء واحد، بل تجده يتقلب في الأمر الواحــد مرات متعــددة، إذ كيف يمكن –أصلًا– بقاءه على حالــة واحدة طوال عمره، فهــذا يخالف منشأ وجوده، وفسيولوجية طبيعته، فكان لابد من ملاقاته لكل هذا، كان لابــد من معايشته للحلو والمر والفرح والحزن، بأن تسري عليه هذه الصفات البشرية، والمشاعــر الإنسانية بحلوها ومرها، فيذوق مــن طعم الحياة الحلو والحامض، والنافع والفاسد. وهكذا.

ولو أعملته بالنظر في تاريخ العالم منذ وجود البشرية أو دبوب الحياة على الأرض، فلو أخذتها من جانب الحكم والسيطرة، ما وجدت فصيلة واحدة أو إمبراطورية معينة حكمــت للأبــد، أو ملك استفرد بالعرش، فهو لا يعطيه أو يتركه لغــيره فكأنه استمله علــي سبيل التأبيد ، ولو نظرت كذلك إلى الــدول في نشأتها وقيامها، لوجدتها كالطفل تولــد صغيرة ضعيفة ثم تكثر وتقوى حتى تشتــد وتعلو، إلى أن تنهار وتضمحل مختفية في تاريــخ البلدان، وكذلك الكائنات الحية بأجناسها جميعًــا، تولد ضعيفة واهية، إلى أن يصلب عودها ويشتد قوامها، حتى ترد هَرِمة كاهلة، لتُفنَى بعد ذلك إلى الأبد، فلا تحاول الظهور ولا تقدر الرجوع.

هكــذا يمضي العالم. ما بــدأ شيء إلا ليستكمل قوة، ومــا أن يستكمل قوة إلا يخور منهــدًا وما كمل أمــرًا إلا نقص، وما قَوِيَ قَوي إلا ليضعُف، وما تجبر متجبر إلا ليهلك، ومــا ولــد حي إلا ليموت، ومــا وَرِثَ وارثٌ إلا ليُورِث، وما دام ســرور أبد الدهر، ولا ظل حزن طوال العمر.

حالة وهم

غير أنها حالة تخلفها حالة، فتظنه أمرًا يعاكس الآخر بل يضاده حتى يمرّ الشيء. لابد من تقلبه وتغيره وحركته، فلا وقوف له أبدًا، إذ أن الوقوف قد نفسره بالموت في أحد مدلولاته، فهو وقوف الحياة عن التغير، لانعدام المقومات المساعدة أو الأساسية لقيامها أي الحياة. غير أن المشاهد للأمر أنها نفس الحالة، غير أنها مصاغة في الحدث الجديد، متجددة لتواكب العصر والزمن، فهي كأنها تؤمها، بل هي كذلك حالة غريبة من التكرر أو الإعادة، إلا أن الإنسان يعطي لها ردود فعل متجددة، كأنها مغايرة تمامًا لما سبقها، وما هي كذلك . بل إن مضمونها واحد، غير أن أشكالها متغيرة، غير أن هذا التكرار متغير في الأفراد، ثابت في المعنى الواحد ثم إن نسب تساوي الناس في الأفكار والمعتقدات والرؤى والثقافات متدرجة تدرجًا لا يكاد يحصى. من أقل درجة طفيفة منقسمة إلى درجات متنوعة إلى أعلى درجة بانقساماتها كذلك، أضف إليها تمازجها مع غيرها من المشاعر والصفات بنسب متنوعة، ينتج عنه أنماط متعددة لمعنى واحد، في ملايين الأشخاص، كأن لكل واحد منهم بصمته الخاصة المميزة له، وعلامة المحددة لكل شيء عنه.

وهذا التنقل لهذه الحالات، هو من طبيعة الحياة ذاتها، فهو لا ينتقل من حالة لحالة هكذا لاعبًا لاهيًا، بل تنقله فيها تبعًا لقوانين ثابتة، وهو انعكاس أثر الخارج عليها ظاهرًا أو باطنًا، والخارج هنا يعني كل ما يلاقيه في حياته من معاملات وأفعال ومشكلات وأحداث... وأثر هذه الخوارج على الجسد الظاهري والنفس الباطنة يكون في التغييرات والتقلبات ..

ثم أن التغيير نفسه يحوي شيئًا من التناقض والتضاد، تجده في بياض النهار واسوداد الليل، وفي تنوع الطعام بين الحلو والمالح والعذب والحامض. ومن اقتران

الذكـر بالأنثى برابطة الزوجية في الكائنات الحية، كأن الشيء لا يميل إلا إلى نقيضه، ولا يتـم مرحلـة تغـيره إلا بانضمامه إلى مـا يضاده. في حالات مخصوصـة. فتجد أن التضـاد هو ما يخلـف الظواهر بعضها ببعض، فـلا يخلفها بمثيلتهـا وإنما بنقيضها، فتجـد أن التضـاد هو أحـد مسببات التغيـير، فهو منطويًـا عليه، بل هو أحـد أسباب حدوثـه كأنـه لا يفسر إلا بـه، ولا يفهم معناهُ في سياق خاص إلا بوجـوده، فهو وإن كان جديدًا إلا أنه قديمًا، قدم المعنى ذاته، قبل حتى أن يلتبسه البشر بالانفعال والتمثيل له والاتصاف به، فهو وأن كان مكررًا ومعادًا إلا أنه ذا صبغة جديدة ملائمة لكل فرد تبعًا لحالته ونفسه هو كذلك دائم التحديث، غير أنه عندما يصل أوجه عند قوم ما، يخلفه آخـرون ليعاد صناعته بشكل قريب من الأول، ولكن لبعد مخالطة وطول زمن وانقضاء عصـر أو أكثر، تبعد الصلة بينه وبينهـم فكأنهم لا يدرون عن هذا القديم شيئًا، إذ لما خلوا منه، كان بمنزلة العدم لهم، أو المجهول لديهم، وهكذا.

نمضي إلى فنائها

أتدري كيف يكون الحال حين تنفرد بنفسك بعد يوم طويل من الضجيج والصخب وعلو الذات والمحاورات اللامنطقية، والكلام العبثي والمجاملات الأكلشية والجمل المحفوظة المكررة كل يوم، حتى صارت بلا معنى زائد تضيفه، غير كونها تحية سلام أو بداية كلام، أو هكذا تنطق بها لاشعوريًا حتى كأنه لا سيطرة لك على خروج الكلام، بل لا سيطرة لك في مروره بعقلك، و إنما هي فقط تنساب من فمك وتخرج منك حينما يتردد في ذهنك .. ماذا ينبغي أن تقول في هذا الموقف وتلك المحاورة! تقف عقارب ذهنك حائرة شاردة، حتى يأتيها عون من ذاكرة حفظت بعض جمل اعتدت عليها، فتخرج على ما هي عليه أو تخرج متقطعة كلمة يتلوها أخرى، كأن كل واحدة تنادي صويحباتها وتستنجد مجيئها، فتظهر على هيئات متقطعة، مغوش عليها فتنقطع برهات يسيرة كحالة من عدم التواصل بين المعالجة والإرسال أو بين الاستيضاح والبيان، تمامًا كما تنقطع إشارة البث العقلي التحليلي أو النقدي للحظة ثم تعود. هكذا يكون الأمر في كثير من الأحيان.

هل حياة المرء محصورة في تجسيد هذا العبث أو لِنَقُل هذه الحالة الجامدة فكريًا أو معرفيًا، اللاخلاقة بإضافة أو تجديد، اللامتناهية إراديًا أو لاإراديًا أصلًا، كأنها حالة من الممارسة الطبيعية الوجدانية. بالتأكيد لا، إن حياة المرء أعظم من ذلك بكثير، فهي الطاقة الخلاقة والإرادة الفعالة. وهذا جزء لا ينفصل من حياة أي امرئ يعيش على هذه الأرض. فكلما كثرت يقظته قلت غفلته، فزاد انتباه وأنيرت بصيرته، فهي نسبة وتناسب بين الغفلة واليقظة، فمن اشتدَّت يقظته وقويت قلَّ في مقابلها داعي عكسها، وهكذا . وتجد ذلك ظاهرًا في العلماء أو الصالحين والمفكرين أو غيرهم، ثم

إنها ليست مقصورة على أحد بعينه أو طائفة بخصوصها. فهم - أي أصحاب ذلك التوجه الفكري - يعرفون بالوصف، أيّا كان زمانهم ومكانهم واتجاهاتهم فهم يشغلون أوقاتهم، بداعي الوصول إلى النتيجة، غير أنها نتيجة توصل لأخرى في سلسلة طويلة لاتكاد تنفك، وفي تحصيل لجمع من العلوم والفنون يستعينون به على التقدم والمضي على نور وفهم، لا احتمال وظن، فتزيد عندهم الرغبة حتى يَصِلُوا في ذلك إلى إدمان هذا العلم، فيصير لهم فيه شهوة استمتاع بها، كاشتهاء الطعام والشراب كذلك، ويصير هكذا مرتقيًا في ذلك السلم حتى تغلب حاجة فكره وعقله، على حاجة بدنه، فيرتضي لها المنزلة الدنيا، ويكون مأخذه من طعامه ما يقوُم به صلبه، ويقضي به شئونه، فتجده يقدم حاجة العقل في إشغالها بالفكر والاستنباط والتتبع والتجربة. على حاجات البدن الفسيولوجية الزائدة لا الضرورية وانظر إلى أحدهم، وهو ابن عقيل حين يقول: - "إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما قد أسطره"

ويقول أيضًا: - "أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى اختار سف الكعك وتحسيته بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفيرًا للمطالعة، أو تسطيرًا فائدة لم أدركها فيه. "

فهذا ونحوه ليس مشغولًا بالناس وأحوالهم وفضولهم، بل هو سائر إلى غايته من علم يحصله أو فهم يجمعه أو مذاكرة يثبتها أو مراجعة يرددها، لذلك يقل التفاته إلى غير ما شرع له. ولكنه يقدح ذهنه فيما حدده امامه فأعمل فكره فيه، وانطلق لأجله. فقلبه وعقله قد حددوا وجهات الانتقال، فهم في قلق دائم، يريدون وصولًا قبل أن يشغلهم شاغل أو يصرفهم عن وجهتهم صارف. ثم إنهم كذلك تعلقوا به كتعلقهم بآبائهم وأولادهم أو بأنفسهم بل أشد، فهو كروحهم في أبدانهم مستشري في دمائهم

وعروقهم ، فلا يكاد يجدون متعة كاملة إلا بوجوده، فملأت محبته قلوبهم وشغلت نفوسهم، ثم هم لما وجدوا من نعيم هذا العلم، ما لمسوه من تغيير عقولهم وأفكارهم ومناهجهم ، ومن ثماره و نتائجه ما شاهدوا وأيقنوا،وتفهمهم لما كانوا يجهلون ، فهبوا مندفعين في سبيل تحصيله و حَمْلِه ، فازدادوا تيقظًا ومعرفة . فآثروا ألم التعلم، ومكابدة تحصيله على نعيم الجهل وراحته، وسوء عاقبته ومنقلبه.

وهذا يدعوك إلى النظر في مستودع حياة الإنسان، وهو العمر أغلى ما يملكه الإنسان إن أحسن استعماله، ولم يسئ معاملته . وإلا كان عنده بخيس الثمن كاسد البيع، مع أنه مستودع تلك الحياة كلها، فهو ناقل قصته، وحاكي تجربته التي قضاها على تلك الأرض. وهذا يدعوك إلى النظر في حياتك، لتواجه سؤال حتميًا، وهو إذا كان العمر هو مادة الذهب الغالية بالنسبة لعمرك، فحياتك كلها محدودة بأجزائه وأبعاضه، فما أجزاء العمر إلا أجزاء منك شخصيًا، فكلما أنفقت من الأولى أضعت من الثانية، فحينما أقول، كم أضعت من عمرك؟ يعني كم ضيعت من أجزاء حياتك ونفسك، لأن الثاني محكوم في الأولى، ولما كان الأول قابل للتقسيم والحسبة، وكان الثاني محسوب فيه، فنسب إليه وقُسِم كتقسيمه.

كم أضعنا من العمر، يفنى عمرنا بين أيدينا، ونحن لا نكاد نبصره، يمر كأنه لمح البصر، بل ما هو أشد منها وأسرع مضاءً.. يوم يتبعه آخر، شهر فسنة فعقد .. والعمر يسرع إلى نهايته، كأنه أخذ العهد بعدم التوقف للبوث يسيرا ولو لأخذ هدنة أو حتي لإعادة الحدث بشكل آخر، إنه يمضي غير آلٍ على شيء أو أحد، إنه يسرع كأنه يجري لغاية يريد إدراكها أو أمر يريد تحصيله، فهو لا يكاد يهدأ أو يخفت أو يقلل وتيرة مضيه، فتنخفض سرعته ولو شيئًا يسيرًا. كأنك كنت أحد أعدائه أو منافسيه، بل حتى إنه لا يتخذ أحدًا صديقًا أو صاحبًا، إنه ليس لديه وقت لمثل هذا، فلا ينشغل به أنه لا يصاحب أبدًا ولا يعادي أحدًا، أنه الشيء الخفي الذي تُحَسَب الأشياء عليه، فكل شيء

في الدنيا مضروب في هذا الزمن، الذي اقتسم الناس كل منه جزءًا منه لا يتعداه، فإذا ما مضت فترته، سلمها لمن بعده، وهكذا حتى ينتهي الزمن في مرحلته الأخيرة، التي هي الخلود والسرمدية، حيث الحياة الأبدية. فالإنسان؛ هذا الكائن خلق للأبدية والخلود، غير أنه في مروره لرحلة الأبدية، يمر على دور متنوعة، منها الدار الدنيوية ثم البرزخية ثم الآخرة ثم الأبدية في إحدى داري النعيم أو الشقاء، فالدنيا رحلة مؤقتة ودار عابرة، ضمنت أشياء وصفات هي من خصائصها ومنها الزمن. حتى يمكن حساب كل شيء فيها، وتقديره بوقت وفترة، وحتى يميز الناس أمور دنياهم إلى آخر ذلك. ثم أتى رجلًا معمرًا قد بلغ من العمر أرذله بأسئلة، وقل له، كيف الدنيا؟! وكيف وجدتها؟ فتجد إجابته لا تخلو من أن الدنيا مضت سريعة، ثم ستجده يسترسل ويقول، كأني كنت ابن عشر سنين، ثم جرت الأعوام، وأنا أتقلب في العمر حتى وصلت إلى ما قضيته فيها من الزمن، فلا أدرى كيف مضى بي العمر هكذا، غير أني كنت آمل ومازلت ذا أمل، ولو سألتني هل حققت كل ما أرجو وآمل لكانت إجابتي لا تتعدى قولي إنني لم أحقق كل ما أصبو إليه، ولم أصل إلى جميع ماكنت أرجوه، بل كأني خُطِفْتُ فلم أفق من فزعتي إلا وقد ارتحل بيا المسير ومشى بيا الركب، حتى قاربت الرحيل والتوديع. وليس الأمر هنا في تحقيقه لأموره من عدمها، أو تضيعه لوقته فيما يفيد أو لا ينفع بل في غير ذلك، وهو سرعة مرور الزمان، ناهيك عن تحقيق شيء في تلك الفترة أم لا، فالأمر دائر على شعور الإنسان بسرعة الزمان في هذه الدار، حتى أن الكبير فيها يرجو أن يعود شابًا مدركًا واعيًا، فيغير ما أخطأ ويصلح ما أفسد، أو لا يرجو غير أنه يؤمل بقاءً واستقرارًا.

إن العمر محدود والزمن قصير، وحياة الإنسان فيها مقسومة إلى مراحل معلومة، ما أن تمضي واحدة حتى يأتي ما يلها، وعمره فيها معدود بسنوات قلائل، غير أن المهم هو كيف تمضي حياة المرء في هذه السنوات، فالأمر ليس بتعمير ألوف السنين، بل

بمدى الأثر الذي خلفه أو تركه على الأرض، التي نشأ عليها أو في قلوب الناس من حسن المعاملة والإكرام وتحقيق العدل والحق، وإبراز هذه القيم عالية يسير تحت جناحها، محفوفًا بخيرها وفضلها، متحملًا ما يلاقي في سبيلها . نعم، العمر يجري سريعًا، غير أنك لست مطالبًا بلحاق سرعته، وإنما طُلبت بأن تأتي فيه بنشاطات وأعمال وأقوال، فليس حسابك فيه على الزمن، بل على ما ارتكبته وصنعته فيما حواه الزمن نفسه، أمَّا أمر الزمن هذا، فإنه لا ينشغل به إلا من كان ذا همة عالية، ونفس كبيرة، فكأنه يريد أن يسارع الزمن في مروره وانقضائه.

✍ كما قال أبو الطيب

أريد من زمني ذا أن يبلغني ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث ... ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سُررت به ... ولايرد عليك الفائت الحزن

✍ وقال الإمام على رضي الله عنه:

ومحترسٍ من نفسه خوفَ ذلةٍ ... تكونُ عليه حجةٌ هي ماهيَا
فقَلَّصَ بُرْدَيهِ وأفضَى بقلبهِ ... إلى البرِّ والتقوى فنالَ الأماني
وجانب أسبابَ السفاهةِ والخَنا ... عفافًا وتنزيهًا فأصبحَ عاليا
وصانَ عن الفحشاءِ نفسًا كريمةً ... أبتْ همةً إلا العُلَا والمعالي
تراهُ إذا ما طاشَ ذو الجهلِ والصَّبا ... حليمًا وقورًا ضائنَ النفسِ هاديا
له حلْمُ كهلٍ في صرامةِ حازمٍ ... وفي العينِ إن أبصرتَ أبصرتَ ساهيا
يروقُ صفاءُ الماءِ منه بوجههِ ... فأصبحَ منه الماءُ في الوجه صافيا
ومن فضلِه يرعَى ذِمامًا لجارهِ ... ويحفظُ منه العهد إذ ظلَّ راعيا
صَبورًا على صَرْفِ الليالي ورزئها ... كَتومًا لأسرارِ الضميرِ مُداريا
له هِمَّةٌ تعلو على كُلِّ همةٍ ... كما قد علا البَدرُ النجومَ الدراريا

وقال أبو الطيب أيضًا

على قدر أهل العزائم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

ثم لوتتبعنا مثل ذلك، لطال بنا المقام عن استفاضة الأمر وبيانه، ولكن يكفيك من الزاد ما بلغك المحل، وهذا حالة عالية من حالات النفس، وهي طلب العلو وإرادة الثريا والطموح إلى السماء، وهي لصنف خاص من الناس، لا لأنها خاصة بهم دون غيرهم . فهي- أي الهمة- موجودة في النفوس كلها، ولكنها تحتاج إلى عناء وتعب، ومجاهدة النفس والطبع والهوى، وكما قال القائل من كانت له بداية محرقة، كانت له نهاية مشرقة.

غير أن المشاهد في الأغلب، أنهم يلقون أوقاتهم هكذا هباءً ويضيعونها حمقًا، وهم لا يدرون أنهم يضيعون حياتهم بأيديهم، بل الأدهى من ذلك من يرمي لذلك إرادة حقيقة، فيقول لك دعنا نضيع بعض الوقت، وهو بذلك يهدم جزءًا من عمره حقيقة، وهو غافل عنه ثم تجده هو هو، يشتكي من قلة الوقت، وسرعة مروره، وهو وإن كان صادقًا في القضية الثانية، وهي سرعة مرور الوقت، إلا أنهم مضيع حقه بإهمال نشاطات وقته، وأعماله فيها، وماذاك إلا نتاج الغفلة وحمق القلب وقلة إدراكه. فهو قد يظن أن قضاءه وقتًا فيما لا ينفع، بل يضر، يدخل السرور على نفسه، وهو في هذا واهم، ما عدل في القضية، ولا نصف في الحكم . فالإنسان –حقيقة- يعلم أهمية الوقت، وحاجته إلى استغلاله، ولو تكلم واحد منهم في ذلك، لأسهب وفصل ومثّل بكثير أمثلة وتجده مع ذلك يضيعه بنفسه، ليفيق بعد أن يمضي به العمر ليُصَّعِدُ الزفرات، والآهات حسرة وندمًا، ولات ساعة مندم! بل العجيب أنه يريد أن تمضي به الأيام والليالي سريعًا؟ كأنه لا يرى أن تلك الساعات وهذه الأيام هي فرصته الوحيدة على الأرض، وأنه إذا خرج منها لن يعود إليها، ياويله ما أحمقه!

إن الوقت إذا مر لا يعود، والنَفَسُ إذا خرجت لا يرجع، بل يأتي غيره معلمًا إياه أن كميـة الهواء المكتوب له استنشاقها تتراجع، فعقـرب الساعة لا يخالف حركته، فيسير عكـس الزمـن متراجعًا. وأن أيام التقـويم تعد تصاعديًا لتمضـي في الشهور والأعوام . شمسـ تشـرق لتغيب، لتعود مرة أخـرى. كل شيء في حركـة إلى النهاية، الكل يسرع إلى الفنـاء والعدم، بل تجده يهرول مسرعًا، كأنها البداية وليست النهاية، ونحن كأننا فاقـدي الحس، فنرى عمرنا يسير بـين أيدينامسرعًا ونحن لا نصنـع شيئًا، وهذا من دلائـل العجز والضعف. كنت صغيرًا فأصبحـت شابًا ثم يمضي بك العمر حتى تصير كهـلًا كبيرًا، أمَّا تُرَوِّع تلك الحقيقـة صاحب القلب المنتبه تشعر كأننا في خدر حقيقي، أو في حلم طويل لا نقدر على الخروج منه، كأننا نمشي في الدنيا متيقظين واعين، بعيونٍ مفتوحـة مبصـرة و سامعين مدركين، غير أنهـا يقظة بين النوم والانتبـاه، فلسنا حقًا نعطي كل شيء ما يستحقه من الأهمية والاهتمام، إننا حقيقة في غفلة ضاربة على كل شيء، وفي حالة من عدم الوعي الكافي لإدراك الأمور، بالشكل الذي يجعلنا نهب قيامًا مغيريـن وفعَّالين، فنحن نعلم الحقائق في أمكنتها، ونفهم بعض دلالتها، غير أننا لسنا مدركين لها الإدراك الواجب، الذي يمنعنا عن التضييع والغفلة وكما قال أبو الطيب:

كالشمس في كبد السماء وضوئها   يغشى البلاد مشارقًا ومغاربًا

فالأمـر حينئـذ لا يتطلب المعرفـة وحدها، إذ هـي فقط أول طريـق الإدراك ونزع غشـاوة الغفلة، وإنما الجـد والاجتهاد والبذل، وإجبار النفـس على المضي رغم مرارة مـا تجـد وألم ماتعاني، فهو لا يُسَلِم لها الزمام، بـل يحطمها به، فيلجم رغباتها بقيود متنوعـة، إدراكًا منه بأن يومه على وشك المضـي، وأن أوراقه على وشك أن تأخذ منه، فهو يريد الإحسان قدر الاستطاعة، فلا تتركه النفس بعد تبصرتها، إلا وهي حاثة إياه علـى التحمل، وعدم الجزع لاسيمـا إذ أغراها بالثمن، وعظم الجائزة والفضل، فهنا تجدها تشمر عن ساعد الجد، وتنزل في معركة الحياة، ومعترك العلم لتحصل وتجمع

غير آلِيَةٍ على شيء فحينما تجلو الحقائق شيئًا فشيئًا أمام مرآة العقل والقلب والنظر، يـدرك الإنسان ساعتها حقيقة ما قصر. كما في الأثر "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" والله تعالى يقول: "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد".

كأن هنـاك أغطية عازلـة على العين والأذن، وهو في أصله مـردودٌ إلى القلب، لأن القلـب إذا انتبه وتيقظ، استراحت الجـوارح فأدركت مالم تكن تدرك من النظر الأول إلى الأشياء، وماذاك إلا لأنها نزعت عن نفسها الغشاوة الزائفة، التي تبدي في الأشياء مـا ليس فيها، فتزينها بشـكل يجعل القلب في حالـة من الاطمئنان والسكـون، لأنه لو اضطـرب لأقـام الدنيا عليها، وكلفهـا مالا تطيق، لذا فهي تركـن إلى الراحة والدعة، ويساعدهـا العقل في ذلـك بإضافة أنواع من التفاسير والتحاليـل الباطلة، التي عليها باطن قلبه وغشاء فكرة.

غير أنه لو أعمل فكره في ناصية الزمن، وكيف غيَر في موازين الأمم بإعماره فيما ينفـع، ولـو استفتح الأمر من مبدأ التاريخ حقبة تتلوهـا أخرى، ودول تترا في ظهورها، وصـولًا إلى التاريـخ الحديث أو المعاصر بل لو نظر في أفراد بعضها، فرأى كيف صنعوا حينما ضيعوا أوقاتهم، وكيف كان عاقبتهم ، لعلم حقيقة ما هو فيه وقد قالوا في ذلك، دقـات قلـب المرء قائلة لـه أن الحياة دقائق وثـواني . فهكذا كلما مرَ بعضـ الوقت مرَّ بعضـه حتى ينقضي أجله، فإما أن يستدرك مـا قد فات، بإحسان ما هو آت، والاتّعاظ بمـا قد ما مضى، بالاجتهاد والاستعداد لما يستقبـل . فيعلم أن الدنيا معيارها الزمن، والزمـن يقاس بما حُصِل فيه مـن الأعمال والإنجـازات، وبما ترك مـن الأثر خلفه، لـذا كان الأمـر في القرآن مصدرٌ بقولـه "اعملوا" واجتهدوا واحرصـوا على استغلال الأوقـات، لأن الأعمـال معروضة، فسـيرى الله تعالى ورسولـه "ﷺ" والمؤمنون هذه الأعمـال، فإمـا أن يسـر المـرء بمـا عمـل وصنـع، فيقول هـاؤم اقـرأوا كتابيـه، إني ظننـت أني ملاقٍ حسابيـه اطلعوا على أعمالي، وانظروا مـا صنعت، وكابدت من أجل

الحصـول عليه، هذا نتيجة أعمالي، وحصيلة إنجازاتـي . هذا ﭬ الآخرة فينقلب إلى أهله مسرورًا سعيدًا مبتهجًا، وإن كان يريد أن يزيد من أعماله أضعافًا مضاعفة . فلا يتم رضـاه عما حقق وأنجز، فهناك يتم افتخاره وتكمل سعادته ويتحقق انتصاره على أعدائـه، فينـادي ويقول تعالوا انظروا ما صنعت، وكيف صـبرت وشكرت، وكيف قمت مـرات عدة بعد أن ضعفت وانكسرت، وبعـد أن لم أجد أحدًا حولي ينصرني ويعينني، انظروا، اقرأوا، إني كنت أنتظر هذا اليوم من بعيد، حتى جاء وعد الله، فنصرني.

وأمـا الآخـر فهو علـى نقيضه تمامًا مخـزي منكـس الرأس ميئوس الحال، ضل سعيه وخـاب ظنه، فخارت قواه، فألجأت نفسه إلى التمنـي والمحايلة، أهل أُرَدُ فأعمل غـير الذي كنت أعمل، غير أنهم لو ردوا لعـادوا إلى نفس صنيعهم، فهم أعطوا الدنيا فرصـة واحدة للعمل والاجتهاد والسعي ﭬ سبيل الحق والعدل، لا لأجل الباطل والظلم والعـدوان أعطـوا فرصة يختبرون فيها، وجعـل الزمن حاويها، فتعاقـب الليل والنهار وتـداول النـيران دليل واضح بَـيِّنٌ لمن أدرك أهمية هـذا الزمن فأخذ يجمـع فيه الدُر والياقـوت والذهـب ويخزنه ويحافظ عليه، وهي الأعمال التـي يصنعها، فإما أن تكون صالحـة نافعة خَيِرة، وإما أن تكون فاسدة ضارة مهلكة، لذلك من كان يرجو لقاء الله ورسولـه فليعمل وليحسن من عمله، فـإن أعماله معروضة عليهما، وله ﭬ ذلك أمران، إمَّـا أن يفتخر بصنيعه ويمتـلأ قلبه فرحًا بفعله، وإما أن يخـزي ويندم، لذلك فالأمر الآن ﭬ يـده وهـو مالك أمـره، وولي نفسه. فليصنع ما يجعله فرحًا يـوم التلاقي، فإن الدنيـا ماضية، وهي مسرعة بكليتها إلى الفنـاء، ونحن كذلك نمضي إلي فنائنا، فكل يوم يمر أذانٌ باقتراب أجلنا وموعد رحيلنا..

حقا، إنها تمضي إلى فنائها .

من وهم الوعي

أحاكيـك تلك الملازمة، التـي تدوم مع الإنسان عمره وحياتـه. فهي ملاحقة له في كثـير شئونه، وهي فيـه ظاهرة لا تكاد تخفي فاسترعت انتبـاه العقل فأنصت، وإنشاد الفكـر والنظر، وإجماع العاطفة والقلب ثم إنها ليست بالحالة الفردية التي تقع لواحد دون آخـر، أو كذلك حالة مؤقتـة مرهونة بفعلٍ ما، بل هي -في غالبها- تضم كثيرًا من البشر أن لم يكن جميعهم، فهم متفقين على تلك الحالة أو لعلهم مجمعين عليها كذلك فالبشـر، وأن كانـوا مختلفـين متنوعين كأفراد من حيـث الصفات والطبـاع والأهواء والميـول والرغبات، إلا أنهم كجماعة بشرية عاقلة تتشابه صفاتهم الكلية في مجموعها ورغباتها النفسية في مضمونها من حيث أنهم يريدون تحقيق السعادة والفرح، والعيش بطمأنينـة، وأن يحيوا حيـاة طيبة كذلك أيضًا في مجانبة الألم واستبعاد البؤس والقلق والحـزن، بل مـع اختلاف تجربة كل واحد منهم إلا أنك تجـد فيها من التشابه الشيء العظيم، أمَّـا في الدوافع أو وسائل تحقيقها أو نتائجها فهذه التجارب المتعددة، جمعت بينهـم في كثير مـن الأحوال والأمور، على اختلاف أوطانهـم ولغاتهم، غير أن التشابه ليسـ متطابقًا كليًا، فهي ليست ورقة كربونيـة تطبع التجربة والحدث كما هو ففيه من التغاير والاختلاف الشيء الذي يضمـن لكل تجربة أصالتها وفرديتها، فالإنسان كنوع مـن أجناسـ الحيوان النامي، تتشابه أفـراده كثيرة في الفكر، والعاطفـة والشعور، بل وفي النظـر كذلك، وإنما يقـع التمايز حالة مكتسبة من إثـراء النفس بحصائل علمية أو ثقافيـة أو فكريـة أو اجتماعيـة، فترتقـي النفس في ذلك مرتقي آخـر غير الأول، لا الاختـلاف في الأصل الأول وهو العقـل والشعور والعاطفة، بل بزيـادة عليه واستعماله في أمـور أخرى، فهنا يحدث التمايز ويتفاوت الناس بين عالم وجاهل، ومدرك ومغيب،

وفاهم وأحمق. وهكذا. غير أنك تجدهم في أصلهم الأول كأنهم ذاك الشخص الواحد، الذي ركبت فيه تلك الصفات الجامعة، ثم أخذ منها كل فرد منهم بنسب متنوعة، فشابهوا جميعهم الأصل الأول، وإن خالفوه لاختلاف علل، سنأتي إليها بعد قليل. فأنت تراهم أمام عينيك متشابهين متقاربين، بدرجة قد لا يتصورها البعض، فأنت ترى فيهم جميعًا نسخة من ذاك الأصل الأول، إلا أنها قد تكون مخففة مثلًا، غير ظاهرة لتأثير الحياة بمصائبها ومعتركاتها فيهم، وتقلب الظروف والأهواء عليهم، وتحاكم كثير منهم إلى رغباتهم وشهواتهم النفسية، ومحاولة بعضهم تزيين باطلهم، واستجداء عوار أنفسهم في مظهر حسن جميل فتنافروا واختلفوا، وأصبح لكل واحد منهم طريقته، وظهرت النزعة الفردية والاستقلالية الذاتية، التي يبرز كل واحد منهم فيها شخصيته كأنها منفردة عن الآخر، ثم يلبسها ثيابًا مخالفة، فظهر التجديد في كل شيء، وإن كان باهت اللون، فلا شكل له يحمد عليه، إلا أنه جديد . وأراد بعضهم أن يتمايز ولو بالشذوذ والمخالفة، ولو بأكل حقوق الناس والاستعلاء عليهم، فيدوسهم بقدمه كأنهم حشرات ضالة لا وزن لهم ولا قيمة . أراد أن ينفرد، وأن يعلو و يتمايز، إلا أن تمايزه كان بالظلم والجور والبهتان فضل وخسر.

إن محاولة التميز والتفرد في ذاتها، ليست سيئة أو ضارة أو مجلبة للأي والشرر ، غير أن الأفعال تقاس بشيئين، بوسائلها ونتائجها. فإذا كانت الوسيلة التي وصل بها بها طيبة محمودة الأثر، ليس فيها عدوانًا أو اعتداء، حمد له هذا الصنيع . ثم كذلك نتيجة هذا التصرف، وما أدى إليه من العواقب والمآلات، فالإنسان لم يرث الأرض وحده، بل كان فردًا في جماعة كبيرة من الجنس الآدمي، لذلك فإن أفعاله ليست محكوم عليها بمعزل عن أثرها عما حوله، من أفراد وأشياء. وإنما تقاس في أكثرها، بأثرها عليه أولًا، ثم ما حوله من بيئة ومجتمع فلا يحمد مثلًا، نفعه لنفسه وإضراره بالناس في رغبة منفردة أنانية لا يقبلها عقل ولا يحث عليها شرع، ولا أقول بذلك أن

يكـون نظـره إرضاء الناس ورغباتهم، وذلك غير محقـق لجميعهم لتركيب التخالف ، والتمايـز بينهم فكـرًا وعملًا . ولكن المقصـد أن يعمل على نور وبهـدى، فينظر الحق فيلزمـه ويتبعه، ويجعلـه أنيسه ورفيقه، وهـو وضع الشيء في موضعـه الذي يستحقه. ناهيـك عن قبول الناس لذلـك أو رفضهم في مجموعهم إذ أن مـن رام إرضاء الناس خسر نفسه، ثم لم يحقق لهم ما رجوه من الرضا.

حالة التشابه الموجودة بين البشر ليست بالغريبة، ولا بالمستهجنة حين ملاحظتها، أو استقصائهـا في تعدد أمثلتهـا، بل ورؤيتها من نواحٍ متعددة. فأنت مثلًا تجد شخصًا مـا يقص لك حالتـه، ويخبرك خاصة نفسه وما انطوى عليـه ضميره، بل لو نظرت في خاصة نفسك وأمرك، لوجدت من التشابه والتطابق بينها وبين كثيرِ أُناسٍ، وهذا ليس مخصوصًا بالحالة الباطنيـة فقط، بل كذلك والظاهر وما تضمن من أشكال عديدة، فلـو أخذت تلك النظرة وطبقتها على الأفراد والجماعات والأحزاب والطوائف وهكذا، فأخذتهـا من نطاق الفرد إلى نطـاق الجماعة، في أقل اجتماعيـة ممكنة بين فردين، وتجدها ظاهرة في رابطة الزوجية بين الرجل والمرأة، ثم الأسرة والعائلة والقبيلة حتى تتسع لتجمع أفراد الناس، فتجعلها أنت دوائر كبيرة تدخل فيها البشرية بمجموع تعدد الصفات والرغبات والميول الجامعة المشتركة، ثم تخرج منها دوائر انفصالية متفرقة، تضم كل واحدة منها ما يخص ممن جمعت أفراده في هذا البوتقة، وبهذا تعدد البشرية كلها إلى صفات عامة يشترك فيها الجميع، وأخرى خاصة يتميز بها أناس عن غيرهم، وهـذه الصفات العامة اجتمعت فيه البشريـة من حيث إنسانيتها، وانشقاقها من أصل واحد متفرقة عنه، وأما الأخرى فهي افترقت فيها من حيث مجموعها الكلي، واجتمعت من حيث تشابه أفرادها في صفات معينة خاصة بهم.

ثـم إنك لو نظرت إلى أخرى من تلك الحالات، وهـي حالة انتقالك من وعي معين إلى آخـر، أو مـن لاوعـي مقصود إلى وعي محـدد، لو نظرت مثـلًا إلى أول وهلة تفتح

فيهـا عينيك، أو قبلها بقليل وأنت مفارق لحالـة النوم، مقبل بنفسك إلى عالم اليقظة بمفهـوم الإدراك الآن، أنت على مضجعك خـارج من سكون عالم النوم واستقراره إلى عـالم الحركة والتقلبات. فتلك الفترة اليسيرة من غيبوبـة النوم إلى انتباهة اليقظة، تقوم حالة جديدة للوعي والإدراك، تمارسها لا واعيًا غير منتبه لها، حين تفتح عينيك لـترى عالمًـا جديدًا، لتـدرك حالة أخرى مـن الوعي، فأنت حين نومـك استراح عقلك اللاواعــي، فأخذ ينسج القصص ويأتي من واقعك أحداث يصيغها إليك بوجهة نظره هـو. ومـا ذاك إلا أنك حين نومك تـرى الأشياء فتظنها، بل دعنــي أقول فتدركها حال رؤيتها أنها صادقة، لا يكاد يدخل إليك الشك أن هذه الحالة غير واقعية، فتتفاعل معها وأنت في نومك، على أنها تامة الصحة ثم غالبًا حين تفيق ويرجع إليك رشدك فتدرك ساعتها وهم ما كنت ترى، وأنه مجرد حلم، وأنه كان تجسيدا لبعض واقعك، فاستعان بـه ليريك أشيـاء ظننتها حقيقة، غـير أن الوعي في تلك الحالة لا يقـدر على أن يقوم بعملـه، إذ هو ساعتها لا يفرق بين هذا وذاك، إنـه فقط يتعامل مع المعطيات الظاهرة فيتأثـر لها وهكذا، وقد يكون هذا لكونه مغايرًا لحالة التيقظ، فظن أن الحالة الأخرى وهي النوم، موازية لتلك الحالة الأولى، وقد يكون استدعاءً لأحداث من ذاكرة الذهن، فتتمثل أمامك في حلمك فتظنها حقيقة واقعة. وقد تكون تجسيدًا لأحلامك لتطلعاتك، لخوفـك وحزنك أو سعادتك وسـرورك، غير أنها في الغالب لا تتعداك أنت إلى غيرك، إلا مـا قامت بـه نفسك من ترجمـة أو استقبال لما عند الغير، ممـا تستطيع أن تأخذه عنـه حين رؤيتك له، فضممـت ذلك إلى نفسك، فنسب إليك أنت، وإن كان تعلقه الأول لغيرك وإن كنا لا ننكر أثر الخيال في هذا الأمر بشموليته، إلا أن ذلك الخيال وأن كان فيـه خروجًا عن القوالب المعروفـة والحدود الموضوعة، فهو يغرد خارج السرب منطلقًا مـن أحلام الشخص وآماله ورؤيته الخاصة بنفسـه، وعلمه ومعرفته وقد تضيف عليه النفس شيئًا من التهويل والمبالغة والإغراق.

ثـم لننطلـق مجاوزين تلـك إلى النقطة إلى غيرهـا، وهي ما الـذي يجعلنا نعتقد

بصحـة الوعي الذي نمتلكه أصلًا، أو ما الذي يقودنا إلى الفكرة القائلة بأننا أصحاب وعـي، وأن غيرنـا محدودي الفكر والنظـر، أو ما الذي يهيئنـا أو إن شئت قلت يجرئنا علـى خوض غمار المعارك الفكرية أو الثقافية .. أهـو الوعي فقط ؟ وإن كان أحد هذه الأسبـاب فما الذي يجعلنا نضمن صحته. فـكل إنسان لديه مقدار من الوعي يظن به صحـة نفسه وما تذهب إليـه، وبطلان ما يراه غيره في حـال اختلافه معه، لعل الوعي هكـذا يقـترب من مفهوم الإدراك، إذ حتى تعي أمرًا ما أو شيئًا ما لابد أن تكون مدركًا لـه، وهـذا الإدراك ناشئٌ عن علـم ومعرفة ودراية، ولو نظـرت إلى العلم ذاته لوجدته نظـري أو تجريبـي أوقطعي ثابـت، أو ظني مشكـوك . فتجد الحقائـق الثابتة، وكذلك النظريـات غـير المبرهن عليهـا، أو لم يكتمـل برهانها، فتظل حبيسـة لأزمنة ممتدة، حتـى يصل إليها أحدًا فيكمل هذا البرهان ويتمم المعنى ويوضحه. وهكذا يأخذك إلى المنهجيـة المتبعة في أخذك للعلـوم والمعرفة، والمنهج الذي ستتبعـه في دراستك، ويكون قرينًا لك طوال عمرك. أكان ذلك، أو كان اجتماع عدة مذاهب فكرية نقحتها فأخذت زبدتها ورائقها، ونفيت عنها ما تظنه كذلك. رجعنا لتلك النقطة ثانية. انه ضار لايقبل، وزور لا يصـح . أو أي المدارس الفكرية ستقبل، والمذاهـب الثقافية ستتبع.. لو تتبعنا ذلـك لطال المقام، ولكن هذا ما ينشأ عنه اختلاف الرؤى وتعدد وجهات النظر، وتنوع الدلالات في كل فكر أو عقيدة أو مذهب.

وهـذا بتمامه يوضح لك صعوبة تحديد الوعـي الحقيقي المراد للإنسان الاتصاف بـه في هـذا الحياة الدنيا، لا لعـدم وجوده أو صعوبة التعرف عليه، بـل لظن الكثير أنه مالك لناصية الوعي . ثم إن الوعي بحد ذاته، هو نتاج تعامل الإنسان مع ما حوله، فهو نتاج هـذا التفاعل بكل مفاداته من مخالطة بالجسـد والنفس والكلام والزمن والعلم والثقافة، ومنه ينقسم الوعي بحسب التفاعلات، إلى الوعي بمطلق الوجود، وبالحياة، وبالأفـراد والتعامـلات البشريـة، أو بالمكان والزمـان إلى آخره. وتستطيـع كذلك أن تجعلـه، ذا شطرين كبيرين، أحدهمـا وعي بسيط سهل، والآخـر صعب معقد، يحتاج

إلى إعمال شيء من الفكر والنظر . ثم إنك –لاشك– متصف بالوعي، لا لأنه ضرورة الإدراك والفكر البسيط، وأن اختلف في درجات ترقيه أو سفوله وقلنا قبلًا أنه نتاج تفاعلك مع ما حولك من البيئة والمجتمع، وأفراد كائناتها العاقلة والحيوانية، ولما كان الوعي مرتبط بالمعرفة، ونظرًا لتفاوت الثانية اختلفت الأولى، ثم لو نظرت كذلك إلى معوقاته من المبادئ التي يسير عليها الكون والقوانين التي تقيد الإنسان على الأرض، من فيزيائية وكيميائية ورياضية. إلى آخره فالإنسان مقيد في كل شيء بهما، إذا هو يسير وفق هذا القوانين علم ذلك أم لم يعلم ثم وعيه بهذه القوانين مختلف، وأنا لا أقصد هنا أن يكون من البارزين العالمين بكل علمٍ ما يعلمه حاذقوه، بل يكفيه منه ما يعينه على فهم الحياة ذاتها، والوجود في كليته، بأنٍ يكون مطلعًا على ما يفيده في حياته.

وحتى لا يتشعب بنا الكلام، لأنه كل نقطة من هذا الحديث كافية أن تكون محل بحث آخر، ولذلك لنجمل ما سبق فيما يأتي، فنقول أن الوعي حالة من المعرفة والعلم والإدراك، تتطلب من المرء البحث والاطلاع المستمر، بأن يكون يقظًا لما حوله، عالمًا بعصره بما فيه من ضروريات لازمة مؤثرة، مستشعرًا لوجوده ووجود ما حوله من الكون بإجماله، والكوكب الذي يعيش عليه والنقاط الرئيسة التي هي لازمة في المعرفة، فالمعرفة منها لازم ضروري يجب العلم به ولا يقبل الجهل به بأي حال وهو "الضروري العام المطلق" وهي أنواع كثيرة، ثم هناك ما هو ضروري في المعرفة إلا أنه لا يقع بالجهل به ضرر واقعي ملموس، وهو أقسام يطول شرحها، ومنها ما هو لازم في المعرفة الخاصة المقصود بها علم معين لا في كليتها، ومنها ما لا يستلزم لكن تجمل معرفته، إلى آخر ذلك وهو كثير. والمعرفة هنا يقصد بها العلم، أمَّا المعرفة من حيث التعرف على ما حول الإنسان فقد يكون لها تقسيمات أخرى هيكلية، أي أجناس عامة يندرج تحتها الأنواع الخاصة بها . مثلاً؛ المعرفة الشخصية التي يندرج تحتها كل ما يخص الإنسان وتجاربه وعلاقاته مع الناس والحياة في إطاره الشخصي إلي دخر هذه الأنواع

على هامش الصراع

نُوجيت وناجيت، ودار حوار لا يكاد يهدأ وطيسه أو يخبو فتيل شعلته، كأنه صراع محموم ومعركة طاحنة، لا يبدي طرف فيه شفقة أو رحمة. صارت تجادل مجادلة طويلة، وتنازع النفس لتلتبس الفؤاد وتقود الزمام وتملك التصرف. ثم ما لبثت أن أنشئت في النفس تيارات مختلفة، ورؤي متنوعة وأفكار متنازع فيها، كأنها أنفس متعددة حُمِلَت جميعًا لتنشأ مرة أخرى، وتخلق طور معدلًا في تلك النفس، فكأنها ابتلعت كل ذلك في باطنها آسرة له ، ثم مرودة لتظهر بعد ذلك في قالب نفس واحدة متعددة المشارب، متنوعة المآرب غير أنها كل يوم بل كل ساعة تطلب، بل لما تنتهي مطالبها ورغباتها فإذا لم تأخذ خطامها بالعقل والحكمة هلكت، وإذا أرخيت لها الستر رغبت، وإذا رغبت فما الدنيا بما عليها كاف لها إلا إذا قنعت. فهي طمّاعة شرهة، لا تكاد تشبع من جمع شيء حتى ترجو ربوه أًضعافًا مضاعفة، ثم تجاوزه إلى الرغبة في امتلاك ما يزيد عليه من سواه. وكما قال القائل

نـروح ونغدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لا تنقضي

تموت مع المرئ حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

وقال الآخر

متى تنقضي حاجات من ليس واصلًا إلى حاجة حتى تكون له أخرى

والنفس إذا ذاقت طعمًا رغبت فيه، وصعب عليه هجرانه وفراقه، وإذا رأت منظرًا أخّاذًا فتّانًا أو شيئًا جميلًا مبهرًا لزم الفؤاد وحدث التعلق به، فيعزٌ عليها البين، ولوكان صلاح أمرها وقوتها في مغادرته، وإذا سمعت ما يطرب النفس أو يأخذ لُبَّ العقل أو أمرًا ما يريحها ويمتعها، ويحدث لها تلك اللذة الداخلية، والنشوة الباطنية لطارت به شغفًا، وأنفقت فيه ولأجله ما يضمن وصاله لها وعدم انقطاعه عنها.

إذا نظرت إليها عجبت منها، فقد تأخذ بالمرء المذاهب، وتذهب به في كل طريق، وتطيح به مع كل رياح جنوبًا وشمالًا، تعصف بسمائه وترعد، وتخسف بأرضه وتنسف، بل قد تجعل صاحبها يهيم بها مارًا بكل المشارب، مغترفًا من كل المناهل والموارد، بل قد تهوي به إلى مواضع المهانة والذلة، وتستذله في مواطن العزة، وتضعفه حينا انتصاره وقت القوة والشجاعة. ثم أنها لئيمة الطبع متقدة الرأي، فلا تعاجله بالأمر بغتة، بل تقدم من المقدمات ما يحدث به تمام الغفلة وانعدام البصيرة، فتذيقه بعضًا من اللذة الخادعة تغريه بها، وتطعمه شيئًا من الأمل الخادع وطول التمني المهلك، حتى يصبح متخبطًا بين أروقتها، حيرانًا بين جدرانها، فما يلبث زمنًا فتتصدع ذاته بذلك أو يكمل بتلك الحال بعد أن يستمرئها، ويقوم عليها صلبه وقوامه.

لذلك فإن مراجعة النفس ومحاسبتها، ونقد الذات ومسائلتها، بحيث لا تجر المرء إلى ما يستقبح ويسترذل ضرورة ملحة ومطلب هام، وقوام ذلك في المحاسبة والمراجعة والنقد للنفس وأفعالها، لا قصدًا للتعذيب والجلد، وإنما رومًا للتقويم والتصحيح والاعتدال، لا شطوطا بين الإفراط أو التفريط. ومن ذلك التفكير في كيفية رأب صدع الخلل وتقليل مواطن الضعف والزلل تمهيدًا لإزالته. وتلك ظاهرة صحة ودلالة نباهة ويقظة إلا أن ما يفرق تلك الظاهرة الصحية وارتدادها ضارة قاتلة شعرة يسيرة، وهي وإن تعددت إلا أنها ترجع إلى شيئين: الأول وهو إدمان الفكر بطريقة غير سليمة، سواء أكان ذلك من حيث طرق التوصل إلى المعلومات وتحليلها أو استنباط نتائجها منها، وكذلك صحة المعلومات أصلًا في التعاطي لها وقبولها، فهي إن كانت ضارة فاسدة، أذت العقل والفكر من تناوله لها بالتحليل والشرح فيتشرب منها، فتكون رافد فاسد إلى العقل الثاني، وهو جلد الذات بشكل قاسٍ شديد لا يقبل، فتكون النتائج من ورائه غير محمودة أولعلها ذات نفع ولو هُنية يسيرةٍ. كأنها تقوم بذلك بمحاكمة غير عادلة ليس فيها إلا طرف واحد يهاجم ويعنت ويشدد، فالكل فيها قائم بالجور والشطط،

حتى قاضيها يصدر الحكم غير نابع من الإنصاف، بل بالشدة الطاغية المفضية إلى الهلاك لا إلى البناء. والنقد بهذا الشكل يوصف بالسلبية المجحفة، ويتحول إلى كونه معول هدم وداعي خراب وفساد .

ثم لنتساءل، هل تصارع الأفكار وتوالي الأراء وإن اختلفت، وثوران أليات النقد مهلكة للفرد؟ محدثة فساد ولو على امتداد الزمن الطويل. إلا أن الأمر لا يتوقف هنا فحسب، بل تستشري موجة ضارة في العقل من آثار ذلك من الشك والتردد والهوى والميل والنزعة إلى ذلك، والرغبة عن هذا لا على معيار من التعقل والرشد، بل على نظر من الهوى والرغبة. غير أن هذا من طبيعة العقل أن يكون ذا شك أحيانًا وتردد أوقاتًا أخرى، غير إلا يكون ذلك داعيًا إلى خلل أو مرض، بل قد يكون من المحمود في بعض الأحايين، وله تفاصيله فهذا في مبدأ الأمر، فنذكر أن الإنسان كائن حي يفرق بينه وبين غيره من الكائنات أمور، منها التعقل والإدراك والتفهم والتصور والخيال. وكل ما سبق قد يؤدي، بل هو لازم منه حدوث أي شيء من التصارع الفكري أو الاختلاف بين هذا وذلك، بين الرغبة والإرادة، بين أمر العقل وعاطفة القلب، وهذا جزء من حقيقة الأمر ليس إلا. فلننظر إلى الإنسان أولًا، تجده عاطفي متأثر، يحمل المشاعر من حب وكره، وإعجاب وسخط. فإذا عملت تلك المشاعر واختلطت مع بعضها، خاصة إذا جاشت واحتدت وبلغت ذروة الأمر وغايته، قد تنتج نوعًا من الاضطراب، أو اشتداد الرغبة تجاه أمر بعينه. ثم انظر إلى الشطر الآخر، وهو العقل، لاسيما إذا علا فيه معدل الذكاء والفهم، ومستوى الإدراك والتحليل والتصور، فتجده يفصل البيانات الداخلة إليه بشكل عقلاني بحت بناءً على القوانين المنطقية المجرده، لينتج من اختلاف هذا مع ذاك ثوران وتصادم وصراع أحيانًا، وإن كان الغلبة ستحسم لأحدهما في نهاية المطاف، ويعلن المهزوم استسلامه وانسحابه، غير أنك تلمح في ذلك التصارع بين الأفكار المنطقية والعواطف النفسية، لاسيما إذا تعارضت في الأمر

الواحد كعدوين لدودين، لا يترك أحدهما لصاحبه مجالًا من حركة أو مساحة لرجوع

ثم قِس بعد ذلك، انقسام الناس على هذين المذهبين، وتفرقهم حوله طوائف شتى، بين مناصر أو معادٍ أو تابع، وهذا أيضًا قائم على ما قبله من قانون التغيير والتنوع بين البشر في كل شيء بنسب متفاوتة، والأمر هنا ليس بمعزل عن صاحبه، فالبشر ليسوا جميعًا على مستوى واحد من التعاطي للأمور، وتحليلها واتِّباع صحيحها، والتمييز بين سقيمها وفاسدها من صحيحها ونافعها، بل اختلافهم حتى في القدرات العقلية والمعرفية والعاطفية والنفسية أمر معروف. فأنت تجد في دنيا الناس الغني والفقير، العامل والسيد، الشريف والوضيع، الحاكم والمحكوم العبقري والأحمق، السريع الغضب والبليد الحس، إلى آخر ذلك. وهذا يجعلك تقسم الناس في الحياة إلى طبقات مختلفة، غير أن هذا التقسيم ليس مصطنع، بل هو حقيقي واقع فيهم كجِبلَة متأصلة في الطباع، أو حالة أو صفة أو عادة مكتسبة بالتجربة أو المحاولة والتعلم، فما عملك في هذا إلا الملاحظة والتَقّيِّد ثم التحليل والتفصيل، فإن انقسامهم لتلك الطبقات أو لنَقُل تمايزهم بهذا الاختلاف يقوم بناءً على مجالات مختلفة، وأحوال متنوعة تبعًا لاتصافهم بها أو تفرقهم حولها سواء أكان ذلك شيئًا طبيعيًا أو مكتسبًا من خلال حياتهم وتجاربهم فيها، فهو ليس تميزًا لهم ككل، بل هو اختلاف وتفرق طبيعي وهو أحد قوانين قيام الحياة، وسنأتي إليه فيما بعد وهذا يولد شيئًا من الصراع لا بمعناه السلبي بمعنى التقاتل على الفناء، والتحارب من أجل النهاية، وإنما بمعنى الاختلاف الواضح، والمتمايزة الظاهرة بدرجة تجعل هذا الخليط مثلًا لا يمكن دخوله مع الآخر في تقارب. لأن معنى تقاربه هذا، إزالة وطمس شيئًا من تميزه وانفراده، والرضوخ تحت تمييز الآخر وتفرداته. ثم إن الصراع هنا، لن يكون بمعنى التناحر، وإنما بمفهوم الاختلاف والتمايز، فلو أعمقت النظر شيئًا يسيرًا، لو وجدت أن هذا الصراع جزءٌ لا ينفصل من الطبيعة الكبرى الواضحة، بل تكاد تلمح حقيقة الدنيا

نفسهـا ونشأتها على الصراع، بل لا تكاد ناحية من نواحيها، إلا والصراع جزء متأصل في جوهرهـا، لا بكونها مخلوقة به، بـل لكون من فيها، تمايزوا وتغايروا واختلفوا، تجد صراعًا على الحياة والبقاء، صراعًا على المادة والنفوذ والسلطة، صراعًا على مصادر العيش، بل تجـد أيضًا صراع الناس فيم بينهم من أجل الكثـير من الأمور، منها مثلًا الانتصـار للحقيقـة أكانت مجردة أو ذاتيـة أو كقيمة عليا للوجـود، أوالذات والنفس. حتـى تصل في ذيل القائمة إلى صـراع الإنسان مع نفسه بين ما تطلب وتشتهي وبين ما تملـك وتريد، وبين ما ترغب فيه وما هو ممنوع عنها. حتى ترى مبدأ المغالبة والصراع متجذرًا فيها لعلل متنوعة. بل لو أقبلت بنظرك إلى الجماد، فرأيت ما فيه من التصارع كذلـك لذهلـت، وهو البقاء للأقوى والأصلـح من عوامل ذاتية فيـه وعوامل البيئة من شمسـ وأمطـار ورياح، ومن اختلاف كميـات وصول ذلك إليه ومـن تأثره بالحرارة أو البرودة بدراجتها. وعلى هذا فقس في الزروع والنباتات بأنواعها وأصنافها.

الإنسـان بقوانينه، يعلنها مدوية أنه يريد التحكم في فعل الإنسان الآخر الإجرامي أو التهـوري، أو المندفع القائـم على أذية الغير أو سلبه حقـه وانتزاعه منه، لذلك قُيِد بسـن قوانين وأعراف ، كانت فيها العقوبـات للزجر ردعًا وتخويفًا . أنشأها لخوفه من طغيان الآخر وعتوه واستبداده وظلمه، فأنشأ القوانين والحدود منعًا للصراع والاقتتال والبغـي. ثم لو نظرت نظرة سريعة شاملة إلى الأمـر، لوجدته معج بالصراع الفكري، والطائفـي، والعرقي. أيًا ما كان، كل هذا بين طبقات مختلفة وثقافات متباينة وأعراق متباعدة، ثم تطغى وتسيطر عواصف من الجشع والطمع والخوف والاضطراب والقلق، لا يهدأ وطيسها أو تخفت نارها .

ومـؤدي ذلك كله، يرجع إلى الرغبة والتملـك، فطالما امتلك الإنسان خاف الفقد، ثم بدأ يظلم غيره مما لا يملك مثل ما معه، أو آخر يرجو أن يكون مثله فينافسه ويأخذ مكانـه. وهل سفك أول دم على الأرض إلا مـن أجل الرغبة والتملك! ثم اكتسى مفهوم

الامتلاك مع امتداد الزمان وتطاوله أنماطًا جديدة ومعانٍ أخرى، الإنسان في حقيقة حياته على الأرض، لابد أن يحصل على ما يأكله أو يشربه وغيره من الاحتياجات الأساسية، وانظر إلى هذا الأمر منذ البداية، حتى يتضح لك شيئًا من الصواب.

الإنسان في بدايته الأولى كان يعيش وينتقل من مكان لآخر بحثًا عن الغذاء والقوت، فكان يَغِير على أقوام فيسلب ما عندهم ويمنعهم حاجاتهم وممتلكاتهم، ثم يعقد صلحًا مع آخرين لا قِبَل له بهم وبمجابهتهم . ثم كانت الزراعة، وهي كانت موجودة منذ مبدأ الأمر، فآدم -عليه السلام- كان يحرث الأرض وكان أول من اشتغل بالزراعة، ولكن المقصود هنا بمفهوم التملك من خيراتها حين كثر نتاجها، فأصبحت هناك أملاك كثيرة، فكان هناك سيد ومالك، وعبد وأجير، فبدأ التدرج في الطبقات يتضح شيئًا فشيئًا، ثم تلا ذلك اندلاع الثورة الصناعية، فأصبح هناك سيد ومدير وعامل وخادم، وتطورت الحياة وأخذت تنحني مناحي شتى، بعضها نافع والآخر ضار. وتطورت الحروب فصارت أكثر فتكًا حينما اخترعت الأسلحة الحديثة، وكانت هناك الترسانات العسكرية، والأساطيل البحرية المزودة بأحدث ما وصل إليه من الآلات الجديدة، وأسفر الفقر بشكله القبيح والاستغلال بأدنى وأحط ما وصل إليه، ولعل بينهما علاقة واضحة . ثم كانت الثورة الثقافية، وكانت متلازمة الأمرين السابقين من تطور الزراعة والصناعة بشكل غير مسبوق، ازدياد العلوم والمعرفة والاختراعات، فكانت الثورة التكنولوجية المعلوماتية، وأصبح العالم يتجه نحو الاستغناء عن البشر بإحلال الألة والروبرت الإلكتروني مكانه في المصانع، وتنفيذ المهام والأوامر وإن كان بشكل جزئي، وهو بذلك يقوم بإحلال العقل الصناعي الإلكتروني عن البشري . ثم اتجاه العالم إلى تكتلات من دول متقدمة، وأخرى متخلفة عنها في ركابها، ثم تستفرد بتلك التقدمات لها وحدها لتكون لها السيادة والسيطرة في جميع المجالات الاقتصادية العسكرية. ويكفيك فقط أن تنظر إلى التقدم العسكري وحده، وما أنفق فيه من

ميزانيـات وصنيعات وتسليحات بشكل جاوز حدود المنطـق، كل دولة تقوم بإمكانياتها القصـوى، بشكل لو أرادوا تدمير الكرة الأرضيـة كاملة مئات بل الآلاف المرات، لفعلوا غير أن هذا ليس المقصد، وإنما هو استعراض القوة للتملك والسيطرة، وفرض النفوذ والاستغلال بأنواعه، ومانتاج ذلك كله إلا الهلاك والفناء لو غيمت سحابة حرب قادمة فاستعـدي العـالم كله على بعض، حتى يهلك بعضه بعضًـا، وما وصل ذلك إلا الحرص والطمع والتملك.

في حقيقـة الأمـر، إن الامتلاك والمـادة وما في ذلك المعنى يولـد عنهما من معاني الاحتيـاج والطلب الشيء غير اليسير، يوجد في الدنيا الفقر والحاجة بمختلف صورها وأحوالهـا، وهو الذي يرهب منه النـاس ويخافونه وحيثما وجد في الإنسان الفقر، وجد فيـه الرغبة التي أساسها التملك، ثم رغبـة أخرى في امتلاك ما عند الغير بل الزيادة عليهـا، أو رغبـة في نزعها منه لخوف أوجل، ويغذيه في هـذا وقود الحقد والحسد، ثم تزداد تلك الرغبة بالتنافس والحرص على الامتلاك أكثر فأكثر، ويقويها آمال وأحلام وأمنيـات يتردى صداها في العقل ثم توغر القلب وتمـلأ الصدر، وتنتشر وتسري حتى تتفاقـم وتصير رغبة ملحة وحاجة ضرورية، فيبـاح لأجل تحقيقها ما كان يراه حرامًا فيتجاوز الحـدود والضوابط، وتجده يزأر في القوم بأن غايتـه نبيله ومقصده شريف، كأنمـا يـبرر لنفسه ولغيره سوء فعلـه وقبح صنيعه. هذا إذا اعترف أصـلًا بأن ما أتاه سـوءًا وشـرًا، ولم يتنكـر للأمر برمتـه ثم يمضي في ذلـك والطمع وقـوده والجشع ما يحركـه، ولازم ذلك الحرص والبخل، ولازمه الحسد والشح فيستشري فيه سوء الخلق والرذيلـة والكذب والخيانة والبغضـاء والكراهية، حتى يغرق في هذه الصفات فتصير طبعًا من طباعه ينسب إليها ويعرف بها.

لذلـك، فأنت تجد الطبيعة في ذاتها تقوم على مبدأ التناقض والتضاد، بين الحياة والموت، العلم والجهل، صلاح الأخلاق وانتكاسها وهو قبل ذلك كله التكامل بين الخير

والشر، فكل منهما مستتبع لآخر لازم له، كأنه ضرورة حتمية لبقائه، فلولا أن هناك شر ما عرف الناس الخير، إذ كيف يعرفوه وهم لمَّا يروه أو يعلموا خبره. وهذا يسوقك إلى يقين آخر، إذا علمته انكشف لك من صفحة الغيب شيئًا عظيمًا، وهو حتمية الصراع بين الحق والباطل، فأنت لا تعرف الحق إذا لم يكن هناك باطل، ولا تعرف الصدق إذا لم يكن هناك كذب، فأنت تعرف الشيء بنقيضه وعكسه، إذ هو المعرف الحقيقي له بطريق التضاد، فلو قلت لك، ما الصدق؟ فلو أجبتني وقلت، هو عدم الكذب كان تعريفًا صحيحًا ولكن بطريق السلب والتضاد، وفيه تعريف الشيء لا بتوضيحه بطريق الإيجاب وهو بيان معناه بحدوده الظاهرة فتجعله محددًا لأفراده، وما استفاد ذلك إلا بطريق السلب، الذي يعتبر المعرف الأول للشيء بضده ومن أمثلة ما يدل على ذلك، أنه لولا الجهل ما كان هناك فضل للعلم، ولولا الجاهل لما عرف فضل العالم، ولولا التدرج بين العلماء والتفاضل بينهم ما كان هذا الثراء الفكري والثقافي والعلمي الذي نشهده الآن، لو كان الناس كلهم علماء عقلاء، كيف يعرف فضل هذا على ذاك، وأيٌّ فضل للمماثل على المماثل إذا تشابه من كل وجه!

فلو أن الناس كانوا كلهم أهل فضل وعلم وكرم وكانوا كذلك أهل ذكاء وبصيرة وحكمة، فكيف إذا تستقيم الحياة ويعمر الكون وتقوم المعايشة، والله تعالى خلق الكون بسنة الاختلاف والتدرج والتنوع والمغايرة على جميع المراحل والأنواع، فلم يجعل البشر شيئًا واحدًا من حيث الهيئة الظاهرة، بل نوع بينهم فهناك مليارات البشر على الكوكب، وأنت تشاهد الاختلاف في كل واحد منهم، من حيث غالب الأشياء، فهم أن تشابهوا، غير أنهم مختلفين مثلًا في الطول واللون والحجم والشكل والبصمة، وانظر كذلك إلى الاختلاف بين الأطعمة والأشربة، واختلاف الأذواق والألوان والأجناس، واختلاف معايير البشر في تقدير أو تقييم القيم المادية أو المطلقة مثل الجمال وغيره، وقديما قالوا "لو اختلاف الأذواق لبارت السلع".

وقد أحسن القائل

في كل ساقطة في الحي لاقطة وكل نافقة يومًا لها سوق

ولذلك قالوا أيضًا كقاعدة عامة" اختلاف المعنى أو التضاد يبرز المعنى ويوضحه".

الوجه الثاني: ـ أن الحياة لا تقوم على طرف واحد، ومادة واحدة بل الأرض لا تصلح إلا بعناصر مختلفة، ولو اختل عنصر واحد منها، لاختل ذلك النظام الطبيعي. فهي لا تصلح إلا بالاجتماع والاقتران أو التزاوج . فآدم –عليه السلام– خلقت حواء من ضلعه لتكون معه أنيسًا وسببًا في امتداد وتعمير ذريته. ونوحا –عليه السلام– لما حلَّ الطوفان بالأرض وأغرق العالم بأجمعه، فأخرجت الأرض ماءها وفتحت السماء بماء منهمر، فما كان منه إلا أخذ من كل زوجين اثنين للتكامل واستمرار الحياة في طبيعتها الأولى. فالفرد لا يستقر فقط مع نفسه، ولا يطمئن إلا بغيره، ولا يحيا إلا في جماعة غالبًا. وقال ابن خلدون في مقدمته، "الإنسان مدني بطبعه".

وقال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدموا.

وقال المعري:

ولو أني حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادًا

فالله –عز وجل– لما خلق الخليقة، جعلها مبنية على الاقتران والجمع وقد ذكر تعالى تلك الحقيقة في كتابه، فقال تعالى "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون" و"شيء" هنا نكرة، وكما هو معلوم عند علماء اللغة أن النكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، ثم ضمنت بلفظ "كل" الذي هو من أقوى صيغ العموم، وهي كذلك تدل على الاستغراق والشمول لجميع العناصر، وأفرد اللفظ المذكور بعدها، وبهذا يشترط أن تكون مضافة. كما هو الحال هنا، حيث أضيفت إلي" شيء" الدالة على الإطلاق والعموم فدل هذا دلالة واضحة على أن الأصل في الأشياء التثنية والقِران، لا الأحادية والأفراد.

ثم انظر إلى الآية الأخرى التي تزيد الأمر تفصيلًا وتوضيحًا، وهي قوله تعالى "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون".

فانظر هنا إلى كلمة "الأزواج" المعرفة بالألف واللام، وهي مؤكدة لمعنى الآية الأولى، ثم حتى لا يقول قائل، نعم هناك أزواج، لكنه لم ينفي الفردية فأكدها بلفظ "كلها"، ليؤكد المعنى الأول ويوضحه ثم حدد أجناسها في ثلاثة فقال الجنس الأول:. ما تنبته الأرض وتخرجه من ثمرات ونخيل، والجنس الثاني:. هوالإنسان، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، ولعل كلمة النفس لها دلالة خاصة هنا، وهي كل ماله روح ونفس، فيعم الإنسان وغيره من الحيوانات، والمقصود بالحيوان، لا ما يتبادر إلى الذهن من كونه الحيوان المعروف، ولكن المقصود به ما حيِيَ في هذه الدنيا، وكان له نماء جسد، ناهيك عن كونه عاقلًا أو لا، فيعم جميع ماحيِيً على الأرض. وقد ذكر تعالى ذلك المعنى في كتابه فقال سبحانه "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان"

فليس المقصود جنس الحيوان المعروف، ولكن المراد به هو الحياة وما تحيا به الأنفس والأجساد ولكن الضمير في الآية "هم" المضاف إلى كلمة "النفس" يشير إلى الإنسان خاصة لا إلى غيره، والمراد بأنفسهم هنا، لفظي أي أشباههم . والجنس الثالث:. وهو مالا يعلمون، وهو ما غاب واستتر عنهم فلا تدركه أعينه، ولا تسمعه آذانهم، ولعل المقصود به الجن، وهو في تفسيره اللغوي ما غاب واستتر، ولكن أهو محصور بهم، لا يتعداهم إلى غيرهم -الله أعلم- فقد تكون هناك مخلوقات أخرى لا يدركها الإنسان ولا يعلم عنها شيئًا، وقد يكون المقصود الجن لخفائه، وفي كلٍ كما قال تعالى "مما لا يعلمون"

إلى غير ذلك مما يثبت أن الأصل في الحياة التزاوج والاقتران، وهذا به تمام الحياة واكتمالها. لنعد إلى معنى الصراع مرة أخرى، أن الصراع المقصود هنا ليس هو بالمعني المتسارع إلى الذهن، وإنما هو دورة حياتية متكاملة، فهو صراع تكامل

أو كمـال في جـزء منــه، وقد يقـال هنا في معنى يـكاد يكـون منفصـلاً، إلا أنه يقرب المعنـى بشيء مـن التوضيح، وهو أن الحيـاة لابد فيها بشيء مـن الفساد ليصلح حال الأرض، وليتـم التفاعل بـين النـاس، إذ كيف يكون هنـاك تفاعـل إذا لم يكن هناك تنافـر واختلاف أصلاً، وقلنـا سابقًا أن الظلم عرَف العدل، وجهـل الإنسان وعدائيته أدت إلى ظهـور العلمـاء والمصلحـين والمفكرين وهكـذا. ثم إذا لم يكـن هناك ظلم أو فسـاد أو انحـلال، فما قيمـة هذا المصلح أو المفكـر ويصلح ماذا - أصـلاً - إذا كان كل شـيء في أتم حـال وأحسنـه. ولذلك أنت تـرى المفكرين القدامـى أو المحدثين، أخذوا يتصـورا مدنـا فاضلة خالية من الجـور والظلم والخراب والقتل، ليس فيها إلا الحق والعـدل والنـاس هنـاك منعمين، والحيـاة في أقصى جمالها وزينتهـا، وأخذ يبني على ذلك الأحلام والتصورات، ويستصرخ العقل، فيعطيه من أمثلة ذلك ما يعينه على بيان فكرتـه واتضاح مثاله. وآخر ذهب على العكـس منه تمامًا حيث المجتمع فاسد والمدينة منحلـة، عمَ فيها الفوضى والانحـلال والجريمة حيث الخبث والمكـر والدهاء والناس هنـاك يتسربلون في شباك من الفقر والمرض والألم والخوف. ديستوبيا مخيفة وعالم عنيـف قاسٍ فكانت نظريتـه سوداوية قاتمة، حيث لم يجعل هنـاك مجال حتى لانتصار الخـير، كأن الأمـر شر محض، لا طوق نجاة ولا متسع لقلب الأحداث إلا بدراما مريرة مرعبة قابضة للصدر.

غـير أن الدنيـا عند التحقيق، لا هذا ولا ذلك فهـي ليست جنة حيث كل شيء فيها جميل حسـن، ولا نار حيث الألم والعذاب، ولكنها دار عمل واجتهاد فيها الشقاء والألم والوجـع، وفيها أيضًا السعادة والخير حيث الخير والشر، والحق والباطل، والمصلحون والمفسـدون في تصـارع دائم إلى يـوم القيامة، فاللّٰه تعالى لما خلـق الخلق لم يتركهم، بـل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكـون للناس على اللّٰه حجة بعد الرسل. "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي

القري إلا وأهلها ظالمون". وأيضًا "وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا" ثم أنزل الكتاب بالحق ليقوم الناس بالقسط والعدل وجعل موازين الحق والصواب، والباطل والضلال واضحة بينة، وبين الطرق، وجعل علامات لطريقه، وقال "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" فجعل له علامات توضحه غيره من الطرق الضالة الخاسرة. لذلك كان عليه -الصلاة والسلام- يقول كما أمره ربه داعيًا إليه "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني". فبعث تعالى كل نبي إلى قومه ليعالج ما وقعوا فيه من الزلل والخطأ، فيهديهم ويرشدهم إلى ما فيه الخير في دينهم ودنياهم، فوضع القواعد الصحيحة والمناهج القويمة لصلاح البشرية جمعاء، وهدايتها ومع ذلك لم ينتهِ مبدأ الصراع، فتجده متجذرًا متأصلًا، بل تجده في أبشع صوره، حينما يناصب المجرمون الرسل والأنبياء والصالحين العداء والبغضاء فينادوهم بما لا يليق أو يحسن بمثلهم، ثم ينتقصونهم قدرهم، ثم يدعون عليهم سفهائهم وطائشيهم وغلمانهم، ثم ينابذونهم العداء الواضح الصريح بالتهكم والاستهزاء والمعاندة بالقول والفعل، ثم نهاية بالتعدي عليهم والتنكيل بأتباعهم لو قدروا أو استطاعوا، فيضعون المخططات ويدبرون المكائد للتخلص منهم، والله تعالى من وراء الكيد بهم عليم وعليهم قادر. ويذكر تعالى ذلك فيقول سبحانه:

"وكذلك جعلنا في قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون" وقوله تعالى:

"وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا"

وقوله عز وجل:

"وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين يوحي بعضهم إلى بعض زخرفًا القول غرورا ولوشاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون، ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون"

وللآيـة دلالات وإشارات هامة، غير أننا قد نتعرض إليها فيما بعد. ولازم السابق، نقـول إن لزوم وحتميـة مبدأ الثواب والعقاب والجزاء والمحاسبـة، يعد أحد أسباب ما سبـق ذكـره، وأن كانت له أسباب أخرى، وقديمًا قالوا "مـن آمن العقاب أساء الأدب" وكل عمـل يصنعـه الإنسـان، إمَّا يستوجب عليـه ثوابا لإحسانه وفضلـه وإما يستوجب عقاب لإساءته وظلمه، والمثل بالمثل، والجزاء من جنس العمل.

وأختـم، بـأن الإنسان إذا نظـر إلى مبدأ الصـراع وحقيقته وأنواعـه ومآلاته، بل وأسبابه قبل ذلك، وما منها ضروري وما منها غير ذلك، لتفتحت له من أبواب السعادة والفهـم الشـيء الكثير فيعلم مثلًا، أن الصراع حقيقة لن تنتهـي أبدًا مادامت السماء والأرض فهي منذ بدء الخليقـة إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فيورثه ذلـك شيئًـا من الطمأنينـة، والعمل على علم وفهـم ثم حسن التدبـير، والعلم بمآلات الأشيـاء، ثم أن الناس لابد أن يناصبوه العـداء إذا أراد الحق والإصلاح، بل هكذا بلا شيء، لتنافر الطباع واختلاف القيم، واتِّباع طرق زائفة معوجة إلى آخره.

ومـن جميـل ما ذكر في ذلك، قول ابن عمر، قال "الدنيـا دار التواء لا دار استواء، ومنـزل ترح لا منزل فـرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببًا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي"

ومـن أدرك ذلـك، وتعاطى مع الأمـور لا بنظره هو، ولكن بنظـر من عرف حقائق الأشيـاء وأسبابهـا وعواقبها، وطبائـع الناس، وقوانين الكون، وحقيقـة الدنيا وقوانين المسـير فيهـا ثم أعطى ذلـك شيئًا من العقـل والتفهم، ظهر له الصـواب في كثير من القضايـا، واتسعت بصيرته لكثير من الأمور، وأصبح ذا قدرة على تفهم الآراء كلها في مسألة واحدة، وأن يجمع بين الرأي ونقيضه، والحال وعكسه في إطار الشمولية العامة المستوعبة لكلا الفعلين من حيث الأصل والمصدر واتِّباع الناس لهما أو اختلافهما حول ذلك، وهكذا.

نظرة على التغيير

جئنا إلى الحياة مكوثنا فيها زمنا محدودًا وفترة مؤقتة وأتينا إلى الدنيا، وهي حادثة ناشئة من العدم مسرعة إلى الهلكة والفناء، فشابهتنا وشابهناها، مخبرة لنا أنها عمرت أجيالًا كثيرة وأعمارًا متطاولة، فهامستنا بخبر من حوادثها، مجلية بعضًا من غوامض السر وكوامن الباطن.

فمرور الزمان ودوران الأرض وتعاقب الحدثان منذ النشأة الأولى إلى الآن حقيقة صارخة في وجه كل أحد إلى النظر والتعقل، والانتباه لهذا الأمر العظيم فكل شيء تجده هكذا ماضٍ إلى الفناء، غير أنه يمضي بسلسلة متعاقبة من الأحداث والمراحل بعضها يتبع بعض، وإن حلّ ذلك على فترات متباعدة، متضمنة نوعًا من الاضطراب وغيرها، في إطار صحي للأشياء من ناحية معينة، سبق الحديث عنها.

وليس المقصود بالدنيا فقط الأرض، ذلك الكوكب المعهود بالذكر دائما، وإنما هذا الكون بشموليته وعمومه، فذاك الوصف الدنيوي يوحي بهذا كله، بل ويدخل فيه ما يتضمنه المعنى من الأجرام السماوية والظواهر العلوية إلى أصغر شيء في الكون أو على الأرض، والإنسان جزء لا ينفصل عن تلك الطبيعة. فالحياة لو أردت تجزئتها بمجموعها، لقسمتها إلى شطرين، الأول: - الطبيعي. الثاني: - البشري. فأما الأول في جانب الإنسان مثلًا، فهو في انتظام خلقته بشكل دقيق مبدع، ونظام مبهر من مروره بأطوار متعددة، من كونه جنينًا إلى ولادته إلى اكتماله وبلوغه حد الشباب ثم ارتداره كهلًا ضعيفًا، إلى ما تخلل ذلك من ملايين العمليات الحيوية والإبداعات الربانية، وفي تلك الخِلقة الداخلية من أنظمته الحيوية وأجهزته وأعضائه، ثم هيئته الظاهرية، بل في جميع تكويناته المُشَكِلة لهذا الهيكل البشري، وما احتوى على إعجازٍ وإبداع.

ثـم تجد الاختلال يحدث من جانب كونه بشريًـا، أي من حيث التعامل والتصرف البشـري مع الوجـود الطبيعي بحد ذاته. فذاك التنـوع والاختلاف الذي ذكر قبلًا من الناس من يدركه، ومنهم من يدركه ويغفل عنه، ومنهم من لا يدركه أصلًا فمن أدركه أصلـح الخلل وحاول التقريب، وأزال من أسبـاب النزاع قدر استطاعته، والثاني أدرك ولكنـه تعامى، والآخر لم يدرك أصلًا فأساء، ثم أن هذا الاختلاف والتنوع لهُ تلازمات ومقتضيات ونتائج، لن نَأتي عليها جميعًا، ولكن سنمر على بعض منها سريعًا، وقد ذكر طرف منها في المقال السابق فبديهي الاختلاف والتنوع، هو التغيير والتبديل. فالتغيير قـادم لا محالـة، وهو مـن السنن الكونيـة الظاهرة، غـير أننا قد ننسـاه خلال مضي حياتنا، قد يكون لأننا غير ممارسين له، أو لأننا قد ركنا إلى حالة واحدة اطمئنانا لها فلم نرجو تغييرًا عاجلًا، أو لأنه من سنن التغيير الكوني، أن التغيير يحدث على فترات أو مراحـل قـد تطول أو تقل، بناءً علـى تحرك الإنسان نفسه وفعلـه، وإتيانه للأمور أو تركه لها وقبل أن نكمل، إن حقيقة التغيير هذه ملائمة للإنسان، من حيث أن كل شيء يعتريـه التغيـير فهو ناقص غير كامل، لأنه ما تغيـير إلا لحالة معينة جعلته يلائم تلك الحالـة الجديدة أو هذا الوضع المستحدث، ولذلك فالتغيير في الكمال نقص، والتغيير في النقصـ كمال.. فكل مـا كان ناقصًا سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو غيره، يحتاج إلى أن يكتمـل فيتغـير ليلائم المظهر الجديد. وليتقلب في أطـوار الدنيا وصفاتها ومافيها، فيتقلـب مع الدنيـا متغيرًا في أطـواره وأطوارها كذلك وتتقلب معـه الدنيا متغيرة هي أيضًا، فيتقلب في طبيعته البشرية، المحكوم عليها في بدايتها بالضعف والظلم والجهل، فأخذت تتغير لتحذف عن نفسها ما كان فيها من الفساد والظلم، فاكتست معاني القوة والعلم وشيئًا من العدل في نموها، وهكذا تتقلب في هذا المعاني.

ثم أنت تجد ركون الإنسان وميلانه لحالة واحدة طوال عمره، يفسده ويهلكه فهو لا يستطيـع مثلًا من الناحيـة الطبيعة أن يكون في شغل دائم أو نوم متصل، بل هو متقلب

عليهما تقلب الليل والنهار ومن هنا جاء التوسط والاعتدال، ليس لأنه الأفضل والأكمل، ولكن لأن ذلك ما يلائم تلك الطبيعة الضعيفة، المؤدي به إلى حياتها، فليس أحد مثلًا يقول بأن الزيادة في الخير شر، إلا أن الزيادة عند الإنسان بشكل يجاوز الحد فيها المفسدة، بل أجترئ وأقول فيها مقتله فتجاوزه في الخير أصبح شرًا، لا لكونه زاد من الخير، فالخير خير لا ينتج إلا خيرًا ولذلك فإن الشر لا ينتج من الخير أبد، بل لأن الطبيعة المخلوق عليها محكومة في كل شيء، فكان التجاوز على قدرها ضرر فادح لها وأذية لأعضائها، وحينئذ يكون الضرر في التجاوز لا في الأصل نفسه، ثم هي لا تتضمن إلا جزء يسيرًا، فناسبه جزءًا من الخير يتم به صلاحها، وإذا زاد عنها أورثها التخمة والترف والإسراف، وكفى بكل واحدة منهما إثمًا كبيرًا وشرًا مستطيرًا. فكيف به يهمل هذا المبدأ، ويظن ناسيًا أو غافلًا أو جاهلًا، أن تلك الزيادة نافعة له، وماذاك إلا أنه أغفل نواميس الكون، وسنن الله في الخلق، وحقيقة الإنسان وأصله. وأنت تجد تلك الأشياء واضحة عند النشء الأول من الصحابة -رضوان الله عيهم- ومن تبعهم على مناهجهم وطرقهم، أو المفكرين المصلحين، أو الدعاة النابهين، أو غيرهم ممن انفردوا عن الدنيا قليلًا فنظروا فيها وتعلموا من حِكمها، وأبصروا المشاهد على ما هي عليه، ففطنوا.

وانظر إلى القرآن كيف أشار إلى طمع الإنسان بآية غاية في التوصيف الرائع الرائق، الذي ما من بعده بيان وهو قوله تعالى "قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا"

فهذه الآية تبرز قضية الزيادة عند الإنسان ورغبته في التحول من حال إلى أن يصل إلى أعلى الأحوال، ثم لا يرضى بل يفتش عن غيرها. وأظهرت طبعًا في الإنسان وجِبلة فيه، وهي الحرص والإقتار وهذا عجيب حينما يتوفر معه خزائن الرحمة فيمسكها، فبيده مقادير الأشياء فيمنعها لا لشيء إلا لسوء طُوية منه، ولطبع ركب

عليه، فليس بُخْلَه متعلق بالمال، بل هو متعلق بغيره، وهو الخوف الجبلي والقلق الدائم فيمنع لشرهة النفس وسوئها، ولو قنع لأعطى وأنفق وأسخى، وقليل فاعله؛ أي يخرج من شح تلك النفس القابعة فيه إلى سعة رحمة الله وعطائه ووعده، فلو أعطيت ابن آدم وادي من ذهب، هل على هذا مزيد وبعده متطلع لرغبة ومطمع. إذا به تطغى نفسه طالبة أخرى، لا للزيادة، بل لشر تلك النفس وعدم أدبها وترك الزمام لها، فقليل يكفي ابن آدم غير أنه شَرِهٌ طَمِع. ثم هل يسكت بعد الواديان ويرضى، لا، بل يرجو المزيد، وهو ليس بنافعه، ياليته كان ينفعه، ياليته كان يعينه، بل هو ممن يسعى لحتفه بظله كما يقولون ، فكيف الظن بالإنسان الذي لو أعطى خزائن الأرض كلها لأمسك.

ولهذا كان على الإنسان مغالبة نفسه وهواه ورغباته، فيحدث عنده نوعًا من المقاومة للفعل، ثم تقوى على مرور الوقت أمَّا أن يكون كل شيء متاح عنده، وكل ما ترغب فيه نفسه يقربه، وكل ما يشتهيه يفعله، فهذا منطق النفس الضعيفة التي لا تصبر على شيء، والمفاسد المتوقعة من هذه النفس أكثر من أن تحصى، فهي لا تصبر على نصرة حقٍ، ولا تهاجم باطلًا ، أو تصبر عنه لذلك لو اتبع هواها في سبيل مراضات رغباته وإرادته، لأفسد نفسه أولًا ثم أهلك ما حوله، بهذا التصرف الأرعن من نفس غير مسئولة، متهوكه، متناقضة . والله تعالى يقول عن ذلك "ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتينهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون"

وذلك في الأصل راجع إلى طبيعتهم الناقصة، وتصورهم العاجز وإدراكهم المقيد، فكيف بهم يعدِلون عن قوانين الخالق، وناموسه البين ، الناصح لتلك النفس، الذي يرجو صلاحها، وهو الذي يفهم حاجاتها فلا يزيد على ما تطلب، ولا يكلفها مالا تحتمل.

ثم هناك تغيير كوني طبيعي، يحدث هكذا دون تدخل الإنسان فيه، هو من الطبيعية المشاهدة، والتي جعلها الله تعالى بأمره، تتغير في حالات متعددة لصالح البشرية، ولضمان قيام المصالح والمنافع وهناك أيضًا تغيير آخر، وهو تغيير شرعي،

جعله الله تعالى بقوانين ثابتة، لابد أن يباشرها المرء حتى يُطعم ثمارها، فإن تكاسل ونى، لم يحقق الثمار المرجوة وبقي في حاله كما هو، غير أنه لابد أن يصيبه التغيير، ولكنه سيكون سلبي، به من الأضرار و عليه من المفاسد شيئًا كثيرًا، وقد جعل الله لذلك حقيقة راسخة "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" أي أن الله تعالى لا يغير نعمته على قوم، حتى يغيروا ما هم فيه من الطاعة إلى العصيان، ومن الامتثال إلى المخالفة. ويؤخذ منه أيضًا أن الإنسان مادام لن يسعى لتحصيل أسباب النجاح والتوفيق، فلن تصله عند قدميه راغمة مستكينة فما بالحياة يؤخذ بالطلب والسعي، والبذل والمكابدة. أمَّا أن يؤخذ هكذا رعونة وسهولة لفسدت الحقائق، ولما نفع شيء لشيء.

وهنا، يطرح سؤال لماذا لا يتغير الإنسان؟ أو لماذا يصعب عليه التغيير ويشق؟ أو لم كان التغيير مرافقًا لألم والحزن؟ هذا له أمور عديدة، غير أننا يجب أولًا أن نأصل بعض شيء، وهو أن التغيير طبيعة حتمية، لابد أن تصيب المرء، فالأشياء ليست ثوابت جوامد، وإنما متغيرة متنقلة، وقد ذكرنا من نوعي التغيير، كوني لا دخل للإنسان فيه، وهما ما يصيب جسده من حالات التقلب البيولوجية مثلًا، أو تقلبه في تغيير إرادة الاحتياجات وهكذا، ثم قد يكون التغيير طبيعي ولكن يكون استمراره بشري، لنضرب مثلًا، الحزن مثلًا صفة ملازمة للمرء وهو شيء طبيعي لابد أن يصيبه. فابتداءه من لازم التقلب في أطوار الحياة، ثم اكتماله يكون بشري، فإما أن يمنع الإنسان أسبابه، ويصبر نفسه ويخرج من هذا الجو الكئيب، وإما أن يستمر فيه فيستسلم له حتى ينبش روحه وجسده.

ثم إنك تجد الإنسان يحب أن يلزم حالة واحدة فيطمئن إليها، فهو لا يحب أن يخاطر، أو أن يخرج من دائرة أمانه وطمأنينته ثم هو سعيد بتلك الحالة راض بها فالنفس تخبره أن في الخروج مشقة وتعب، ولمَ؟ وفي سبيل ماذا؟ ولمَ الكُلفة أصلاً؟

كانــه يناجــي نفسه متمتما دعنا إنا هاهنا قاعدون لن نخــرج فنخسر، إننا لن نتحرك إلا إذا أخذنا جميع الضمانات على سلامتنا وسعادتنا فيرضى بمكانه الذي هو فيه. لا يحــب أن يتغــرب عن وطنه، ولا أن يخرج إلى ما سواه ثم إذا غادره وتركه كان لمصلحة راجحــة عنده، مثل طلب عمل ومــال أو منصب وجاه، فهو يرجو الحياة المريحة الطيبة ويتمثل في ذلك قول الشاعر:

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكــل مكــان ينبت العــز طيب

ثــم إن هــذا الإنســان ذا عاطفة قويــة. من حيث أنه يميــل إلى الأشيــاء والأماكن والأشخاصــ فتعلقه بالأشخاص شديد، فيربطه معهم بتلــك الرابطة العاطفية، وهي كثــيرة ؛ كعاطفــة الأبــوة والبنــوة، عاطفة الإخــوة، عاطفــة الزوجية، عاطفــة المحبة بشــكل عــام وهكذا فهي تجعله قعيد وطنه لا يرحل عنه، حيــث الأماكن التي نشأ فيها، والأشخاصــ الذين نشأوا معه، والذكريات التي نمت بنموه، ثم دعنا نقول هنا أنه ليس الجميع هكذا، فهناك من كانت له تجارب سيئة، أو منع حقه وظلم و أوذي، فهو يتحين الفرصة للخروج، ويطلب الرحيل والفراق . أمَّا الأول، فتجده يحن حتى إلى البيت الذي كان فيــه أحبابه، فيعلق مشاعره على هذه الجدران الصامتة والحوائط الجامدة، غير أن هــذه الصوامت تحمل آثار من مضوا وعفوا، فيصورها نابضة حيَة بهم، فيرى فيها ملامحهم وأشكالهم، فانظر إلى العرب كيف كانوا ينادون ديار الأحبة، يقول أحدهم:

عفــت الديــار محلها فمقامها بمنى تأبــد غولهـــا فرجامها

فمدافــع الريـــان عُرِي رسمها خَلقا كما ضمن الوُحيُّ سِلامها

إلى أن يقول:

فوقفت أسألهــا وكيــف سؤالنا صمــا خوالــد ما يبين كلامها

عريت وكان بها الجميع فأبكروا منهــا وغـــودر نؤيها وثمامها

فتصــل إلى حــال من التجانس مــع الجماد، حتى كأنك تعــده بمنزلة الحي العاقل

فتخاطبه وتجري عليه المحاورة، ثم تشتكي إليه وانظر لذلك مثلًا حال من ولعوا وأغرموا بتربية الحيوانات والطيور، كيف يجرون معها الحوارات ويشتكون إليها، بل ويخاطبونها وينادونها وماذلك كله إلا شعور العاطفة والقلب، حينما يلقي بظلاله على الخارج، حتى لو كان جمادًا يستنطقه.

أضف إلى ما سبق، أن الإنسان يخاف من المستقبل ويحذره، فيخاف التغير من حال إلى أخرى أقل أو أسوء لأنه لا يدري ماذا يحمله له هذا التغيير، فقد يرضى بالقليل مخافة المجازفة. وفي الحقيقة هو خوف الفقر الذي يمنعه أو يحجزه. كأن فقره بين عينيه ثم هو لا يفهم من معنى الفقر إلا قلة المال وشح وجوده ورعب فقده، ولقد كان الفقر قبل أن يوجد الحجرين والنقدين، ثم وجد بعدهما، أو استكمل مسيرته فما زاد إلا اشتدادَ خشيته والخوف منه، فصار الفقر فقر المال، والغنى غنى المال! ومن هنا بدأ الخلل، ثم كيف لك أن تحاور وإن أسعفك المنطق والعقل من هذا فكره ورأيه، وقد طمس قلبه فأعوج، وعميت بصيرته فانطفأت.

ومن الأسباب كذلك، أنه ضعيف، والتغيير يحتاج قوة تحركه، بل وتستمر به حال التحرك، فلا تقعده في وسط الطريق أو بعد مضي جزء منه، فيحتاج إلى قوة دافعة في مبدأ الأمر، ثم إلى قوة مدافعة مواصلة تعينه أثناء الطريق، فالقوة الدافعة هي التي تحفزه على القيام وتبديل الحال إلى ما هو خير منه، ثم تطرد عنه ما لزمه من العادة الأولى التي هو في سبيل تغيرها، فالتغيير فيه دفع وعمل لما يستقبل، وترك لما قد مضى وانتهى وهذا يحتاج إلى نوع من المقاومة، حتى إذا ما راودته نفسه إلى الرجوع يقاومها، ويدفع عنه ذلك الخطر وفيه يحتاج إلى العلم ثم الحكمة، فيكون لديه من أسباب ترويد النفس إذا اشتدَّت عليه وقاومت هي الأخرى بعنف، فإما أن يكسرها أو أن يطأطأ قليلًا ليمرر تلك الغضبة. فإن تغيير ما ألفه الإنسان من أصعب ما يكون، لا سيما إذا كان زمنًا طويلًا وعمرا تقلب فيه بين الحب والكره والعسر واليسر، فإنه

إذا أراد الخـروج والتغيـير، كأن نفسه تثَّاقَل إلى الأرض، رافضة الحراك، فتبرز هنا نفس الطفل الصغير المدلل الذي لن يتحرك حتى يتحقق له مـراده ويشبع رغبته ثم أنه وحيد، فالإنسان إذا ما حاول هذا الأمر وحده يشق عليه ويصعب، غير أنه قد يقدر عليـه بأسبـاب متعددة ليس هذا مكان بيانهـا. فالإنسـان إذا أراد التغيير مع جماعة، فإنهـا تشجعه وتعينه وتقف بجواره، وتأخذ بيـده وتشد بأزره وإلا تفتت همته، وضعفت نفسـه وانظـر إلى الخنساء، وهي تعزي نفسه عن مقتـل أخيها صخر، بما تشاهده من كـثرة المصابـين والفاقديـن حولها، فالنفس تجد في هـذا تعزية لها عـن الفقد، بأنها ليست وحدها في ذلك تقول:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

فالإنسـان يحيـا في جماعـة، وهو آخـذ بصفاتها، فيتأثـر بهم ويؤثر فيهـم، فإذا توحـدت تلـك الجماعة أو أحد أفرادها، تتعطل بعض مـن صفاته، ويمنع عنه بعض ما كان يصنعـه معهـم ثم يكتسب بنوع المخالفة صفات أخـرى مغايرة لصفات الجماعة، وهـي الفردية أو الانعزالية، ولذلك فالجماعـة إذا أرادت التغيير سهل عليها أكثر مما إذا حاوله أحد أفرادها، متسلحًا بالعزيمة والإرادة والرشد.

فالتغيير نفسه شيء جديد على النفس، وحالة فيها استوحاش لها، فالإنسان يميل بطبعـه وطبيعته إلى مـا رُبي عليه في صغره، وما نشأ عليه، فأشرب لحمه وعظامه وقد قالـوا: ـ العـادة طبيعة ثانية وذكر عن أكثم بن صيفـي قوله: ـ ما يسرني أني مكفي أمر الدنيا قيل: ولم؟ قال: ـ العجز طبيعة ثانية. ولذلك حينما يحاول الإنسان شيئًا جديدًا، يجـده ثقيلًا على النفس، كأنـه يهجم بجيش عزمه ورغبتـه وإرادته على جمود طبعه، واستكانة نفسه، محاولًا إحداث أثر جديد، وإضفاء لمعة مضيئة،

وهـذا أيضًـا راجع إلى حاجة المـرء وعدمه، فكلما كانت حاجتـه أشد وأقوى كانت سرعتـه في إنفاذ أمره، وتحقيق ما يريد من التغيير فينقاد له المراد أسهل، فهو حينئذ

كالموج الهادر المندفع الذي لا يلوي على شيء وكلما ضعفت حاجته، وقلت معونته؛ صعب المراد عليه، وكان الطريق إلى تحقيقه أطول وأشق وانظر لقول أبي الطيب:

وأقدمت إقدام الآتي كأن لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وِتْرُ

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بَيْنِها فمفترق جاران دارهما العمر

والآتِـي، هـو السيل الذي لا يرده شيء، يصف إقدامه بأنه شديد لا توقفه الأهوال والمصائب لشدته ورغبته في الوصول إلى مقصوده. ثم يقول كأن لي سوى مهجتي، هو يتعجب من إقدامه الشديد الذي يكاد يهلك به نفسه. فيقول لمَ تفعل ذلك، أهل تظن أن لي نفسا إن هلكت هذه، حلت بدلا منها الأخرى . وهذا من فرط همته وعلو نفسه وقوة حاجته ثم قال "أو كان لي عندها وتر" أي كأن لي ثأر عند نفسي، فأنا أريد إهلاكها لامحالة. ومقصوده أنه يهلك نفسه هكذا ببحثه المتواصل، ورغبته المتزايدة في دفع نفسه إلى المعالي من الأمور، فلا يتركها حتى تستريح أو تهدأ ثم تحاول مرة أخرى لذلك كان ثمنها باهظًا جدًا، وهي تعب النفس وإرهاق الجسد ويقول هو أيضًا في نفس المعنى:

تريدن لقيان المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل.

✍ وقال أبو فراس الحمداني:

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر.

ومما يناظره قول الآخر:

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي.

أو قول غيره:

إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

ومن كان هذا حاله لا تهدأ نفسه، ولايستقر له جفن، ولا يرتاح له بال. إذ أنه دائم

في صراع مع نفسه، يستحثها ويدعوها حتى ببذل راحتها وأنسها لإزعاجه لها، فهو لا يهنأها بشيء إلا كدره بنصحه وعتابه، في ذلك تعب الجسد ومرضه لذا فعلى المرئ أن يأخذ من ذلك على قوته وقدره، فلا أقول أن يحمل نفسه ما لا تطيق، بل يحثها على الإقدام في الخير إلى الفضل والكرم، والشرف والخير. ويحجمها عن الشر والإفساد والظلم والاعتداد فيقصد بها مراكب الجود والفضل، فيطبعها على العظائم والكبار من الأمور، حتى تألفها ثم لا تحط ركابها بأرض سواها. وهذا نافع لها جامع لخيرها، مقصر عن شرها، فالنفس لابد وأن تكون مشغولة بشيء ما، فإن لم تجد شيئًا تقدمه لها، شغلت بصغائر الأمور وسفاسفها. والنفس إذا لم تشغل بحق شغلت بباطل. وإذا لم تقبل وتستقبل بخير وهمة وعلم، استدبرت وولت بشر وسوء وتقصير. والنفس حيث يجعلها المرء ويوطنها، فهي تنقاد معه إذا قادها بحكمة وصبر وتأن، وإلا فهي ستقوده إلى مواطن الضلال ومراتع الهوى واللهو.

ثم في تحول المرء إلى تلك الحالة من التغيير، لابد أن يصاحبها تغييرات نفسية متعددة، تصاحب الشخص قبل وبعد التغيير وهذا أيضًا يعتمد على الحالة نفسها التي يكون فيها، ثم على طبيعته المزاجية أو جِبلته من كونه شخص غضوب، هادئ. وإن كانت كل تجربة قد تختلف عن الأخرى فتكون حالة منفصلة بحد ذاتها، إلا أنها تجتمع في عدد من الأشياء في تغير الشخصية أو الصفات مثل تغيره مثلًا من شخصٍ هادئ رزين إلى آخر مضطرب مشوش، وسنتكلم عن هذا من حيث التغيير فقط.

أولًا: تغيير شخصية بكاملها ليس بالأمر الهين البسيط. فهو يتطلب وضعها في حالات نفسية شديدة غاية في التعقيد، لجعلها تترك إلف ما اعتادت عليه وقد يكون هذا برغبة المرء بمعنى أن يكون هو الذي يطلب هذا التغيير، ويسعى إليه فيُجيش لأجله النفس حتى تستعد لهذه المعركة الكبيرة، من التحفيز والإغراء تارة والتهديد تارة أخرى ثم تعمل مقاومته في أقصى درجة لها كالذي يسعى للحصول على شيء ما، تراه

يواصل الليل بالنهار كادًا تعبًا، ثم وفي كل ذلك، هو محب للأمر مريد له، وقد يكون التغيير بإجبار خارجي، وهذا يكون بشيئين الأول، ضغوط الحياة ومصاعبها وأرزائها وتكتلها على المرء، حيث تأخذ من حلمه وصبره وهدوء نفسه وراحة باله، فتغير فيه بالقدر الذي أخذت منه، وقد يكون لذلك مضاعفات كثيرة، تؤدي إلى التغيير بأضعافٍ مضاعفة. وذلك أنه غير مستعد أصلًا للتغيير أو كانت مقاومته الداخلية للحدث القادم عليه ضعيفة، أو كان الحدث شديدًا ومباغتًا له، فكل ذلك ينعكس مردوده عليه، ثبوتًا وضعفًا، الثاني: إرادة التغيير المتعسفة الظالمة لشخصية ما، لقصد ما وتجد كثيرًا من هذا في التجارب التي أقامها بعض العلماء على دراسة السلوك البشري النفسية كيفية تغيير شخص ما من أيدلوجية معينة إلى أخرى، وكيفية حدوث ذلك. وماهي المراحل التي تتم لأجل ذلك. في تحويل شخص سوي متزن نفسيًا إلى العكس منه تمامًا بإخضاعه لظروف معينة في بيئة معينة، ليكون النتاج من ذلك شخصية أخرى تمامًا، وقد أحسن جورج أوريل في رواية ٤٨٩١ أو نسميها ب "الأخ الكبير يراقبك" فهو أدل على المعنى وهو قال فيها "سنعتصركم ثم نفرغكم ثم سنملأكم من أنفسنا". حتى تصبح أذهانهم أشبه بصفحات بيضاء يمكنك الكتابة عليها ما تشاء.

ومن أكبر العوامل الداعية للتغير للإنسان، هو عامل الصدمة الذي يستطيع أن يكسر المرء ويحطم فؤاده، وأن يهلك أي رابطة مهما قويت أو تعاظم رباطها على مدار السنين؟ وأشهر تجربتين نفسيتين في ذلك، تجربة سجن جامعة ستانفورد وخلاصة هذه التجربة أن الإنسانية إن وضعت تحت شروط وأدوات السلطة المطلقة، تستطيع أن تنزع منها إنسانيتها، وتحولها إلى كتلة من الشر تسير على الأرض تهلك من تقابله وتفتك به، فهي تخرج أسوء ما في الإنسان وتزيد عليه، بل وتجعله يبتكر أنماطًا جديدة من الشر لم تكن أصلًا موجودة فيه، ثم تجسده فيه حتى يصبح واقعه الجديد. إن الإنسان هذا الكائن ليس مثاليًا أبدًا، ففعله للخير لن يجعله ملائكيًا، أو إتيانه للشر

يجعلـه شيطانيًـا فهو يحمل من كلا الجانبـين، جانب الخير وجانـب الشر. فالأمر في تغليـب أحد الجانبين على الآخـر، فليس الإنسان خير صِـرف أو شرف محض، ولكنه جمع بينهمـا فالأمر بالتغليب ومجاهدة الطبع، ومنع جانـب الشر من الاستئساد حتى يفتك بالنفس، فليس ظهور جانب عليه أنه منع الآخر أو انعدم عنه، إطلاقًا فمن مدحك يقدر على ذمك، ومن شكرك يستطيع أن يسيء إليك. ومن قال لك أكرمك الله، عنده القدرة على قول عكسها ويصيح بك قائلا أخزاك الله، وهذا من حِكَم الدنيا.

والتجربـة الثانيـة، هي تجربة ستانلـي ميلجرام. وكانت للإجابة علـى سؤال، هل مـن الممكن أن يكـون الجنود الذين نفـذوا الهولوكوست مجرمين وقتلـة، وليسوا فقط منفذيـن لأوامـر القادة؟ وهي لفهـم سيكولوجية الانصيـاع والطاعة وتنفيـذ الأوامر فتكون التجربة الأولى لفهم أثـر السلطة المطلقة على المجموعات والمجتمعات، والثانية على مدى الاستجابة في طاعة الأوامر والانقياد للآمر أيًا ما كان، وهي تساعد على فهم سيكولوجية الجماهير والشعوب، في بعض مناحي الحياة.

يقـول ميلجـرام:- "النتائج كما تابعتهـا في المختبر مقلقة، أنها ترجـح أن الطبيعة البشرية غير جديرة بالاعتماد عليها لتبعد الإنسان عن القسوة، والمعاملة اللاإنسانية، عندمـا تتلقى الأوامـر من سلطة فاسدة نسبـة كبيرة من النـاس مستعـدون لتنفيذ ما يؤمرون دون أخذ طبيعة الأمر بعين الاعتبار، وبدون حدود يفرضها الضمير، ما دامت الأوامـر صادرة عن سلطة شرعية "وفيه دلالة على أن الإنسان قد يترك مبادئه وقيمه لأجـل أمر قادم مـن صاحب سلطة. وقد يرتكـب لأجل ذلك ما يسبـب الآلام والمعاناة لشخـص آخر لا ذنـب له، وبهذا تسطيـع أن تفهم كيف استخـدم الطغاة وغيرهم لمن تحتهم من خلال استخدام أشخاص يعملون لصالحهم، وتربطه بهم صلة شرعية بأن يكون هو الآمر في هذه القضية، ومن تحته أقل منه في الرتبة والمنزلة بشكل بينهما يُكَوِن هوة واسعة، والنـاس في ذلك منقسمون إلى درجات متعددة .

بهـذا تستطيع أن تفهم من الأمور الكثير، ومنها أنَّ تغير الشخص وتحوله من حال لآخر، أو من شخصية معروفة عنه، إلى أخرى يُستنكر عليه اتصافه بها لعدم ظهورها عليه سابقًا يكون لأسباب كثيرة وقد ذكرنا عدد لا بأس به، وهنا نضيف سببا آخر وهو "الضغوط" فهي ليست كلمة مجردة، وإنما لها الكثير من التعاريف والدلالات وآلام فضغـوط الحياة مثـلًا متنوعة، بتنوع مجـالات المرء فيه، وباحتكاكه بهـا وبأهلها غير أن مـن حقائقهـا، أنها لا تـترك الإنسان كما كان أبدًا، فلا تـترك قلبه إلا وهي معكرة لصفائها، مورثة له الألم والوجع، ثم تأخذ من هدوئه ورزانته، فينقلب عصبيًا غضوبًا وهكذا كلما يمر بشيء، لا يتركه إلا وقد مسه بأثره، وعَلَمَ عليه بجروح وندبات، هي آثار تجارب وعلامات صراعه وقتاله.

وقـد يكون هذا الغير بطيئًا، فيحدث على فترات طويلـة. ومثاله الإنسان ذا الفكر أو العاطفـة المعينة أو المنهج الخاصـ، حينما يختلط بالجمع الهادر من البشر المختلف الطبائع بحقيقة الحال، فإنه يؤثر فيه فإذا له قلب كالصفا أبيض، وكنبع الماء صاف لم تكـدره شائبه تجده حين مخالطته الناس يتأثر ويتعب، لاختلاف القلوب وآثار الكلمات على النفوس وتنوع الشخصيات، ومن كان هذا طبعه يتكدر إذا خالط من لا يشاكله أو يناظره. كأن قلبه يتلصص المشاعر الأخرى فيجذبها نحوه كالمغناطيس أو لأن الكلمات الأخـرى حملت من السمـوم والأحقاد والضغائن ما ضرت القلـب الآخر. أو لأن القلب كان هينًـا لينا فصادف كلمات كالصخر وأقوال كالحجارة، فأصابته في مقتل وكسرت منـه مـا كسرت وما كسـر في القلب لا يلتئـم، وإن إلتئم ترك آثار ندوبـه ظاهرة عليه، شاهـدة بأذيته ومعلمة بتجربته. إلا أن يغمـر بما ينسيه تلك التجربة من شيء عظيم، ولذلـك فالقلب يمتص ما حولـه من القلوب أن كانت سعيدة يمتصهـا السعادة، كأنها حالة من العدوى القلبية التي تنتشر هكذا، لذلك من جميل ما قيل

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فكل قرين فالمقارن مقتدي،

وهـذا الاقتداء يقع من غير قصـد التقليد له، أو المشابهـة لأفعاله وإنما هي حالة من العدوى الظاهرية في التصرفات والأفعال، والباطنية في العواطف والمشاعر. نعم، أنها تقع بنسب متغايرة، فقد تقع ضعيفة جدًا لا تكاد تلاحظ أو بينة ظاهرة، يبصرها المشاهد بأم عينيه. وهذا تبعًا لتلك العلاقة وقدرة التأثير لأي من الطرفين على الآخر إلى جانب عـدة عوامل أخـرى، فالإنسـان بمجتمعه الذي هـو فيه، فـإن كان صالحًا فالغالب على أفراده الصلاح، وأن كان فاسدًا، فالغالب على أفراده الفساد والانحلال، وللأمـر شواهـد كثيرة لا مجال لها هنـا، ثم بل هو في أقل من ذلـك، في سياق الأسرة الواحدة والعائلـة الصغيرة فإن كانت الأسرة أو العائلة مشهورة بشيء من الأمور التي يتصـف بهـا النـاس كالصلاح أو العلم أو الخير أو الكـرم، أو عكس ذلك من الفساد أو الجهل أو الشر والبلطجة، تجد في الغالب أفرادها كذلك لذلك احذر كما قال الشاعر:

احذر مصاحبة اللئيم فإنه   يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب

فالجماعـة أيضًا من أقـل عدد لها إلى أكبر عدد يحتمل وجـوده، تتصف بصفات نفسيـة تـكاد تكـون مشتركة، فهناك عـدوى عقلية وفكريـة ونفسية، وقائـم هذا على المخالطـة والمشاركـة التي تـورث نوعًا من الثقافـة العامة أو الأساسيـة، فإذا خالطت مثـلًا أصحاب العقول والنهي، أخذت منهم الحكمة والتجربة، وإذا خالطت أهل العلم والفهـم، أخذت من علومهـم ومعارفهم، وإذا خالطت أهل الحلـم والوقار، تعلمت من أدبهـم وتواضعهـم، وإذا خالطت أهل السفـه والطيش والحمـق والضلالة أخذت من سفههـم وحمقهم وضلالتهم وهكذا، وإن كان للمرء قـدرا من السيطرة على الظاهر، بـأن يمنـع نفسه من المشاركة والأخذ عنهم، إلا أن مـا يشاهده منهم يتسرب إلى عقله ويدخلـه إلى باطنه من غير انتباه منـه، فالعين تلاحظ وترقب، والسمع يأخذ ويسجل، وكل هـذه المعطيـات أو آلات الاستقبال تأخذ هذه المعلومـات كلها فتعالجها في الذهن، وقـد تترك بعضه من غير معالجة، ليظهر أثره بعد ذلك في مواقف مختلفة، فلا يدري

ما سببه، وإن كان السبب هو ذاك التأثير الخفي الذي لم ينتبه له. لذلك لا تخالط السفيه فتأخذ منه، ولكن خالط العالم فتزيد معرفة وبصيرة وفهمًا.

فتجد أن الفرد يصبح شكلًا آخر بعد التغيير، في قالبه المعهود، ولكن في غير حاله وفكره وآرائه، متأثرًا بذلك بما أدى إلى تغييره أكان شخصًا أو فكرًا أو كتابًا أو جماعة أو ضغوط بمختلف أنواعها أم صراع بتعدادته أم أذية لحقته باختلاف درجاتها وأشكالها، وبعدها يألف الشخص عادات وأفكار ورؤئ جديدة، ولنأخذ مثالًا من الشعر للمعري، في قصيدة له رائعة يقول فيها:

وما نهنهت عن أمر ولكن ... هي الأيام لا تعطي قيادا
فلا تلم السوابق والمطايا ... إذا غرض من الأغراض حادا
لعلك أن تشن بها مغارا ... فتنجح أو تجشمها طرادا

إلى أن قال:

ولما أن تجهمني مرادي ... جريت مع الزمان كما أرادا
وهونت الخطوب على حتى ... كأني صرت أمنحها الوداد
أأنكرها ومنبتها فؤادي ... وكيف تناكر الأرض القتادا

فتجده هاهنا، يهون المصائب عليه حتى اعتادها، وصار يمنحها من وده، ومازال يقربها حتى جعلها من أهله فلا ينكرها أو يتهجم عليها فنسبها إليه نسبة النبات إلى الأرض بجامع الأصل في الإنبات، وكذلك نسب تلك المشاعر إلى القلب من حيث جعلها منبت الشعور. ثم كيف تتبرأ الأرض مما أنبتت وأخرجت وهكذا تجد بعض الناس بعد التغيير السلبي، تجد فيه لامبالاة أو تلمح عنده حالة من اللامقاومة والتسليم، كأنه لا قدرة له على الإطلاق على الفعل، وذلك غالبا لانهيار القلب وضعفه، فهو -أي القلب- المحفز الأول نحو الفعل أو الترك

أنا لا أقول أنه قد فُرِغَ فكريًا، أو نزع عنه حبل المنطق وجماع العقل ولكنه يخرج

الأمور من غير مخرجاتها التي اعتاد عليها، ليلائم الحالة التي هو فيها، فيلقي بهذا الضعف أو الحزن على ما حوله، فيجعل الدنيا سوداء معتمة أو يلبسها ثوب فرح فيجعلها مبتهجة مسرورة، وليست الدنيا هذا ولا ذاك، غير أنه فعل القلب وحالته النفسية التي يعممها على ما حوله كل حالة يقوم بها الإنسان تستبع نتاجا وإدراكا مختلفا وهذا بطبيعة الحال، فحالة الهدوء لها مخرجات معينة وحالة السعادة والفرح لها أيضًا نتاجها الخاص بها، وكذلك حالة الحزن والألم، حتى يتم التوافق بين الحالة الجسدية والعقلية والنفسية في لحظة واحدة أو موقف واحد وهذا أيضًا موضوع منفصل، وهو أثر التغير على الشخص، أو فترة ما بعد التغيير والتحول، فإن فترة الصدمة أو التصدع، هي من الأسباب المباشرة في تبديل المرء لكثير مما كان يعمله ويظنه، بل قد يزيد إلى ما يؤمن به وفيها يتم هزُّ الثوابت، وتحريك المبادئ، وتضطرب فيها المشاعر كأنه أضرمت فيها النار، وذُكت بالحطب يلهب اشتعالها ويزيد ضوئها ثم بعد ذلك مرحلة التأقلم مع ذلك التغيير، أو أن شئت قلُ هدوء جذوة تلك النار هدوءًا جزئيًا ثم تهدأ بعد تلك الثورة، فتخور إلى تجديد وتحريف في هيكل النفس عن سابقها، وترميم للمفاصل القديمة بأخرى غيرها حادثة، لتحمل الوضع القادم والمرحلة التي هي الصراع أو الصدمة والضغط، ولعلنا نصيغها بفعلها فننحت لها مصطلح "مرحلة الاضطرام" أو "حالة المجاذبة".

وقد يظل فيها طوال حياته، تبعًا لمجاذبته وقوة مقاومة من ضعفها، وكثرة توارد الأشياء عليه أو قلتها، وكما قال القائل

إذا النار لم تطعم ضِرامًا فأوشك أن تمر بها رمادًا

وكل مرحلة تطول أو تقصر لعوامل عدة، منها قوة الشخص ومدى تحمله من ضعفه، واشتداد إرادته أو هوانه، ومدى حساسيته وتأثره بما يقال له من الناس فأثر الكلمة على النفس والقلب واضح، فهي القاتلة المحية، المحفزة المثبطة، وهي التي قد

تدعو المرء إلى استقبال الحياة بصدر رحب ونفس مطمئنة، وقد تجعله كذلك يضيق صدره، وتشتد عليه نفسه، ويختنق حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت، أضف إلى ذلك قرب ذلك الشخص من بعده، وقدر منزلته في القلب فكم كلمة أورثت ذلًا لا يزول، وأخرى أورثت عزًا وسؤددا وكتب التاريخ مسطورة بالحوادث التي كان مبدئها كلمات، فكانت أحيانًا سبب حياة أناس، أو سبب هلاك آخرين وقبل هذا كله، الاستعانة بالله تعالى هو ما يعين المرء على تجاوز أي محنة، وتخطي أي عقبة، وتفادي كثير من الضرر والألم، فهي السبب الأول لمجابهة أي بلاء، ومدافعة أي فساد، وتغيير أي أمر أو حالة إلى أخرى يحبها الله تعالى ويرضاها،

وكل ما سبق يورث نوعًا من الفهم للتغيير وبعض أسبابه ونتائجه. والتفهم لأحوال الناس واختلافاتهم وتغيراتهم، والتماس العذر لهم من غير سؤال أو معرفة، لا لشيء إلا لمعرفة النفوس وأحولها وطبائعها، وذلك طبع النفوس الخيرة، أن تلتمس العذر من غير من معرفة السبب، وهي حالة عالية ودرجة رفيعة ويبين سطرًا في محاولة إدراك عوامل التغيير في الأمم والمجتمعات والبلدان، فتكون له معرفة بعواقب الأمور وتدرج أحداثها، بل والأسباب الأولى في التسبب بحدوثها واندلاعها، وقد ينصب ذلك بنوع من الفضول والاهتمام على كثير من الأشياء والأحداث والأفراد فيتم بذلك نوعًا من الإدراك، ربما غفل عنه وشيء من الفهم لحقيقة التغيير واختلافها وتقلب الناس فيها، ليعلم أن التغيير هو من الحقائق الثابتة في الكون بأسره، ثم يفهم نفسه أكثر من ذي قبل، ويتعمق في ذاته ليصل أعماق أعماقه، فيدرك. ويعلم. ويفهم. علما ليس باليسير.

محاولات متعددة
لماذا يضيع الناس في خضم الحياة؟

أوجد الله الكون، وخلق فيه الحياة، وجعل فيه الكائنات والدواب، وأرسى فيه القواعد والأنظمة فكان كل فعل لحكمة، وكل ترك لحكمة فشرع سنة التفضيل في الخلق فكانت أصلًا لازمًا وقانونًا ثابتًا. فاختص بعض كائناته وخلقه شيئًا لم يعطه غيرهم فلم يجعل كل شيء متساوي فيها بل جعل الاختلاف والتنوع كما تكلمنا عنه من قبل، وكان لازمه هنا التفضيل والاصطفاء، ففضل بعض البقاع، والناس، الأزمنة على بعض وجعل كلا منهم له خصيصة منفردة عن الآخر، يفضل بها صاحبه ويعلو عليه بها، وجعل أيضًا سنة التفاوت وناموس الاحتياج وكل ذلك في دائرة واحدة بعضها يتبع بعض، فهي كالطوق المزين بحلقات كلها تلو بعض، لتوجد هذا الشكل المبهر الجميل. فجعل الخير والشر، فكرم كل ما نبع من الأول وجعله على رأس المحامد والمكرمات، ثم فاضل بينه، فجعل فيه أمهات الخير وأساس الفضائل وجوامع الإحسان وذم الثاني وحذر منه، وجعله من السيئات المرذولة والأفعال القبيحة، ثم جعل بعضه أسوأ من بعض، فلم يجعل في القبح سواء، فكان منه أمهات الخبائث والكبائر والمحرمات المجرَّم إتيانها، ثم استعمر الخلق كل يخلف من سبقه، ويكمل رسالته، فحثَّ وحضَّ على أشياء لأهميتها، وكره واستقبح أفعال لشذوذها وأضرارها. وأقام كل ذلك في سبيل قيام أمر البشرية كلها وإصلاحها من إنس وجن ودواب تحيا على الأرض كل بحكمة وتدبير، فما تراه بعينك نقص، إنما هو لأجل الكمال وماتراه بعينك ظلم، إنما هو لإرساء العدل، ولإثابة المحسن ومعاقبة المسيء، ولإظهار فضل الناس بعضهم على بعض، حتى يبين كل منهم معدنه وأصله. فكما تمايزت الأرض، وتمايز الورقين، الذهب

والفضة تمايز الناس لتظهر معادنهم الحقيقة، فيتضح الطيب من الخبيث، والصالح من الطالح، والمفسد من المصلح وكيف يتباينوا إلا في الاختبار بالشدائد والمصاعب، فالمعدن الحقيقي لا يظهر على أصله، إلا حينما تذيقه شيئًا من الشدة وتصليه جزء من الحرارة والنار. فكذلك لا يظهر الرجال إلا في الخطب الجليل، وأن كانوا يظهرون فيما دونه، ولكن هنا حينما يتخلى الناس عن القيم ويتركوا الحق ونصرته، تجدهم قائمين به وحدهم ناصرين له ولأهله أيًا ما كانوا، ولو على أنفسهم نعم، وقد يخالط كل ذلك دخل، فليس أصيل تمام الأصالة، لابد أن يكون فيه من النقص والضعف والزلل شيئًا ما.

فالنقص في عينك، إنما تراه لغشاوة وضعف وقصور، فأنت ما رأيت سوى صورة واحد ووجهة أحادية، فغفلت عن أن النقص لابد وأن يكون له ما يكمله، وأن تباعد في عينك أو في الحقيقة. فمثلًا، نقص الفقير يجبره الغني بالإعطاء والنفقة وبذل الجود والتزكية بالمال وزيادة الطغيان وانتشاره، إنما هو فرع من النقص الأول، فلما لم يجبر بشطره الملازم له، أدى إلى ظهور نوع من الشطط فيه، فكان المنع والبخل فيه فساد من جهتين، الأولى أنه منع الفقير حقه بوجه من الوجوه، فأفسد وأوجد فيه الغيرة والحسد ثم الطمع، فدبر لأخذ ما بيد غيره بالاحتيال والخديعة، فأصبح الإفساد الأول إفسادًا عظيمًا وفيه منع الفقير حقه، ثم استئثار الغني بهذا الحق، فأفسد في الفقير وجعله يخرج يطلب المال على غير وجهه، فأخذه من مستحقه، فمنع عنه رزق عياله، فأورث ضررًا على المأخوذ منه، ثم رجع الفقير بهذا المأخوذ ظلما وزورًا فظلم نفسه أولًا بذلك إذا جرئها على أخذ ما ليس لها، ثم ابتلع حقًا لم يكن له، وإنما لأناس غيره. فجعلهم متضايقين منزعجين، حاملين همّ تعويض ذلك المفقود بشتى السبل، ناهيك لو كانوا هم أصلًا فقراء أو أصحاب حاجة، وكان كل ذلك من مفسدة المنع الأول. الوجه الثاني، أنه أفسد الغني بأن أخذ مالا ليس له فمال المرء الذي بيده ويحمله في جيبه، ليس له

هـو وحده إنما به رزق عيال، ونفقات سكن ومصاريف علاج، وإعانات لمحرمين، وشيئًا للفقـراء والمساكين وهكذا إلى آخره، فهو بتصرفه هذا منع الجزء المخصص للمحتاج بطيشـه وجهله وطمعه فأخذ ما ليس له، فعوقـب بالمرض والزلل والفقد والضعف وقلة البركـة وانعدام الناصح إلى آخره، ثم أورث فيه ذلك الفعل طغيان نفس إذا أورثها ما ليـس لهـا، فنمّي الشر بداخله من حيث لا يدري ونمـى جسده بمال غيره وهو لا يشعر، فأعلـى ذاته ومطامعه على حقوق الآخرين، فأضعـف بداخله عاطفة الرحمة والشفقة بالمحتـاج والمعدوم، فثنى بذلك كفتى العدل وميـزان القسط، فوجدت الغيرة والتدافع والتناحر. ثم وثب القتل من مكمنه وخرج من وكره نازعًا عنه اللثام، فعمّ بذلك النزاع والهـلاك كل ذلـك في أمر تكاد تـراه هينًا، لا وزن لـه، ولا يستحق كل هـذا الإسهاب. غـير أن ذلك غير صحيح فأنت تحكم على الفعل فحسب، وأنا أحكم على لازم الفعل، ونتائجـه، ومضاعفـات هذه النتائج، ومـا قد يصدر منه من وجه تقابـل مع فعل آخر، فأصبـح بذلك وحدة مـن الأفعال قادرة على إحداث شيئًا من التغيير، ثم تزداد الأمور مـن وِجَه أخرى لا داعـي لتفصيل ذكرها الآن. ثم أدعك تقـرأ الآن هذه الآية، لتدرك شيئًا من الحكمة، وتعلم أن النظرة الواقعة داخل الفعل فقط، لا تدرك بها أبدًا حقيقة الفعـل فانظر إلى الأمر من خارجه، وقِسْه بمتعدد زوايا بعين صحيحة مدركة للحقائق ثم اقرأ قوله تعالى "وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم".

فليـس كل أمـر تراه بعينـك هينا بسيطا هـو بالفعل كذلك، ليـس الأمور على هذا المنوال تسير وتمضي.

التـوازن هـو من سنن الله تعـالى في خلقه وقد ذكرنـاه قبل يسير، وهـو أن الأصل في التـوازن، النقص والحاجة والإعطـاء. فنقص الفقير يكمله الغنـي بالمال، ونقص الضعيـف يجمله القوي بالنصـرة والمدافعـة والإعانة. ونقص الجاهـل يمحي بالعلم والدراسـة، فهـذا لا ينتظر له فيه أحـد يجبره، بل يكمله هو بطلبه لـه. ولذلك فتغليب

واحدة من هـذه الصفات على الأخرى يوجد من الصفـات المذمومة والشرور المعلومة مـالا يخفي، وهذا مما لا يجـدر الإسهاب في الدلالة علية بأمثلة، فهو واضح بين. وهذا أيضًا يبين لك أهمية مبدأ المشاركة والمبادلة لظهور طبقات المجتمع المختلفة، وأنها من حتميـات صلاح البشرية إذ لا يعقل أن يكـون العالم كله طبقة واحدة، فتضيع كثير من الحكـم والفوائـد. ثم هذه الطبقات لم توجـد للتناحر والصـراع والمقاتلة، وأن يتعالى بعضها على بعض، ولكن ظهرت للمبادلة والمشاركة والتنوع المؤدي إلى المعايشة، ونقول أن الغنـي لم يعطـي الفقير منحـة وإحسان منه وشفقة، وإنما هو حـق أوجد له في مال الغنـي ، والقـوي لا يدافع عن الضعيـف تعاظمًا وكبرياء، ولكنه بـذل الحق له .. هكذا يصلـح المجتمـع. ويكون فيه من الخلـل على قدر التقصير في إيتـاء أو منع الحق الأول وهـذا هـو قانون الحياة، فـالله تعالى قادر علـى أن يخلق كل شيء كامـلا تاما، نازعا عنـه رداء الاحتيـاج والنقص والخلل، ولكن في هذا ضيـاع الحكمة من الحياة وسنأتي لتفصيل تلك النقطة فيما بعد.

مـا من قانـون وجد إلا لشيئين فأمـا الأول، فهو لنقص شـيء في طبيعته، أو خوف ضعفـه أو طغيانه فيفسد، فالكمال لا يحتـاج إلى قانون لأنه كامل، ما فيه نقص وشرع القانـون، أولا: لجـبر الخلـل والنقص وأمـا الثاني، فهـو للحفاظ على وحـدة الشيء واستمـراره، وصاحبة نمـوه على مدار السنـين، والإنسان ليس حالـة خارجة عن هذا كله، وإنما هو يتعايش ضمن هذه الإطار، فكان أشد تمسكا لها، محافظا عليها مدافعا عنها، كان صلاحه وصلاح مجتمعه وحياته وحياة من معه. وكلما تهاون فيها وأهملها، وكان عاجـزا عـن حمايتها في نفسه أولًا قبل أن يكـون في غيره، فيكون فاسدا في نفسه مفسدا لغيره بحسب ما أتى وترك، وأخذ ومنع.

فـإذا كان الإنســان كائن واع مـدرك له بصـيرة، ومُيز بالتفكـير، فلماذا تجد في حياتـك أناس كثر قـد فقدوا أهدافهم، وآخرون لم يقدروا حتى على أن يحددوا هدفها

لوجودهم، وآخرون مضطربون في صراعات الحياة وعاجزون عن المضي قُدما في مشوارهم؟ بل قد يصيبك بعضًا منه في أوقات حياتك فلم التذبذب؟ ولمَ أيضًا الضياع؟! تجد الأسئلة في هذا الإطار لا ينتهي منها، غير أن إجابتها ستمتد معنا شيئًا يسيرا حتى نأصل للمسألة تأصيلا واعيا، فننظر مواطن الضعف وأسباب السقوط، لنفطن إلى كيفية تقويم الخلل وعلاجه.

الإنسان له طبيعة واضحة ، فهو كمخلوق له صفات وطباع وأهواء ورغبات وآمال وله طبيعة ناقصة؛ فهو جهول ظلوم معتدٍ، يحب الراحة ويركن إليها ولا يحب العمل، وقد يكرهه أحيانا، لا يريد الهجرة والخروج من الوطن إلى آخر ذلك. لذا كان أول ما يجب عليه هو مغالبة هذا الطباع الناقصة، ومقاومتها مقاومة شديدة. فمثلا هو أُمر بإقامة الصلاة والمدامة عليها، وهو عمل بدني يحتاج إلى مجهود، فيغالب طبعه من الكسل والخمول والاستثقال للطاعة، ويحارب نفسه إذا ونيت وخمدت بالحث والتحضيض . ثم أُمر بإنفاق المال، وهو عزيز عليه حبيب إلى قلبه، شديد الحرص عليه لا يحب بذله ولا إنفاقه إلا في رغباته وملذاته. فأمر أن يخرج من طبع الشح والحرص والطمع، ومغالبة طبع النفس بالدفع والإنفاق . ثم إن علاقته بالمال علاقة لا يمكن فكاكها كأن فقره بين عينيه، وهلاك ماله بين يدي إنفاقه ولو باليسير القليل فحبب إليه الشح ولازمه ملازمة القرين، فأمر أن يخرج من بعضه وأمر بالسعي بالأرض والمشي في مناكبها، للنظر متأملا أحوالها وآخذا للعبرة ثم طلبا للرزق وسعيا للحصول على الكسب الحلال، فيضرب الأرض استخراجا لخيراتها وكنوزها ومعادنها وهذا يطلب منه الخروج من دائرة الراحة والدعة والكسل ومعاكسة النفس بالجد والاجتهاد وبذل الوسع والطاقة. وطلب منه الخروج والهجرة من الأرض، إمَّا للعبادة بالذهاب إلى البقاع المباركة والأراضي الطيبة، لأداء العبادة والصلاة أو الحج والعمرة. وكذلك لنصرة الحق وإعلاء كلمة الرب الخالق والإله المعبود أو لطلب ما ينفع من مُدَارسة

العلـم أو إصلاح أمر من الأمور أو التوسعة علـى الأهل في الرزق إلى آخر ذلك. فطلب منه الخروج من أهله وماله وترك حاله، فشق عليه ذلك، فغالب طبعه فهاجر.

إن مغالبـة الطبع من أشد ما يكـون على النفس، لذلك تجد الشخص يعمل الخطأ وهـو يعلـم بخطئه فيه وما يتركه لأنه تعوده، ألفته نفسـه ولزمته. وقديما قالوا "الطبع غـلاب"، و"الطبع يغلـب التطبع". فالإنسان في هذا مقهور بحكـم طول امتداد زمانه علـى إلف هذا الطبع، حتـى صار كالغريزي فيه، يزاوله بلا كثـير فكر، فأصبح يخرج مـن النفس هكذا عفوا بلا قصد وتجده في الناس واضحًا من حيث كلامهم وأفعالهم، فمنهـم مـن يأتي الفعل هكـذا سجية منه لاعتيـاده عليها، لا لأنه يتكفلهـا بشكل معين فتجـده لا ينفـك عنه حتـى وإن قبحت أو كان فيهـا ضرر له. وممـا يستملح ذكره هنا قصة ذكرها الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى، في رواية البيهقي في الشعب عن الأصمعي وفيه يقول الأصمعي: دخلت البادية فإذا بعجوز بين يديها شاة مقتولة، وجرو ذئـب مقـع فنظرت إليها فقالت، أتـدري ما هذا؟ قلت: - لا. قالـت: - جرو ذئب أخذناه وأدخلناه بيتنا، فلما كبر قتل شاتنا. وقد قلت في ذلك شعرًا. قلت لها: ما هو؟ فأنشدته:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي ... وأنت لشاتنـا ولـد ربيب
غذيـت بدرهـا وربيت فينا ... فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كـان الطبـاع طباع سوء ... فـلا أدب يفيـد ولا أديب
أو فليس بنافع ذلك الأديب

لذلـك فالطبـع هو من شيمة المرء فـلا يُظلم لاتصافه بـه أو إن شئت قلت ابتلاؤه بـه ولا يُشتـد عليه فيه كأنه هو الذي حصله، بل هو جـزء منه غير أنه يُذم صاحبه إذا لم يحـاول إخراج نفسه من هذا الطبع لاسيمـا إذا كان سيئًا مرذولا ضارًا للناس، فلا يصـح أن يركـن إليه مستسيغا صنعه مستحلا عمله، معللًا بذلـك بأنه طُبِعَ عليه. وإن كان ذلـك فالأولى أن يصيبه شـيء من الحياء، فلا يتفاخر بما لا مدحة فيه أصلًا، بل

يواريه كما تواري السوءة، فيحجبه قدر إمكانه عن أعين الخلق. والإنسان حينما يتدرج في مـدارج الحيـاة، يُختبر بالصفات والأفعـال، فيطبع على بعضهـا وينفر من الآخر. وانظـر إلى أحـوال الإنسان واختلاف طباعـه فيها وتعدد أحواله عليهـا، هذا إذا كان متدرجـا مـع الحياة، متقلـب في منحنياتها، أمـا الذي لزم حالة واحـدة ، غالبا تجده يلازمـه هذا الطبع حـال حياته كلها، فانظر حال الإنسان وقـت أن كان طفلًا صغيرًا، ثـم كـبر فأصبح شابًا يافعًا، ثم ترقى فتزوج، وأصبـح ذا زوجة وعيال، ثم أسن وتقدم في العمـر، وكـبر اشتـدَّ أولاده من حوله، ثـم ترقى مرة أخرى ليطعـن في العمر. وهذا دراسـة منفصلة تحتاج شيئًـا من التفصيل، فكان لابد من الإشـارة إليها، ولكن انظر أنت بنفسك إلى اختلافه واختلاف أحواله وطباعه في هذه المراحل المختلفة.

ومـن أسباب ذلك أيضًـا، اتباعه لهواه ورأى نفسه في غير حـق أو بينة، ودليل وأن اتبـاع الهوى من غير هـدى أو صواب يورث المـرء المهالك، لأن الهـوى ومتابعة النفس خطير جدًا، وفيه من التكبر وشموخ الأنف والعظمة والعناد من إفساد كثير من الخير، لتكـبر نفسـه وعتوه والعناد يجعل الرائي أو المتحدث ينسـب الكلام لأبعاضه وأجزائه، فـلا يتخيـل خروجًـا منـه، إلا إذا كان عناده ضعيفًـا أو هينًـا. وهو يورث الغـرور، أو الاستبـداد والطيش والإهلاك إذا كان صاحب سلطة أو جـاه أو منصب، ويورثه أيضًا الظلـم والاعتـداء على حق ليس له، إلى آخـر ذلك من الصفـات المذمومة، وهي تأتي تِباعًا بعضها في لحاق بعض، فكأن السيئة الواحدة رحم لمئات السيئات التي تنتج عنها، فليـس الأمر في الصفة نفسها من حيـث كونها قبيحة سيئة، ولكن فيما تجر خلفها من ذيـول الصفات المستتبعـة لها، فليست هناك صفة واحدة تقـوم مفردة بنفسها، ولكن تعاونهـا جماعـة من الصفـات الأخرى بنسـب مختلفة، وكذلك تأثيرهـا على مختلف الأفراد بمختلف النسب، ليعطي لك متعدد نتائج فلا تستصغرن من الأمور شيء، فقد تتولـد منهـا العظائم الكبار، ولا تحتقرن من الأمور شيئًـا، فأنت لا تدري كيف ستئول،

وكيـف ستمضـي، وبماذا ستندمج وقد صدق القائل، لا تحقـرن صغيرة إن الجبال من الحصـى وقـول الآخر، إذا كان عدوك نملـة فلا تنم له. أي لا تنم لـه، المقصود بها لا تستخـف بقـدرات خصمك وإن قلت، فأنـت لا تدري من أين يباغتـك، ولا في أي جزء يباغتـك، في أضعـف ضعفك، وفي ثغـرات نفسك فأنت لا تدري مـاذا تفعل القطرة إن تتابعـت على الصخر واستمر نزولها عليه، إنها تكسـره وتصدعه، فيتصدع من قطرة مـاء كانت تنزل متتابعة عليه، وفي هذا من الحكـم والفوائد ما لا يحصى. واختم هذه النقطة بقول أبي الطيب:

كـل الحـوادث مبدأ من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعـل السهـام بـلا قـوس ولا وتر

وعلاج ذلك الأول، الاستعانة بالله تعالى كما ذكرنا قبلا ثم مراقبة النفس، وهضم حقهـا وتصغير شأنها من الشخص لذاته كنـوع من التأديب وأحيانًا كنوع من العقاب. فيحاسـب نفسـه، ويطلع علـى عيوبها ومن لم يبصـر عيب نفسه ضـل واغتر، فأصبح يتكلـم في عيوب النـاس ومساوئهم، وهو ملـيء بها ظاهرا العور والعيـب. فيفعل ذلك زهـوا واختيالا، وهو عـن خاصة نفسه من العيوب غافل جاهل فتقل قيمته عند العالمين بموازيـن الرجال وأقدارهـم ومعادنهم، وهم قليل وقد قالـوا، لا يعرف قيمة العالم إلا من كان على مثل عمله، أو من كان تلامذته أو أهله الذين عرفوا فضله وعلموا قدره ..

وممـا رأيـتُ، أن من علم حق نفسه فهو لحق غيره أحفـظ و أثبت لأسباب متعددة ليس هـذا مكان بيانها. ومن جهـل قيمة نفسه وضيعها، فهو لحق غـيره وقدره أضيع. فالنفـس والعقل هما ميزانا الرشـد فمن وزن نفسه بحق وعـرف بعقله قدرها، عرف قدر الآخر فلا يضيع من حقه قدر أنملة ولا قيد شبر إلا لمصلحة له، وغاية خفية عنده فيظلمـه لأجلها. ومن هذا يظهر العقل حاكما رئيسا ويناصـره العلم، فهو وزيره الذي لا يستفـرد برأي دونه، فكأنه يناصفه الحكم والقضـاء. ولذلك يتخير الرجل لرجاحة

عقلـه ووفرة علمه وعظم كرمه، وهذا هو النفيس، الذي تطلب الرجال فيه ولأجله وأما من هانت عليه نفسه هان عليه الناس فلا ميزان لديه يحكم به إلا الهوى والرغبة، وهو متقلـب في ذلـك لا يثبت، فلا يعرف لأحد قدرا، فمن كرمه اليوم وبسط له في مجلسه، تنكر له غدا إذا خالفه، أو قال غير قوله، أو خطئه . ثم هو ضيق الأفق، عيي اللسان لا يفصـح إلا جهـلا ، ثم أيهين نفسه ويقدر الناس! أليس عجيبًا. ثم إذا كان كذلك، فلن يمـون ميزانه إلا الرغبة حيـث توجهه وتدفع به. ومثل هذا تجـده دائم التقلب والتغير بشـكل لا طبيعي، ثـم إنه إذا اختل ميزان وزنه، فكيف يقيس الرجال ويعرف لكل منهم حقـه، لذلـك من علم قدر نفسه، فوجده ضئيلًا قليلا ، فلا يكون مؤديه في ذلك إلى أن يظلـم الناس ويمنعهم حقهم ومالهم من الاحـترام والتوقير، بل يزيده بالتعلم والحلم والوقار، فيلازم العلماء ويجالس العقلاء وقد قالوا في ذلك:

تشبهوا بالرجال إن لم تكونوا مثلهم إن التشبـــه بالرجـال فـلاح

وقد أحسن أبو الطيب في ذكر هذا المعنى، حينما هجا كافور الإخشيدي بمصر، فقال:

ومـــن جهـلت نفســه قـــــدره رأى غيـــره منـــه مـــالا يرى

وقالوا: كن عالمًا أو متعلمًا ولا تكن غيرهما فتهلك. الضائع في نفسه، مضيع لغيره، واستتبـاع ذلك من المصائب عظيم ومن الحكم في ذلك ألا تخاطب الأحمق أو الجاهل أو المتكبر. فهؤلاء مردهم لأنفسهم وأهوائهم أو عقولهم وهي في الأول والثاني لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه وأما الثالث، فهو لا يرى إلا قوله، ولا يسمع إلا كلامـه، ولا يبصـر إلا نفسه لذلـك مصاحبة مثل هؤلاء القوم، لـه من الضرر على النفس، والتأثير على القلب مالا يخفي.

ومـمـا يعد مـن ضياع النفس، قلة العلـم، وهو ملازم ما سبق فمـن قل علمه، اتبع هــواه. واتِّباع الهوى قد يكون عن جهل وقد يكون عن علم، فكم رأينا من أناس كانوا في العلم نبراسًا ونورًا، فلما اتبعوا أهوائهم ضلوا وأضلوا ثم كم رأينا من أناس رأوا الحق

واضحًا جليًا ثم حكموا بخلافه لرغبة استحلتها نفوسهم، وما طويت عليه ضمائرهم والله تعالى يذكر أحوال هؤلاء وغيرهم، فيقول سبحانه:

"أفريت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون"

وقد ذكر تعالى أحوال بني إسرائيل حينما آتاهم الله العلم والحكمة، فكان لازم تلك المعرفة استحداث نوع من العمل موافقًا لما تقضيه وتحث عليه، وهو الاتباع والاستسلام، ولكن اتبعوا أهوائهم فكان العلم عندهم سببًا لبغي بعضهم على بعض. كما نشاهد في واقعنا الحالي. فكان العلم مصدر الاختلاف لا الاجتماع، لإتباع الهوى، والبغي، والرغبة في الظهور، والطمع إلى آخره. قال سبحانه "فما اختلفوا حتى جاءهم العلم"

وفي وموضع آخر يقول سبحانه "وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم"

فعلق الاختلاف والتفرق على العلم، فكأنه هو سبب شرذمتهم وضياعهم غير أنه ليس العلم هو السبب في ذاته، بل ما استحدثته نفوسهم المريضة من التكبر بهذا العلم. فكأنه –في هذا الحالة– خادمًا لمصالحهم ومطالبهم، فليس الفساد والتفرق في ذات العلم النافع، وإنما كان تعليق الفساد على البغي الظاهر منهم في التلاعب به، والاستعلاء، والبطش، والفساد، والإضلال. فكأن العلم هو سبب ذلك، فكان طريقًا لفسادهم بغيهم وغلوهم، فكان وبالا عليهم.

فقلة العلم في مبدأ الأمر، هي أساس الشرور، ومنبع الفساد والضلال. فلو علم كل واحد –ابتداءً– ماله من الحقوق، وما عليه من الواجبات وكان مدركًا فاهمًا متجرد الرأي للحق، نابذًا للهوى والخلاف لصَلَحَ في نفسه وأصلح من غيره. فالعلم هو الذي تشد إليه المطايا وتبذل فيه العطايا، ويمدح أهله، ويُعَظَم طالبه، فيُكلف من

بـدأ فيـه ولو انتهى بشطر، فأصبـح ذا رأي، فاكتسى من حلل العلمـاء ورداء العقلاء . وفضلـه وأثره ظاهر لا يخفى، فما طُلب الازدياد من شيء إلا منه قال تعالي " وقل ربي زدني علمًـا" والازديـاد فيه، زيادة في العقل، وحصافة في الـرأي، وسرعة في البديهة، وحكمـة في المجلس، وقدرة على الحل والعقد. وإذا قـلَّ العلم، ضاع الإنسان في ظلمات الجهـل ودركات الشقاء، فنسي نفسه وضيع حاله فخسر في الدنيا، فعاش خامل الذكر ضعيـف الرأي، وفاته في الآخرة الأجور العظيمة والدرجـات العالية. فضيع من الخير مـالا يـكاد يحصى، ومن الأثر مـالا يكاد يمحى . وعلاجه في الطلـب والسؤال كما قال -عليـه الصـلاة والسلام-"ألا سئلـوا إذا لم يعلموا، إنما شفاء العـي السؤال". كل في مجاله وتخصصه. وعليه بالصبر والتصبر فإن من ثبت نبت، ومن صبر حصَل. لذلك أقولها، ناصحًا.. إياك أبدًا أن تضيع نفسك، أو تنسى ذاتك، فتغيب عنك حكمة حياتك وفرصة وجودك، فتتوه في خضم معارك الحياة ومصاعبها..

ومن مستلزم ضياع النفس، وفقد جوهرك وقيمك، هي رفقة الفاسدين ومصاحبة من لا نفع فيه. أمَّا الفاسد فهو رفيق الجاهل، وعنده نقص في العلم وضعف في الرأي. أمَّـا الفاسـد، لديه فقر في البصـيرة وقلة في العمل الصالح وتقـديم عاجل على أجل، فهـو لا يرى إلا المصلحة قصيرة الأجل، حاضرة الثمـن وفي كليهما مشابهة ومناظرة، وكلاهمـا فسـاد على المرء وخراب عليـه، فالمرء بأصغريه، قلبـه ولسانه فإذا لازم من فسد قلبه أو لسانه أخذ منه، وسقى ذلك تربة أرضه وقلبه، وسماء فكره، فعكر سماءه بريـاح السموم الخبيثـة، وأتلف أرضه بـأن سقاها ماءً مالحًا أجاجـا فلو سقيت بماء عـذب لأخرجت طيبها، وأعطت خيراتها، وجـادت بجواهرها ومكنونها لذلك مجالس المـرء ومحاوره هو كالساقي له، فإما أن يسقيه مـا ينتفع به ويصلح أرضه ونبات قلبه. وإمـا أن يبور أرضه، ويميت قلبه ونفسه. فالماء كلمـا كان رائقًا عذبًا، ذلالا اتضح أثره على ما سقى به.

المشكلة هنا، أنه ليس هناك أحد إلا وفيه نوع من الفساد، خالط فعله أو قوله غير أنهم ليسوا على درجة واحدة، فمنهم من استشرى فيه وعمّ. ومنهم من غلب عليه ورجح، ومنهم من ناصفه فهو بين بين. ومنهم من غلب صلاحه وهكذا، لكنك قلما ، بل لا يوجد أو لعلنا نقول ندر وجود أحدًا خلا من الفساد في الفعل أو القول، لذلك نقول في العزلة السلامة والراحة من الخلق علي عجرهم وبجرهم.

ومما يؤجج ذلك ويزيده، قلة المعين وانعدام الناصح. فإن المرء إذا لم يكن له في الناس من يعينه على بغيته وقضاء أمره ومقصده، أو ناصح يؤتيه ثمرة عقله وخبرة تجاربه، ويدله على ما ينفعه ويرشده إلى ما يصلح، قد يؤدي ذلك إلى شيء من ضياع النفس أو تأخرها عن المطلب ولابد ولا سيما إذا كان في النفس ضعفًا، وقابل ذلك وقتا ضعف الإنسان فيه، بل كاد يستسلم، فانزوت الدنيا أمامه، وبَعُد مقصده المراد تحقيقه. فيحتاج إلى من يعينه على مرور هذه الظروف الحالكة، والأوقات الضيقة العصيبة. وليس هناك إنسان إلا ويمر بهذه الأوقات. فلم يخلو إنسان من ضعف، فيحتاج شخصًا يحادثه فيسمعه ويشكيه ما في قلبه ونفسه، أو مكانٍ يذهب إليه يحاول فيه إيجاد ذاته . يتمايز الناس ويختلفون، ليس فقط أثناء اختلاف تصرفهم لحظات ضعفهم، ولكن على ما يترتب من الأثر، وما ينتج من الفعال، فقد يمتد هذا التأثير ليصاحبه طوال عمره. فالصنف الأول منهم يؤخذ بالمؤازرة والدعم النفسي والمالي إن أمكن، فهو حينما يجد الناس حوله، والأعين ناظرة إليه، والقلوب داعية له، ناصحة باذلة المعروف والخير فيتكاتفوا معًا، ويصطفوا صفًا واحدًا، كلهم جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وإن ترك أفراده هكذا هائمين، لا نصير لهم، فتستفرد بهم الذئاب بأشكالهم الكثيرة وأوجههم القبيحة، وكما قالوا إن الذئب ليأكل من الغنم القاصية الشريدة. وينتقي منها الضعيفة الهزيلة، فتصبح فريس سهلة في يد صيادها، فيستحوذ عليها ويأتيها من مأمنها، ومن حيث

تظن نجاتها وليس الذئب هنا إلا كل ما يمكن أن يضر بالمرء فيوقعه في مقتله، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك مسبقًا مثل حال الذي يلعب ويغرر به، لأنه في ضعف، أيًا كان شكله ونوعه فيسهل انخداعه بل يقع في حالة غفلة وتوهان، حينما يُصَدِق أي شيء بلا أدنى سبيل من المنطق، فينفصل عن واقعه وكثير من حالات الضياع سببها هذا، الترك والإهمال، وعدم التقويم السريع والعاجل بالحكمة والحسنى.

وقت الضعف لا تستقل فيه الكلمة والكلمتان، فهي حينئذ بميزان من يضبط الأمور ويصلح الحال ولو قليلا . فهو كالغريق يبحث عن قشة، يبحث عن ملمح نجاة أو بارقة أمل أو بصيص نور . لا تستقل أبدًا وقت الضعف شيئًا، فالنفس تكون فيه كالجائعة التي تنتظر اللقمة أو اللقمتان تقيمان الصلب وتستران الحال. كالظمآن الذي يدور باحثًا عن القطرة والقطرتان، ليهدي غليل عطشه ولو باليسير، كما في وقت الجوع الصدقة بأعلى أجورها وأثمانها، كذلك وقت الضعف الكلمة الطيبة الخالصة من القلب، الشائبة من أقذار النفس، المبذولة بإخلاص، لا يعدلها سامعها بشيء.. فإياك أن تستقلن من المعروف والإحسان والبر شيء، ابذل وكن على يقين، أن لمبذولك أثر، وسيحدث فرق.

أمَّا الآخر تجده مضطربًا، يتخبط السبل ويتهادى الطرق يقف هنا تارة ويرحل إلى هناك أخرى، متخبطة رؤياه، ضائعة أهدافه، طريقه طويل بلا مرشد أو معين، فمشقة طريقه عظيمة، ومئونته قليلة، واللصوص كثيرون وهو في الطريق وحده يسير ويسير.

وعلاج ذلك، يكون بالإعانة والنصح، فهي من الإنسان دلالة على حسن الطبع وسلامة الأصل وطيب نفس، وليس هذا بالضروري . فقد يعين وينصح من لا يتصف بذلك غير أن بذل المعروف للناس ولاسيما النصح، الذي هو من غالي الحكم وأطايب الكلم، وفيه إرادة الخير للمنصوح له، وطلب صلاحه ونفعه حتى عُدَّ أن أكثر الناس نصحًا للخلق، هو أكثرهم نفعًا وخيرًا، فهم الهاديين إلى طرق الصواب والخير، فكان

أكثر الناس نصحًا وتكرارًا وإرساءً، لذلك هم الأنبياء، فقد كانت دعوتهم كلها نصح وإرشاد وحض لفعل الخيرات وترك المنكرات، فما من نبي أو رسول إلا وكان ناصحًا لقومه، مُدِلًا لهم على الخير، قائمًا لهم بالحق والقسط. أمَّا النصيحة، فحدِث ولا حرج ويكفي فيها أن نقول إن بها صلاح البلاد والعباد، بها تصلح المجتمعات وتزدهر الأمم، ويُهدي بها إلى الطريق الصحيح . وانظر إلى قول القائل:

فاشكر فضائل صنع الله إذ جعلت　　إليك لا لك عند الناس حاجات

الناس بالناس مادام الحياء بهم　　والسعد لا شك تارات وهبّات

وأفضل الناس ما بين الورى رجل　　تقضي على يده للناس حاجات

وعلاجه بعد النصح والاستعانة بالله تعالى، يكون بالقراءة في كيفية تقوية ودعم ذاته، خاصة كتب النصح والإرشاد وكتب الحكم والمواعظ، والسير والتراجم للعلماء والمفكرين، وكيفية تصرفهم في حياتهم . فالحياة واحدة والمواقف متشابه، والطبيعة لا تختلف كثيرًا، فلينشد مقصده فيها وليبحث عن غايته بداخلها، فإن ظفر بها فقد وُفِق. وأن يتعلم الدروس من الأخطاء، والعبر من النكبات، فهكذا تجارب الحياة، وهكذا تختبر أهلها والفطن من وعظ بغيره، لا بنفسه. فيعلم خطئها، فيحاول إصلاحه. وأول الإصلاح، الاعتراف بالداء، والبحث عن سبيل العلاج. ثم مُخالطة من يتوسم فيهم صلاحه أو مساعدته، وقد لا يجتمع الوصف معًا وأن يحيط نفسه بالأخيار والنافعين له في حاضره ومستقبله، بل يَجِّد في البحث عنهم، فإنه سيجد أثرهم وفضلهم حين الاحتياج إليهم فهم الكنوز التي تظهر قيمتها حين الاحتياج إليها، فيجعل دائرته الاجتماعية أو المعارفية. ممن يرجى خيرهم ونفعهم فإن عُدِم من حوله من هذه الأوصاف، فليقلل اختلاطه بهم، ولكن لا يفارقهم ويتركهم وهذا لا يمنع من مراعاة الزمان والأحوال والملابسات، فالناس متقلبة والزمن يدور فربما وجد من لا قيمة له اليوم، لك عنده حاجة غدًا . وربما وجد الغافل الجاهل بعد زمنٍ ما عاقلًا

أريبا، فأنت ما حويت ظروف الناس، ولا علمت كيف يقضون أيامهم ولياليهم. حتى تحكم عليهم فما علمت مشكلاتهم ومعاناتهم، فأنت حقيقة لا تعرف شيئًا عنهم. ولكن ليس لك منهم غير الظاهر فأنت لا تعرف إلا نسبة من الحدث، أمَّا بقيته التي بها تمامه وكماله، لا تعرف عنها شيئًا وهذا يدعوك إلى أن تترفق بهم، وأن تعطف عليهم، فترحم مسكينهم وضعيفهم، حتى تبقى بقية من الحياة في قلبك، لأن الحياة الحقيقية هي في حياة القلب . ومن ذلك قال الحكيم:

"أحب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما وأبغض بغيضك يومًا ما عسى أن يكون حبيبك هونًا ما " فتجعل المرء معتدلًا، فلا يحب إلى المنتهى، وكذلك لا يبغض إلى المنتهى ولكن بين بين، فيسدد ويقارب، ويلزم التوسط والاعتدال. ولا يألوا الشطط والجور.

ومما يدفع بالنفس إلى الضياع، البيئة الفاسدة الضائعة، التي لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرًا، إلا بالهوى فكلما كانت تنشئة المرء في بيئة مناسبة طيبة علمية، كانت حياة المرء أكثر استقرارًا ونتاجًا. والعكسُ بالعكسِ فأثر البيئة على حياة المرء ظاهر لا يخفى، وحقيقة لا تهمل، وظاهرة مشاهدة. بل تجد ابن خلدون في مقدمته يميز بين أهل البدو والحضر. وللعلماء كلام كثير في تلك النقطة ثم أخذ يبين أثر البيئة على المجتمع والأفراد من الناحية الطبيعية من حيث الحرارة والبرودة إلى آخره، فالبيئة بمقوماتها الطبيعية والبشرية تؤثر على المرء تأثيرًا لا جدال فيه أو مِراء كل يتطبع بطباع بيئته ومجتمعه، ومما يجدر ذكره هنا، التنشئة الأولى وهو دور الأسرة في الإصلاح والتربية، إذ هي المدرسة الأولى التي يدخلها الفرد في حياته، فيتعرف كل شيء من خلالها، فكيف لو أهملت دورها، وتركت الطفل يُربى في غير ما كان يجب عليه أن يكون فتكون تربيته في الشوارع والطرق يأخذ من كل برٍ وفاجر، وصالح وطالح . وأصبح البيت بالنسبة إليه كالنُزل أو الفندق تمامًا، فلا يأتيه إلا وقت نومه أو مأكله

ومشربه. فصار ذلك مفهوم البيت عنده. وانمحى أو قل أثر البيت عليه، في تربية من أبيه أو أمه فما عاد يشكل الدفء والتربية والمعالجة التقويمية والفكرية والمناصحة والتقويم النفسي والجسدي، ففقدت الأسرة دورها، وتفككت، وضاع عامل التربية الأسرية، التي هي الأساس الأول لحياة الإنسان . فما يتعلم الإنسان في صغره، يظل معه في شبابه وكبره وكما قال القائل:

ينشئ فتى الفتيان فينا … على ما كان عوده أبوه.

وقال الآخر:

إذا كان رب البيت بالدف ضاربًا … فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

فطفولة الإنسان من أهم المراحل العمرية التي يجب أن يفطن لها إذا فيها غرس خصال الخير، والصفات الحسان من الصدق والوفاء، وتعلم الشكر وقول الحق والمعروف إلى آخره . فطفولة الإنسان من دون سائر المخلوقات تمتاز بالطول لأهميتها، فالنشء فيها يتربى على ماسيكون عماد حياته فيما بعد، فطفولة الإنسان أطول طفولة في الكائنات الحية، إذ تمتد حتى الحادية عشر، وقيل الثالثة أو الثامنة عشر فهذا العمر الطويل إذا قضاه في بيئة صالحة، أصبح رجلًا صالحًا نافعًا لأهله ومجتمعه، وقبل ذلك نافعًا لنفسه أولًا. وإن قضاه في بيئة سيئة المنبت، فاسدة الأصل والفرع صار رجلًا -في الغالب- خَرِب في نفسه، ضار لغيره مضر لمجتمعه. ناهيك عن سلوكه العدواني، وحواره الفظ، وأسلوبه الخشن. وقد يكون غير ذلك، أو يغير من نفسه فليست هي القاعدة الجامدة التي لاتتغير فلكل حال نتيجة مختلفة، ولكل تجربة عواملها الذاتية.

نحن هنا نتكلم عن الأثر والتأثير، فالحياة تفاعل بين أثر يترك بصمته على غيره أو تأثير من غيره يتلقاه فيُؤثر ويتأثر، ويُفاعل ويتفاعل فالإنسان كما قال ابن خلدون، "وليد منطقته وابن بيئته، ومعرفٌ عن أهله بنفسه، لأنها حاضنته وراعيته، ففيها وعلى أرضها نمى وكبر وترعرع . ولقد أوجز اللفظ وأنجز المعنى .

ثـم أن أي شـيء في الحيـاة، بالمحاولة والإصـرار والعزيمة ممكـن، فيمكنك نقل الصخر لو أردت. وأن تلين ماتظنه نفسك محالاً، فتصيره ممكنًا وطيعًا بإرادة حديدية تشق الصخر وتغير مجرى النهر وتصنع الفوارق، بالصبر والجدّ.

ومما يؤدي كذلك إلى ضياع النفس وبه نختم هذا الحوار، ونكتفي به وإن كانت العلل والأسباب متعددة، ولعل فيما ذكر نفع وإفادة. هي عدم النظر في عواقب الأمور وتطوراتها ونتائجها. وأسبابه كثيرة، ذكر طرفًا منها قبلًا. ونضيف هنا بأن النظر فيما يستقبل، هو بداية من متابعة الفعل اليومي، والإدراك للواقع الحالي، فيدرك أن المستقبل – غالبًا – نتيجة لفعال اليوم لمَ؟ بكل ببساطة ووضوح لأن يومه الذي هو فيه، كان مستقبلاً لماضيه، وأملا لغده. فأصبح ذلك الغد هو اليوم الحاضر، أو هو اللحظة القائمة، لأنها كانت من قليلًا مستقبلًا، فجاءت فصارت حاضرًا، ثم مضت لتكون ماضيًا. هكذا العمر وما أقوله ليس رجما بالغيب أو سفسطة باطلة ففعل المرء هو نتيجة إدراكه لمستقبله وأيام غده. وفعل المرء هو نتيجة تصوره وفكره، الدال عليه بهذا التصرف من الجوارح . ففكره نابع من قراءته، من تجاربه، ومن مخالطته لغيره . قل لي ماذا تقرأ؟ أقول لك من أنت . قل لي من تصاحب؟ أقول لك من أنت. وفعال المرء هي عاداته إن داوم عليها وفَعَلَها الزمن الطويل. وعاداته هي نتيجة ممارساتٍ، واعتقادات، وأفكارٍ معينة وهذا النمط بأكمله يحدد حياة الشخص، فحياتك هي مجموع عاداتك وممارساتك، لذلك قالوا من عاش على شيء مات عليه، لدوام مزاولته ولصوقه به . وأحوال الناس في ذلك عبرة وآية، فلكل منهم نمطه الخاص الماضي به، ولكن هناك أنماط واضحة لسبل النجاح والوصول أو ما يضادها وهكذا، وأنت في كل الخيار

وقد أحسن أبو الطيب في ذكر بعض هذا المعنى، فقال:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدَّق مايعتاده من توهم

وعـــادي محبيـــه بقـــول عُداتـــه وأصبح في ليل من الشك مظلم
أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفهـــا في فعلـــــه والتكلم

فكـثرة مراجعـة النفس، والأمور قبـل إتيانها، والنظـر إلى نتائجها وتخيل نمطها وأحداثهـا، ومـا سيحدث من العواقب ضارة أو نافعة، فيفطـن للأمر بسوء الظن فيه، ليعلم أوجه حدوثه وطرق مداخله ومخارجه ثم يعود بعد ذلك إلى حسن ظنه وهدوئه، فـيرى بعقله مستقبل الأمر، فيسابق الزمـن بعقله ليرى مناط الأحداث وطرائقها وهو متسلحًـا بذلك بالعلم، عالمًا بالوقائع، مسلمًـا بالظروف والملابسات، فيشحذ بصيرته بـين الحين والآخـر، فيصبح ذا رؤية ثاقبة وبصيرة قوية ونظـرة واقعية مستقبلية، ثم يعـود مـن تلك النظرة العميقة، وقـد تفتحت له من الأفق أشيـاء وأشياء وكل ذلك من الفطنة والحكمة.

طرق زائفة

لـك أن تتخيـل كيـف سيكون الحـال، وأنت تركب مركبتـك البخاريـة أو سيارتك مسرعًـا في طريقك، معـك كل ما تحتاج إليه وتريده، أحضرتـه تحسبًا لحدوث طارئ مـا وأنـت مسترخيًا هادئ البـال، مستريح النفسـ، مدندنًا تلك الكلمـات التي تعلقت بمسامـع فؤادك في حالة مـن الانبساط النفسي، أو تاليًا لما حفظته حتى خُطَّ في عقلك كالمنحـوت على الصخـر. فأنت لك به ذكريـات طويلة، فقد أكسبـه كل موقف تمر به وكل حادثـة تتعرض عليها معنى جديدًا، حتى صـار شيئًا محبب لك. وأنت في طريقك تجـد الطريق كأنـه يسابقك، وأنت في حـال تنافس مع الطريق، فتمضـي وبكل سرعة تزيدها تخلف أشياء خلفك، تترك المعالم والأشياء والأشخاص وأنت تراها تتسارع إلى التلاشـي والخفاء مع سرعتك، تـرى المشاهد متنوعة والأحـداث متعاقبة سريعة جدًا وأنت تلمح كل ذلك بنظرة خاطفة من طرف عينك وكل ذلك والزمن يمر ويجري فأنت كأنـك في سبـاق بين نفسك وقدرتك، وبين الطريق الذي تجـري فيه تريد نهايته، وبين الزمـن الذي يسري غير منتبه لكليكما ثم تهدئ من سرعتك قليلًا لما مشاهدتك شيئًا جـذب عينك فراغ عليه، وطار إليه فـوادك فأحببت استدامة النظـر يسيرًا، أو إطالة مدة النظر ولو ثانيتين إضافيتين فتحرك مقبض القيادة، وترفع قدمك مخففًا السرعة شيئًـا فشيئا فتنظر ما حولـك من جمال وخضرة على امتداد بصـرك، وتشعر بنسيم الهواء يدخل نافذتك فيغمرك ثم ما أن يمر الموقف تشغلك أيضًا مناظر أخرى، فتشعر بحالة من الاستجمام والراحة وتندمج مع الطريق، لا مع الوجهة المطلوب الوصول إليها فتمر الساعة تلو الأخرى، وما وصلت بعد فأخذت تنظر الطريق مرة أخرى، لاغيًا تلك النظـرة الأولى مبدلًا إياهـا بأخرى منتبة قلقة، وتسأل نفسـك، أليس هذا هو الطريق

الصحيح! فتريد ابتدار أمرك، ومراجعة حالك فقررت أن ترجع إلى أقرب نقطة تريد الاستدلال بها إمَّا بذاكراتك، أو بسؤال غيرك فأنت بذلك تستدرك على ما فاتك، بألا تضيع ما يستقبل من وقتك وعمرك . ثم إذا كنت في ظن، فلا يحسن بك، أن تمضي الباقي من الوقت بهذا الظن لأن الظن لن يأخذك إلا إلى ظنٍ آخر، وإذا أكملت في هذا الظن، فأنت تعيش حياة أشبه باليقين في الظن. فالأحمق هو من يدفع نفسه إلى الاستمرار في الظن، فاستمراره لهذا الطريق الظني دليل حمق وطيش، فأولى به المحاولة لعله يجد مخرجًا في حين أن تناقض نفسه تدفعه إلى ما يستيقن، وهو الوقوف والسؤال، والرجوع إلى أقرب مركز استعلام، أو وجهة طريق واضحة، لعله يرشده.

ثم هو في أول رحلته انشغل بلذة هدوئه وراحته، وياليتها كانت حقيقية، إنها لذة أوهامه وغفلته وما تحبه نفسه. فاللذة الحقيقية لا يولد بعدها إلا فرح وسرور وتفاؤل، ولكن ما حدث هو تمام الضد. ليدلك أن هذه اللذة، إنما هي تزيين العقل واسترواح النفس ودناءتها، كأنه شيء من سحر تلك الغفلة ألقى على النفس بحبائلها وجنودها، فخيلت في العقل ما ليس واقع الوجود، وإنما هو من أثر الخضوع لتلك التعويذة . فما هي اللذة وأين أثرها؟ اللذة قد تكون حسية، بمعنى أن يكون المتسبب فيها هو المخ، مركز المتعة الحسية ويصل ذلك إلى الأطراف من خلال موصلات عصبية بعد أن يتحفز المخ لذلك من خلال محفزات سمعية وبصرية وهكذا وتلك هي المتعة المادية، المعلق فيها والمربوط بالظاهر المحسوس وتلك شائبة، لا تخلو أبدًا من ألم، وغالبا قد يعقبها فتور أو تعب أو عدم الشعور بالراحة التامة. فاللذة هنا يعبر عنها بمتعة الجسد التي تتم بالطعام والشراب واللباس والمأوى ونحوهما وهي دائرة ضيقة لا تتعدى محيط الجسد ومحدوديته. ثم هي لها حد لا تستطيع أن تجاوزه، فإن جاوزته قلبت المتعة ألم وصارت عذابًا ومرضًا. ثم هل توجد هذه اللذة وسط الألم؟ بل هذا هو الواقع حقيقة. فإن اللذة تتم وسط كثيرًا من آلام، ثم هل لنا أن نطلق عليها حينئذ لذة فهل اللذة

هـي في الحقيقـة انعدام الألم أم ناسبت هـي حقيقة مقامها في الدنيـا، فلم تكن فيها خالصـة تامة أم لأنها كانت متعلقـة بالجسد فأصابها شيء مـن معاناته وآلامه، فهي كذلـك متعرضة للنقصان عـن التمام، فهي خالية من الوصـول إلى تمام الرضا، فلم تكن إلا مكدرة، وفي نفس الوقت كافية لإسعاد الجسد، بتحريك مركز الحس فيه، عند درجـة معينة ثم الوصول إلى الأطراف من خلال إطـلاق كمية من الإشارات الكهربية مـن المخ، وكذلـك إفراز نوع من الهرمونـات ليعزز القدرة، وليكون هـو مؤدي الوصول بأمر من المخ ومركز التحكم العصبي وهكذا.

ثـم اللذة الأخرى، وهي اللـذة الروحية، فلا سبيل هنا لماديـة الجسد عليها، وهي التي يصل بها المرء إلى تمام السعادة والرضا.

ثم تنظر لنفسك، فإذا العلم قد جانبك وجفاك ولازمه الجهل، ومايتبعه إلا العناد والأنفـة. ومـن اتصف بالثاني وانتفى عنـه الأول هلك ولابد فهو قـد سار في طريق ما انتبه لعلاماته، ثم لن يكلفه ذلك إلا طرفة عين ببساطة يدرك بها، أين هو وماذا بعد. ولكـن إمَّـا أنه استسهل الأمر فجاوزه واعتمد على نفسـه، فضل. وإما أن يكون قد غفل عـن ذلك، وما أكثر الغفلـة في حياة المرء وأفعاله، بل لو سئل قبـل أن يقدم طريقه، أو هـل جمع عن طريقه قدر من العلم لازم، حتى لا يضـل ويهلك بالجهل والحمق فيسأل أهـل العلم والبصـيرة والحكمة والفهم يكون قـد أتبع السبـب الأول في الأخذ بالعلم، ونفـي الجهل عنه. فالغفلة أو التجاهل كافية أن تقضي على المرء، والمصيبة أن أول من يقضـي عليه هو نفسه، فسؤاله حينئـذ ليس قصدًا للتثقيف أو المعرفة، وإنما هو لإنقاذ روحـه وهـذا أقل قدر مـن العلم. وهو أن تعلـم ما يبقيك على قيد الحيـاة، فتعلمك لما تحفظ به نفسك واجب حتمي عليك، تأثم وتذم بتركه. ثم بعد أن انقضى أكثر اليوم في طريق لم يكن هو وجهته ومقصده وقضى بقية منه في الهم والنكد وذم النفس والحال. والبحـث عن أسباب يعلق بها أخطاءه على غيره، ويتعلل بأسباب واهية، وعلل ضعيفة.

ثـم انتبه بعدمـا ألقى بثقل رأسه على مقعد السيارة، وأرخـى جسده وأخذ يفكر، فعلم أن أقصى ما يمكن فعله، هو الخروج إلى النور، حيث الأصل الذي لا يختلف عليه أحد، وكان الطريق الرئيسي، وبينما هو يهم لتشغيل سيارته، إذ تتعدد الشعب أمامه وتتقسم الطـرق حوله فقـال في نفسه، إن هـذه الطرق لابـد وأن تكون زائفـة إلا طريقًا واحدًا سيوصلني إلى بغيتي ومرادي، وهذا ما يجب أن أحتال له الآن.

إن الطـرق في حياة المرء كثيرة جدًا، ومتشعبة بشكل معقد فهي شبكة لا تنتهي من العلاقـات والتصرفـات والأحوال والقرارات ، وشبكة أخـرى تعج بالناس وتمتلئ بهم، ومـا يفـرق بين الدخـول في طريق زائف مـن أي مما سبق. مثل علاقـة عمل، تصرف غـير مسئول، قرار أرعن، مصاحبة ضارة مهلكـة. والدخول في الطريق الصحيح، هو التفكـير السليم. ففكر المرء هو الذي يقوده، ولـو كان عييا . فلولا الفكر لقُيِد كالبهيمة التي تقاد إلى حيث يريد صاحبها. والتفكير هو الفريضة الأولى في الحياة ثم ما أوصل النـاس إلى مـا هم فيه إلا مجموعة من الأفكار التـي اتسقت في وحدات فكرية فشكلت مذهـب المـرء في النظر ثم لآمتهـا رغبة نفسيـة، فطاوعت الجـوارح، وتصرفت بأمر الحاكـم الناهي واللب العاقل، ثم ما أخرجهـا في كل ذلك إلا الفكر، فالفكر هو القائد المحـرك في الحياة، فإن غُـزي بالمنطق السليم، والمعتقد الصحيـح، أنتج أفعالًا حسنة وحيـاة طيبة، فتكون أنـت نفسك راضيًا عنها رضا حقيقـي لا زائفًا، وبذلك تصل إلى المتعة الحقيقية في إشباع نهم النفس وإرواء غليلها أو مطمعها.

ولـكل طريـق داعيًا له يعتقد صواب فعله ورأيه، ويـبرر عمله وصنعه وينظر للآخر علـى أنـه متعد علـى الحقيقـة، خارجًا عن الصـواب ثـم إن حجته لا تعـدو فلسفة أو سفسطـة أو هرطقة أو أدلة فاسدة، أو استدلال خاطئ فيظن أن ناصية الصواب بيده، وناحيـة الخير بجواره وفي جانبـه، ثم يتلو حجته ويصدح بفكره وينادي لرأية ثم يجعل كلامـه مذهبًـا ويتعصب له، ويجعـل لا سبيل إلى النجاة إلا باتبـاع نهجه وتقليد فعله.

ومايـدري أنـه اعتمد علـى أساس هش، كبيـت مائل ينتظر هبوب هـواء يسير من حق أبلـج فيسقطه، فتخر قواعـده على الأرض. فهو واهـي الأركان ، ضعيفة ثوابته، واهنة مناهجـه ، مضطربة أقواله ، واضحة سقطاتـه وعلله ، كلامه يُكذب بعضه بعضًا، فلا حجة فيه إلا عليه.

غير أن ما يدعم بقاءه، هو اتباع طائفة من الناس له، وانتصارهم لرأيه، وإن كان هو الباطل بعينـه. فإذا اكتسى طريقه بعضًا من الزخارف التي تبهر ضعاف النفوس، وتبهـج مسلوبي العقل النقـدي السليم، اتبعوه كفراش يدور لحتفـه. فأخذوا يناصروه ويشايعـوه، ويدعو له بالنصرة والتمكين، ويدعو على مخالفه بالضعف والهلاك ثم إذا اكتسـب زينة من القـوة، ومتاعًا من الجنـد، أيد حزبه وبسط سلطانـه، وأقام حروبه ظاهـرة وباطنـة، وأرسـل سرايـاه تترى، فمتابـع له بالحسنـى قربه وزين لـه الحياة والطريـق، فيغريـه بما يفتن بـه نفسه ويسلب عقلـه، ومن خالفه وعانـده بسط له من شديـد القول، والتهويل بالوعيد مـا يرهبه. فيجعل الناس عنده حزبين كبيرين لا ثالث لهما من معه في حزبه، ومن خالفه ولم يناصره.

ولكل طريق باطل، لوحات كاذبة داعية إليه رافعة شعارات خلت من قلوبهم وخوت منهـا نفوسهم، فما كانت فقـط إلا خلطًا وتلبيسًا، وزورًا وباطـلًا، ولابد لهذه اللوحات مـن مزية خاصـة حتى تقبل، فتقلـب الباطل حقا، والـزور صدقًا، مستعينـة بالتلفيق والتحريـف. فتجعل عبارتها براقـة أخَّاذة، تلمحها العين، ويكون لهـا وقع على القلب. ولابد لها من دعاة وملبسي زورٍ، يزينون الباطل ويلبسونه بالحق ثم تجد أكثر اتباعهم ممـن كان لهـم مصلحـة أو غايـة يريدونها منهـم، أو من بهـم ميل إليهـم ورغبة في اتباعهم، أو من يكون بهم من الشبهات والتلبيس مع ما يجعلهم لا يرفضونهم، بل وقد يقبلونهـم، ومنهم مـن كان صاحب جهل مطغي، فشاهد كـثرة الناس عليهم، فانخدع بحلـو لسانهم ومعسـول ألفاظهم ثم تجد تنوع أساليبهم فيدخلون على كلٍ بطريقته هو

حتى يستميلوه إليهم، فيقع السامع في شَرَك أفخاخ أقوالهم الظاهرة، فيغرر به لعدم تحريه وبحثه أو رغبته، وتجد غالبهم ممن لم يكن كلهم تحكمهم المصلحة والمنفعية، فهم يدورون معها حيث دارت، وينقلبون معها حيث ذهبت ومنهم من يتبعهم خوف وعيدهم أو طغيانهم وشدة شوكتهم وافترائهم، فينضوي تحت لوائهم مكرها، ويدخله مغلوبًا مقهورًا، ومنهم من يخوضون معهم غمار كل شيء، مصدقين كل ما يقولونه آخذين بظاهر ألفاظهم، تاركين الحقائق خلفهم واضحة غاية في الوضوح .

وهؤلاء هم شيعة هذه الطرق وناصريها فإن أتاهم مدد وعون من حكم أو سلطان أو ذا جاه ونفوذ. يصبح الطريق طريقهم ويصبح الأمر هنا مختلفًا، فتصبح شوكتهم قوية ذات قدرة ، وعلمهم عاليًا مرفرفا بزهو و غرور. فكلمتهم هي الكلمة فلا يسمحون بكلمة تخالف مذهبهم، أو تعادي قولهم، بل حتي تشير إليهم من بعيد، وقد يحدث أن يجبرون الناس على أمرهم جبرًا . وأنواع الإجبار كثيرة، قد تكون ظاهرية من حيث القسر والتضيق والحبس والضرب وقد تكون باطنية أو غير مباشرة في أثواب أخرى من حيث أنهم لا يظهرون العداء لكن يجعلونه خفيًا، ويطاولون من أمرهم بحيث لا يقدر أحد على التفكير في مجرد المخالفة، ويضعف في مقابل ذلك طريق الحق، فتبهمت معالمه، ويحاولون إلغائها أو تحريفها عن ظاهرها، وتضعف مئونة الحق، ويصير الوصول إليه شاقا وطويلا ومرهقا، فيقل سالكه، ويندر المار به حتى إذا مرَ الزمان وطال، تجد كثيرًا من الحقائق قد قلبت على وجهها، ثم ينشأ أجيال على هذه المبادئ الجديدة والمعتقدات المحرفة، فيخترعون لضلالهم من الحق والصواب ما يناسب أغراضهم وأحوالهم، ويرقعوا خِرَقها الممزقة، فتصير ثوبًا مضمدًا قبيح المنظر، فيبهرجونه ويصبغونه بأشكال الألوان المختلفة، حتى يحور شكلًا جميلًا مقبولًا في ظاهره فقط وهو في باطنه أقبح ما يكون.

نعم، قد يهجر الطريق الرئيس، وقد يتهالك حتى يكاد يُنسى ولكن تبقى فيه بقية

من روح نابضة لاتزال تدل عليه وترشد إليه، فما بذل أحد سبل الوصول إليه إلا اهتدى وبلغ ولا أراد شخص الولوج فيه، إلا ضمن السلامة غير أن سلاحه الأول لمعرفته هو العلم، التجرد في الطلب لأجل الاهتداء إليه. فلا يصل إليه صاحب شبهة أو انحراف أو هوى، إنما يصل بما في قلبه إلى ما يريده قلبه، فينجذب إلى حيث تريده نفسه، واهمًا التجرد وهو كاذب، لأنه لو تجرد من كل هوى مطوي في الصدر، وخلع عن نفسة رِبقة التقليد الأعمى لأدلج . إنك تجد كل الطرق متشابهة مما يعرفك ببطلانها، ويدلك على فسادها . أمَّا الآخر فتجده طريقًا واضحًا، كأنه خرج من مشكاة نور وهدى، وإن تعددت طرق الوصول إليه، إلا أنها تؤدي إليه وحده وكذلك الحق إن تعددت طرق الوصول إليه بمختلف حيل، إلا أنه واحد، هو الصواب وحده لا يجانبه الخطأ، ولا يعدوه الحق لأنه الشمس في ضيائها واضحة. أمَّا الباطل فهو كثيرة لجحه، متعددة طرقه، كل طريق عليه داعٍ يدعو إليه.

حياة الإنسان كلها طرق لا تنتهي، حتى ينازع الرمق الأخير، ويخرج النفس الآخر. منذ أن عقل المرء وهو يتهادى بين طرق الحياة ودروبها، وبين جبالها وشعابها. وهو في الحياة مخير بين طريقين أساسيين لا ثالث لهما، منهما تنبع الطرق وتتلوى وتتشابك، فطريق الحق والصواب والخير أو طريق الضلال والشر، ولكل طريق أئمته ودعاته ومريديه وسالكيه والقائمين على أمره، ثم إن هذا الطريق لا ينتهي إذا هو قائم بقيامة الحياة ذاتها، فلاينتهي منه إلا بفناء الحياة وهلاكها، ولكن عمل الإنسان فقط وآثاره فقط هي التي تنتهي عليه، وتسجل عليه . كما قال تعالى "ونكتب ما قدموا وأثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين" فأثار المرء، وهي كل ما خلفه من بعده وكان له أثر على الناس أو المجتمع والبيئة يسجل عليه وهذا هو طريق الإنسان في حياته.

غير أن هذا يسوقنا لبعض الإيضاح والبيان، وهو أن هذا الطريق في جوهر واحد، فهو يأخذ بالإنسان إلى الشرف والمعالي، واكتمال حاجات الذات الطبيعية لا تدميرها

وإهلاكها، بل المحافظة عليها وصيانتها، والترفع عن النقائص والدنايا ثم إن هذا الطريق في أصله الأول داعيًا إلى كل معروف وحسن وبِر فطريق كل إنسان في الحياة، ليس كالآخر، فهم مختلفون باختلاف الأرض التي يقطونها. ولكن هل الخيارات واحدة؟ بمعنى أن كل هؤلاء البشر، يرجعون في أصل اختبارهم إلى الاختيار بين خيارات معينة، كلهم يقفون عندها، أم أن الخيارات متعددة، فلكل منهم له خيار غير الآخر. الأصل أن كل إنسان في اختبار بين الحق والباطل، مهما تشكلت صوره وأنماطه وأشكاله، بين ما يصح وما لا يجب ثم إذا اتفقنا أن الصفات هي في أساسها واحدة، وإن تعددت مسمياتها، وأن معناها ودلالتها واحدة، فهي إمَّا خير يجمع كل ما يدل عليه لفظه من معنى، أو شر، يحوي كل ما احتواها باطنه من إيراد وقصد، فيكون نعم ثم هذا الاختيار كل واقع فيه على علمه أم جهله، فهم المراد منه وكيفية تخلصه، أم لم يفهم فيقع فيه العالم والجاهل والذكي وغيره، والرفيع والوضيع ثم كل إجابة تأخذ إلى طريق بعينه، وهو أن كان طريق واحد في جوهره، وأن تعددت مسالكه، إلا أنه مسلك له فيه مستلزمات ومقتضيات ومطالب، حتى يقدر على المضي بداخله، فليس الأمر فقط هو الوصول إلى الطريق فحسب، ولكن كيفية المضي بداخله، واستعانة على مصاعبه، ومعرفته حق المعرفة، حتى لا يخرج منه من مسلك آخر، وهو ظان أنه على النهج وهو قد خالفه كل المخالفة. ثم إذا كانت الصفات ترجع في مدلولها إلى أصل واحد، فما هي الدلالة التي يفهمها الإنسان، حينما يسمع ألفاظ مثل (العدل، الصدق، التسامح، الوفاء، الأمانة) فلكل واحدة منها دلالة مغايرة عن صاحبتها، إلا أنها في بوتقة واحدة، بل إن كل واحدة منها متضمنة الأخرى مستلزمة لها وهي جميعًا تحت القيمة العليا، المعبر عنها بالخير والمعروف، فهناك قيم جامعة لكل خصال الخير والفضل والإحسان. ومع كل هذا وسواه، إن الفطر السليمة لتعرف هذا القيم، كما تعرف فلق الصبح في وجه السماء، من غير شرح أو تفصيل لأنها الفطرة النقية قال تعالى "فطرة الله التي

فطـر الناس عليهـا لا تبديل لخلق الله" فـالله خلق الناس كلهم مفطـرون على الخير والإحسـان، ولكـن اجتاحتهـم الشياطين، وغيرت فيهـم الحياة بأوجههـا وتعاقيدها، ونفوسهم وأهوائهم .

فالفطرة السليمـة النقية قادرة على التفرقة بين الجيد والخبيث، إذا نزعت عنها الـرداء الـذي لوثها من أثر المخالطة والتغيير السلبي بـل مع تغيره هو مازال قادر على التفريق بينهما، وفهم معنـى الصفة الحقيقة والأخرى الزائفة المقلدة الفلصو. فيعلم أن العدل حـق بصوره، وأن الظلم والشطط جور وافتراء. وأن الأمانة واجبة، والخيانة ضعف وخلل ثم كل واحد منهم يوضع في اختبار أمام كل كلمة، ليرى ماذا ستكون نسبته فيـه فكل الخلال والصفات توضع أمامه ليطبعها في قلبـه أو يحذفها وينفيها عنه، ثم يصـير مـا طبع فيه من الصفات هـو ديدنه وطبعه في الحياة. وهـذا فيه أن كل طريق لابـد قبله مـن اختبار وتقييم، كأنه ينظر حالك، هل أنت مؤهل إليه، أم لم يحن الوقت بعـد أهل تمتلـك الصفات التي تمكنك من الدخول إلى هـذا الطريق؟ فإذا دخلته ولم تحمل قيمه، نبذت منه وعرفت أنك لست من أصحابه، وأنك غريب عنه. فاعلم أن قبل كل طريـق اختبـار، وأن كل نتيجة هادية لِمَعْلم بعينـه والاختبار يُعلي من قيمتك لترتقي طرقـًا، لم يكن الوصول إليهـا متاحًا إلا بعد الشدة والتمحيص والشد والجذب بينك وبـين نفسك وفي كلٍ النتيجة هـي المقياس تمامًا كما يفعل تنسيـق الجامعة، كل نتيجة هي اختبار لدخول طريق معين غير أن هنا أمرًا مختلفًا. فهذا الطريق ليس عن إجبار، وإنمـا هو محض اختيار وتقرير نفس فأنت الماشي فيه، المتحمل تبعاته وعواقبه وحدك فأنت المعاقب في نهاية الأمر أو المثاب المكافئ. فأنت صاحب القرار وحدك وليس لأحد فيـه إلا محض نصيحـة يبذلها، أو صعـاب يذللها لك، أو مخاطـر ينبهك للاحتراس منها، فهو في كلٍ نافع لك.

وكل طريـق هو مغامـرة منفصلة ورحلة مغايرة شيقة . به محطات توقف عليك أن

تنزل فيها لتستمد غذاء نفسك وروحك، لتهدأ قليلاً، ثم تمضي مرة أخرى إلى وجهتك . فيه غرائب عليك فهمها ومعادلات عليك إدراكها، ومسائل عليك حلها ستخسر فيه كثيرًا ولابد، غير أنك عليك ألا تخسر ذاتك ونفسك، ستتألم كثيرًا، وهذا ما سيدخلك إلى المرحلة التي بعدها أقوى –ستقوى- وسينزع عنك رداء الضعف شيئًا فشيئا . كل معركة ستخوضها إمَّا أن تجعلك أقوى أو أضعف. كل ألم سيؤلمك وعذاب سيوجعك، إمَّا أن تجعله وقودًا يدفعك، أو وقودًا يحرقك، و وحشًا ينهشك . و إمَّا أن تنضج أو تُقْهَر سينكسر قلبك كثيرًا، فيزداد حرصك، فلا يسهل خداعك. ستتغير كثيرًا، وستذيقك الحياة من مرارتها وشقائها، وتلك هي الحياة، لمن أدرك طبيعة الاختبار، أن الجائزة ليست هنا، وأن الحساب في آخر الطريق، فالراحة ستكون حين الوصول الآخر إن أحسنت في طريقك ومشوارك، يكون جزاؤك على قدر تعبك، ودرجتك على قدر مشقتك، فلن يضيع شيئًا هباءً، ولن يترك شيئًا تغافلاً كل مكتوب مسجل عليك في طريقك فيورثك ذاك الصبر ثم الرضا فيزاد حلمك ويعظم عفوك، ويزاد خيرك وإن كان الطريق شاقًا وعرًا، فهي تُعَرفك أكثر على نفسك، وتقضيها عائدًا إلى ذاتك وحقيقتك . و إن طال الحال، فلابد وأن يتغير، وستمطر على أرضك فرحًا وسعادة، فتخرج منها ما حسن وجمل، ولابد فطريقك أبدًا ما كان طريق فناء أو هلاك، إنما كلما زاد فهمك وإدراكك، علمت من طبيعية ما أنت فيه مالم تظن، فكان أسهل شيء عليك الإنكار، لتبقي نفسك في ذاك الحلم الوردي الجميل، فتعزل نفسك عن الواقع وتستغني عنه بسهولة رده، أو تقبله فتستعد له.

الحياة حقًا لا تلوي على أحد، ولا تنتظر أحد، فالمشقة والصعاب جند من جنودها، ثم هي ما وجدت للكمال ولا لنيل كل غرض ورغبة، ولا لتحقيق كل أمنية وهدف، وإنما هي محل مؤقت وعرض عارض. واعلم أن الطريق المراد أنت الذي تطرق بابه، لتسير فيه فليس هو الذي يأتيك ويناديك، ولن يفتح لك من أول قرعة وخبطة أو الثانية أو

الثالثــة، ولكــن من أدمن قرع البــاب، لابد وأن يفتــح له. وإن لم تتبلــغ في طريقك زاد يعينــك، أو لم يكن معك من الــزاد ما يوصلك هلكت وإن كثرة الأحمال مهلكة ومشغلة، فكــن ذا حمل خفيف لا تحمــل نفسك ما لا تطيق، فتقع في وســط الطريق من الإعياء، فــلا أنــت الــذي وصلــت، ولا لأحمالك قد بلغــت. وخير الزاد مــا تستقوي بــه نفسك، ويوصلــك مأربك وهدفك، ويجعلك في حِلٍ عن السؤال والطلب . فليس الغِنى في الجمع والاستزادة ولا في كثرة المال والعرض، فهي أحمال تلقيها فوق ظهرك، فتبطئ حركتك وتعيق سيرك وتشغلك حقيقة عن داعي نفسك، فالغنى ما أغنيت به نفسك عن السؤال والحاجة، ولسانك عن الطلب والمذلة، وقلبك عن الاحتياج والميل.

كل طريق به من الهوام والقوارض والسباع، وبه أرض قفار، فلايطل مكوثك فيها، حتــى لا تجرحــك فتثخن في جراحــك ولكن مر فيها مــرورًا سريعًــا، وجاوزها بحكمة ونظر وستجــد خلال طريقك طرق زائفة، ولوحات مضللة، وأشياء ستفت في عضدك، وتوهن من عزمك، وتأخذ من قوتك ولابد ملاق، فانتبه لها، واحترس منها، فإن ذهبت إليهــا بقدمك، واستقبلتها بوجهك ولجتها، وإذا ولجتهــا لبثت فيها زمنا، فتأخذ منك وتنهــكك. ولكن لك غِنى عن ذلــك، لو تابعت سيرك وأمهلتها، ولكــن التقط أنفاسك، واجمع شتات نفسك، وأكمل مسيرتك.

لابــد مــن استراحة تأخذها بعــد كل فترة، تنظر فيهــا ما فعلــت، فتقييم نفسك، وتنظــر حالــك وتعلم ماذا فقــدت، وإلى ماذا تحتــاج؟ فتحمد أن رأيــت تقدمًا، وتنقد نفسك إن رأيت غير ذلك، لترى ما الذي يقيدك ويعيق وصولك. ولهذا الطريق مراحل متعــددة، كل مرحلــة لها متطلبات غــير الأخرى، فلا تأخذ عكس مــا تطلبه كل واحدة فتضــر وتفســد، فانظر ما يطلبــه حالك في الوقت الراهن، ولا تنظــر لكل مرحلة نفس النظرة إلى أختها، بل كل واحدة لها ما يميزها، فإن ساويتهم جميعًا في النظر ظلمتهم ولم تــؤد لواحدة منهم حقًا. ثم خلال مسيرتك يجب أن تكون على يقين مما تفعل، فلا

تتسرع أو تتعجل، بل اخطو خطوة خطوة، وأنت تعلم ما تحت قدمك، فلا تمضي متعجلاً جاهلًا عن ماذا ستواجه، فإن هذا مما يتقبح ولاتخطو خطو عشواء كالحيران المتردد، ولا تعــادي من حولك ، وإن كان خلل فادركه بحكمــة وفطنــة، وعالجه حسب مايقتضيه الحــال، وأن الحــال فيها بين تروي وأناة، أو سرعة وشــدة. لا تتجاهل الحقائق، واعلم أن الأيــام دول متغايــرة، فلاتنــزع في حنق وطيش، ولاتجادل في زهــو وكبر، وكن جلدًا متحامــلاً، لا خانعــا ذلولاً . وإذا أظلمــت سماءك أو رعدت وأبرقــت، فلا تهب وتنزع، ولكن اصبر فإنها سحابة سوء وستمضي .. وكما قال القائل:

ومن هـــاب أسباب المنايا ينلنه وإن يــــرق أسبــاب السماء بسلم

وأعلــم أن لك حــق وعليك واجب فــأد واجبك، وخذ حقك والحق لابــد له من قوة تنصره، وعصابة تحرسه. كما قال القائل:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهــدم ومن لا يظلــم الناس يظلم

وأن العــزة والمجد ليست للضعيف الرعن، ولكــن مطلبها العلم والقوة، والاحتمال للمكاره، والصبر بعد الصبر، ومقارعة الأهوال والصعاب.

ولا تحسبــن المجـــد زقًا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك البهـوات السود والعسكر المجر

وتركــك في الدنيــا دويًا كأنما تــداول سمـــع المرء أنملة العشر.

فالدنيــا ليســت في الوصول إلى شيء بعينه، فلا تنتهــي بضياع أمل أو حلم أو غيره وإنما هي رحلة طويلة تحقق فيها أشياء، وتفشل في أخرى، وتجاوز بعضًا آخر، فهي بين وصول وانقطاع، وسعادة وحزن، ونجاح وفشل فإذا تعذر عليك شيئًا ما، فجاوزه إلى ما تحسنــه وتجيده وتريده، فقيمة المرء تكمن فيما يحسنه ويقدر عليه وهذه بعض ملامح الطريق، وإن كان هناك غيرها كثير إلا أن هذا جهد المقل ثم لا تنشغل بِبُنَيّات الطريق وفروعه، فتجر نفسك إلى ما لم ترم له، أو تكن يومًا مريدًا له.

الأجيج الداخلي

انتقل بك الآن في رحلة طويلة، وأحلق بك في سماء أخرى، في عالم آخر . نعم، عالم آخـر غير أنه ليس عالم الغيب، أو الجـن، أو السماوات والأفلاك والفضاء وليس أيضًا عـالم المجهـول بشموليته، وإن كان قد يحوي جزءًا منـه، وبعضًا من دلالته ولا يعقل أن يكـون ما تحـت الأرض من طبقات تراصت وأطبقت بعضهـا على بعض، فحملت أثقال الخلق وأحمالهم.

وإنمـا هو ذلك العالم الخفـي، هو أنت أو قل على وجه الدقـة، هو نفسك التي بين جنبيـك وهي جامعة لاختلاف اثنـين، الأول العالم الملائكي بخيريتـه وطيبته، والثاني عـالم الشياطين، في غيه وحقده واعتدائـه. وبينهما الحالة البشريـة العادية المتوازنة بصفاتها الآدامية، وكأنه بصفاته بين النور والظلمة، والخير والشر، والهداية والضلال كأنه بحقيقته الطينية المأخوذة من شتات الأرض وبقاعها وسهولها، وأكمامها وجبالها جمـع له مـن كل ما في الأرض، ليخلـق منه أول نشأتـه. فحصَّل من جيدهـا ورديئها، وطيبهـا وخبيثها. ليُمْزَج ذلك كلـه ليجمع بين كلا الأمرين فصـراع يُغذَي بين جانبيه المتصارعـين، الملائكـي الذي تكاد تسمو بـه روحه إلى أعلى السمـاء، فتشاهد الروعة في حقيقتهـا، مـن كل شيء موزون ومحكم، آخاذ مبهر ثم يصعـد بروحه إلى السماء، فيرى الأرض غير الأرض، والحقيقة غير الحقيقة، كل شيء تغير في ناظره كأنما بدلت باصرتـه وبصيرته بما يفوق حدًّ فَهْم عقله، كل شيء مدهش جميل السماء في انسجام رائـع مع الأرض، الأرض خلابة فاتنة بهـا طبيعة لا تقاوم تأخـذك بسحرها وتسيطر عليـك بروعتها، بحـار وأنهار محاطة بالسهول وسلاسل الجبـال .. كأنما ترسم لوحة مزينة مزخرفة لا مثيل لها. و في لوحة أخرى مبدعة أسراب الطيور بأشكالها وأنواعها

وأحجامها تصدح في الصباح خارجة من أوكارها، قُطعان الحيوانات في حال مسيرها وهجرتها، ناهيك عن صغارها، كأنهم في جمالهم يتلون أنشودة البراءة في مهدمها قبل أن تتلوث من قبل البشر. ويرون في الكبيرة العظيمة تجسيد القوة والصراع والشدة، مصورة التناحر والنزاع حال تعارك بينهم هذه الدورة الطبيعة التنظيمية، فما وقعت عينه إلا على جميل، فهو يرى في الأشياء روعة وجمالًا، رأى الأرض بشكلها الجميل، الذي ليست هي عليه في الواقع وقال من سيحكم هذه الأرض، ومن سيكون الخليفة على هذه الجنة الممتدة ولمَ؟ أنها منظمة محكمة، وهل هذا الإبداع يحتاج إلى شيء آخر فهو يراه يمضي بهدوء، ويعمل في صمت. فمازال ينظر وينظر حتى أبصر الإنسان فقال ما هذا الحيوان العجيب، ذو الخلقة المتفردة المميز بالعقل، الحاكم في الخلق، المهيمن على الأرض وما فيها بعقله وعلمه وقوته اختلطت المشاعر فيه. لكنه رأى فيه جمالًا لا يعرف حقيقته، ولم يكن على تأكد منه. فهو رآه فقط بجانبه الخير. فهو أبصر الدنيا فقط بوجهه الملائكي.

ثم الجانب الآخر، وهو الشيطاني منه فهو كذلك ملازم له كظله. فرأى في هذا الجانب جحيمًا لا يطاق رأى في الأرض براكينها الملتهبة الحارقة، والمطلقة ألسنة لهبها، وشرارة بأسها ولظاها، غيظًا وحنقًا، وقوة وتكبرًا لتعلن سلطانها وتبسط جبروتها. ورأى الأرض تضطرب وتهتز فتحول إلى كل شيء إلى هزة قوية مزلزلة، فظن كل شيء سيخور فناءً وهلاكها، وستنقلب الجنة التي رآها سابقًا إلى نار تلظى، سوداء فاحمة فرأى إطباق الأشياء على بعضها، فشاهد مبالغة تحطيمها، فتولت الحالة الأولى في لحظات ليلة إلى بؤس وشقاء ودمار. ورأى البحار والأنهار الجميلة المنظر، إذا بها تفيض عن الحد فطغت، فكان طغيانها مُؤذِنًا بهلاك ما حولها وقتل ما جاورها، فرأت تكسير عظام الشجر والدواب، وهلاك الحرث والزرع. ثم رأى الحيوان الوديع يحور وحشًا ضاريًا، يقتل ويسفك، ويظهر عن آلات قتله وافتراسه من

أنـواع السباع والوحوش، فتنظر إليه بتلـك النظرة القائلة في صمت أيها السفّاح الوقح السافك للدماء الشارب لهـا، وترى الخوف في الأعين الموتورة والأنفس المتحسرة. ومع أن هـذا طبـع فيها ركب للقتل، وطبيعة فيها قائمة على السفـك والقطع إلا أنها اكتفت بما رأت من فظاعة المشاهدة وشدتها، ولو سارت يسيرًا لرأت ما يدمي الفؤاد، والنفس حسرات متوالية.

ثـم رأت الإنسان، فاستبشرت خيرًا، ولكن أضمرت عداوة وشرًا رأت هذا الإنسان وهـو يحمل السكـين والقوس، فيضـرب الأرض بنصـل فأسه، ويقتل الحيـوان بشأفة خنجـره. فلم تـدرك ماخلف ذلك مـن الضرورة والحكمـة، ولكنها نظـرت إلى الأمر مجـردًا ثم كان حاملًا للكره، يحاول الضغينة، ويسعى للفساد، ويعثو في الأرض ضلالًا وإهـلاكًا فناظر الحيوان الأبكم في عِدَة بطشه وآلة قتله. ثم رآه يقتل بني جلدته وأبناء جنسـه، فعلمت أنه ليسـ بمؤتمن، خائن للأمانة، غادر بالعهـد، مخل بالمواثيق، ناطق بالكذب، محيي بالنفاق، جاحد للحقوق، ظالم للبشر.

لاريب أن النـاس تنسب كل خير إلى الملائكة، فهم الخير الخالص الذي لا يخالطه سـواه، وهم النور النـاصع، الكاملين في أفعالهم، إذ فعلهم لا يظهر فيه خلل أو تقصير، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم الطائعون، المجيبون، المرسلون فكانت أسمائهم المضرب في الصدق والبراءة والطهر والنقاء، فينسبون هذه الصفات علـى أسمائهم، فيقولون تصـرف ملائكي، ضحكة ملائكية، جمـال ملائكي. وهكذا. وتجدهم كذلـك يهرولون بنسبة كل شر وجحود وتكـبر إلى الشياطين، فوجودهم لابد وأن يحوي شرًا وسوء في الحال أو المآل. رُمِزَ لهم بالسواد، وألصقوا بهم أصل كل رذيلة وقبيح. فصار الأسود عند البشر دليل على مايكره، تلبسه النسوة في الحداد، وينفرون ويتشاءمـون به من الغراب المغطى بلونه، المُنَفـرُ بصوته كأنه ينادي بالابتعاد، فيعلقون عليه الأحزان ويجعلون دلالته على الموت والمصائب والمخاوف وغيرها، وتجدهم كذلك

ينسبـون إلى أسمائهـم أفعال الشـر والسوء والخبث، فيقولون أفعـال شيطانية، وحيل شيطانيـة ماكرة، لكل ما جاوز حد المكر في الشر، مستعملاً الذكاء والحيلة في الهلاك والضـر، وكذلك في التصرفات المنكرة المستقبحة، وهـم في ذلك لا ينسبون الفعل إلى الشطيان قدرة في العمل، ولكن نسبوه لفعله لما رأوه آية الشر، ودليل القبح، وآفة كل أمر، نسبوا الأفعال السيئة إليه. غير أن هذا لا يجوز شرعًا ولايقبل منطقًا، لأن الفعل ينسب إلى موجـده، والأمـر ينسب إلى محدثه ومَرَدٌ كل ذلك إلى الخالق حقيقة أو تقديرًا لأن الموجـد لجميع الفعال، فنسبة الخير إليه بالتوفيق منه، ونسبـة الشر إلى العبد إرادة، لأنه الذي خرج على الفطر السليمة في الإصلاح، فأتى الفعل برغبة وتهيأ وإرادة.

ثـم كانـت الجبلة الطينيـة التي أخذت مـن صلصال مـن حمأ مسنـون، فأخذها مـن جميع الأرض، فوجـدت فيهم الألوان المتغايـرة من الأبيض بدرجاتـه إلى الأسود بدرجاته. وكذلك يختلفون في الصفات من الحسن بطبقاته إلى القبح بدركاته ، فجمع بـين هـذا وذاك في جسد واحد بين الجشـع والطمع، والقناعة والزهـد، وبين كل صفة وعكسهـا. ولكنـه هو الذي يُغلب إحدى الصفتين على الأخـرى، حتى يقوى عنده جانب على الآخر. ثم أن وجود أحدهما وعلوه وظهوره فيه، لايعني انتفاء الصفة الأخرى، أي عكس الصفة لذلك نفسك حيث توطنها وتجعلها، وتؤدبها وكما قال أحدهم:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطعمت تاقت وإلا تسلت.

وقال أبو ذؤيب في رثاء أولادٍ له ماتوا فيصبر نفسه قائلًا:

والنفـس راغبـة إذا رغبتهـا وإذا تـرد إلى قليـل تقنع.

ثم ما يزال بنفسه حتى ينسب إلى صفة أو صفتين، أو أكثر يشتهر بهما بين الناس وذلـك لاعتيـاده عليهما ومزاولتـه لهما حتى تصير طبعًا فيه. فتجدهـم يقولون هذا الصادق، هذا الأمين هذا المجتهد. وتجدهم على الجانب الآخر يذمونه لطول اتصافه وتعلقـه بصفـات أخرى، فيقولـون، جاء الـكاذب، حضر المنافق، هـو غشاش مخادع.

وتجده كذلك إذا اتصف بمجموعة من الصفات الحسنة مثلًا يورثه ذلك محاولة اتباع أخـرى غيرها فمثـلًا حتى يكون أمينًا يجب أن يكون صادقًـا، ولكونه صادقًا كان وفيًا. وهكـذا كأن هذا الصفات متعلقة جميعها في بوتقـة، فإحداها يورث اتصاف الأخرى، ثـم تطمئـن نفسه لتلـك الصفات فتميـل إليها فتلزمهـا وأخرى خبيثـة مارست الشر فاتصفـت بالغـدر ونسبت إلى الخيانة، فتجد صاحبها يأخذ مـا ليس له فيقتل ويسرق ويخـرب، فتتمـرد عليه نفسه فلا تأمره إلا بالشر، ولاتدعـوه إلا إلى الرذيلة فتمشي به في طريـق الأذى والضـرر ليس للناس فحسب، بل تجـده لا يرحم دابة، ولا يعطف على حيـوان إلا مـا رغبت فيـه نفسه. فلا تجـده في ميادين الخير، وأن وجـد كان من بقية باقيـة من الفطـرة السليمة فيه، أو يأتيـه رياءً أو غرورًا ومـراءة للناس ليكسب به نوع مـن التعاطـف، أو الثناء عليه والمحمـدة لشخصه. ثم هو بجميـع الدرجات الممكنة في الأول والدرجـات الممكنة في الثاني وكذلك في المخالطة بين كليهما بدرجات متنوعة ثم إنـك لا تجـد أحدهم جمع صفات الخير جملة واحدة، أو نسـب إلى الشر بكل مفاسده ومضـاره. وهناك أمر ثالث وهو الجبلة الخلقية والطبيعة الفطرية حينما خلق الإنسان كان يتصرف بفطرته، فلا يأكل إلا من جوع، ولايشرب إلا من ظمأ، لا يعرف الفلسفة أو المنطق أو الشعر، كان يحاول الأمور بديهية، فكان لا يتكلف الأشياء، بل يتصرف بطبعه ولمـا تطور مجتمعه، انقلب معه وعرف كثيرًا من الأمور، فغيرت الفطرة، وأبدل منطقه السليـم فتعلم الجدال والفلسفة والمنطق، أتقن الحيل، وراوغ بالكذب، وحائل بالنفاق، تعلـم المداهنة والرياء، فأخذ يستنطـق الكلام ويجمله ويحمله مالايـراد. فأخذ يهيئ لـكل حادثة حديثًا، ويتشدق بالكلام، فحور الصدق كذبًا، وقلب الحقيقة باطلًا، وأخذ يحـرف الكلم عن موضعه، واللفظ عن مقصده، حتى شاع الرياء والكذب والنفاق، ثم أخـذ لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكر إلا مـا أشرب من هواه وعقله ونفسه، فهو الداعي الأول والمحرض والمدافع.

ومما يتعجب له في مجتمعنا، محاولة جعل الظالم الفاسق المنتشر غيه وفساده، ذا شخصية حسنة، بتلميع ما فيه من خير، وتهميش ما فيه من باطل وزور ثم انظر إلى المناقضة لها من في الصالح المحسن فيظهرونه بمظهر آخر. فيظهر ما فيه من شرٍ وسوء ،ويُقلل ما عمله من بر وإحسان حينما تضع الصورتين في مشهد ذهني واحد، لا تدري ما يقال، أهو تعمد ذهني لنمط معين يطلب تحسينه، أم هي ظاهرة خاصة في أنفس معينة لغايات ومآرب ثم أيًا ما كان. يجب أن نأصل لها أصلًا واضحًا حتى يزال اللبس والوهم فنقول أولًا أنه مما لا يحسن بالمنطق السليم إلا يُظن هذا الظن المتهتك، وأيًا ما كان فكر صاحبه كقاعدة عامة، الشر المحض ليس إلا في الشيطان، وأن الخير المحض ليس إلا في الملائكة، ثم ليس هناك شيئًا مطلق أبدي، بل الأمور أحيانًا تكون نسبية، أمَّا القيم فهي دائمة ثابتة لا تتغير، ثم إن الإيمان يزيد وينقص، والظلم والضلال دركات، وأن فساد القلب قد يكون جزئيًا أو كليًّا، وأن الإنسان متقلب بين الخير والشر، فيحمد تركه للشر ومجاهدة نفسه في دفعة، فكيف بإتيان الخير والصبر عليه وأن الخير كقيمة عظمى يحمد ويثني على فاعله أيًا كان، وأن الشر يذم ويذم مرتكبه أيّا من كان.

وكما قلنا سابقًا الإنسان بما غلب عليه من الصفات ينسب إليها، وليس معنى اتصافه وغلبته على معنى انتفاء الأخرى عنه، وهذه إحدى الحقائق التي يجب أن تكون راسخة في الذهن، بل هي من الضرورات العقلية.

ثم هذا النوع من التشيطن أو شيطنة صاحب فعال الخير، لإيراد إظهاره بشكل ما مخالف للحقيقة في إطار نمط معين موجه لكسب شيء ما. وهذا قد ينفر بعض الناس من الالتباس بهذه القيمة، نظرًا لرؤية أصحابها مشنع عليهم فيها، فيقصدون القهقرة قصدًا للسلامة، وإيثارًا للدخول في متاعب، هم في غني عنها كما يقول بعضهم وهم في ذلك ربطوا الصفة بمظهر الشخص، وهذا بهتان عظيم، إذا أبدًا ما تتعلق الصفة

بالشخص، بل الشخص هو الذي ينسب إلى الصفة فضلًا وكرامة لإلفه لها واعتياده إتيانها وفرق كبير بين الاثنين . فالأول، يجعل الصفة دائرة في رحاب الشخص، فحيثما أتى من الأفعال فتعلق عليها وتنسب إليها. فتغدو غريبة عن مدلولاتها، وذلك الخلل من نسبها إلى الغير، لا انتساب الخير إليها ثم أنها تتفاوت أخذه منها، مختلف من شخصٍ لآخر، كل بقدره ونسبته. وأما الثاني، فيجعل الشخص منسوب إلى الصفة تابع لها، فحيثما أتى من الشر ونحوه، نسب إليه هو باعتباره ما كسبت يداه، وما اجترحته نفسه فلا تتم النسبة حينئذ مصدرة بالصفة الأولى، بل تكون لنفسه هو فقط فلا يقال صاحب الأفعال حميدة أتى من الشرور كذا وكذا، إذا في هذه الجملة من الخلل العقلي والمغالطة المنطقية شيئًا ليس بالهين . فأما الأول، في ربطه الذهني أن صاحب الأفعال الخيرة لا يرتكب محرمًا، فيعادي بعد ذلك الفعل أو صاحب الفعل لأجله، والإنصاف يقتضي نسبة الشر إليه باعتبار الفعل، لا باعتبار الصفة فيقول القائل مثلًا، المقصود بالذكر أو الشخص الفلاني أتى كذا وكذا، فيحدث الفرق الذهني في الربط بين الصاحب الفعل والصفة، فيظن وهما أنه لا يمكن أن يأتي خطأ أو محرمًا أو مجرمًا، وإن كان جدير به ألا يفعل، وألا ينسب إليه ولكن حيثما وقع، فيثبت الخطأ وانتهى الأمر. وأما الثاني، فقد يكون فيه قصدًا للتشويه أو الإساءة فيقال من كان يصنع كذا وكذا، فعل أمرًا شنيعًا تكاد تشتم من رائحة كلامه شماتة مخفية، وغيظًا مكظومًا ونكتفي بهذا في تلك النقطة.

النفس منطقة غامضة في الناس، فهي دائمة التغير، متابعة كل حدث فهي تتقلب معه بما يناسبه. وكل إنسان في ذلك قصة لا تعرف عنها شيئًا، فأنت منفصل عنه تمام الانفصال إلا مخالطة قد تطول أو تقصر فأنت لم تقضِ معه أيامه، ولم تنظر متاعبه ومصاعبه، فلم تدري ما بباطنه، ولم يروِ لك خبره، وإن رواه لك حدثك بما يريد هو أن يسمعك. ولكن أينقل لك الخبر كما عاينه، بدون حذف منه أو زيادة . لذلك

خبر الواحد المنفرد عن الجماعة لا يقبل إلا إذا شفعه بغيره من الثقات المقبولين أو بالأدلة الصحية أو كان هو نفسه مقبول الخبر بتواتر الناس أو إجماعهم على صدقه. فالإنسان رواية بحد ذاته أمَّا النفس فإني أستدل على باطنها بظاهرها، وأعرف سرها بعلانيتها، واكشف فيها نقاط تحل غامض شخصيتها وخفي مستورها، حتى أصل إلى حجاب سترها فاسترق السمع والنظر. فحويت من غوامضها وأسرارها، وحملت من جواهرها وكنوزها.

والنفس في مجموعها ليست كمفردها. فهي تأخذ مما يجاورها قلة وكثرة على أساس الشخصية ذاتها قوة وضعفًا، وقد تعادي فتتنكر وترفض. ثم هل النفس آمرة بالخير أم بالشر، وهل تميل إلى أحدهما؟ مما سبق تعلم أنها تميل إلى هواها أكان حقًا أم باطلًا، أو معروفًا أو منكرًا، وهي تفعل ذلك لأسباب كثيرة . ثم إن الأصل فيها الظلم والأمر بالسوء، ومُحَابَة من يطيعها ويقدمها على غيره، وإن كان صادقًا أمينًا، ثم محابة نفسه على الكل. وهي قد تفعل الخير لأسباب معلَّلة الوجود، وتأتي المعروف لبواعث جليلة وذرائع ضرورية، فإذا حب النفس للحياة وتعلقها بها، كانت تتوصل من أسبابها ما يعينها على المضي فيها والنفس قد تفعل الكثير لأجل أن تبقى، أو لأجل أن يشار إليها بالبنان، فهي محبة للفخر والكبرياء، تفعل ليقال فاعلة، وتتصدق ليقال متصدقة، وتأتي الخير ليقال مسارعة للفضل هذا الأصل فيها، أمَّا هل يمكن أن تتحول وتبدل عن هذا الأصل، يمكنها ذلك، بل وما هو أكثر منه بأن تحله محل الطبيعة الأولى، وهذا يحتاج إلى شرح آخر. ويمكنها التأثير فتتغير من غيرها، لا نفسها فقط، باقتفاء الأثر، ومحاولة التقليد أو الاتباع فيمكنها أن تكون خيّرة نافعة، وكذلك أن تكون ضارة مهلكة.

لذلك لابد أن يكون هناك وازع للنفس يحكمها، ورادع يزجرها. وكذلك أن يكون لها مُثْنٍ على أفعالها، ومادح لخصالها، لتضمن شيئًا من الاستمرار في الفعل وحاجتها

للمــدح ضرورية، وتفصيلــه فيما بعد وازع النفس، إمَّا دينــي أو أخلاقي أو مجتمعي أو قانــوني. فالنفــس لا يأمن مكرهــا، ولا يُسلم جانبها. حتى الشخصــ نفسه، فقد تورده المهالــك وتفسده ظاهرًا وباطنًا فكانت حاجتهــا إلى الردع والزجر كحاجتها إلى المدح والثناء، لأنها إذا مالت بكليتها إلى الأولى يئست وحنقت. وإذا مالت إلى الثانية تكبرت وافتخرت وتعاظمت. إن الحال في المحافظة بين هذا وذاك، وهو التوازن وهو أحد أهم القوانــين في كل شــيء، في الكــون بشموليته وعظمتــه، في التوازن بــين حاجات النفس ومطالــب الجسد، بين الخير والشــر، وله دلالات كثيرة، واستنباطــات هامة ليس هذا محلهــا، ولكن نثبت واحــدة فقط وهي، أن تلــك النسبة من الشر هــي المكملة لصلاح تفاعــل الخير ووجوده، فلا تطلــب لذاتها، بل لتعدي أثرها، وكما ذكرنا سابقًا أن الشر متأصــل في الكــون متأصل فيه كالخــير تمامًا، فلا بد من وجودهمــا جميعًا فكان يجب التقليــل لصــلاح الدنيا والخلــق، إذ لو عمّ لأفســد. ثم الإكثار من الخــير لتعم الحياة والخــير ربــوع الأرض، وهذا نوع من التوازن الشاهد أنــه -أي التوازن- العلاج الناجح والدواء النافع، في تلك الحالة بخصوصها.

النفــس تميــل وتلين، وتقسو وتشتد، تلــين حتى تصير أعطف علــى الناس، وأقرب إليهــم من ذويهم فتؤثر فيهــا النظرة، وتمتلكها العَبرة والدمعة، فلا تملك إلا الخضوع أمام استمطار ماء العين بكاءً، وضعف الحال، وقصور ذات اليد تفيض رحمة وإحسانًا وتغمــر بالخير والإيمــان، حيث لو قُدرت الدنيــا أمامها بأسرهــا لأنفقتها غير حاسبة لذلــك حِسابًــا إلا حساب القناعة والكفــاف. فمن قنعت نفسه كان كمــن ملك الدنيا، فأصبــح أمــيرًا في نفسه قانعًا بمــا وجد، مستكفي بمــا أخذ. والآخر الــذي قسى قلبه فاشتــد حتى صــار كالحجارة بل أشد قســوة، فتجده لا يتأثر بشــيء، فلا تدمي عينيه بالقطــر رحمــة وعطفًا، كأن قلبــه مغلق عليه، فشابــه الصخر في قسوتــه، وإن منه لما يتصــدع ويتفتت، ومنه مــا يخرج منه الماء بعد انشقاقه وانفلاقــه، وإن منها لما يسقط

خشية لله تعالى وخوفًا منه . أمَّا هو فلا ، قلبه جاف أصم، حتى يغدو آية القسوة ومضرب الشدة، فصارت الحجارة أرحم مني وأحنى، وأسرع للتأثر والتغيير.

اضطراب النفس وثورانها وخروجها عن حد وقارها واعتدالها ، لهو شيء خطير ، وأمر يستحق الوقوف عليه لتأمله ومعرفة سببه، وأخذ العبرة منه، ورؤية بعضًا من خَطَرِه على الفرد والمجتمع، وضرره المحتم وقوعه يسيرًا كان أم كبيرًا. حينما تضطرب لا تعرف حقًا أو معروفًا أو حاجزًا تقف عنده، فهي تنطلق لا تلوي على أحد ، لاسيما إذا اشتدَّ هذا الاضطراب فأصبح ملازمًا لها. الاضطراب يحدث في النفس، ثوران من الأفكار، وهيجان في المشاعر ، وتردد وحيرة، وإقدامًا وإدبارًا، ثم أخذ مواقف لتكون عدائية أحيانًا ، فإذا تبلورت هذه الأفكار وأصبحت ممنهجة، ولها مرجعية، انتشرت بقوة الكلام أو الشعور. لأنه من المعلوم عند العقلاء أن الجمع يتأثر بالأحاسيس والعواطف منه بالمنطق والعقل. لذلك إذا وصلت إلى قلب أحدهم وأثرت فيه، فقد ملكته، وأصبح لك فيه كلمة، وأثر ذلك واضحًا لا يخفى، وقد يتعدى أثره، وهنا يكمن الخطر وينتشر الشر.

والنفس حساسة لدرجة أنها تتأثر بالكلمة المفردة، بل دعني أتجاوز ذلك إلى الإشارة المفهمة ملمحًا كالنظرة مثلًا . فتحدث فيها من التأثير ما قد يحدثه الألم العضوي لذلك كان النبي يوزع نظراته على جلسائه، فيظن كل واحد منهم أن يختصه بالمحبة دون سواه، فيدخل على قلبه من السرور والفرح الشيء الكثير ، نعم، فقط بنظرة . وقد تقوم بتنسيق الأفكار وربطها في سياق ذهني أو تخيلي، فيحملها ما لا تحتمل فيحملها ما تحتمله نفسه أو هواه فقط، ثم يأتي له بروابط مختلفة من قبل الذهن، أو حقيقية ولكن بتشويه، لتناسب وتؤيد ما زعمه. وقد تضطرب بسهولة فقط لعدم حصولها على ما تريد أيًا كان حتى لو كان شيئًا تافه لا ذكر له، وهذا حال النفوس الضعيفة الواهنة، فيملأ هذا الشيء الفارغ من نفسه حتى يجعله ملء السماء والأرض.

وقـد تضطرب اضطرابًا خاصًا، ولكنه يختلـف باختلاف النفوس تبعًا لأحوالها، فتجد النفوس الخيرة تضطـرب لأجل شيوع الفسـاد وظهور الباطل وضيـاع الحقوق، وأكل أمـوال النـاس بالباطل . وتجد النفوس السيئـة المريضة تفرح لعكس ذلك تمامًا فتفرح حين السلب والنهب ، وأخذ الحقوق من أصحابها ، واعتداء القوي على الضعيف، وعلو الباطل، وشيوع المنكر، تجد في ذلك نشوتها ورضى نفسها ، لاسيما إذا كان ذلك لغريم أو عدو ، أو وافق هوي في النفس لشيء ما .

وهنـاك نفوس خالية جوفاء لا هم لها في الحياة، ولا تفكـير لها إلا أن يكون ماديًا بحتًـا وهذه تضطرب لأنهـا فارغة، لا يثقلها شـيء. شديد ريحهـا ، يجعلها تغدو بكرة وأصيلًا على لا شيء ذا قيمة أو أصل. وكما قالوا الكوب الفارغ إذا لم يملأه شيء، ملأ بالهواء. فيكثر اضطرابها ولَغطها وخطئها. بل قد يتعدى ذلك إلى ما هو أقبح وأفحش، وهـو ادعـاء العلم والمعرفة مع هذا التقصير الواضح البين. ولذلك من لا يرى إلا نفسه هـو فقط، ظنها أعلم النـاس، وغيرها في جهالة وعَـيّ وأمثلته كثيرة. فيرى نفسه أقوى النـاس أو أعلمهم أو أذكاهم، فهو على كلٍ له الصفة العُليا فيهم، فهكذا تجده مختلًا ، سريع الغضب، كثير التنمر والاستهزاء بالنـاس، لأنه إدعاء زائف، ولو امتلأ بشيء من المعرفة والحكمة لما كان هذا صنيعه. لذلك ليس لك حينما تمر على الجاهل المتكبر إلا أن تقول سلاما كما قال القرآن، فلا ينفع في مثل هذا جدال أو شرح.

ومنهم من تأجج بالضعف المادي أو المعنوي، فطريقة فكره في أغلبها ، منصبة على إضعـاف هذا الضعـف، لتحل محلة بالقـوة والسيطرة متأثرا في ذلـك بمراحل حياته كلهـا ، وميادين عمله. فـإذا مررت مـرورًا خفيفًا على هذا الضعف، قـد يهيج ويموج، ويأخـذ يدافـع عن نفسـه، ويُبرِرُ بأحـداث وأقوال، وينـبري في هذا كالأسـد الغضوب مفسـرًا وموضحًا، ثـم محذرِ وفي هذا تظن النفسـ أن لها حقًا تسـترده ممن سلبها، فيأخـذ كرامة نفسه ممن أهانه واحتقره، وقد يكـون اضطرابها لحق تعتمد عليه فيه،

أو زور تُعَمِي به على أشياء تريد سترها وكتمانها. ثم ليس الحكم بالصحة أو البطلان راجع إلى الاضطراب نفسه، وتعليله بالصحة أو الخطأ. بل هو النظر فيما وراء الأكمة من أشياء كانت هي السبب في ذلك، ومعرفة مؤدي صحتها من زورها وبطلانها ثم الاضطراب واقع للكل، ولكن باختلاف بين الكبير والصغير، ومؤدي سببه شدة وضعفها، واستمراره طولًا وقصرًا.

ثم لا شك، أن الاهتمام بهذا الأجيج الداخلي أمر غاية في الأهمية، حتى لا يأكل النفس داخلًا، فيدمرها من الخارج. والاهتمام ببواعث هذا وبوادره لمن الحكمة والفطنة ولا يُغفل في ذلك أبد دور الأسرة. وهو من أعظم الأدوار تأثيرًا -والواعظ الحكيم- والمربي الفاضل، بالكلمة الطيبة والتقويم والإعانة، فإن دور المعين على النفس وتفهم حاجاتها ومطالبها، لَه أعظم الدور في التأثير على الحال، بل قد يتعدى إلى أعمق من ذلك.

ما بين احزن... أو لاتحزن

هل الأمر بالحزن وعدمه يفيد النفس في شيء، بمعنى هل إذا أمرتَ النفس بالحزن تحزن، وإذا أمرتها بالسعادة ابتهجت. وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لا تأمر نفسها بذلك، أيعقل أن يكون أحد في الوجود تام التفكير، متوازن العقل يحب الحزن لذاته، أو يكره السعادة لذاتها! وإذا كان كذلك فلمَ لا يحث نفسه بأن يأمرها على ما يريد ويرغب؟ وهل النفس –أصلًا– تأمر بشيء يحدث طبيعة فيها؟ فهي مطبوعة عليه وهو الحزن والسعادة. أم هي فترة يقضيها المرء في حالات حياته المتعددة من أثر تفاعله مع الحوادث.

إذا أستطيع أن أخدر أعصابك، وأوهن فكرك، فقط لفترة يسيرة من الزمن، أتناسي فيها جميع الحقائق والفطر الطبيعية، وأقول لك بكل بساطة، بل آمرك ثم أحشد لك فوائد عدم إتيان هذا الأمر أو ذاك، ثم أنقل مضار الأمر في استمراريته، وأهونه بكونه لا يعدو مجرد نوع من الشعور، وأنك لابد ألا تحزن. ثم أُفْرِدُ في ذلك المقالات وأتلو الخطب والمحاضرات. والأمر فيه لا يعدو مجرد تخدير للألم- الذي هو نوع من الشعور أيضًا- فيجعلك في حالة تخيلية، فيصدر العقل قراره بأن الأمر بسيط، خاصة إذا قورن بمن ابتلى بالمصائب العظام والبلايا تلو البلايا، ويستدل على ذلك أمثلة من أخبار الناس وقصصهم، وأنا لا أتكلم في صواب الأمر من عدمه بل هي نظرة مجردة إليه من حيث الحالة الطبيعية للنفس، واستردادها لهذا أو ذاك لا التقليل من شأن هذا أو تضعيف أثره، وتحجيم فوائده. غير أن الحق يقتضي أن نقول إن فيه، تسلية للنفس وتهدئة للخاطر، وفيه نقل الإنسان من حالة نفسية معينة إلى حالة نفسية أخرى بوسائل مختلفة، منها الكلام أو إبداء الشعور أو إبراز التعاطف لمصائب

الغـير بالقول أو بالفعل ونحو ذلك، مما يخـرج النفس من سياقها إلى سياق آخر تُشَدُّ الحواسـ إليـه، فتتلهى بـه عما هي فيه فيجـبر العقل على التعامل مـع تلك المدخلات الجديدة، في محاولة للتصور والإدراك والفهم.

فينتـج عن ذلـك ترك للحالـة القديمة فترة من الزمـن قد تطول أو تكـثر، أو قد يغلب على النفس ذاك الشعور الجديد، مع إثبات القديم وعدم زواله، لكن ضعف أثره. ثـم إمَّا أن يتضـاءل فيختفي مع الزمن ويتلاشـى، وإما أن يبقى كما هـو ولكن تنشغل جميـع الأفكار والمشاعـر بمعالجة الحالة الجديـدة. ففكرة عملها تمامًـا كفكرة عمل المخدر "البنج"، فعمله يتمحور حول فقدان الشعور والحس بالتأثير على مراكز الحس والأعصـاب عند الإنسـان. فيتم تغيير نشاطها لملائمة الحالـة الجديدة، فيتم تخدير أجـزاء في الجهـاز العصبي المركزي مـن خلال تغيـير في كيميائيات الدمـاغ ومناطق التحكـم في الشعور لـدي الإنسان، حيث يتـم تعطيلها مؤقتًا، بإدخـال مركب كيميائي ليفقـدك التركيز والانتبـاه، فتبدأ تشعل بالتنميل والخدر، وهذا مثل هذا، وأن كان فيه بعض الاختلافات والفروق. ثم بعد ذلك يفيئ من نوبته تلك، ويزول عنه ذلك المفعول، ليعاود حالته ثانية، ولكن بازدياد الألم عليه. وما يَرُدُّه في ذلك إلا مسكنات من الأقوال والقصـص، تمامًـا كالمريض حينما يثـوب من غيبوبته أو تخديره يجـد وقع الألم عليه شديـد لـزوال مفعول المخدر، فيأخـذ مسكنات تخفف من حـدة الألم وصعوبته. وكلما كان الجرح موجودًا كان لابد له من مسكن إلى أن ينمل، فلزوم الموجوع إلى المسكنات، كلـزوم الألم للجـرح، كلاهما متعانقان متلازمـان، لا يفل أحدهما الآخـر. فإذا ترك المسكـن أو ذهب أثر المخدر، ظهر الألم عليه أخرى، فإذا اشتدَّ عليه وتوجع بشدة دخل في حالـة من الهياج والصراخ والصخب وعـدم الإدراك الكامل، تجد الكلمات تنساب من فمه كأنها بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، لا ينقطع كالسيل احتمل زبدًا رابيًا، فما يقف حتى ليبدأ، وما يبدأ إلا ليستعر ويرغي ويزبد، فما يملك لنفسه قرارًا وهو في

تلك الحالة، التي أقضت مضجعه، فارقته بالآهات والآنات حتى يفت كل ذلك غيبوبة أو انفصال مؤقت للوعي فيخر مغشيًا عليه، يفصل بذلك جماع عقله ليريح مراكز حسه فيدخل إلى حالة هي أقرب إلى النوم منها إلى اليقظة أو إلى تلك الكلمات المهدئة المسكنة، التي هي مخدره المريح. وهي في ذلك لا تعالج مرضًا، ولاتحل أمرًا، غير أنها تخدر ألمًا، وتوهن عذابًا لفترة وجيزة، وهذا الشطر الأول من القضية.

فهل أخدرك بكلمات ذات صبغة كيميائية تحولك وتغير منك. تغيرا مشوها، فتقلبك إلى متحول متردد لا يدري حقيقة حاله وأمره، وإنما هو مع الريح حيث تميله مال، كالأرض تسقي بأي ماء فتشربه عذبا ذلالا أو ملحًا أجاجًا. فيكون حاله كالمضطرب وأنا في هذا لا أنكر أثر الكلام على النفس، ولا تأثيره على الذات، وأنه قد ينزل على الجرح بردًا وسلامًا، فيحل ما يعجز عنه الأطباء، فقد تصح به الأبدان من أسقامها وأمراضها، فأثر الكلمة واضح جلي لا يخفي. غير أن هذا معالجة أخرى للموضوع من ناحية طبيعية، دارجًا فيها كل أوجه الاحتمال، معللًا سبب الحدوث، ذاكر الأثر فهو يناقش مثلًا حالة شخص لا قدرة له على الصبر، فلا حكمة عنده ولابصيرة، فهو فيها مائل أهوج يهتاج في كل حالة خفيفة هينة من حالات النفس تصيبه، حزن، قلق، تردد. إلى مواسٍ له ومهدئ من روعه. فيكون عاجزا بنوع من الاضطراب عن التحكم في الذات، ثم في اعتماده على الآخرين في حياته من الأثر والضرر ما ليس بالهين، ثم يصبح بعد ذلك مضطربًا بالكلمات والجمل، فكما أثرت عليه في الأولى، أثرت عليه في الثانية. وكما قد تؤثر عليه بالنفع، قد تؤثر عليه بالضرر، فيكون بذلك حاملًا لمخاطر الأمرين فتقل عنده القدرة النقدية والملكة الفكرية والاعتماد على الذات وصحة النفس، وأن كان عظيم الجثة، ضخم المنكبين، إلا أنه خائر العزم، ضعيف الإرادة والتصميم، به من التراخي والتخاذل والتردد ما به، والنفس على ما تربيها تنشئ وعلى ما تعودها تشب وتعيش غير أني لا أتهم بذلك الناصح، أو باذل المعروف بالرأي والمشورة، ففعله

طيب حسن، ولكن كلامي ليس منصبا عليه أصلًا، فلا دخل له فيه، وإنما هو على حالة الواقع عليه النصح والقول، ما يصيبه من التغيير، وما يعتريه من الضعف، وهي نقطة ضيقة في البحث، وعليها يقوم هذا التحرير، وتلك المعالجة بأكملهاً قبل مواساة النفس وتهدئتها بالشعور الطيب والكلمة الحسنة، وذلك مطلب رئيس وحاجة ضرورية من حاجات البشر، ككائنات ذات خصائص اجتماعية وشبكة ترابط عميقة، ومنه المواساة عند الحزن والاحتواء، والمشاركة عند الفرح وإبداء السرور والسعادة. فالإنسان لا يجب أن يكون أهوجًا يميل بكل كلمة وقول من غير تفكير أو تأمل أو إعمال للعقل، فمخاطر ذلك شديدة، وعواقبه سيئة. فالناس منهم المحب والكاره، والعاقل والغافل، والحكيم والساذج واللئيم، ومنهم المتشدد برأيه المبدي ما يناسب نفسه على أناس، فيحملهم عليه جبرًا بأنه هو الصواب المحض الذي لا يجانبه الخطأ، ومنهم من يتسهل في رأيه فيبلغ حد الرعونة والطراوة، فلا تفهم منه أيأمرك بالفعل أم بعكسه. ومنهم من يعلم كيف ينصحك ولايفعل، ومنهم من لا يحسن النصح غير أنه جريء وكما قال الشاعر:

وماكل ذي لب بمؤتيك نصحه　　　وما كل مؤت نصحه بلبيب

ومنهم من يوجهك طريق يظنه الناصح خير، والخير في غيره. فنقول النصح، يكون بإبداء الرأي مجردا عن الهوى، والنفس متجردة للحقيقة، تاركة الخيار للمنصوح له، فلا يختار له، بأن يجعله يسلك نفس طريقه، فيبين له - في بعض الأحايين لا جميعها - جميع السيناريوهات المطروحة والأراء، مع صحة كل رأى أو عدمه فلا يذكر الرأي مجردًا، بل يتبعه بتعليل موضحًا نفعه أو ضرره ثم يترك له الخيار بعد ذلك. فإذا أراد له أن يختار له، فليقل ويضيق نطاق الخيارات على يغلب في ظنه أنه صوابا، فيعمل جهده ويضع فيه فكره ونفسه، فيخبره بأنه يميل إلى كذا أو كذا، وهذا أفضله. فلا يجبره بالكلام أو الشعور ثم إن وجد الناصح في نفسه قصورًا، فلا يجد مضاضة

مـن أن يدلـه على من هـو أعلم منه، وهذا ليس يشينه، وإنما هو من تمـام المدحة له بتمامها، بأن ينتصر له على نفسه، وهذا من تمام النصح وبذل الخير. وفي هذا أمرين الأول، أن النصيحة أمانة في رقبة قائله، بأن يدل غيره على أمر ما، فيصرفه من حال إلى حـال، بهوى أو جهـل، وهو في ذلك خائن مضلل. فمن لا يجيـد النصح أو الإرشاد والدلالـة لا يفعل، لأنه بذلك يحمل نفسه، عـبء ما تحدث فيه بغير مسئولية وعلم، ثم وزر مـا سيفعلـه غيره بمشورته. فيضل من جهتين فليسـت النصيحة كلمة تقال هكذا، إنمـا هي قصة طويلة تحمل الخير وخلاصة التجربـة. والأمر الثاني، أن متحمل كُلفة هـذا الاختيار هو المنصوح له وحده، وهو الذي يتحمل عاقبة الاختيار وحده، وإذا كنت لا درايـة لـك بطبيعته وحاله ودواخلـه، فقد تُحمله من الأمر مالا يطيـق فيهلك، فَبَلِغه واتركه لقدرته وإرادته هو فيه من إفساد حياته شيء كثيرا. فلا تدله على خيارك أنت أولًا، بـل دلـه على المنبع الصافي، وهنا يكمن الخيار لـه، فالله تعالى يقول لنبيه -عليه الصـلاة والسلام- "لست عليهم بمصيطر"، وفي موضع آخر "إنما أنت منذر" وثالث "وما أنت عليهم بجبار فذكر" وهذا كلها من قواعد النصح والدعوة وكلها واحدة فيها قاعدة كبيرة عظيمـة، جمعت من الفوائد والحكم بقليل لفظ الشيء الكثير. فالإنسان حر، ومن تمام حريته أن يكون عاقلًا، وإذا كان عاقلًا مالكًا جماع رأيه، وأصبح إنسانًا لـه الاختيار بـين القبول والرفض، والرد والمنع ليثـاب أو يعاقب. ومـن لم يكن عاقلًا وكان حـرًا في تصرفاته، كان حريته هي هلاكه وفساده لذلك ليس على المريض حرج، لأنـه فقد نوعًا من الحريـة في التصرف، فلا عتاب عليه ولا ملومـة. وكذلك ليس على المجنون حرج، إذ كان أصلًا فاقدًا لحريته في تصرفه، فإذا كان تصرف المرء من وراء عقلـه، فهذا جن عقله، كأنه غـاب واستتر في غياهب الظلمات. أمَّـا "الطفل" فميزوا فيـه وغايروا بين من كان مميزا للأمور عاقلًا لها، له نوع من الفهم والتصرف بالعقل فتكـون حريته محدودة بذلك. وبين من لم يكن وصـل إلى الرشد والإدراك الذي يفهم

بـه الواقع أمامه، فلا يعرف الصح من الغلط. وهذا غير مميز وهنا شيء تربوي، وهو إذا أخطأ غيرِ المميز، يكون خطأه محملًا على من أعطاه من الحرية ما أفسد به حوائج الناس ومصالحهم، فلا صحة في الاستدلال بكونه طفل لا يفهم على التهرب من خطأ الفعـل. إذ تعويض ما أفسده يكون على من يلي أمره مـن وَلِيِّه أو من ينوب عنه. فتجد في كل مـا سبـق وجوب وجـود شخص له الحريـة الكاملة، ليعوض الخلـل الظاهر من نقص الأصناف السابقة بأن يكونوا قابعين تحت رعايته للتقويم والرعاية لا للتملك أو الاستعبـاد فمثلا الطفل، له الوالدان يقومانه ويربيانه المجنون له وليه أو من يلي أمره، ممـن يضبط تصرفه قـدر إمكانه والمريض، إن كان مرضه لا يفقد به شيئًا من حريته أو فكره وقدرته بأن كان خفيفا طارئًا، لم يحتج إلى أحد وإن كان مرضه لازمًا له معيقا إياه، لا يرجى برءه، كان لابد له من رفيق يقوم على شأنه أو معاون يساعده.

إذا اختـار الناصـح للمنصـوح رأيـا وألزمه بـه، كان كأنما سلبه عقلـه ونزع عنه حريتـه. التي هي مناط التكليـف، وأساس الرشد والتعقل، كأنـه جعل له وصاية عليه، ولكنهـا وصاية فكرية لعدم رشده وضعف تفكيره وعقله. ولكن كما قلنا يبين له مواضع الخلـل والخطأ ويوضح له ذلك مبديـا الأسباب بأدلتها. ثم يبرز له الصحيح والواجب لا مـن وجهة نظره هو، ولكن يبديها متجـردًا للحقيقة، مخلصًا في الوصول إلى الحق، ثم يترك الأمر له والخيار بيده.

ثـم نعود للأمـر الأول، وهو أن الحيـاة خليط بين ما تحب وما تكـره، بين لحظات الألم وأوقـات الفـرح وكل منهمـا مستلزم للآخر، فالفرح لابـد وأن يعقبه حزن وهكذا تـدور دورة الحياة غير منتظـرة أو آلية على أحد أو شيء. فهل مثلًا تكون للحياة معنى إذا كانـت كلها سرور وسعادة وإبتسام وأفـراح؟! أو إذا كانت كلها أفراح وأحزان .. إن مـن طبيعتها أنها متقلبة بين الظلام والضيـاء، بين السعادة والألم، والحزن والسرور. لابـد من هذه الدورة أن تتم في حياة الإنسان. كذلك، قليل من الحزن فيها شيء جيد،

لا لأنــه مــن طبيعتها فوجوده لا لذاتــه، وإنما لغـيره فيصلح به أمــور، ويقضي به على شــرور كالعديد مــن الأمور في الحياة لم توجد لذاتها، وإنمــا لأنها لصلاح أمور أخرى فالباطــل مثــلاً، لابد من وجــوده، ليظهر الحق ويعلو والضعف موجــود، لا لذاته، ولكن لبيــان أفضلية الأشياء، فالتعــاون بينهما واجب. ولإيضاح حقيقة أخرى هامة، وهي أن النقص موجود في كثير مما هو مخلوق، لا للعــوار والعيبة، ولكن للكمال والتمام وهذا أمــر غاية في الخطورة، إذ يحوي شيء من جوهر الوجود والكون والأشياء، وستكون لنا معه وقفة أخرى.

فــإذا من طبيعة الحياة أن يكون فيها الحزن والألم والقلق وهكذا، وهي مما يلحق الإنســان ويتابعــه في الدنيا، فهــي متجذرة فيه، ضالعــة في أساسه. بــل هي عامل من عوامل الإصلاح السلبي، كالملح للطعام مثلًا، إذا أراد الإنسان أن يعيش حياة تخلو من هذه الأشياء ما استطاع، لأن كونه إنسانًا بشريًا، لابد وأن يتعرض لمثل هذا قانونًا كونيًا وحقيقــة ثابتة بــل لعل لهذه الأشياء عظم الأثر على المــرء. فتدفعه من فشل إلى نجاح وهــي التي تجعله يكسب قيما متعددة فتعلم المرء بأن الألم والمعاناة والحزن والقلق وما أشبــه هي وحــدة ضرورية لابد أن يمر بها، ويعيش فيها قدر مــن الزمن، لعلل منها أن يدرك حقيقة ما في يده، فيدعوه إلى الحفاظ عليه، ومعرفة القيمة الحقيقية له معرفة وجدانيــة لا نظرية، فالمرض يُعلمه قيمة الصحــة وقدرها، بل قيمة الحياة في ممارسة شئونــه فيهــا بقوة ونشــاط، في الإتيان والــترك، في مباشرة الأمــر بنفسه غير محتاج فيــه لأحد ثــم تورثه بعد ذلك مزيدًا مــن العطف والشعور بالمرضــى، فيقدر معاناتهم وآلامهم، فيدفعه ذلك إلى مساعدتهم بقلبه قبل جوارحه، والوقوف معهم ومساندتهم، إلى آخر ذلك.

دعنــي أتجــاوز ذلك إلى أن أقــول إن ما سبق، يورثك شعورًا بطعــم الحياة، ولكنه القاسي منها. ثم أنت لا تستطيع منه فكاكًا، وأن حاولت وجربت. وانظر خلفك وحولك

وأمامك هل نجا من ذلك أحد. فمحاولتك حينئذ تقع في معالجته، لا في إلغائه وإزالته. في كيفية مجابهة الألم والتصرف حال التردد؟ في كيفية محاربة القلق والانتصار عليه؟ وأنت في كلٍ، تعلم أن المشكلات لا تنتهي أبدًا، والمشاعر السلبية لن تتوقف عن مطاردتك، ومعنى كونك حيًا، أن هناك مزيدًا من الضغوط والمواقف التي ستتعرض لها، ليُنظر كيف ستتصرف فيها وهذا في فهم الحكمة من وجودك، والغاية من خلقك وهذا من كون الإنسان مختبرا ممتحن، فالحكمة هنا تكمن في معالجة الأمر بحسن تعقل للأمر وتفهم له.

شعوري بالحزن، هو شعور بتقدير كل شيء، بتقدير قيمتي، نفسي، مَن حولي، عوالم أخرى غير الإنسان من عوالم الحيوان والطير . هو شعوري بكل شيء في الحياة، بل هو شعوري بالحياة ذاتها. شعوري بالحزن لا يعدو إلا أن يكون مقدمة لشعور السعادة. أتعلم كثيرًا من الأشياء ما تعلمتها، أقدر وأدرك أشياء ما كنت أظنني أدركها، يجعلني في أسمى درجات التعاطف والرحمة والتأمل أدرك فيه كثيرًا من الحقائق على ماهي عليه من غير تجميل أو تزيين. أرى ذاتي واضحة، أرى الناس بعين أخرى، أفهم بعضًا من نواميس الكون وسننه، أتعلم الصبر وأقدر قيمة التحمل أعلم حقيقة تقلب من حولي وتغير أمري من أمر لأخر، فأقدر كلا لأمرين، الأول لوجوده، والثاني لأنه علمني قيمة الأول ثم أضاف إلى قيمته هو .أدرك زوال كل شيء، وعدم ديمومته . ومن أروع ما تعلمته في ذلك "قانون التناقض أو التضاد" في الكون، بل في نفسي تفهم غاية أشياء، وأسباب خفاء أخرى، فالحزن هو أحد تلك الحقائق.

وهذا ليس فيه دعوة إلى الحزن ونحوه، ولكنها نظرة أخرى تحاول شرح منطقية وجود هذه الأشياء في حياة المرء. وكيف يمكننا التعامل معها لا إنكارًا وهروبًا، بل مواجهة وحلًا ثم أقول لا تحزن، ولا تطل المكوث في الظل. واحذر سيطرة هذا الشبح عليك، لأنه إن تملكك أهلكك، وإن سيطر عليك أصبح آمرك، ثم يفسد حياتك شيئًا

فشيئًـا. لا تطـل الحزن، فأثـره على النفس مهلك، بـل استعد منه حـال هبوب ريحه، فـإن أصابـك فتجلـد له . اخـرج إلى شمس حقيقـة الأشيـاء، وأحسـن إدارة ذاتك وحياتـك وعواطفـك، فالحزن عاطفـة على كل حـال. وكل شيء مبني علـى سياستك للأمـور، القائمـة على تفهمـك وإدراكك وطريقة معالجك لكل وضـع بطريقة مختلفة أو بمـا يقتضيه الحـال ويتطلبه الموقف. يكمـن الأمر في التوازن بـين الأشياء في نهاية الأمـر. وعليك بعدم المبالغة والتضخيم من الأحـداث، وطغيان تفاعلك لها، ليظهر في تعاملاتـك، من طغيـان اهتمامك بالآخريـن مثلًا، حتى تفقد ذاتـك، وتضيع هويتك، وتصبـح وأنـت لا تدري من أنت، فتكون شخصا آخر مصطبغًا أو مسبوغًا بآراء وأفكار الآخرين، فتصبح ممثلًا عنهم، لا عن نفسك أو تمام البرود والاستهانة بهم والتحقير لهـم حـال معاملتهـم، فتؤذيهم فتضرهـم، فتفقدهم . لذلك ضـع كل شيء في نطاقه الطبيعـي بلا إفـراط مطغي أو تفريط مهلك وكما قال على بـن أبي طالب -رضي الله عنـه- "أحبوا هونـا وأبغضوا هونا. فقد فرط قوم في حب قـوم فهلكوا، وأفرط قوم في بغض قوم فهلموا" لتكن صاحب الجميل في كل شيء، في وصلك وفي هجرك وفي معاتبتك.

لا تهتـم الاهتمام المرض، الذي تصبح به قعيـد الفراش، الذي تفقد به كل شيء حولـك وأنت لا تـدري. فتضيع نفسك في هوة من البحث عـن إرضاء أحدهم، فتصبح أنـت الذي ضيعت نفسـك بنفسك، لا أحد غيرك أنت هنا أمام نفسك، ليس أحدًا آخر والأمـر يتطلب مجاهدة ومقاومة وطـول زمن ثم حتى لو حصلـت رضاهم، إن الرضا لـن يدوم ياصديقـي، وهذه طبيعة الحياة، ثم ستشعر بصِغَـر نفسك حتى تستصغرِك العيـون لذلـك، لا تبـالي بصغائر الأمـور وسفاسفها، فأوضح عن نفسـك في أهدافك ورؤيتك، ثم اسعى لتحقيق تلك النفس في أهداف ذاتها وأحلامها، لتكون على يقين من نفسك، وعن نفسك، وحول نفسك، فلا تملأ نفسك بالشك والظن، فتكون عرضة لقول كل قائـل، يبعثك يمينًا وشمالًا، ثم لا تعود إلا بنفس مترددة أو محطمة لا تُضَيعٍ نفسك بالشك، بل قومها باليقين.

حالة وهم

لا تبالي بالأفكار السلبيــة والأشخاص المحبِطين، فقط تجاوزهم . فأنت إذا ظللت تتفاعـل مع كل فكرة وشعور، وتبني عليه طريقة معاملتك، وتسقيه من خاصة شعورك، صعـب عليك التخلص منه، حتــى إلى يوم أن تموت تظل منه بقية في فكرك ، وجزء في خاطرك، لذلك لا تطل الوقوف هناك، عليك بالمسير قدما، إلى ما أنت عزمت أولًا على الذهاب إليه ثم لا تحرم نفسك بما أبيح لك في حياتك، فلا تكن متشددًا ولا مستسهلا ، كن وسطا بين الحالين . ومن ذلك ألا تسرف على نفسك بإيراد أفكار ليس لها في الواقع أي علاقة بما أنت عليه، إلا أن يكون من نسج خيالك وعمل مبالغتك لا تتبلد فتفقد حس المسئولية وتترك واجباتك، وتضيع حقوق الناس عليك. كل أحد في الدنيا له حق عليك، فــأد لكل ذي حق حقه . إياك أن تنتظر ردّا لصنيعك، فتمرض قلبك، وتعلق فعلك بمن فُعـل له، وتنتظر ثوابًــا. وتفتقر إلى كلمة حسنة منه، بل وتجوع لرد فعل منه يشبعك ثم إن لم يفعل حزنت وتكاسلت عن فعل الحسن من الأمور والجميل من التصرفات. وكان هــذا جزاء تعليق ثــواب الفعل على غير جهته ومحله. ثم أخــذت تكيل التهم بأن هؤلاء قــوم بهت لا يعرفون لصاحــب معروف فضلا ، ولا يشكرون لفاعــل الخير جزاءً وفاقًا. لتدخل بعد ذلك إلى ما انطويت عليه أسرار نفوسهم، بل قد يتجاوز ذلك إلى المجاهرة بالعــداء، بعــد أن تعدد مننــك وفضلك عليهم، وكيــف قمت إليهم بالخــير والمعروف، وبذلت لهم الطيبات، حتى توصلت إلى أن تقول "اعمل الخير وأرميه البحر". لضعفك وخلــلٍ عنــدك، وانتظارك ردّا للمعروف. وفكرة الانتظار وحدهــا تكفي لتصيب النفس بالقلــق، فكيــف وأنت تظنه حقا لك تريد أن تنتزعه ممن أخذه. فخُيل إليك أنك ترمي معروفك في البحر، بأن لا جزاء عليه، وغفلت عن أنه لا يضيع جميل أينما زرع، وأن من يفعل الخير لا يعدم جوازيه .وجهلت "فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره" سيراه عاجلًا أم آجلًا. وجهلت "وما تفعلوا من خير يعلمه اللّه" وجهلت "وما تفعلوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" وجهلت "إن الله لا يضيع أجرا من أحسن عملا"

وجهلت "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرا"

وجهلت "وماتنفقوا من خير في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"

فجهلت كل هذه الحقائق البينة، حتى أصبح جهلك مركبا. فمضيت على كل أمرٍ تفعله تنتظر له ثوابا من الناس نعم، هذا حقك لا أنكره عليك ولكن أعلم أن ثواب عملك ستأخذه عاجلًا أم آجلًا، فلا يشترط فيه المقابل المادي، تجده صحة في نفسك، في أولادك، بركة في رزقك، سهولة ويسرًا في معاملتك، حبا في قلوب الناس لك وقد تجده في راحة نفسك وهدوءُ بالك. وذاك من أعظم ما تأخذه في الدنيا فالرزق كما قلنا سابقًا، ليس المال فقط بل هو أبواب كثيرة وأنواع متعددة، منها الصحة والولد والراحة والسعادة والعلم والطاعة. ولكن حتى تأخذ هذا الأجر لابد أن تجعله لله وحده، حتى يجازيك هو سبحانه. كن طامعًا في بركته وعطائه وفضله، وكيف تطمع وأنت ترجو ثواب غيره! وكيف يعطيك وأنت تنتظر من سواه، وتصنع من أجله العمل ابتداءً! فأخلص أعمالك مبتدأ ومنتهيا لله وحده وأعلم أن الله لا يضيع عباده، وأن ثوابه جزيل، وأجره عظيم، وخزائنه ملئ استنفد.

لا تبن أحلامك وآمالك على أحد أو شيء، لا تربطها بزائل سريع تغيره. فإذا ما حادث جدّ أو ظهر، تغير. فليس هناك شيء يبقى على حاله. فإذا ما سقط هذا الشخص أو الشيء، سقطت أنت، ولكن ابن أمرك على القيمة ذاتها والمعنى بعينه، اجعله قيد السماء في علوها فلا يضرك سقوط الأشخاص أو الأشياء إذ لم تعلق عليها خاصة نفسك، فيكون سقوطها سقوطك.

أنا لا أدعوك إلى أن تحزن أو لا تحزن، وإنما أدعوك إلى أن توازن الأمور وأن ترى حقيقة الأشياء، وأن تعلم ما هو أساسي لا ينفك عنك، وماهو جوهري في وجوده عليك وفي حياتك وما هو عرضي يروح ويغدو قد تفقده فلا يضرك وقد تملكه فلا يزيدك وماهو طارئ عليك تقبله إلى حين، حتى تتجلى أسباب ظهوره وأسباب نموه، وبين ما

هــو من خداع عقلك وتزيــين نفسك. وأن ترى الكون فيك مصغرًا، وأن تجسد الحقائق هيئــات ظاهره فتراهــا واضحة بكل ما تحمــل، وتبصرها فتيسر على هــدى ونور وأن تكــون على يقين لا تــدع إلى الشك إليك سبيلًا أو مدخلًا ولا تظنن إلا ظنًا حسنًا يبنيك ويزيدك، ويزيد قوة قلبك فينير لك الحقائق على ما هي، فتعلم ما هو مزور مخادع.

وأخــيرًا أقول لك لا تحزن أن كان حزنك يبقيــك ضعيفًا، ويفقدك نفسك، فتضيع بــه حاضرك، وتتهجم به على مستقبلك لا تحــزن، وأعلم أنه حظ من الشيطان يأخذه منــك، فيستعــدي بضعفك عليك لا تحزن، واعلم أن الأمــر أن الأمر قريب، والحوادث متقلبــة. لا تحــزن، وأعلم أن هذا جزء مــن الاختبار لك، فلا تتعجــل اختبارك أو تفر منــه، فإنــك إن فررت، ذهبت إلى غــيره، ولعله أسوء، فوطن نفســك وأعلم أن النصر مــع الصــبر، وأن النصر صــبر ساعة واجه ولا تكسل، وتقــاوم ولا تضعف فإن بقي بك ندوب من أثر صراعك، فهي دلائل قوتك، واشتداد عزيمتك، وسداد قولك. وأنك لست ممــن تفر يوم الزحف، إذ من لم يصبر علــى صغائر الأمور وضعيف البلايا، لا يُتخيل مــن صــبر على الخطوب العظــام وإن أول معركة ينتصر فيها المــرء، هي على نفسه لا تحــزن، واعلم أن الصبر شفــاء، والعقل نعمة، والتفكر فريضــة. فامزج بينهم فأعمل عقلــك وفكرك واصبر واستعن بربك واسأله ثباتًا وقوة ألم ترَ إلى القوم الذين خرجوا في مواجهــة عدو لهم، فسألوا ربهم استمطار الصبر عليهم، حتى يملأ عجز نفوسهم، ويقــويَ عزائمهــم فقالوا "ربنا أفرغ علينا صبرا" أي صبه علينا صبا، فأبِلنا بوابل منه نستعــين به على ما بــين أيدينا، فسل ربك إنه أقرب إليك من حبل الوريد، وهو يعلمك، ويعلــم حاجتك ومسألتك. واحزن على نفسك إذا رأيت منها تقصيرًا وضعفًا، وخُذلانًا ووهنــا وهو مما يجدر بك الحزن لأجله والحــزن هو فعل القلب. فأبك على تقصيرك، وهــو أول طريق معرفة الخطــأ، أن تُقرَه وتعلمه ثم تتأثر لفعلــك هذا، وهذا الحزن هو داعــي التغيــير هنا، لأنك إذا لم تحــزن أو تتأثر فرحت أو اطمأننــت أو لم يشكل لديك

فرق كحالة اللامبالاة ونحوها، وهنا أنت راض عما سبق لك فعله، فلم أصلًا تغيره! ثم قم إلى تحقيق أهدافًا في الحياة ولو قَلت ثم ليس المقصود بالحزن وعدمه غير أن تذكر قلبك بطبيعة مشاعرك وحقيقتها وأصلها، ثم تتقدم وتمضي في مسيرة حياتك.

وأنت لا شك بين احزن أو لا تحزن في طريق حياتك سائر، فلا يَفِل إحداهما الأخرى ولا ينقضي أحداهما حتى يبدأ الآخر في مسيرة الحياة المتواصلة.

ولا ينبغي أن أغفل في نهاية الحديث عن هذا، تلك القاعدة القرآنية العظيمة، التي هي نبراس واضح الدلالة، في إشارته إلى عمق هذا الأمر ولكن من ناحية القدر والإيمان بالغيب، وبأن هذا الصفات وأشباهها ابتلاء من الله يصيبه العباد، وأنه لا يضر المرء مع الصبر واليقين، والعلم بأن الأمر ليس شرًا كما يظن، بل فيه من الخير ما إذا لو اطلع عليه لرجي تشديد الأمر عليه. فالله عالم بالعباد وبما يصلحهم فيخفف عن أحدهم لحكمة ويزيد على الآخر لعلة. وفيه أن الإنسان من حالة السراء إلى الضراء فإذا حدث ما يسره ويفرحه، فلا يتطاول به على الخلق، ولا يختال به على الناس وإذا أصابه الشر فلا يتهالك على نفسه فيكتئب ويسخط وليعلم أن الأمرين هما قضاء الله عليه، أكان مفرحًا أم محزنًا فلا يحزن على ما فاته من الأمور، ليجلس صامتا لا حراك به، فتتصعد نفسه حسرات وآلام . فيعلم أن كل ما أوتيه عارية، وأن ما فقده إنما لم يكن مقدر له، فلن يكون نصيبه ولو اجتمع أهل الأرض على ذلك. وكما أسبقنا هذا تحليل للأمر من ناحية القدر.

والله تعالى يقول في ذلك "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولاتفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور"

وقوله سبحانه "ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهدي قلبه والله بكل شيء عليم"

وكقوله "إذ تصعدون ولاتلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون".

ونظـير هـذا المعنى في القـرآن كثير وهو يدعو المـرء إلى عدم القلـق على ما فات مـن الأمور. فما من مصيبة طبيعية في الأرض، أو بشرية في الناس وأنفس الخلق وما يصيبهم فيها من الألم والحزن والوجع يقول تعالى لهم، هذا أمر قدرناه عليكم قبل أن نخلقكـم، وقبل أن تحدث هذه المصيبة، وهو مسجل عندنا، محفوظ في إمام مبين. ثم هـي بإذنه تعالى وقدره، فهو أصابها العباد لحكم كثيرة ذكرنا طرفا منها فاصبر على ما أذنت بحدوثه لك، وارض بما قسمته وكما قال القائل:

أتصبـــر للبلوى عـــزاء وحسبة　　فتؤجـــر أم تسلو سلو البهائم

أو قول الآخر:

إذا استقبلت نفس الكريم مصابها　　بخبث تثنت فاستدبرته بطيب

وللواجـــد المكـروب منع زفراته　　سكـــون عزاء أو سكون لغوب

ولذلك أنت في كل الأقدار لازم لك الصبر، فإما أن تصبر محتسبا ذلك عند الله، فيدخره لك، ويجزيك عليه خيرًا عظيما. وإما أن تصبر أيضًا، ولكن كما تسلو البهائم، فتسخـط وتتأفف وتلعن. ثم لا يكون لك آخـرا إلا الصبر وما أجمل قول النبي مأصلا تلك القاعدة العظيمة الهامة وهي "اعلم أن ما أصابكم لم يكن ليخطأك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك"

وأخرى يتأصل فيها تمام الحياة وحكم ما فيها فيجليها على قصر عبارتها، بغزارة مدلولاتها ومعانيها وهي "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشـيء قـد كتبه الله عليـك. واعلم أن الأمة لو اجتمعت علـى أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"

فقد جفت الصحف، بأن ما كتبه الله عليك لابد وأن تلاقيه، أكنت محبا له أم كارها فيُعلق ذلك قلبك بالله، فتقبل على الصعاب بقلب ثابت مطمئن فيجعلك عزيزا، وإن كنت في أضعف أحوالك وأقلها شأنا فيجعلك لا تذل لأحد من العالمين، إذ لا قدرة لأحد على إيصال نفع أو حجب ضر ومنعه، إلا الله تبارك وتعالى. فيُقوى ذلك اتصالك به، إذ هو ملجأك وطريقك الوحيد الذي ليس لك سواه، فلا مهرب منه إلا إليه، ولاقدوم إلا عليه، فهو حيث قصدت ووجهت وجهك شرقا أم غربا، يمينا أم شمالا فهو تجاهك أينما ذهبت أو وليت فلا ملجأ منه إلا إليه، ولا فرار منه إلا عليه . فيورثك ذلك العزة والشرف والسؤدد فلا تخاف من أحد، ولاتحزن على شيء، ولاترتاع ولاتقلق لأن مدبر الأمر هو الله، فيقوي هذا عزيمتك ويثبت قدمك.

قوة الضعف

ليس خروجا عن المألوف، أو تجاوزا لحدود المعقول والممكن، أو كسرا لحاجز المنطق، وإنما هو نوع من التساؤل الذي يثيره الذهن، ويهيجه الفكر والقريحة. وينفرد بالإنسان في حالة اليقظة الفكرية والاستبصار النفسي، لتجد نفسك تسأل هل الضعف مَعْلَم من معالم القوة؟ أم هل كلها ضعف، يتملكه ضعف، يسري به ضعف؟ هل الضعف في جميع حالات ظهوره وتجسده سواء في الحالات الجسدية أو الصفات المعنوية التي يتحلى بها الإنسان، من جِبلية فطرية وأخرى مكتسبة؟ أم أن لها ملمح من ملامح القوة مختبئ في ذاتها، مخبؤ في قرارها، فكأن الضعف فيها ظاهري فقط، وإنما هي توشحت به رداء على صفات من المعالي ونفس صلبة كالحديد؟ أم أن الباطن كالظاهر كلاهما من طينة واحدة، فما نبت ظاهرها إلا من قاع باطنها؟

إن سمة الإنسان الظاهرة هي الضعف. وما ذاك إلا لأن النقص فيه طبيعة محكمة وغريزة متمكنة فشاكل ضعفه نقصه، فيكون كلاهما واحد، فضعفه جزء من نقصه، ونقصه راجع منتمي لضعفه، فكأن كلا الأمرين واحد وهو أصل ناقص في كل شيء، فليس فيه شيء معدٌ للكمال. انظر إليه في كل شيء تجد ضعفًا على ضعف ولكنه يتخذ وشاحا ظاهريا بالقوة والعنجهية، فتسلح بالعلم هربا من الجهل، والجهل ملازم له إلى يوم موته. يفر من ضعف الطفولة إلى فتوة الشباب ليُرد كهلا عاجزا. يهرب إلى الأدوية خوفا من المرض، ويفزع إلى الطعام خوف الموت والهلاك. ويَرِدَ الشراب مخافة الجفاف واليُبُوسَة. حتى قوته حاوية للضعف، مصورة له. فكل شيء فيه هكذا ولم كان ذلك؟ لأنه مُعَدٌ لفترة معينة للبقاء ناسبه فيها تلك الأجهزة المؤقتة، لأن الإنسان خلق للخلود والأبدية وذلك حينما أخرج أبوه آدم من الجنة، وقال له ربه "فأزلهما الشيطان

عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"

وقوله تعالى "قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"

فكان خروجه معلق لسبب، ومسبب بشرط، فجعله استقرارًا مؤقتا، ومحلا مرتحلا ثم بعد ذلك عودة أخرى حيث المأوى الأخير والدار الآخرة فلهذا كانت هذه الأجهزة والآلات التي ركبت في الإنسان محتوية على الضعف، لأنها منتهية إلى الهلاك. لذا نسأل هل العيب في العين التي لا تبصر تمام الرؤية، أم في السمع العاجز عن الإحاطة، أم القوة المقيدة بالحدود الجسدية وإذا كان كذلك، إذا هل يجب أن يكون الضعف كمالا، والعجز في عين العجز ليس عيبا. وهكذا فالإنسان على ما يملكه من ضعف شديد، يرى غيره وهو من الضعف دونه، فيبرز فيه مواضع القوة وينجذب إلى ما فيه من القوة والتمام وهو ما رأى ذلك إلا لمشاكلة في الضعف فيما بينهما ومن سخرية ذلك أنهم جميعًا تباينوا في الضعف، فأصبح الأشد ضعفًا يميل إلى من دونه في الضعف، فيراه قوة ويكتب عنها ويمتدحها وهذه القوة ما أتت إلا من ضعف، فالذي أظهرها مبدئا هو الضعف، الذي صبغها بمعلم القوة هو الضعف وهذا الضعف قد يكون ظاهرا على الأبدان والجوارح، فتجدها تميل إلى من هو أقل منها ضعفا، فتمتدح القوة، وتشتد على من كان أشد منها ضعفا. وإذا كان الضعف في الباطن من الصفات المعنوية غير المرئية للعيان كالخوف والرهبة، وامتلاء الشعور بالنقص، والضعف المادي، وقلة ذات اليد، والخوف من المستقبل والموت، والفقر وهكذا فتجد كل نوع في هذا وغيره يميل إلى ما يضاده تجد الضعيف يميل إلى القوي، والفقير يميل إلى الغني، حتى طالب الوظيفة والعمل يميل إلى مديره أو رئيسه فميلانه هذا نوع من الضعف الطبيعي فقد تجده يتملقه وينشد فيه قصائد الغزل والثناء، ويصل في ذلك حد التكذب عليه، رجاء مرتب أعلى، مكانة أفضل، أو خوف الفصل والطرد، أو على الأقل تجنبا لمضايقته، أو حتى لا

يزيد عليه في العمل فيجعله يعمل فوق طاقته، أو يجعله بجوار من لا يستسيغ العمل معه.

طبيعة الإنسان أنه يميل إلى من هو أقوى منه وقد يكون القوي قويا في ذاته أو تجامع الأعداد الغفيرة من الضعفاء عليه ليلبسوه من ثياب القوة ما ليس له، حتى يصل به إلى الطغيان والاستبداد والعلو. فالقوي ينظر إلى من هو أقوى منه، ويستغل من هو أضعف. وما القوي إلا في حقيقة الأمر ضعيفا، لو منع هذا الرياء والنفاق الذي نفخ فيه نفخة العظمة لأرتدا صاغرا، بل حتى ممن هو أضعف منه لأن أصل هذه القوة من الضعف، فاذا عريت أو بانت على حقيقتها تبين كم هي ضعيفة خاوية، وكم من قَوِيٍّ ما قواه إلا تكاثر الضعفاء حوله! فأوهموه أنه قوي حقا، وأوهموا غيرهم من الضعفاء مثلهم أنه قوي، فعمت البلوى وكثر الفساد.

فالبشر كجنس من الكائنات تنوعوا في صفاتهم، واختلفوا فيها فيما بينهم، فحدودا لها معيارا ومقياسا، فقاسوا ضعفهم بمقياس قوة، ثم لما رأوا قوة تعلو عن ضعفهم، قالوا عنها "خارقة" هكذا بمقياسهم الضعيف قاسوا، وما ظنوا للحظة أنهم أصلًا كائنات ضعيفة، فما نظر أحدهم إلى نفسه كيف خلق؟ ومن أي شيء خلق؟ وكيف يصير إلى موته وفنائه؟ وماذا يكون قبله أو بعده؟ وما الذي يحتويه هذا الجسد؟ وهل هو محصن أو مخترق؟ إلى آخر ذلك.

وصدق اللّه العظيم إذ يقول "وخلق الإنسان ضعيفًا"

وصدق اللّه العظيم إذ يقول "اللّه الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة"

وإن كان الضعف المقصود بالآية الأولى مخصوص به ضعفًا بعينه في حالة معينة مناسبًا نزول الآية وسياق التلاوة. غير أنه كما قرر علماء الأصول تلك القاعدة الأصولية الهامة في تفسير آيات الذكر الحكيم، وهي "العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب" أي أن دلالة المعنى ليست مخصوصة مقصورة على سبب نزول

الآيــة، بتقيد المعنى الواحد المقصود منها حين نزولهــا لتلك الحادثة الخاصة، غير أن هذا المعنى ليس المقصود، فهي وإن نزلت أي الآيات الكريمة مبتدئ لتعديل أو تشريع أو أمر أو نهي، فهو ليس لتلك الحادثة فقط، وإنما لعموم ما ينضم تحت اللفظ من المعاني ولذلــك أمثلة كثيرة يراجع للاستــزادة فيها كتب علم أصول الفقــه. الشاهد المقصود حتى لا يفيض بنا الكلام ويكثر إلى غير ما أردنا فنقول الضعف ليس احتقارًا أو ازدراءً مــن شأن الإنســان أو حاله، فهذه هي طبيعتــه الملائمة له، حتى يستطيــع أن يعيش في ظروفــه ويتكيف معها. فالإنسان ضعيف ضعفًا جبل عليه فهناك ضعف من حيث القوة والمنشــأ، وآخر من حيث الشخصيــة والصفات ومع ذلك شرع له مــا يناسبه، وما فيه رفــع الحرج والمشقــة عنه وإيجاد وتعديد الأعذار له، والتخفيــف عنه، والرحمة به إلى غير ذلك.

فإذا كان الجنس البشري ضعيف، والضعف فيه بيّن ظاهر من جميع أوجهه، فمن أيــن أتت القوة إذا؟ ســؤال يطرح نفسه في هذا الموضــع، إذا كان الإنسان ضعيفًا فمن أيــن عرف القوة، وإذا كان خيرًا فمن أين عرف الشر، وإن كان كريمًا، فمن أين عرف البخل؟ وتحدثي هنا عن الشر الأول والبخل الأول، أي أول ظهور هذا الأمر فكان كبداية تأريــخ له على هذه الأرضــ هل يمكن أن نعتبر التفاوت في الضعف بين الجنس البشري على جميع أوجه هذا الضعف، هو ما قادهم إلى النظر في مقياس القوة "الضعف"، أي التــدرج في الضعف بين علو وسفول فعرفها من اختلافهم فيما بينهم، وتناقضهم حول مــادة الشيء نفسه -وهل يمكن مثلًا أن نعتبر- وهو عندي ضعيف شاذ لا أقبله، وأروده أولًا لبيــان وجــه ضعفه، ثم توسيعًا لدائرة الاحتمــال والنظر- أن ذلك من خلال نظره إلى الحيوانات في عصر ما، فرأى لها قوة وصوله وجوله، فأخذ ينظر إلى بعضه يموت علــى أيدي هذه الحيوانات فهرب منها واختبأ عنها. وعرف قوتها، ثم مارس معها كرًا وفــرًا، حيلة ومكرًا، ثم امتلك من الأدوات ما يغلبهــا به، فكلما امتلك أكثر وكانت أشد

فتكا وإهلاكا، كان أقوى لا لقوته، بل لامتلاكه من أسلحة القوة ما قد يبيد به أناس كثيرون، فكأنه بذلك ضاعف قوته التقديرية إلى أضعاف مضاعفة فاختلف هنا مفهوم القوة عنده، فلم يعد مقصودًا به قوته المطلقة، في يديه العاريتين، وساعداه الشديدين، وكذلك ليس في شفرته الحديدية من سيف ماض قاطع أو سهم أو قوس. وأخذت القوة تعرف بالاستحواذ على آلات القتال وعُدة الحرب. فصار القوى هو الأكثر غلبة ورجالًا، ثم أخذ المعنى يضيق ويتسع، ويكتسى حيلا وأشياء جديدة بحسب كل عصر ومِصر. وحسب الناس وطبائعهم في تلك الحقب على مدار التاريخ.

وقد يكون عرف هذه القوة بالنظر إلى ما فوقه وتحته وحوله، فرأى السماء وأبصر ما فيها، وجلس على الأرض فمد نظره فلم يحصى آخرها، والتفت بجواره فرأى الجبال والهضاب والبحار والأنهار، كل شيء يراه يجعله يوقن بأن الكون مليء بالأسرار، وأن عليه أن يكون حَذِرا مرتاعا، فلن تسهل له الحقائق جملة واحدة، ولكن واحدة تتبعها الأخرى وعرف أنه ضعيف بما يكفي فالحرارة الشديدة تلهبه، والبرد الشديد يقتله، وهو بين هذا وذاك، إذا مَرِض لا يعرف دواءً لدائه ثم وجد صاحبه يخر على الأرض ميتا لا يدري ما حل به، ينظر إليه، ويقول، ماذا أصابه؟ أخذ يتعلم الحقيقة تلو الحقيقة، والعلم كما هو معروف تراكمي، فأخذت الحقائق تنتقل من أمة إلى أمة، ومن جيل لجيل. حتى وصلنا إلى قمة ما وصلنا إليه الآن من عصر التقدم والمعرفة غير أننا لم نجد أحد استطاع جمع المعارف من أولها إلى آخرها، فإنما هي مفرقة في الكتب والصدور، كلٌ أخذ منها بطرف وهو يظن أنه حوى العلم والفن، وما سَبَّبَ هذا الظن عجزه، ثم نظره إلى من هو أقل منه في العلم، فظن أنه العالم الذي لا يضاهيه أحد، وأخذت كذلك مفاهيم القوة عنده تختلف وتتنوع، حتى تكاد تكون في بعض الأحيان مبهمة أقول أن الإنسان رأى نفسه في مبدأ الأمر قويا، ولو كان كما سبق يظن الضعف في نفسه بهذا الشكل لما تقدم وصنع وأقام، ولكنه رأى في نفسه قوة حال

إقدامــه على الأمور فضرب الأرض فانصدعت تحت فأسه، وحَوّل مجري النهر، فشق الـترع الصغيرة، وعرف كيف يحمي نفسه وغيرة من الحيوانات المختلفة، بل واستأنس بعضهـا رغبة في الخدمة والحرث والـزرع واحتمى من شدة الحرّ ولفح الشمس وهرب مـن البرودة فأشعل النار لتدفئة وصنع الطعام. بل ظن نفسه في بعض الأوقات لا مثيل لقوتـه، فلم يـرَ أحد أشد منه قوة فاستعبد كثيرًا من الناس له، يطيعونه تعبدا وقداسة ثم حكم الأرض وسيطر على مواردها وما فيها فظن لنفسه الحكم والقوة!

غير أنه أيضًا ضعيف، والمدرك لضعفه يسرع محاولا لاكتسائه ببعض مظاهر القوة حقيقة أو تمهيدا ليُحي في نفسه بعضًا من طبيعته في الاستعلاء والتحيز وحب النفس، حتـى يصـل بها إلى غايـة تعظيم نفسه وتمجيدهـا فكان من أول مـا اكتسب من ذلك السلاح الذي يقاتل به، ويعلو به على غيره. ثم أخذ كذلك يهرب من الضعف الجسدي الـذي عنده بشتى الطـرق وفتارة يحاول التماريـن البدنية والأعمـال الشاقة، وأخرى يـزاول الفنون القتالية وفنون الحرب، وأخرى يحاول ذلك بتجرع الأدوية ذات الصبغة الكيميائيـة والوصفـات الطبية والأعشـاب الطبيعية ثم ما وجد طريـق يصل فيه إلى ازديـاد قوته إلا سعى فيه وحاوله. وكان من أهم الطرق التي وجدها في ذلك، هو العلم فأخذ يتعلمه ويتقنه ويحاوله، فيجرب تارة فيفشل، فيعيد أخرى فينجح فثقلت خبراته وتجاربـه بالفشـل والنجاح، أخـذ يدرس الأشياء ليعـرف أثرها، وكيفيـة عملها، أخذ يقتحـم عالمـه المجهول بكل قوة آخذة في توسيع رقعته، ليعلـم.. فاليوم من تَعَلَم هو من امتلـك القوة . العلـم هو أساس القوة الحقيقية فانظر أي مجال تريده، لن تجد سبيلًا لوصولـك إلا العلم، فهو قائدك وهاديك لأن العلم يوضح لك الدروب المخفية وينير لك الطرق المظلمة، ويزيد لك ما لم تكن تقدر على الحفاظ عليه، ويمنع فساد ما كان يتلف منـك، فالعلم فـروع وأنواع وتخصصات، كل منها يهـدي إلى طريق. وهكذا كلما شعر بالضعـف، لجأ إليه، لأنــه القوة الحقيقة، أو إلى أهله مستعينًـا بهم على قضاء شئونه

كلمـا تعلـم الإنسان شعر بمزيد من القـوة، بمزيدا من السيطـرة والأحكام على نفسه أولًا فهمـا واستيعابا وتحليلا، وعلى غيرة معرفة وإدراك، وعلى بيئته تحكما وسيطرة. القـوة في كل شيء أساسها العلم، فما من طريق إلا وهو أساسه ومهده. إلى آخرة حتى لا ينحنـي بنـا الكلام إلى موضوع العلـم بذاته وما أردت إثباته هنـا. أن العلم كان هو طريق النور والمعرفة، في إزالة الجهل والظُلم، التي هي منبع الضعف وهل هناك ضعف أشـد من الجهل، أو إحـلاكا وتخبطا أعمى من الظلمة. فكفـى بهما ضعفًا الضعف في شكلـه الظاهري، يمثل عدم القدرة أو الإرادة على فعل شيء ما. وهذا يظهر في شكلين ينـدرج تحتهما أنواع متعـددة، ضعف طبيعي، من حيث الهيئة التي خلق عليها، وضعف معنـوي مـن حيث الصفات التي اتصـف بها لننظر الآن الإنسان، هـذا الخلق العظيم للـرب تبارك وتعالى، لنضعه في ميزان القـوة والضعف على عدة مراحل، مراعين لكل مرحلة اختلاف طبيعتها ففي بداية نشأته الأولى، خلق من ضعف وسبحانه تعالى حيث يقول "الله الذي خلقكم من ضعف"

الضعـف مـن الناحيـة الطبيعيـة، الجنـس البشري، بـل والأجناس الأخرى من الكائنـات لا تخلـو من هذا الضعـف فالإنسان ضعيـف في جِبلته، هيئتـه، محدوديته، قدرتـه، إمكانياته، عقله واستجابته. كأنه ضعف على ضعف بل هو كذلك فلننظر شيئًا من ذلك بتأمل.

مـن حيث محدوديتـه، فحدث ولا حرج، وأن أدرت استقصـاء هذه النقطة وحدها لأفردت لها كتابا منفصلا المحدودية في النشأة الأولى، من حيث تجمعه في الرحم من صلـب الرجـل، ليخلق مراحل عدة، وهو في كل مرحلة يتقلب مـن شكل إلى شكل، ومن هيئـة إلى أخـرى، فكانت هذه بيئته الأولى، بعد أن كان متحـركا في صلب أبيه ثم أنشأ خلقـا آخـر، فخرج طفلا متكامل الجسد من أضعف مـا يكون، فهو في تلك المرحلة من الضعـف مجسدا بذاته في هيئة هـذا الطفل الصغير، لينمو ويكبر معتمدا على الطعام

والشـراب، وهـل هناك دليـل أوضح على الضعف مـن احتياجه وعـوزه، احتياجه إلى الهـواء، الـذي لولاه لمات خنقا واحتياجه إلى الطعام، الـذي لولاه لمات جوعا. احتياجه إلى الشـراب، الذي لـولاه لمات ظمأ وذلك هو دائم الاحتيـاج الظاهر لتمام حياته. ثم لـو اختـل شيء في داخل جسده أو تعطل أو فسـد أو قل عن حده الطبيعي أو زاد لضعف أشد الضعف، ولتهالك على نفسه، ولرأيت فيه من مضعفات ضعفه شيئًا كثيرًا، وذلك في تقليـل القدرة التـي هي في أصلها محدودة فضعفه الجسـدي يورثه الوهن والعجز، وهـو لا حيلـة له به، إذ تلك في طبيعة نشأته. ثم انظـر إلى الضعف في أوجه ضعفه، في ضعـف تلـك المحدودية نفسهـا فنظره أولًا محـدود، لا يرى كل شـيء ولا يبصره، وهو مقيد بذلك بعين الباصرة التي تعكس الضوء مظهرة الصورة بالألوان في عدسة العين، فيبصـر لها طول موجي معين من الضوء تقبله لـو زاد لهلكت فيصدر المخ ويتفاعل مع العـين في ذلـك، ثم هي ذاتها لها، قوة معينة وطول محـدود لا ترى بعده. فكيف الحال لـو ضعفت تلك العين، حتى فقدت ضياءها، فكُف ذلك البصر. ثم انظر محدوديته في سمعـه، وتقيده في ذلك بتردد معين لا يزيد عنه ولايقـل حتى يستطيع العيش في بيئته، فلو قلّ تردد سمعه لسمع حتى حركة الأمعاء في معدته، وحركة النملة على يديه، وحركة هضم الطعام وتدفق الدماء، ولو زاد كذلك. فدنيته محدودة بشكل محدد ثم ما بك لو ضعف هذا السمع حتى الصمم وكذلك نطقه وتحدثه، جعل يكون كذلك بتردد مختلف، وانظـر في هـذا آلية تشكل الصوت عند الإنسان لتدرك شيئًا من ذلك. ولو مضينا على هـذا المنهاج نتحدث لمضت بنا الصفحات ثم لن نتمهـا، إذ يتطلب الأمر في كل واحدة شـرح الطريقـة العلمية ثم بيان المحدودية فيها، ثم بعـد ذلك في نهاية الأمر، بيان أثر هذ المحدودية، الذي هو سؤال هذا الموضوع، أيكون الضعف قوة؟ لكن الآن، لعل النمط بدأ يتضح، من أن كل شيء فيه من حيث أعضائه الداخلية أو الظاهرية، مقيدة بشكل واضـح فمثلا، العينين في الأمام، فلا يبصر الإنسان ما خلفه، ومن هنا تأتي الطعنات والخيانات والغدر إلى آخر ذلك.

ومـن عجيـب هـذا الضعـف، أن الإنسـان كان في جماعة مـع غيره، فـكان ركونه واستقـراره حيـث الناس معه إلى جواره، يأخذون بيـده ويطمئنونه، فيتعايش معهم ثم جعلـه يركن كذلك إلى زوجـه، وجعل بينهم مودة ورحمة، فعلـق محبتها في قلبه، فهي فطريـة يميل إليها بطبيعته . ثم قـرب أحدهما من الآخر غاية القرب حتى وصف هذا القرب في أقصاه بما يستر الإنسان ويصون جسده من الانكشاف فقال تعال "هن لباس لكـم وأنتم لباسـ لهن" فكلاهما قريب مـن صاحبه، ساتر له، محب لـه . ثم جعل له الولد، فكانت الذرية، ثم الصلات من صلة القربي والأخوة والصداقة والمحبة. وهكذا، وكل ذلـك في حقيقته من الضعف والوهن فهـو في نفسه ضعف، ومورث للضعف إذ كل ذلك شكل من أشكال الاحتياج، أو الطلب، ناهيك عن الضعف النفسي أو العقلي خوف فقد هؤلاء بعضًا أو جميعًا.

وكان مـا سبـق بيانا للضعـف البدني، وتتمة لـه، بيان حاله حال ظهـور الأمراض والعلل عليه.

واحتياجـه إلى الدواء يتناوله، ليصلح ما فسد في جسده فيركن إلى الراحة لينام، وإذا كان حقًـا قويًـا، فليواصل أيامه ولياليه . إني أرى النـوم، من أشد مرحل الضعف الإنسـاني، إذا فيه تخور قوته تمامًـا ليعود صامتا، ليغفل عن كل شيء، فلا يعمل شيء كأنه يضيع أوقاته بنفسه، وأعماله بإرادته، فقط لينام ويرتاح وتلك جِبلة فيه لا ملومة عليـه فيهـا، ولكنها توضح ضعفـه بشكل صارخ، فتجـد من تشدد عزيمتـه، يقل نومه ليسهر الليالي الطوال، ويواصل الليل بالنهار فلاينام في ذلك إلا سويعات قليلة متمثلا في ذلك قول القائل:

مـا أطـال النـوم عمـرا   ولا قصر في الإعمار طول السهر

نعـم، أعلـم مجادلتـك في إرادة بيانك أن قلـة النوم تعدم الكفـاءة، وتجعلك غير منتبـه، فتفقدك تركيزك، وتضعف جسدك مع طول وإدمان السهر وهذا بيت القصيد

الـذي يوضـح ضعفك حقـا. ثم انظر إلى هروبـك إلى المسكنات والمهدئـات حال آلام والأوجـاع ولو مضينا نثبت في مفارقات هذا الجسـد لطال بنا المقام، ولكن يكفيك من الزاد ما بلغك المحل.

ثـم انظـر إلى ضعفه الداخلي مـن أجهزة حيوية ركبت بشكل معـين، لأداء وظيفة معينـة مستعملة في موصلات حسية وعصبيـة وكهربية، في حالة من التعقيد الداخلي، وهذه أيضًا قصة أخرى، في كيفية تغذيتك بالطعام والشراب وتغيره بكل معنى التغيير في داخلـك، ومـا يصيبـه مـن المراحل المختلفـة، وما يضيـف إليه البدن مـن أخلاط مساعـدة علـى التحلل، ثم موصـل السائل للغـذاء والمحـول للطاقة والطـارد لغازات والجالـب لأخـرى، وتحول هـذا الغاز أصلًا في الجسـد ليكون هو مصـدر قوة، يتحول الـدم مـن ناقـل إلى مدافع ثم موصـل . إن ما بداخـل الإنسان قصص تكفي الوجود لتفيض حكايات وكل هذا منطويا على الضعف من أوجه متعددة وقد ذكرنا ضعفه من حيـث الطبيعة الاجتماعيـة أو الانعزالية. واشتراكه مع غيره واحتكاكه به، إلى آخر كل ذلـك، لظهور مفاهيم، مثل التعـاون والتعاطف والمشاركة، وكل صفـة أو معنى احتواء جمعـا للطرفين تفاعلا سلبًـا أو إيجابًا فأثـر بيئته والناس عليه أيضًـا، وفروق الناس حـول ذلك من حيـث الاختلافات الجغرافية، مـن حيث نطاقات مناخيـة متعددة من أقصى البرودة إلى شدة الحر. والفروق الزمنية، هي تابعة لما قبلها واختلاف العصور والأزمنـة إلى آخر ذلـك ، ثم اختلافات الثقافـة واللغة والعـادات والتقاليد. ثم انظر كذلـك إلى ضعفه العقلي وكان لازمه الأول الجهل ونقيضه العلم وقد تكلمنا عنه قبلا. فانظر إلى إمكانيته المحدودة في الإدراك، فلا يدرك إلا ما يجاوره ويحيط به. وإدراكه تابع لعلمه قوة وضعفا ثم يخالطه الوهم ويعتريه الشك والظن ثم انظر كيفية معالجته للمعلومـات والمعطيات، فمحدوديته في تحديد المداخلات، ثم مرحلة التعامل معها هذه قصة طويلة، يتطلب دراسة المخ تشريحيا بين الفصين الأيمن والأيسر وماهو محدد لكل

منهـا، وكيفية يتفاعل معها المخ من الخلايـا العصبية والإشارة الكهربية الداخلية إلى آخرة وكيفية تحفيزه واستثارته، ومتي يكون التفكير على أضعف حاله أو أشده. ناهيك عـن الذاكـرة العقلية وترديها، واحتمـال الإنسان لخسارتها. فـكأن فقد تجربة حياته كأنـه ولد طفلا صغير، لم يتعرف بعد على الأشيـاء فيطلب منه الاهتمامات بحاجيات هو أصلًا لا يدركها، فيحدث بك من الوجع والألم لدي الضمير الإنساني الشيء الكثير. وهنا يرثى للإنسان ضعفه فلا تقف أمام تلك الحالة إلا بالصمت المطبق الذي لا تريد أن تخبر معه شيئًا، وهي تشابه كذلك حالة الشيخوخة، وغير الكبر. فقد يكبر الإنسان ويطـول عمره وهو مازال ممتـع بصحته وعقله وذاكرته أمَّـا الشيخوخة فقد تكون لها علاقـة مع الذاكرة، من حيث ضعف الخلايا المسئولة عن ذلك مع تقدم العمر. ناهيك عما قد يصيب المرء من الخرف وعدم القدرة على التفكير العقلاني أو حساب المسائل الرياضيـة البسيطة إلى آخر ذلك وغيره، مما قد يحـدث للمرء من الأمراض العقلية كالجنون أو الانفصام وغيرهما. وإذا أتممنا ذلك لطال بنا المقام.

ثـم لـك أن تنظر في قدرته العاطفيـة، وقبلها مقدرته الإدراكيـة، فإدراكه مشوش بعوامـل عدة مادية طاغية وأعراف سائرة. وقـد يكون لأسباب مرضية، مثل ضعف في بعض الخلايا المـخ . بالإضافة إلى تراجع عمل الذاكرة، مـع ضعف الغدد في إفرازها لهرمونات أو قلتها مما يعود سلبًا ممثلا في عدم قيام المؤَثر عليه بنفس النشاط السابق، فينتـج نوعًا من الخلـل والضعف . ناهيك عـن أن قدرته الإدراكيـة مبنية على ملكات وقـدرات أخرى، فـإذا أصابها هي الأخرى شـيء من الضعف عـاد عليها هي الأخرى ثـم أن الإدراك الاكتسابـي، الـذي يتزايد لدى المـرء بفعل التعلم والمعرفـة والتجارب ونحوهما، قد يقل فيكون أثر ذلك على النفس سيئًا ولو ناقشنا ضعفه العاطفي، لكانت تلك الفاجعة الكبرى، إذ الضعف فيها بيِّن لا يحتاج إلى حديث. من حيث تأثره بكل ما حولـه سلبًا أو إيجابا، من حيث بكاء عينـه وانقباض قلبه ورعشة فؤاده انظر إليه حال

فرحه وسعادته، كأنه ملك الدنيا وما هو بالمالك وانظر إليه حال حزنه وألمه تشفق عليه وترثيه، فتسكنه كلمة، ولو كانت كاذبة لاغية هكذا الإنسان إن شعر بالامتلاء ظن أنه ملء الدنيا ولا نظير له، وإن حدث له خواء تهالك على نفسه وبكاها، وأيقن أنه هالك لا محالة إذا أصابته التعاسة والحزن، ووقع في ضيق وكرب، أيقن أنه من أتعس الناس إن لم يكن أتعسهم وأشقاهم فإذا عاد إليه هدوءه تمالك، و فرح وابتهج، ثم جدته كان لم يكن به سوء أو حزن. تلك طبيعته، وهذا حاله، أنه يختزل الشعور الجمعي في عاطفة نفسه الفردية، إذا مرض أراد الكل معه، وإذا فرح أراد أن يشاركوه وأن يفرحوا لفرحه وسروره. إنه جعل الدنيا بما فيها مصورة في نفسه هو، إذا كان حزينا فالدنيا تحزن له وتلبس ثياب الحداد، وإذا فرح فالدنيا تغني وترقص طربا وسعادة، إنه يرى الدنيا فيه هو وحده. وتحدث القرآن الكريم عن تلك الحقيقة النفسية العاطفية في جِبلة الإنسان، ثم ذكر الحالة الوحيدة التي تجعل الإنسان يفارق ما سبق، ويكون واعيا مدركا فاهما على الحقيقة، فيثبت أولًا تلك الحقيقة وهي فرحه بالإعطاء وحزنه للمنع.

قال تعالى "ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه أنه ليئوس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني أنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير"

وقوله تعالى "وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا"

وقوله سبحانه "وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض"

وقوله جل ذكره "إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، إلا لمصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون"

تجد الإنسان هكذا أهوج يئوس من شدة اليأس إذا أصابه الحزن، والقنوط، لا يأمل الرحمة ولا يظن الخير، به من السلبية والتفاؤل ما قد يجعله يقلب خير الأمور

شـرا، وأحسنها إلى أسوئها، وأجملها إلى أقبحها . مبالغته وتضخيمه للأحداث شديد مجـاوز حدود المنطق والعقل . وهـو هلوع، لا يطمئن إلا إذا ما وجد ما يريده تحته يده. فعلمـه ذلك الحرص والطمع ثـم الغرور ونبت الحقد والحسـد وشاعت هذه الصفات . وقـد تكلمنـا عنها سابقًـا غير أن تلك هي طبيعتـه، إلا حالات ذكرهـا القرآن تسموا على تلك الطبيعة وتعلوا بالعقل والحكمة والمعرفة، ولن نفصلهم أو نتناولهم بالإسهاب والتفصيـل، بـل نذكرهم هكذا بمـرور سريع. ذكر القرآن من هـذه الصفات الصبر، وهـو جامـع الفضائل المانع مـن الشرور والوساوس، الهادي إلى الخيـر ثم ذكر عمل الصالحـات، وهو اسم عـام يندرج تحته مـن أفراد الصالحـات مالايحصى، وخص هنـا العمل، لامجـرد القول وفقط . فكل ما كان إلى الله تعـالى قربى، وكان مما يحبه ويرضـاه، لا ممـا يرغب عنه ويأباه. لذلـك شرط للعمل كونه صالحـا ، بأن يكون نفس العمـل طيبا جميلا ينفع الناس ويعينهم، ويكون مقبولا عند الله . إذا لا فائدة من كون العمل ينفع الناس بالضرر في تحقيق الرغبة المذمومة وهم يقبلون عليه، وهذا الصنف من الناس ليسوا في سياق الآيات . ثم بعد ذلك يكون خالصا لله وحده، مصنوعا لأجل إرضائـه، لبلوغ منزلة محبته. ثـم لا يكون مبتدعا فيه من تلقـاء نفسه، فيستحسن ما قبحه الله تعالى أو رسوله. ولاشك أن عملا حاله هكذا باطل مردود عليه، لا يرفع قِبل السماء، بل يرد إلي الأرض. إذ حمل من أسباب التعلق بمن في الأرض فرد عليه، وعلي مـن تعلق بـه من شخص أو شيء وكيـف يرفع إلى علو ويخترق الحجـب للرب العظيم تبـارك اسمه، وهو أصـلًا لم يصنع له مبتدئا ومنتهيًا، فلم تكـن به من عوامل الرفعة والعلـو ما يرتقي به إلى أبواب السمـاء فتفتح لصنيعه وعمله . قال تعالي " إليه يصعد الكلـم الطيـب والعمـل الصالح يرفعـه " . ثم ذكر بعـد ذلك قائمة مـن الأعمال تبلغ العبـد تلك المنزلة وذكر أولهـا الذين هم متصل برهم فهم دائمـون على صلاتهم، لا ينقطعـون عنها فجزاهم بهذا التقديم لأمره علـى جميع الأمر والتعظيم لشأنه بإجابة

الدعـوة والنداء، لأنهم دائمًا في لقاء مع الله في اليوم أكثر من مرة يناشدونه ويدعونه ويسألونـه، في اتصال روحي وصلـة تعبدية، وكل ذلك وأكثر منه في المحافظة على إقام الصـلاة علـى الوجه الذي يحبـه الله ويرضاه، وباقـي هذه المواضع في سـورة المعارج والمؤمنون في أول كلا السورتين .

الإنسـان هكذا دائمًا يريـد الانتصار لنفسه وهواه، لا يريد أن يخطئ أو يشعر بأنه أخطأ. لا يريد إلا تحقيق غايته وهدفه، ولو وقع فيها من الضرر على الناس ما يقع كأنه يريـد الفجور والعتـو والإفساد والإهلاك ، بل هو مريد لذلك محـب له لا رغبة تمتلكه إلا رغبـة ذاته ولو كانت فاسدة منحلة، ولو كانـت ستهلك وتضر، إلا أنه يريد تحقيقها ولـو فيها موت بعض البشر قال تعالى "بل يريـد الإنسان ليفجر أمامه، يسأل أيان يوم القيامـة" . فهو حتى يريد الفجـور فيما يستقبل من الزمن، فيخطط له، ويأتيه بداعي نفسه وهو قاصد له مريد . وإن أدّاه ذلك إلى الظلم والقتل والنهب والاعتداء إنه يحب الحـب لنفسـه، لا لغيره إلا بهوي مطاع ، كأنه لا يـرى في الوجود إلا نفسه هو لا مراعاة للناس ولا لحقوقهم، ولا لمشاعرهم ولمَ يفعل أصـلا؟ إذ هو يراهم أقل منه في المنزلة والمكانـة، إنـه –ياصديقي– بكل بساطة يحتقرهم . ثم انظـر لهذا الظن الآخر، إنه لا يرى القصاص إلا له، ولا يرى العدل، إلا لجانبه، ولا يعرف الظلم، إلا إذا اعتدى عليه. أمَّا ظن ذلك المخدوع أن هناك يوم يدعى "يوم القيامة" يوم قيامته من موته فيقف بين يـدي الله تعالى للمحاسبة، هل هذا اليوم في ظنـه، حينما يظلم الناس ويعتدي عليهم ويأخـذ حقوقهم أين استعـداده للقاء، بل هل هو أصلًا في تفكـيره! بل أنه حينما يُذكر به، تجده يقول أيااااان يوم القيامة، أين هو مما نحن فيه، إنه بعيد لم يحن وقته. وقد يكـون المعنى استنكارا له، ويكأن يقول تهكما مستهزئا "أين هو هذا اليوم؟" إنه لا يراه الشاهـد من ذلك، حتى لا أبحـر بعيدا أن الأصل في الإنسان الضعف، بوجه عام يظهر في جميع مناحيه وأحواله، ولو مضينا نسهب في بيان ذلك لن ننتهي.

الأصل في الإنسان الضعف، فهو معرض للإيذاء بسهولة بطرق متعددة، بل قد يفارق الحياة لسبب بسيط لا يستطع له حلا أو لا يجد له شفاء، أو لا يتوفر له في وقته الحالي دواء له. هو كثير الحذر، دائم الخوف، ما أن ينتهي نوع خوف ليبدأ الآخر، بل قد يشاركهم جميعًا أو بعضًا في حالات كثيرة من حياته. محدود بطاقة وقوة وقدرة، مقيد بهيئة مخصوصة وفترة زمان معينه، بل هو بعد يشهد بالضعف على نفسه من أوجه لا تحصى، بل هو تصوير للضعف بحد ذاته، خِلقته ضعيفة محدودة مقيدة. لكن هذه الطبيعة الضعيفة شُكلت هكذا لتمام الحكمة فحكمها كثيرة وآياتها في الاستدلال على إعجاز بارئها حين صورها كذلك ما لا يحصى ولكني سأتعرض لبعض قليل فقط منه، المشاكلة. فالله تعالى خلق هذه الطبيعة بحكمة متناهية وبدقة هي الغاية في الإتقان فتجد التناسق فيها واضح بين غير أنها لم تخلق للبقاء، فضمت في بقاءها عوامل نهايتها وأسباب فنائها فهي مصورة ظاهرا في الوجود، يأكل فيها الموت بنابه . ثم انظر الإنسان، جاء به وأسكنه الأرض أجلا معلوما ومستقرا مرتحلا، فجعل فيه ما في طبيعة ما هو علية؛ إذ لم تكن الأرض موطنه الأخيرة، فكيف يحوي القوة الكاملة والتامة، فناسب ضعفه ضعفها وشاكلها من حيث خلق من ماء مهين إلى ارتداده في منحني سفول إلى الموت والفناء فناسب ما فيهامن الضعف . ثم انظر إلى حال الهيئات في الآخرة باشتدادها وعظمها طولا وعرضا وشبابا وصحة في الجنان، فيكونوا في حال عظيم مبارك، ولما كانت الجنة دار بقاء وأبدية، ناسبها عظم حال أصحابها وتمامه، ثم ينتفي عنهم جميع أحوال الضعف والعلل والوهن، لمناسبة الخلود في الآخرة . وهذا على الاختصار الشديد مناسبة للضعف في الإنسان والدنيا وكل ما فيها لتقلبها وأنها منقلبة للفناء، عكس ما في الآخرة فإن ما فيها معدٌ للبقاء والخلود.

هل الضعف الذي عليه الإنسان، وأقصد به الضعف الجبلي لا الاكتسابي، الذي ركبت عليه في خلقته الأولى، يعد مظهرا للقوة فيزداد به قوة وبأسا؟ حقيقة الضعف

في الحيـاة والتقلب فيها لأحوال متغـيرة، من تمام الحكمة ثم كيف ترى الضعف إلا في حـال القـوة، وكيف تظهر القوة إلا في وجود الضعف فهذا يقـع بالمقارنة والنسبة، وهي توضـح حقيقة المعنـى. إذ أن الضعف كلمـة حمالة لكثير أوجه، فهـي نسبية المعنى في سيـاق الحديـث المتصل بها فقد يكون معنى الضعف في سيـاق معين، هو القوة بذاتها. بـل أن تشاهد ذلـك في واقع الحياة فالدموع مثـلاً تشكل حالة مـن الضعف البين، إلا أنهـا قوة تدفع بالمـرء ورحمة تنزل خيرًا وبركـة على سحائب القلـب . فالفعل الواحد قـد يكون له من أوجه الحكمة الكثـير، فيتضح جزء منه عند إعمال المرء نظره وفكره. وتبقى في ذلك الحكمة البالغة لله رب العالمين . فلو أتيت صفات الضعف لدى الإنسان، ثـم وضعتهـا في موازين القوة، وجدت الضعـف، يقود إلى القوة بوجـه من الوجوه، ثم هـو مبتـدأ القوة ذاتها وذلـك لأن الإنسان متقلـب الأطوار والأحـوال، لا ثبوت له على حـال واحدة، بل في ثبوته وبقاءه من الضـرر والإهلاك له مالا يخفى فلذلك صرف في الأحوال ، ثم ليجد طعما لتلك الصفات ، لابد وأن يمر على صفات الضعف ، وهذا أمر لازم. بـل لزومه يتضـح غاية الوضوح في الدار الآخرة، حينما يمـر المؤمنون على النار فيرونهـا، وكفـي برؤية النار عذابا. ومن حكم ذلك، أن يعلمـوا الفضل الباذخ في عدم إدخالهم إياها وقذفهم فيها، فيكون الفوز بالنسبة لهم فقط متمثلا في النجاة من النار . وانظر إلى قوله تعالى "فمن زحزح عن النار"، يعني أنه اقترب منها غاية القرب، ثم دفع بعيدا عنها، وتصوير الابتعاد بالبطيء والثقل واضح يعني من فقط نجي من النار بالابتعـاد ولو يسيرا فقد فاز. ثم إن عرض المؤمنين للنار يوم القيامة حيث يقول تعالى "وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيهـا جثيا" فالورد لها لا قصدا للعذاب، بل لبيان فضل الرب تبارك وتعالى في تنيجته للعبد من النار، فلما يري الجنة يعظم وقع رؤيتها لها، إذ كان رجاءه الأول فقط الابتعاد والهـروب، فلما نجي حمد وشكر، فظن أنه ليس على هذا مزيدا فلما رأى الجنة ابتهج

ابتهاجا لا أقدر على وصفه، وفرح فرحا لا حدود له . فيكون أصل الشيء في بيان أثر ما بعده، فيُقلب الرائي في المعان المختلفة بدرجات متفاوتة بناءً على التأثر بالضعف الأول فكلما اشتدَّ جوعه، اشتدَّ تذوقه للعام ، فرأى فيه النعمة التامة والفضل العظيم، وعلي هذا ـ رحمني الله وإياك ـ قس، تصل إلى أمثلة ومدلولات لا تكاد تنتهي .

ليس لازم الرحمة أن تكون متكاملة في شيء ما، فهي متجزئة بقدرها أقساما كثيرة تبعًا لكل شخص في جبلته الأولى، ثم في ظهورها منه أو إبدائه وممارسته لها حال الأحوال المختلفة. فمن تراه عاتيا قاسيا، لابد أن تكون الرحمة فيه مبطنة دخليه، لا تكاد تلمح من النظر الأول . ثم اعلم أن الدنيا ليس فيها خير محض إلا في عبادة الله، فهي الخير كله . غير أنك لا تجدها متجسدة أمامك في هيئة ظاهرة من إنسان أو جان، إلا الملائكة. فالإنسان.. فإن أفجر قلب فيه ملازم للشر والسوء، إلا أنك لابد أن ترى جانبا من الخير والنور في باطنه، مصدر أصيل غطي بالشوائب والبلايا إلا أنه موجود. والحكيم والفطن هو الذي يعلم كيفية الوصول إليه. لذلك كان بمخاطبة بالرفق والإحسان والتودد إليه بالمعروف والبر وإن أشد الناس ضراوة وقسوة به من ملامح القوة ما طغى عليه، إلا أنه يحوي جزء من الرحمة في باطنه شعلة لا تطفأ . دائمًا جانبا الخير والشر في الإنسان يتصارعان، ميز لا للقوة والفهم والبيان ليختار أحدهما ويقدمه على الآخر ولكل اختيار جزاؤه وثوابه. انظر الفقر في خشونته وصلابته وسوء أثره وبشاعة منظرة، حتى لو مثل ظاهرا لجمع من القبح مالا يجمعه غيره، ولو جسد هيئة بينة لعجل بإزهاق روحه فكيف لو اجتمع معه اليتم، في فقد لأب أو أم أو كلاهما على تغليب لفظ اليتم فكان يتيما بفقد أباه، أو عجيّ بفقد أمه، أو لطيما بفقد كليهما . ثم ضم إلى ذلك الفقر وقلة الحيلة، فكأنك تتأسف له بكل شيء في الوجود من عين ترى الأشياء غير ماهي، فدمعة يرسلها حين ألمه، وزفرة يصعِّدها حين عجزه، يطول النهار عليه كأنه لا يمر. ويتسرب الليل قطعة قطعة بل كأنه كما يقول إمرؤ القيس:

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بذل
تشابه الليل والنهار في ناظره فكلاهما طويل كما قال أيضًا
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح والإصباح منك بأمثل

والله حينما يصنع ذلك يقلبه في أحوال متعددة. وليبتلي به الناس في صنيعهم وتصرفهم . ثم جعل لذلك الاختبار أجرا عظيما وهو الجنة، أو النار كل على حسب صنيعه. وتعليل هذا الفعل يطول كثيرًا فأكتفي بإيراد هذا هنا. فالحكمة من الضعف عامة هي تقوية الإنسان داخليا، بإزالة مشاعر السلب والوهن عنه، وذلك لا يكون إلا بالاختبار، وثمنه الألم حتم لازم . ثم ليرفعه إلى منازل عالية من الأجر، فليس البلاء هذا عبثا. كل فعل يصنعه تعالى له حكمة عظيمة، وانظر إلى صنيع الخضر مع موسى من خرقه للسفينة وقتله للغلام وهدمه للجدار، وما احتوى ذلك على كثير من المصالح والفوائد. أو حال المرأة المشتكية لداود عليه السلام. أو حال سؤال نبي من بني إسرائيل تفسيرا لما قد يراه أمامه عينه ظلم. فبين الله تعالى له الأمر . والمقام ليس مقام إيراد القصص هنا، ولكنه لبيان الحكمة فقط .

ويحدث هذا عندما يرتقي الإنسان عن عالم المديات الحسية، وإبداء الأسباب بمجرد النظر القاصر، الذي لا يعلم ما وراء الأفق، فيعلل الأشياء بظواهرها المادية فقط، متناسيا أن طبيعة حدوث الأشياء في الدنيا لها قوانينها الخاصة. ففي كل شيء عبرة وآية وحكمة.

ليس عدم فهمك أو استيعابك أوقصر نظرك، أو بكل بساطة لعدم وجود تعليل أو سبب مباشر للفعل، لا ينفي وجود الحكمة ولا يبطل السبب.

✍ وكما قال أبو العلاء:

والنجم تستصغر الابصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر.

أو قول المتنبي:

وكم من عائب قولا صحيحا   وآفتـه من الفهم السقيم
ولكـن تأخـذ الآذان منـه   على قدر القرائح والعلوم

ويظهر مما سبق أن الضعف ليس كما يوحي منه ، ولكنه كما قلنا يظهر في المقارنة . فتفاوت الناس قوة وضعفا لمقارنة بعضهم ببعض وإلا لم يصبح هناك فرقا أو مفهوم للضعـف أصـلا . فأوجـده التنوع والاختلاف . وكيـف الحال لو كان النـاس قوة واحدة وشكلا واحدا وهيئة واحدة، كيف يظهر الضعف إذ كلهم متساويين، لذا قضت الحكمة أن يتغاير هذا التساوي بأوجه متنوعة، وأحوال متضاربة، ليشكل في نهاية الأمر التكامل والتعايـش . إن الضعـف؛ كحالة يتقلب فيها الإنسان منهـا لعكسها ، تعد طبيعة بشرية متأصلـة فيه، فلا فرار له منهـا . والضعف هنا ليس مرذولا أو متقبحا أو سيئا، بل هو في الحقيقة المرادف للإنسان . لذلك يقول تعالى له "أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفـع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخـرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها"

فالإنسان ضعيف حسبما وجـدت الجهة المقابلة المقارنة معه ، فالإنسان للإنسان، قـد يكون قويـا بدنيا، فكريا، اقتصاديا. فحينما ينتسـب الناس بعضهم لبعض، تظهر معـالم القوة والسطوة والشدة، لتفاوت مـا بينهم. ومجمل الأمر حتى لا نطيل أكثر من ذلـك، وإن كان الأمـر يحتـاج إلى مزيد توضيـح. أن الضعف في الإنسـان مظهر عام، يتضـح أثره في ظاهره وباطنه، في كل أمره معاني الضعف والوهن ومظاهرها وصورها وأنماطها أكثر من تحصي . ونعم، قد ينطوي الضعف أحيانًا على مظهر القوة والإرادة، لا في الضعف ذاته مصورا، بل في آثاره التي ينتج عنه.

شيئًا من الكذب وكثيرا من الانتظار

هـل قـول الحقيقة مؤلم وقول الكذب مطمئن مريح، فـإذا ما قصدت إظهار الأمر علـى ما هو عليه، وجـدت أن كلاهما مؤلم، ولكن الأول يـؤلم في ساعته وحينه غير أنه يبعـث على التغيير إلى الأفضـل وتوصيف الأمر على حقيقة ما هـو عليه، فيؤتي بذلك مـن الخير ما لا يحصى في مجالات الحياة. وأما الآخر فهو مهدئ في ساعته، غير أنه مخـبر بما لا يطابق الواقع، عاكـس للأمر على غير ما كان أو وضع له. كأن ناقله عنده هلاوسـ سمعية وبصرية وتخيلات غير حقيقيـة فهو يخبر منها وعنها، ويُحمل النفس فيهـا أوزارا، وتحريفـات من سُبة الخـداع والمراوغة حتى تعتاد ذلـك وتألفه، فيصير طبع فيها وعادة ثانية، حتى يأتيه طبعًا من غير تكلف، ويمارسه كأنه لا شيء، فيختفي ذلـك النوع مـن تأنيب الذات، ويخفت صـوت الضمير حتى يتلاشـى فيرقد ساكنا ثم يظهر عاقبته بعده بفترة قلت أو كثرت، ويبين أمله فيما أفسد وأهلك، فيسفِرُ عن وجهه قبيحـا ذا دناءة فأثـره لا ينمحي أبدًا، فلابـد وأن تجد له عاقبـة. لذلك تجد العقلاء ينفـرون منه ومـن شره، ولا يعتمـدون قول صاحبـه، فهو عندهم غـير مؤتمن، وكيف يؤتمـن على الكلمة إذا أخلف بها وغدر بمعناهـا، وزورا فيها. بل ما الفرق بين التزوير باللفـظ والتزوير بالكتابة . أليس كله كذب وفيه اعتداء على الحقيقة وأصحابها. وفيه نصـر للباطـل بجماعته، وتغليب لـه على أهل الحق والصدق ، فلـم اعتبر الأول جرما مشهـودا، والثاني نجـا من العقاب وفلت مـن المساءلة . أليس في هـذا نوع من مجارة الكـذب أصلا. ثم إذا كان كلاهما مؤلم، فتجد النـاظـر فيهما أنه شتان ما بين الألمين، فـإن ألم الحقيقـة فيه فضيلة للنفوس الطيبة الخيرة، التي تحـب الصدق وأهله، وفيه أن هـذا الألم بـه صلاح النفس وقوامهـا واعتدالها. وأما الآخر فهـو ألم رذيلة وسيئة،

تفر منه الفطر السليمة لرائحته الكريهة، لأنه مكروب يُعدي فينتشر على أرضه نفسه فيهلكه. به تتدنى النفس إلى أسفل دركات الشر والخداع. فالعاقل هو الذي يهرب من فضيحة الكذب إلى فضيلة الصدق، لذلك تجد الشرائع السماوية بل والعقلاء قاطبة على بغضه ومعاداته، لعظم خطره وفساد ضرره إذا شاع في المجتمعات تفشي ظهوره، فهو آذان بخراب العمران، لنشره أكثر البلايا والمكروهات.

وليس الكذب كما هو متبادر إلى الذهن فقط "كذب القول واللسان" ولكنه يتخطى حدود ذلك إلى أنواع كثيرة، ككذب القلب، وكذب الجوارح، وكذب الظن، وكذب الإرادة، وكذب الإحسان والفضل، وكذب الباطن، ومنه النفاق والرياء وحب السمعة إلى آخره . حتى تصل بك إلى كذب الصدق، فيصدقك في أمر ليكذبك في آخر، فيحكي لك جزءا من الصدق الذي لا ضرر به، ويخفي عنك باقي الصدق - فذاك كذب آخر- فهو وإن صدق في بعضه إلا أنه كذب في إظهار الأمر على ماهيته الحقيقية بوضوح كامل . والكذب كما هو معلوم الأخبار بخلاف الواقع، فكأنه يغفل الأمر إلى أمر آخر فيوكله إليه، فيخالف الواقع في جزء من الحقيقة، فهذا كذب. حتى يصل إلى حد الافتراء، فيأتي بعض الصدق ثم يضخمه، ويخرجه عن حجمه فيخالف به ظاهر الأمر المطلوب، الذي يتم به المعنى، فهذا أيضًا إن احتوى على بعض الصدق إلا أنه كذب بل دعني أقول كقاعدة عامة:. كل ما أخبر به بخلاف ما هو واقع، فهو كذب. أي بخلاف تمام الواقع الحقيقي ، فلا ينقله مشوها ، أو مجتزئا مقتطعًا منه بعضه، أو محرفا عن معناه، أو ينقله بشكل يوهم -قاصدا- للسامع خلافه، أو يخرجه من الحقيقة إلى المجاز والعكس، أو يبدل ألفاظه راميا إلى تغيير معانيه، أو ينقله على غير وجهه أن يقوله هادئا طيبا فيغير الآخر من نغمات الحديث لاويا الكلام عن معناه، فينقل اللفظ محرفا المعنى. فكل ما خالف الواقع بوجه من الوجوه، وهي كثيرة متعددة. فهو كذب. حتى إنك لتخرج من الكذب جميع الصفات المذمومة ، والنعوت المكذوبة

،والسرائـر المطموسة الملتوية، فما الكذب إلا طريق الالتواء والاعوجاج، وفيه لوى لعنق الحق والحقيقة، وكسر ساقها. وفي الحديث الصحيح عن أبي أمامة قال قال رسول الله "يطبـع المؤمـن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب" . ثم جعل الكذب من علامات النفاق والخداع واختـلاف الظاهر عن الباطن، ثم جعلهم في خداعهم هذا مخادعين لأنفسـم قبل أن يخدعـوا غيرهم، إذ ألزموها الكذب وطبعوهـا عليه، ثم حببت لذلك نفوسهـم وقلوبهـم، ثم رأوه أمـر هينا يخرجون به من أي شيء يقـف أمامهم أصابهم أمـر ما، فيكذبون. إذا فزعوا في حادثة ولا يجدون خلاصا منها، يكذبون. وجدوا أنهم لا حيلـة لهم ولاشيء ينصرهـم في أمر ما، يكذبون. حتى طبعـوا على الكذب، وعرفوا به في الأرض والسماء فيقال هؤلاء المعتدون، الذين كذبوا أنفسهم وكذبوا النـاس. ومن أخطـر أنواعه، أن يكذب نفسه، فَيَحْيَ على كذب من الحقيقة، وهو يظن وهما أنه على الحـق وتلك مصيبة كبـيرة أن يظن أن معه ناصية الصواب وجمـاع الحق، وهو كذّاب أشـر، من كثرة كذبـه صدقته نفسه، حتى أخذ يدافع عن هـذا الكذب، بيقين أنه على الصـدق والحـق وهذا النوع أتعس الأنـواع وأقبحها، إذ هذا لا حيلـة في تبين الحق له، وكيـف تبين لـه، وهو لا يقبـل إلا منطقة ويقينه المبنـى بالكذب على أنـه صدق فكذّب الحقيقـة بالكذب، ليصدق الكذب، فيصير عنده الكذب صدقا، والصدق كذبا! لذلك يذكـر الله تعالى صنفا مـن هؤلاء، الذين اتبعوا هذا المنطق المعوج والاستنباط الفاسد قال فيهم " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا" .

يذكر تعالى أن هؤلاء هم أخسر النـاس، إذ ليس هناك طريق أدل على الخسارة من هذا الطريق، بأن تكون في ضلال مبين واضح وكذب بَيِنٍ ظاهر، ومع ذلك تظن وتحسب أنك تعمل خيرًا وتؤدي حقا، وهو شر الأنواع، لأنه يرجو فلاحا ويظن ذلك ويوقنه، وهو يعمل فسادا وشرا ثم يعذر نفسه فيه بدواعي وعلل لا تكاد تحصى فيظن بذلك أنه ما

أخطا ولا ارتكب جرما، ثم يؤمل عاقبة حسنة! كيف ، يا ضل ذاك اغترارا؟

كما قال تعالى "فريقا هدي وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون"

وكقوله "و إذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم"

وكقوله " زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين ءامنوا"

وكقوله " أفمن زين له سوء عمله فراءه حسنا"

وكقوله " وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون"

فهو مصدود عن الحق والصواب، متبع الباطل والكذب وهو فيه بكليته، داخل فيه إلى أقصاه، مزين له صواب ما يصنعه بأشخاص أو أشياء يؤيدونه، ثم يظن أنه على الصواب والهداية، وأن فعله هذا من أجل كذا وكذا، وماهو إلا واهم. وذلك من باب غضب الله تعالى وسخطه عليه، إذ ما طهر قلبه مما فيه من الأمراض . كما قال سبحانه " أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم. سمّاعون للكذب أكّلون للسحت" فجعل تعالى هذا من أسباب عدم تطهير قلوبهم؛ لا أقول النطق بالكذب والحديث به ، بل سماع الكذب .. وهذا يدعونا إلى النظر، هل سماع الكذب كالكذب نفسه؟ نقول إن الكذب قبل أن ينطق به اللسان له مراحل يسير فيها، فالإنسان لا يكذب هكذا، إذ الكذب حيلة يجب التفكير فيها، والاستعداد لها. فيكون مبدأ الأمر بالابتعاد عن الصدق ومعادته وكراهة سماعة أو مجالسة أهله، لأن فيه ضرر عليه، إذ يذكره أولًا بفعلته الشنعاء، وبحاله الفاسد، وباستمرار على الشر وثم لمَ يجلب على نفسه كل هذا السخط فيكتفي بإبعاده وإقصاء أهله، حتى لا يكونوا سبب تذكير له، هذا أولا. ثم ينظر إلى طرقه، فيتخير أصدقها في الكذب، مما لن يشك الناس فيه أنه كذبا، فيُحَوِرُ ويحرف ويزيد وينقص،

ثـم يهيـئ النفس التي بين جنبيه على هذا، فيخرجه عـن فطرتها وحد وقارها، فيخلع عنها بنفسه رداء الفضيلة، ويلبسها الخداع والزور، ومازال عليها هكذا حتى تألف هذا الـرداء القبيح، ثم تحبـه، ثم تركن إليه، ثم تعتاده، ثم يصعـب عليها فراقه . فتنقلب طبيعـة القلـب محورة له من أن تسقيه بماء طيب مبارك، إذا به تسقيه بالكذب والغش والمغايـرة، فتمتلأ أرض القلب منه، حتى تصبح بـورا لا تصلح للزرع الطيب، إذ فساد التربة نفسها حال دون إنبات هذه الصفات الطيبة فيها، لأنه حولها وجرفها من قيمها ومبادئها، ثم أبدلهـا قيما أخرى وعادات جديدة، فظل بالقلب حتى استساغها إلى أن لان إليهـا. وهكذا اللسان ظل به حتى استمرئها ونطـق بها، فانطلقت تلك العدوى إلى الجوارح كلها، فأصبح كاذبا كذوبا .

أمَّـا مخالطتـه فإنـه لمّا سمع الكـذب بأذنه فلم ينكـره، ولم يتغير لـه، أخذ القلب يتشرب منه لذلك لا تجالس إلا من أمنت خلقه، وإلا أخذت منه وأنت لا تدري . و كما

✍ قال القائل:

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه | يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب

ومـاذاك إلا أنه يأخذ من طبعه وخلقه وهـو لا يدري، من رؤية فعاله وسماع أقوله، فيعتادهـا، فتصبح من كونها أمر لا يقبل ولا يستساغ عنده، إلى كونها أمر فيه نظر ثم تجـد التحيلات منه تترأ عليـك. وماذاك إلا بعد مخالطة. وأثر المخالطة في هذا قصة أخـرى بحد ذاتها لابد من الانتبـاه لها وعدم إهمالها. وهـي نصحية هامة في التربية وغيرها؛ انتبه ممن تخالط !!

ثـم لو نظرت لتُعدد مـا في فعله من السيئات والمنكرات لظهـر لك عجبا، في نفسه أولًا، ثـم على مخالِطه، ثـم على بيئته، ثم أثر ذلك على العناصر الثلاثة بطول الزمان وامتـداده. وهـذا أمر مهم غايـة في الأهمية ثم مـا يزاوله من الطبـاع تكلفا مع بعض النـاس ويمارس نقيضه مع غيره تميعًا، فهو يقوى على الضعيف ويوهن للقوي . وهو في

كل هـذا يظلم نفسه تبعًا لمصلحته وصـبرا في تحقيق هواه ومأربه. فهو صاحب الوجوه المتعـددة الـذي يقابل كل أحـد بالوجه الذي يجـده مناسبا، فلا قيمة أو مبـدأ أو دين يحكمه، فليس له حاكم إلا مصلحته وهواه، حيثما ولى فهو قبلته.

لذلـك جعل النبي الكذب من علامات النفاق فقـال "آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلـف، وإذا اؤتمن خان". وكأن الخيانة والإخلاف بالوعد وغيرهما، من ثمار الكذب، فإنه لم يخلف العهد إلا لما كذبت نفسه ثم قلبه ثم بعد ذلك لسانه، ثم وافق الجسد كل ذلك فسهل الإخلاف قولًا وفعلا . وكذلك الخيانة، فإن الكذب مادتها، ومنبع نموها ونشأتها ثم قوتها. وكيف يخون إلا بالكذب، وكيف يغدر إلا بالكذب، وكيف يفـتري إلا بالكذب، وكيف يعتدي ويظلم إلا بالكذب. فالكذب هو مادة كل تلك الفعال، فهو الشجرة الخبيثة التي أنتجت هذه الفعال، فهو جامعها لأنه أمها وأبوها، فهو الذي به حياتها وعليه اعتمادها، فلا يتصور لها حياة أو وجودا إلا به .

والله جعـل فاعل الكذب، كأنه إنما يصنـع مؤامرة ويحيك شرا، فيدبر لها خيوطا وأطرافا، يتحكم بها، ثم يتلاعب من خلالها على السامع. فقال سبحانه: "إنما يفتري الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون"

فوصـف الكذب هنا بشيئين. الأول، وهو الافتراء . فصاحبه من المفترين، إذ نسب الشـيء إلى غير محله، فأتى به من الفسـاد شيئًا كبيرا فافترى على نفسه، بأن حملها مالا تطيق بظلمه لها وإفساده لفطرته، ثم اعتدائه على مصالحها الدنيوية، حيث نسب إلى الكـذب ففقد من الخـير والاحترام والتبجيل وغيره أشيـاء أخرى الكثير والكثير. ومصالحهـا الدينية، بأن فقد كثير من الأشياء، فلـن يُصَدّق قوله، ولن يؤتمن جانبه، ولـن تحسب شهادته، فهو ليس من أهل الثقة والعدل الذين نبني ونصدر الأحكام على أقوالهـم، أو نستشهد بشهادتهم. ومصالحها الأخروية، بأن أفقدها من المنازل العالية في الجنـة ما قد يكـون قدّره تعالى له، فحـرم نفسه بصنيعه، فضيـع عليه من الثواب

والأجـر ما قد ترتفع به منزلته يوم القيامة، أو يقلل له من وزره، ثم ضمن ألا يكون من الصادقين، وهو أمر الله تعالى الذي حثه عليه كثيرا. فقال تعالى "ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين" ثم إن الافتراء، فيه من الصفات المرذولة الكيد والمكر والتخطيط المسبق، التزييف والتزوير، وطمس الحقائق. إلى آخره. فالكذب أساس كل بليـة وشـر. والصفة الثانية، أنه بهذا الصنيع فقد نوعًا مـن الإيمان، وارتفع عنه شيئًا منـه، إذ كأنه لم يكن مصدقا الوعد ، مهملا الوعيد، كأنه اتخذه هزوا والله يقول "ولا تتخـذوا آيـات الله هزوا". فكأنـه أهمل كل هذا، وهـو إن لم يقل ذلك بلسانـه، إلا أنه مصدقـه بقلبه. وما فعل الجوارح إلا استجابة لأمر القلب. فهو لمّا استخف بفعل القلب الأول واستهان به، وأدخل عليه من المفاسد ما يقوى به، كان أشد جرأة في الفعل وأقوى في الاعتماد عليه، فخرج الفعل مغذي باشتداد القلب وقسوته، وهكذا الأفعال ما هي إلا حاملة لـرداء من أثواب القلوب لذلك كانت الأفعال في خروجها مارة على القلب، فإما أن يستنكرها أو يقبلها، وليس هناك حال ثالثة.

لذلـك كان الاستمـاع إلى الكـذب، دليل رضا مـن القلب على الكـذب الذي يقال. إذ لـو سخـط القلب لاستنكر وشجب، ولكنـه رضى وأحب، ثم أدمـن الفعل . لذلك لم يقـل يسمعون الكذب لأنهم قـد يسمعون الكذب عرضا، أو يسمعونه وقلوبهم منكرة له، وقـد يسمعونه وهم مجـبرون على سماعه بأي أشـكال الإجبار كانـت، أو يسمعونه ولا ينصرفون حياءً وضعفا فليس كل سماع يصح به النسبة المعتبرة . وإنما السماع الموافق رغبـة في القلـب وهوى في النفـس حتى أعاده المرة تلـو المرة وهو في هـذا قابل له غير منكـر. فالسمـع كذلك ليس مرة واحدة، بـل واحدة تتلوها أخـرى، لذلك عبر بصيغة المبالغة "فعّال" أي تكرار الفعل منهم متجاوزا ومبالغا الحد. لذلك أمر الله تعالى نبيه بالانصـراف حال سماع الاستهزاء لآيات الله، وهذا الانصراف فعل بالجوارح، إلا أنه من إنكار القلب. وهو أشد أنواع القلب إنكارًا فتجده يخاطبه تعالى ويقول له

"وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكري مع القوم الظالمين"

وقوله تعالى"فتول عنهم يوم الداع إلى شيء نكر".

وقوله تعالى "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا"

فكان التولي والإعراض، والتصبر والجلوس والقيام من أعمال الجوارح، إلا أنها مدفوعة بفعل القلب، مارة عليه قبولا أو رفضا. فذلك لأن فعل الظاهر في غالبه مرتبط بالباطن فكأن الظاهر علامة على ما في الباطن، فهو الشيء المخرج لما فيه. ولذلك في الأحكام الشرعية، تعد قرينة يعلق الحكم عليها .. وهذا أصل عظيم تضبط به كثير من الحالات . لأن القلب إمَّا مانع للفعل من الحدوث، أو كاره له، فيكون بالقلب من البغض للفعل ما يمنعه عن الخروج ، وإما مجوز للفعل مبيح له فيكون بذلك اتضح المعنى من أن سماع الكذب مساويا للكذب لا في النطق باللفظ، بل في استساغة ورضى القلب به .

فيتضح بذلك استشناع الكذب وكراهيته لانطماس البصائر به إلى آخر ذلك وهو كثير جدًا . ونقول هنا، إذا كان لكل شيء ألم حتى الصدق والكذب، بل اللذة التي يستمتع بها الإنسان فيها نوع من الألم. وقد تحدثنا قبل عن شيء من فلسفة الألم وقد سرى بنا الكلام في بيان استشناع الكذب واستقباحه، لأن أساس حوارنا مبنى على هذه النقطة، فطال بنا الكلام لامتداد المعنى وتشعبه حولها. والكلام شبكة من المعنى، فإذا رُمت معنى انفتح لك المعنى عن معان متعددة، ليصبح فرع المعني مأصلا لمعني يأتي بعده . وذلك أيضًا لتولد المعاني بعضها من بعض ليس هناك معنى منفصل بذاته عن بقية المعاني، وإنما هي سلسلة واحدة يؤدي بعضها إلى بعض، لذلك غيرت اسم الموضوع إلى "شيئا من الكذب وكثيرا من الانتظار" حيث كان الاسم الأول هو "لا تنتظر أحدا" .

ويبدأ موضوعنا حيث تبدأ قصة الاحتياج، الاحتياج هو أحد القوانين الأساسية خاصة في فهم التعاملات البشرية في أوجه كثيرة وهذا النوع من الاحتياج إذ اجتمع مع غيره من التكوينات الفطرية في طبيعة المرء، ثم إذا زادت عن حدها الطبيعي أورثت خلل ومنه يحدث الخداع؛ خداع نفسه لنفسه، وهو يقوم على عدة عوامل مجتمعة، أولها الاحتياج وقد يأتي مع زيادة في تقدير الوضع بشكل صحيح فيحدث الوهم . فتوهم نفسك بأن هناك أحد قادم لحل جميع مشاكلك، فتنتظر قدومه لكي يتعاطف أولًا معك، ثم يغير لك ما أنت فيه. ما أشد وهمك! فيورثك ذل العجز والوهن أو تظن أن أحد ما سيأتي ليصنع لك أمرك أو يصلح لك حالك، وأن الدنيا ستحلو لك، معلق في هذا الأمر كله عليه، فتظل تنتظر وأنت تتلفت يمنة ويسرة، تترقب خروجه. وتناجيك نفسك بأن قد قرب مطلعه، أو تتخيل أنت ذلك. لا تطل الانتظار، إذا كنت هكذا، فهذا هو الوهم.. حتى قال أحدهم

لا تحك للناس جرحا أنت صاحبه   لا يؤلم الجرح إلا من ألم به

✍ **وقال الشافعي:**

ما حك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك

غير أن شعور الانتظار، هو شعور طفولي في الإنسان، من حيث انتظار المشاركة. فالإنسان كائن اجتماعي عاطفي مشارك. فهو يريد ذلك لظنه أن هذا حقه، وأن هذا الطلب لا نزاع له فيه عليه. فهو حق مشروع، وأمر مقبول. فلذلك يصيبه شيء من الحزن إذا لم يأخذ هذا الحق، والمصيبة في هذا أنه يتمادى بتضييع حقوق أخرى، في سعيه في الأمر الذي يظنه حقا له وهذا فيه وجهين، بين حق وباطل.

شعور الإنسان بالاحتياج شيء فطري، فله احتياجات ضرورية، تتمثل في المأكل والمشرب والمسكن والملبس، وذلك أدنى حقوق الآدمي . ثم يحتاج إلى تحقيق مطالب إنسانيته، مطالب تشتد نفسه طلبا إليها، لا بحكم الضرورة، ولكن بحكم الجبلة

الطبيعية يريد أن يجالس الناس ويحكي لهم عن أحواله، يشاركهم حزنه ، ويشاطرهم فرحه، في شعور أنه موجود حي. يحتاج إلى مبادلة الأحاسيس والمشاعر بأنواعها؛ تارة يريد الحب، وأخرى يرجو المؤازرة، وأحيانا يريد أن يخفف عنه بالتعاطف وعدم الظلم والتحمل منه وعنه، والصبر عليه، والإشفاق به. ثم يريد أن يشعر بتمام المشاركة عند الفرح للابتهاج، والمواساة عند الحزن لتخفيف عنه ما ألم به . لذلك فهو دائمًا يجتمع مع الناس يريد منهم أشياء، ويريد لهم أشياء، دائمًا حاله كذلك. لا يمل من الحديث ولايشبع من الكلام ، يقرب ويباعد، يجافي ويصادق، حتى يتمايز الناس عنده فيصيرون مجموعات مختلفة، وتنقسم بعد ذلك إلى دوائر يصنفها القلب بين من يوالي ويتبرأ . أو يصنفها المجتمع، بين دوائر اجتماعية، قرابة، صداقة، معارف. وهكذا ثم إن احتياجه لكل واحد منهم مفترق عن الآخر، فعندما يبتعد عنه هؤلاء يوجد في نفسه من المعاني ما يقوم مقامهم، فيعقبه اختلال ظاهر في المعاملة. فظاهرة الاحتياج تقوم على القرب والبعد في ناحية من نواحيها، فكلما مثلاً تقرب وكثر ودُّ بعضهم إليه، صار الاحتياج متبادلا أكثر وكلما ازداد البعد كان الاحتياج أضعف، وقد يقوي لكن لقرينة أخرى وسبب خارج عن هذا الأصل فهذا يوجد صور متعددة في المعاملات والصفات.

الاحتياج سنة طبيعية في الإنسان فلولاه لَنَفَضَّ الناس كل في سبيله ودربه وفسدت الحياة وكسد البيع والشراء، ولبطل مفهوم التعايش ولحدث بذلك من الاستعداء والحروب بينهم مالايحصى. فكل منهم في غنى عن الآخر فتجد الإنسان -غالبا- كلما قل احتياجه وكثر غناه وفحشه، طغى وعتى واستكبر إذا هو يرى أنه واحد في نفسه، لا يتقوى بسواد الناس ولاحاجة له بهم كما قال تعالى " كلا أن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى" فما طغي إلا لأنه استغنى، وما تجبر إلا لأنه استكبر . فهو لم يعد في احتياج لأحد، فمعه المال والجاه والسلطة معه ما يكفيه وزيادة فيحدث في نفسه من البعد ما حدث له في الأصل من الاستغناء.

ولما كان هـذا الاحتياج طبيعي كان لا ملومة فيه، ولا يـلام الإنسان فيما لا دخل له بـه، أو كان فيه جبلته وطبعـه متأصلا، وإنما يلام بقدر ما أحدث من الضرر لنفسه أو غيره فمادام هذا الطبع في خاصة نفسه لا يؤذي به أحد، فلا ملومة ولكن مما يجدر به أن يحاول أن يضاد طبعه أن كان سيئًا، وقد تكلمنا عنه سابقا.

دعني الآن نترك الاحتياج نفسه، لننظر صاحبه، المحتاج هذا المتغير الذي لايبقى حالـه علـى أمر واحد لذلـك اختلف احتياجـه في كل مطلب عن الآخـر. كان كل واحد منهـم، عنده من الاحتياج بقدر ماعند من المسألة والضعف. وهكذا حتى يقل احتياجه فهنـاك احتياجات أساسية يحتاجها الناس أجمعـين، وهي ضامنة بقاءهم أحياء على الأرض، فلا يستطيـع أحد أن ينكرها لهم يحتاج إلى الاجتماعيـة أو المخالطة بتكوين أسـرة، وبناء علاقـات، وإنشاء صدقات، فهـو يحتاج أن يكون وسـط الناس لا معزولا عنهـم مبتعـدا منبـوذا، لذلك كان النفـي عن الأرض والأهل نوع من العـذاب، وكان السفـر وفيه كذلـك ترك الأحباب وما ألفـه المرء من كثير أمور فيقـول "السفر قطعة من العذاب"

يحتـاج المـرء إلى الانتماء، وهو مشتق من الأول، أن يكون منتميا إلى شيء ما يعمل مـن أجله، فتصبح عنـد القيم والمبـادئ والقواعد، فيشعر بوجوده فيهـا بوجده وسط بيتـه، يشعر بالطمأنينة، وهو منتمي لدين كريم، ورسـول عظيم، وأمة متقدمة إلى أن يقـل انتمـاءه حتى يصل به إلى أقله ثم يريد أن يشعـر بأنه مقبول، لا مطرود مقرّب لا مبعد يحب أن يكون محبوبا من الناس، مطلوبا من الآخرين، فيحتاج إلى تقديرهم له، لا أن يهملـوه ويبعـدوه، وإن كان أقـل الناس، إلا أنه يحتاج إلى هـذا النوع من التقدير. هـذا التقديـر يشعر به أنه موجود، لا أقـول في قلوب الناس، بل بإعتبـاره قيمة بشرية علـى الأرض، يجب أن ينظـر إليها بنوع من الاحترام، بأنه مخلـوق حي، وليس حشرة نكـرة يحتاج إلى التقديـر بالأقوال والأفعال، بالكلمة المجـردة. يحتاج إلى سماع كلمة

"شكرا" وأن كانت مزورة غير حقيقية . يحتاج إلى الشعور باحترام الناس له. ولذلك تجده صارخًا في محاولته إثبات ذاته، كأنه يقول للناس إنني هاهنا، قيمة حقيقية أعتز بنفسي وبما قدمت وحققت، يريد أن يجعل كل شيء حوله هو، فيبسط الكلام عن إنجازاته وما حققه في حياته، وكيف لاقي الصعاب وتجاوز الأهواء. يريد أن يقال لك كم كنتُ عظيما! يُعظم إنجازاته حتى ولوكانت في منتهى الصغر . ثم تجده إذا فقد احترام الناس له وتقديرهم إياه، يخرج عن حد وقاره، ويستبيح ما كان مانعا ممسكا له في نفسه، فيخرج كأن هذا النوع من العزل النفسي أو العاطفي أورث فيه نوع من الخلل والعلل، فإذ به تضطرب نفسه، فأخذت تهوج وتموج، فوجدت تعويض تلك الحاجة في الصراخ والشجيب والتقليل من الناس وأهميتهم . وهنا نقطة، كيف أصبح الناس هكذا لا أهمية لهم! الحقيقة أن ذلك نوع من الشعور ليسد به ذاك الجوع العاطفي الذي ينهش باطنه، فكان أول الأمر يسده الاحترام والتبجيل، فأخذ الآن يسد بحاجات أخرى، إذ لابد له أن يسد وهذا أيضًا حال من بني قيمه على الناس، فلما تغير الناس، تقلقت قيمته واهتزت. كحال الذي يعبد الله على حرف، إن أصابه خير سكت، تقدم واطمئن به. وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فتعكر هذا الود لطارئ ما . وتجده ينقلب كأعتى أعدائه، وأشرس منافسيه، وماذلك إلا أنه بنى عليه بنيان كبيرا، فانخر السقف عليه من فوقه، فعظمت مصيبته واشتد ألمه.

من ذلك تعرف أن فكرة أن يعيش الإنسان منعزلا عن الناس أجمعين فيها من الخلل والضرر عليه مالايحصى، حتى يقوده ذلك إلى الموت المحتم، ومن حاول جزءًا من هذا الانفراد بعيدا عن الناس في حاجة من احتياجات حياته تجد فيه من الخلل والمرض بمقدار الحاجة التي تركها. لذلك تجد الدعوة واضحة في الالتفاف والإحساس بالناس، والتفاعل مع مشكلاتهم ومصائبهم، حتى شبه النبي ذلك بالجسد الواحد، إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى إذا أصيب طرف من

أطرافك أو أذيت أذى يسيرا أو جرحا طفيفا، تجد جسدك يحنوا عليه، ويئن لأنينه، الجسد يتفاعل مع هذا الألم فيلتف حوله بكليته ويشعر البدن كله أنه معه مناصرا له. وانظر إلى قوله تعالى "ولا تهنوا في ابتغاء القوم أن تكونوا تتألمون فإنهم يألمون كما تتألمون وترجون الله من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما" وهذه الآية لها نزول خاص بها، ومعني معين مقصود بها يدل عليه سياق الآيات وتفاسير السادة العلماء . إلا أن هناك معنى آخر نستطيع أن نأخذه منها وهو؛ أن الإنسان في شعوره وعواطفه وأحلامه كغيره، إن كان يتألم يتلوى من الوجع، فلا يظن أن هذا خصيص به وحده، بل كذلك غيره من الناس الكثيرين، من يتألمون مثل ألمه، بل أضعافه فيورثه ذلك كثيرًا من الخير والحكم، فهو ليس وحده مصاب أو مبتلي أو حزين هناك العديد من غيره كذلك فيورثه التخفيف عن نفسه، فلا يعظم من حالته، بل يجعلها في الحالة الطبيعية. ثم يورثه كذلك الرأفة بالناس والعطف عليهم، التألم لألمهم، التعازي عند مصابهم وفقدهم ويقول تعالى "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم" وهذه أخوة خاصة، وهي أخوة الديانة والاعتقاد، فأنتم يا أبناء هذه الملة أنتم جميعًا إخوة ؛ دينكم واحد ورسولكم واحد وربكم واحد، فاجتمعتم في هذا الأصول القويمة، التي كانت بمثابة أقوى علاقة عرفتها الدنيا لذلك لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه وفيه من روعة المعنى إنشاء أعلى وأسمى مجتمع عريق عظيم عرفه التاريخ، فطالما أنت تحب لأخيك، ما تحبه لنفسك. وأخوك كذلك يفعل فأنتم جميعًا إخوة متحابين تحت ظلال الدين الإلهي العظيم فتزداد الروابط وتقوى الصلات، وتزال جميع المشاعر السلبية الضارة . فالإنسان بأخيه وإخوة به .

بل جعل جماع بعثته في إصلاح الأخلاق وتقويمها، فقال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" حتى يتمم لهم جميل الخلق، فيتواصوا بعضهم ببعضهم، ويسأل كل واحد منه عن الآخر، فيحدث التواصي بينهم بالصبر والخير والاطمئنان على الحال. فيصيروا

كلهم واحد، فترد جميع هذه الأبعاض والأجزاء إلى أصل واحد، فلا تمام لاحتياجاتهم إلا ببعضهم بعضا، ولا كمال لأنفسهم إلا باحتياج أحدهم للآخر . فكأن الاحتياج هو ما جمعهم وجعلهم وحدة واحدة، فكان هو الصلة فيما بينهم، فقلب من كونه دلالة نقص، إلى أن أصبح حالة تمام.. و لذلك يقول "من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه" وفيه بيان هذه الأصول السابقة متجذرة هنا، فهو من معاني الأخوة، وكذلك التعاطف والمساعدة، وهو في الحاجة الأولى في التعاون والاشتراك المبني على الاحتياج والتغيير.

البشـر بداخلهم حاجة إلى التواصل المشترك الفعّـال والتحاور البنّاء لكي يعيشوا وينعموا بسلام، فهم في أصلهم لا يحبون الخسارة بكل أنواعها، ويهربون منها في جميع أشكالهـا، لذلك يهربون من الخسارة أيّا ما كانت ويلاحقون الفوز والربح في أي طريق كان، ولكـن تقيد هذه الطاقة قيود من الخـوف، ودفاعات بالجهاد والمحاربة والمقاومة والرعب من المجهول والخوف من المستقبل. وقبل أن أذكر التواصل وأبلوره في مفهومه، المنشـق أصلًا من الاحتياج التواصل بين البشر هو نوع من الاحتياج الذي لا يستطيعون العيش بدونه فالناس بالناس والناس للناس، لكن كما قال القائل:

الناس للناس ما دام الوفاء بهم والعسر واليسر أوقات وساعاتُ

فهنـاك ناس وجودهم خير ونعمـة، وآخرون شر ونقمة . وقد تكـون المشكلة بينهم فقـط في عدم التواصل الفعّـال، أو التفاهم المشترك، أو عـدم الوصول إلى فهم نقطة الخـلاف ومحاولة حلها أو تكون في اختـلاف الطبائع والصفات، ولكن المبهج في الأمر أن كلاهمـا يريد التواصـل، يريد المعايشة، وهذه حاجة فطرية في البشر أجمعين وهذه نقطـة مشتركة يلتقي الناس حولها، مع تباين الاختلافات فيما بينهم. ذلك لأن البقاء له لوازم متعددة، وهو قبل غريزة متمكنة يبذل لأجلها كل غالٍ وثمين، وينفق من أجلها الوقـت والمـال وهنا عدة نقاط يجب إيضاحها هنا الأولى، أن الإنسان كائن ذو ميل إلى ذاته، فهو يحب نفسه أشد الحب، حب بقاء غريزي فيه وتملك وطمع وحرص مكتسب،

أو من مستلزمات الأول ثم إلى أهله وأقاربه فهو ذو ميل في كل شيء، في نفسه أولًا، ثم فيما يملك، فيفضله على غيره، بسبب ذلك الميل، حتى وإن لم يكن به المواهب أو الذكاء مالايكفي ثم هو بعد، كائن متحيز، فيتحيز لنفسه أولًا، وإن كان على خطئ. ويشرح في ذلك الشروح الطوال ويستنفد في ذلك جميع الأعذار وإن كان يعلم بخطئه ثم يتحيز لمن يتولى أمره، ثم من يليهم، وهو بذلك كائن متعد ظالم قد يظلم من لا يظلمه، إن استطاع أن يصل إليه إمَّا بالقول أو الفعل، ثم امتلك آلية ذلك فتجده مثلًا عند امتلاكه لكل أسباب ذلك من منصب أو جاه أو مال، أو ما يقوم به منعته عن الناس. فإن قام أحد ممن تبع له بسوء أو ارتكب من الحمق مايتوجب عليه العقوبة، فجاء صاحب الحق مطالبا بحقه فهو إمَّا أن يثور عليه ويغضب ويموج، وإما أن ينزع عنه حقه، وإما أن يعاقبه على سوء أدبه بأن تكلم بمثل هذا الكلام في حضرته، وإما أن يسلب حقه ويكتفي بالعفو عنه فهو ظالم معتد إمَّا أن أعطاه حقه، فهذا يعني أنه انتصر له على نفسه أولًا، وذلك من مغالبة الطبع وحسن الخلق.

والله تعالى يقول في الإنسان "إنه كان ظلوما جهولا" وغير كونه ظلوم فهو متعجل في كل شيء لايصبر على شيء، حتى لو كان في صالحه لا صبر له حتى على ماتيقن أنه له، نفسه تميل فتغلبه فلا يصبر على أمرها كأنه مولوع بحبها، فلايفرض عليها أمر ولا يعصي لها قولا، فيبذل في سبيل إرضائها كل شيء، ويتحمل من العنت ما تجلبه عليه كثير شيء، ثم تجده بعد كل ذلك، لا يفارق حبها ولا يعصي أمرها، بعدما علم أنها قد تقذفه إلى جهنم غير آسفة عليه. ثم كيف به وهو الأشد جدلا الأعتى خِصاما تجده يجادل مجادلة شديدة، ويتفنن في أنواع البيان بحشد زخارف الأقوال، ليسحر ألباب وعقول من حوله ثم تجده مستميتا، كأنه مثلًا لو قيل أخطأت، لخرت السماء على الأرض، أو قيل له توقف عن الباطل لهلك وأهلك، كأنه لا يجوز إلا أن يكون حديثه صحيحا، فلايصح أن يخطأ ، ويكون حاله كما قال تعالى "كأنما يساقون إلى الموت

وهم ينظرون" هذا نوع من البشر لا همّ لهم، إلا الانتصار لأنفسهم، وإن كان على حساب تضييع الحقوق، وأكل الواجبات قسوة وعتوًا، فيستبيح من فن الخداع والتحوير وقلب الحقائق، ما يجعله يخرج منتصرا كأنه في صراع مع نفسه لأجل إثبات نفسه، ومع الناس لأجل إثبات نفسه، وتخطئة الناس، فليست إعلاء القيمة هي مقصده، وظهور الحق هو غايته، بل ظهور نفسه، وإعلاء ذاته.

وهو بعد بخيل شحيح حريص، يحرص على الحياة ويخاف الموت، ويبذل من أجل حياته كل شيء . فيود أحدهم لو يعمر ألف سنة، بل لو يحيا أبد الآبدين، خالدا في الدنيا مخلدا فيها، على رغم ما فيها من الآلام والصعوبات، فيحي ولو بشق الأنفس، لا يهم، المهم عنده بقائه الجسدي يحرص على الحياة أيًاما كانت الحياة، ويخاف الموت أشد الخوف. يبحث عن كل وسيلة وطريق إلا طريق واحد، وهو الموت .

وقد صدق أبو الطيب حين قال:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه — حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقي — وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد — إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنب

فهو يهرع إلى كل ما يبقيه حيًا، ويهرب من كل ما يضعفه ويهلكه . وقد ذكرنا من ذلك أنه يهرب من حر الصيف إلى الظل وأماكن البرودة من استعمال مرواح والتكيفات ونحوه . ويهرب من البرد إلى لبس الملابس الثقيلة أو القطنية، ويوقد الحطب للتدفئة، ويأتي بالمدفئة. فهو يلجأ إلى كل ما يبقيه بمأمن عن أي نوع من الخطر والضعف ولو قليل.

ثم هو بعد يئوس كفور، إذا منع عنه ما يحب ويرغب فيه يأس وقنط ، ثم كفر به وجحد ، بعد أن كانت رغبته به، فلما يئست نفسه أنكرها. فهو بين اليأس والكفر وذلك أن الأول موصول بالثاني فهو سبب له . كما قال تعالى في "إنه لا ييأس من

روح الله إلا القـوم الكافـرون" لأنـه إذا ذاق النعمة وتلذذ بها، واستقـر إليها، فأصبح سعادتـه واستقراره مربوط عليها، ثم إذا فجـأة نزعت عنه أعرض ويأس وتهالك على نفسـه وتغير حالـه، فلايبدي صبرا أو حكمـة، ولكن يحزن ويفقد الأمـل . وإذا أعطى النعمة والخير بعد منع وبخل حرصا منه، كأنه سيعيش أبدًا الدهر، ويعمر الحياة كلها . فيخـاف إذا أنفـق أن يفتقر، وإذا أعطى أن ينفد ما عنده، فيكنزه ويجمعه من حله أو مـن محرمـه، فلا يقع ذهنه إلا في المال، ثم بعد لا يخرج منه حقه، ولا يراعي فيه قربة أو صلـة، فيمنع ويشتد منعه وحرصـه، كأنه ظن اكتسابه بنفسه، فجعل نسبته كلها لهو وحـده، فلم يجعل لله فيه شيئًـا، ولو علم فضل الله تعالى عليه فيه، ورزقه إياه في مبدأ أمره ثم نماءه له واستدامه بل استمطار الخير عليه، فلن يتركه - أي ماله - إلا وقد أنفق لأجـل مرضاتـه. كما قال "أنفق بلال ولاتخش من ذي العرشـ إقلالا" بل انتظر زيادة ونماء وبركة، وأضعافا مضاعفة. ولكن هكذا النفس .

فليسـ مستغرب عليـه بعد ذلك أن يتصف بالجحود والنكـران، بل جاوز الحدود، ليكـن في أعتي مراحلها عتـوا ولؤما، أن يكون جاحدا، لمن؟ للـذي خلقه وصوره يجحد نعمـه وآلاءه وأفضاله عليه، فينسب الخـير لنفسه، وماعلم أنه تم له بتوفيق وإرادة من الله تعـالى، فمـا تم إلا بمشيئتـه وإذنه لذلك كقاعـدة عامة، اشكـر الله تعالى واذكر فضلـه عليك في نهاية كل عمل تصنع، إذ لولا توفيق الله تعالى عليك ما تم، ولولا إرادة الله تعـالى ما وقع. واعلم -رحمنـي الله وإياك- أن الشكر على العمل أعظم من العمل ذاتـه، إذ فيه التبرأ من الحول والقوة، وإثبات كل التوفيق والفضل له تعالى، فهو مقام العجـز بين يديه، كأنك تقول له تعالى، جدت على أولًا بأن وفقتني للصنيع، ثم أعنتني علي المضي فيه والقدرة عليه ، ثم أتممته على وكملته لي، ثم أعنتي على استبصار هذا الفضل والخير منك، ثم رزقتني شكر نعمتك وحمدك على عطاياك، ثم مننت عليا أن تقبلت مني ما كنت السبب فيه فيه مبتدأ ومنتهيا، ثم جازيتني علي ذلك أعظم الجزاء

و أفضلـه وأنـت المتفضل عليا فيه كله .. فوفقتي لبلـوغ منزلة الشكر لك وأعنتي عليها. فلـك الحمد مبتـدأ ومنتهيا ولك الحمـد أولًا وآخرًا، ولك الحمد ظاهـرا وباطنا ولك الحمد أبد الأبد، كما تحب ياربنا وترضى.

ثم نرجع فنقول، الله تعالى يقول في حق الإنسان "إن الإنسان لربه كنود، وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد "

وهو يصف تلك الطبيعة التي نشأ عليها الإنسان من نكران المعروف والخير لأهله، فكيـف الظن بمـن إذا منَّ الله تعالى عليه بنعمـه، نسبها لنفسه علـوا وِكبرا وقال إني أوتيتهـا علـى علـم ومعرفة، وبذلتها بخاصـة نفسي من كدّ وتعب. وهـو لا يدري أن كل هذا الذي يتحدث عنه، ليس له فيه من الأمر شيء، وإنما هو من عند الله تعالى إرادة وتوفيقـا ثم إتماما. ثم تجده ينكر الفضـل لأهل الفضل والإحسان، ويستأثر به دونهم، مع أنهم الباذلين له، فيعاتبهم ثم يعاديهم، ثم يتنكر لهم ..

ولسـت هنا بصدد تشويـه الإنسان، ولا إظهـاره بشكل غير لائق، بـل أحكي جزءا مـن طبيعتـه التي خلق عليها، وصفاتـه التي اتصف بها والإنسـان قد يخرج من ذلك، لا أقـول كله، بل بعضه أو أكثره ويكون ذلك بالمعتقـد الصحيح والفكر السليم، فيخرج مـن ظلمة هذا إلى نور العدل والإيمان واليقين، بقـدر ما كان إيمانه لربه زيادة وعلوا، فيخـرج الإيمان مـا في القلب من الأمراض والأحقاد وغيرهـا، فيصححه. فيكون على المنهـج بقدر ما اتبع من الحق وخالـف الباطل ثم التفكير القويم، فالعقل مناط تكليف الأعمـال وأساس التفريق بين الصـواب والخطأ والحق والباطل، فكلما قوى هذا العقل واشتدت، زادت فطنته وذكاؤه، وقوي الإيمان في قلبه ورسخ، وأنبتت شجرته من مختلف الطيبات والخيرات.

فعندما يظهر للمرء حقيقة الإنسان وصفاته وطباعه، ينشأ عنده نوع من الفهم أولًا للبشرية. من حيث تصرفاتها في مجموعها وأفرادها. فيعرف سبب الخلل، ومواضعه.

فيــزداد إدراكه وتقبله لكل ما في الوجود فيفطن إلى الوسائل والحلول، وكذلك يكتشف المشكلات حتى قبل ظهورهــا، فيراها حينما تتشكل وتتجمع أطرافها في الأفق. فيسبق الواقــع بنظره وفكــره، فيبعد نظره ويطول، ويعمق فكره ويشتــد وهو في ذلك قائم على علــم سليم ونظــر ومشاهدة ومتابعة. ثــم إن من عرف نفسه حقــا وطباعها وماتريد، وكيــف يمكنــه إلجامهــا والسيطرة عليها، عــرف غيره، فهــو مــا رآه أولًا إلا في نفسه، وماعرفه إلا بالنظر في ذاته.

وإذا كانت تلك طبيعة الإنسان، وتلك هي الصفات التي مايستطيع أن يتخلى عنها إلا بالمقاومــة والمجاهــدة، وقليل ما هم. فــلا تنتظر أحدا، فلا تعلــق حياتك بشيء أو شخص، بل علقها بقيمة أو هدف أو مبدأ فإن الأول متغير زائل، يميل ويتحيز ويعادي، فأنــت لا تأمــن جانبــه. أمَّا الثــاني فهو ثابت دائــم لا يتحول. لا تعتمــد على أحد هذا الاعتمــاد الكلي، فإنه مفسد لك، مضر لنشأتك، معيق لتقدمك. ما تصنعه أنت متعلق بــك أنت أول الأمر، فلا تعلق علــى الآخرين ضعفك وحزنك وألمك. بل انظر في داخلك تعلم أين الخطأ، وراقب ذاتك تعلم من أين أتيت؟

إن الإنســان -هــذا الكائن- أكــاد المح فيه مادية طاغية علــى كثير من أمره في كل شيء. فهو وإن صام وصلى، إلا أنه منتظر الأجر مريدٌ للثواب. وإن أتى معروفا أو فعل خــيرا، فهو ينتظر ردا للمعروف، ومجازاة له بإحسان. و إن صاحب الناس وصادقهم، فهو بذلك يرجو منفعة منهم، و ودّا من جانبهم وأمنا من ناحيتهم. حتى - أيها الرجل - إن أحــب أو عشــق أو أعجب بأحد من الناس، ينتظر ردا وأجرا، فهو يريد منهم مبادلة لهــذا الحــب والإعجاب والوّد. كأنه في كــلا جانبيه مادي فهو يمارســس سياسة واضحة اعتمــد عليهــا في كل أنماط حياته، وهــي "سياسة الثواب والعقــاب، والأجر والمنفعة" كأنه ينتظر تعويضا لكل شيء أو جزاء عليه. أنا لا أقول هو المادية متجسدة في شخصه، بل حتي في النواحي الروحية كأنه إنما يعاملها بنفس المبدأ في لحظات الصدق والوفاء

والـود، إلا ما بذله من قلبـه خالصا، منقي من شوائب الماديـة والمنفعية، لا ينتظر لها ثوابا وأجرًا فهو يعطيها من كل قلبه خالصا، لا ينتظر لها ردا أو ثناء ، طغي فيها روحه وقلبـه، فسقى عقله بماء عذب طيب، فأخرج أطايـب فكره مجردة من شوائب الأقذار وغيرهـا. تجـده يعفو ويصفح، ولا يريـد شيئًا، خلصت روحه ونقلت مـن أدران المادية وثلبـه المنفعة ودنـس الدنيا، فارتقت روحه درجات عليـة، فناسب علوها نقاءها، حيث سلمت أمرها في جميع شئونها إلى بارئها.

إنني لا أتعجب حينما أسمع بالرجل يهرع إلى ناحية جبل فيعتزل فيها الناس ويخلو بنفسـه وبربـه، في أزمان قـد خلت ومضت. ثـم إني كذلك لا تسـاورني الحيرة حينما أسمع بالرجل انعزل عن الناس في ناحية بيته، فارا بقلبه الذي ما عاد يتحمل، وبنفسه التـي عجزت عن التحـول والتصبغ بصبغة أهل الدنيا. ومنهـم من ينعزل عنهم بقلبه ويخالطهـم بلسانـه وجسده، ومنهم من ينعزل عنهم بكليتـه. ومنهم من ينعزل أحيانًا ويـترك أحيانًا . ثـم لو نظرت إلى الشرائع السماوية، تجـد الرهبانية عند النصارى . ثـم في الإسـلام، تجد الاعتزال في أحوال معينة، تدعـو المسلم إلى الاعتزال الجزئي لا الكلي، فلا رهبانية في الإسلام وذلك رأفة بقلبه ورحمة به، فيخلو بربه متعبدا خاشعا متذلـلا وتجد من ذلك عبـادة التأمل، وهي عبادة عظيمة، فيهـا ينفصل الإنسان عن النـاس، ليدخل بالنظر في عوالم محيطة حوله، فينظـر السماء ومازينت به من نجوم وأقمار وليل ونهار، من تأمـل لظواهر الأرض ومعالمها، من الجبال والسهول والهضاب والأنهـار والبحـار فأمر النظر وحـده في القرآن لا يسعه إلا كتـاب منفصل يوضح هذا الأمـر بتفصيلاته، لأنه أمر اشتمل على أشياء بها الكثير من العبر والحكم، والفوائد. وقرينته هنا معنا تطهير النفس من أدرنها وترقيتها بالنظر فيما حولها كما قال تعالي "قـل انظـروا ماذا في السماوات والأرض..." وأيضًـا كقوله تعالى "أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض"

ثـم بعد ذلك، يخلو الإنسـان بنفسه، وكيف لا يفعل هذا؟! فينظـر حالها فيأمرها وينهاها، لا ينتظر أحدًا ، بل لو نظرت إلى ديننا الحنيف في ذلك السياق بعينه. يقول" وعـزه في استغناءه عن الناس" وقال لأحد أصحابـه " لاتسأل الناس شيئًا" وذلك لأن السـؤال فيه تعلق القلب بالمسئول منتظـرا جوابا أو إعانة. فكان يربي أمته على صلاح قلوبها، فلاينتظرا أحدٌ من أحدٍ شيئًا حتى لا تتعلق قلوبهم به. ولكن تكون قلوبهم كلها خالصة لله فيستعينوا بالله تعالى وحده وهو كافيهم . كما قال تعالى "أليس الله بكاف عبـده" وقال لأحد أصحابه احتطب واحمل على ظهـرك واعمل، خير لك من أن تسأل الناس أعطوك أم منعوك. فسوي بين الإعطاء والمنع، لتساوي الأثرين في القلب بجامع التأثـر، فالإعطاء يفرحـه، والمنع يحزنه وكلاهما يأخذ من فعل القلب وتعلقه وإرادته . لذلـك كن ذا عفة، وذا عزة، وذا رحمة، يلن جانبـك، ويعفوا قلبك، وتقضي حاجتك . عشـ في الدنيا عيش الكـريم المطاع في نفسه واعلم أن من أكرمته نفسه أكرمه الناس، ومـن أهانته نفسه أهانه الناس . فكل ذلك نابع مـن الإنسان نفسه. كن طبيب نفسك ومعالجهـا إذا عييـت طببتهـا، وإذا مرضت عالجتهـا، كن كل شـيء لنفسك، فعزتك تكمن في استغنائك . فأنت غني بمقدار ما استغنيت وتركت، ومقيد بمقدار ما احتجت وأوثقـت فالغني غني النفس والفقر في الحقيقة، ما هو إلا فقر النفس، وتسولها الكلمة قبل اللقمة . كلنا نطلب الرزق، وكلنا نرجو الغني . لكن اختلف من نطلب منه حاجتنا، فأحدهـم يطلبهـا من مديره في العمل، وآخر من رئيسه وغـيره من الناس، ومنهم من يطلبها ممن خلق الخلق وهو الله تعالى . فانظر حال نبي الله إبراهيم -عليه السلام- لمـا اجتمع عليه قومه، وأوقدوا له نارا عظيمة لكي يميتوه فيها تشنيعا وتعذيبا، فلم يبق له أحد في الدنيا بأسرها ينصره، كلهم ضده، بل ويريدون إيلامه وأن يصلوه الجحيم، ثـم جاءه جبريل وقال له، يا إبراهيم ألك حاجة؟ وهـو في أشد أوقاته ضعفا، فلا أحد ينصـره أو يعينه قال له إبراهيم -عليه السلام- قـولًا خالف فيه قوانين أهل الأرض .

قال له، منك أنت فلا ، أمَّا من اللّه فنعم ، حسبي اللّه ونعم الوكيل . فوكل جميع أمره إلى اللّه تعالي. فكان الجواب " قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين " فلم تبقى نار على الأرض، إلا أطفئت . لأنه ما انتظر إلا من اللّه فكان عطاء اللّه عليه أن نجاه وزاده فوق ما يطلب أضعافا مضاعفة، حتى أنه بقي في النار أربعين يومًا لم تضره، ويروي عنه قوله " ما كنت أياما وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها " .

وانظر إلى نبي اللّه لوط عليه السلام ، لما يجد أحد حوله ينصره ويعينه، فلما جاءه قومه، آمل أن يجد فيهم أحد يقف بجواره يؤيده أو يقوم معه مستنصرا له، دافعا عنه شر هؤلاء القوم الفاسقين. فقال -عليه السلام- لهم "لو أن لي بكم قوة " أي قوة، استجابة منكم ولو كان ضعيفة، أو أي مظهر من مظاهرها، أو علامة تدل عليها. خلا ذلك منهم جميعًا، فلا حتى رجولة ولا أدب، ولا شيء .

يقول لهم " إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا اللّه ولا تخزون " أو يكون المعنى لو أن لي قوة لكنت أدبتكم، وصنعت ما يجب لإصلاحكم وإرجاعكم إلى حظيرة الإيمان باللّه تعالى . ولكن لما فقد الأمل فيهم ومنهم قال " أو آوي إلى ركن شديد" وهو اللّه تبارك وتعالى

يقول نبينا " رحم اللّه نبي اللّه لوط -عليه السلام- كان يأوي إلى ركن شديد واللّه تبارك وتعالى " والقصص في ذلك كثيرة متوارد، فنكتفي بهذا.

لا تنتظر أحد، فكم انتظرت ولم يأت أحد وكم رجيت وأملت وما أعانك أحد. وكم ضعفت فما استنصرك أحد، حينها تكون الإجابة متجلية لفؤاد نفسك، حينها يلجأك ربك إلى "بل آوي إلى ركن شديد" وهو اللّه تبارك وتعالى .

إذا صغر كل شيء في عينك، وتهادي عالمك ، وظننت أنك هالك لامحالة لا تنتظر أحدا! بل اعتمد على نفسك، وألجأ إلى الله تعالى يغنيك ويكفيك. فمن سيأتي كان قد أتى، لن ينتظر حتى هلاكك، أو حتى فسادك، حينما تكون قد أنهكت وأصبح لا قدرة لك ولا طاقة. بل إنه لو لمح عليك أدنى تغيير أو شيء ظاهر من التغيير، يشعر بك، يشعر بك في كل شيء، في قولك، في فعلك، في تعابير وجهك. أما من أتى عند هلاكك، فهذا أتى لإنقاذ نفس تغرق أو تقاسي سكرات الموت، فيأتي ساعتها للحيلولة دون استمرارها في فعل مقدمات الموت والهلاك، كل الناس تفعل ذلك، عند الهلاك المحتوم، تجد كل أحد يعطف ويشفق ويبكي، ولكن ليس على هذا معتب ، فهذا من أحوال الدنيا. ولكن العتاب يكون في طريق طويل خضته مستوحشا متهالكا، سلكته وحيدا، متحملا المصاعب والأهوال. ثم ما أن أناخ بعيرك وفقدت مؤنتك وأشرفت على الهلاك، أقبل عليك الجمع بكلكله وقوته وعتاده، كلهم ينظر حالك، ويقول تلك الكلمات المحفوظة التي حتى فقدت طعمها، فكأنها صارت بلا معنى في القلب إلا بتغيرها أو إضافة نوع من الشعور إليها، كأن تخرج من فم محب أو قلب خالص مشفق، فتصل شعورا قبل أن تصل كلاما وما أجمل تلك الأبيات التي قالها أبو الطيب ومنها:

القلب اعلم ياعذول بدائه ... وأحق منك بجفنه وبمائه

فومن أحب لأعصينك في الهوى ... قسما به وبحسنه وبهائه

أأحبه وأحب فيه ملامة ... إن الملامة فيه من أعدائه

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم ... دع ما بَراكَ ضَعُفتَ عن إخفائه

ما الخل إلا من أود بقلبه ... وأرى بطرف لا يرى بسوائه

إن المعين على الصبابة بالأسى ... أولي برحمة ربها وإخائه

وإن كان لتوصيف الأمر بحكمة ولبيانٍ أجمل من المعنى السابق، يقع في أبيات لأبي ذر سهل بن محمد الكاتب، شيخ سيف الدولة، وفيها يقول:

يالائمي كـف الملام عن الذي | أضناه طـول سقامه وشقائه
إن كنت ناصحـه فداو سقامه | وأعنه ملتمسـا لأمر شفائه
حتـى يقال بأنك الخل الذي | يرجـى لشـدة دهره ورخائه
أو لا فدعـه فما به يكفيك من | طول الملام فلست من نصحائه

هل الانتظار دائمًا مضر؟ لعله كذلك، حينما يهدي المرء إلى فساد قلبه. ونشوء نوع من الاستحـواذ للأشخاص عليه فيبقى في نوع من الضعف الذاتي لدي ذلك الشخص بعينه . حينما يوقف لك نشاط يومك واستمرار حياتك بشكل طبيعي، حينما يقتل فيك البهجـة والسعـادة، ويورثك الألم والمعانـاة، حينما يهديك إلى مـا لا يُحمد في نفسك، بيتـك، مجتمعك. لكنـه ليس شر محض. فهناك كثير من الأوقـات يجمل بك الانتظار ويحسـن ، لأن توقـع الخـير من النـاس يورث في القلـب نوعًا من الصلة بهـم والإبقاء عليهم، والمحبة لهم. يعيد ربط علاقات وإيصال جذور المودة والمحبة. ولكن القيد هنا، أن ينتظر بلا تعلق ممرض، لعل كثير من الخير يحدث على أيديهم . ينتظر بلا اعتماد على أحد أنه بيده القدرة على تحويل حاله وأمره، وهذا فيه من المنفعة له ولهم فينتظر لا وهنـا وضعفـا، ولكـن صلة ومحبة وودا. ينتظـر بلا حزن وألم، فـذاك أبلغ في العذر وأحسن في الصلة، وأبقي للمودة ينتظر، ولكن انتظار المحب الناصح، العطوف المشفق، مـن في قلبه الخير محمولا يستقدمه ببوداره، فينطـق به لسانه، فهو يرى أن من الحق لهـم بذل الجانب وتقـديم الخير، فلا يستأثر به دونهم فيبذلـه لا ضعفًا وهوانا، ولكن قوة وصبرا . ينتظر لعل في انتظاره هذا يراجع كل شيء من البداية إلى النهاية، فيملأه

فكرا، يبحث في نفسه، ثم ينظر ويترقب، فإذا أتى وظفر بمراده فقد أنجح، وإن انتظر وردّ فقد أبلغ وأعذر.

حصيلة الأمر، إنما تكمن في كون المرء يراعي نفسه، ويرى كون نشاطها وفتورها وما يعجزها وما يقدمها فإن كان شيء ما تخلص منه أو عالجه بما له فيه خير. والإنسان كما قيل طبيب نفسه ومعالجها الأول. فهو أدرى بما فيها وبعللها، حتى وإن اعتذر بالأعذار المبررة، فهو يعلم حقيقة نفسه، وما تقدر، وعلى ماذا تستطيع . وصدق الله العظيم إذ يقول " بل الإنسان على نفسه بصيره، ولو ألقي معاذيره" .

فالإنسان شهيد على نفسه بنفسه، إذ هو أدرى الناس بها، عالم بخفيات قلبه ودارس لاحتياجات نفسه فينظر، فيرى متي تتقدم نفسه؟ ومتى تتأخر؟ فلا يعلق أموره بأحد، ولكن يوازن الأمور بالحق والعدل، لا بالهوى والزور. وذلك لأنه المسئول الأول عن نفسه، وليس عن غيرها لذا فليُحسن إليها، ويراعي حق نفسه فيها، فلا يظلمها، ولا يبغي عليها. فلا يطغى، إن مرضت فليعالجها وإن يأست، فليصبرها، وهو نِعم المعين وحينا تلهوا، فليقومها ويصلح شأنها وحينما تتهوك وتتمايل، فليجمها بلجام من الحق، فليعمل على نفسه، فهي إمَّا مهلكته أو منجيته وليعلم أنه لإصلاح لنفسه إلا به، فلاينتظر وليعمل، فإن العمر يمضي ويمر، وما مضى ليس بمسترد. فليحسن فيما بقي، وليتعلم ويأخذ العبرة فيما قد مضى في صلاحه وقيامه على نفسه . وقد أحسن شوقي حينا قال:

والنفس من خيرها في خير عافية   والنفس من شرها في مرتع وخم

وقال أيضًا:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوم النفس بالأخلاق تستقم

حالة وهم

فالأمر كله قائم بين يديك، فإما أن تصبح معول في بناء نفسك وإما أن تكون قائما بالجور والشطط، فتمسى في حياتك وأنت معول هدم وخراب. حتى لا تبقى فيك لبنة صالحة وكما قالوا في المثل "جنت على نفسها براقش" فالأمر عائد إليك متوقف على استعدادك، وقرار ذاتك، وفي الأصل صورة نفسك التي كونتها نفسك لك . وروي في ذلك قصة لحكيم ذاع صيته وانتشر خبره وعمت حكمته، فما من قضية إلا وقد أصاب فيها فأرادوا إعجازه بالحجة والمنطق ففشلوا في كل مرة إلى أن توصلوا إلى حيلة تعجزه في كلا الحالين، أكان جوابه إيجابًا أو نفيا، فحمل أحدهم عصفورا في يده وتقدموا فرحين عليه وهم موقنين بهزيمته لامحالة فسألوه عن حياة العصفور الذي في قبضة أحدهم وكان هذا العصفور حيا، غير أنه قال المتحدي في نفسه إن قال نعم حي، فأحكم عليه قبضتي، وأميته عصرا . وإن قال لا ، ميت، أخرجه حيا كما هو . فلما رآهم أقبلوا عليه، ثم سألوه مسألتهم فلم يزد سوى أن قال لصاحبهم جملة واحدة، "الأمر بين يديك يا رام" لذلك فالأمر حقا بين يديك وأنت الذي تقيمه فتعدله، أو تقيمه فتفسده فميزان الأمر هو أنت وحدك.

أعمال خفية وأنماط مخيفة

كل يـوم مرحلـة جديدة، لا تكاد تنقطع أو تهدأ. كل يـوم رحلة جديدة إلى المجهول الذي لا ينتهي، وإن كان حتما يومًا ما كل شيء سيعود لا شيء سيختفي . كل يوم إبحار جديـد نحو مرفأ آخر، ولا يشرف هذا الإبحـار أيضًا على الانقضاء والزوال، بل وجهة جديـدة وإبحار آخر. فأهداف تتغير أو تُغيرها الأيام على تواليها ومضيها يومًا يسحب بانتهائـه صاحبـه، وليلة في دُبـر أختها في رحلة واحـدة، متصلة فصولهـا، متلاحمة أجزائها. غير أنها كل يوم ترفع الستار عن وجه آخر من الرحلة لم نكن نعرفه مطلقا، وإن كنا قد تنبأنا باحتمالية وجود الأمر مسبقا، كنوع من التخمين يلقيه الإنسان هكذا دون رَوِيّـة أو فكر فيقول كما يكثر قولهم، مستقبل مشرق، حياة سعيدة، أو يقولون، ليل أغـبر، ويـوم لم تطلع لـه شمس، حياته مثل لـون شعره. وما في هـذا القبيل، فيقذفون بالكلمات في وجه السامع هكذا.

يتحدث الناس عن أشياء مثل هذه، ولكن أنّا لهم بالافتتاء على مالم يأتي بعد، فما يملـك الإنسـان إلا شيئين، ماضيه وحاضره. أمَّا مستقبلـه لا علم به، وإن كان يستطيع أن يستشـف أشيـاء، ويرسم أشياء أخرى بناء على أمـور الواقع، يسميها بعض العلماء احتمالات "علم الاحتمالات". إن كان من هذه النظرية، فكل شيء محتمل يا صديقي. والغريـب أنه يعد المستحيـل احتمال، وهذا إن كنت سأعيش بهـذا المبدأ، والاحتمال لا يكـون في الماضـي أو الحاضر بوجه معين، إنما يكـون في المستقبل فكل شيء متاح حتى وإن لم يحصـل . نعـم! وإن كـان لن يحدث أبـدًا، لأنه متاح بعدم إتاحتـه وإباحته، إذا سيظـل كل شـيء في دائرة الشك والوهم، كل شيء نسبـي. وإذا وصلت إلى اليقين من ناحيـة الشك، فهـذا اليقين عندي به شك، وهـذا اختلاف كبير بين الشـك والظن أو

الشك والوهم، وإذا كنت أرى الحلم رؤية وأظنه حين رؤيته أنه يقين ثم أستيقظ ليكون مزيفا لا واقعا، فأشك في اليقين الأول، لأبني يقين ثاني على أنني كنت شاك، فلم أفرض ذاك الاحتمال أن الحياة ذاتها حلم كبير وعما قليل نستيقظ، نعم نستيقظ إلى حقيقة أخرى والإنسان بطبيعته لا يؤمن بالحقائق إلا بالمادي منها فلما كان في حلمه ورأى نفسه يمشي ويتحرك ظن أنها حقيقة، ولما عاد من سباته وأدرك أنها ليست حقيقة من اللاشيء، ثم صار شيئًا، ثم يعود لاشيء، ثم يحور شيئًا آخر، أين إدراكه هو في كل هذه المشاهد، لن نخوض كثيرًا في تحليل ذلك وإثباته أو عدمه وإن كان عندي أن كل شيء يلتهمه الشك سيتآكل عاجلا أم آجلا، جزءا أم كلية . ومن دخل دائرة الشك ظل في الشك، حتى أصبح يشك في الشك، وأصبح اليقين معرض للشك، والثابت معرض الشك. وإن كان كل هذا معرض للشك، فكل شيء إذا مشكوك فيه، ولن نستطيع أن نثبت بالشك شيء، إلا إذا كان هو مثبتا من قبل. وليس الحال في كل هذا، إلا معالجة شيء من الشك في نفسك، فيكون الشك حينئذ في نفسك أنت، لا في ذات الأشياء نفسها أهي حقيقة أم خيال، أهي صدق أم كذب، كل شيء في الناموس الكوني يكاد يكون ثابتا، أو متغيرا بقانون واضح ظاهر وإن خفي شيء منها عليك . أمَّا المشكلة في ذلك، وهي ما واجهها بعض من الفلاسفة وغيرهم، من حقيقة تلقي النفس للشيء بالقبول أو الرفض أمَّا طبيعة الشيء فهي ثابتة، ولكن يقع الاختلاف حين النظر إليها والتعليق عليها، مثل حقيقة الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس، ودائريتها أم انبساطها، حقيقة الشيء ثابتة ولكن يقع الاختلاف في فهم العقول لها. وكما قال أحدهم

ولكن تأخذ الآذان منه   على قدر القرائح والعلوم

لذلك الأفضل في ذلك، هو اتخاذ مذهب النظر والرؤية وإعمال العقل والمشابهات وإعمال التحليل والتجربة. بدلا من مذهب الشك، الذي لن يؤخذ منه فقط إلا شيئًا واحدًا، وهو الشك في كل شيء. ويصير الشك عنده شك في الشك، أو اتَباع قاعدة

الشـك لمجرد الشك، وفي مخيلته أنه باتباع الشك سيصل لليقين، ولكن اليقين يأبى أن يأتي عن طريق الشك، إلا وكان فيه شيئًا منه، ولكن له طرق أخرى كثيرة لمعرفة اليقين من الظن والشك إلى الملفق والمفتري.

وما اليقين في ذاته إلا إزالة الشك، فما أن يزال الشك حتى يأتي اليقين، فكلما كان هنـاك شك لن تصـل إلى حقيقة اليقين . وهناك شيئين أريـد إثباتهما هنا. الأول، أن هذا الاختلاف بين الشك والوصول من خلاله إلى اليقين، إنما هو معرفي، أي من حيث المعرفـة التي توصل إليها، فبدونها -أي تلـك المعرفة أيّاما كانت- لن يصل المرء أصلًا إلى الشـك، لأن وصولـه إلى الشك كان بمعرفة أوصلت شـك . وما وجدنا إنسانا وصل وتكلم في الشك إلا بعد إدراكه سن الطلب العلمي والمباحثة الفكرية، أما غير هذا تجد أنه من النـادر وجوده، إلا لأسباب قد تساهم في نشئة الطفل من طفولة صعبة أو معانة في صغره أو سوء معاملة، فتورث عنده نوعًا من الفضول لأشياء ما يتطرق إليها من في مثل سنه، وهي نابعة أصلًا من قسوة تجربته . فناظر الأولى من حيث أن الأولى مقامها العلـم فهي معرفية. وناظـر الثانية من حيـث أن مقامها التجربـة القاسية والظروف الشديـدة، التي تدفع المرء إلى الدخـول في أعماق قيعان مظلمة ومناطق خافته قلّ من يصـل إليها، تلمح ذلك فيما ينطوي عليه أسئلته من طبييعية تهكمية فلسفية؟ من حيث أنـه ينظر إلى ما خلف المألوف والمتبع. وهنا قائم هذا هو الاضطراب والقسوة والشدة التـي تكـون المحرك الأول. والمغـزى الدافع بالنفس إلى غمار ذلك لتعلـم هنا حقيقة هامـة، وهـي أن الأصـل في فهم الإنسان الفضـول والسؤال ، ثم النظـر والتجربة ، ثم اليقين والتسليم، وقبول المنطق إذا لم يخالف المقطوع بصحته نقلا وعقلا . وهذه نقطة هامـة جـدًا "أن الشك عند الإنسان عرضي طارئ ، ولـو أنه تعرض للشك في كل شيء في حياتـه لاضطـرب اضطرابا عظيمـا ، وما وصل إلى شيء إلا مـن خلال ترك الشك وإعمال العقل والثوابت" . وهذا يدلل على أن الخلاف في الأمر إنما هو خلاف معرفي

في أصلـه وأساسه، ثم فظهور الخلل يبدأ بتجاوز مبدأ الشك من كونه معرفة بحته إلى كونه حقيقة علمية.

الأمر الثاني، أن الشك وموضوعه وقائمة أسبابه الطويلة، بل حتى متبنيه والمتوجه في حياتـه أو فكـره بهذا الأمر. الـذي هو الشك، يتشاركون في شـيء أساسي، سنأصل الكـلام عليه. وهو كون العقل البشري هـو الحاكم الذي يتحاكم إليه "هذا هو التصور الأول الذي تستطيع أن تعقده في خلال محاولة فهمك لطبيعة الشيء". فهو يجعل نفسه مركـزا للمعرفة والحكم والتحاكم في وقت واحد، وما أضل هذا لذي لب يفهم! ناهيك عـن ذكر أسباب ضعف العقل البشري وعدم تكامله في كل الأوقات بين حالتي النشاط والقوة والضعف، ثم كذلك في مراحل العمر المختلفة، وكذلك تغير الحالة العقلية نسبيا تبعًـا للحوادث وزيادة العلوم والمعارف، ناهيك عن تأثير الحالة العاطفية والهوى قبولا وعدمـا وما بينهما مـن تفاوت، ثم كذلك فرقا بين نشاطه وكسلـه، وهمته وضعفه. ثم غير ذلك إلى انفراده بنفسه وتأثير حالتي الجماعة والاجتماع بالمخالطة مع الغير وما فيه من الأثر على النفس والفكر. والحالة الثانية، وهي الانعزال والانفراد بالنفس، وما فيه كذلك من الأثر، إمَّا بصفاء الفكرة وجلائها في الذهن، وإما بأثر سلبي على صحة العقـل ومجموع تلك الحالات كلها يورث تغـيرات متتابعة، تبعًا لتغير الإنسان وتقلبه في أطـوار الحيـاة. ثم هو بعد ذلك، يريـد أن يجعل نفسه معيارا علـى الجموع أو المجموع سـواء السابقـة أو الحاليـة أو التالية والأدهى من ذلك، حكمـه ببطلان كل ما هو غير مادي محسوس. فالشك في مثل هذا النوع سيظل شكا، لأنه لن يستطيع أن يثبته إلا من خـلال طريقتـه هو، وإذا كان لا يعتمد إلا المنهج المادي في الوصول للحكم، إذا لن يكون له خيار إلا بنفيه وعدمه ويترتب على ذلك إلغاء حقائق مثبتة عقليا ومعرفيا. وبالتالي لا يستطيـع أن يعتمـد الإنسان علـى عقله أو نفسه مجردتـين في الوصول إلى الحكم أو المعرفـة الصحيحـة، وأن كان العقل هو أسـاس الفهم وآلته، إلا أنـه لا يستبد بالحكم وحده دون مراعاة لآيات الفهم والحكم الصحيح في مجموعهما.

لنصل هنا إلى نقطة هامة جدًا، وهي ما هو الهدف من الشك، ومن اتباع هذا المنهج؟ لاسيما إذا كانت الحقائق واضحة والمسلمات مثبتة علميا ومنطقيا. فلم يكاد يترك العلم أرض بور إلا خصبها بسماده، فأضحت خصبة وصالحة. فما الداعي إلى إيراد الشك في المناهج والأفكار والمجتمعات، إلا أن يكون الشك هنا لا لذاته ، وإنما لنقد الأمر وبيان أصله ، فيكون طريقا للوصول إلي الغير ؛ وهي الحقيقة ، فيكون الشك هنا مرادا به النقد والتحري والنظر إلي خلف الأمر من نشأته وكيفية تشكله واتضاحه بتلك الصورة .أو تجد الداعي إلي ذلك فضاء فكرٍ، وسعة وقت . ولعل وجود مادة الفراغ للفكر هو سبب عمله فيما لا فائدة فيه، والبحث فيما لا نفع وراءه أحيانًا وعند هذا يجب أن يتوقف البحث بدعوى عدم الجدوى الفكرية، أو المنفعة بأشكالها فما الحاجة من إطالة السرد، فيما لا تنعقد فيه القضية أصلًا فليس لها أطراف يقوم عليها، أو محاور تتناقش فيها إلا الهوى أو لعله شيء من سوء الفهم وعدم التفكير في الأمر بدقة مطلوبة واستخدام الأدوات غير الصحيحة من أجل ذلك . وإن كان متبعي هذا الطريقة يسعون لإيجاد الحقيقة من خلال أنفسهم وطرائقهم فقط، فلا يعدوا هذا إلا أن يكون منهج معين لهم تبعًا لشيء ما في عاداتهم أو تقاليدهم أو ثقافتهم، وعندئذ يتضح فساد منهجهم وطريقتهم وكفى بتلك السبة مفسدة. أمَّا عند الذين تبنوا فكره حتى دون تفكير أو تنقيح، وهم بذلك وهم لا يدرون يحذفون ويلغون الأمور الغيبية والشرائع السماوية والثوابت العقلية والعقائدية، إذا تعتمد في أصلهم على أشياء غير مشاهدة يجب الإيمان بها والتصديق بحقيقتها. فالغيب هو من أعظم الأمور في الدين، فهو أصل هام يتوقف عليه إيمان العبد وكفره . فكيف يؤمنون بوجود الأنبياء السابقين ورسالتهم والملائكة والجن والجنة والنار والحساب والبعث. وكلها أمور غيب لا مشاهدة لها ثم بعد ذلك كيف يمكنني أن أدخل هذا المنهج في الدين، إلا أن يكون طلبا لإلغاء الدين نفسه، أو لإفراغه من محتوياته، ثم جعله صورة ومظهرا

فلكوريا خاليا من حقيقة الإيمان والتسليم واليقين للإله الخالق ، وغير أن يكون زعزعة لأصول الثوابت ، ومحو للقدسية التي يتمتع بها، ثم بعد ذلك للفراغ الذي سيخلفه نزع ما سبق، بما يريده هذا المشكك! واها لتلك المحاكمة اللامعقولة، إنها قسمة ضيزى .

ألـك أن تتخيل الأمر، أفرغ الثوابت والأصـول والمسلمات أولًا من قدسيتها، ثم من حقيقتهـا، ثـم هيئتها الظاهرة لأضيـف عليها طابع المتغلب في ذلـك الوقت سواء كان عالمـا بمذهب معين، كإضافـات الفاطميين والشيعة بفرقهم للدين مثلًا، أو كان حاكما فأضيـف له فيه مـا يرغب، وأتغاضى بالذكر صفحا عما لا يحب ثم يستمر الأمر هكذا حتـى يصل للعامـي أن الدين ليس سوي ركعات يقوم بها وزكـاة يؤديها، والباقي هكذا طيبـة قلب، حـلاوة روح . أو كما تحب أن تصيغ الأمر، وانتهى الأمر على هذا. فتصبح الأشيـاء مجردة ولا يتعدى كونها وجهة نظر في دين لـه ثوابت وأصول وأحكام وحدود، يتدنى الأمر إلى درجة أن تسير تلك العدوى في ربوع الأرض. والأمر هنا أنه لا يستطيع أن يحـذف الديـن أو ينكر حقائق التاريخ، ولكن الأمر هـو بإفراغ الحقيقة من دلالاتها وأصولهـا، وإبقاء شيء مـن الصدق بداخلها، وتزينها وبهرجتهـا، ثم تأخذ مع الزمن طابـع الموروثات والتراث، وهكذا. اتبع في ذلـك ميادين الثقافة والفكر والتاريخ والوعي إلى آخـره فإن أردت سـرد حقائقها، وكيفية تحويلها لسـردت في ذلك المؤلفات وألفت المصنفـات ويبقـى لك أن تنظـر في أقل حقيقة دالـة على هذا، وهي بمثـل الشمس في وضوحهـا للناظر بالعين المستبصرة، لا بالهـوى والتشدد، وهي تغير أفكار المجتمعات، وتحـول أيدولوجيات الـدول وثقافاتها، والأمثلة على ذلك كثيرة غير أنه قد يتشعب منا ويتعـدد فلا نستطيع إحكاما لـه، فيتطلب إيراد أدلة وتوثيقـات وتوضيحات على المثال الواحـد ، لذا سأكتفي بذكـر الفكرة مجردة عن التمثيل، لكنهـا أيضًا ستكون واضحة بنفسها، مستغنيـة بجلائها وظهورها عن ضرب الأمثال أو تعضيدها بالشواهد، وعلي كلٍ فهو ليس المقصد.

ثم إن اقتصاص الأمر وقطعه عن أصله، أو محاولة حذف منه أو تغيير به، يبقيك عند صاحب الهوى محببا لا معاديا. فلو كنت ذا سلطة أو منعة أمِنت، فلا يجلب سخطة العامة لك، ولا انقلابهم عليك، ولا بغض بعض من ادعي العلم لك، لأنك لم تنكر الأمر برمته ولكنك جعلت الأمر في ضحضاح من الفهم باستشكال استساغته على البعض،أو تقبله الآخرون تميعًا أو مصلحة ونفعًا أو رياءً ومجاملة ثم استحكامه مبدأ أو عقيدة على امتداد الزمن، حتى يصبح من يخالفه أو يعاديه كأنه أنكر معلوما من قانونهم الذي جعلوه القانون العام بالضرورة، ويصبح كل شيء بالضرورة شيئًا آخر، ليضحى فهما مستقلا عن الفهم الأول، فيصبح له جماعة وأنصار وغلبة يؤيدون قوله وفعله، وينصرونه بجميع أنواع الإعانة والنصر ثم تنشأ في ذلك فئة جديدة عَامِية عن الحقائق والبصائر الأولى، فيشتد عضدها ويقوى ساعدها على ذلك الرفد الثاني، فتتخذي عليه ببقاء جسدها وفكرها، فتتشرب ذلك الفكر وهي في غفلة عن الحق –الفكر الأول– وكل ذلك بطريقة تعليمية محكمة، فلا يقاوم ذلك النشأ الجديد، فيتشرب الباطل بدون أية مقاومة تذكر. وإذا بحث أحدهم عن هذا الفكر فيجعله نوعًا من التراث ويعمل فيه بعض أدوات بحثه وفي ذلك يشتد الفكر الثاني ويطغى، ثم قد لا يصل فيه إلا إلى القليل من الحق، قد يتخلى عنه بسهوله أو بصعوبة عند رؤية الجحافل يعادون رأيه ويناصبونه العداء، فيرجع منطويًا تحت لوائهم زاعمًا أن هذا ما هو إلا أساطير الأولين. إلا بقية من نور تبقى في قلبه قد تحيي وقد تموت . وتبقي أيضًا بقية قليله تعرف حقيقة الأمر وأصل الرواية ، وكيفية تحولها حتى صارت هكذا . ومنهم من تصيبه تلك اللوثة الفكرية، وانتشار التخبط الواضح، فيصبح عندهم العجل المقدس الذي لا يصح الاقتراب منه بينما يجوّزُ الاقتراب بل والطعن حتي الإهلاك، إذا كان فقط لا يمس عجلهم المقدس . وقد تجد عند بعضهم ممن يدعي التجرد للحق والوقوف بجانب الأدلة والوقائع ؛ يخرج صوته منبوحا لا يسمع إلا القليل

عاجزا، يدعو في دعواه تلك بعدم التحيز والقدوم إلى طاولة البحث والمحادثة ثم تجد عند حواره لا يفند مزاعم الكذب والزور والبهتان، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد بروباجندا فارغة ونوع من الدعاية الملفقة، أو بكل وضوح بأن يكون الأمر فقط ظاهري ولا نية فيه لتحقيق شيء حقيق ذا بال وأنت تراه لا يورد أصل الكلام فيوضحه، ويبين الحق من الباطل، ويشرح كيفية نشوء الأمر والأحداث التي صاحبت ظهوره، وما أدى به إلى هذا، والتحولات التي جعلته واقفًا عند هذه النقطة، ثم الحكم عليه بتقدير صحة أو قبول. إنك ترى الأمر حقيقة لا يتجاوز صيحة نفسية مجردة مدفوع فيها بحالة نفسية معينة ألجأته إلى الوقوف هذا الموقف، لا تقدر أنت على أن تحددها، ثم تخمد ناره فلا تسمع لها همسا. نعم، قد يكون الأمر حق، والرجل أخرج ما في جعبته، وهو وإن لم يكن دون المستوى المراد، إلا أنه أجاد بما أفاضت عليه قريحته، وما هداه إليه فكره. وهو في تلك لا ملامة عليه إذ أن الأمر في بلوغ وسع المرء. فإذا بلغت وسعها فقد أدت ما عليها، وأعذر لنفسه بالوصول إلى ذلك فالأشياء قدر المستطاع تقبل، وليس وراء ذلك إلا التعجيز والعجز. الذي يطالب بالعجز هو الذي -حقا- عليه أن يبحث في نفسه ، ويعلم أن الهوى قد سيطر عليه والعاطفة قد تحكمت به في موجة من العنف النفسي، وأن هدوءه لن يكون إلا بخراب عليه وعلى أمته أعلم. رحمني الله وإياك. أن عند الخوف والعجز تقف كل القوانين عاجزة، وليس هذا فقط، بل تسقط الأحكام هنا، فساعتها لا تحدثني عن المنطق وأنّا لخائف أو عاجز منطق يملكه، إنه لا يملك إلا منطق حالته ومصيبته، يبثه مشتكيا ويقوله حزينا فحينئذ يخلو العقل إلا من هذا المنطق، يملكه ويسيطر عليه، فلا ينازعه أي منطق بالظهور فيما جاوره لا جرم أن قد يخور الخوف أحيانًا بعزيمة من النفس وشجاعة من القلب، حاثًا إليه على الاندفاع متحمسا ومنبريا في سبيل ما تريده نفسه، أو ما يريده لها أو لعله الخوف نفسه هو الذي هزهُ مضطربا دافعا إياه على الهروب من الخوف نفسه. كأنه هنا حالة استعداء

من النفس للنفس بتأثيرات خارجية. وقد يكون العجز أول الطريق نحو القدرة والقوة، وقد يكون الضعف أول الطريق إلى الانتصار، ولكن مسافة ما بين الطريقين طويلة، والمخاطرة متعددة، ولكن كل ذلك لا يمنع من الوصول، بل محفز للنفس على التقدم والمواجهة، أيريد الأمر كلأ مباحا كل يقدره، لابد من تنشيط النفس لتعلو فتصل .

ثم بعد ذلك يصبح من السهل على عتاد الأمة وقوتها القادمة من الشباب وغيرهم، الذين ما لبثوا أن بلغوا تلك السن، بل وهم في طريقهم إليها، تكون عقولهم طور البناء والتشييد، فلا تطلب إلا المزيد، كيف يصنعون؟ كيف يتحركون؟ ماذا يظنون؟ كل ذلك يُبْنَى في عقولهم من معلومات مؤلفة لا في الكتب وحدها، بل في بيئتهم جميعها. فهو يطلب المزيد، ولكن السؤال هنا، الذي يأسس لبناء مدارجه العقلية والفكرية بشكل عام، هل لما يتلقاه من العلوم له تأصيل فكري أو عقائدي، ليتبع ذلك السؤال عن النهج أو النمط المتبع في بناء تلكم الشخصيات التي هي ستشكل الأمة فيما بعد، فعلي ماذا تنصبون اهتمامكم وفي أي جهة؟ أو بالأصح ماذا تريدون أن يصبح هؤلاء، فأصبحتم تغذونهم كل يوم بهذه الوجبات الفكرية أهي صحية أم سامة؟ أهي نافعة ومفيد أم ضارة قاتلة؟ أهي لبناء شخصية مرتبطة بدينها وعقيدتها أم تركها فارغة لتملأ بأي شيء؟ أهي لتأصيل الحقيقة والقيمة كماهي أم هي لانتصار أنفسكم في رغبات هؤلاء النشء القادم؟

إن في مصاحبة الإنسان الشك وأصحابه من التردد والوهم والارتياب، يجد نفسه في خلل فكري لا يتوقف إلا بنوع من اليقين، يصحح به ما فسد من أنواع التوهم والتوهم قد يكون عقلي ونفسي. وأيًا ما كان فإن خطر هذا لا يقل عن خطر الآخر في النفس، أو في التأثير المصاحب لأعراض عدة مبدأها من الشك. ولست هنا أفصل الشك ومناهجه وآراء الناس فيه، ولكني أنظر فقط في أثره على النفس من حيث التغيرات المصاحبة للإنسان من خلال اتباعه منهجا عقليا أو فكرا تحاكميا، ثم كيف

يهلك الذات ويؤدي إلى كثير من الضرر، بإقدام النفس على الانتحار الفكري والهلاك اليقينـي وكيف أنه يخرب للمرء حياته ويفسد عليه صفاء يومه ومتعة لياليه. وكيف أنه مـا دخل مجالا من مجالات الحيـاة والعلاقات والمعامـلات إلا أردّاه وأزهقه، وبدل ما صفـا بما كدر، وما استحلى بما استملـح، وما أجمل بما استقبح، غير إيراده القلق وما اتبعـه من الحيرة والخوف، ومـا استعلى منه بالغلظة أحيانا، وسـوء الخلق أخرى وما أسفله من لين الجانب أحيانًا والتردي في المسامحة أحيانًا أخرى. وهو في ذلك بين بين ، ينتحـل من هنـا صفات ثم يتركها ليلتبس غيرها، فما تعرف لـه صفة أصلية ينتسب إليهـا أو يعـرف بها . وذلك لأنه لما خـلا جانبه وخوى باطنه، وجـد نفسه في صعوبات عدة، فهو لا يقبل هذا ولا ذاك، وهو بين قبول ورد، يتقدم أحيانًا ويتأخر أخرى فتخلص من ذلك بإلباس كل حالة لبوسها لا في حق أو زور، فلا لا يعرف لكلا الحالين شيئًا فهو لا يُثبـت أو ينفي لعلنا نُرجع ذلك في بعض أسبابه إلى اضطراب الباطن، وقد قلنا قبل أن الخـلاف معرفي ولكن اضطراب الباطن سبب أصيل في اضطراب الظاهر. فأفعال الجـوارح مدفوعة بالمدخـلات إلى القلب ، وقد علم أن القلب هـو المسيطر على البدن كلـه، فلا حراك له إلا بأمره، ولا فعل لـه إلا باستخبار رأيه وخوارج البدن هي انعكاس للمدخـلات إليه والمدخلات إلى القلب بطرق معينة كلهـا تؤدي إليه. منها:ـ النظر وهو عمل حاسة الإبصار من آلة العين، فالعين إذا رأت تمنت وعشقت وجالت وصالت حتى قـد يتطلب بسبب هـذه الرؤية بذل الوقت والمال والمجهود فأمثلـة ذلك كثيرة . ومعلوم أصلًا أثر النظر في تغير القلب فإما محب فيفرح، وإما حاسد فيحزن، وإما عدو فيكيد ويدبـر. فطلب المرء لبديهيات حياته من مـأكل ومشرب إلى آخره، إنما هو بالنظر وبه يقـوم الاشتهاء للشـيء والرغبة فيه وهو من أقـوى الآلات في التأثير علـى القلب، فهو مباشـر إليه ومـن مداخلها أيضًا. ـ السمـاع فأثر السمع على القلـب شديد بعد النظر مباشرة وهو ملازم الكلام، وأثر الكلام لا يخفي على السامع فكم من إنسان سمع قولًا

هوي به إلى الأرض فأفقده به قوته، وخارت على إثره ثورته وعنفوانه وذلك لأن السماع مؤدٍ إلى القلب والقلب هو المتحكم بالبدن وبه نشاطه وكسله، وقوته وضعفه . فانظر إلى الأخبار في السماع لتعلم أثرها.

وانظر إلى أحدهم يعشق امرأة سمع عنها فقط، فطيرت بها نفسه، وتملك حبها فؤاده، وفي ذلك يقول بشار بن برد:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانًا

قالوا بمن لا ترى تهذي، فقلت لهم الأذن كالعين تؤتي القلب ما كان

وكم سمعنا بأناس تحابوا بالسماع، وآخرون تباغضوا وتباعدوا فكان السماع هو الشريك بينهم، وهو العلة في اختلاف نتائج أسبابهم . وأثر السماع على القلب شديد. وهكذا تجد الإنسان كلما طال سماعه للخير والأقوال الحسان دأب على ذلك حتى صار عادة مستحكمة فيه بل وجد لذته وفرحه وسروره به. ناهيك عن شديد إنكاره إذا سمع غيره وكذلك إذا طال سمعه للسيء من القول وطال مشاهدته للقبيح من الفعال، وتعود عليه وصار إلفه الذي لا يخالفه، ونديمه الذي لا يعارضه. وأثر هذين وما بهما من الفوائد في مجالات التربية والمصاحبة والصداقة والبيئة إلى آخره لا تكاد تخفي. وهي كذلك تفسر كثيرًا من الظواهر المنتشرة بشكل واضح لا لبس فيه، وتبين العلة والخلل، فيعد الحديث عن هذه النقطة بعينها موضوع آخر منفصل، ولكن أسلط عليها شيئًا من الضوء هنا قصدًا للفائدة.

ومن المدخلات إلى القلب كذلك، حاسة التذوق فالإنسان إذا ذاق شيئًا ما تاق إليه وتتبعته نفسه بالرغبة في طلبه، وذل الأشياء في سبيل الحصول عليه. ويبرز ذلك في الطعام، وأن كان ليس مقتصرا على الطعام والشراب فقط فانظر تخيير المرء بين للأطعمة، واختياره وتفضيله بينها، نعم، قد يكون مبدأيا بالشكل العام، ثم للتذوق الأثر الأعظم في الرفض أو القبول في الرغبة من الاستزادة من الشيء حتى تنشأ

علاقة حب مع الطعام، فتجده يقول لك، أحب أكل كذا وكذا. وأكره أو لا أشتهي من الطعام كذا وكذا. إذا ليس الطعام فقط هو امتلاء المعدة وانتفاخ البطن، ولكن الأكل تذوق ونوع من الحس، وتجد أثر المخ في ذلك لا يخفي من إفراز هرمونات الاستحسان أم لا. فانظر كم يدفع المرء لأجل الطعم والتلذذ، وكم يبذل من الوقت والمال والجهد في سبيل إرضاء ماذا؟ المعدة؟ لا إرضاء لشهوة القلب في الحصول على نوع من الرضا بالتذوق إلى آخره ، والأمر فيه طويل ، فالتذوق يكون عادة علي المحسوسات المصورة ، فكل ما طلب تذوقه وكان له طعما يذاق به ، فيكون للقلب أثر فيه طلبه وحبه أو رفضه وكرهه أو التوقف فيه بلا رغبة يبديها.

ومن مدخلات القلب كذلك، حاسة اللمس. وهل المرء يدرك نعومة الأشياء وخشونتها إلا بالملمس! فلا يخفى أثر اللمس على النفس والقلب وكيف تهرع النفس إلى الملمس الناعم الجميل. في كل شيء، من أقله إلى أعلاه. ففي الأقمشة والمفروشات والملابس وهو أبرز ما قد يذهب الذهن إليه، يحب لبس الحرير، أو الأنواع القطنية. فلا تؤذي البشرة بشيء، بل تورثها إحساسا بالراحة والنعومة وذلك من آثار القلب في حالة نومه، يحب أن يكون مضجعه مفروشا بما ييسر له نومه، فيتقلب عليه مستريحا، لا آخر يؤذيه ويضره. إلى آخر ذلك والأمر فيه لا يقف عند هذا فقط ، بل يتعداه إلي غيره مما هو مربوط بعلاقة اللمس والحس كذلك.

ومن مدخلات القلب كذلك، حاسة الشم فالإنسان تجده يحب أن يستنشق ما عبق من الروائح فيحب الروائح الزاكية، التي تورث نفسه نوعًا من الهدوء والراحة. فتجده مثلًا يهرب من الأماكن ذات الروائح القبيحة، ويفر منها ويلجأ إلى الحدائق والزهور، ذات الأشكال والألوان والرواح الطيبة. وتجده كذلك يشتري الروائح ويعشق العطور وكل ذلك والقلب من وراء القصد.

إن عمل القلب في حياة المرء واضح لا يخفي فهو آلة الشعور والعاطفة، المنتجة

لجميع أنواع المشاعر فتجعله يألف ويحب ويبغض ويعادي ويهجر فكأن الجسد كله متأثر بفعل القلب لا بحكمه حتى كذلك لا يخلو أثره في المعاملات والعلاقات بين الناس، فهي في كثير إن لم يكن كلها قائم على عاطفة القلب، لا الحق واتباعه والباطل واجتنابه. بل كذلك في العبادات، جعل أصل ومحل انعقاد الأشياء عليها باشتراط النية، التي هي فعل القلب ثم جعل الإيمان منه وفيه. وجعله متأثر بمدخلات الحس بين زيادة أو نقصان وكذلك مدخلات معنوية. وكل له وزن في التأثير فأثر العبادة قابع في القلب منبعثا على الجوارح، فكأنه الملك الذي يبعث جنوده واتباعه لذلك كان محل نزول الرضا فيه وعليه وجعله يوم القيامة من أسباب الفوز والفلاح، لأن تعلق القلب بالأعمال واضح، فكلما نقي القلب وخلص، كانت الأعمال متابعة لفعله لذلك يقول تعالى في كتابه الكريم " إلا من أتى الله بقلب سليم "

قلب صاف خال من كل شيء سوى اللّه تعالى، فهو متعلق به وحده على الحقيقة، يطلبه هو، يدعوه هو، يرجو ويرغب ويرهب إليه هو، لا إلى غيره فجعل تمام انفعال فعل القلب من الحركات الظاهرة أو الباطنة كلها مردود إليه، فخلص لهو هو وحده . " كلما تأثر القلب وجدَ لذلك انفعالا وتغيرًا في الجوارح " وتلك قاعة عظيمة وهي تأثر الباطن بالظاهر والعكس ولها تفصيلات طويلة ليس هذا محلها فما فعلها إلا نابعة منه، ثم إن مصدرها إليه ولذلك يحدث النفاق في المخالفة بين فعل القلب، والظاهر لينتج من ذلك حركة ظاهرة أو فعلًا خارجي ليس أصلًا أو مستقر لما كان في القلب. وتلك هي حقيقة النفاق لأن الانفعال الخارجي ليس ملازما أو مرادفا للانفعال الباطني، بل هو عكسه ومغاير له ومن هنا تنشأ المخالفة.

لذلك من أهم الأشياء في الوجود، أن يحفظ المرء عليه قلبه من كل مكروه وسوء وشر، وذلك بالعقل والمنطق السليم، ليضم إلى ذلك رباط الحكمة وهو العقل المستبصر، فالعقل وأثره لا يخفي، ويشتد الاحتياج إليه، عند اجتياح العواطف

والمشاعر، فهنا لابد من لجام العقل وصوت المنطق، ليمسك بلباب الأمور ، فالقلب مرتع وملتقي كل شيء ضار ونافع، بل ومهلك كذلك، فقد يرغب المرء فيما يهلكه ويفسده، وذاك معلوم ظاهر، لذلك كان لابد من الذي يدفع عنه هذه البلايا، ويأخذ به إلى غير طريق الهلاك. فعندما يريد العقل ما يرفضه القلب، أو يريد القلب ما يأبها العقل هنا تشتعل حروبا طاحنة بين كليهما. وذلك لاختلاف طبيعة ما بينهما. فالأول هو صوت العاطفة والشعور. والآخر هو صوت المنطق والتفكير والتحليل والنظر في نتائج الأمور وعواقبها . وقد يظل المرء في خضم هذا الصراع الزمن الطويل ؛ وهو ليس صراعا من حيث الطبيعة الفطرية، بل من حيث الطبيعة المكتسبة وأعوان هذا وأعداء ذلك، وتلك قصة طويلة جدًا . بل قد يعيش المرء حياته بطولها أو قصرها وما ينتهي منها. وقد يؤازر كل منهما صاحبه ويعاضده . فالعقل هو المميز لحقائق الأشياء، والمدرك لطبيعة الشر والخير، فبه تتم المعالجات العقلية والفكرية والإدراكية. وهو آلة الاستنباط والجامع بين الأشياء في سياق من الترابط أو الترادف أو التناقض، فروابطه متعددة وهو المميز بين المتشابهات، وهو الحاكم في مواضع النزاع والمحلل لأسباب الخلاف والمشكلات والاضطرابات فهو القيادة المركزية للتحكم بالعالم الخارجي من محسوسات وموجودات فلا يأمر أمرًا إلا ويؤخذ فيه رأيه وإن القلب قد يطغى في الاستئثار ببعض القرارات، ويستبد بالبعض الآخر، خاصة ما يتعلق منها بالعواطف والرغبات وقد يتشارك معه في قضايا أخرى فقد يجتمعان ويقتربان، وقد يختلفان ويتنافران ولا يجب أن ننسى أن مناط الفكر وإعقال الأمور إنما هو به، فهو قِوامه فهو مناط التكليف والمحاسبة والتمييز.

بالعقل يعقل المرء حياته، وعَقَلَ الأمر أي فهمه وأدركه، وأحسن درايته بهو قد يطلق فيراد به الحبس والوقف، كأنه يحبس به الجهل، بإطلاق الفهم ويوقفه بإنفاذ المعرفة كأنه المقود الذي يتحكم بالنفس في مرحلة من مراحلها وليس هذا فحسب، فالحبس

هنـا عام، كأنه يرتقـي إلى أعلى درجات العلم بعقله هذا. فهـو يحبسه عن كل ما يذم ويعـاب، ويدعـوه إلى كل ما فيه مدحـه والثناء عليه. وهو يحبسـه كذلك عن الوقوع في المهالـك والمضار فلذلك، كان العاقل هو المخاطـب في جميع الأحكام الدينية والدنيوية لأنه ضده هو الجهل، ومنه بسيط ومركب وهو في كليهما نوع من انعدام المعرفة والعلم. ومـن ذلك يعلـم، وأظنه من الحكمة "أن قـدر الرجل يعرف بمدى عقلـه قوة وضعفا، فهـو الذي يقاس به لا بوزنه وحجمـه أو شكله". فبتمام العقـل ورجاحته تبني الدول، وتـزال الحواجز والعراقيـل، وتحل المشكلات، ويبلغ من التفاهم حـدّ هو أقصاه وكلما كـان هناك خلـل في العقل. لا أقصد مرضي أو جيني ونحـوه فقط بل فكري أو منطقي أو عقـدي. كان نتاج ذلك واضح بمقدار ما كان يحتاج إليه. ولذلك فالعقل محل الفهم ومـدار الثناء يقـع عليه، إذا كان المؤثر من حسن التعقـل حسن التصرف. ويقع كذلك من الذم والضرر على المرء بمقدار ما فقد منه لذلك وقع التفاضل بين البشر وكان من أسبابـه الرئيسة، هو العقل ومنه ينبع الصفات الحميـدة ومنها الرجولة، والشجاعة، والصبر، وقول الحق، والصبر على الأذى فيه. ثم الحلم والإناء. وكلما عقل المرء أكثر انتفع بالحياة وبما يصيبه في الدنيا، وبما يقع تحت يديه أكثر على الوجه الصحيح فلم يضيعها.

وكما قـال أبو الطيب:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته	حتى إذا فاته أمر عاتب القدرا

وقـال غيـره:

ليـت هنـدًا أنجزتنـا مـا تعد	وشـفـت أنفسـنـا ممـا تجـد
واسـتبـدت مـــرّة واحـدة	إنمـا العـاجـز مـن لا يسـتبد

وكما قال أبوطالب في مدح النبي ﷺ

فمن مثلـه في الناس أي مؤمل	إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليـم رشيد عادل غير طائش	يوالـي إلهـا ليس عنه بغافل

فصاحب العقل فطنٌ لبيب، يعرف كيف يزن الأمور، وكيف يقدر الناس فينزل كل واحد منهم منزلته، وكيف يقدر الأشياء فيضعها في نصابها وأمكنتها.

أمَّا القلب فهو قصة أخرى، ويحتاج القول فيه إلى إسهاب طويل وقد ذكرت آنفا المدخلات إليه، وأضيف هنا، بأنه أداة الإحساس وآلة الشعور. هي التي تجعل المرء يشعر بإنسانيته، وبه جميع أنواع الشعور من صفات سلبية أو إيجابية، تجدها كلها في مردودها على القلب من الحب والكراهية، السعادة والحزن، به تذوق طعوم الدنيا بين حلوها ومرها. وما سمي القلب إلا لتقلبه على نفس صاحبه، فهو لا يثبت على حال، وليس به قرار. فهو دائمًا بين الحب والكراهية، بين السعادة والحزن، بين الخوف والشجاعة، بين الإيثار والبخل. وهذه إحدى حكم الحياة أن تكون على يقين لا يتاخمه شك أو يقربه ظن، بأنك لن تكون دائمًا على حالة واحدة، فأنت دائمًا بين حالتين متناقضتين، قد يظهران معًا بشكل واضح، وقد يتباعدان على فترات ومدي بقائك في إحدى تلك الحالات هو معلق على مدي فاعلية نتاج ثمار عقلك، وهذا يورثك كثيرًا من الحكم والفوائد، فتأمل. كلما صح قلبك وكان سليما معافا من الانكسارات والخذلان وغيرهما، كان أكثر قدرة على ممارسة شعائر المحبة والتقدير والاعتزاز ونقص هذا يورث نقصا في ذاك. وهكذا كلما صح وسلم كانت لديه القدرة على التوازن بين المشاعر، والقدرة على التقييم فيُكون نوعًا من المخيلة العقلية والقلبية فتصبح القدرة عنده أتمّ وأرشد على إتمام تلك المعادلة بين القلب والعقل. فكليهما محتاج للآخر، لازم له. فلا يكاد يتم عمل أحدهم إلا بوجود الآخر فهما واسطتا العقد، أمَّا حالات طغيان أحدهما على الآخر وهكذا، فهذا مما يحتاج إلى توجيهات كثيرة، غير أن ما أقوله هنا، أنهما يتمان العمليات التي يحتاجها الإنسان بشكل لا يكاد يخطر له على بال، وكلاهما مكمل للآخر، متمم له فالحياة بجميعها، بكل ما فيها -بالنسبة للإنسان- متوقفة على هذين، فكل منهما له مجاله الذي يميزه، واختصاصه الذي يفضله،

ولهمــا نقاط اجتمعــا فيه أو افترق عليه فهمــا مركزا التحكم، وعصــا القيادة، ودرعا الأمــان. إذا حدث خلــل في أحدهما اختل كل شيء بمقياس درجــة اختلال الأول، وإذا قــوى أحدهما على الآخر أحــدث من الضرر في جانب الآخر بقدر مــا ازداد فيه بقوته علــى الحد الطبيعي. حتى تجــد في ذلك تباين الناس بين من يقدم قول القلب وحكمه، وآخــر يقدم حكــم العقل ومذهبه. واللبيــب السوي المتوازن، الــذي يجعل كل في عمله، فيفطــن لمواقع كل منهما، فلا يسمح بأن يتدخل أحدهما في سلطات الآخر وصلاحياته . فيوظــف كل منهما في وظيفته، فيحــدث التوازن العقلي الفكري، العاطفي الشعوري .

والتــوازن ليس بالضــرورة أن يكون مرادف التساوي، بل هــو يعني التعامل مع كل حالة بمــا يناسبها ويصلحها فيتعامل مع الموقــف والحالة بما تستلزمه أو تطلبه، فيوازن بين الموجــود والمطلــوب، ثم من حيث الصحة والفساد، إلى آخر ذلــك. فهو تعاطٍ مع الأمر من غير إفراط أو تفريط.

هـروب آخر

أقلب نظري في حياة الإنسان منذ نشأتها إلى نهايتها، فتجد دائمًا نوعًا من الأشياء ظاهـري فيهـا لا يفارقها، وآخر باطنـي لا ينفصل عنها. وهنـاك عوارض تطرأ، فهي متغـيرة من شخص لآخر، ومن حالة لأخـري، ومن مكان لغيره ، ولكنك ترى أشياء في الإنسـان هـي دائمًا متعلقة بطبيعته هـو، بمشاعره، بل وبطريقة تفكـيره كذلك، كأنها عادة من عاداته، بل لعلها كذلك ، ولكني لم أقرأ لأحد من قبل أن ضمنها عادات البشر أو تقاليدهـم لعلها كذلك لأنهـا فعل تلقائي في النفس أو الشعور أو حتى الفكر. ويتبعها من العادات واللوازم والتوابع الشيء الكثير وحتى لا أطيل في التمهيد بين يدي عرضها هنا، فهي بكل بساطة معقدة، هي "الهروب" . نعم، الهروب لعلك قد استغربت الكلمة، وعظـم وقعها على سمعك، بل لعلك حتى استهجنتها ثم أنكرتها، وطويت الورقة ملتفتا لمـا وراءها لعلك تجد شيئًا ذا بال. لكن دعنـي أحادثك بحديث النفس، لا حديث هوي وتحيز، بل حديث نظرٍ وتروٍّ . إن الإنسان كائن حي، وفي تعريفه لعلماء المنطق، يقولون، الإنسان حيوان ناطق. وأيّا ما كان هو، وأيّاما كانت صفاته فلن تجد أبدًا صفة الهروب، صفة يتصف بها أو ينسب إليها. ولكن الإنسان دائم الهرب و إن اختلفت طرق هروبه، وحاول صبغهـا بصبغات متعددة، وأضاف عليها ما ليس منها ليوهم الآخر أنها ليست كذلك، غير أن ذلك هو ما يؤكد هروبه، فيجعله هروبًا مركبًا لا بسيطًا عاديًا. كرد فعل للنفـس، أو حالـة بيولوجية معروفة كهروبه مثلًا من الخطـر أو من كل ما يؤذيه. وهذا مـا سنذكره بشيء من الإيضاح، بوضعه تحت مجهر النفس، لنرى إن كان اعتباطيًا أم لا، أم لـه أنماط أخرى تميزه، وكيفية هروبه. وهـل ذلك الهروب في نفسه ممدوحًا أم مذمومًـا، وماهي الصفات الأخرى التي يستلزمها أم أنه يستغنى بذاته عن غيره لنرى

في نهاية الأمر أن الإنسان كائن شديد الهرب من أشياء كثيرة في حياته. ثم سنرى كيف يتبنى أنماطا يتشابه فيها مع غيره من البشر، غير أنه يمارسها بعفوية وتلقائية منه.

وقبل أن أتكلم عن اتصاف الإنسان بهذه الصفة أشرع أولًا في بيان الهروب من حيث أرى، فالهروب متضمن شيئين، وهما الخوف والطلب. أمَّا الأول فهو داعي المرء للخروج والسياحة في الأرض، يخرج من مكان للخوف. وهذا الخوف نفسه له تفسيراته الأخرى، فقد يخرج رهبة ووجلًا، وقد يخرج خوف إطالة اللبوس فيحدث مالا يحمد عقباه، يخاف بعدم خروجه فوات أمر ما ينتظره، أو يخاف عدم استقامة حياته التي هي تطلب التنقل والحركة. فهو شيء ما يحركه، سواء أكان ماديًا محسوسًا، أم عاطفيًا معنويًا. والثاني وهو الطلب والعلة، ولعله يتضح بمعنى أكثر بيانًا وهو، اللجوء؛ فالهارب يكون من شيء إلى آخر، فهو يطلب الأخرى التي يرمي النجاة إليها من الأولى، لذلك تجده دائمًا بين خوف ورجاء، بين طلب وتمني فهو دائمًا يتردى بين تلك المنزلتين والحالتين، وكذلك الهارب من أي شيء كان، لا تجده يخلو بين الأمرين وتجده في تلك اللفظة، ما يشعر بمعنى التجنب لحالة ما والابتعاد عنها، ونزول ساحة أخرى أو طلب وتمني النزول بها.

وتجد أيضًا في تلك اللفظة ما يشعر بمعنى المحالات المتعددة، فهي ليست محاولة واحدة ليقف الأمر وينتهي، وإنما هي مرات تلو مرات أُخرى. قد يتخللها نوع من الوهم، أو الشعور بالارتياح والطمأنينة، وقد يتراكم الألم على المرء فيفقد بذلك شيء من الحس، يوهم عنده أنه في حالة أخرى غير الأولى، وقد يكون من أثر مضاعفات حالية للوضع الأول نفسه، ومما يشعر به كذلك أنه فيه نوع مجاهدة ومقاومة، فالوضع هكذا به مجاذبة بين شيء في باطنه، وشيء في خارجه، فكأنه تنافر بين الداخل والخارج، في حالات مدافعة بين أشياء عدة يُبرزها جانب الخوف والطلب. إن الهروب في ذاته يحتاج إلى عدة أسباب مجتمعة تحثه عليه، وإلا فإن طبيعة الإنسان لا تحب الأسفار

المرهقة والخروج المتعب، بل تلجأ إلى الراحة والكسل والدعة. فالرغبة عنده قوية في جعل الأشياء جميعها سهلة ميسرة، ليس فيها نوع من الإرهاق والتعب، وعدم التعنت والتكلف، والهروب يضاد كل ذلك. فهو يدعو المرء إلى بذل النفس والمال والوقت، بل كل شيء في وصوله إلى الراحة التي يبتغيها.

والهروب هذا صفة في البشرية بمجموعها، بل وأفرادها كذلك، فهي قد تكون صفة ذاتية بمحل معين، وقد تكون اكتسبها من خلال حياته وتجاربه وتعقدت فيها، وتأصلت حتى بلغت الغاية . حتى وصوله إلى هروبه من ذاته ونفسه التي بين جنبيه. وللأمر تأصيلات متتابعة سنأتي عليها .

الهروب من حيث أصله قد يكون طبيعي لا مندوحة عنه، بل يذم تركه في تلك الحالة، وهي هروبه من الموت بجميع الوسائل والسبل، فيهرب من الجوع بالأكل، ويهرب من الظمأ بالشرب، ويهرب من التعب بالنوم، ويهرب من المرض بالتماس وسائل الشفاء، ويهرب من مواطن الخطر إلى مجالس الأمن وهكذا، وهو هروب طبيعي فهو يهرب من كل ما يؤذيه ويضره، من أي نوع من أنواع الأذى سواء كان المحسوس منه مثل هروبه من الوحوش والسباع، فكما قال أحدهم "ولا قرار على زأر من الأسد". أو غيره مثل نفوره من أماكن العدوى والأمراض وانتشار الأوبئة والأسقام، إلى أرض يرجو فيها بُرَء مرضه إن كان مريضًا، أو وجود الرعاية الصحية إن كان معافًا سليمًا. فهو في جميع أحواله يطلب الحياة لنفسه أولًا ثم لغيره، وقد ذكرت شيئًا من ذلك حين الحديث عن صفاته وجِبلته، بل تجد هروبه من أماكن الجدب والفقر إلى مواقع القطر ونزول الماء. وإن كان معه بعضًا من الخير، فهو يطمع إلى المزيد منه، فهو يهرب من القلة إلى الكثرة فيهرب من موطنه ليسافر لغيره طلبًا للحصول على الكثير من المال والرفاهية والنعيم، ليصل بذلك رغبات نفسه في تحقيق الراحة والسعادة والغنى، فهو يهرب من الدنو بكل ما يحتويه إلى العلو بكل مايقتضيه، وإن كان في مرتبة بينهما، أراد أن يخرج منها إلى ما فوقها حتى يصل نهايتها وعلوها، فطموحه لا غاية له.

ولا يـذم الهـروب في حالة كتلـك، إذ لا سبيل للنجـاة إلا بها، فلو بقـي على حالته الأولى لتهالـك ومات، ولكنـه صابر عليها وخرج منها استبقاءً لنفسه وذريته من بعده. والحفاظ على النفس مطلب أساسي في كل شيء، فهي البنيان البشري المطالب بحفظه ورعايتـه من كل ما يؤذيـه أو يضره، لذلك شرع له من أسباب النجاة مالم يشرع لغيره مـن أجل الحفظ عليه واستبقائه. فأبيح له مما حرم عليه بقدر بقائه حيًا. ورزق نعمة العقـل، لكي يقدر على تمام الحفظ لدينه ولنفسه ولجسده ولعرضه ولماله ، فيكون أولًا أعلم بما ينفعه فلا يضيع عليه خير فيحرم نفسه من منفعة محققة، وكذلك لا يضيعها بما يفسدها أو يهلكها من غير قصد أو إرادة. ولكنه تعالى رقّاه فوق ذلك وكرمه بنعمة العقـل والفهم والكلام والبيان، وكل ذلك فيه مـن بيان إتمام نعمته عليه، فجعله أعلى الكائنات وأفضلها، وهذا أمر تام بَيّن يطول فيه الشرح ويكثر الكلام، ولكن يستغنى عن الشـرح بإيراد أصل الفطرة وقِومها، ويكفيك فيـه بأن الله تعالى سخر ما على الأرض لخدمـة الإنسان وراحته، فخلقها تعـالى له، لكي يستعين به على قضـاء شئونه وأموره فالتمييـز بالعقل يقتضي أن يحميه من شر هـذا العقل، فالعقل آلة فكر خطيرة، إن لم تستعمـل فيمـا وضعت له، من غير تجـاوز للطبيعي والمحدود، ضللـت وأفسدت فحماه مـن شر نفسه بأن لا يكـون العقل هلاكًا عليها، فبدلًا من كونه آلة شكر يستعين به على شكـر الله تعالى وعبادته، يصبح آلة عـذاب للنفس، فيرهقها تأليمًا وعذابا فتذوق ألم الفقـد والحرمان أضعافًا مضاعفة. فمتعة الحيوان البهيـم أو ألمه نوع بسيط، إذ ليس فيـه إلا الشعور بالألم الحـالي، و بالخطر المحدق عليه، لا مضاعفة لذلك. أمَّا الإنسان فألمـه مركـب؛ لأنه يشعر بالشيء مضافًـا إليه أشياء أخرى تزيد مـن ذلك العامل قوة وضعفًا. فتعامل المرء مثلًا أو الحيوان في مواجهة واستقبال اللذة أو الألم مختلف، فهما وأن تشابهـا في مصدر حصول الأشياء لهما، من حيث آلة الشعور والإحساس، وكذلك آلـة أخرى هامة جـدًا، وهي الغريزة وهـي السلوك المندفع من داخـل النفس من غير

سيطـرة عليـه أو تعليم له، فيجده المرء يهيج به من غـير دراسة أو تعليم، وقد تستطيع أن ترادفه مثلًا عند الإنسان اختلافًا عن الحيوان، لتمايز فروق أخرى أثرت على الأول سنقصهـا تاليًا. هي الفطرة التي فطر الإنسان عليهـا، فكان عمله فيها إظهارها على سلوكـه وتصرفه، أو الانقلاب عليها ومخالفتها. وتستطيع أن ترادفها بالضمير وصوت النفس، الذي تجده يندفع في داخلك في كثير من الأوقات، إمَّا محذرا من أمر ما فتجده ينهاك أن تقدم على أمور لا يستحسن بك فعلها، فيورث فيك نوعًا من التردد والخوف والقلـق فيثبطـك، وتقل قابلية رغبتك في الفعل أو مادحًـا مُقدَّمًا، وهو هنا يدفعك إلى الأمـر ويشجعك عليه ويدعوك إليه. ثم إنه يتشابه مع الحيوان في المحركات الغريزية، وهــي التي تدعو كليهما للبقاء وهــي الحاجات الضرورية المنبثقة من غريزة البقاء من الأمـن والمأكل والمشرب والمسكـن، والملبس بالنسبة للإنسان، والتـزاوج من حيث بقاء الجنس واستمـرار النسل في كليهما. والإنسان قد يرتفع بإنسانيته وقد يهبط بهيميته. فهـو قـد تشارك مع الحيـوان بجامع كونهما كائنـات حية، لها صفـات متقاربة للبقاء والنمـو، فكلامهـا لديه عالمـه الذي يميزه عن غـيره، ولكن لما كانا جميعًـا في الوجود، ثـم اشتركا في الحيـاة وكذلك في نماء الجسد. تشاركا في أصـل الغريزة المحفزة على الحيـاة، فهي رد فعل طبيعي يمارسه كليهمـا بسبب المحفزات الخارجية بالإضافة إلى التكويـن الظاهري في الهيئة الخارجية، وما احتوت علـى أجهزة حيوية لها احتياجات حتـى تتم عملهـا، فبدأ حيز الرغبة يزداد شيئًا فشيئا، تبعًـا لعدة أمور. فكلاهما لدية غريزة تدعوه إلى البقاء حيًا، وإن كانت الغريزة نفسها رد فعل طبيعي للتكوين الخلقي، إلا أنهـا اختلفت في كليهمـا في شيء ما، ولكن هي في أصلها داعية إلى اللجوء لشيء ما "المقومات الضرورية للبقاء وللحياة" وكذلك الهروب من "دواعي الفناء والهلاك والمرض".

وتختلـف في كـون الإنسان كائن مفكر لـه تصور وإدراك وخيـال ورؤية وبيان، وكل هـذا يضاعـف غريزة البقاء نفسها مـن حيث كونها في اللحظة الحاليـة، إلى أن تمتد

لتستوعب أوقاتًا أخرى، فتطول لتتضمن اللحظة نفسها وما بعدها. فلو مثلًا نظرت للألم عند الحيوان، لوجدته مرتبط باللحظة التي هو فيها، لا يتعداها إلى ما بعدها فشعوره بأنواعه بسيط، لا يحمل التعقيد والتداخل اللامحدود عند الإنسان. لذلك لا تجد عند الحيوان هذا الشعور بالصفات السلبية، فالحيوان غايته في الحياة اللذة الحالية، فلا يتطلع إلى ما بعد غدٍ، بل هو أصلًا ليس عنده نوع من التطلعات، إلا ما مارسه من غرائزه في تجميع الطعام وحفظه إلى آخره. لذلك أيضًا فالمتعة عنده أقل من الإنسان، بل والألم كذلك لا في طبيعته، بل من حيث هو ألم يصيبه، أي ليس في الخلل الذي يصيب أعضاءه الحيوية أو جسده بل شكل عام، بل في الناتج من هذا الشعور، والمتولد منه من الآلام الأخرى التابعة له، التي من الممكن أن تتجاوز حد الألم الجسدي الأول، أمَّا الإنسان فإن شعوره بالألم واللذة أقوى من الحيوان. ولذلك لكون الإنسان ذا تفكير وتصور وإدراك وخيال، وهذه أسباب جعل شعوره أقوى عنه، أضف إلى ذلك أن من هذه الأربعة تولد كثيرًا، إن لم يكن كل الصفات السلبية من قلق وتردد وخيبة وتشوش وهواجس... إلى آخره. فاللذة مثلًا عند الحيوان هي إشباع الحاجة الناقصة أو الضرورة الطبيعية، ولكن تنتهي بعد ذلك، ليسعى لأخرى، أمَّا عند الإنسان إنها قد تسمم بأنواع من التفكير، بل قد يفسدها ذاتها بشيء من الخيال، ولو أدرك مفهوم اللذة والمتعة بمعنى من العقل المجرد من الرغبة، لرأى فيها دليل على الضعف والألم، كذلك قد يزيده أو ينقصه عن حده الطبيعي، وذلك في الأثر الناتج لأن الطبيعة نفسها واحدة، من حيث أنه جسد نامي له نفس التأثيرات، بمعنى الشعور بألم الضرب والتعذيب وهكذا، وكذلك الشعور بلذة الطعام والشراب، فالمعالجة الدماغية للألم عند الإنسان والحيوان واحدة، بمعنى أمر العقل للجسد بإدراك الشعور من خلال ألة الحس وهي الجلد الخارجي، وهو ألية الدفاع الأولى عن الكائن الحي، فعندما يحدث محاولة لاختراق هذه الآلة بالضرب أو التعذيب. يصدر الدماغ أوامره بتفعيل آلة

الحس، فيشعر الجسد بأثر الضربة، وهذا كذلك يورث الرحمة والتعاطف مع الحيوان، مـن حيث أنه يشعر تمامًا بـالألم الجسدي كالإنسان، فيعاني مـا يعانيه ويقاسي الذي يقاسيـه. ولذلك أيضًا كان هروب الإنسان كثير ومعقد بشكل كبير، وكانت أكبر أدواته إعانـة لـه في ذلك هو العقل، وهو إمَّا يهرب به مما يذم إلى ما يحمد، وإما إن يهرب به ممـا يحمـد إلى ما يذم. فهو دليله في ذلك وقائده. فهـو كما قال تعالى عن أناس "وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا"

والهروب قد يفعله المرء بداهةً بداعي الغريزة، فيشارك في ذلك غيره من الكائنات، وهـو في هـذا يختلف عن الحيوان فهما وإن اجتمعا في الغريـزة للبقاء والتعلق بأسباب الحيـاة، إلا أن الحيوان لا معتب عليـه، إذ هو مجرد من كل الآلات الاستيعاب الفكري، فتحركـه فقط تبعًـا لغريزته وعاطفته وشهوته. أمَّا الإنســان فإنه ميز عنه بالعقل وهو الإعقـال والفهم، فكأنه يشد داعي العاطفة، ويكبح جماح الشهوة بلجام العقل، وسوط المنطـق بالنظر في أمور عدة، ذكرنا كثيرًا منها العواقب والمآلات. وقد ذكرنا أنه داعي الإنســان لما يستحسن فعله ويحمد أثره ، تركه لما يذم فعله ويستشنع أثره، وإن كان فيه عاطفتـه ورغبته وإرادته، فيتركها ملتبسـا بلباس العقل والحكمة فتباعد ما كان جامع لهمـا في مبدأ الأمـر بإعمال العقل والفهم وحينما يهمل الإنسان عمل هذا العقل يهبط إلى درجة أقل من البهيمية نفسها لأنه استعمل هذا العقل في السفول والانحطاط، وهو داعيـه إلى العلـو والمجد. فهبط درجة عـن البهيم الأعجم الذي لا فكـر لديه أو عقل، فسفل هو عنه لإتيانه من المستقبحات مالم يأتيها الحيوان، وهل هناك منكر أعظم من إهمـال العقل والفكر والنظـر، فيكون الحيوان هنا أعلى منه منزلة وأرفع درجة. أو أنه عطل ما ينبغي لمثله أن يفعله من التفكير والنظر .

الإنســان يكون إنسانًا باستعماله لما حباه اللّه تعالى به، فحينما يعطل هذا الهبات، يسفـل عن حقيقة ما خلق لأجله، ويدرك مواطن الشقاء بداعي نفسه وباستعداء ذاته،

وانعكاس ذكائه. عمل الإنسان في الحياة كلها هو التفكير والنظر. كيف لإنسان ألا يفعل ذلك! حقا تلك هي المصيبة الفاجعة، وهذه النكسة المؤلمة.

لذلك يشبه الله تعالى الإنسان بالحيوان في مواضع من كتابه، بل تارة يجعله أقل منه منزلة وأسفل درجة بجامع ترك الإنسان لما أعطى إليه مما لم يعطي غيره من الحيوان والبهائم ، فكان عمل الإنسان فيما أولاه الله إياه أن أهمله وتركه . وهنا مصيبتين، الأولى ؛ أنه ساوى البهيم في فقده للشيء، كأن تركه للشيء بدون استعمال له صار بمنزلة المعدوم منه والمفقود، فشابه الحيوان من حيث نماء الجسد وحده وانتفاء العقل والتفكير عن كليهما. الثانية، ـ أن الإنسان بتركه لما وهب له، كان قد ضيع نفسه بنفسه، من حيث تعطيله ما حقه العمل والإنتاج، ثم كان أمر التعطيل نابع منه هو فسَفُلَ عن الحيوان، من حيث أن الحيوان لم يعطِ أصلًا تلك المنزلة والدرجة فالفقد في الأول طبيعي، والانعدام والزوال في الثاني اكتسابي .

ومن ذلك تقرأه في كتاب الله كثيرًا

كقوله تعالى "فمثله كمثل الكلب" وكقوله عزوجل "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا"

وكقوله سبحانه "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا"

وكقوله تبارك اسمه " أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " .

وفي هذا الآيات نَزَّل تعالى معطل الشيء بمنزلة الفاقد له، لا على الحقيقة، بل من حيث عدم الاستعمال لانتفاء الأثر الموجب أخذه منها. فصارت بمنزلة المعدومة المفقودة . لأنهم هنا تساووا من حيث الأثر والنتيجة، في عدم الانتفاع ولما كان صاحب مقدرة وعلم ونفاه عنه بنفسه، فصار أجهل من الأصم الأعجم، إذ هو ساوي نفسه به، مع ارتفاعه عليه ومقدرته عنه. وكل ذلك، من الغفلة والطيش والحمق والسفه فليس المقصد منها المساواة على الحقيقة، بل هو ضرب المثل لتوضيح الأثر ولتقريبه للذهن.

وكمثـال من الواقع الحالي الـذي نعيشه، وهو على بساطتـه إلا أنه يلامس الفكرة الأصليـة هنـا وهو أنك حين تنـادي على أحد ما، ثـم تكرر النداء مـرات عدة، وهو لا يستجيـب، فتخاطبـه بعد ذلك بقولـك، هل أنت أصـم؟! أنت تعلم أنـه يسمع، ويسمع جيـدًا. ولكن لانتفاء رده عليك حـين ناديته كان بمنزلة من لا يسمع، فسويت بينهما في الفعل والأثر، لا في حقيقة الأمر، وطبيعة السماع في كلٍ منهما وتجد هذا العني واضحًا في شطره الأول، في قوله تعالى "والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ".

فشبههم بهم في حالة عدم إجابتهم داعي الله واتباعهم داعي أنفسهم، بمن يبقى نفسـه في الدنيا للتمتـع والأكل فقط كما تفعل الأنعام فاهتمامـه واقع في كيفية نمائها وغذائهـا. فلم يطلـب من الأنعام فكر أو استجابة لشيء ظاهـر لانتفاء العقل عندهم، فليـس بهم مخاطبة للأحكـام الدينية أو الدنيوية. أمَّا من به عقـل، فهو مطالب بهذه الأحكـام كلها، فكيف ينفيها عنه بعـدم اتباعه له. ويوضح هذه القرينة، قوله تعالى في سورة أخرى " إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيه خـيرًا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهـم معرضون . يا أيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم "

والمقصـود بذلك صممهم عنـد سماع الذكر وتوليهم وإعراضهـم عنه، فكأنهم لا يعقلـون، ولو كـان بهم عقل سليم لتبعـوا واستجابوا ولما خالفوا الأمـر من عند ربهم . كما أمر المؤمنين بعدها بأن يخالفوا فعل هؤلاء ويكونوا مسارعين في استجابتهم لربهم ونبيهم وقد أكد هذا العني في القران عدة مرات، منها قوله تعالى

"أولئـك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحـت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهـم كمثـل الذين استوقد نارا فلمـا أضاءت ما حوله ذهـب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصـرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون"

فهـم لا يرجعـون عن ذلـك الغـي والضلالة لانتفـاء حقيقـة الإسمـاع والإبصار والخطاب والتحدث عنهم . كما ذكرها أيضًا في قوله تعالى:

" ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهـم لا يعقلـون " . فهـم شر الدواب عنـد الله تعـالى إذ لا خير فيهم ولا نفـع منهم ، فمـا استجابوا ولا اتبعوا كما قال تعالى " فهل عسيتـم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعـوا أرحامكم . اولئـك الذين لعنهم الله فأصمهم و أعمـى أبصارهم " . وكذلك قولـه تعـالي : " إن شـر الدواب عند الله الذيـن كفروا فهم لا يؤمنـون " فجعلهم شر الـدواب حينما بدلوا نعم الله عليهم كفرا وحولوا فضله عليهم نكران، ونسبوا أنفسهم إلى الخير والفضيلة والمعروف في داعي أنفسهم، لا في اتباع ما أنزل الله إليهم وأمرهم بـه فحرموا أنفسهـم ومنعوها مما ينبغي عليها أن تفعله كما قـال تعالى "فأولي لهم . طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم " .

ولـو مضنيـا نسهب في هـذا النقطـة وحدها لطـال الموضـوع وانفصـل المقصود عـن سابقـه، إذ تلـك النقطة وحدها لهـا تأصيلات هامـة يجب بيانهـا عنها وكذلك مستخرجـات منهـا ولـوازم مقتضية لهـا إلى آخره ممـا يجعلها مادة بحـث منفصلة بذاتهـا. لذلك نكتفـي في للدلالة هنا فقط علـى فضل العقل من حيـث تمييز الإنسان بـه علـى الحيوان، ثم من حيـث أثره الظاهرة علـى عمل الجوارح، ثم مـن حيث قيام المحمـدة والمذمة عليه في إتيانها لما يحسن أو يستقبـح من الأفعال والتصرفات ثم من حيـث دلالات كثير من الأفعال عليه، من حيـث أنه الأمر مبتدأ، كمثل الحالة التي معنا وهي صفة الهروب .

ولـو جئنـا ننظر ممارستـه لألية الهـروب وكيفيـة قيامه بهـا، مثلًا مـن الناحية العاطفيـة. تجد الإنسان يهرب مـن شعور لآخر، مستخدمًا في ذلـك وسائل عدة منها مـا هـو غريزي فيه ومنها ما هو مكتسب متعلم . فهو مثلًا يهرب من شعور الضعف إلى

التكبر والعظمة أحيانًا ليهادن ذلك الأول، وليظهر نفسه عكس حقيقته أو إلى القوة متحملًا في سبيل ذلك بذل الغالي والنفيس أو إلى التضاعف والهوان فيكون مبديه الأول هو الضعف، فيكون شعور لا متأصلا فيه، وإنما هو نتاج انفعال آخر فهو لأثر خارجي ظاهر كما قال أحدهم

والذل يظهر في الذليل مودة وأود منه لمن يود الأرقم

وكذلك أنواع من الشعور قد تكون لا أصيلة، بمعنى نابعة من القلب متأصلة فيها قيمه. وإنما هي ناتجة لتأثر وانكسار من الخارج أوجد فيها تلك الصفة وهي هنا مرهونة مؤقتة بذلك العارض الظاهر، مبقية ببقائه، مرتحلة بزواله وقد يكون مورث الصفة نفسها من الشعور بالجهل أو الحمق والطيش والانفعال فيعتقد شعوريًا في أشياء لا حقيقة لها، فتورثه نوعًا من الشعور يقيم عليه أشياء من الفكر ثم يفضيه في المعاملة بين الناس، فيضل ويفسد. فيبدل الحسن مكان القبيح، والقبيح بدلًا من الحسن. كقول أحدهم وقد ذكرناه مسبقا، والشاهد فيه:

وعادي محبيه بقول عُداته وأصبح في شك من الليل مظلم

وقول الآخر.

ومن يغترب يحسب عدو صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم.

فيكون الشعور هنا مبني على بِناء خاطئ، فيندرج تحته من الفساد في الأقوال والأعمال مالا يخفى.

وقد يورث الشعور بالضعف، الرحمة والمواساة والتعاطف فيكون الضعف هنا سببًا لإبراز تلك العاطفة وتقويتها، وتكاد تلمسها في شعور الإنسان وتفهمه لكل من أُذِي بشيء أَذي به من قبل قوة في العاطفة، وإدراكًا للأمر وتفهمًا لاحتياجاته نفسها أكثر من غيره. فالمقوي لأثر الشعور هنا هو الوحدة في التجربة أو الفعل، فإن الإنسان يظل عنده تصور أو إدراك لحال ما أيًا ما كانت، ثم إذا ما مر بتلك التجربة تغير عند نوع العاطفة

الأولى المدركة بالإدراك والتصور، إلى أعمق منها وأقوى. والفرق الثاني عن الأولى هي التجربة والمعاينة فهناك فرق بين الشعور المدرك بالتعاطف والتخيل والتصور، والآخر المدرك بالمعاينة والتجربة ومعايشة الوضع نفسه. لأن الحالة الطبيعية للشعور أن يكور إثر حادث في الخارج، أي واقع تتأثر له النفس فيقع أثر سلبًا أو إيجابًا على القلب والمخ، فتظهر هذا المشاعر قوة وضعفًا، فكأنها نوع من انفعال الداخل لحركة الظاهر، لذلك فالشعور لا يكون إلا وليد التجربة والمعاينة، أمَّا الآخر فهو لعله تصور أو تخييل أو تعاطف أو مواساة، ونحن هنا لا ننكر أثر كل ما سبق أو نحدث حالة من التقليل لأهمية المواساة والتعاطف إطلاقًا، أن الأمر لا يعدو غير بيان الفرق بينهم جميعًا، في تأثر القلب وانفعاله قوةً وضعفًا، وأصالةً وعدمًا. من المشاعر التي هي أصيلة في القلب نابتة في قاعه وأصله، وبين الأخرى التي تأتي مندفعة من الظاهر بمختلف علل، أو الأخرى التي هي نفاق في الظاهر لا يوافق حقيقة في الباطن، فليس البكاء دائمًا دلالة على الحزن، فقد يكون متباكيًا أو منافقًا أو مرائيًا، فقد يكون البكاء هنا تأثر لحالة أخرى غير الحزن، ولعلها مثلًا المداهنة أو الحنق أو أشياء أخرى، ويكون الصمت أشد أنواع الحزن لغة ظاهرة، كأنه في صوته أعلى من البكاء وأفصح، فالبكاء حالة عارضة فتنقطع الدموع ليكون محلها هو الصمت، الذي يتخلل كل شيء. حينما تجف مقلة العين بكاءً، حينها يخرج الصمت باديًا في انقطاع القلب عن كل شيء، حتى الكلام يتركه تألمًا، فيكون في صمته أشد حزنًا وألمًا من الذي تسيل الدموع على خديه مدرارًا. أليست الدموع هي رحمة القلب بالإنسان؟ فكيف لو منع القلب رحمته وظمأت النفس إلى دمعة تترجاها، لتتلهى بها فلا تجدها ليقف الصمت عاجزًا عن كل شيء حائرًا وحيدًا، ليكون في صمته صارخًا بكل أنواع الألم والوجع، ليكون في صمته مكبلًا بكل أنواع الحسرات والحزن. ليكون الصمت مظهرًا واضحًا من معالم الحزن والأسى، وقد أحسن أبو الطيب في ذلك فقال:

ورب كئيبٍ ليس تندي جفونه ورب كثير الدمع غير كئيبِ

وقد يشعر الإنسان بالضعف، لضعف متأصل فيه، فيكون هو أصلًا ضعيف جسديًا أو فكريًا أو عاطفيًا. فيورث كل حالة من الضعف حالة أخرى ملائمة لها من أنواع الشعور، وهو متغير فيها تبعًا لسفول هذا الضعف أو علوه، أو اكتسابه مقاومة ممانعة لتجاوز أي معتدٍ خارجي عليه، وقد يضعف هذا الضعف نفسه، لتغيره حالة من حالات الضعف الأصلية، فتورثه نوعًا من القوة والثبات، وهناك أنواع أخرى من الضعف مكتسبة، وهي تورث أنواعًا من الشعور. وقد يمازج الإنسان بين ما هو غريزي وآخر مكتسب.

في الغالب يحاول الإنسان الهرب من الصفات أو المشاعر السلبية كالحزن والغضب والقلق والتردد. إلى الصفات أو المشاعر الإيجابية مثل الفرح والسعادة والرضا والطمأنينة وهكذا. وتلك طبيعة في الإنسان إذ هو يسعى دائمًا إلى ما ينفعه ويصلحه ويسعده. فهو يرجو الخلاص من كل ألم، بل من كل صورة تجسد هذا الألم في شكل من الأشكال. ويسعى كذلك نحو الحياة الطيبة السعيدة بكل وجه من أوجهها هذه هي الطبيعة الغريزية. ليس هناك أحد يرجو الحزن والغضب والقلق لذاته، إذ فيهما فوات كثير من الخير، بل هما يكدران الخير ذاته، بما يفسدانه من اجتماع أحدهما مع الآخر، إذ هما نقيضان فإذا اجتمعا تفاعلا وأثر كل منهما في صاحبه، وإنما يصاب المرء بذلك تبعًا لخوارج ومؤثرات أدت به إلى تلك الحالة.

فلو نظرت إلى الإنسان حالة غضبه مثلًا - وهي إحدى الصفات السلبية، لرأيت فيها فقدانه لهدوئه، وكثيرًا من حكمته وتفكيره الطبيعي المتوازن حيث يعطل عن هذا كله، وهذا يظهر بشيء من التأثر على النفس، إذا تفاقم هذا الغضب واشتد، وقد يزيد إلى الحد الذي لا يدرك به ما يقول أو يفعل، فهنا ينغلق العقل فلا تفكير أو أخذ ورد، فيستغلق كل شيء أمامه، حتى يصبح ما أمامه سواد، لا يكاد يعرف ماذا يفعل فلا يبصر وجه الخير في الأمور فيأتيه، أو وجه الشر فيها فيبتعد عنه منتهيًا. ولذلك

تتوقـف كثير من الأحكام التعبدية في الدين بناءً على طبيعة هذا الغضب. فشعور المرء حينما يتجاوز حده الطبيعي، ويدخل من مرحلة من التأثير على الجوارح كذلك خاصة إذا كـان بشكل سلبي، تتغير كثـير من الرؤى والأحكام والتفاعـلات لأنه هنا يدخل في حالـة من وقوع الفكر نفسه تحت تلك الحالة النفسية بجميعه، فيصير كأنه أسير لها، لذلك جعلنا نبينا الشدة ليست بالقوة الظاهرية فقط، وإنما ضمنها مفهومًا آخر وهو مـن يملك نفسه ويتحكم بها عند الغضب. فالغضب قوة شديدة قد تفتك بالإنسان إذا استحكمـت به، ولا يملك الإنسان معها فكاكًا، فهو واقع تحت وطئتها وأثرها عليه. فهو يفعـل مـا تأمره به، لا يأمـره المنطق والعقل. فهو مدفوع بقـوة الألم والغضب في صدره الـذي ما يزيـد إلا اضطرابًا وثورانًـا، وما يشتد إلا قـوة وعنفوانًا. فالفعـل هنا سلبي بحـت، بأثر العاطفة والشعور وهنا نقطة هامة جدًا، وهـي تأثير العواطف على النفس والجسـد والأعمال الظاهرية. فلا يخفي أن حالة الإنسان حال هدوئه وطبيعته، ليست حال غضبـه وحزنه وألمه. لذلك فالأعمال تابعة للشعـور والعاطفة التي يقع المرء تحت أثرها، ثم إن أحدًا لا ينكر أثر المقاومة بين الفعل والعاطفة بفعل العقل والإرادة والنظر والمغالبـة، غـير أن هذا لا يقلل من تأثير العاطفة على العمل، بل دعني أتجرأ وأقول إنه إن يوجـد أو شئت قلـت انعدام وجود عمل أو فعل لا أثر للشعـور فيه. بل الأعمال هكذا دائمًا طاغية بشعور صاحبها وعاطفته ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ناهيك عن هل هـذه العاطفـة متأصلة في القلب أم نابعة من تأثيرات أخـرى. فالفعل غالبًا يكون عليه كسـوة من القلـب، إذ أثره على العمل لا يخفـي ولو تمادينا مع هـذا الخاطر، وأعملنا أثـره على جميع ما يخصـص بالإنسان من أفعال وأقوال، لتضح لنـا كثيرًا من الأثار، بل عمـق هذا الأمر على جميع مجالات حياة المرء حتى في المرض، تجد أثر العواطف فيه، فيكـون منشأ المرض نفسي عاطفي ثـم يشتد ليضر مناطق في الجسد، فيسبب خلل في وظائـف الجسـد فحالة التشخيص هنـا جسدي نفسي ، بمعنـى أن العلاج هنا يرتبط

بجزئين أساسيين، وهو أولًا معالجة هذا الخلل الظاهر في البدن، مع عدم إهمال أثر الآخر، فيكون له معالجة نفسية منفصلة وإذا كان الجسد منبع العاطفة وأساسها، إذا فأثرها عليه واضح .

ففي حالة الغضب مثلًا ، تتوقف عندها كثير من الأحكام، فالقاضي مثلًا لا يجوز له أن يقضي بين الناس وهو غضبان، الرجل إذا حلف على امرأته مُطَلِقاً، فوقع ذلك في حالة من الإغلاق العقلي، غير ناوي الطلاق معقدًا عليه النية، لا يقع ؛ لأنه هنا لا يدري ما يقوله، فالعقل في حالة ضعف تام لا يقوم بها على التفكير الصحيح. فعومل هنا معاملة غير المميز، لانتفاء سلامة العقل عنه حين أراد الفعل، فلم يكن قاصدًا له، بل جاء نتاج حالة من اللاوعي التام عن الفعل، فخرج اللفظ بإرادة الغضب الطاغية على القلب وبمعزل عن التفكير والعقل. ودلالته أنه لما ثاب إليه رشده ندم على فعله، فكان الندم دليلًا ظاهرا على ضعف العقل والفكر حالة الإلمام بالأمر والقصد له. وفي هذا نكتة لطيفة لمن أعملها متدبرًا، مطبقًا لها على كثير من الأمور.

لذلك يقول النبي: ـ "لا طلاق في إغلاق" . الإغلاق هنا انغلاق للذهن، فلا يعي معه قولًا ولا يفهم به شيئًا، وكأنه كالمجنون الذي غاب عنه عقله ورشده. ثم أقول من الحكمة بل و من الرحمة كذلك، عدم التعرض لأحوال الناس وشئونهم والنفس في حالاتها الضعيفة، التي تمتلئ سلبية وحنقًا وغضبًا، فهذا المخالطة لها من الفساد ما تسطر فيه الكتب فأثرها سيء جدًا، أسوء مما قد يتخيله المرء بهذه السهولة والبساطة. فالأثر هنا لا يتوقف على ذات الشخص المرسل كل هذا الألم والحنق إلى قلب محادثه ومخاطبه، بل في المخاطب ، كل هذا الأثر في قلبه ليدسه في قلب امرئ آخر، في دائرة من السلبية المتزايدة. وفيه من تحميل القلوب ما لا طاقة لها به، بل لا دخل لها به في الأساس. وما كل هذا إلا ذنب الأول الذي لم يمنع هذا الغضب والسخط على الناس فأشاعه فيهم، فانقلبت عدوى ظاهرة. وتلك حالة هامة جدًا في

أمـر العاطفـة، في إشعالها واتقادها بفعل امـرئ للوصول إلى رغبـة معينة يخفيها في قلبـه أو حالة الاستعداء العاطفي بين الناس التي شاع أمرها وانتشر، وفيها من الأمور والحكـم والفوائد الكثير والكثير. فأصبحت وسيلة الإقناع حاليًا، ليست الإقناع العقلي والمنطقـي، بل إشعـال رغبة القلب واستعـداء الإنسان على الآخـر من خلال تحليلات نفسيـة يتبعها الطرف الأول، فيدعـي زورًا أن مقصده كذا وكذا ليجمعها في سياق من الكراهيـة، ويغطيها بتأليـب العاطفة ضده ويختمها أخيرًا بداعـي الشفقة والإحسان، وماهو إلا كذاب أَشِرٌ، ومفتري أثيم.

إن استعـداء القلـوب على القلـوب من أشد ما رأيتـه خبثًا وسـوء طوية، وصاحب ذلـك ذا مرضٍ قلبي شديد، مـا يصيبه على مرور الأيـام إلا ازديـادًا واشتعالًا، حتى يتأصـل فيصبح عادة وطبعًا فيه محركًا له، فيكون هو منصته الأولى التي ينطلق منها ويندفـع عنها. أقول ناصحًا. كما تحجب عن الناس الأذية المادية، احجب عنهم كذاك الأذية النفسية والمعنوية. والأمر هنا عميق جدًا حتى يستدعي بيان هذا بإيضاح شافي، ولكنهـا ومضـات عابرة، وإشراقات بسيطـة تضع شيئًا من الإطار العـام لتوضحه في دُبر هذه المعاني.

ومن قبيح أثاره، أن المرء قد يأتي شيئًا من تلك السلبيات ظاهرة على أفعاله أو بين ثنايـا حديثه فلا تكون معبرة عنه ابتداءً، بل هي مرآة عاكسة، ورقة ناسخة لما قد كتب عليها فيكون المرء هاهنا مجبور بأثر انعكاس الفعل على النفس، أو مدفوعًا بتلك القوة الطرديـة القادمة مـن المتحدث إلى المخاطـب، لتخرج من المتحـدث كالسهام المارقة مقذوفـة في قلبه مخاطبـة، فتملأه نارًا أو ألمًـا أو حنقًا، فيحـاول إخراجها من جسده بعدمـا كانت داخلـة إليه عنوة من محادثـة بها من الكلام ما يعـد كالرصاص يخترق الجسد ليصيب سويداء القلب في مقتل من الشعور السلبي المأجج المتزايد. فتجد بعض النـاس في نهاية يومهم، قد حصلـوا عواطف أفعال ما خالطوها بأنفسهم ولا باشروها

بأيديهم، وإنما هي كانت شحنات مفروغة سلبية عادت إليهم حين مخالطتهم لمن كانوا محملين بها، ولم يكونوا فقط حاملين لها، بل كانت زائدة عن حد تحملهم وقدرتهم، فأصبحوا يقذفون بها على كل من يلاقون تخفيفًا لحمل أنفسهم، فيصبح الجو نفسه مملوءًا بهذه المشاعر والعواطف. وتلك هي العاطفة المعكوسة القادمة بمبدأ ردة الفعل، من الحدث مبتدأ لينتهي منقولاً بالشعور بين الأفراد. وللإسلام معالجات مفيدة جدًا وفعالة لهذه الحالات بجمعها وكذلك بأفرادها.

قد يجبر المرء بتصرفات من حوله اللامنطقية والمشبعة بأنواع الشعور السلبي المحبط، المذكي لأن تفقد النفس ذاتها وحقيقتها، فتعود مكسورة محطمة متهالكة، فتغدو تمشي في الحياة ولا تريد شيئًا كأن مواطن الرغبة فيها الخاصة بالأمل والحياة قد ضعفت عن المقاومة، فأصبحت تنزوي في ركب كل أحد، أو قل على الحقيقة أنها أصبحت تسير لا مهتمة بالركب الذي حولها، فإنها تنطلق ماضية إلى غير وجهة تقصدها، فإن أي شيء تسير فيه وهو وجهتها، لتصبح وجهتها الحقيقية أنه لا وجهة لها ولا مقصد، إنها تسير وسط الركب لتجد نفسها في ركب ثاني وثالث ورابع. فقدت بوصلة تحديد اتجاهها في اضطرب، في كل اتجاه متحركة ناظرة إليه.

وقد تجبر النفس، بقسوة القلوب وجفاء النفوس وكذلك أيضًا بسوء المعاملة، وعدم مراعاة العشرة بين الناس، أو احترام المعروف والود بينهم فينقلبون كأن لا شيء بينهم، يصبحون وقد خابوا وارتدوا على أدبارهم، عادوا إلى كفران العشير وإنكار الإحسان والفضل، نبذوا عن أنفسهم كل ما يثقلها من الأدب ومراعاة ما بين الناس، فانطلقوا بنفس لا تحمل إلا همّ الشهوة والرغبة والذاتية والمنفعية. فلا يعرفون لأحد معروفًا، ولا يثبتون لفاعل خير صوابًا أو نصحًا، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلونه بمعان هي من تلقاء أنفسهم، ومن رغبة ذواتهم ثم ينصرفون عنك فلا تسلم لسانهم، ولا تأمن ما يخبرون به عنك حال انقلابهم من مجلسك فهؤلاء كما قال النبي عن أحد

الناس "بئس أخو العشيرة" فلما سألته السيدة عائشة رضي الله عنها، قال "إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، من يتقي لفحشه".

فيتركه الناس ويخافون منه، فجانبه عندهم ليس بمأمون ولامعول عليه. ولذا ظهور أثر أفعاله وضرره الواضح من نتاج ذلك فبلغ من شره أنه يتقي لأجله.

ذكرنا سابقًا أن الإنسان كائن اجتماعي عاطفي يؤثر ويتأثر. وذكرنا كذلك القلب والمدخلات إليه، ولابد لهذه المدخلات من مخرجات. قد تتمثل أحيانًا في هروب الإنسان إلى اتخاذ مواقف أخرى أو حالات أخرى من الشعور، ذريعة الدفاع عن النفس ضد الغزو العاطفي، فيتخذها وقاية ليحمي بها نفسه من تهديدات كثيرة، ويبقى هو في ظل مرحلة عاطفية مؤَمنة مستقرة إلى حد ما، فإذا انهارت هذا الحواجز أو ضعفت، ارتدت بآثار صعبة، بل قد تكون مدمرة على النفس. فيظهر ذلك على الإنسان بتغيير في المواقف في مخالفة للحالة الأولى، وكذلك في التصرفات والمعاملات، بل حتى تجده ظاهرًا في تعابير الوجه، تغير نبرات الكلام أن لكل حالة يمارسها المرء، تتوجب مقابل لها من انفعال القلب وتغيره متفرق في ذلك إلى جميع أنواع الشعور البشري. ولما كان مسئول ذلك التغيير الأول هو القلب. تجد النبي يعالج ذلك بنوع من الحكمة. فيقول لمعالجة تغير القلب في أثر الكلام، - "لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئًا، فإني أحب أخرج إليكم وأنا سليم الصدر". وفي ذلك إشارة حكيمة منه إلى صحة القلوب وسلامتها، بألا ينقل أحد عن أحد شيئًا فيبلغه صاحبه، فيوغر قلبه عليه، ويتركه وهو لا يظن به خيرًا. بل وقد تغير قلبه عليه بشعور سلبي على تعدد أنواعه واختلافه. وتلك إحدى الوسائل في استجلاب العداء، وقد ذكرتها سابقًا باسم "الاستعداء العاطفي" فهو يقصد من ذلك النقل تغير القلب وتكدر صفائه فيقلب قلوب المتحابين بكلمة منكرة أو إشارة خفية أو نظرة مقصودة مفهمة. ولكن لمَ؟ لمَ كل هذا الغل والبغض؟ أكان عقاب تلك القلوب أن زادت قسوة، فاشتدت على غيرها غيظًا وغضبًا تبثه في

حديث مر أو مقابلة بغيضة جافة أو تحدث من وراء ستار، عالمة بل موقنة أن الأمر سينتشر انتشار النار في الهشيم، فأخذت توقد البغضاء وتشعل الحسد وتزكي نار الغضب ياويلها! ماذا تؤمل تلك النفس المرتدية ثوب الزور تخدع في أحدهما وترائي في الآخر. ياويلها! غفلت جميع الحقائق، حتى أطبق عماها فضرت نفسها فرحة مستبشرة، آملة خيرًا و برا. يا لفساد مذهبها وانحراف أملها!

إن القلوب تتغير وتوغر، والنفوس تشحن وتمتلأ، وتتصاعد زفرات كل ذلك في التصرفات والأقوال. لذلك نهى عن التحريش بين الناس، طلبًا للسلامة، وداعيًا إلى التعايش في بيئة سليمة يطغى عليها التعاون والمؤاخاة، لا البغضاء والعداوة، فبدأ الإسلام بقطع كل ما يؤدي إلى ذلك، بل تجده يشن حملة شعواء على فضول الكلام واللغويين، ترغيب تارة، وترهيب تارة أخرى، وبيانِ شرور هذا الفعل في ثالثة. فيقول "من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه" شيء لن يعود عليك بالفائدة، ولن يزيدك في قربي، ولن يوصلك إلى خير أو منفعة، لم تتمسك به. بل هو في الأصل لا يخصك بشيء، فلا ناقة لك فيه أو جمل، غير أنك تتدخل وتهرف بالكلام في محله وغير محله، بسبب وبغيره بل لعل الكلام الذي تتكلم به يؤدي إلى شقاق ونزاع وخصام، فالإسلام يرفض ذلك كله بكل أنواعه وأشكاله. حتى أنه يراعي نفسية ومشاعر الفرد الواحد في وجود الجماعة فيحمي له حقه منهم . فينادي على الناس بالإحسان إلى غيرهم وتبادل الصلات والمعاملة بالمعروف. حتى تجاوز الأمر إلى أن أخبرهم أنه لا يليق بهم أن يختلي اثنان منهم نابذني الثالث غير متحدثين معه فيؤذيه ذلك، فالإسلام لا يريد أحدًا أن يؤذيك حتى في مشاعرك.. في عواطفك. يقول لك هامسا "إنك لك قيمة عند ربك، وحق كتبه لك حتى لا تتألم وتحزن"، بما شرع من التوجيهات والأحكام والأوامر. فيقول النبي ﷺ "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يُحزِنُه". فالعلة المانعة من خلو أحدهم عن الآخر بالحديث، خوف أن يحزن،

ويتــألم نفسيًا، فيحــدث لديه نوع من الانكســار النفسي، من عــدم مشاركته بالكلام، وعــدم اختصاصــه معهم بالقول. فيورثه ذلــك نوعًا من الحزن نهــى الإسلام عن كل مــا يحزن المرء ويقلقه ويغضبه، فراعى كل ذلك بتشريعات حكيمة ربانية بل في موضع آخــر، يجعل لهذا الحزن جزاءا وثوابا إن احتسب أجره على الله وصبر عليه . قال "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفــر الله بها من خطاياه" فيجعل لهــذا الألم النفسي أجرًا عند الله وتكفيرًا للذنب ورفعــة في الدرجة. بأن يحتسب صابرًا، والله تعالى يعلم ألمه ويشعر به، ويري صبره على قضائه وأمره، فيجازيه على ذلك خير الجزاء.

ثم تجده في موضع آخر ينهي عن الأسباب المؤدية لذلك ؛ من كثرة الكلام المتضمن مــالا يحســن بالمــرء الحديث عنه . ثــم الإسهاب والإطالــة فيه، لما يتخللــه من الكذب والتعرضــ لأحوال الناس بالخــير أو الشر، صدقًا أو كذبًا، والظن بهم أحيانًا والافتراء عليهــم تــارة أخــرى، وإن الظن أكــذب الحديث افتراءً وتــأولًا . بل قــد يزيد عن ذلك للطعــن عليهم، والافتراء، ثم يأخذهم مثالًا لضرب المزاح وضرب النكات والاستهزاء. وكأنهــم عدمــوا الشعور إطلاقًــا، كأنهم لا يــدرون أن من يتحدثون عنــه بشرًا مثلهم، تؤثــر فيه الكلمــة وتغيره، له عاطفة تتحــرك بالحزن والألم والضيــق. لذلك كُره كثرة الكلام المفضية إلى ذلك. قال "إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة الســؤال" يكره الله تعالى ذلك ولايحبه، بأن يتقول الناس بعضهم عن بعض، فيحدثون بمــا لا تحمــد عقباه ، ولا ينشد منفعته، بل قد يؤدي ذلــك إلى فساد ما بين الأنفس من الــودّ والقربي . فهي أحد الأسباب المؤديــة إلى الفساد بجميع أوجهها. ثم يجعل معيار الإيمــان وزياته علــى أن يحب المرء لأخيه مــا يحبه لنفسه. فيجعلهــم جميعًا كالجسد الواحــد، لا يتحدث أحدهم عن الآخــر بما لا يحب الآخر أن يتحدث به عنه. فيحسنون جميعًــا، من حيث أنهــم جميعًا يريدون الخــير لأنفسهم. وهــذه الإرادة حاملة لهم أن

يتحابـوا جميعًـا، لأنه جعل ما يحبه المـرء لنفسه معيار الإيمان بـأن يحب مثله لأخيه. ثـم ضمنهـم جميعًا في بوتقـة واحدة فجعلهم إخـوة، ثم بعد ذلك تـرك الصفات فلم يحددها هنا، بل ضمنها معنى الوصف ؛ وهو "بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه". وبهذا ضمن الصفات الإيجابية والخيرة من حيث حب وقوعها له، والصفات السلبية السيئة مـن حيث كرة وقوعها له كذلك. فصنـع بتلك الكلمات البسيطة مجتمعا لا وجود له في التاريـخ إلا يحـث يقع الإسـلام والمسلمين. وأي أحد يستطيـع أن يتمنى لأخيه ما يحبه لنفسـه، إنها مرحلـة لعلها لا توجد إلا عند الأخيار الأنقيـاء الصالحين، وهذا المجتمع القائـم على تلك القيم من أنقـى التجمعات وأطهرها بل إنه جعل حدّ الإسلام في كون لا يصـل المسلم مـن أخيه إلا خيرًا وبرًا ومعروفًا، فلا يصلـه أبدًا منه ما يضره . كيف يضـره ويؤذيه بالقـول أو الفعل!! ويظن نفسه مسلمًا كامـلًا! وأي نوع من الإسلام هذا الـذي يظن أنه يأتيه! بل إن كمال الإسلام وتمامـه في الاستسلام، وهو من أكبر القيم التـي لن يتسـع حديثي بيانها، ولكن منهـا أن يسلم النـاس من شَـرك وبطشك وغلوك وعتوك، يسلموا من غوائلك و شرورك، فيأمنوا جانبك وإن خالفوك بكل أنواع الخلاف . فجعـل الأمر علـى تمام الإحسان قال "المسلم من سلم من المسلمين من لسانه ويده" فأمنـه مـن كلا جانبيه؛ يده. وإن كان عبر هنا بجزء مـن بدنه، ولكنه أراد الكل ؛ وهي أفعـال الجوارح كاملة. فيأمنه في جميع أفعاله وتصرفاته . وعبر باليد لأنها الغالب في الاستعمـال، ولكثرة مباشرة الأعمال بها، فعبر بهـا للتغليب. الثانية، اللسان والمراد به الكـلام، فأطلق الجارحـة وأراد ما يخرج منها وهو البيان والحديـث. وإن كان اللسان ضمن الجوارح غير أنه هنا فصله عن الأول، ولذلك لمزيد من الاختصاص، ولأن الأثر النـاتج عـن اللسان يعد موضعًا منفصلًا بحد ذاتـه، فمبحثه مخالف لمباحث الجوارح الأخـرى، مـن حيث أن أثـر كل منهما فعل خاصا . أمَّا اللسـان، فهو الناطق عن القلب المبلـغ بما تريده النفس، لذلك عبر عنه بالبيـان، أي المُبَين أو المُبِين فانفصل داعي كل منهما، وأثره، فمُيز بينهما.

وانظر إلى هذا الأثر العظيم، الذي يبين فيه النبي الكريم بعض ما ينبغي المسلم أن يفعله ومايجب عليه أن يتركه، قال "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبـع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عبـاد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يحقـره، ولا يخذله، التقـوى هاهنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرىء مـن الشـر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه" ولو تتبعنـا أصـل المسألة لذهبنا إلى شِعب غير شِعبنا، ولطال الحديث عما رمينا له وأردنا، فنكتفي بما ذكر، وفيه عظة وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

غير أن وقع مسمع كلمة الهروب على النفس غير جميل، فهو دائمًا يقرنها بمعناها السلبي، فيعـد الهروب هو هروب من الواجب، من المسئولية، من الالتزامات. وأن هذا أحـد معانيها، إلا أنهـا ليست محصورة في هذا المعنى الضيق، فمدلولات الكلمة واسعة جدًا، فليست ضيقة.

لتحـوي هـذا المعنى وحده وفقط. الهـروب عندي يقع على معنيـين، الأول: التنقل مـن حالـة لأخرى، ومن شـيء لأخر فهو وإن خـلا من معنى التهديـد والخوف الملزوم لتلـك اللفظـة، إلا أنه مـلازم للحالة الأولى، وهي الهروب في حـد ذاته . وهو هكذا قد يمـدح أو يذم، وما هذا إلا لأن وقائعـه متعددة، فهو كصفة ملازمة للإنسان، تحمد في مواضـع تستحق فيهـا المحمدة، وتذم في مواضـع أخرى تستوجب فيهـا المذمة . ولكن تجدهـا ملصوقـة عند كثير منهم بما لا خير فيه، وبما هـو شر صرف، فلا يرتجى من ورائـه مثوبة أو منفعة، فهو إمَّـا أن يكون مطلقًا عندهم على السلبيات أو المحرمات، أو أخـرى سبق ذكرها ثـم ينحصر أخرى ليضيق مفهومه، في عـدم مواجهة أمور بعينها وإن كـان المفهـوم العام من الهروب هو عـدم المواجهة بإطلاقها، فـلا يخصص ذلك العـام بحالة سلبية معينـه ليصبح هو المقصود على الدوام والأبـد، قد يهرب الإنسان ممـا يستقبح ويذم، ألا يعد هروبًا! يهرب من مواطـن الشبهات والفتن، ألا يعد هروبا!

فالهروب كأي صفة من الصفات العامة، توجد فيستعملها الإنسان في الخير أو في الشر . ولكـن الهروب ينقسم إلى، غريـزي متحكم في النفس لا ينزع منها إلا بفراق الحياة. كهروبهـا إلى ما يبقيها علـى قيد الحياة، من المأكل والمشـرب. وكذلك هروبها من كل مـا فيها موتهـا ونهايتها. ومنه أيضًا فطـري في النفس، من هروبهـا مما يذم ويعاب، وإقبالهـا على ما فيه المحمدة والثنـاء. ومنها اكتسابي، يعـرف بالتجربة والمعاينة من هروبها من أشياء معينه، لها صفتها ومعانيها ودلالاتها الخاصة في النفس وقد ينقسم الهروب كذلك إلى هروب إيجابـي، نحو الخير والفضيلة والقيم العليا والمثل الفاضلة. وهـروب سلبي، نحـو كل ما فيه شرر أو ضـرر وأذى وهما جنسين يدخـل فيهما كل ما ينـدرج تحتهما من عناصر وأفـراد. وهناك هروب آخر أحب أن أعلقه على علة خاصة بـه، فأنت تقف بين يديه، لتجعله في أحد التصنيفين، فتجد أن بانضمامه إلى أحدهما يفقـده كثـيرًا من مميزاتها، حتـى يصبح خاليًا مـن المعنى الأول الذي هـو أصل فيه. لذلـك كان نسبه إلى علته أو وصفه أفضل من إدراجه تحت أحد الجزأين وهي تنقسم في مجموعها، إلى مذموم وممدوح.

الهـروب، قد يكـون معنويًا أو حسيًا. كـأن يفر من شعور الحـزن والألم إلى شعور السعـادة والاستقرار والطمأنينة، والثاني هو فـرار جسدي من مكان لأخر، ومن أرض لأخرى، كالسفر، والهجرة. مع اختلاف أسبابها. فمنهم من يهاجر للعمل، وفيه محاولة للهـروب من الفقر إلى الغنى واليسرة ، ومنهم من يهاجر خوفًا من الظلم والاضطهاد والاستضعـاف. إلى مكان يجـد فيه ملجأ له وأمانًا، ومنهم مـن يهاجر لأسباب دينية. طلبًـا لزيارة بيت الله الحرام للحج أو العمرة أو طلبًـا للعلم، أو هجرة لله ورسوله كما قـال تعالى "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرًا وسعة ومن يخرج مـن بيتـه مهاجرا إلى الله ورسوله ثـم يدركه الموت فقد وقع أجـره على الله وكان الله غفـورا رحيمـا " ومنهم من يهاجر ترفًا لأي مطلب من مطالـب الحياة، كمن يريد أن يسافر سائحًا في البلاد، يخرج من واحدة لينظر الأخرى قصدا الترفيه والتمتع .

وهنا سؤال يتبادر إلى الذهن، هل ذاك النوع من الهروب يقع به ضرر على النفس أو الغير أم كليهما؟ أولًا يجب أن تحدد مفهوم الضرر، وماذا يقصد به؟ إطلاق عام أم خصوص ثـم إنه بلاشك، به نوع من الإيذاء للآخرين، إن كان في حق اقتطع منهم، أو بـر بهم منع عنهم، أو واجب كـان يصلهم . ثم إنه لخصوصيته، يجب النظر إلى أصل الموضوع أولًا أهو مشروع أم ممنوع، مباح أم جائز، ثم بعد النظر في ناحية ضرره قليلة أم كثـيرة. فممـا تخبر به الحيـاة أنه لا شيء بدون كلفة، ولا شــيء إلا ولابد أن يقع به نـوع من الضرر ولو كان طفيفًـا صغيرًا. وهنا يعمل بالأصلح وما فيه الخير والنفع. وإلا فالقاعدة المعروفة أن يعمل بأخف الضررين، وأقل الحالتين تجنبًا للفساد والشر، ومنعًا للأسـوء . و الضـرر لابد أن يقع على النفسـ ، لأنها تعتاد الشـيء وتألفه، فإذا فارقها حزنـت وشقيت.لذلك هي أيضا تعتـاد الألم بدرجات مختلفة، وهـذا يقع تابعًا للنفس وجبلتهـا أولًا، ثم مع كثرة التجارب والخبرات فتجـد اختلاف تأثير الحادثة والمصيبة بـين اثنين، وما ذاك إلا أن أحدهم أصبحت لديـه نوعًا من "الحصانة الوقائية" ، غير أن هـذا لا ينفـي عنه الحزن والألم، ولكنه بنوع مغاير من الحزن الأول فهو أن لم تفض عيناه وتندي مقلته، إلا أن قلبه ينزف حزنًا وشوقًا. فالإنسان منذ ولد وهو ملازم للألم مصاحـب له، ولكن بدرجات متفاوتة . ومن ذلـك تشريع الابتلاء الذي هو واقع للخلق أجمعين، فهم مبتلون جميعًا، ولكن كلٌ على قدره وطاقته ووسع احتياله، والله تعالي يقول:

"ولنبلوكـم بشـيء من الخوف والجوع ونقـص من الأمـوال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين"

ويقـول أيضًـا "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنـا وهم لا يفتتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين"

وقولـه تعـالى "أم حسبتـم أن تتركـوا ولمـا يعلم الله الذيـن جاهدوا منكـم ويعلم الصابرين".

إلى آخر هذه الآيات . والابتلاء هنا ملازم للإنسان، لذلك التعبير عنه بقوله "ولنبلونكم" وهنا تنتهي القضية، فالابتلاء واقع لامحالة، فلامهرب منه، ثم جاء به بهذه الصيغة المؤكدة باللام، المشعرة بالقسم، أي والله لنبلونكم . والابتلاء فيه معنى التمايز والاصطفاء والاختيار، فهو يبلو أحد الأمرين في قلبه، أي يظهره ويوضحه ففيه معنى للعلو والسفول علو أقوال بصفة، وسفول أخرى بصفة غيرها ويبليه بالأمر أي يعلقه به طارئ حادثا لا لزوم مستمرا لينظر القدرة على المعالجة، وكيفية التصرف والإقدام من الأحجام، والمسارعة من التباطؤ، والرضا من السخط . ويفهم منه أيضًا أن فيه مضادة للطبع ومخالفة للإلف والعادة، من وراثتها لشاق الأمور في العادة وهو إلى الفناء والارتحال، أي أنه سريع معجل بزواله، مبقي للأجور عند الصبر، حامل للأوزار عند الكفر.

يأبى الله إلا أن يقطع جميع أسباب الاتصال في الدنيا إلا اتصال به وحده، فالدنيا وما فيها ناقص قاصر، لذلك لذتها مستعصية على التمام، لحكم شتى. مادام شيء في الدنيا، واتصل أبد الدهر. ويأبى الله تعالى أن يشرك معه أحد في عبادته .وتلك أحد الحكم، فإن القلب إذا ذاق لذة الشيء كاملة تعلق القلب به أيما تعلق، ثم صار ينصرف بجزئه إليه ،حتى يميل بكليته، فينحرف وجهه فلا يكون إلا قبالتها . لذلك قضى بعدم التمام على شيء، فيقطع المحبة بأسباب منغصة في الدنيا فلا تتم بالكمال. إلا المحبة في سبيله ولأجله هي تامة متصلة أبد الدهر. وأي حب لشيء سواه يصرف به القلب عن تمام محبته وتعظيمه لله تعالى، يذله به، فينغصه عليه بمنغصات الدنيا، فلا يطيب له، وإنما يصيبه من الكدرة والتغيير ما يصيبه . وفيه كذلك من فراق الأحبة وتنغيص ما بان أنه قد صفا للود في الحياة، وكذلك فناء علة اتصال وبقاء سبب من أسباب راحة البال وصفاء الفكر، فينكد ويضطرب . وكل ذلك يأخذ من صفاء المحبة الأولى ولوكان في الدنيا فقط من المنغصات إلا فراق الأحبة لكفى بها

ذما ونكدًا، ولكفى لصاحبها من الألم أن يفارقها ويدعها، وأن يخالفها ويذرها، ولكنها الغشـاوة على العين، والغفلة على القلب، والهوى في الرأي والعقل والأمر في هذا طويل، وهـو جـواب لماذا كان كل شيء في الدنيا ناقصا قاصـرا ، غير أن هذا جزء منه يتضح به شيئا من الصواب.

دعنا نقص هروبا آخر، تحدثه النفس ويسعى له الحزن مستقدمًا، ويدعو لإجابته جميـع الجسد، فيكـون متأثرًا كتأثره. وهـو حينما يصاب المرء بلحظـات من الضعف والشعور بالضيـاع والتوهان، حينما ينكسر ويتحطم كل شيء أمام عينيه، حينما تخور قـواه وتضعف إمكانيته، حينما يرمي نفســه في جانب زاوية ضيقة منهكًا من كل شيء، صامتًـا لا يريد حـوارًا، ساكتًا لا يريد صوتًا كأنه ألقى مـن حافة جبل وعر، فهو في كل سقطة يتحطم فيه شيء ما، حتى يصير متهالكًا لا يريد شيئًا. كأنه في ظلام أغرق ليله سـوادًا، وطغى عليه عتمته، فهو لا يبصر نـورًا، ولايرى أشعة السنا تترقى إلى وحشته، أو تتـلألأ في محبســه، فتلهيه بنوع مـن الاستئنـاس والألفة. ولكنهـا دجنة الليل وغبشة السواد الحالك فلا يقوم إلا ليرتمي، ليرتمي في أحضان نفسه، فهو لا يجد مخبأ لايزال يحميه إلا ذاته، ولا أحد يصدقه إلا قلبه حينما يضيع المرء كأنه لا يرى شيئًا أمامه، كل الأشيـاء في نظره واحـدة. الألوان كلها ضمت في لونين إمَّا أبيضـ ناصع أو أسود قاتم، والنـاس عنده رجلين رجل خير، ورجل شر، وهو فيهما سواء.

حينمـا يفقد الإنسـان الأمل في كل شيء إلا في يقينه بعدم موته تلك اللحظة! وهذا يقين مغاير مما تفعله النفس بصاحبها. حينما ترجو شيئًا بشدة، وتطلب حدوثه بقوة، فإنهـا تدّعي رجـاء عدم حدوثـه في المستقبل، وهـي في اللحظة بالـذات ترجو الشيء بعكســه، وهـذا مـن غريب فعلها وعجيـب أمرهـا . أو لعلها في ذلك، تتـوارى عن ذكر اللفـظ إغناءً لها عن خوض محادثات ومحـاورات عن الأمر بكونه غير صحيح و.. إلى آخـره. أو كأنها تحفظه عن الذكر، حتى لا يصيبه نوع من الحسد، فَتُعَمى عن الموضوع

بذكر غيره .أو هي فقط ترجو حدوث الأمر بغض النظر عن أي سبب. إلا أنها تعلم أنه ليس محبب إلى بعض النفوس ومكروه عندهم فتذكره بعكسه، وتوري عن المعنى الذي تقصده.

حينما يفقد الأمل، يفقد معه كل شيء. فلم يعد يقدر على الاحتفاظ بقيم الأشياء وصورتها في قلبه، أصبح كل شيء هامشي. لم يعد هناك طعم قط إلا طعمًا واحدًا بدًا ظاهرًا في كل شيء، وهو طعم الألم والحسرة . كل شيء ضبابي، لا يعلم حقًا ماذا يفعل؟ ولا لماذا؟ ولا لمن؟ وإن عرف قد تجده يزاوله بضده كأنه في غير إرادة منه، كالنائم الماشي، يسير ولايدري إلى أين يسير أو كالذي يتخبطه الشيطان من المس، فهو يتحرك، ولكنها حركة لا وجهة لها ولابغية من ورائها . وفي خضم ذلك كله، قد يكون نسى نفسه والنسيان هنا ليس بمعنى عدم التذكر، ولكنه بمعنى اللامبالاة . حينما ينسى المرء نفسه لا تنتظر منه شيء، ولا تطلب منه أمرًا فمن ضيع نفسه كان عن حق غيره أضيع. ومع ذلك قد تجد أحدهم يأتي حق غيره في تلك الحالة، وهذا ضعيف. ولايعدو أن يكون ذلك من فعل القلب وأمره وهو في ذلك يكون في أضعف حالاته وأهونها فلا هدف حالي، ولا أمل مستقبلي، وجميع النظر يكتنفه حالة من الغيوم والتشاؤم حتى للماضي الذي انقطع، وكل ذلك يكون تبع لمقدار إصابته من ذلك، فيصيب من الأمر بقدر إصابته من الفقد والضعف.

في فقد الذات والانكسار الداخلي، تفقد جميع حمايتك وحصانتك من العالم الخارجي يسهل إصابتك من أي ناحية. فقد تكون معرضا فيها لقبول ما لو كنت في تمام عافيتك لنهيت عنه ورفضته ، لتدخل في دوامة من التصرفات والأفعال اللامنطقية للعقل، ولكنها منطقية بالنسبة لحالتك ثم تأخذ شكل منحني سفول، حتى تصل إلى أسفل قاع تلك الحالة. ليقع الشيطان منك موقعًا، لم يكن يخيل إليك أن يأتيه، حتى لو قال لك ارم نفسك من على جدار لفعلت، لشدة ضعف الحالة النفسية والعقلية آنذاك.

يصيب العقـل فيها حالة من الارتخاء ، فلاشيء جديد يعالجه ويعمل عليه، فيظل في نقطـة واحدة، حتى تجد أفكاره في بعض الحـالات أقرب إلى اللامعنى ، أو تدور في معنـي أو اثنين لا تجاوزهمـا ، ويدفعه العقل في تلك الحالة إلى أقصى الجانب المظلم، فتغلـب على أفكـاره السوداوية والتشاؤم حتى تصل بـه إلى العبثية. من أصعب حالات المـرء حينمـا يفقد اتجاهه، يفقد توازنـه في حياته، يفقد شعوره بـكل شيء يصبح كل شـيء في ناظـره متشابهًا الدنيا على اتساعها في الفضاء إلا أنها ضيقة في عينه . يغلب علـى فكره ضيق الأفق والنظرة الأحادية، وعدم رؤيته للحقائق إلا من خلال ماتلقاه أو تجربتـه أو عندما يصل بصـدق إلى لحظات صفاء ووضوح مع النفس. أمَّا غالب حاله فهو مضطرب لا يألو على شيء. يغلب عليه الجانب العاطفي في تحليله للأمور في مبدأ أمره. فكأن العقل أغلق عليه بنوع من الشعور النفسي المتغير، ويصاب بالعميان الفكري المنطقـي والتعصب العاطفي. حتى تكاد تلمح فيه صفة الغضب حتى بدون سبب ظاهر مقنع، ثم يبدأ هو نفسه بالبحث عن إحساس آخر يشبع ذلك الفراغ الذي حل. وكذلك مـن الناحيـة العقلية، فيبحث عن مـبررات كثيرة بغض النظر عن كونهـا صحيحة أم خاطئة، فقد يعترض على المجتمع وعلله وأمراضه، أو على أشخاص بأنفسهم، أو أشياء بعينها فيتجرع الألم وحده، فيصيب جسده وروحه من سهام التقريع والملامة.

فالنفـس والعقل لـن يتركا المرء وحيـدًا . والكـوب الفارغ إن لم يمـلأ بشـيء ملأه الهـواء. فسيبحـث المرء دءوبًـا حتى يجد شيئًا يعلـق عليه ما هو فيه. سـواء كان ذلك صائبًـا أم باطلًا ، وهذه آلية موجودة عند الإنسان في أية حال يكون فيها، لابد أن يعمل عقلـه فيخرج لـه أفكار تُدِينُه أو تبرئه، ولازمه أن يشعر قلبه بأحقية ما يقوم أو خطئه، فيقبله أو ينكره . غير أن الإحساس الذي يستبدله حالة الضعف والوهن ليشبع الخواء والفراغ الأول، لا يحقق له ذلك، حتى ينهش في المرء حتى يفنيه ويقضي عليه، في حالة مـن عـدم الرضا المتزايد، والسخط والغضب المتراكم في عقـل الفرد الباطن. ثم إنك

قد تجده يلجأ إلى تعويض اللامحسوس بالمحسوس، فيبدأ باعتناق مذاهب جديدة في كل شيء يعمله، في طعامه، ونومه، ومعاملاته. غير مصاحبته للخمول والكسل، مع انخفاض معنوياته الداخلية، فحالات تشجيعه ودعمه الداخلي في حالة يرثي لها.

وهنا أمر لابد من بيانه، وهو أن الدنيا ليست موضوعه لتحقيق كل الأماني، ولا لإيجاد كل أنواع السعادة فهذه ليست الحكمة من إنشائها ووجودها. بل خلقت وقد احتوت على كل شيء، الشيء ونقيضه . لذلك وجدت الرضا والقناعة والاكتفاء والقبول، وكذلك وجد الطغيان والطمع والشره والأنانية . والنفس تلج أحد الطريقين وتتبع أحدهما، وقد تتقلب فيهما بين هذا في أول الأمر، والآخر فيما بعد ، لكن من المحال أن يجتمعا معًا في نفس واحدة وفي وقت واحد، فهما نقيضان فلا يجتمعان، وقد يرتفعان . ثم إن من علم حقيقة الدنيا، أنها ليست موضوعة لنيل كل رغبة ولا الحصول على كل نجاح، فما فاته منها لا يحزن عليه. حتى أن المنطق يدلل على أن المرء لم يخلق ليحوز كل شيء، فهو -أي الإنسان- محدود ضعيف متقلب متغير. ثم لم يوجد شخصًا على مر التاريخ المعاصر أو الحديث حصّل كل ما يريد، وبلغ كل ما يتمنى، بل دائمًا للإنسان رغبة متجددة، تتجدد بتجدد أيامه. إن عمر المرء لن يحتمل كل رغباته، يظل المرء على سرير الموت ولا تفنى أحلامه وآماله. فحاجاته لا تنقضي ورغباته لا تنقطع.

لذلك تجد العقلاء لا يحزنون على فوات شيء في الدنيا، ولا يقيمون دنياهم ويقعدوها على ضياع أشياء رغبوا فيها وتمنوها. ولو صح أن أطلق على الدنيا لقبًا يوضح حقيقتها، فهي "الفائتة التي لاتلو على أحد"، وهي "الفانية، التي يفني كل من فيها بكل أحلامهم ورغباتهم". فإذا علم المرء ذلك هدأ قلبه ، و وهن غضبه ، وضاع وجعه.

✍ **وما أجمل قول أبي العلاء المعري**

وما نهنهت عن طلب ولكن	هي الأيام لا تعطي قيادًا
فلا تلم السوابق والمطايا	إذا غرض من الأغراض حادا

لعلك أن تشن بها مغارا فتنجح أو تجشمها طرادا
مقارعة أحجتها العوالي مجنبة نواظرها الرقادا
نلوم على تبلدها قلوبا تكابد من معيشتها جهادا

وقال أبو فراس الحمداني:

أسرت وما صحبي بعزل لدي الوغي ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حمّ القضاء على امرئ فليس له بريقيه ولابحر

إذا مافاتك شيء من أمور الدنيا فلا تحزن ولا تكرب وتضيق. ولتأخذ من هذا الفائت سلاحا تتسلح به في مواجهة مستقبلك فيُتخذ من الماضي مواعظ وعبر للحاضر والمستقبل، فهي رصيده الحي وذخيرته النشطة الذي يعتمد عليه. ثم إذا حزن لا يبق طويلا في حزنه وأسفه فيحدث له من الأمراض والعلل في النفس والبدن الشيء غير اليسير فيوهنه ويضعفه، ويضع عنه من الخير القادم الكثير، ثم إنه لن يعود عليك من النفع شيئا. نعم، للنفس عاطفة وشعور، فلتأخذ حقها ووقتها، ثم لتؤوب قوية. إذا فاتك شيئًا اعلم يقينا أن هناك شيء آخر في انتظارك، ولكن لابد من العمل وبذل الجهد حتى تصل إليه وتحصل عليه . إذا تأخرت فلمت نفسك، أو فشلت فحزنت و شعرت بالألم وتقريع الذات. فالنفس دائمًا هكذا، قلقة هلوعة، ترتاع من أي شيء.

وهذا الجانب الآخر من جوانبها وهو ثمن النضج النفسي والعاطفي. واعلم أن الفشل هو جزء لا يتجزأ عنك أبدًا، وهو دائمًا رفيقك إلى النجاح، ودافعك إلى المواصلة وبذل قصارى جهدك لتحقيق نفسك.

ومن جميل قول الله تعالى، الذي يوضح هذا الأمر توضيحًا شافيًا، بأن الدنيا ليست لبلوغ الأماني كلها، وملاحقة الأمنيات فإن حصّل المرء بعضًا منها فحسن .والأمر في هذا؛ أن الإنسان خلق للخلود كما أسبقنا، فكانت الدنيا الدار الموصلة للأخرى إمَّا جنة أو نار. لذلك كان – حقًا – لا يستحق أن يلتفت إليها بهذا القدر الممرض. وأيضًا،

لأن متاع الدنيا إذا قيس بالآخرة، فهو لا شيء ويكفي أن تعلم فقط أن آخر أهل الجنة دخولًا لها له مثل الدنيا أضعافًا مضاعفة، عشرة أضعاف أمثالها.

ليس كل من تمنى خيرًا حصل عليه وظفر به، وما كل من خطط لأمر فسار كما يهوى ويتمنى، فتفيدك تلك المعرفة يقينًا في نفسك، بأن هذه أحد الحقائق. وليس هذا من جور الزمان عليك كما يدعي البعض جهلًا. والله تعالى حينما قسّم الأرزاق قسمها بالحكمة والعدل، والرزق كذلك ليس المال وفقط، إن الرزق من أوسع الأبواب وأعظمها، فيدخل فيها كل ما وهب الله تعالى ابن آدم من كل شيء. لذلك تضييق دائرة الرزق في المال، وقصره فقط عليه، من باب ضيق الأفق والجهل. وهذا يسلتزم لنا ذكر المال وسبب إنزاله، ولمَ كان التقايض به بين الناس والحكمة من كل ذلك في جعله بين الفقراء والأغنياء... إلى آخر ذلك، غير أنه يعد مبحث منفصلا بذاته، وأشير هنا فقط إليه لاتصاله به لتمام الفهم والإحاطة الكاملة. يوضح تعالى مزيدًا من الإيضاح بأن الغني ليس هو الحبيب إليه، والفقير هو البغيض عليه. إذ كلاهما خلقه وعباده ثم أنه تعالى لم يفضلهم بما كان هبته إياهم طبيعية، من تقسيمه لهم بين الغني بدرجاته، والفقر بطبقاته . وإنما العمل الصالح والقربي، والشكر على النعم، والصبر على المصائب والبلايا والمحن، إلى غير ذلك مما تقتضيه العبادة. فيقول تعالى "إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولي بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ".

فالله أولى بكليهما، لأنهم جميعًا عباده، فلم يفاضل بينهم بما أعطاهم من المال، بل جعل المفاضلة بالتقوى والعمل الصالح والإحسان والبر. فلا تتبعوا هواكم ونفوسكم - أيها الناس - فتميلوا عن الحق، وتلووا بالكلام لتخرجوه عن مقصده وأصله، فلا تحكموا بين الناس بميزان الغني والفقر والجاه والسلطان والتواضع والذل، ولكن احكموا بينهم بالعدل، وقوموا بينهم بالقسط . واعلموا أن حكمكم هذا لا يخفي على

ربكم، فهو عليم بكم، بل بما هو أدنى من ذلك، عليم بسر نفوسكم وصدروكم، محيطًا بأخباركم، مطلع عليها. ثم يوضح في آية أخرى ذلك المعني، وهو قوله تعالى

"فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن. كلا "

أي ليس الأمر كما تظن أيها الإنسان ، فعطائي ليس دليل محبتي وكرامتي، ومنعني ليس دليل بغضي وإهانتي ليس الأمر هكذا أبدًا. إنما فيه من خفايا الألطاف وحسن الجميل ما لو علمته، لأدركت حقيقة ذلك أن الدنيا عندي لا تساوي شيئًا. فكيف أوازن بين عبادي فيها بما يجعلهم يركنون إليها، ويزدادوا تعلقًا بها ثم كيف أعاملهم بمبدأ الدرهم والدينار، وأنا الغني وخزائني ملأي، وهي لا تنفد أبدًا. فكيف وقد جعلت الجنة دارًا لأوليائي وجعلت لهم فيها ما تشتيه الأنفس، وتلذ الأعين وهم فيها خالدين، مكرمين، منعمين. وجعلت النار لأعدائي، فهم فيها يعانون ويتألمون ويكابدون جزاء صنيعهم وفعلهم. فلم أمنع هؤلاء لقصدي تعذيبهم، ولم أعطِ هؤلاء دليل محبتهم وتقريبهم.

وليس إعطاء الدنيا دليل على إعطاء الآخرة، إذا الإعطاء في الدنيا لحكم بالغة ومقاصد عالية. فليس كما يظن أحد المعاندين، كما قال تعالى عنهم

"وقالوا نحن أكثر أموالًا وأولادًا وما نحن بمعذبين"

ذلك ظنهم، كما أنعم علينا في الدنيا سيعطينا يوم القيامة

فيرد تعالي عليهم مأصلا الجواب أولًا فيقول تعالى "قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون"

فمسألة الإعطاء والمنع، هي خاصة له تبارك وتعالى، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهذا ملكه وسلطانه، وهو تعالى يحكم بينهم بالرحمة والفضل والخير، فلو أخذهم بما كسبوا لأهلكهم، كما أهلك من قبلهم، وإن في ذلك لعبرة. فالإعطاء والمنع صفة خاصة به تعالى، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويرفع من يشاء ويخفض من

يشاء، لا راد لحكمه ولا معقب لأمره، فأمره نافذ عليهم جميعًا وجعل كل ذلك لحكم أظهر بعضها، وأخفى الآخر قصد الابتلاء والامتحان.

ثم بعد أن أعلمهم أن هذا فعله تعالى مجردًا، يوضح لهم ما التبس عليهم وضعف فهمهم عن إدراكه، في الغاية الحالية أو المآل المستقبلي. فيقول تعالى "وما أولادكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعملا صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون". فالأمر هنا ليس بالمال والولد، فهذا عطائي أرزق من أشاء وأمنع من أشاء فليست هي وسيلة القربى لدنيا والوصول للخير عندنا. ثم أعقباها باستثناء لطيف، فليس الأمر هكذا على الدوام، إلا إذا تقربتم بهذين الأمرين لدَينا، فأنفقتم من الأموال وأعطيتم منها بحقها، ثم ربيتم أولادكم فنشئوا فكانوا صالحين في المجتمع فعّالين، نافعين لأهلهم ومجتمعهم.

ثم يوضح تعالى في موضع آخر أنه قد يبتلي عباده بالخير لينظر حالهم وقت النعمة والرخاء. فيقول تعالى "ونبلوكم بالشر والخير فتنة" فليس المال هو معيار الوصول والقربى، إلا من أخرج منه حقه، أنفقه في محله، وكسبه من حلال طيب. فالمال عارية تسلب وترد، فهي مداولة بين يدك ويدي غيرك، فيرى تعالى كيف يفعلون بها هل ينصرون بها المظلوم، ويكسون بها العاري، ويطعمون بها الجائع، ويصلحون بها في الأرض، ويمنعون بها الفساد والإفساد، أم ماذا عملوا بها !! وكذلك ينظر إلى الفقراء هل صبروا على ما أصابهم، واعملوا عقولهم في أخذ المال من حِله والتزود به على قضاء أمور حياتهم. أم أفسدوا وتأففوا وسخطوا.

فالمرء مبتلي مختبر في كل ما يملك، لذلك كان بين الشكر والصبر. بين نعمة أعطاها تعالى له فهو شاكر لفضله. وبين ابتلاء أصابه به فهو صابر عليه. فهو من هذا إلى تلك، فهو متقلب صائر بينهما، والناظر لتاريخ الملوك والحكام، فيجدهم الطبقة العليا المترفة، المسبلة في النعيم وقد تجد بعضهم عُذب وهُلك وحُرم، بل تجد كثيرًا

منهم إن لم يكن كلهم لم يتمتع بكل ما أخذ. ثم إن من كان همه الجمع وفقط، مات وهو يجمع، ولن ينتهي.

وكما قال الحكيم:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر، فالذي فعل الفقر

ثم انظر ثانية إلى الأنبياء والمرسلين. وهم أفضل الخلق قاطبة، لم تجدهم من أغنى الناس، ولا من أكثرهم ثراءً وجاه بل إن أكثرهم ليسوا من ذوي الملك والتيجان. بل تجدهم في حياتهم مبتلين، محاربين من أقوامهم، غير ما يلاقوه منهم من العنت والظلم والإخراج من الديار والأهل والأموال. فإذا نظرت إلى حياة كل واحد منهم زدت عظة وعبرة وحكمة لتعلم أن الحرمان ليس دليل شقاء وعذاب، وأن الإعطاء ليس دليل فضل وكرم . فلا تحزن لمصابك، بل اصبر وصابر واشكر واحمد، كن ذا روح جميلة. وهذا ليست دعوة للفقر أو التشاؤم أو الحث عليهما، ولكنه وضع الحقائق في نصابها، وتبين الأمور على حقيقتها، على ما هي عليه. حتى لا ينخدع أحد بتزيين أحدهم له، أو تزييف أفكاره عليه بإحتيال ومكر وخداع. أو قل بكل بساطه يغفل عن هذا بمختلف أسباب وعلل، فيكلف أيام دهره، بما ليس له به يد، فيرى الحياة مغلوطة معكوسة، فيكثر ضلاله، ويسهل خداعه.

الإنسان ما بين أفكار. وحريات

ما أكثر مزاعم البشر! وما أكثر ادعاءاتهم! فتجدهم يكثرون الحديث عن أشياء خلت من الصحة وانعدمت من البرهان حتى ما صار للمنطق إليها سبيل. بل ويحشدون شواهد وأدلة هي في أصلها لا دليل فيها ولا حجة بها. وإنما هو حشد للكلام وإطالة للقول من غير فائدة تذكر ولا معرفة تدكر، إلا ما استقر في ذهنه وأجمع عليه عقله أنه هو، لا من حيث الأمر في نفسه صحيح أم لا. وهو في ذلك دعا على نفسه بمصيبتين وألحق جانبه بمشكلتين، أمَّا الأولى: فهي جهله المركب، بحيث أنه يعتقد صحة ما أساسه البطلان. ثم يأخذه فيبنى عليه ويؤسس له تأسيسات بنيت على جدار مائل، وهو في ذلك إلى الشك من اليقين أكثر. فبنى بنايته على جرف هار، فأسس يقينه على جرف من شك. وهذا من أكبر المعضلات، أن يبنى المرء يقينه من الشك. فيصبح الشك عنده يقين، فيصعب تغيره فيما بعد. فإذا ما هو عرف الصواب يجد في نفسه ثقلًا على التغير، ومحاولة النفس لتقبل الجديد لا سيما من الأفكار لا يكون سهلًا. لذلك تجد ظهور المذاهب المختلفة والأيدولوجيات المتنوعة في كثير من أنماط الحياة. حتى تجده في جدال خصم لك، بل حتى فيما هو أهون من ذلك في مناقشة لأمر ما اختلفت الأقوال حوله والنظريات عليه. حتى تصل في دُبُر الأمر إلى عظائم الأمور من جدال المعاندين لأنبيائهم، وإيرادهم الحجج الباطلة والأوهام الكاذبة التي بها ضحكوا على أنفسهم واتخذوها ذريعة في محاربتهم ومعاداتهم.

وهذا حالهم وحال المصلحين بعدهم، تجدهم يعانون أشد المعاناة في إصلاح ما أفسده غيرهم من الضالين الذين انحرفوا عن الفكر الصحيح وخالفوا المنهج القويم. بل حتى في أمور الحرب وقيامها، تجد الفريقين متنازعين كلهم يظن امتلاك ناصية الصواب وجماع الحق وملكة الفهم وغيره في غيه يعمه. وقبل إكمال الفقرة الأولى هذا

يدعوك إلى النظر في قضية هل الحق واحد لا يتعدد، أم أنه كثير متعدد؟؟ وبأبسط قول حتى لا تخوض غمار استحضار قول هذا وفهم ذاك. إذا كان الشيء واحد وحقيقته واحدة وهو حالة واحدة، كيف إذا ينتقل بكلمة قائل من الحالة المفردة إلى حالة الجمع، وإنما الممكن في ذلك أن تعدد الرؤى حول فهم طبيعة الشيء، وتختلف الأقوال حول بيان عنه. وهذا لا يدعو إلى جعل الشيء في نفسه متعدد، حتى وإن تلقته أو صرحت به جماهير مجمهرة، وألوف مؤلفة. فليست صحة الشيء تابعة للعدد ولا للكثرة، إنما صحته تثبت بأمور أخرى متعددة قد يكون الجمع فيه وارد، وهذا ما سنذكره بعد قليل.

فنظرًا لاختلاف العقول والإفهام يتعدد الفهم حول حقيقة ما. نعم، قد يتوصل إليها بطرق متعددة وقد تئول في أطباق شتى، ولكن هذا لا ينفى كون الحقيقة واحدة. ويجب مراعاة نقطة هنا خلال إثبات كون الحق واحد واختلاف الناس حوله، وهي أن اختلافهم كان ضرورة حيث أن الفهم ليس واحد، وذلك لأن معرفتهم متعددة متنوعة المشارب. فكان اختلافهم اختلاف طبيعي في الفهم، لا اختيارًا منهم للخلاف والرغبة فيه. يضاف إلى ذلك الأمور المُقَوِية للخلاف وجودًا وعدمًا . وتقبل الناس لذلك قوة وضعفًا، وهي نقطة ليست بالهينة. وينتج عنها أن المختلفين نيتهم حسنة وإرادتهم طيبة، وهي إرادتهم للحق ودفاعهم عنه. ولكن المشكلة تكمن حيث وضوح الحق لا خفاء به ثم رفضه بعد ذلك. وبذلك تستطيع فهم كثير من سياقات الخلافات في التاريخ، بل يتضح لك شيء العمق في قصص الحرب، وكيف أن نزع الغطاء عن الحق وتبيانه للناس، ثم يرفضونه بعد ذلك، له تأويلات كثيرة. منها، أن هؤلاء لهم مآرب أخرى وأمنيات ورغبات شخصية. وقبل أن أكمل هناك أمرين ينبغي مراعتهما هنا، الأول معاناة المصلحين والمجددين لمجتمع ما، تجذرت فيه شائبة فكر وخرافة قول. فإن إزالتها من أعظم ما يكون، لا سيما إن كان مرتبط بعقيدة معينة رسخت في قلب المرء وذهنه، فتجد أن أصعب الحروب حروب الفكر لا حروب الآلات، لأنه لا ينتصر

فيها على فئة معينة وحسب، بل ينتصر فيها على أمة في تغيير فكرها، وتوجيه مسار تعليمها، والتحكم في منابع المعرفة عندها. والمشكلة في ذلك كله في المعلومة الخاطئة الضالة التي رسخت في العقل أولا ثم توالى الإيمان عليها والتقديس لها، حتى صارت أمرًا مسلمًا معلومًا عندهم أنه لا يمكن دحضه، ولا يجوز مناقشته وهو في أصله مبني على ابتداع وضلال وكذب. فإذا ما جئت لتجلوا الحق ظاهرًا من مصادره ... تجدهم يعانون أشد المعاناة في تقبل هذا الجديد، ويركنون في جميع أحوالهم إلى هكذا نشأنا وهكذا تربينا، ونحن وجدنا آبائنا على هذا وإنا على آثارهم لمقتدون فلن نحرف ولن نغير. ونسوا هؤلاء وغيرهم كيف كان آباؤهم وكيف أنهم لم يهتدوا للحق، ولم يسيروا تبعًا لمنهاج الهدى والنور، بل لازموا ميراث الأولين وأساطيرهم وما ورثوهم منهم. لذلك فالمصلح في أمة إنما هو يواجه أفكارًا ذات توجيه معين. فإذا عرف كيفية ولوج الأفكار إليهم، وما أسباب العلة فيها وكيفية تصحيحها، و وضع في ذلك منهجًا قويًا قويمًا، اهتدى إلى أول الطريق.

والثاني أن المشكلة في الإصلاح لا تكون مع الشخص بعينه، وإنما هي الفكر نفسه الذي يتبناه صاحبه. ولذلك إذا كانت العقول منفتحة على التغير، مقبلة على الحق، يستطيع المرء حينها إيضاح الأمر بجلاء. أمَّا إذا كانت العقول ضعيفة أو مريضة متحيزة لا تقبل إلاما شاكل رأيها، وترفض أي ما يعاديها. فتلك جامدة لن يتضح أثر التغير عليها، لأن من العقول عقلا يقبل الفكر والحوار ويستوعب الكلام ويأخذ ما صلح منه ويترك فاسده. ومن العقول عقلًا لا يقبل إلا صوت الترهيب ولا يشهد إلا حين رؤية السلاح، وما أقبله على ذلك قلبه لا عقله ثم بعد حبه للحياة وإيثارها عن أي شيء.

ولذلك كلما كان العقل سليمًا منفتحًا استطاع تقبل الحق، وقدر على التمييز بينه وبين غيره وعرف شواهده وأدلة ثبوته، وبنى كلامه على اليقين لا على الشك والظن.

فلثبوت العلة عنده أدلة ودلالات، فلا يأخذ الرأي هكذا لمجرد سماعه، أو لأن فلان

قالــه وزكاه. فالقول لا يزكى ويشهد لــه بقول فلان وتزكية علان، ولكن يشهد له بثبوت الدليـل معه. لذلك قديمًا قالــوا: ـ "اثبت العرش ثم انقشـ"، أي ارسي قواعد كلامك وأساسه ثم حاور وناقش. اجعل لك دليلًا صحيحًا ترسى به قواعد عرشك ثم بعد ذلك ناقشـ وجـادل وابن علي صحيح، حتـى لا يكون دليلًا باطلًا، فتبنـي بذلك باطلًا على باطل. ولأن "الحق لا يعرف إلا بالدليل"، لا بقول فلان ومدى شهرته وصيته" فالحق لا يعـرف بالرجال، وإنما الرجال هم الذيـن يعرفون بالحق". فهو لا يكال أو يوزن، وإنما الرجـال هم الذين يوزنــون في قبولهم له أو رفضهم إياه. والحق يعرف بدليله لا بقائله وإن كــان مــن كان. "اعرف الحق تعـرف أهله" ومن جميل ما ذكـر في ذلك مما يريح المـرء ويوضح كيفية اختيار الصــواب ومعرفة الجيد من الخبيــث، قاعدة "استدل ثم اعتقد"، استدل أولًا بأدلة صحيحة ترجح ما تذهب إليه، إذ لولا ذلك لقال من شاء ما شــاء، ولو ادعــى من شاء على من شاء فأصبح الأمر مشاعًــا كل يأخذ من غيره كيفما أراد. ولأصبحــت الدنيا فوضى تعج باللامنطقيــة، لذلك قالوا "البينة على من ادعى" والدليـل والبرهــان على صدق ما تدعو إليه، وإلا كانت دعوتــك باطلة مردودة عليك، لا صحة لها ولا نقبلها أبدًا. إذ هي كذلك والعدم سواء بسواء، لا فرق بينها وبينه، إلا أنك فقط نطقت به، وأخرجتها إلى الوجود بنطقك له، والا فهي لا تساوى شيئًا.

ولذلــك لا يجب أن يصدق الإنسان كل ما يسمعه، بل يفحصه ويعرضه على ميزان المنطـق السليــم. وكم مــن مصيبة وقعــت لأن الإنسان سمع ولم يتحقــق ولم يتأكد ولم يبحث، إنما جعل كلام قائله له بمنزلة اليقين الذي لا يخالف، والحق الذي لا ريب فيه. فهــب من فوره وتصرف على حسب ما سمع، ثم ندم بعدها ولات حين مندم. ولكن لعل أن الأصــل في كــلام الناس العدول، الصدق. إلا إذا ثبــت الدليل على ما يخالف ذلك. و" الأصــل في النــاس السلامة إلا إذا ثبت الدليل على ما يخالف ذلك" لأنك إذا جعلت ضــد ذلــك هو الأصل، كيــف تكون الحيــاة إذًا. وكيف يحيا النــاس، وكل يخون الآخر،

ويعـدم الثقة منه، ويدعى عليه بكل شر ومصيبة. كيف يعيش الناس حياة طبيعية وهم لا يأمنوا جانب بعضهم، كيف يغمض لأحدهم جفن وهو يخاف على نفسه وأهله وماله من جاره ومن هذا وهذاك! فالناس عنده كلهم خونه كذبه لا كلمة لهم، ولا أمان! فهذا الإنسـان يحيـا في الجحيـم، يعيش حياة لا يطيقهـا أحد. بل حتـى الحيوانات تجدهم يعيشـون في أسراب وجماعات. فيألف أحدهم صاحبـه وهكذا، إلا أن يدل الدليل على عكـس ذلـك أو يثبت ما يناقـض هذا. وفى ذلـك حماية للنفس والفـرد والمجتمع ككل وحماية ممتلكاتهم وأموالهم، فإذا جاء أحدهم وهو يدعى على غيره ما يناقض الأصل ويعاديـه، نقول له أين بينتك؟ وأين شهـودك؟ وما أعظم الآية التي هي أصل في حماية أعراض الناس.

وهـي قوله "يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا أن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَـإٍ فَتَبَيَّنُـوا أن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"

وعـبر في الآية بلفظ "الفسق" لأن "الأصل في المعاملة بين الناس الستر". فالرجل إذا رأى مـن أخيه ما يكـره يستره عليه، ولا يفضحه، ولا يمشى بين الناس بهذا الذكر، فيصيبه في مقتله. وإنما يستر عليه، ثم ينصح له النصيحة الخالصة بصدق وحكمة. لا بحـب ظهور واعتلاء منـه وإظهار جانب، فـإذا لم يرعوي، ألح عليـه في النصيحة. إلا أن يكـون في ذلـك حق لغـيره، فوجب إذا أن يبلغـه، تبليغا بمعـروف وأداءً بإحسان فالحقـوق مردهـا لأهلها، لا يجب أن تأخذ منهم قسـرًا وغصبًا، وإنما ترد إليهم، فإن تركوهـا إحسانًا وكرامة فذلك خير وبركة. وإن أرادوا حقهم فهو أولى بأن يؤدى إليهم ويؤخذ لهم.

فلا يقبل كلام الناس في الذم والمدح إلا ببينة ودليل، فتنفد مزاعمهم ويبين قولهم مـن كونه صدقًـا أو كذبًا، حتـى لا يخطئ السامـع فينصرف بهذا الكـلام، وهو ظان صحته فيبلغه غيره، وينتشر الأمر في الناس وهو أصله كذب لا محل له. لذلك الواجب

علـى السامع ألا ينقل من كلام المتحدث عن غـيره شيئًا إلا ما تيقنه وعمله منه وجربه عليـه. فيتبـين أولًا ويتثبت من هذا الكـلام. حتى لا يصيب قومًـا بجهالة منه في عدم معرفـة كيفية تلقـى الكلام، وكيفية التعامـل معه، فيصبح نادمًا آثمًـا آكلًا لحم أخيه ميتًـا. فينطـق عنه كذبًا ويدلى بقولـه بهتانًا. فسلامة أعراض النـاسـ هي من أهم ما يجـب الحفاظ عليه. فتغليظ العقوبة علـى ذاك السقط من الكلام عن الناس، والزلل من اللسان عن الناس زورًا وبهتانًا.

وانظر إلى سؤال معاذ بن جبل إلى رسول الله فيقول: "أمؤخذون نحن بما نتكلم به يا رسول الله؟ قال (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ أو عَلَى مَنَاخِرهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ). فلذلك كان المنهج القرآني الحكيم واضح الدلالة في الإشـارة عن ذلـك وتوضيحه وبيانه بأن بمعيار الحساب، علـى الكلمة تلو الكلمة فقال عـن حال المجرمين يوم يـرون كلامهم بارز أمام أعينهم فيقولوا" مَـالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ". ويقول تعالى في موضع آخـر" وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ" فكل شيء مسجل محفوظ وهو مخاطب فيه بالكلمة، بـل بما هو أقل منها، وهو الإشارة والتلميح دون التصريح، كل مسجل عليه. لذلك كان المنهـج القرآني بديع في ذكره في قوله" يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّـن ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ " ما ضرك أنت لـو اتبعت الحق، ولم يتبعه أحد سواك! فأنت في مبـدأ الأمـر لم تنطق به لأجلهم، بل لأجله تعـالى. فمن معه عز وجل لا يبالي بعد ذلك بالناس وأحاديثهم وأقوالهم، لتملك الهوى منهم ولسيطرة التمييز والميل عندهم، "وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَـقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ " لذلك كان العمل بالدليل والثابت لا بالهوى والظن.

ولـن نهـوى في إطالة القول هنا إلا إشارة لشيئين. أن هـذا الخطأ الذي يقع الناس فيه، إنما هـو من المعطيات الخاطئة والمدخلات المتحيـزة والمغالطات المنطقية. لذلك

سـدت الشريعة كل داعٍ إلى هذا، وجعلت كل كـلام بدليل وبينة. ولم يكن أي دليل يقبل هكـذا، بـل له شروط وقواعد يجـب أن يمر عليها. ثم هناك شـروط أخرى تتعلق بهذا القائل. ثم شروط ثالثة تتعلق بالمقول نفسه. ومن ثم نحن لم نصل بعد إلى محاكمة من ألقـى عليـه القول، ولكن نحن في مرحلة أولية في النظـر في إثبات صحة الكلام وأهلية مـن صدر منـه أولًا، لذلك كـان التبين والتثبت، وهـو جعل الغامض في الشيء واضح ظاهـرًا بينًا لا خفاء فيه، حيث لا يشكل على السامع فهمه، ولا ينفي عليه بيانه. فيجب أولًا أن يستدل على صحة ما يدعيه بدليل صحيح في نفسه، دالٌ على ما يذكره. ثم ثبوت النسبـة بين الدليـل وبين ما نسب إليه. فالدليل هذا قول قائـل أو فعل لأحد من الناس فيجـب أن يكون هذا الشخص ـ فعلًا ـ قال هـذا الكلام أو أتى بهذا الفعل، ثم أراد منه هـذا الفهم. فلا يؤول قولـه عن مراده وأصله. وإنما الأمانة تقتضي نقله كما قاله. وأن يكـون من نقـل عنه هذا عادلًا ضابطًا لا يتوهم ولم يدخـل لكلامه الشك أو الريب، ثم أن يكون من أهل الثقة، فلا يستدل بأراذل الناس ومن عرف السوء والشر. ثم لا يكون ذلك القول مخالفًا للمجمع عليه من أهل الثقة والعدل. فإذا ثبت ذلك عن الناقل عنه، يجـب أن يثبـت عن المنقول نفسه بـألا يكون مخالفًا لما عليه العقـلاء وأهل النظر. وألا يكون شاذًا أو به علة تقدح بقبول صحته فإذا ثبت صحة المنقول والناقل عنه. دخل بعد ذلك إلى دلالة الكلام فيما ذهب إليه، وهل الدليل المستدل به، به دليل على ما طرح، أم أن هـذا يناقض هذا ويضاده، بأن يكون الدليل مثلًا صحيحًا ولكنه استدل به على غير وجـه، فلا عمل به إذًا، ثم يلاحق ذلك أن يكون المتحدث المستدل بالدليل عاقلًا فاهمًا لمـا يقول، واعيًا بما يتحدث عنـه، مؤهلًا لقوله. حتى إذا تبين كذبه مثلًا، يوقع عليه ما يستحـق مـن العقوبة التـي تلائم الضرر الـذي أحدثه. وهي لا تقع مثـلًا على المجنون الـذي لا يعقل، والصبي الذي لم يكلف، والفاقد لصفـة أهلية الحديث بأن يكون عنده اضطراب مثلًا يمنعه من الضبط والاتزان، ثم يظهر بعد العلل والضعف كثير في قوله.

فهـؤلاء لا يقبـل عنه ولا يؤخـذ منهم. وإن كان قـد يستأنس بكلامهـم للبحث فيه والتنقيب عنه، فينظر في قولهم هذا من غير الاعتماد عليه، وإنما يعتمد على ما يظهر منه من الحقائق والأدلة. " فمن لا يتحمل أثر الكلام لا يعد أهلًا للأخذ منه ". وكلامه حينئـذ والعدم سواء إذ لن يستشهد بـه ولن يقوم عليه بينة أو دليل. إلا أن عندنا شيء قد نعتضد به ونتقوى على ترجيح قول دون قول، وكلام دون كلام، من غير قطع بصحة أو عدمهـا لأن المرء في كثير من الأحيان لا يملـك الحقيقة المطلقة، فيستعين عليها بما يملك من الوسائل. ثم يرجح أحدهما تبعًا لما ظهر منها. وهو بعد في كل يكل علم الأمور كلها إلى الله فهو المطلع على كل شيء، العالم لخائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهـذا بعد شيء من فيض في إثبات الدليل والكلام وصدقه مـن كذبه. ولو تتبعنا إيضـاح تلك الأسباب والشروط والقواعد لانتهـى بنا الأمر حتى نفضى إلى سياق آخر وموضـوع منفصل وهـو "إثبات الكـلام وأدلته ومراحلـه وكيفية الوصـول إلى الدليل الصحيح". وذلـك من أجل شيئين عظيمين، الأول هو خطر الكلمة وأثرها على النفس وعلى الناس وعلى المجتمع ككل. فما المجتمع إلا لبنات من أُسَرَات وتجمعات، وما الناس إلا مجموع أفراد وأنفس. وتأثير الكلمة عليهم واضح ظاهر لا يحتاج إلى إيضاح. لذلك عنيـت الشريعـة بأمر هذه الكلمـة ومنعت كل ما يفتح الباب لذلـك، من غيبة ونميمة، وذكـر للناس بالسوء والبهتان، ومن الظن بهـم ظن خبيثًا لا يمدحون عليه. وسدت كل الطـرق إلى ذلـك بأن حذرت ورهبـت فاعل ذلك بأنه أولا" كما قـال سيقال عنه". ثم جعلـت له وعيدًا على فعله مـا لم يرجع عن قوله ويندم عن حديثه. ثم رغبت في الكلمة الحسنة الطيبة، التي يتجاوز أثرها عنان السماء فجعلتها كثمرة طيبة تؤتي أكلها فهي طيبـة في نفسها وصالحة. ثم بعـد يعود نتاجها وأثرها على النـاس. وحثت على القول الطيب لجميع البشر فقال تعالى "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"

تكلمـوا معهم باللطيف من الكـلام والحسن من القول. وأحسنوا إليهم كما تحبون

أن يحسن إليكم "وَأَحْسِنُوا إن اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" وجعل "المعاشرة بالمعروف هي الأصل في حياة الناس" تعامل غيرك بمعروف، وزوجك بمعروف، ووالداك بمعروف. حتى بأن تحسن إلى البهائم ولا تؤذيها وتؤدى إليها حقها بالمعروف. ثم بعد ذلك جعله أمرًا عليهم فقال تعالى "وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إن الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ " فعدى الموضوع الأول بأن لا يجعل كلامه حسن فقط، بل يخرج أجمل ما عنده وأفضله. "أحسن" صيغة تفضيل، كأنه يفاضل بين ما عنده من الكلام، ثم ينتقي أجوده وأفضله فيخاطب به الناس، ومن دلالات الكلام أن "الأمر بالشيء نهى عن ضده". فكما أمره بنطق الجميل من الكلام. ففيه نهي عن أن يحدث مخاطبة بلهجة تهكم وسخرية وإقلال. بل يحسن رِفْدَه ومعاملته حتى جعلت العرب مكالمة الرجل بالطيب من القول من إكرام الضيف، والواجب فعله له.

فقالوا: ـ (من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المواكلة).

✍ قال شاعرهم حاتم الطائي:

سلي الجائع الغرثان يا أم منذر — إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

هل ابسط وجهي إنه أول القرى — وأبذل معروفي له دون منكري

✍ وقال الخريم:

أضاحكُ ضيفي قبل إنزال رحله — ويُخصب عندي والمحل جديبُ وما الخِصْبُ

للأضياف أن يكثر القِرى ولكنما وجه الكريم خَصِيبُ

فالعرب تجعل الحديث والبسط، والأنس والتلقي بالبِشر من حقوق القِرى أي الضيافة ومن تمام الإكرام به. ويقول الرسول في الحديث الصحيح: (وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) فاجعل خلقك معهم جميل حسن لا تتكبر ولا تسخط ولا تُحَقِر، ولا تمشي بينهم بالعداء وزرع البغضاء وشرح صدورهم بمعاداة بعضهم وتأجيج نار العداوة والكره بينهم. فيألب هذا على هذا، فهذا من أبغض الناس يبغضه الله ويبغضه الناس،

فهو من شرار الناس وأراد لهم، يقول عليه الصلاة والسلام: (إن شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَعَهُ أو تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ) يخافون على أنفسهم منه يخافون تحريفه للحقائق ونقله للكذب وإشاعته للبغض والسخط فيتقونه. لا مخافة منه ولكن لضرره ولقبيح أثره عليهم وعلى الناس -نعوذ بالله منهم -

ومن أبغض الناس عند الله تعالى (الفاحش البذيء) الذي ينطق بالفحش من القول. فلا يعرف إلا السباب. ويجعله في أثناء حديثه كأنه يتسلى به حتى يصير عادته ودأبه. ومن أحب الناس إلى الله من ينطق بالجميل من القول. فينطق لسانه بالكلام كأنما يسيل عسلًا وشهدًا. وما من شيء أثقل ميزان المرء يوم القيامة من حسن الخلق ولين الجانب، والله يبغض الفاحش المتفحش في قوله. فتجد في قوله وقاحة، وفى لسانه فحشا، وفى فعله كرها واشمئزازا. حتى جعله -عليه الصلاة والسلام- المؤمن، ليس بساب للناس أو مجاهر بالسوء من القول. فيقول عليه الصلاة والسلام: " لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ" .

ليس هذا من صفته وليس من خلقه، ولا ينسب ذاك القبح إليه أبدًا، وكل ذلك طريق إلى الندامة، والخسران وسوء المعاقبة.

وانظر إلى قول الله تعالى" لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ"

فلا يحب سبحانه الرجل يخرج على الناس ويتعالى صوته بالسباب والفحش، والفظاظة والقذاذة اللفظية. وبمفهوم المخالفة يحب تعالى أن يجهر الرجل بالطيب من القول واللطيف من الحديث وأن ينادى الناس بما يحبون من الألقاب والكُنَى، فلا يتخير أسوأها ومحل سخطها عندهم فيناديهم بها، كما يفعل بعض من شاهدناهم . فالرجل المؤمن يكرمه الله تعالى يوم القيامة بأن يناديه بأحب الألقاب إليه وأحلاها وقعًا على سمعه. ومن الكرم من الدنيا، أن تنزل الناس منازلهم، وألا تنزع عنهم قدرهم وما يستحقون من الخير والفضل، وأن تناديهم بأحب الألقاب والكنى إليهم.

عكس ذلك هو من الأذية للمسلم، أذية حقيقية ولكنها معنوية. وفي كل ذلك مراعاة جانب القلب وأثر الكلمة عليه. فخاطبوا الناس بالكلمة الطيبة والعبارة الحسنة الرقيقة الرقراقة، التي تترك في النفوس انطباعًا جميلًا وتخلف أريجًا وعطرًا. تبقى على مدى الدهر محفورة في القلوب ومحفوظة في الصدور.

وانظر معي إلى كون إماطة الأذى عن الطريق صدقة، ولِمَ كان صدقة؟ به تيسر المشي والذهاب والإياب للناس. لا تجعلهم يرون ما يقذذ أبصارهم. تجعل طريقهم سهلًا ميسرًا وذاك أهون شيء. فكيف بك والحال في علاقتك معهم! أن تمنع عنهم أذاك فلا يصلهم منك إلا كل طيب وخير. تمنع عنه كل أذية بالقول أو بالفعل، تحجب عنهم كل ضرر من جانبك فيأمنوك ويسالموك. وتكون الحياة مبنية على أساس من المودة والرحمة والتعاون ومنع الأذى. فانظر إذا كان للطريق حق عليك من إماطة الأذى ورد السلام.. فإذا كان للطريق حق يجب إيصاله إليه، من أداء لأفعال ونهى عن أخرى، فهل يُعْدَم الإنسان حقا! والنبي يقول: (فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) فكيف بالإنسان أيًّا ما كانت صلته بك، وعلاقته معك، ومدى قرابتك وارتباطك به، كيف يكون حقه إذا عليك!!

وكل ذلك نابع من مفهوم الكلمة وأداء حقها، فالكلام ليس هكذا يطلق ويلقى على عواهنه، بل يجب أن يكون له مغزى وهدف، لأثره على النفس أولًا ثم على الناس، ثم لأنه الرابطة الأساسية للتواصل بين البشر، نعمة الكلام والنطق والإفصاح عن المكنون والبيان عن المراد. وهي من أعظم النعم التي امتن الله بها على الناس، لذلك ينبغي أن تكون حيث مواطن النفع والإصلاح ولا في مواطن الضرر والإفساد.

والثاني، صيانة الأعراض وحفظ للحرمات وتقديسًا للحقوق والواجبات. لأن الكلام هنا قد تجاوزه هو إلى حق غيره. فاعتدى عليه به، وخرج من أرضه إلى الارتياع في أرض غيره. ولكل مسلم حق على أرضه في حفظ حرمته حتى حال غيابه أو فقده.

فكيف به والواجب أن يحفظ ويراعي ويدافع، إذا به يستحل ما حرم ويستبيح ما منع، ويؤذى الناس بكلامه أو فعله وتصرفه!

ولم يجعل الله هذه الحقوق للاستهزاء بها أو للاستخفاف من شأنها، فهذا شأن المنافقين والمعاندين، وإنما حد حدودا ونصب قواعد لتُتَبع، لذلك يوصى سبحانه وتعالى في كتابه فيقول في غير ما موضع تأكيد لأهمية الأمر والاعتناء به فيقول تعالى" تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ".

" وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ".

" تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا". " ولا تتخذوا آيات الله هزوا".

فيجب على المرء أن ينتبه ويتيقظ، بأن هذا أمر الله الخالق المالك الأحد، الأعلم بما يصلح الناس وما ينفع لهم وما يضرهم وما يحفظهم، وما يكون وباءا عليهم، وما يكون رحمة ورأفة بهم.

فليس هناك لعب أو مزاح في الحديث عن الناس والاستهزاء بهم والتنكيت عليهم والتنقيص من شأنهم، وقد رعت الشريعة هذا الجانب أيما مراعاة، حتى أسهبت بالتفصيل والشرح في الحديث عن ذلك شيئًا طويلًا، يستحق أن يفرد بالكلام عنه منفصلًا توضيحًا وتبينًا، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك فيما مضى.

ويكفي هنا نهى الله في كتابه عن ذلك فقال" وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمان وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" ناهيك في كل ذلك عن الخراب والهلاك التي قد تؤدى إليه تلك الكلمة التي ينطق بها أحيانًا وهو لا يُعمل فكره في كثيرًا من نتائجها وعواقبها. بل قد تؤدي في بعض الأحيان إلى خراب بيوت كانت عامرة، أو انتهاء علاقات كانت وطيدة. فضلًا عن إظهارها في بعض الأحيان روح البغضاء والكراهية وما ينتج من ذلك من تصرفات وأفعال. فهي قد تهدّ البيت من داخله، وتزلزله في كيانه، وتقضي على أفراده بالبعد والشقاق، وتورث ما كان بينهم من تقارب

إلى التنافر والتخاصم والبعاد. ما أقسى هذه الكلمة! وما أجفاها! وما أشدها! وما أغربها! إنها تلك القوة السحرية التي تفعل بالنفس الأفاعيل، فتحيي وتميت وتشفي وتمرض! كأنها نوع من الإرادة، وحاسة أخرى زائدة عند الإنسان. ولكنها غير مرئية في مظهرها، بل واضحة في قوتها وتأثيرها. هي القوة المندفعة في داخل الجسد، فتسير حركة أعضائه أو تعيقها. اشتق منها كل شيء. كل ما يملك الإنسان هو مأخوذ من طياتها من أحرفها. بل هي التي جعلت لحياته معنى تصلح عليه. فلك كيف، ولو نزعت منه وخلت منها الحياة. لأصبح كل شيء صامت. فلا صوت له، تماثيل تتحرك لا نداء لها. فأضفت - نعمة الكلام - نوعًا من الحياة على البشرية كلها، لذلك تجد الله عز وجل يمتن على الإنسان بإعطاء نعمة الكلام وصفة النطق وموهبة الإيضاح والبيان.

فيقول تعالى " الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإنسان (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"

والبيان كل ما يوضح المرء عن نفسه به، عَلَمَه كيف يفصح عن حاجته من كل شيء، وأَمده بالدلالة التي تساعده على ذلك فخلق اللسان جارحة النطق، الذي به نتحدث. فالنطق عليه، قائم به. فبه وحده عشرة مخارج للحروف ينطق بها الإنسان. ويمتن تعالى على عباده بهذه الجارحة، فانظر لقوله تعالى" أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ" وكل ما هو مخلوق، يحتاج إلى قانون يسير عليه، فإن خالفه ضل وفسد، لذلك يخبر تعالى بكيفية حفظ الألسنة، وكيفية مراعاة الكلام وتخير الألفاظ بين جيدها ورديئها، وبين حسنها وسيئها فمن اتبع ذاك الهدى وسار على هذا المنهج سعد وأسعد من معه، ومن خالفه ضل وفسد وشقي وأشقى من حوله.

والآن انطلق إلى الحاجة التي نشأت لأصلها الحديث، ومهدت لها بما سبق من الكلام. وأن أطلنا المقام فيه لضرورة الإيضاح والاستيفاء، ولحاجة المقام. والكلام ذو شجون والأفكار تتداعى. والمعاني مترابطة. والربط في ذلك يكمن في مبدأ الكلام عن ظن الناس وزعمهم وافتراءهم في بعض الأحيان، ثم ربطنا بعدها بالدليل وكيفية

ثبوتــه، وأنه أصل الحديث والكلام فلا كلام إلا بدليل. وذكرنا طرفًا من الكلام وكيف أن بعضــه يصــح استعماله، وبعضه يجـب إهماله وأصول ومذاهب بعضـ الناس فيه. ولعـل بعضـ ما ذكرنا يوضــح حتمية الاختلاف في بعضـ الأحيان وكيـف أنها ضرورة طبيعيــة وأمر وجــودي. إلا أن واجــب البشر في ذلــك أن يضيقوا دائــرة الخلاف تلك قــدر ما استطاعــوا وما أمكنوا، وتلك ضــرورة حتمية بشرية عليهــم. فالفرق بين كون الشــيء حقيقة موجودة ممارســة، وبين تفاعل الشخص مع الشــيء أمرًا آخر. فمثلًا، الشــر، حقيقة موجــودة والباطل حقيقة موجــودة، والظلم حقيقة موجــودة. فهل كون الشــيء موجــودًا معلومًا بالضرورة من إمكان حدوثــه، أن يتوقف المرء عند ذلك الحد ولا يبــذل شــيء! وهــذا يضطرك إلى شــيء آخر، وهــو أن المرء خلق في كــون معد له، مهيــأ للسكنة فيــه، وتحقيق العمران والبنيان. أمَّا كــون كل شيء جاهز له، تحت طلبه وأمــره، يأمره فيطيعه وينهاه فيلتزم نهيه! وهذا يــؤدي إلى بطلان كل شيء وضياع كل معنــى وفهم. وابطلت الحكمة من كل شــيء. ولصار كل شيء عبثًا ولهوًا. وهذا يعاكس الحقيقة ويضاد نواميس الكون والخلق. فلكل شيء حكمة وهدف. إذن الإنسان مطالب بــأن يبذل قصارى جهده بدفــع بنفسه إلى الغاية القصوى والهــدف الأسمى. فينحت الصخر ويشق النهر ويذلل الصعاب. لا أن يجد كل شيء تحت يده فقط يأكل ويشرب! لا، ذلــك هــو الظن السيء. فالإنسان عليه أن يبذل مــا عليه ويعطى ما عنده سواء كان مالًا أو علمًا والباقي لهما تبع.

فيجب عليه أن يجابه الشر ويسعى بالعدل ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويرحم الضعيــف ويناصر المظلوم وهكذا، حسنًا، هل بفعله هذا ينهى مثلًا على الظلم أو الشر أو الباطل كلية ؟ لا. ولكنه أدى الدور الذي عليه وبلغ الرسالة التي خلق من أجلها، فكل إنســان يحمــل رسالة للآخر! وجودنــا كله هكذا يحمل رسائل . مــن الناس من يفهمها ومنهــم من لم يقــدر له استشفافها والأمر على حدود القــدرة والاستطاعة، فلا واجب

مـع العجز، ولكل شخص قدرة، فـإذا أدت ما تقدر فقد أبلغت في مهمتها وأدت ما وكل إليهـا. وهـو أصل مهم في الشرع، حدّ كل شيء هو ما قدر عليـه الإنسان وأطاقه أمَّا ما سـوى ذلك فهـو العجز والقهر وقد قال تعالى "لا يُكَلِّـفُ اللَّه نَفْسًا إلا وُسْعَهَا " وقوله " لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا " وقوله" وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا ". وقد أكد سبحانه بالبيان الواضـح أنه لـن يحمل النفس على مالا تطيـق. بل لها وسعها، فـإذا بلغت وسعها فقد أدت مـا عليهـا، ومن ذلك يعلم المرء أنه لا دخل له بحقائـق الكون وطبيعته إنما واجبة يتمحور حول فعل ما يصح، وترك ما يحرم عليه وما يؤذيه ويضره. فالمرء ليس مسئولًا عـن المكان الذي وجد فيه، وإنمـا يسأل عن نتاجه وعن فعله وعن تصرفه هو، وما أدى وما ترك وما صنع؟ وكيف أثر فيما حوله ومن حوله. لا فيما وجد فيه أصلًا. وهذا فرق هام جدًا بين كون الشيء حقيقة طبيعية كونية أو قدرية وبين الفعل البشرى والتصرف الإنساني سواء كان هذا التصرف بناءً على أمر ديني تعبدي أو دينوي معاشي أو غيره. وهذا قيد غاية في الأهمية يستريح به المرء كثير إذا فهمه جيدًا. واذكر فائدة واحدة ثم امضي لما بدأت فيه. وهي أن الشر والظلم وغير ذلك سيظل إلى انتهاء الحياة، فاعلم جيدًا أنك ستراه في حياتك إما في نفسك أو في غيرك - أي الظلم كمثال فقط هنا -أو في كثـير من الأشياء، فعند رؤيتك له لا تسأل لماذا؟ وكيف؟ ولكن اصنع ما يجب وتقدر عليـه لا تكلف إلا نفسك ومن تعول ومن تتكفل، فاصنـع على قدر استطاعتك، ومبلغك وسع نفسك.

سوندلـف سريعًا إلى موضوعنا، وهو قضية تعد في ظاهرها معضلة عظيمة وطامة جسيمـة. ولكن سنتناولهـا بإيضاحها، وإزالة غوامضها، وتفصيـل متشابهها كل ذلك بعرض موجز وخلاصة غير مخلة قدر الوسع والطاقة. ونقول ذاك السؤال الأبدي الذي طرح منذ قدم البشرية إلى يومنا هذا، وكل يدلو فيه بدلوه، وينزع من خاطرة نفسه أو من محفوظ صدره، فزادت المسألة تشعبًا وغموضًا. والسؤال بكل بساطة، هل الإنسان

حـر في تصرفاتـه؟ هل هو مخير في كل أموره؟ أم هـل هو مجبور على كل شيء؟ فيأتي الأمر غصبًا لا طواعية وقسرًا لا اختيار.

والإجابة على ذلك يجب الإشارة قبلًا إلى عدة قضايا. أمَّا القضية الأولى، قضية الخلـق والإيجاد. هل الإنسان مخلوق من قبل صانع بديع سبحانه وتعالى، أم أنه أوجد نفســه من العدم بتفاعل الخلايا والجزيئات ثم التطور، فهو من صنع البيئة والطبيعة! وهذا لا يقوله أحد أبدًا من البشر، بل حتى فرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، كان مقر بتلك الحقيقة، بأن هناك ربًا خالقًا للكون موجودًا قال تعالى "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا"

استيقن تلك الحقيقة، كانت عنده من المسلمات، بل انظر لقول موسى عليه السلام "قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِر" فالإنسان يعلم فطـرة وجبلـة فيه، أن له خالق عظيم ورب قادر. لهذا ما جـاءت الرسل ليقولوا للناس الله هو الرب الخالق، فهم يعلمون ذلك بفطرهم وأنفسهم وما أودعه الله فيهم. وإنما جاءت بأن الله هو الإله الواحد الأحد الذي لا يعبد سواه ولا يدعي غيره فلا تصرف أي نوع من أنواع العبادات إلا له هو محبة وتعظيمًا.

وإذا كـان الإنسان مخلوق، فهو مطبوع مجبـول بقوانين خاصة محددة ممن خلقه وأوجده من العدم. وهذا يورثه إدراك عدة نقاط واجبة الإيضاح.

أمَّـا الأولى: فهـي مادام هـو مخلوق وليس واجـدًا فغيره من الخلـق كثير. ومادام مخلـوق فهو مطبوع علـى هيئة معينة وشكل محـدود ويشغل مقدارًا محـددًا. والمحدد لا يحيـط إلا بجـزء مقدر قليلًا كـان أو كثيرًا، أمَّا أن يستحوذ الـكل فهذا محال فهو لا يحيـط إلا بمقدار صغير ولا يشغل إلا حدودًا ضيقة، فمأكله ومشربه ونومه ومدة بقائه كذلك محدودة مقدرة.

أمَّـا الثانية: فهي مـادام مخلوقًا، فإن إرادته كذلك محصـورة وضيقة جدًا، بل لا

تكاد تتعدى خاصة نفسه ومن يهمه أمره. بل هي في أصلها عاجزة، إذ لا تقوم بمفردها بل تحتاج إلى مقومات أخرى تتعاون معها في تحقيق تلك الإرادة. ثم ليست هي كلها قابلة للتحقيق، بل كثير منها يعجز عنه ولا يدركه. بل لعله لا يصل فيها إلى حاجز الرضا النفسي، فإرادته نفسها لا تنطبق إلا فيما تحت ملكه هو فقط. ثم هو فيها ضعيف عاجز، فلا يقدر مثلًا على أن يهب ما يملكه كله لأحد غريب عنه لا يعرفه، أو حتى يعرفه ليجلس هو في الفقر والعجز. فأصبح ملكه شيء معار له لا يملكه حق الملك أو تمام الملك.

والثالثة: وهي قضية امتلاكه وتصرفه فيما عنده. تجدها كسابقتها، لا تتغير عنها كثيرًا. فإذا كان امتلاكه وملكه محدودان، فكذلك تصرفه محدود. بل فيه من الضعف تمامه وكليته، فالمحدود لا ينتج إلا محدودًا وهو محدود بهيئته، فنظره محدود وسمعه محدود كذلك، و حركته لا تخرج إلا بنطاق محدود لحواجز عظمه، وحدود لحمه. فهو محدود في كل شيء يفعله ويأتيه. لذلك لم يكن الأمر له عامًا، بل كان محددًا وعلى قدر ما أوتي ورزق.

ثم ننتقل إلى القضية الثانية، وهي قضية العلم والمعرفة. من المعروف أن العلم تراكمي، الكل يأخذ فيه ممن سبقه. فليس لأحد أسبقية في بدأ العلوم والفنون مثلًا بأن يأتي ويعلن أنه سيبدأ في العلوم واختراع كل شيء من ألفه إلى ياءه، ثم يهمل أو يترك كل ما وصل إليه الفكر الإنساني! ولو قال أحد هذا لشكك في عقله ولتّهم في رشده وفهمه. فكل يأخذ عمن سبقه، وهذه العادة معروفة في التلقي، كل أحد يتعلم ويأخذ ممن هو قبله، ثم قد يزيد عليه فيما بعد، وهكذا في سلسلة العلم التراكمية. ونحن الآن بعدما مضت قرون متطاولة، ولم ينتهِ العلم بعد، ولم تجف منابع المعرفة قط ومازالت الأبحاث مستمرة والنظريات واردة والاختراعات طور التحديث. والأصل في ذلك كله هو قوله تعالى" وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا" فعلى تشعب العلوم واختلاف الفنون

والتقدم العظيم الذي وصلنا إليه، مازال كل هذا في مستوى القليل. ناهيك عن أن هذا إنما يكون صناعة البشرية في مجموعها واكتمال عقولها! فما ظنك إذا بحال أفرادها واختلافهم من حيث كل شيء، حتى في اختلاف تخصصاتهم، بل حتى تدرجهم في اختصاصهم قوة وضعفًا، بل حتى جمعهم لمقدار ذاك العلم وتلك المعرفة في الصدور. فتصل بذلك إلى مقدار الضعف الشديد من حيث الناحية المعرفية والعلمية.

ثم هو بعد لم يحط بكل شيء علمًا. حتى بما هو في عالمه بل ببيئته ومحيطه. أضف إلى ذلك اختلاف الأفهام والعقول واختلاف القدرة على الاستيعاب. ووضع الأشياء في نطاقها المنطقي الصحيح وهذا النوع الأول من الإجابة على السؤال أن الإنسان مجبور ومحكوم بنوع طبيعته الحيوية والبيولوجية، فلا يستطيع مثلًا أن يسرع نشاط القلب أو يبطئه بإرادته، وكذلك كل شيء متعلق بأعضائه الحيوية الداخلية ليس له قدرة عليها. فهي مسيرة بفضل من الله ومنة ونعمه —فله الحمد وله الشكر-ومحكوم كذلك بطبيعته الطينية المخلوق منها. فالإنسان خلق من طين لازب، فتجد به من الصفات من حاجات الجسد ورغبات الهيئة. فالإنسان مكون من شيئين جسد وروح. فكلما مال إلى الحاجات المادية والشهوات الجسدية مال إلى طبيعته الطينية الأولى، وكلما سمت روحه مال إلى الحاجات التعبدية. سما بنفسه إلى عالم الملائكة والنور. فهو ما بين حاجات النفس والبدن متقلب ثم هو محكوم من حيث خلقته محدود بهيئة معينة وشكل مخصوص. فلا يملك القدرة مثلًا على إطالة طرف من أطرافه أو التحكم بشكله الخارجي فيضع مثلًا عضوًا مكان عضو وهكذا.

وبه نوع من الحرية والاختيار، في إتيان الشيء من عدمه. فيقدر على القدم والمجيء والحب والكره، وجميع التصرفات والعواطف الإنسانية. ومن أجل ذلك يجب أن تكون له آلة تحركه - وهي نعمة كبيرة -، ألا وهي نعمة العقل وإتيانه الفكر والفهم. فالعقل والفهم هو أساس الحرية وآلتها. فلو عدمه مثلًا، منعت عنه الحرية بتمامها

كما ترى ذلك في المجنون والمحجور عليه لضعف عقله، بل انظر إلى البُهم التي لا تعقل كيف أنه ليس لها حرية اختيار. وإنما هي تقاد إلى الأمر غصبًا وقهرًا، ولو كان لها عقلًا تفهم به لما استطاع الإنسان قيادتها، وركوبها، وأكل لحمها وغير ذلك من مسائمتها ولا أريدك في ذات الأمر أن تغفل أن العقل الذي ركب به هو كذلك محدود، ليس مؤهلًا لإدراك كل الحقائق لأن الحقائق في مجملها قسمين: .قسم تشهده الحواس وتراه، ويجرى عليه الإنسان التجارب ويقيم عليه النظريات. وقسم آخر غيبي لا يدرك بالحواس ولا يعرف بالشعور والإدراك، وإنما هو يؤمن به، ويصدق وجوده، مادام أخبر الله -عز وجل- بذلك أو أخبر به رسوله.

ولأنه مخلوق، فالمخلوق تابع لقانون الخالق، مسير تحته. بل يكفيه من ذلك العالم الغيبي الذي قد ينكر بعضهم وجوده بحجة عدم رؤيته أو إدراكه، أو حتى ذِكر العلم النظر أو التجريبي له بحقيقة هامة، وهو أمر الروح التي في جسد الإنسان، حتى الآن لا يعرف ما هي ما حقيقتها؟ وماهي ماهيتها؟ وما لونها؟ هل هي مادية أم أنها شيئًا آخر لا يرى؟ لا يعرف أي معلومة عنها، وهي التي لو نزعت منه لفارقت الحياة. فجعلها من سره واختص معرفة أمرها له وحده. لا يطلع عليها ملك مقرب أو نبي مرسل قال تعالى

" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا "

وذلك ليُذكره دائمًا بضعفه وعجزه عن معرفة روحه التي هي بين جنبيه وليعلمه أنه مخلوق، ولن يستطيع أبدًا أن يخلق كخلقه تعالى . فقدرة إبداعه وتصويره محدودة بما أعطاه الله تعالى له من الآلات التي تعينه على ذلك، أما هو فليس له قدرة أصلًا أن ينشأ ذلك في الطور الأول، فليخلقوا أي شيء! لن يقدروا .. وهنا ذا بعد مرور تلك القرون الطويلة، لم نرَ منهم أي شيء يشابه أو يقرب حتى ما خلقه سبحانه. سبحان الله عما يقول الظالمون. إنهم لم ولن يقدروا حتى على أن يخلقوا ذبابة أو نملة. ليُعلم أن الله صاحب القدرة المطلقة والملك الشامل العام. فهو سبحانه الخالق المبدع المصور

على غير مثال سابق، وهو سبحانه وحده عالم الغيب عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر ما في الغيب إلا بإرادته هو وحده، قال تعالى "عالم الغيب والشهادة" وقال تعالى "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا، إلا من ارتضى من رسولًا فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددًا " فجعل علم الغيب بيده هو وحده لا شريك له، إلا من أراد - سبحانه في علاه – أن يبلغ لمن أراد من رسله لحكم ذكرها في الآية . بل وجعل من صفات عباده المؤمنين، أنهم يؤمنون بالغيب، قال تعالى "الذين يؤمنون بالغيب" ولنكتفي بهذا الإيضاح ولن نزيد عليه.

فالعقل -إذن-هو مقوم الحرية الرئيس، الذي بدونه لعدم حريته. ومن مقومات الحرية ليس العقل فقط، بل تمام العقل. فأي نقص في العقل يقدح في حرية المرء وتصرفاته، فإن الطفل الصغير لم يكل أمره لنفسه بل لغيره. وكذلك المجنون وكل من فقد صفة العقل بنوع من الخلل، فتجد مثلًا الرجل الكبير الذي ظهر عليه الخرف، وهو عدم التمييز أو الإدراك والتفكير فيكون هناك ضعف في مقدرته الفكرية عامة. فيجحر عليه حتى لا يصرف ماله ويضيع نفسه، وهو غير مدرك لذلك. وتجد اليتيم عليه أحد يهتم لأمره، ويدير شئونه حتى يبلغ سن الرشد والتعقل. ثم بعد ذلك يملك حرية التصرف في ماله وممتلكاته . فهو- أي العقل- المقوم الأساسي، وكل صفة أخرى مطلوبة مأخوذة منه، مثل أن يكون لديه قدر من العلم والمعرفة اللذين يتمكن بهما إدارة شئون نفسه وتدبير حياته، ولكي يعيش حياة طبيعية في بيئته.

ثم أن يكون تام الرشد والتمييز وهي كذلك نابعة من العقل، والتمييز لحقائق الأشياء يختلف بين الإنسان نسبيًا، فتجد أحدهم يرى الأمور في ظواهرها فقط، وآخر يرى الأشياء في بواطنها وأعماقها وتطبيقاتها وتأثيرها وغير ذلك. وهذا يقودك إلى ما بعده. وهو أن يكون لديه شيء من الحكمة، يعتمد عليه لتكمل به شيء من حريته .

لأنه لوكان ناقلًا فقط لآراء هذا وأقوال ذلك ما استفاد الشيء الكثير ولكن يكمن الأمر في فعل العقل وتدبره وحكمته، وبه يكمل حريته يستطيع أن يكون ذا خيار، وذا فكر. وهذه مقومات تعتمد عليها الحرية، فكلما وجدت فيه استطاع أن يكون حرًا، ويكون نقص حريته بنقص تلك الأشياء فيه وخلوها منه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحرية، كمصطلح لا يقبل هكذا على عاهنه. فالحرية في مجملها حق بشري تقوم عليه جميع الحقوق والواجبات. إذ لم يكن المرء حرًا ، لكان مجبرًا مقيدًا وهو ما يشهد الواقع بخلافه. فهو الذي شيد وبنى، وأصلح في الأرض وأقام فيها، وكذلك أفسد وعاث فيها ضلالًا وإفسادًا.

فإذا كان مضطرًا مجبرًا، فلا حكم لفعله ولا نسبة له في شيء من الأشياء، لأن فعله ليس بإرادته هو وإنما بإرادة شخص آخر. وحينئذ ينسب الوصف إلى صاحبه الحقيقي. غير أنه ثبت أن الإنسان له قدرة وإرادة يأتي بها ويدع . وقد تقع حالة الاضطرار للإنسان وحينها يتغير الحكم حقيقة، فلا ينسب له فعل ما أتى في الأضرار والغصب والقسر، لأنه نزع منه الحرية في الاختيار، بين الإيتاء والترك. أمَّا تأويل الاضطرار، فيدخل فيه كل ما أفاد معنى الوصفية، بنسبته إلى تلك الصفة كالجوع الشديد المهلك والعطش الشديد، وإجباره بنقص حاجات البدن الضرورية عنه. وقد يقع الإجبار فيكون خارجيا، ويكون ذلك بنزع قرار من شخص ما قسرا وغصبا، أو تقييد لفعله أو لتصرفه، أو مساومته على روحه ونفسه، أو تهديده بالتعذيب والقتل. إلى آخر صور الإكراه. وقد تكلم الله عزوجل عن تلكما الصورتين ؛ الأولى من حيث نقص الحاجات الضرورية عن البدن، أكان ذلك بفعل شخص ما، أو كان أثرا لنقص الموارد الغذائية أو شحها. فيقول تعالى في ذلك " فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه " وكذلك قوله تعالي " فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ".

والاضطـرار هنا هو الذي أخرجه من حيز إرادته وحريته إلى الحاجة والضرورة، خـوف الهـلاك أو الموت. ثم لـن نمضي في تفسير الآيـة إلا بإيضاح أمر هـام، وهو أن الله أحـل مـا حرم في حالة الضـرورة والحاجة ولكنه قيده بشرطين غـير باغ ولا عاد، أي لا يعتـد ولايزيد عن الحد ولايبغي الزيـادة عن حد الكفاية. ثم الثاني ؛ أن يكون في مخمصـة، هي الجوع الشديد؛ وقد تفسر كذلك بالحالـة الضرورية الشديدة القاهرة للمـرء علي إتيان الفعـل بدفع النفس عليه لإتمام حياتها ، فيبـاح له في تلك الحالة أن يـأكل مـا حرم لكن بقدر ما يبقيه حيًا، لا أن يسرف علـى نفسه ويبغي ويزيد ما يشاء، فقـدر الحاجة يزول بـزوال الحاجة الأولى الداعيـة إلى الأمر، وقـدر الضرورة يزول بزوال الضرورة نفسها، وهكذا!

فالإنسان حر في كثير من الأمور " فمقابل الإنسان للإنسان تكون الحرية، ومقابلتها لخالقه تكون العبودية والافتقار والمذلة والمسكنة " وهذا أصل غاية في الأهمية . فيكون حينئـذ عبـد لله سبحانه وتعالى، الذي خلقـه وأوجده من العدم، ورزقـه ورباه بنعمه، وعاش في خـيره وهي أفضل منزلة يقـع فيها الإنسان من الله تعـالى، منزلة العبودية أن يكـون له عبدًا فـلا حرية هنا ولا قرار، فحينما يقول الله ورسولـه أمرًا، ليس له إلا المسارعـة في الاستجابة والإخلاص وإتيان الأمر محبـة له -سبحانه وتعالى- وتعظيمًا وإجـلالًا وإكبـارًا، بين رجاء قبوله وبين خوف رفضه وردّه عليه، وحينئذ ليس ثمة حرية وإنما القبول والمسارعة في الاستجابة.

وهـي - أي الحريـة- في ذاتهـا متعددة الأنـواع فحرية شخصيـة، وحرية عقيدة، وحريـة رأي، وحرية فكر. وغـير ذلك الكثيرة ولكني سأتعرض إلى إيضاح فقط ما فيه جانب الخطأ والإيهام على أنه حق وصواب.

مـن ذلك أنه ليس هناك شيء يدعى "بالحرية الكاملة" بل الحرية دائمًا في جميع أجزائهـا ناقصة متجزئـة. فحرية المرء تتوقف في حدوده هـو، وتتوقف عند ما يملك.

فـلا حكم له فيما خارجها وجاوزها، إذ أنهـا ليست من صلاحيته أو في سلطته، فليس لـه كذلك حكم الأمر أو النهي فيها. وتلك هي "الحرية الفردية" ثم أنها ليست مطلقة وإنمـا هي مقيدة بمقتضيات كثـير. منها، العدل، والاعتـدال، والواجب. فلا حرية في الظلـم والـزور، والاعتـداء، والتخريب، الغصـب ، وانتهاك حقوق النـاس أو مبادئهم وقيمهم. والقاعدة في ذلك "لا ضرر ولاضرار" .

ثـم إنك تجد – تلـك الحرية– نفسها مقيدة بقيود خارجيـة، كالقانون مثلًا الذي تسنه الـدول، وكالأعراف التي تحددها الشعوب والمجتمعـات. وحقوق الغير التي يلزم النـاس بأدائهـا إليهم وغير ذلك. وقيـود داخلية سبق الحديث عنهـا. فتجد في نهاية الأمـر أن حرية المرء تكمـن في التزام القوانين، هي قوانين بشريـة يصيبها ما يصيب البشـر، الذي هـم واضعون لهـا من الضعـف والنقص والتحريف والظلـم، وأحيانا العـدوان والتجاوز. إلى آخر ذلك وكان إجبـاره في اتباع تلك القوانين بصرامة شديد، أنـه بين مجتمعات رضيـت في نفسها أولًا أن تحكم بذلك، ثـم أنشئت قوى لتحمي هذه القوانـين وتدافع عنها، وتستميت في المحافظة عليها وبقائها. فكان داعيها الأول لذلك هـو ارتضاء الجماعات، بل الأفراد في نفسها علـى الاحتكام إلى مثل هذا. ناهيك عما فيـه من قصـور وضعف كما ذكرنا سابق. فكـان تحكمه لذلك، لوجـوده في دولة ما أو شعـب ما، تتخذ منه دستورا وحاكما علـى أراضيها. فكانت العلاقة هنا، علاقة انتماء لأرض ما، أو مكان ما رضي أن تكون المعاملات والأحكام بينهم بهيئة معينة خاصة. أمَّا لـو نظـر إلى الكون بشموليته، بل لو نظرت إلى الأرض ومـا عليها، فعلمت نسبة حقيقة وجودهـا إنما هي راجعة إلى الله تعالى، وهو الأعلـى والأعلم والأعظم، الحاكم الملك، الـذي يعلم كل شيء وبيـده مقادير كل شيء. لعلم أن نسبة الحكـم الحقيقية إنما هي راجعة إليه وحده. وتفصيله فيما يأتي بعدُ. فتجد في نهاية الأمر أن حرية المرء الحقيقة تكمـن في التزام قوانين خالقه وأوامره والوقـوف عند حدوده والامتثال بأمره. هذا إذا

أنه –أي الإنسان – هو مخلوق، وأنه فترة محددة في جبين الزمن والمكان، فليس بخالد. وليس خالقًا لنفسه. إذا أقر بذلك علم أن صلاحه في تلك الفترة على الوجه الصحيح إنما يكون في اتباعه لربه سبحانه وتعالي ، لا اتباع غيره ولا اتباع هوى نفسه. وقد قال ربنا سبحانه " ألا يعلم من خلق " من سيعلم الخلق أكثر منه! لا أحد . أليس هو الذي خلق الخلق، بلي ، وهو الخلاق العليم.

وقال تعالى " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين "

فتكون تمام حريته في اتباعه لأوامر خالقه، بأن يكون عبدًا له بتمام العبودية، ولو فر من ذلك واتبع هواه وشهواته، إذا فهو عبد لشهوته مكبل باتباعها وملازمتها. فكان الإنسان عبد لما أقبل عليه من الأمور بكليته ولم يستطع الاستغناء عنه طرفة عين، ولم يقوَ قلبه على مفارقته أو البعد عنه. فتجد هناك عبيد للدنيا ، لرغباتهم فيها، لحاجاتهم إليهم. فتجده يفر من عبوديته لربه ، ليقع هو نفسه في عبودية أخري لغيره تعالي، فتجد عبيد للمال والمنصب.. وهكذا. غير أنك تجد من اتبع هوى نفسه وشهوات قلبه، تجده دائمًا في حيرة وتردد وتخبط٠ مائلا إلى هؤلاء أحيانًا ومائلا إلى غيرهم أحيانا٠ غير ما يلازمه من الإحباط والاكتئاب الداخلي والمحزن والمقلق ٠لذلك حسم الله عز وجل القضية قائلا "ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى" وأما من اتبع وأصلح قال تعالى فيه " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون" .

فهذا يهبه الله تعالى حياة طيبة على رغم ما قد يشوبها من ضيق المحال وقلة المؤنة٠ والأول يحييه حياة بئيسة، مادية بحتة، لا هم له فيها إلا بإشباع حاجات الجسد فتجده وإن كان ممتعا فيها بجميع المتع، بالقصور والسيارات الفارهة وغيرها. إلا أنه

لا يحصل سعادة القلب وحلاوة الإيمان ويذوق طعم القرب. فيصير دائمًا محرما ولو رزق كل شيء، إذ حرم قرب الله تعالى وطاعته يقول تعالى " وَلَوْلا أن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمن لبُيُوتهمْ سُقُفًا منْ فضَّة وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلبُيُوتهِمْ أَبْوابًا وَسُرُرًا عَلَيْها يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وإن كُلُّ ذلكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ"

ومن هذا يتبين لك مقدار حقارة الدنيا وهي أنها عند الله لا تساوي شيء، بكل ما تحمله وما أنت مشاهد له، هي لا تساوي عند الله جناح بعوضة. ولكن الله تعالى جعلها دار ابتلاء، فرضي فيها مالم يرضى في غيرها من الدور لحكم كثيرة فهو يعطي الكافر فيها من الخيرات الكثير ولكن ذلك لحكمة، ليست عبثًا . فهو يعطيهم ويرزقهم لأنه هو الخالق الرازق المتكفل برزق كل دابة، ثم يعطيه حتى يمنع عنهم ثواب عمله الصالح في الآخرة، فيكون ذلك جزاءً له في الدنيا، كما قال تعالى " وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا "

وقد يكون ازديادًا له في الإثم يجمعه عليه حتى يفجعه به يوم القيامة، قال تعالى" وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أنما نُمْلِي لَهُمْ خَيرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إنما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ" وكذلك كقوله تعالى " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ " فيملى له ويبقيه في الدنيا، ولا يمنع عنه خير الدنيا، ولا يصيبه من خير الآخرة شيئًا فهو ممتع متعة عاجلة وفى دار زائلة . فيفهم من ذلك كثير من العلل والأمراض والبلاءات في الدنيا، كأنها عاجلة مهر الآخرة، فيطمئن القلب ويستريح الحال ويهدأ الفكر، ثم ليعلم أنه لو خالف ذلك المنهج القرآني واعتدى وظلم، فهو وإن تمتع بكل متع الدنيا تجده متألمًا متأثمًا، وانظر لقوله تعالى

" وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إذا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ" .

الـذي يعيش بعيدًا عـن ذكر الله وقرآنه وهدايته، يؤز عليه الشياطـين " أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا" فتدعوه الشياطين إلى فعل الشرور والظلم ويحثـه قرنائه من شياطين الأنس أو الجن على ارتكاب المحرمات. ويزين له فعله حتى يظـن أنه علـى الخير، وأن غـيره على الضلالة والانحـراف . وانظـر إلى هذا المشهد الـذي يخبرنا به تعالى، ويكون ذلك يوم القيامـة، فيخبرنا الله تعالى عما سيحدث في ذلـك اليوم، حينمـا يتبن لهم زيف ما هم فيه، واتهامهم أهل الصلاح والخير بالفساد والضلالـة والانحـراف، فيقول تعـالى " وَقَالُوا مَـا لَنَا لَا نَـرَى رِجَالًا كُنَّـا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إن ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ" .

وقولـه في وصف حال المجرمين الذين كانوا يضحكـون من الصـالحين ويستهزئون بهـم، ويجلعـون سخريتهـم وحقدهم عليهـم، وذلك أصـلاً بعد تكذيبهـم لمناهجهم، واتباعهم طـرق الانحراف عن الحق والصواب. حينما يأتي يوم القيامة يتبدل الموقف تمامـا، فيخبر تعالى عن حالهـم " إن الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِيـنَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُـمْ قَالُوا إن هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُـوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦)"

فإذا علمت ذلك وفهمته حق الفهم، وعملت أن تمام حرية المرء تكون في اتباع أمر الله عـز وجـل والوقوف عند حدوده والالتزام بنهجه. هكـذا يحيا المرء حياة كلها خير وسعـادة وحريـة، فليست حرية المرء في إتيان المعصية أو فعـل المحرم، لأنه ليس للمرء حرية مع أمر الله عز وجل.

يقـول تعـالى" وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْـرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِـيَرَةُ مِـنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَـلَالًا مُّبِينًا" . فليس له خيار إلا الاتبـاع، أمَّـا المخالفـة فهي مـا سنتحدث عنـه الآن هل هناك شـيء يدعى (حرية المعصيـة) أو بمعنـى أكبر (حرية الكفـر) وسنأتي في ذلك من آخـر الموضوع إلى أوله حتـى نصـل إلى تلك النقطة. أولًا هـل هناك إكراه في الدين، أو إكـراه على الإيمان أو علـى الكفر، هذه القضية واضحــة أن الله لا يعبدُ قسر وغصبًا بل يعبد محبة وتعظيمًا وطواعية، فهو لا يرضى أن يعبده أحد مكرهًا. لذلك حشدت النصوص في إيضاح هذا الأمر أولًا ثم تفصيله

قـال تعالى" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " ولكنه مع تفصيله لذلك يبـين تعـالى أنه لا يرضى الكفر ولا يرضى أن يعصي فيقـول" إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُـمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ " . فجعل للعبد طريقين إمَّا أن يؤمن أو أن يكفر قال تعالى " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" . وكذلك قوله " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" فيبين الله تعالى أنه مع إتاحة سبل الكفر وطرقـه، إلا أن له عواقب ونتائج، يبين تعالى عقـب سرد ذاك النوع من الاختلاف بين طائع وعاصي.

فيقـول مثلًا بعد قوله (إنا هديناه) " إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْـرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَـانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا " . والآية الثانية يقول بعدها " قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" .

فيقول لك يمكنك الولوج إلى باب الشرك والكفر، وهو مع ذلك لا يحبه ولا يرضاه لـك، ولا يرغـب في أن تدخله وتصبح من أهله، هذا أولًا . ثانيا إذا أردت ذلك برغبتك فاعلـم أن لذلـك الدخول ثمن وهو غضبـه تعالى عليك وسخطه لـك ومقته لجانبك . وثالثا، هو وعيد شديد وتهديد أكيد لمنزلتك يوم تلقاه حين تبعث يوم البعث.

فهـو ضمـن لك حرية الاختيـار، لا لإعتبار الحريـة نفسه، إنما لاعتبـارات أخرى أولهـا، أنه تعالى لا يعبـد إلا عن طواعية. ثم أن عابده من أهـل محبته ورضاه. ثم أنه ملـك عادل لا يحكـم إلا بالقسط والحق، فكان الجزاء لك من جنس عملك، فإن آمنت بـه واتبعـت أنبيائه و رسله ، وانتهيـت عما نهاك جعل لك جنات تجـري تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا . أمَّا إذا كذبت وخالفت، جعل لك نارا تلظى، حرها شديد، وقعرها بعيـد، ومقامعهـا من حديد، وشرابها الحميم والصديد. فلـك الخيار وعندك المشيئة فاختر ما شئت، ولكن اعلم قبل اختيارك، أنه لكل اختيار جزاء وعاقبة ومأوى، فاختر لنفسك ما تريد أن تلقاه هنا في دنياك أو أخراك. قال تعالى

" وَقُـلِ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَـاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَـارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْـلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَـاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَـبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ".

فبعـد بيانه سبحانه وتعالى أن الحق إنما هو من عنده لا من عند غيره. فهو العالم بـكل شـيء على وجـه الحقيقة ثم أنـه يعطي المشيئة لعبـادة بين الإيمـان والكفر، بين الطاعـة والمعصية. افعل ما بدا لـك، فالخيار بك وحدك. ما تحب وما تشاء ولكن هذا الاختيـار سيلقيك إمَّا في نار أحاط بهـا سرادقها وإما في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار . ثم أنه لم يجعل لك الاختيار، إلا ليجعل لك أهلية التكليف وحرية اتخاذ الموقف مـن عدمه، ولكـن هذه الحرية لها ثمن وتكلفـه. ولذلك ذكرنا سابقًـا أن من مقومات الحريـة تمام العقل والمعرفة والفهم والتمييز، ليس كل أحد يملك ذلك . فالمولى تعالى يوضح حتى لا يأتي أحدهم متبجحًا، ليقول كما قائل القائل

ألقاه في البحر مكتوفا وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

فلم يلقه تعالى مكتوفا مقيدا، ولكن معه حرية قراره وحرية اتخاذ مواقفه، ومعالجة قضاياه. حتى يصح انعقاد قضية الثواب والعقاب، وكيف تعقد إلا على حر، عاقل، مميز.

حتى ذكر الذين يلحدون وينكرون وجوده -سبحانه تعالى- في علوه أو ينكرون شيئًا من أسمائه وصفاته. يخاطب هؤلاء بإخبارهم أنهم في قدرته، وأنهم لا يخفون عليه. قال تعالى

" إن الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إنه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"

فلك حالين، بين الأمن من الخوف يوم القيامة، وبين أن تلقي على وجهك في نار جهنم فاختر ما بدا لك، واصنع ما شئت. ولكن اعلم أنه مطلع عليك خبير بصنيعك، عالم بحالك، مبصر بتصرفاتك، فأنت في قدرته وسلطانه وملكه . فإلحادك من عدمه لا يضره شيئًا كما قال تعالى " إن تكفروا فإن الله غني عنكم " ولكن يضرك أنت فأنت باختيارك الكفر أو الإيمان في الدنيا تختار مقعدك يوم القيامة بين جنة عرضها السماوات والأرض أو نار شديدة الحرارة، تلفح الوجوه وتحرقها، وتشوي الأبدان . ثم هو تعالى يُعلم الأمر للخلق حتى لا يصير لأحد حجة أو سلطان أو عذر . وقد أعذر من أنذر. وقد بلغ سبحانه الغاية في العذر لهم، فبعث الأنبياء والرسل، وجعل الصالحين والمرسلين لهم أدلة على الحق وأنزل الكتاب وجعله قائما بالقسط ثم جعل هناك علماء شارحين لهذا الكتاب، مبينين أحكامه وأوامره، مفصلين ما فيه للناس ثم أعذرهم بأن أطال لهم في العمر، وأمد لهم في البقاء، حتى يصلوا إليه، ويتعرفوا عليه تعالى من خلال أسمائه وصفاته. وطلب منهم البحث والسير في الأرض للاتعاظ وأخذ العبر، والنظر إلى من قبلهم كيف كان عاقبتهم حين خالفوا وكذبوا وأمر بالعلم وحث عليه ورغب فيه، ليصل به إليه. فقال له " اقرأ ".

والله تعالى يقول " رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا "

فحرية الاعتقاد والإيمان مكفولة لكل أحد لا يستطيع أحد أن يجادل في هذا أو يماري . لكل إنسان اختيار ما يشاء وإقامة شعائره بالطريقة المتفقة مع عقيدته بل والأكثر من ذلك، هو احترام هذا المكان، وعدم مسه بسوء أو انتهاكه أو العبث فيه بأي طريقة كانت بل الواجب حمايته والدفاع عنه، لو تعرض للاعتداء .

والقرآن الكريم في تمام الوضوح في هذا الأمر، حيث يقول تعالى

" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ". وفي ذلك أمرين، الأول، هو أن تعلم أن الحقيقة واضحة بينة الوضوح . فإذا ما أردت الوصول إليها متجردا للحق، متبعا الوسائل الصحيحة، وصلت إلى الفلاح والخير، ولابد. ثم تعلم أن الله لن يقبل إلا ما هو حق، لا ما ظننت أنه هو الحق، لذلك عليك أن تبحث وتنظر موضع قدميك. لتعلم أين أنت من الحقيقة، حتى لا تعيش عمرك وأنت واهم ظان. فالله تعالى لايعبد إلا باليقين المبني على العلم الصحيح، المتبع لمنهج النبي . قال تعالى

" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا " .

وهذه طامة الطامات، ومصيبة المصائب، أن تظل على ما أنت عليه وأنت على وهم كبير، لتفيق من ذلك الحلم على ما يؤذيك ويتعبك باقي عمرك الحقيقي كله.

وذلك كقوله تعالى " وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ " كانوا

خاسرين في سعيهم الأول وظنهم الكاذب وأعمالهم المخادعة، فلم يقبل منهم شيئا.

ولذلك يجب أن تحاسب نفسك أولًا بأول ؛ هل أنت على طريق الخير والصواب والحق، أم أنت على أي طريق؟ وفي أي وجهة؟ فتظن أنك على المعروف والخير، وأنت تؤدي شرا وتمارس منكرا. وهذا في الحقيقة مبني على إدراكك أنت وفهمك، فليس له علاقة بالفهم الصحيح عن الله تعالى أو رسوله . أو مفهوم الخير والبر كذلك، أو شروطه إلى آخر ذلك. لذلك قال تعالى "فاعلم أنه لا إله إلا الله". قال البخاري رحمه الله تعالى، وقول الله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله فبدأ بالعلم قبل القول والعمل . ومن ذلك تعلم أن الله تعالى رفع منزلة العلماء، لأنهم هو الذين حقا عرفوا الله تعالى بأسمائه وصفاته .

الثاني: ـ أن هذا المخالف لك في العقيدة، عليك احترامه، واحترام اختياره، في الإتيان والترك. فحسابهم على الله تعالى وليس لأحد أبدًا إكراه أحد على الدخول في أي دين، أو إكراه على تغيير عقيدته، أو حتى إيذائه لممارسته شعائر عقيدته. فكان المبدأ القرآني " لكم دينكم ولي دين".

بل انظر لقوله تعالى لنبيه، في أنه ليس عليه أن يكره أحد على الدخول في الدين. ولوشاء الله لأسلم الناس جميعًا ولكن ذلك لحكم كثيرة فالأمر بيد الله تعالى، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ولكنه جعل ذلك لحكمة الابتلاء والاختبار، والاختيار والتصرف.

قال تعالى " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأرض كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أن تُؤْمِنَ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ".

وهذه الآية توضح لك معنى آخر، وهو أن الله تعالى لو أراد لجعل الناس كلهم مؤمنون موحدون ولك في الملائكة نظرة اعتبار، فهم مفطورون على الطاعة. أمَّا البشر

لهم الحرية والخيار، ليدخل كل منهم الدار التي يستحق أن يدخلها، ويكون ذلك يوم القيامة.

فأنت بعد كل هذا الإيضاح، تستطيع بسهولة أن تعرف بنفسك، هل هناك حرية للإيمان والكفر؟ وهل هناك حرية لاعتقاد أي عقيدة أو مذهب؟

ثم دعنا لا ننسى أن هناك فرق بين تنظيم كل هذه الحريات والحقوق من البشر، وبين هل هي في حقيقتها حرية واختيار؟ البشر فيما بينهم لا يستطيع أحد أن ينكر حق الآخر في حريته، واختياره أيًّا ما كان والحرية هنا هي قدرة الفرد أو إرادته التي يمارسها من غير إجبار أو إكراه، أو بتأثير من فرد أو مجتمع، أو بممارسة أي ضغوط عليه فيها وهذا هو الحق الأول له الذي يجب أن يمارسه حتى يكتمل بنيانه، فيرتقي درجات في سلم الإنسانية وقيمها وحقيقتها، أما أن يعود أثرها فسادًا وخرابًا على الأفراد والمجتمعات. فهذه ليست الحرية بمعناها الأسمى والأعلى، الذي يطلب منه التكليف والمسئولية والمحاسبة، وقيم الشرف والخير والعدل وحينئذ تخرج من حقيقة أنها قيمة للإنسان داعية إلى رفعته وإعلائه، إلى أنها وسيلة يحقق بها كل شخص ما يريد من رغبة خسيسة، وفعل دنيء، وقول مبتذل ويظن المرء أن في ذلك حرية! وماعلم أن للحرية مقومات تقوم عليها، وضوابط تحد حدودها.

الحرية ليست مرادفة لأن تفعل أي شيء، في أي وقت، وفي أي مكان، وهذا معنى مغالط لتعريفها وأصل وجودها. فليست هي وسيلة يقضي بها كل امرئ حاجته، فيتوسل بجنباتها ليقضي رغباته رغبة في الفساد والإفساد والانحراف وقضاء ما في النفس من وطر وأمل وإذا كانت الحرية كذلك، فهي وبال على الجنس البشري، بل هي إهلاكا له، وتدميرا لأفراده، واستنفادا للأنفس والممتلكات حتى ليصبح ما يسيطر على الناس هو قانون الغاب، فالمنطق هو القوة والعنف بكل ما تعنيه الكلمة من أنواع ومعانٍ، لا القيمة من ترسيخ العدل والحق والخير. فهنا من يملك من القوة والعتاد والغلبة هو الذي يملك الحق والحرية، وكلما امتلك أكثر صارت حريته تزداد وتعلو، وكلما امتلك

صار أقوى وأغنى حتى يصبح هو صاحب الحرية المطلقة، فيفعل ما يشاء ومايريد، لأنه يتكلم بمنطق السلاح والقوة، أن رفضت الانصياع لرغبتي فهنا حيث عقابي وغضبي عليك فتصبح الحرية في منحي القوة والغلبة والعتاد والانصياع. وهنا يصبح الناس قسمان لا ثالث لهم. قسم منه يتحكموا في رقاب العباد، بمطلق حريتهم هم، فهم يؤمنون بالحرية لأمنهم ولأتباعهم. ولأن مبدأ الحرية مبدأ ثنائي أو ثلاثي أو أكثر، فهو لا يكون أحادي أبدًا. وهنا لزم أن يكون هناك أحد تمارس عليه تلك الحرية. وهنا يأتي دور العبيد، في الانصياع لأوامر السادة أصحاب الحرية فتخرج الحرية من مفهومها ثانية، لتصبح بمعنى القوة المطلقة والغلبة والسيطرة والمنعة، والإحكام والتحكم؛ بكل ما تعنيه المصطلحات من معاني توجب الفهم. فمفهوم العبودية والسيادة، وإن كان متعلق بقديم الزمان في عصور العبودية القديمة. إلا أنه باق، ولكن بشكل قبيح مستتر في مسميات جديدة، وأشكال وأنماط مختلفة غير أن مضمونه في كلٍ واحد. وهو نزع المرء كامل تصرفه، فيما يحق له أن يتصرف فيه. ولعلك تعتبره هنا نوع من الحجر. حجر على الأنفس، على الممتلكات، على الأراء، على المعتقدات. أن شئت سمه ما شئت فترادف مصطلحاته كثير ولكن معناه يشير إلى مدلول واحد، هو الاحتكار حيث تكون الإرادة بيد من يملك أكثر. وأنا أتكلم هنا عن نزع الناس حريتهم الحقيقية المقصودة، المنصوص عليها ديانة وعقلا ومنطقا وفهما. لتكون تلك الممارسة أيضًا بمفهوم الحرية، وهذا أعجب العجاب! إذ لا حرية فيه، غير تحكم نزعة شهوانية مريضة، وفكر منعوج، ورغبة ذاتية مكبوتة، وحب قهر وسيطرة. إلى آخر ذلك. فلو نظرت إليها من وجه الحقيقة لرأيتها أمراضا وأسقاما.

لذلك كان لابد من حماية الحرية الأولى الحقيقية من سيطرة الثانية، التي هي في حقيقتها رغبة جامحة، وصفة مرذوله. فكان لابد أن يكون لها ضوابط داخلية في نفس الفرد، وضوابط خارجية من جهة المجتمع، وضوابط في ماهية الحرية ذاتها من حيث الصفة.

ونبدأ من آخر ما ذكرنا، وهو صفة الحرية في ذاتها قد ذكرنا سابق أن الإنسان مخلوق وعليه أن يلتزم بقوانين خالقه وشريعته، إذا أراد الراحة والسعادة والرضا في الدنيا والآخرة. وذكرنا كذلك مقومات الحرية من تمام العقل والعلم والمعرفة والتمييز، وأضفنا عليها بعض الشرح المقتضب. فالحرية هي الصفة المتممة للعقل من حيث العمل، فأساس الثواب والعقاب هو الحرية في التصرفات في الأفعال والأقوال، فالحرية هي قيمة عالية تحث المرء على الكريم من الخلق والطيب من الأفعال، وهي قِوام ذلك وأساسه. وإلا فالجبر لا حكم له أبدًا. وانظر إلى قول الله تعالى "لا إكراه في الدين". فالإكراه معنى له على الإطلاق في الأخذ بالحكم، إذ ما هو في حقيقته إلا تنفيذ رغبة آخر وإرادته، وحين ينطلق اللسان بالكره عليه فيه فإن قلبه يكون مخالف لذلك غير معترف به فينكره القلب ولو شهد عليه اللسان، ثم إن الحرية تكون عاملا مساعدا في الرقي بالمجتمعات البشرية وتقدمها، وإعلاء مكانتها، وبعلو قيمة الحرية، تعلو كذلك قيمة العدل والحق والخير والفضيلة لتكون قائمة على مبدأ لا ضرر ولا ضِرار. وتكون بمراعاة كل مجتمع وقيمه وعاداته وأعرافه ومبادئه. ثم بعد ذلك مراعاة العوامل الأخلاقية العامة، التي هي أساس الفطر السليمة المستقيمة، فلا اعوجاج فيها ولا انحراف. وكذلك تبعًا للشرائع السماوية التي أنزلها تعالى على أنبيائه ورسله فالله تعالى سمح لأصحاب الرسالات السماوية أن يزاولوا شعائرهم وعباداتهم ويثبت القرآن الكريم لهم ذلك.

قال تعالى " وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ".

بل إن الله تعالى ينكر عليهم عدم الاحتكام إلى ما أنزل على أنبيائهم من الهدى والنور فيقول تعالى " وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ

الَّذِيـنَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَـادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِـنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ " .

الحريـة ليسـت عبثيـة أو غوغائية وإنمـا هي قيمة عليـا أوتيت للمـرء لتمام فعله وكمـال تصرفـه، وبـأن تكون على الوجـه الصحيح الحريـة لا تعني معنـى من معاني السفـول والدنـو من حيث الأمر أو الرغبة أو الطلب. وذلـك لأنها لا تدعو لأي قيمة من قيـم الفساد والانحـلال، فالحرية هنا مسئوليـة كبيرة عظيمة هامـة مسئولية الوعي والإدراك والفهـم. ثم التدبير بحسن التصرف الحريـة تعني كبح جماح النفس، لا أن تنفتح أبوابها على مصراعيها، فيما تحب من الجوانب وترجو فقط. الحرية قيمة كأي قيمـة مـن القيم العليـا، مجردة من المدح والـذم حيث أنها قيمة معنويـة لا تعني أكثر مـن ذلـك. والمدح أو الذم يطلق على ما يـورث خيرًا ونفعا وتقدمـا. إلى آخره، أو شرا وتأخر وفسادا. وهنا يكمن توظيف تلك القيمة في أي المجالات، وهنا حيث يقع المدح أو الذم. فهو يقع على أفعال الأفراد وتصرفاتهم من حيث تطبيقهم لهذه القيمة بدواعي أنفسهـم وأفكارهـم، فتكون أثـرا أو داعية لإصلاح وتقدم أو فسـاد وتأخر. وتكون هي حينئـذ أيضًا رهن بالفـرد نفسه، من حيث إتيانـه وأخذه، وإحسانـه وإساءته. فيكون الأمـر في نسبة تصرفات الأفراد إليها، فالأفراد هم الذيـن يجسدونها أفعالا، والفعل هكـذا علـى قسمين خيّر أو سيء. فمـن هم اتخذوا من ستار الكلمـة إخفاءً لحقائقهم وهوياتهـم، فاندفعـوا لتحقيـق مطامعهـم حاملين معهـم درع الحريـة الوهمي، الذي يشوهـون به الحقائق، ويـزورن به الحق، ويتبعون به داعي أنفسهم ورغباتهم، فهي إذا لا تعـدو غير تشارك لفظي بـين كلمة الحرية، وما تريده أنفسهـم من حرية في إطلاق عنانها، فشابه هذا تلك، فجمع بينهما.

وأمـا الضوابط الداخلية. فتكون في نفس المرء، ويكون ذلك في ضميره من إخضاع

شهواتـه وأهوائـه، فيقيدها بلجام العقل المستقيم المنضبـط، والفكر الصحيح السليم فيخضـع في كـلا الحالين إلى صوت ضمـيره وفكره، يوجهانه من داخلـه ويقودانه إلى حيـث يحسـن به أن يكون. والضمير، هو صوت الوجدان العالي، له قدرة على غربلة ما أمامـك من أفعال، ويدلك دلالة صامتة على ما يظن أنـه الصواب. كأنه يملك القدرة علـى التمييز بـين الصواب والخطأ، وما هـو حق باطل، تمييزا أوليـا، ليس مبنيا على دلائـل وبراهين، إنما على شعور داخلي، يجتاحك بأن هذا لا يجب أو يجب عليك فعله. وهذا الصوت ينمو مع الإنسان فإما أن ينميه فيه، حتى يصبح صوته عاليا، يهزه ويأثر فيـه. وإما أن يضعفه حتى يُعْيِيه مرضـا وتعبا، فما يتكلم إلا همسا، ولا يصرخ إلا نداءً ضعيفـا. فإما أن يجعله الصوت الصامت الذي يهدم جدران الرذائل في النفس حينما تعلـو وتكبر وتتفشـى فيه. وهو كذلـك صوت الشعـور بالندم والحسـرة، حينما يخطأ المـرء، فيقارعه ويأنبه، حينما يرتكب ما يناقض فكره ويخالف معتقده، تجده يقف له بالمرصاد. فهو الرقيب الصامت الذي تزلزل صرخاته جدران النفس.

وأمـا الضوابط الخارجية، فتكـون في دور الجماعة في التذكـير والتنبيه، وكذلك الحفظ والرعاية لهذ القيمة فهي تحيا في المجتمعات، هكذا يجب أن يكون هنـاك مدافع عنهـا وعن حق وجودها، وإلا ماتت واندثـرت، أو ضعفت واندحرت وهكذا كل شيء في الحيـاة، إن لم يكن له غلبة تمنعه سقط. انظر إلى قوم شعيب ــــ عليه السلام ــــ لما جاءوا يحاجونه. ماذا قالوا له. قال تعالى عنهم

" قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كثيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضعيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أنت عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ".

وانظر لقول زهير ابن أبي سلمى يقول

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه　　　يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

وكذلـك المجتمـع الذي تمارس فيه تلـك القيمة، إمَّـا أن يعلو مـن شأنها، فينسب

المجتمع بكليته وأفراده إليها، وإما أن تقل عنده فتضعف وتهن حتى يعدم من وصف بصفة إليها، فإما أن يكون مجتمعا حرا يمارس الحرية بحقوقها وواجباتها، لا بغلوها وترفها ومصائبها فلا يكون مجتمعا فاحشا تسوده الفواحش وتظهر فيه البلاءات والمنكرات، أو مجتمعا عبوديا تمارس فيه السلطة المطلقة والاستبداد الفردي أو الجماعي فكلا المجتمعين خالفا قيمة الحرية. أمَّا الأول، فخالفها بمنع لجام العقل عنها، وإغفال قيم الحياء والعفة والستر فترك النفس مجال شهواتها ونزواتها، ترتع فيها كما تشاء. حتى دركت إلى موقع السِفْلة. ومنحدر الحيوان البهيم الذي لا يعقل، واتخذ منها سبيلا إلى نشوة جسده ورغبة فؤاده فأصبح كل شيء عنده مباحا متاحا، فقوانينه نابعة من نفسه، إذا، فلا رقيب يمنع أو يؤدب. ولعل هذا التعريف يمثل أكثر مبدأ "الانتهازية" من النظر فقط إلى منافعه، تاركا خلفه القيم والمبادئ فهي تعيقه عن تقدمه ووصوله لمطلبه. والآخر، ضد ذلك تماما. فهو استعدي على الحرية بضدها ومارسها بنزعها وسلبها. وكأنه سلب الناس نعمة الاختيار والحكم، فحجر على عقولهم، ومنعهم من الذهاب لهذا أو ذاك وقد نسى هذا، أن الله تعالى خلق الناس أحرارا، وجعل الحرية مبدأ أساسي للإنسان الآدمي. فحث تعالى على عتق الرقبة إن وجدت بكل طريق يتيح ذلك. وحث كذلك على إنفاق الأموال في تحرير العبيد، وجعلها مثلًا في كفارات الظهار واليمين. وعظم أجر من عتق في سبيل الله، ونهى عن ظلم الناس وإجبارهم وإكراههم، ودفعهم إلى مزاولة أمور ما قسرا وجبرا، بل وجعل على ذلك عقابا أليما لفاعله. وطلب بإيتاء الحقوق لأهلها. إلى آخر هذه القيم، ليدلك على أنهم لم يخلق العباد ليسترقوا رقاب بعض، ويهلكوا بعضهم تعذيبا وتنكيلا.

لذلك كانت هناك قيم أخرى تابعة أو مستلزمة لصفة الحرية. فكما هو معلومة أن الصفة لا تكون بمفردها، وإنما على مجموعة من الصفات تستلزم قيامها، ثم مجموعة أخرى يجب أن تكون نتاجها، وما هو خارج عنها ثم أنها كذلك تختلف بين فردها

وجماعتهـا ومن تلك القيم، قيمة المعروف والأمر به والدعوة إليه. والمعروف، هو كل ما عرف خيره وفضله، حتى صار بين الناس معروفا، ويدخل فيه ما ينفع العباد في دينهم ودنياهم، من غير أن يخالف شيئًا مما أنزله اللّه تعالى أو بينه رسوله وذلك حتى يعم الخـير وينتشر بين الناس، فأما أعظم وسائل انتشاره، هـي الدعوة إليه والدلالة عليه بـكل سبيل أو طريق معتدل مستقيم، وهـذا يجعل من المرء إيجابيا يحرص على الخير ويبلغـه للناس، فلا يستأثر به دونهم. فيعلمه قيمة المشاركة في المعلومات والفوائد، وفي ذلـك من إدخـال السرور على نفسـه وجعلها ذات روح عظيمة تدعـو إلى تعليم الناس وإرشادهـم. فيكون بين الناس داعية إصلاح ومنبر فلاح ومؤذن رحمة وهدي، فيضيء لمـن أظلمت عليه الدنيا، وتهادت به الطرق. فيبين لجاهل، ويوضح لغافل، ويذكر ناسٍ. لا استعـلاءً وتكـبرًا، وإنما يفعل ذلك من باب إرادة الخير للناس وتوضيحه لهم فيبذل ذلك ناصحا متواضعـا مخلصا، لا عاتيا متجبرا، كأنه الحاكم على الناس والموقع عن تصرفاتهـم بـدل منهم. فانظر إلى الأنبيـاء صلوات اللّه تعالى عليهـم في توضح تلك القيم الهامة يقول شعيب –عليه السلام– لقومه. " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِـنْ رَبِّـي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أن أُخَالِفَكُمْ إلى مَـا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إن أُرِيدُ إلا الإصلاح مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ". وقال لنبيه "فَذَكِّرْ إنمـا أنت مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِـرٍ" وكذلك قال له " لست عليهم بجبار". فما هو إلا رحمة للعالمين، رحمة في غير ضعف، وقوة في غير عنف.

وكذلـك النهـي عن المنكر فهو مستلـزم للقيمة الأولى فأمـرك بالمعروف، مستلزم للآخـر وهو نهيك عـن ضده، بل هو من تمام فعله وصنيعـه. فالنهي عن المنكر هو من تمام المعروف. ولكنه بطريق السلب فبدلا من أن ترشده إلى فعل كذا بطريق الإيجاب، فأنـت تبين لـه أيضًا بطريـق السلب مخاطر هـذا الأمر الذي يقوم بـه. وهو في معنى التنبيـه، أن تنبـه شخصـا مـا وتوقظه من خطر مـا لا يعلمـه أو لا يتوقعـه. فهذا من

تمام المعروف والإحسان أن توقظه حتى لا يهلك في غفلته وعدم معرفته. أن تعلمه بمخاطر ما يأتي مثلًا، وأنه سيهلكه ويضره، ألا يفعل الطبيب ذلك في حال ذهابك إليه لاستشارته، فينهاك عن أشياء تحبها، وذلك خوف الإضرار بصحتك. وكذلك يأمرك بأخذ أشياء خاصة، قد تشعر حيالها بالكره وعدم الاستحباب والرغبة، إلا أنها قصد منفعتك واكتمال صحتك. ألا ينصحك شرطي المرور بألا تدخل طريق كذا وكذا، وأن تنصرف إلى طريق كذا وكذا. وكل ذلك قصد نفعك، وروم عدم الإضرار بك. ولو استمررنا في إيراد تلك الشواهد من الحياة المشاهدة لطال بنا المقام، ولكن يكفي بيان الأمر بضرب مثال يدل عليه. ويكفي في الاستدلال على الأمر بواحد أو اثنين. فمن يريد الحق سيقنعه، وأما الآخر، فلن يجدي معه نفعًا إلا المراوغة واتِّباع الحيل، ولن تنفعه كذلك كثرة الاستشهاد بالأمثلة. إذ أن الدليل لم يكفيه، فأصبح كل دليل في عينه لا يكفي فهو إذا يريد الدليل الذي يوافق رغبته لا الآخر الذي يدعو إليه صاحبه. وتلك نقطة غاية في الأهمية أردت إثباتها، ولها شواهد ولوازم أخرى متابعة.

أرايت لو أبصرت شخصا ما يضر نفسه، أكنت تتركه وتنصرف. أم تنهاه عن فعله وصنيعه. بالكلمة الطيبة واللفظ الحاني الرقيق، وتخبره بما قد يؤدي إليه ما هو فيه، ثم تخبر ماذا يجمل به أن يفعل، وما لمثله أن يؤديه من الأفعال والخير. تخبره بالأمر خوفا عليه وإشفاقا مما قد يحدث له. فتوضح له الطريق الصحيح الذي يحسن به اتباعه، فتوصل له الخير، بحملك إياه على ترك ما فيه من الضرر بنفسه أولا. إلى آخر ذلك. والنهي هنا عن إتيانه يمثل أعلى درجات الإشفاق به، إذا جاء على الوجه الصحيح بالطريقة المنضبطة، والنهي هنا إنما هو بدافع إرادة الخير والنصح له. وذلك أنك تريده أن يذهب ما فيه من نصب ووصب أو حيرة وتردد، أو شك وضعف ووهن. فهو في تلك الحال لا يدري ما هو أفضل له، وما هو الأحسن على وجه الحقيقة، فهو ما أتى مأتاه، إلا لظنه أن فيه خلاصه ولو علم أن ما به لا يزيد الأمر إلا سوء

وإهلاكا، ثم علم طريقا أخرى يخرج فيها مما فيه. لما وجدته على حاله الأول ثم أن المنكر هنا، ما ينكره الناس وتعارفوا على إنكاره وقبل ذلك أنكره الخالق تعالى في عليائه ونهي عنه وذمه، وذم فاعله والمتخلق به، ويدخل فيه كل ما يغضب الله تعالى من الأقوال والأفعال والأحوال والصفات.

وليس النهي عن المنكر، كما يَـتَرَاءى إلى مسامع البعض، أنه هو العصبية والشدة والغضب. ولكن النهي عن المنكر هو ما يفعله كل أحد منا حتى دون أن يدري. فينهي الأب ابنه عن عدم تضييع وقته والإهمال في دراسته. إلى آخره. وينهي الرجل امرأته عن فعل كذا وكذا وينهي الرجل صاحبه عن فعل كذا وكذا وينهي المدير مرءوسيه عن فعل كذا وكذا. وهكذا دواليك في جميع مجالات الحياة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هما ركيزتا الإصلاح في نفس الفرد، وفي مجتمع الناس وفي انعدامهما هلاك الأفراد والمجتمعات. كيف يكون الحال أو الظن بأناس لا يتناصحوا أو يتواصون أو يتناهون. وهل المرء إلا بأخيه فيصبح هناك تفكك في بنيات المجتمع وطبقاته، فلا يكون همُّ أفراده إلا مصلحتهم الشخصية ورغباتهم وفقط، لا ينظر أحد فيهم لأحد أو لا يهتم به، ولا يعينه أو يساعده. أو يقوم ببذل النصح عند حاجته وتخفيف ما ألم به حال مصابه، وعزائه حال فقده. فالله تعالى خلق الإنسان واستعمره في الأرض. ولن تعمر الأرض إلا بنشر الخير والصلاح، وقيم العدل والحرية والإيثار والترابط والنهي عن الظلم والزور الإفساد بكل أنواعه. فالتعمير يكون بوسائل ومقومات منها: الإصلاح في الأرض، بجميع ما تحمله كلمة إصلاح من معنى. فالأرض جعلها الله تعالى للعباد جيلا يخلف جيلا. فلو لم يصلح الجيل الحالي ويعمر أو أجحف في استخدام الموارد وأسرف فيها، لظلم ما بعده من الأجيال بتعديه على حقه. إذ الإنسان كفرد، ليس له الحكم التام، والانتفاع المطلق بكل شيء. ولكن بالإحسان والاعتدال، وأن يترك السالف لمن بعده من الخلف ما يعينهم على أمر دنياهم. فلا

يبقـون كل شـيء لهم وقد أفسدوا فيه، وأزالوا عنه وجـوه الخير وما كان ذلك إلا بعدم النهي عن الإفساد في الأرض الله تعالى ذكر في كتابه أنه لا يحب المفسدين، وذكر أنه لا يحب أن يفسد في الأرض بعد أن أصلحت وهيئت للناس بل حث على وجود الناصحين، الذيـن يصلحون إذا أفسد الناس، فيعالجون ما اعوج وانحرف. قال تعالى " فَلَوْلَا كَانَ مِـنَ الْقُـرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُواْ بَقِيَّـةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرضـ إلا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُـمْ وَاتَّبَـعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُـوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ " وهـي دعوة مصدرة بقوله "فلولا" التي هي للحث على الأمر والدعوة إليه، بأن يكون هناك أولو بقية ممن ينهون عـن الفساد والإفساد في الأرض. وفيه حفظ أنفسهـم ومن معهم، بل فيه كذلك حفظ لمـن يأتي من بعدهم وفيه كذلك بقاء المجتمـع صالحا قائم. فعدم الإصلاح في الأرض إذن بالإهلاك . والله تعالى يقول " وما كان ربك مهلك القري بظلم وأهلها مصلحون" فمادام الإصلاح قائما في مجتمع ما، فهي داعي إلى إعماره وتكاثره، ونموه وقيام أمره. وحـين يقل أو يقل في مجتمع ما فهو داعي قلق وترقي. لذلك يقول تعالى في موضع آخر " وماكنا مهلكي القري إلا وأهلها ظالمون". فعدم الإصلاح، وهو ظلم واضح بين. ثم جعل تعالى الظلم سبب في الإهلاك كذلك، فهو سبب في الخراب والفساد ثم إنك تجد فيـه كذلك معنى آخـر، وهو السلبية والتقاعس عن الإصـلاح، والتغاضي عن الأخطاء فما حدث الظلم إلا بأسباب شتى، منها عدم الأمر بالمعروف والدعوة إليه والحث عليه والمنـاداة به بين الناس، وانعدام النهي عن المنكر. فكلا الأمرين مرادف للأخر ملازم له. فالأمر بالمعروف في طياته نهي عن منكر. والنهي عن المنكر، في طياته أمر بمعروف وكلاهما لازم لتحقيق العمران واستعمار الخير ونشر البر.

لذلـك حـث تعالى على وجود المصلحين في الأرض وهي المعـبر عنها في الآية بقولة "أولو بقية" وكذلك قوله "إلا قليلا" فالقليل هم أهل إصلاح ثم أنه تعالى علم مشقة عملهـم، وما قد يلاقـون من عنت من النـاس، ناهيك عن بذلهم الوقـت والجهد وقد

يشاركوا كذلك بالمال، فحفظ لهم أجورهم وقال سبحانه "إنا لا نضيع أجر المصلحين" فـالله تعالى يخبره بأن عاجلا أم آجـلا سيأخذ جزاء إصلاحه وسعيه، فيطمئن بذلك كل مصلـح على وجه الأرض، مهما كـان إصلاحه وسعيه، وصبره على الأذى سيجازيه ربه ويعطيه بل حث جميع الناس على الإصلاح والدعوة إلى الخير فقال تعالى

" لَا خَـيْرَ فِي كَثِـيرٍ مِـنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَـةٍ أَو مَعْرُوفٍ أَو إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا " .

فالصـلاح كل الصلاح في الأمر بالعروف والنهي عن المنكر. وليس كما هو متوهم في الذهـن، أنـه خاص بالأمور التعبديـة فقط ليس هذا المقصد، ولكـن تصلح الأرض بإصـلاح مـا فيها من جميع المجـالات وشتى الفنـون وسائر الأمـور. ادع إلى المعروف بحيـث لا يخالـف ما شـرع الله تعالى وأمر، فـلا يكون فيـه ظلما أو اعتـداء. فدعوي الإصلاح بين الناس بالظلم لأحدهم وهضم حقه وإهمال ما له، من الظلم البين، ليس فيـه إصلاحا، بل صاحبه علـى خطر عظيم، إذ أنه وَكَلَ نفسـه في قضاء شئون الناس والحكـم بينهم وتلك منزلة لا يقدرها كل أحد، فلينظـر نفسه وحاله قبل أن ينزع حقا ويعطيـه الآخـر، وليعلم أنه مسئول عن حكمه وقوله، فالأمـر ليس عبثا، وحقوق الناس لا تضيـع أبـدًا سدى، أن لم تؤخـذ في الدنيا، فهناك يوم آخر تسـترد فيه . الشاهد أن هذا المصلح يجب أن تتوفر فيه شروط معينة حتى يكون أهلا لأن يقضي بين الناس في نزاعاتهم ومشكلاتهم.

وحينئذ يتبن أن قيمة الحرية الداعية إلى السمو والعلو لا إلى السفول والانحطاط، كـأي قيمة تحتاج إلى رعايـة وعناية. وهي داخلة فيما سبق مـن الأمر والنهي بأن تدع النـاس أن يكونـوا أحـرارا، فـلا عبوديـة إلا لله تعالى وحـده. وتنهاهم عـن الخذلان والانحطـاط والتردي في الفكر والنظر وانظر إلى تعليـم النبي لابن عباس، وهو طفل صغـير، يقول له " يا غـلام، إني أعلمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده

تجاهك، إذا سألتَ فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علـى أن ينفعـوك بشـيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قـد كتبه اللّه لـك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّه عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحف ".

يعلمـه أن ما أصابه لم يكـن ليخطئه، وما أخطأه لم يكـن ليصيبه فينشرح صدره ويطمئـن قلبه وهو في كل ذلك معلق باللّه تعالى النافع الضار. فالعباد كلهم مخلوقين، ولـن يقدر أحدهم منهم أن يصيبه بمنفعة أو مضرة إلا بإذن اللّه فليجأه ذلك إلى اللّه وحـد، مـع حسن الأداء والمعاملـة للناس. فيخاف من اللّه وحـده فيحبه هو وحده تمام الحب فلا شيء أحب في قلبه من ذكر اسمه، والتعلق بأسباب وصاله فلو انقلبت الدنيا كلهـا لا يضره ذلك، إذ هو معه مالـك الدنيا فمن عليه!! فلم يقلق ويضطرب إذا. معه الذي لا يغفل ولا ينام. علم أنه هو الذي رباه في جميع أحواله وأموره بجميع نعمه تعالى، وهـو الـذي يرزقه. وهو الذي أحياه، وهو وحده تعالى الـذي سيميته ثم علم أن الجميع تحـت قبضته. فالخلق جميعهم مقهورين تحت تصرفه وإرادته، هو وحده لا غيره . ثم علـم أنه لا يستطيع أحد أن يجلب لأحـد نفعا أو يكشف عنه ضرا إلا بإذنه ومشيئته هو وحده لا شريك له.

يجعله ذلـك متواضعا، كريق الخلق، لا يتكبر على أحد أو يتسلط عليه، أو يستخف به فيعلم أن لكل نفس لها رزقها وأجلها الذي قدر لها فيطمئن ويحسن في طلبه ويجمل فيـه. بتواضـع ولكـن كذلك بعزة نفـس لا يهين نفسـه، وكذلك لا يجعلها فـوق النـاس، فيتكبر ويطغى

أن هـذ الأمـر والنهي هو من حق المـرء على أخيه. فيؤديه رحمة بـه وإشفاقا عليه حرصـا على إعـلاء المجتمع ككل ورفعة شأنـه وهذا الحق لو منعـه لأدى لفساد كبير . ومنـه أن يفعله ابتغاء رضـا النـاس فيبدل بقدر ما يريدون، لأجـل أن يكونوا مسرورين بـه أو يحسن حال إحسانهم، ويسيء حـال إساءتهم. وفي الأثر " لا تكونوا إمعة، تقولون

إن أحسـن النـاس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن النـاس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا ".

وهكذا المرء يوطن نفسه، فلا يقول أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت. وإن أساءوا أسأت. ولكن يكون ذا منهج واضح، يتبع فيه قيمه ومبادئه فيكون معياره في المعاملة مع النـاسـ، بل في كل شيء الحـق والصواب فلا يعامل غيره بمنهـج ردة الفعل. إن تعطي أعطـى، وإن تمنع أمنع هذا خلق سيء ضعيف يوهـن القلب، ويضعف العزيمة، ويجعل الأشيـاء عنده ليست خالصـة لوجه اللّه، فيكون وجهته هنا، النـاسـ وما يرضيهم وما يسخطهم وهكذا إن أرضوني أرضيهم. وهكذا فهو يرد فعلهم بفعل مشابه له، أو قريب منه. ولكن عليه أن يعلق قلبه باللّه، فيفعل جميع أموره ويجعلها خالصة لوجه هو تعالى، فينتظر الجزاء من الله تعالى لا من الناس قال تعالى " قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ".

حينما يفعل كل أمره يجعله لله تعالى خالصا، فلا ينتظر من أحد جزاءً أو شكورا. فيستريـح ويطمئن، من صرف تعلق القلـب للناس، وانتظار جوابهم وردهم وإحسانهم ثـم يكون تابعا لهـم لما يرضون أو يسخطـون، فيغير ويحول، ويتعـب نفسه. ويأخذ من جهـده وطاقاته. ثم لن يرضى أحـد. لذلك فليوطن نفسه، وليكن ذا منهج خاص معبر عنـه هو، مبرز شخصيته هو، فيوطن نفسه بالإحسـان، لأن الله أمره بذلك، فهو متبع لمـا أمـره. فيرضى تعالى عليه ويرضى عنه النـاس. ويمتنـع عن الإساءة، لأن ذلك مما لا يحبـه الله تعالى، بـل هو مما يغضبه. فينتهي التزاما بترك ما نهى الله عنه. فيورثه تعـالى الرضا عنه والراحـة في قلبه، ثم يُرضى عنه الملائكـة في السماء فتحبه فتدعو لـه، والصالحـين في الأرض يخصونـه بدعواهم . بل ذكر في ذلـك أن الدواب تستغفر لـه ففي الحديث قـال ﷺ "وإن العالم ليستغفر له من في السمـاوات ومن في الأرض، حتـى الحيتان في جـوف الماء" فيورثـك كل ذلك أن توطن نفسك علـى في فعل الخير،

فتكـون مبـادرا به دائمًا وأبدًا، لا تنتظـر قول أحد أو فعله. لا تعاملـه كذلك بمبدأ ردة الفعـل، فيكون فعلك، تبعًـا لفعله، فكأنه نتيجـة وأثر له. ولكن اعلم أنـه ليس المواصل بالمكافـئ، إنما الواصل مـن إذا قطعته رحمه وصلها. هذا الواصـل على الحقيقة، أمَّا الأول فـإن يجـازي فعلًا بفعلا، وأمرا بأمرا. فيكون وِصالـه جزاء وردّا أما الآخر الذي قطعتـه رحمه، فهـو الذي الواصل علـى الحقيقة، لأنه يصل حبال الـود المقطوعة، هو الـذي يلحم هذا القطع ويجمعه بعضًا إلى بعضـ. فتجعل المرء مبادرا إيجابيا فعّالا في نفسه ومجتمعه، لا ينتظر بل يسارع. كما قال تعال عنهم "أولئك يسارعون في الخيرات وهـم لها سابقون" فهو يسـارع مسارعة شديدة إلى فعل الخير، وهـو سبّاق إلى ذلك، لا يـترك موطـن فيه النفع والخير إلا أتـاه، ولا موطن يذم فيـه إلا ابتعد عنه وتحاشاه لا ينظـر إلى فعـل هـذا وفعل ذاك. بل ينظـر إلى العمل وثوابه، وأنـه يقدمه إلى الرب تعـالى، فلمـاذا يلتفت! ولأجل من! وذلك يجعله ذا أثر فيمـن حوله، ذا بصمة في بيئته ومحيطـه. ويعمـل ذلك من أجـل رضا الله تعالى يفعل وهو يعلـم قول النبي ﷺ "خير النـاس أنفعهـم للنـاس". والنفـع، كلمة عامـة جامعة تشمـل كل ما يفيـد الإنسان في شئـون حياتهم وسائـر أمورهم. ويؤدي ذلك صابرا محتسبا لقوله تعالى "واصبر وما صـبرك إلا بالله". وقوله " واصبر على ما أصابـك أن ذلك من عزم الأمور". فيصبر صبرا جميلا لله تعالى، لا لأجل أحد. والله تعالى يختبر النـاس فيقول لهم " أتصبرون وكـان ربـك بصيرا " أي أتصبرون على ما تلاقون مـن أذى ممن حولكم من النـاس، ممـا تلاقون من عنتهم وظلمهم. وكان ربكم بصـيرا بكم خبير بأعمالكم وما تفعلون. لذلـك يطمئنـه ربه، ويقول لا تلتفت إني عليم بـك وبحالك، خبير بما يفعل ويكاد من أجلك، محيط بكل شيء علما. فاصبر على ذلك، فإن عاقبتي أنفع لك والزم نفسك ولا تلتفـت هنا وهنـاك، فتنسـي وجهتك، وتضيع نفسك ثم أن قانونك في هذا " من اهتدى

فإنمـا يهتدي لنفسه ومن ضل فإنمـا يضل عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى" وقوله" من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد".

هكذا تعامل مع كل القيم، فهي وقودك الدافع بك حيث يجدر أن تكون. ثم تتخذها وسيلة تبلغ بها رضا ربك ورضوانه لتفوز بنفسك، فلا تضيعها بين قول هذا وقول ذاك. أو رأيه أو فعله. فلا يكون مقياسك الناس، ولا معيارك ردة أفعالهم تجاهك ولكن اجعل منهجك الأول في كل أمر حياتك هو بلوغ رضا ربك تبارك وتعالى ومن القيم التي ذكرنا وتكلمنا عنها، هي الحرية الهادفة المحفزة للمرء على كل جميل وحسن.

وقبـل أن أختم هذا الحوار، كان لابد من الإشـارة إلى مفهوم آخر مستلزم لمفهوم الحريـة وهو "المعارضـة والخلاف". وهي ظاهـرة طبيعية غير منكـرة وهي حق نابع مـن حق الحرية الأول ولكن كان لابد لهـا من شروط تقيدها فليس الأمر هكذا يمارس بـلا قانون أو ضابط فيكون هدفه الأساسي، وهو إعـلاء كلمة الحق، وتبين وجه الخلل والقصـور، لا قصـد للإفساد، ولكن من أجل إيضاح وجـه الصواب والحق وتحقيق ما ينفـع الأمة والمجتمع، ويكون ذلـك اندفاعا من باب الإصـلاح والعمل بمقتضى الحق. ويكـون مرجعيته في ذلك كله، هو قانون الله تعالى وشرعـه. فالمعارضة حينئذ لا تكون معول هدم بل من أجل التشييد والإصلاح والنفع، فهي ليست انتصارا لحظوظ النفس والهـوى والشهوات، ولكن انتصارا للمصلحة الراجحـة دائمًا فيكون ذلك كله من باب جلب المصلحـة ودرء المفسدة وكما قال المصلحون في قصة أصحاب السبت،..." قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون".

الإنسان خلق حرا فله حق التفكير والاعتقاد من غير أن يلزمه أحد بشيء وحسابه علـى ربه. ولكن يجب الحرص على التـزام الحدود العامة والشرائع السماوية. وكذلك على المرء في خضم كل هذا أن يتفهم قضية الخلاف، وهي هامة جدًا في فهم اختلافات البشر وتأصيلاتهم. ثم عليه أن يحترم الآخرين، وإن خالفوه في الفكر والرأي والعقيدة

فـلا يسخـر ولا يهزئ، ولايعادي. بل عليـه بالمعاملة الحسنة الجميلـة، كما قال تعال " وقولوا للناس حسنا ".

الخـلاف في الدنيـا منهج طبيعي، فلكل فـرد أرائه وقناعاته. ومـن حقهم التعبير عن أرائهم بوجه لا يؤذي أو يضر أحدا، أو منهجا أو عقيدة وشرعا. للناس حريتهم في اعتقـاد مايشاءون، ولكن هـذا لا يعني عدم التبين لهم، وإيضاح الخير وسبله بالحكمة والموعظـة الحسنـة والله يقضي بينهم يـوم القيامة. قال تعالى "فـإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ما أعمل وأنا برئ مما تعملون "

ثم لا يعقل أبدًا أن تكون هناك حرية للفساد والهلاك، ونشر الفتن وزعزعة الثوابت وهدم المسلمات هذا حرية تدمير وهلاك. وليس هناك من عاقل يقول بها.

كلمـة أخيرة لابد منهـا، لا حرية للمرء على وجه الحقيقـة إلا في اتباعه منهج من خلقـه ورزقـه، وأتي بها، ورباه على عينـه وأحسن صورته، ورزقه مـن حيث لا يحتسب فهـو تعالى الذي رزقه نعمة الاختيار والحريـة، وما ذاك إلا ليختار ربه وخالقه بإرادته الحـرة بعقلـه فيؤوب إليه مختارا فيشكر نعمه لا أن يكفر فضله وعطائه. فلا يقول كما قـال قارون لقومه "إنما أوتيته على علم عنـدي". أو كما حاور هؤلاء الأقوام أنبيائهم، فقالـوا لهـم " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون " أو كالإنسان في كفره نعم ربه عليه قال تعالى " فإذا مس الإنسان ضـر دعانـا ثم إذا خولناه نعمـة من عندنا قال إنما أوتيته علـى علم بل هي فتنة ولكن أكثرهـم لا يعلمـون". فيظـن أن ما عنده من الخـير مما أعطاه الله تعـالى، من عند نفسـه، وأنـه حقيق به، وجدير بمثل ذلك أن يكون معه. وينسـى أن كل ما عنده من عند الله تعـالى، ويجهـل أن كل هذا عطاء الله تعالى وتوفيقـه فالاختيار والحرية في الدنيا

للابتـلاء والاختبار، ليلاقي نتيجة ذلك في الآخـرة، إن خيرًا فخير، وإن غير ذلك فلا يلوم غير نفسه.

قـال تعالى "قل يا قوم اعملوا على مكانتكـم إني عامل فسوف تعملون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون"

لكل وجهة هو موليهـا، وطريقة هو قاصدها ومبتغييها . فلنعش هذه الحياة أحرار مـن كل ذل وسـوء ومسبة . أحرارا مـن كل ما ينقصنا، ويؤذينا، ويعكـر صفو حياتنا. أحرارا بإيماننا وتقوانا وقيمنا ومبادئنا ومعرفتنا وعلمنا فنكتسب من قيم حياتنا قيمة حريتنا، ونعلو بها فوق سماء الدنيا معلنين، أننا أحرار كما ولدتنا أمهاتنا وكما خلقنا إلهنا.

نظرة مقربة بين الإدراك. والتغافل

حينما تجتمع على كاهلك الهموم ويَكِلُ ساعدك بالأحمال، وتفوز حياتك بالمصاعب، وتفقد دائمًا ما أنت ظان أنه احتياجك يوم أن يتسلل ذلك إلى قاعك الأقصى، ويترسب فيه كل ما يشل حركتك ويقيد تنقلك فتتحمل أعباءً فوق أعبائك حينما يتخلى عنك كل أحد، فتنظر فترى الطرق خالية والمحادثات معدومة . حينما تفقد الكلمات معانيها، وتخرج من حقيقتها، وتتجرد من ظاهرها وباطنها فلا تعدو سوى حروف جامدة جمعت وتشابكت لتعطي معنى نحوي مفيد، فاجتمع فيها طرفا الجملة اجتماعًا مجازيًا، وتناسبًا تناسبا بلاغيا، فتقف بين يدي الجملة معربا لحدودها، بصرف النظر عمن أعربها غير أن المعرب الحقيقي لهاهو الذي أخرجها من أحشائه فجمعها في قلبه ونسج عليها خيوط آماله وطموح نفسه فلم يبق إلا أن ينطق بها لسانه فهي جردت من كل ذلك، حتى أصبحت خاوية جرداء من أي معنى حقيقي، فهي عند – صاحبنا – لفظ أتم فائد، يحسن السكوت عليها. ولكنها عند صاحبنا الآخر، ما أتمت فائدة ولاحسن السكوت عليها، بل هي ناقصة عوراء، لا تدل على شيء لا تحمل إلا قولًا صامتا. وهل يستطيع أن يعرب الكلمة إلا قائلها! فأما هذا فيعرب لفظ جامدا لا حياة له، وأما الآخر فيُعْرُب حيوات ويبين جنات وأنهارًا وجحيما ونيران!

حينما لا تعدو الحياة غير قرار أو لحظة أو كلمة، حينما يصبح كل شيء روتيني محفوظ، غير أنك تعيده وتنظر إليه كل يوم مع تعديل بسيط، فما هو إلا تكرار، أو لعلك أن تقول هو عملية تدوير، ولكنها عملية تدوير متوقعة، كأنك على دراية بالنمط وكيفية المضي.

حينما يصبح عالمك الداخلي مَلِيءٌ بالضجيج معج بالبلايا، جامع للتناقضات،

شارح معنى الألم بكل معنى تتخيله وبكل وصف تستطيع إدراكه فيصبح ظاهرًا للمعنى العام، ضبابيًا لطرحه في قضية واحدة تقدر على نقاشها أو تحليلها، بل حتى مسايرتها بالفكر.

حينما تفرد بك البلايا فتتذكر قول أبي الطيب:

أبنت الدهر عندي كل بنت ... فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحًا لم يبق فيه ... مكان للسيوف ولا السهام
وضاقت خطة فخلصت منها ... خلاص الخمر من نسج الفِدام
وفارقت الحبيب بلا وداع ... وودعت البلاد بلا سلام

حتى يصبح بينك وبين الخطوب ودادٌ، كأنك تعانقها عناق المحب وتستقبلها استقبال الفاتح المنتصر، وتغذيها من نفسك وترضعها من دمك فصار انتقالها بين أعضائك، وأثرها قابع في أعماق أعماقك. ثم تنشئ رابطة من الألفة غريبة، تألف فيها ما ينفر منه الناس ويهربون عنه، وتنفر أنت مما هم إليه ركنوا وتجالسوا، ثم تشتد تلك المواصلة فتغذي من أرض قلبك وتروي بماء عينك، فتتخذ لها مأوى من الفكر، تنأى فيه عن كل شيء إلا أنت، فتأويها ويعد إيواءً مختلفًا عن الإيواء الأول، إذ تأخذ نفسك بالدفاع عنها وحمايتها، وإحكام الغلق عليها حتى لا تؤذي من برودة قارسة، وتفتح لها جناحا الخافقان، خافقي قلبك أنت حتى لا تموت خشية الاختناق وأنت في كلٍ لا تتركها في حمّارة الفيح الشديد، بل تأويها إلى ما تستظل به من لهيب الهاجرة وسعارها، فأصبحت منك وإليك. منك، من القرب حيث لامست باطنك، وتملكت بموضعها من منبع الشعور لديك . وإليك، حيث مردّ الظاهر من الأفعال إنما هو ضرب من أثرها وحالة تدل عليها.

وما أجمل قول المعري في وصف ذلك.

وهونت الخطوب على حتى ... كأني صرت أمنحها الودادا
أأنكرها ومنبتها فؤادي ... وكيف تناكر الأرض القتادا

حينما تنظر للأشياء نظرة واحدة ثم تعممها على كل شيء حولك، كأنها نابعة من عقل أحادي الجانب لا يرى إلا نفسه وفقط، وذاته العليا فحسب، فلا يدرك الأشياء إلا بمعيار واحد، ثم يغفل عن باقي الجوانب الأخرى، أو يتغافل عنها محاولا محوها من أمام ناظرك ، لتعطي نفسك إيهامًا نفسيًا بإنعدامها أو بخواء أثرها. فتظن ساعتها أنك صاحب الحق المطلق أو النظرية الأكثر قابلية لملائمة الواقع. هذا ما يستدعيه خيالك ويقويه تصورك للأمور، الذي يصبح شيئًا فشيئًا قناعة ثابتة لديك هذه القناعة التي تحولت بطريقة ما إلى تصديق ضروري، هذا التصديق الذي لا يحمل من الصدق إلا لفظة وحروفه، أو لعلك تقول هو نوع من الصدق مموه بكثير من الزيف والخداع، حتى فقد معنى الصدق ومفهومه ناهيك أصلًا عما إذا كانت هناك مطابقة له في الواقع ولو بشيء يسير.

كيف يتم التصور لديك وكيف يتحقق فيأخذ موضع التنفيذ. ثم لم تتصور الأمور بشكل معين وبإطار مخصوص، وما هي دلالة الألفاظ وتأثيرها عليك التصور له مناحي كثيرة يتشكل بها، فمنها، مفهوم الدلالات اللفظية والدلالات الجسدية، ثم قبل ذلك المعرفة الشخصية للفرد وما ثبت ورسخ في عقله من علوم وكيف أثرت تلك النشأة على حياته، وعلاقاته مع الناس، وأنماط نموه في مراحل حياته المختلفة. فتجد اختلاف التصورات للشيء الواحد، كل يراه من وجهة محددة، مع أن الشيء واحد في الحقيقة، فما رآها هكذا إلا لإختلاف الباطن لديه، والمخزون الداخلي من الفكر والثقافة والمعرفة وهذا يختلف بطبيعة الحال من شخص لآخر، لاختلاف العقول والأفهام وكأنه يتعدد بتعدد الخلفيات، وليس الحديث عن التصور الضروري الذي يمكن أن نقربه للفهم "بالفطرة" أو التصور البدائي لحقائق الأشياء، فلن يختلف أحد مثلًا على تصور الأسد كيف يكون شكله، أو الحمام كيف يطير في الجو، أو السمك كيف يسبح في الماء، هذا تصور ضروري لا يختلف عليه ولا حاجة أصلًا للحديث عنه،

ولكن نذكره لنخرجه من مفهوم التصور المقصود، الذي يختلف فيه أناس كثيرين وهو شيء واحد.

ثـم كيف يتطور هذا التصـور ليصبح تصديق ضروري لديه، فحقيقة تطوره يكمن في أن تتصـور الشيء وتدركه إدراكا تامـا، ليأخذك بعد ذلك إلى حيز القناعة الذاتية والتصديـق النفسي والإيمان المطلق الذي لايساوره شك ولا يتطرق إليه ظن. فتؤمن به كأنـه حقيقـة من الحقائق الثابتة التـي لا محيص عنها إلا بالاعـتراف بها والنواميس الواضحـة التـي لا تملـك أمامهـا إلا بالإقرار بصحتهـا لتدخل بعد ذلـك في طور من المنافحـة والمجادلـة عما تؤمن بـه وتعتقد فيه، لتعـادي كل من يرى عكس مـا رأيت أو خالفك فيه، فهو في نظرك مخالف لما أنت تراه أنه هو الحق والصواب فغالب كثير من الأمـور هكـذا ينشأ من التصور الذي لا يطابق المعنى المـراد أو الحقيقة المتبعة، فيكون التصور ليس للأمر ذاته، ولكنه للنفس المتصورة مُعَلِقٌ عليها كل دواخلها، فينشأ تصور شخصـي ذاتي للشخـص نفسه، لا للموضوع نفسه. فيكون تصـورا ذاتيا لا موضوعيا، أو لعلـك تقول إنه تصور موضوعـي برؤية ذاتية، ومن هنا تتعد الرؤي وتنفصل. وأنا لا أتكلم عن صحة هذا التصور من عدمه، أو ما هي منابع التصور السليمة؟ أو كيف يتم التصديـق لكيفية تبـين صحته من عدمه؟ فأنا أعمل على إيـراد الأمر متجردًا عن أي نسبة، أو إلحاق له بأي وسيلة كانت، وإنما أنظر فقط إلى كيفية تشكله لدى البشر، ولم كان التحجر في الرأي، والتصلب في المذهب، أيا ما كان، بغض النظر عن كونه صحيحًا أم لا، وكذلـك بغض النظر عما هل التصلب في هذا الموقف صحيح أم لا، أو أي موقف دفاع تأخذه للمحاجة عما ترى، لست بصدد ذلك كله، وإنما في النظر إلى الطور الأول من تشكل كل ذلك في النفس البشرية.

ثـم إن روافد نمـوه في النفس تتعدد لتتشكل بهذا النوع من الوضوح، ثم أنها كذلك تختلف باختـلاف حالات الشعور المتغايرة لدى الإنسان مـن السرور والغضب والحزن

واليأس ، وهكذا فكل حالة تلبس لها النفس لباسًا مختلفًا غير الأول . فهي تعكس هذا النوع من الشعور على القضية المطروحة أمامها، فتصيغ الأمر بثوب عاطفي مُشْرَب بحالة النفس ذاتها سرورا وفرحا أم تشائما وحزنا أم رضا وقبولا أم اعتقادا وتدينا، أو جامعة لأبعاض هؤلاء بصورة معينة فتصور الإنسان الحزين المتألم عن الحياة وما هي، ليس كتصور الإنسان الفرح والمسرور الذي ينظر إلى الأمور بسعادة وإشراق وقبول. وتصور هذا أو ذاك لا يغني عن التصور الأصلي الحقيقي، الذي هو طبيعة الشيء وماهيته ومادته. وكذلك تختلف أيضًا باختلاف الأفهام واختلاف التناسب بين الدلالات المختلفة بمفهومها بين دلالات لفظية ومعنوية وجسدية، وبين هذا وذلك تضيع عن البعض بعضًا من الحقائق التي لا يمكن تداركها أو فهمها، وقد أحسن أحدهم حين قال "بين منطوق لم يقصد، ومقصود لم ينطق، تضيع الكثير من المحبة" .

ويكون الإدراك أساسًا من أساسياته الأولى، ومبدءًا من مبادئه الأولية التي لا غنى لأي فرد عنها، لكي يستطيع أن يقوم بعمليتي التصديق أو التصور، بل أي شيء في حياته يجب أن يكون مصاحبا له بنوع من الإدراك قل أو كثر، فلابد أولًا أن يكون هناك إدراكا. إدراك لأي شيء، فالإدراك هنا هو اللبنة الأولى لذلك البناء بل هو في الأصل مما يتميز به الإنسان عن غيره من الكائنات. فَمُيز الإنسان بالتصور ثم بالتصديق، ومن قبلهما بالإدراك فهي أداة حياته ومعينة وجوده في هذه الدنيا، وكانت آلته في ذلك الجوارح وأعضاء الحس والشعور والإدراك، ومن ذلك إدراك الإنسان بالمكان والزمان والناس إلى آخره فالإنسان يدرك أين هو؟ في أي مكان؟ وفي أي زمن يعيش؟ ومن هم الناس في زمانه ومصطلحات قومه التي يألفها منهم، أو التي اعتاد سماعها، ثم يزداد في الإدراك رويدًا رويدًا حتى يدرك نفسه وحقيقة وجوده، ولماذا هو مخلوق؟ ولأي غاية؟ وما الحكمة من ذلك كله؟ ثم يتشعب إدراكه في العلوم والفنون وأقسامها وتفرعاتها ويدرك من الحقائق الكثير والكثير.

ولكـن المشكلـة تكمن في ضعف هذا الإدراك، حيث يعيشـ المرء حياته هكذا فيحيا حيـاة طويلـة ليس له من إدراكه فيها إلا البديهـي المسلم من الحقائق وهذا يدلك على أن الإدراك ملكـة تميـل إلى الازديـاد أو الضعـف. فتضعف عند بعضهـم حتى لا يكاد يكـون أثرهـا واضحا، ومـا ذاك إلا أنه لم يعملهـا حيث توجب إعمالهـا، فتركها حتى كلـت وضعفـت . وما الإدراك إلا ملكة تزيد بالعلم والمعرفـة والاطلاع والتفكر والتأمل، كل هـذا يـؤدي إلى زيادة الإدراك لديـه حتى يصل إلى المستوى المطلـوب لتمام الفهم والوعي لينتسب بعد ذلك إلى صفات الحصافة والذكاء والرأي، فيقال ذا لُب، ذا عقل، وحكيم، كل هذا نسبة إلى ما زاد فيه من إدراكه لتلك الصفة نفسها، حتى رُمي بالصفة واتصـف بها، فصار صاحبها والمتخلق بها، لإدراكه لهـا على حقيقتها، ثم تزوده منها المقدار الأعلى، فكان هو تجسيدا لها ولحقيقتها.

والثاني هو زيادة الإدراك، فتعلم كثيرًا من الأشياء التي كانت تدفعك إلى مناهضة كثيرًا مما كنت تقبله وتؤيده، فيتغير عندك ويتحول من شيء مقبول لا بأس به إلى أمر صعب تقبله وممارسته وتدرك كثيرًا مما كان خافيا عليك من الحقائق ظاهرة أمامك، كأنـك تراهـا رأى عين فترى الحياة واضحة أمام ناظـرك، فتبصر قيمتها الحقيقية . ثـم تنظر إلى الموت نظرة ثاقبة مدققة وتعلم أنك ولابد شارب من كأسه، فيتذوق ذلك قلبـك ثم يدركه عقلـك بمعرفة واعية ، ثم ترى الناس فتنظـر إليهم نظرة حقيقية في تصرفاتهـم وأفعالهم، ثم تنظر لنفسك وللدنيا فتجد أنك ستعيش منكدًا حزينًا مثقل القلـب بالأحزان تارة، لأنك عالم بما سيحدث من خلال نمط تكراره، واعتياد حدوثه، ومراقبتـك له كيف يزيد وكيف ينقص تبعًا لعوامل معينـة تمامًا كالتجربة التي تعرف نتائجهـا من خلال وضـع عناصر معينة وجعل التجربة في بيئـة معينة لها حالة خاصة وكل شـيء فيهـا بقدر، لتخرج منهـا في الغالب بنتيجة معلومة مسبقـة وهكذا –وليس هـذا معناه أنك تدعـي الغيب معاذ الله– فالعلم عند الإنسـان في حالتنا هذه ينقسم

إلى شطرين، علم يقيني، وعلم ظني .واليقيني هو علمك لما مضى وما أنت فيه، وأما المستقبل فأنت لا تعلم عنه شيء، ولكن أنت فقط تبني شيئًا في ذهنك مؤسس على دراسات وأبحاث وتعقبات وتجارب ماضية.

كأن تقول مثلًا لطالب ذكي متفوق "له مستقبل مشرق"، وتقول للآخر "إن استمرَرْت على إهمالك وترك فروضك المدرسية سترسب في امتحان العام"، تقول هذا وفقًا لما هو متيسر عندك من المعطيات، ولو ذهبت إلى هذا القائل، وسألته فقلت له "هل أنت متأكد مما قلته لكلا الطالبين؟ وهل هذا حقا ما سيقع لكليهما من النجاح لأحدهما والفشل للآخر؟" لن تخلوا إجابته من أنه لا يقصد ما سيحدث لهما ولكنه قال ذلك توسمًا فيهما، ولارتباط النجاح بفعل معين والفشل كذلك بفعل معين.

والدهر كما هو معلوم ثلاثة أيام، هي اليوم الذي أنت فيه، واليوم الماضي الذي غاب عنك، واليوم القادم الذي لم يحن وقت ظهوره بعد، فأنت على معرفة بالأول والثاني وأما الثالث فأنت في جهل عما سيحدث حقيقة فيه لا مجازًا، وقد صدق القائل:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

فحينما يقف المرء أمام أي حقيقة ما، فينسبها إلى ماتنتمي إليه من العلوم، فيلحقها بقسم تخصصها. ثم بعد يجري ما أدركه منها على قلبه وعقله، بعد أن يعمل فيها كثيرًا من التأمل والنظر، ليتضح له من أفق الغيب شهب نيرة، ويرى من مستتر النفس ما يعطيه إدراكًا مضيئًا ورسما مبينا يستطيع أن يسير به في حياته فيدرك من الحقائق الكثير والكثير ولكن على حقيقتها بالفهم الصحيح، ثم بإعمال المنهج الذي هو عندي من أهم ما يمكن في الرسوخ العلمي والمعرفة اليقينية، وهو منهج التذوق. فتتذوق كل شيء تقرأه، فتقبل بعضه وتستسيغه، وترد آخر وترفضه. فتمسي بين رد وقبول لا تقبل كل شيء أو ترفضه بل تكون صاحب منهج، فيكون لكل مسألة عندك تأصيل فكري واضح، ومنهجية علمية متبعة وكل ذلك ليس بالسهولة المتوقعة، إنما هو

مـن السهل الممتنع الذي يحتاج عمـرًا في القراءة والدراسـة والبحث والتقفي ودلالات أخـرى. والمقصـود من الكـلام أنه باستعمال مـا سبق يتبين لك معـادن كل شيء على حقيقتـه، فتثقب بنظرك باطنه وترى قاعه وانظر لقول النبي ﷺ، لأصحابه يومًا "لو تعلمـون ما أعلـم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا" وقد بـين الله عز وجل كثيرًا من ذلك في كتابـه وبينه ﷺ في سنته، ومـع ذلك فالأمر لا يحتاج إلى وصف بل هو ظاهر للعين مشاهد واضح

وقد قال أبو الطيب:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ... عمـا مضـى فيهـا وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ... ويسومها طالب المحال فتقنع

وقال أيضًا:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ومن جميل قوله وروعة حديثه هذا البيت:

ومن صعب الدنيا طويلا تقلبت ... على عينيه حتى يرى صدقها كذبًا

وقد أحسن البارودي في ذكر هذا المعنى فقال:

والدهـر لا ينفـك ذا كـدر ... ولكن صفـوه بين الـورى لمع
لو كـان للمرء فكر في عواقبه ... ما شان أخلاقه حرص ولا طمع
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث ... من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهـر يغر وآمال تسُّر وأعمال ... تمـر وأيـام لهـا خـدع
يسعى الفتى الأمور قد تضر به ... وليس يعلـم ما يأتي وما يدع

وهكذا كلما تتضح للمرء الحقيقة كاملة لا يصفو له العيش كسابقه، وقد قال أحدهم

لا طيب للعيش ما دمت منغص ... لذاتـه بادكار الموت والهرم

حالة وهم

وكلما عاش الإنسان تاركًا خلفه كل الحقائق، مستدبرًا لها، مستقبلا الشهوات والملذات لن يقلق ولن يهتم فهو في غفلة عن كل شيء، لأن ما أمامه يشغله بقلبه وقالبه، فهو معزول عما سواه إلا ذاك الأمر الذي هو فيه فهو مقبل عليه بكليته ناسيا نتيجة صنعه أو نهايته وعاقبته إن عقله واقع تحت مخدر تلك اللذة، فهو لا يدرك ما سواها، فتقلب له الحقائق كما يشتهي، وتزين له الأمور كما يرغب. وأما الآخر تصبح لذاته ناقصة مكدرًا مشوبة بما يقلق راحته وما يقض مضجعه ويفت عضده، فتنغص عليه معيشته حتى يصل به الحال إلى أنه ما يجد المتعة التي كان يجدها في الطعام قبلا، أو المذاق الذي كان يعجبه عند الشراب، لذلك تجد من أدرك حقيقة الدنيا ، رغب عن كثير مباحها وحلالها تورعًا وزهدًا، فأدرك أن جسده لن يحتاج من الطعام إلا قدرًا معينًا، وأن بهرجة وزخرفة المباني هي لمن غفل عن حقيقة ووجودها. وهو مع ذلك لم يحرم شيء مما أحله الله على أحد، فتجده ينتهج ذلك المنهج لنفسه، ويزيد ذلك عنده عندما تتعالى عنده الروح الإيمانية والحالة الربانية فيدرك من غذاء الروح وحلاوة الإيمان في القلب، والعلو بحاجة الروح الإيمانية عن حاجة الجسد الطبيعية المادية، فقنع بالقليل ورضى بالكفاف وارتفع بأخلاقه وحلق بأوصافه في سماء الإيمان واليقين، ثم اعتز بما ملك مما لا يملكه غيره، فتجده له عز الملوك وشرف الأثرياء ورفعة الفضلاء . وما مُلك الإنسان على الحقيقة بما امتلك، بل بما امتلك الاستغناء عنه، فعندما يكثر امتلاكك للأشياء فأنت على خوف فقدها، ورغبة الحفاظ عليها والمزيد منها فتنفق منها على قتر ووجل، وأنت في خوف الفقر في فقر. أمَّا الآخر امتلك نفسه وروحه لمّا امتلك المقدرة على الاستغناء بما يملك، والإنسان الغني على الحقيقة هو الذي كان غني عما في أيدي الناس، فليس الغني على الحقيقة امتلاك مال وأرض، إنما الغني أن تغنيك نفسك أن تسأل الناس ما في أيديهم، والغني غنى النفس وليس هذا دعوة إلى الفقر أو طلب لترك الدنيا والرغبة عنها كلية، أبدًا ما هذا المقصد

وإنما الضابط في ذلك كله أنك لو امتلكت الدنيا بأجمعها وهو مُحال، لا تكون في قلبك فتطغيك وتفسدك، ولكن تكون في يدك، فتكون أنت من تتحكم بها وبأمورك فيها، لا هي التي تملكك وتدفعك إلى حيث تدفع الدنيا أربابها وبنوها، فكن أغنى الناس ولكن احذر أن تدخل الدنيا قلبك، فإن دخلت فيه تمكنت منه وأهلكته وأنت ترى رأي المشاهد بالعين أحوال الناس فيها، فلا حاجة لسردها وتفصيلها.

ولولا هذا الضابط لفسد كثير من الأمر، وضاع كثير من الحق، إذ ما ذمت الدنيا إلا لشهواتها ومتعها وترفها، التي تدفع بالمرء إلى قول الباطل ومحاربة الحق وزهق النفس وأكل المال الحرام وفعل الكثير من الشرور والبلايا. وإلا فالدنيا هي الحد الفاصل والجسر الحاجز للدار الأخرى ثم أن الدنيا ليست مذمومة على إطلاقها، فذمها أو مدحها واقع على كيفية الصنيع فيها وكيفية إتيانه الأعمال بها. وإلا على الوجه الآخر فالدنيا هي التي فعل فيها كثير من الخيرات والفضائل، وهي التي أنشئها الله لعباده حتى تكون محل مقامهم وعبادتهم وجعل فيها بيوت عبادته وأماكن حَرَمِه، فهي بكل بساطة الاختبار والامتحان للدار التي تليها، ولذلك جمع فيها من الفساد ما لا يسمح في غيرها من الدور ثم بعد ذلك كله لا دخول للجنان إلا بأعمال الخير والبر فيها، وهذا لا يأتي إلا بالممارسة والعمل ومجاهدة النفس.

والنفس كالطفل إن ترضعه شب   على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وهذا لا يستطيعه الناس أجمعين، وإنما يقدر عليه فئة قليلة موجودة في المجتمعات البشرية على مر التاريخ وتداول العصور، وتجد أكثرهم ممن تفكروا وتدبروا واعملوا علومهم ومعارفهم في فهم الحياة حولهم.

والإنسان إذا أراد أن يتمتع في حياته، غفل عن جميع الحقائق البديهية والأولية التي فطره الله عليها، ونسى أو تناسى تلك الحقائق. بل قد تجده يتفنن في أساليب تِبْيَانه إياها ثم تجده لا يرضى بالحياة هكذا، أنه في حالة من السأم والملل فيهرب

إلى أن يغير شكل الحياة تماما. فيبحث بكل طاقته لإكساب الحياة طعومًا مختلفة وألوانًا متعددة، لأنه يريد أن ينسى أو يتناسى فتجده ينتقل من بلد لأخرى، ويرحل من هنا لهناك ثم لا يستقر. ويجرب أطعم مختلفة، ويزين بيته بجميع أنواع الزينة والزخرفة ليتلهى بها ويتناسى بها وهذا كله من اللهو أو التسلية والترفيه. فيُلهي نفسه بأن يخرجها من جو الحقائق والمعلومات، بإغفاله لها، ليحقق قدرا من الراحة، وليبعد عن فكره شيء مما يعلم، بل لعله يتيقن حدوثه فتتلهي النفس وتنشغل بذاك المحدث الجديد عن الأصلي الثابت، فتنخدع وراءهُ قاصدة لهذه الخُدعة. تمامًا كالذي يفقد عقله بنفسه بشرب المخدر أو المسكر، فهو يتعاطاه وهو مدرك تمام الإدراك أن ما يأخذه يتسبب له في فقد لجام العقل والتمييز الصحيح والحكم، فيأخذه ليدخل في عالم من الهلاوس والخيالات محبب إليه.

أمَّا عن المباحات التي شرعها الله للإنسان في الأرض أن يتمتع بالمال والأهل والولد، والله عز وجل يقول " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق " .

وكذلك قوله تعالى " يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالًا طيبًا"

وأيضا قوله سبحانه " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين"

فالأصل في المأكولات والمشروبات والمعاملات بين الناس الإباحة والحل ما لم يأتِ دليل من الشارع على منعه وتحريمه . وأعظم الكذب أن يدعي المرء تحريم ما أحله الله لخلقه، فيقول تعالى "وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إن الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ"

وكذلك قوله تعالى "إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ"

بل على المرء أن يغني نفسه عن سؤال الناس وطلب ما في أيديهم، بل عليه بالعمل والكسب والتجارة والاشتغال بما يكفيه حاجات نفسه الدنيوية، وما يجعله المُعْطِي والمُنْفِق والساعي على كل خير وفضل، فيطلب المعالي ويأخذ في ذلك أسبابها ويطرق

طرقها واليد العليا خير من اليد السفلى، وفي كل خير فعليه أن يسعى في الأرض ويسلك شعابها ويطعم من رزقه تعالى، وألا يجعل من نفسه ومظهره وصفاته مدعاة إلى السؤال والطلب فبدلا من أن ينطق لسانه بالشكوى والسؤال، يجعل ملبسه وزيه ينطق بذلك فيرثى لحاله ويطلب الإعانة له على إصلاح أمره لذلك فالمطلوب منه السعي والكد والعرق، لا أن يترك الدنيا بجسده ويتورع ويزهد – وإن كان لا حرج في هذا بشروط بعينها – فليس الزهد هو زهد الجسد والمكان، وإنما الزهد والتورع حقيقة هو زهد القلب، والعمل يصدق ذلك أو يكذبه.

وكم رأينا من أمثلة كثيرة لأناس امتلكوا الدنيا وكانوا من أهل الزهد والورع من كبار الصحابة وصغارهم ومن كبار التابعين وصغارهم ومن الصالحين ومن تبعهم على صنيعهم.

فلن تجد آية واحدة في كتاب الله تأمرك بترك الدنيا كلية، وإنما تحذرك منها وتخبرك بحبائلها ومكايدها وأشواكها، وإنما أمرك أن تجعل خلو القلب منها، فتجد في موضع في كتاب الله "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " وكذلك قوله "وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" .

وفي الحديث " إن الله لا ينظر إلى أجسامكم أو صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"

فالعمل في كل شيء إنما يكون مبدؤه من القلب، الذي هو نية العمل ، وكل ابتداءه منه فلا خروج للعمل إلا بالمرور عليه، لذلك يقول تعالى "إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ". وقال إبراهيم –عليه السلام– "لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" .

فالقلب هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد في الدنيا أن يغير ما فيه إلا أنت، فقد تجبر بالقول، بأن تقول كلامًا لا تعتقده أو لا ترى الصواب فيه أو تخالفه بكل بساطة ، وبالفعل بأن تجبر على فعل من الأفعال أنت لا تراها صحيحة أو تخالفها منهجًا وفكرًا وليس الكلام على جواز ذلك من عدمه وإنما وقوع القسر والإجبار

فيه من عدمه، أما القلب فلا يستطيع أحد أن يجبر قلبك على أي شيء، ولذلك قال تعالى "إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ" وانظر إلى المغايرة بين اللفظتين وبين تداعيات كلا المعنيين، وبنظرة مقربة بعض الشيء كأنك تشرح اللفظتين وتخرج منهما كل ما يمكن أن يؤيد سياقهما، فالأولى فيها إكراه وعنف وجبر، وإتيان للأمر بكل وسيلة لا تُقبل وترفضها العقول السوية، وفيها كذلك إكراه جسدي بالضرب والتعذيب والتنكيل أو إكراه معنوي بالإهانة والاحتقار والانتقاص واتِّباع الحيل الشيطانية النفسية في ذلك.

ثم انظر إلى عكس ذلك تمامًا، والاطمئنان أو السكينة والرضا، وهو يشعر عن تذوق لذة أخرى غريبة تجعله في وسط كل ذلك الضجيج يطمئن، وقلبه مطمئن، فقلبه في حالة سكون نفسي وعلو إيماني وسكينة قلبية تجعله خاشع لذلك النداء الإيماني.

لذلك كان معيار العمل عليه، لأنك قد تفعل كل الصالحات وقلبك مشغول عنها غير مستحضر لها الاستحضار الحقيقي، وقد تفعل الشيء من العمل المضر مجبرًا عليه، ولكن قلبك رافض له فتنكره نفسك حينما تأتيه وترفضه.

وبذلك تفهم كثيرا من غوامض الحياة، وانفصال العمل بين الإرادة الخارجية والإرادة القلبية، حينما يحدث لدى المرء حالات من الألم والعذاب النفسي، وقد تسمى ذلك بعدم الاتساق مع الذات بين ظاهرك وباطنك، بين ما أنت تفعله وما أنت تريده حقا، بين ما فرض عليك في نفسك وفي حياتك سواء كانت الشخصية، العملية، العلمية، الاجتماعية، وبين حقيقة ما تريده أنت في ذاتك وما ترغبه في نفسك، بين الصورة التي تمليها عليك ذاتك وقلبك ، والصورة الأخرى التي تخبئها لك الحياة، بين كثير وكثير، تجد أن كله انفصال بين الذات والواقع، انفصال حقيقي بين ما أنت عليه حقيقة، ثم بين ما أصبحت عليه، هكذا دواليك.

حتى إنك تجد تغير هذا القلب مرورًا بالمواقف المختلفة بين الألم والحزن والسعادة والسرور، وبين فعل الخيرات والعلو في الروحانيات من إتيان الصلوات وفعل القربات

و... و... فتجد قلبك مشحون بالإيمان، وتشعر حقيقة كأنك تكاد تلمسه أو تشعر بتحركه أو تشعر بنوع من الحلاوة الإيمانية بلذة عجيبة.

وبين إتيان المحرمات وفعل المنكرات تكاد لا تشعر بهذا القلب، كأنه ليس موجود أو كأنه كتلة سواد قابعة في صدرك، لا تَبِين ولا تتحرك. ما تشعر إلا بالألم القلبي أو النفسي داخل تلك الحجرة المظلمة التي يطلق عليها القلب، لذلك كان هذا القلب هو محل نظر الله تعالى، لأنه المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، لأنها أغلى وأطهر شيء يمتلكه الإنسان في نفسه إذ خشوعه يتم به، إذا روحانياته كلها تتم به، إذ شروعه في أعماله يتم به، إذ منشأ الحب والكره والشعور منه، ناهيك عن حفظ القلب لكل ذلك في ذاكرته، ثم أنه لا يستطيع أحد أن يسيطر عليه إلا بأمرك أنت وبإرادتك أنت. والله -عز وجل- يريدك أن تأتي إليه بإرادتك الحرة وبرغبتك الذاتية، ويريد سبحانه وتعالى أن تخلص هذا القلب له هو، وانظر لقصة إبراهيم -عليه السلام- لما امتحنه ربه بذلك في ولده إسماعيل، ابتلاه لا للذبح وإنما ليُخلصه من جميع تعلقات القلب لغيره، من التعلق بحب شيء في الدنيا وصرف القلب إليه محبة له، فابتلاه ليجعل تعلقه الكامل به وحده لا إلى أي شيء مما سواه، وانظر إلى اللفظة القرآنية "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" أسلم هو وابنه لربه بقلبه وجميع جوارحه فأصبح كله ملك له، أعطى نفسه ليقدمها بين يدي الرب لا كرهًا أو جبرًا، وإنما يقدم نفسه محبة وتعظيمًا، وهو في كمال الذل له وقلبه في تمام التعظيم والحب والتقديس له.

ومن ذلك نعلم شيئين، الأول: أن العبادة لله -عز وجل- محلها القلب ومنبعها، وتكون خارجة من الجوارح محبة لله -عز وجل- وتعظيمًا له سبحانه، وأنت في كمال الذل له تشعر بكمال الفخر أنك تعبده هو وتدعوه هو لا غيره، والثاني، أن الأمر في الدنيا إنما هو مبني على القلب، امتلك ما شئت من الأموال والأملاك والثروات، بل كن

من الأغنياء الكبار، ولكن اعلم أن لهذا المال شروط في كسبه وإنفاقه، بأن تأخذه من حِله لا من محرمه، ثم تنفقه في مصارفه التي شرعت له ثم أهم شيء في ذلك أن يكون تحت طوعك فتتصرف فيه، لا أن تكون أنت تحت طوعه فيتصرف هو فيك، ثم يهلكك.

✍ **وما أجمل قول المعري حينما قال:**

رُوَيدَكَ لَم تَبلُغ مِنَ الدَهرِ لَذَّةً إذا لَم تَعِش عَيشَ الغَبِيِّ المُذَمَّمِ

فكيف يستطيع المرء أن يتمتع بحياته حقًا، إذ علم أنه سيموت، وهو مدرك ذلك حق الإدراك ومن سيموت لابد مسئول على كل صغيرة وكبيرة، وكل صغير وكبير مستطر "مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ"، "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ × وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"، ومن الذي سيسأله الذي يعلم السر وأخفى، الذي يعلم مكنون الصدور وخفايا القلوب، الشاهد على جميع أفعاله، كيف يستقر قلب من علم أن المصير إمَّا إلى جنة وإما إلى نار، وكيف وقد ذاق شيئًا من النعيم يسير وما قدر على أن يتخلى عنه وتعلق قلبه به، وقد رأى يسير عذاب ونار في الدنيا وما قدر على أي شيء من هذا العذاب، ولا صبر على احتماله ولا طاقة له على معاناة ألمه، كيف الحال برجل سيقف بين يدي ربه يكلمه ليس بينه وبينه ترجمان، ماذا سيقول؟ كيف سيتصرف؟ كيف...؟ كيف؟ كيف يتحمل قلبه كل هذا؟!!

ثم كيف وقد درس تاريخ الأمم والبلدان وعرف أحوالهم ودرى بما جرى لهم منذ مطلع التاريخ حتى الآن، والناس لا يستفيدون بكل تلك الثروة الهائلة المعرفية البشرية ممن سبقهم، ولم يتعظوا بها، ولم يأخذوا الدروس والعبر التي تفيدهم في حياتهم. وحياة هذا الأمم السابقة هي ملفات مطواة من التجارة البشرية الفنية، التي سيجد كل أحد فيها بغيته، ويتعلم الدرس الخاص به الذي يريده حقًا في حياته الواقعة وما الماضي في حقيقته، إلا أنه كان مستقبلا لمن مضوا وفنوا ويحمل تكهناتهم وآمالهم وتوقعاتهم، وكيف مضوا في حياتهم وكيف عبروا بأحزانهم وآلامهم إلى بر

للنجـاة وماذا فعلـوا و... و... كأنه حدث دراسي يمر أمام عينك، فتشاهده كأنك كنت فيـه وحاضـرًا له ثم تستدعيه إلى حاضـرك ليؤنسك، وليكون رفيقًـا لك من الأعصر المنصرمـة. ثم ما حياتنا هذه التي نعيشها إلا وستكون لأجيال بعدنا شيئًا من الماضي، ولهـم في هذا أمريـن إلا أن يتعلموا منها ويأخذون جيدها ويتركـوا سيئها، أو لا يلونها أهمية علـى الإطلاق، وليعيشوا نفس الأخطاء التي كـررت في الماضي بنفس الأسباب، ويذوقـون نفس النتائج لذلك قالـوا السعيد من وعظ بغيره، والتعيس من وعظ بنفسه، ومـا التاريـخ في حقيقتـه إلا أفعالًا بشريـة والأفعـال بطبيعتها متكررة معـادة لتشابه الصفـات بين البشر، وعدم اختـلاف المشاعر والطباع فهي نفسهـا منذ خلقت، ولكن يقع التغيير في البيئات والمجتمعات بين تخلفها وتطورها، وما حل بكل زمان بما يلائمه وبكل مكان بما يناسبه.

قد تكون زيادة الإدراك في ناحية من النواحي لهيب مستطير، يعود لظاه على المرء في أشكال متعددة، بل لعلنا نقول إنه من الرحمة بالمرء أحيانًا أن يغفل، أو ألا يعلم وألا يفهـم وألا يدرك شفقه به وإحسانًا له. فحينمـا يتضح كل شيء أمام المرء يعيش مثقل بمـا عرف، لأن كل مـا علمه له واجب نحـوه ومسئولية تجاهه، حينمـا يتضح كل شيء أمام ناظره يرى كل شيء بغير العين الأولى، فيورثه ذلك تغيرًا لنمطه العام في الحياة، كل شـيء يتغـير ما عاد الذي يرضيـه يرضيـه الآن، انتقلت لذته وسعادتـه من أشياء معينـة إلى أشياء أخرى أصبحـت الآن ودعني أقول ذلك، يحتقر ما كان يؤديه من قبل أنـه شخـص آخر، لم يعرفه الجميع بعد، أنه حالة جديـدة من تغيير الفكر واستبصار النفـس أنه حالة تعلو علـى كثير من الأشياء الأخرى. وقد تـورث تلك الحالة الجديدة مزيـدا مـن الآلام، لتغيرها لإلف ما اعتاده، ثم مصادمـات مع ما كان يزاوله من قبل، لانقلابهـا عليها ومعادته لهـا، أو لنقل على الأقل عدم اتباعه لهـا كسابقه، فكأنه الآن في حالـة عـداء مع ما سبق، أو في حالة من الإنكار لنفسه لما طبعت عليه كل هذه الفترة

الطويلـة، ثم أنه لمجانسة تلك الحالة الجديدة للمجتمع القديم، الذي رآها فاستنكرها أول الأمـر، ثـم تقبلها على مضض، أثر آخر. ناهيـك عن تأثر نفسه حـال استراحة وفتوره، من استثقاله لما حمل، وحنين لما ما قد مضى من اللهو واللعب، ناهيك عما إذا كان هذا حمله وحده، يتقلب به ليلا ونهارا، بكرة وأصيلا، فلا أحد يأخذ بطرف نفسه، ليأخـذ ممـا استثقل عليـه، فتطيب نفسه لـه أو به، فهو بين فكر بالليـل والنهار، انظر مثلًا – حالة أخرى مغايرة لما سبق – لمن خرج من طور الصبا إلى مرحلة الجد والتعب، من حالـة الاطمئنان والراحة إلى حالة القلق والكدر. حينما تكون لديه من المسئوليات الشـيء الكثير، فهو عنده أمر كذا وكذا وكـذا، كأنه في طاحونة من الفكر المحصور في قيد بعينه. حصر الفكر كله في قيامه لكذا وكذا، ثم أنه يحمل من الهم والنكد بقدر ما فقـد أو خاف فقد الاحتياجات الأساسية التـي يريدها. ثم تكون راحته في رقدة يطرح بهـا نفسه على مضجعه. وكذلـك الإنسان الذي شغلته الحياة فقط في جوانب محدودة فهو يتحرك في رحاها، فلايخرج عن حيزها، ولا يفارق إطارها، فهو موثوق بها مقيد، وكل هـذا وخياراته في الأمور محدودة مقيـدة، بقدر ما قيدت به مطالب حياته وشئون يومـه، إلى أن تعظـم هذه الخيـارات وتكثر، وكأنها تصيبه بلوثـة في عقله، فيخرج بها عـن حيز التفكير المتبع والسياق المعهـود، ليأتي بالأمور على حقائقها فينظر أصلها ثم يضمهـا إلى شبيتها ليخرج منها بأصول ثابتـة أو متحركة بقيد لمجموعتها . ثم يحاول أن يجد لمخالفها رابطا معنويا يحكمها ويضبط إطارها ويحدد معناها ليصبح الوجود بكليتـه، مرتبطا عنـده بمعان قليلة، كل معنى فيها يحمل جهـد نفسه، واصطبار روحه ومعانـدة طبعه، إنه يعبر بهـذا الكليمات عن تجارب أمضاها مـع ذاته ليسبر غورها، وليرى الوجود بكليته فيها، فتبرز له من المعاني في باكورتها فيفتض أبكارها.

ثـم انظـر إليه حال كونه قبل الأمر وبعده، كيف كان تصـوره وفكره وإدراكه وكيف تغـير؟ وهل تغير حاله للأفضلأم غيره ؟ وهل أصبحـت نظرته للأشياء وللحياة ذاتها

هـي نفسها، وإذا تغيرت هل هو تغيـير ذا أثر واضح؟ أم هو تغيير ضعيف لا يكاد يذكر له أثر أو يحكى عنه اختلاف؟

بل انظر إلى حال صاحب التجارب الكثيرة والمواقف المتعددة التي أثرت عليه أولًا، ثـم علـى كل شيء في حياته. بل حتى تجاوز ذلك إلى غيره من دائرته الاجتماعية، وأنا لا أتحـدث عـن هذه التجارب بوصفهـا إيجابية أو سلبية أو أيا مـا كانت، ولكني أحايد طرفهـا في أنها أورثت إدراكًا آخر غير الأول الذي كان ملازمًا له، سواء كان أثره نافعًا أو ضارًا، مفيدًا له ولمن خالطه أم كان وبالًا عليه وهلاكًا.

تخيـل معي إنسان، لديـه خاصية عجيبة، وهي إدراك ما فـوق الطبيعي، أو لعلها كمـا يدعيه بعضهم "حاسة سادسة" وهي في أصلها إدراك زائد عن الحد، ولكنه ليس إدراك شخصـي بـل تجاوزه إلى أنـه أدرك إدراك الغير، فلديه شعـور حدسي أو لنقل مثـلًا هو شعور يقيني بمن يحبه ومن يكرهـه، من يكيد له المكائد وينصب له الأفخاخ، علـم كل شيء عن الأشخاص المحيطين به، بل وغير المحيطين به، عرف ماذا سيفعلون لـه وماذا يخططون لأجله، وعلم جميع أنواع شعورهم من أقله إلى أشده، فهم كل ذلك وأدركـه تمام الإدراك، لك أن تتخيل كيف تكون حياته؟ وأترك ذلك لتصورك وخيالك أنت، كيف يكون حال هذا الشخص؟!

حينمـا يجـاوز إدراكنا حدودنا المعهـودة أو المألوفـة لنا منذ نشأتنـا، تنتابنا حال جديدة كأننا شخص آخر، لم يولد بعد إلا في تلك اللحظة، ولم يستفق بعد إلا على أول أنفاس ذلك الوعي الجديد، ولكن دعني أتساءل أولًا عن شيء في طبيعة هذا الإدراك، أليس الإدراك هو الإدراك فلا يوصف بزيادة أو نقص أو بقوة وضعف. أولًا تقع الزيادة والنقصان في إدراك الشخص نفسه، ولا علاقة بذلك لحقيقة الإدراك وطبيعته. وإنما مـا هو المقدار الذي تشرَّبـه ذلك الشخص من نهـر الإدراك. فالكل يغترف منه ولكن نصيـب هـذا ليس كنصيـب ذاك، فمنهم من يغـترف غَرفة أو اثنـين. أو يشرب حتى

الامتلاء والري، أو يلازم ذلك النهر فلا يفارقه أو يغادره. ثم بعد، هل يقع في الإدراك شر أو خير، أم هل هذا الإدراك مدعاة للقلق أو مجلبة للخير الإدراك في ذاته هو حقيقة من الحقائق الواضحة في الكون. ولكن يقع الخير أو الشر في نتاج فعل الإنسان بهذا الإدراك، ونتيجة لتصرفه هو به، فأنت لا تستطيع أن تصف الإدراك بالخير أو الشر . وماهو إلا معلم من معالم الوجود والإنسانية، وهو كحقيقة مجردة لا يوصف إلا بأنه قيمة هامة جدًا في الفهم وأداة لا يستغنى عنها للحياة، وقد اتصف الإنسان بأنه كائن مدرك واعٍ فكان الحكم هنا على أثر الإدراك على المرء من حيث تصرفه هو، لا من حيث الصفة نفسها كخيرة أو ضارة فالحكم في كلٍ إنما هو واقع في نتاج فعل الإنسان بهذه الصفة أو توابعها.

وزيادة الإدراك ونقصه في كلامنا، ليس لنقول إن الإدراك فيه زيادة ونقص وهكذا، وإنما هو مرتبط بالزمن والوقت والجماعة الموجود فيها، فقد يكون زيادة الإدراك لشخص ما إذا ما قورن بشخص آخر، فيتضح أنه ذو إدراك ضعيف، أو إدراك واهٍ . ثم هنا فرق في الإدراك في نسبة الناس بعضهم لبعض فكل يدعي لنفسه الإدراك والفهم والحق، ولكن ما مدى صحة هذا من عدمه وتحققه من فقده وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون هناك إنسان بلغ في الإدراك أقصاه والفهم غايته؟ يكون هو المعيار الذي يقاس عليه البشر كأعلى مثال وجدوه، وهذا أيضًا ليس مقصود الجماعة البشرية في كليتها وجميعها، وإنما في أفرادها وعناصرها وهذا لاختلاف إدراك الفرد عن إدراك الجماعة في كليتها، وهذا يختلف من حيث عوامل عدة ثم كيف أنه يختلف من شخص لآخر ومن زمن لغيره، فإدراك الإنسان البدائي ليس كإدراك الإنسان في أول عصور التاريخ، وليس كإدراك الإنسان في العصر الحديث، وتجدني أشير إلى كلمة الإدراك في كل واحدة، لأن الإدراك واحد، ولكن الإنسان يختلف عليه زيادة ونقصًا في الأخذ منه والغرف من معانيه.

كم من الأشيـاء حجبت عن إدراك الإنسان، وهو يسعى لأن يدركها بشتى الوسائل والمحاولات والطرق، وكان عند إدراكه لها من أتعس الناس أو لنخفف وقع اللفظ قائلين ممـن لم يحالفه حظه مـن الوسائل إلى ما كـان يبتغيه من ذلـك الإدراك بالتحصيل للنجاح والفضل، إلا شيئين بقيا معه ملازمين له ملازمة ظله وهما القلق والألم، ما أن ينتهـي أحدهما حتى يبدأ الآخر، على تنـوع أساليبها وظهورها في أشكال متطورة مما قد يظنه هو نفسه.

ويـا إلهي كم يكـون هذا الإدراك مفرحًا ومسعدًا، بشكل آخـر لم تكن أنت تتوقعه، يكـون فيـه هنا عونك وقيمتك التي كنـت تبحث عنها، يحمل إليـك عروض السرور في شكل إدراك قد يظهر لك في الوهلة الأولى، إن هذا ناقوس الخطر وإشارة الحذر، حتى ينجلـي ذلك مودعًا هذا الإنذار الكـاذب، ويبين لك عن أوجه كثيرة من الحياة لم تكن أبـدًا لتحياهـا إلا بعد إدراك هذا، ونعم، إن هذا يتطلـب عملية طويلة نسبية وقد تكون قصـير، فهي ليست معيارية بحد معـين مضبوط ولكن الأهم أنهـا عملية كاملة ستمر خلالها حتى ستصل في نهايتها إلى مطلبك الأول.

ومن نواتج الإدراك، العمل الذي هو أحد أشكال تشكل الإدراك عند المرء في الفعل، فمبـدأ الإدراك مـن الحس والمشاهدة، ثـم لينضج ويتضح أثـره في الفعل والتصرف. وهو في الحقيقة مجاوزا أثر المعرفة والفكر، إذا الأول معرفة مجردة مبنية على النظر المطلق، أمَّا الثانية هي نتاج أثر المعرفة الأولى مدموجا مع التجربة بوقائعها وأحداثها.

لذلـك أقول إن العمـل هو مقدرة أخرى، وملكـة ثانية تستلزم شيئًـا من الإدراك، ولكن الإدراك ليس شيئًا مباشرا في حدوثه أو وقوعه على الوجه المرجو، فقد يقع العمل دون الإدراك المطلوب من فهم قوانينه ومطالبه.

وليـس كلامنا عن الإدراك الضروري الـذي هو مطبوع في جميع الأذهان والعقول، ومنـه الإدراك الحسي أو الإدراك المكـاني أو الإدراك الزماني، وكل هذا مربوط بحالة

الوعي الضرورية التي تتم بها معرفتنا وعلمنا للعالم الخارجي بكل ما يشير إليه، وهي حالة شعورية . نعم ، تتأثر فيما بعد بناءً على أنماط الفكرة وأشكال التجارب ومراحل العمر وهكذا.

وهـذا الإدراك يكون منشأه مـن العقل في التمييز والمعرفـة والفهم للعالم النفسي الداخلـي والعالم الخارجي المدرك بوسائل الحس المختلفة، والإدراك في هذا قد يؤول بالعلم والتعلم، إذ العلم هو الوسيلة الأساسية في الإدراك الحقيقي، التي من نتائجها، التفكر والنظر والرأي والاستبصار وقوة العزيمة.

وغـير ذلك من كثير شيء، الذي يجعـل العقل في أبهى مراحل اكتماله واستشفافه للأمور والأحداث.

الإدراك الفـردي لا يطلـب فيه الكمـال أو الإحاطة التامة، بل هـو لابد ناقص، إذ يستحيـل للمرء أن يلم جميع أنواع الإدراكات، وكيف يتـم إدراكه بشكل تام كامل، وهو دائـم الزيـادة بالعلم والمعرفة والنظر! أمَّـا بالنسبة للجماعة، فهو أمـر آخر. وفيه أن زيادة إدراك المرء، تسهب في وعي الجماعة بشكل من الأشكال إذا استعمل في ذلك ما يعين على نشرها وإيضاحها للعامة. أمَّا مجرد الوعي الفردي القابع في ذات الشخص، فـذاك ليـس معبرا إلا عـن الشخص نفســه فمبدأ دخولـه حيز الجماعة هـو الإخبار والمشاركـة وهذا بالتأكيد يعتمـد على عدد الأشخاص قلة وكـثرة، ووصول الأمر إليهم ضحالة وعمقا ثم إنه من وجه آخر جامع لحصيلة الأفراد مجتمعين، فيكون هو النسبة الجماعية لأفراده المنطوين تحت مظلة هذا الفكر.

لذلـك يطلـب منها أن تكون متأهبة بـل ملمة بما يمكن جمعه مـن الإدراك، إذ أن التقصـير الجمعي في جمع شتات الإدراك ينبعث أثره على أفراده. لا من حيث تقسيمه بشـكل متساوٍ عليهم، فلا شك أن أفراد الجمع مختلفين في تحملهم قوة وضعفا، ولكن الأمـر هنا في تمازج هذه المجموعـات في كيان واحد، ليتخالطوا، فتنتج بذلك حالة من

التفاعـلات المتشابكة بين أفرادهم، ليُكَونُـوا رابطا من المقاربة العاطفية أو النفسية أو الفكرية، فيصبحوا بمجموعهم مشكلين لهذا الحالة مكونين لها.

ثـم إن كل إدراك يتحملـه المـرء يحـدث له نوعًا مـن المسئولية وشيئًـا من الفطنة والتفكـر، ولكنه يأخـذ من حلم المرء وسكونـه وطيبته وصفاء نفسه وهـدوء أعصابه، ليلبسـه حالـة أخـرى من حالات النفسـ وقد تكلمنا عنهـا وإن لم يضع هـذا في إطاره السليـم ومجراه الصحيح، يولد له نوعًا من الألم والإرهاق لأنه ليس كل أحد مؤهل لأن يتحمـل هذا إلا بعد أطوار معينة وبلـوغ سن مخصوصة. وقد يحدث عكس ذلك أحيانًا أن تجد صغيرًا قد أدرك من أنواع الفكر والفهم وأوتي حظًا من العقل ورجاحة النفس، ممـا قد يسلب ألباب الرجال. وهو في ذلك يكون مـن الأفذاذ الصغار، وإن من البيان لسحرًا. فهو مع حداثة السن إلا أن له من الفطنة والذكاء ما لا قد يمتلكه المسنون وكما قالـوا المرء بأصاغريه قلبـه ولسانه، فإذا كان للمرء قلبا واعيـا فاهما، ولسانا صادقا مفصحا مبينا، فقد حصل على الخير وأتى شطرا من الحكمة. فلا مانع حقيقة من أن يكـون إدراك الصغير واستيعابه أعلى من غيره ممن تقدم به العمر ومضى به الزمن، وإن كـان قليلا. فليس الزمن ومروره شرط في الذكاء والفهم والعلم، فكم ممن مضى عليه عمره، وليس له من العلم والفهم، إلا يسيرا. كم ممن أسرع به الزمان، وتسارعت به الأيام وليس له من حظ الذكاء والفطنة، إلا قليلا. فليس في باب العلم والمعرفة ذُكِرَ وعُرِف، ولا في باب التجربة والحنكة عُلِمَ واشتهر.

والله تعالى يقول " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرا"

فهـي ليست معقودة على سـن معين، أو مكانة مرموقـة أو منزلة عالية فهي توهب للكبـير والصغير والمسـن الطاعن، وإن كان جـزء منها اكتسابي يأخـذه المرء بالتلقي والتعلـم والمواصلـة، وجزءٌ آخر وهبي يؤتيه الله تعالى من يشاء من عباده. ثم إن غالب وجودهـا في الكبير الذي جاوز سن التعلم وحصـل من التجارب . وأتاه الله من فضله،

فجمع من شتات الخير والفضل أعظمه. ثم إنها في الكِبر أكثر منها من الصغر، لأن فيها نضوج النفس وبلوغ الأشد وخلاصة التجارب وحكم العمر.

والحكمة هي جماع الخير، وهي الخير الكثير. وهي وضع الشيء في موضعه، وهي التفكر والتبصر بعواقب الأمور بعد النظر في أسباب حدوثها ومنشأ وجودها، حتى يخرج بنظره الواسع الثاقب قولًا حكيمًا. فالحكمة هي الحكمة لا تزين لأجلها الكلمات أو تزخرف العبارات، لأنها خلاصة المقال وزبدة الكلام وجماع الخير والفضل وهي القول الفصل. لذلك كان من امتلكها امتلك الخير الكثير والفضل الواسع، فلا غرو أن قد بذل في طلبها، وحرص على جمعها، وسعى للحصول عليه.

وما أجمل قول أبو الطيب يصف تلك الحالة المصاحبة للإدراك والفهم، من ذهاب كثير من الحلم والصبر.

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت ... مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي

فما الحداثة عن حلم بمانعة ... قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

يتمنى بأن يشتري ما باعته إياه التجارب من الحكم، واشترت منه وكان مهرها غاليًا فأخذت من حلمه وهدوئه وراحته، ثم طلب ردّ الصفقة فما طلب زيادة أو علوا في الثمن، ولكنه طالب من الحوادث مقايضة العدل، بأن ترد إليه حُمرة قلبه وراحة فؤاده الذي أخذته بإعطائه التجارب والحكم، فتجعل سعرها غير الحلم والأناة، أو ترد الصفقة مطلقا. وياليت ذلك في إمكان! ثم يسأل نفسه قائلا، لست والله ذا خسران، إذ لو أنها ردت على حلمي وأناتي وراحتي وكنت حينئذ في مقتبل العمر وفورة الشباب، فلن أكون فاقدًا للحلم والحكمة، إذ لا مانع من تواجدها في الشبان والشيب وفي الفتوة والهرم.

وهنا يجدر الإشارة إلى أمر هو غاية في الأهمية، وهو الغفلة والتغافل والغفلة هي حالة تصيب النفس من عدم الإدراك والفهم، كأنه لا يدرك للشيء وجودًا خاصة به، أو كونًا يكون فيه والغفلة غاية في الشر والخسران، إذ الغافل فاقد لأمور الحياة

الحقيقيـة تائـه في نفسه، مشتـت في إدراكه، ضائـع لا يجد برًا يرسـى سفينته فيه أو جانـب يركن إليـه أو بر يحط عليه، فيكـون في حيرة لا منتهى لهـا، ولا يخرج منها إلا لمـا أوسـع منها وأعظم. وإما هو في غفلة تامة عن الأمر، بمعنى إدراكه من الأصل، فهو لا يشعـر بوجـوده، ولايعلم بحقيقته، فهو في جهالة عـن ذلك وقد يكون يعلمه به مدرك لوجوده غير أنه إدراك بسيط، لا يغني ولايسمن من جوع، فلا تتم به المعرفة اللازمة ولا الإدراك الواضـح التام، فهو في حالة التباسـ من الأمر، من حيث جمعه لبعض طفيف عنه، فلم تكتمل عنه فكرة، ولم يتضح به معنى.

فهو في حالة من الحاجة والاضطراب فتجد نفسه تبحث يمنة ويسرى عن أي شيء يقنع تلك النفس الباحثة عما لاتعلمه أصلا. هي تبحث لأن في داخلها رغبة دافعة إياها إلى البحـث، لكن هذه الرغبة لم تكتمل بالوضوح التـام حتى تُعلم ظاهرة، فهي تبحث عـن أي شيء يشفي غليلهـا ويكظم غيظها ويهدأ روعها، فيكبـت تلك النفس المستعرة المطالبـة بالمزيـد في كل شيء. حتى أنه يقنـع إذا رأى سرابًا أو خيالًا لا حقيقة له إلا في نفسـه المزينـة له، وقلبه المراود لذلك، وخياله العقلي يحثـه ويأمره ويأزُّه على ذلك أزّا فيندفع اندفاع الحيران العطش الذي رأى الماء أمامه، فأقبل لاهثا إليه. فالغفلة تقنعه بـأن مايراه صحيحا، ولو كان زورا باطلا، فإذا ما قذف إليه أحدهم برجم الغيب قولًا زائفًا وأقنعه به وجادله فيه حتى استشربه. فتجده هو وقد أصبح المجادل عنه والمدافع لـه، والمنبري في سبيله، فأصبح يرى النور الخافت مـن المصباح يظنه ضياء الشمس، وقد صدق أبو فِهرٍ الأستاذ محمود شاكر حينما قال، -

انظري ياريح ذا القبسَ الوهاجَ. قد راوغ الفناء اقتدارا!
عاش تحت الأطباق دهر فدهرًا، يتلوى بثقلهن انبهارًا
كلما رام منفذا ردَّدتُه في ظلام الأعماق يعنُو صَغَارا
لم يزل دائبًا. يُنَقِبُ ملتاعا، ويحتال في صفاها احتفارا

صَدَعَ الصخرة الململمة الكبرى، وأَسْرَى حتى نما فاستطارا
ورأى نوره فجن من الفرحة. أعمى رأى الظلام نهارا!
أي شيء هذا؟! وماذاك؟! بل هذا؟! وزاغت لحاظه استكبارا
قد رأى عَالَمًا مهولا من المجهول، غشاه نوره فاستنارا
ليس يدري: أم عِدّي. أم صديق؟! أيبينون لو أرادوا حوارا؟
أم صموت لا ينطقون، ازدراء لغريب عنهم أساء الجوارا؟!
واغل يعتدي. يُسائل عن أسرار خلق أجلَّ من أن تثارا!
كيف غرته نفسه؟! كيف ظن الغيب يلقي لثامه والخِمارا؟!
أمل باطل. فلو أسفر الغيب لأعمي بنوره الأنوارا!

هـذا الذي عاش في دركات مـن الظلمات بعضها فـوق بعض، بعيدا عـن الضياء والنـور، يتلـوى بثقـل طبقات الظلام على كاهلـه فتجده يبحث وينقـب دائبا لا يكل في تفتيشه عن الضياء، حتى إذا نقب صخرة بعد أن احتال لذلك ودَبّر، ثم رأى نوره فجن مـن الفرحة، كأنه أعمـى رأى الضياء. ثـم زاغت لحاظه ونظراته مـن هول الصدمة وشدة المفاجئة، فظن أنه استنار بهذا الضياء.

رأى عالمـا مهـولا من المجهول، ولم يكن يعلم منها شـيء فاستنارا به وهو في حالته تلـك لا يـدري أم أعداء لـه أم أصدقاء، أهل يحاورونه محـاورة طالب للمعرفة وراجي الحق فيبينون كل شيء على حقيقته فهو غريب عنهم لا يعلم شيئًا.

وكما قال زهير :- ومن يغترب يحسب عدوا صديقه

فالغربـة بها نوع من الغفلـة، إذا هو لا يدري شيئًا عما حل فيه من المكان، أو القوم الذيـن نزل بهم والغربة من اسمهـا، فيها نوع من الاستغراب والغرابة لمخالطته لقوم لا يعلمهـم ولايدري عنهم شيئًا، وكذلك لاستغراب نفسـك حولهم، فأنت تهجر ما ألفته، لتدخـل في عـادات أخرى أنـت غريب عنهـا، لتزاولها مجـبرا، فتأخـذ نفسك بتغيير

طباعـك، ومسايرة نفسك لما حلّ عليـك من المستجدات النازلـة، فتأخذها بشيء من الهـدوء والاستقواء حتى تجاوز النفس مرحلـة استغرابها واستنفارها لها حال رؤيتها. لذلـك كانـت الغربة، فيها جهالة لهذا الشيء الذي أنـت مقدم عليه، وليس الجهل هنا عـدم العلم فقـط، بل هو عدم الإدراك الكامل،والإنسان عـدو ما يجهل . ثم تزال تلك الغربـة بشـيء من المخالطة والألفـة والاستئناس، حتى يزول هـذا الاغتراب، فيصبح لا شـيء غريـب عليه، كأنه بيـت ثان له فيألف ما كـان يعاديه حال وجـوده أول الأمر، ويصبـح الغرباء أصدقاء وأصحاب، وتصبح أماكن الغربة والألم مواطن اللهو واللعب. فينتفـي عنه مفهوم الغربة شيئًـا فشيئًا، ليصبح مستوطن لدى أهل البلد، فهو قد علم عـادات أهلهـا، وألفها، بل لعله أحبها، فدرس لغتهـم وأجادها، وعرف كيفية خطابهم وحوارهم، فأصبحوا يحادثونه، وكأنه واحد منهم، فلا يشعرون بغرابة في لغته أو حواره أو مجلسـه، ولذلك فالغربـة متعلقة بالبُعد والجهالة، فقد يكـون الإنسان في وطنه، بل في بيتـه وغريبا عما حوله، لا يألفـه ولا يألفونه لا تجمعهم به رابطة الاستئناس والمودة وقـد يكون الإنسان مهاجـرا أو مسافرا لدولة ما، وهو لا يشعـر بالغربة فيها، إذ لا أثر عنـده لمفهـوم البُعد فلم يشعر أنه ابتعد كثيرًا، بل لعله يشعـر بشيء من الألفة، ما كان يزاولـه من ذي قبل، فالغربة ليست فِراق بيت وأهل فقط. فالغربة في أن تفارق النفس طمأنينتهـا وهدوئهـا، فتستغرب الجسد وتتكـره في أن تستغرب حالهـا ومكانها، وهي فيـه منذ نشأتها واشتدادها في أن تستغرب كل شيء حولك، حتى يعد كل شيء غريب. حينمـا يصبح وطنك وبيتك غربة، وتصبـح نفسك هي الوطن فتستوطن نفسك هروبا مـن غربة ما حولك، وتلوذ بالفرار لذاتك، تاركا ما ألفه قومك ومجتمعك فأنت حينئذ لـك نسبة ثانية، نسبـة راجعة إلى ذاتـك، إلى نفسك، إلى حقيقة ما أنـت عليه، لا ما هـم عليه، ولا ما هم يريـدون. إنها نسبة وجودك وانتماءك لوطنـك، الذي ينمي فيك كل لحظـة، ليتضخم، حتى يملأ عليك وجودك، ويكفيـك نفسك فيكون مصدر أمانك ومأوى فزعك، وملجأ هربك نعم، حينما تصبح أنت هو الوطن.

الغربة كذلك كأي صفه من الصفات التي تستعمل في لغة قوم ما، يتواصلون بهما فيما بينهم. فلها معنى مستعمل قريب، ومعنى يشتق منها، معنى يستلزمها ويتعلق بها وليست الغربة عن ذلك ببعيد، فالمتعارف عليه أنه ما ليس من أهلك ووطنك وليس ضمنك معارفك. فهذا ما قد يفهم من مدلول كلمة الغربة أو الغريب، حين سماع، وهو ما استغربته عن نفسك وبيتك وأهلك، وأنكرته فلم تضفه لذاتك، ولم تعلقه على نسب أو قربى أو معرفة. والغربة قد تفسر بعدة تفسيرات، كل منها له مدلوله الخاص الذي يشير إلى نوع معين خاص بها، ومنها مثلًا مكانية أو زمانية أو ثقافية معرفية أو نفسية عاطفية أو حالية مؤقتة. وقد يقصد بها غربة القلب، وغربة النفس، وغربة الأفعال، والتصرفات، وغربة الناس في أوطانهم، فيعيش في وطنه وهو غريب عنه. وهم حينما عرفوا الوطن، جاءوا له بصفة مكانية وهو مكان الولادة والنشأة حيث كبرت وترعرعت، حيث تشاكلت مع قومك وتشابهت من حيث اللغة والثقافة والعِرق. فهي معرفة بمجموعها، لا من حيث أفرادها وصفاتهم ومطالبهم، فهي أغفلت ذلك كل الغفلة، وإنما رعيت اجتماع الجماعة من حيث الصفات المتشاركين فيها والمحددة لهم، والمميزة لهم عن غيرهم. ولذلك فالوطن هو الذي جمع أقوام شملهم صفات مشتركة، وكانت لهم لغة أصلية يتواصلون بها فيما بينهم، ولديهم حضارة وثقافة واحدة أو متنوعة وتحدث الغربة في وطن. حينما تتبدل التعاليم والمبادئ المسلم بها مثلًا، وهو أحد أنواعها، إلا أنه طارئ عليها، ناشئ من تجدد العلاقات والحوادث والأشخاص. فتغير الثقافة غربة لشعب ما، تغير المبادئ والمسلمات غربة لأصحاب العقل والفهم. تغير الهوية غربة لأصحاب العقائد والشعائر. فيحدث نوع من الجفاء والتباعد بينه وبينهم والنسبة هنا مجازية مكني بها عن الأفراد، حينما تتبدل القيم الثابتة والمضامين المتوحد ضمن منظومة متكاملة من صفات قوم أو شعب، ليظهر هذا النوع من الغربة يحياها الفرد المتزين بالمبادئ الأولى، كأنه غريب عن بني جلدته،

متنافر عنهم، يتمايزون عنـه بالحداثة المغيرة لكل شيء، ويبين عنهم بالأصالة واتِّباع النسـق لا التقليدي ولكـن الإبداعي، ولست بصـدد إيراد هذا، ولكـن الكلام ذا نسب وقربـي فتفرعـه لأنه كثير الشِعـب، وكل منها يؤدي لصاحبه ويصـل أخاه وجميعها في بوتقـة واحدة، وهـي فقط للتوضيح والبيان. فالغربة هي موضـوع بحد بذاته له شِعابه الكثـير. وأوديته المتفرقة والطريق إليه محفوف بالمكاره، مصاحب للقفار، فاكتفى فيه بإيراد النسبة الكلامية بين الغربة والغفلة.

الغفلة شر مستطير فما ذكرت إلا والخير والنفع متنافر عنها مضاد لها وماذكرت إلا وانتفاء العلم وسلوك الجهل أحد أسبابها، وما انتسبت إلا وكان الهوى واتِّباع النفس والشهـوات أقاربها وأنسابها. وما ذكر صاحبها إلا وذم بكل أنواع الذم واستوجب الألم والعقـاب والنكال بـل وما حمد متصفها قط فهو ما بين سـيء وأسوء، وشر وأشر. وما دعـي أحـد إليها ومـا نودي بها في أي سـوق إلا كان سوق كساد ومجتمـع ضلال ونادي فساد بل كان الخلاص منها أحد أسباب الراحة والطمأنينة والنجاح، وحمدها هاربها الساعـي إلى طلب الرشاد ومنـح الوداد فشكر سعيه وسمع قولـه، ونودي في الناس ألا هلمـوا إلى أهل العلوم والعالمـين المستبصرين الذي يضيئون ما خفت واندس، ويقيمون مـا اعوج ويصلحـون ما فسـد، أولئك هم أهل العلـم والممدحين في كل زمـان ومكان، الفاضلون فوق أي أرض وتحت أي سماء.

وسيئات الغفلة وما ينبعث منها من روائح وصفات أخرى متعلقة بها، صادرة عنها كثـيرة، فالمحزن في الأمر أنه لا يكاد يتصف بصفـة واحدة، التي هي هنا الغفلة مثلًا، بل يتصف بعدد من الصفات تابع لها وذلك لأن كل صفة من الصفات لها توابع أخرى، متعلقـة بها محمولـة عليها فتجر وتهدي إليهـا وبسلوك الطريـق الأول الذي حمل من دروب الباطـل مـا لا يخفي، فالغفلة تورث العنـاد والكذب والنفـاق والتحايل والخداع وقـول الباطل، هذا لأن سُبُلَـه متشابكة وأرضه وحلة. ما أن يلـج في أولها حتى يرتع في

حماهـا، ولعل هذا يكـون بغير رغبة منه، وإنما يظن ظنا بديهيـا أنه سيفعل هذا فقط ولـن ينجز غيره ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهـي السفن، فيكون هذا هو بداية الطريق وأول السلسلة لينفرط العقد وتتساقط حباته واحدة تلو الأخرى. وقد أحسن القائل:

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها وتولى رعيها الأسد

ولذلـك فالسيئة الواحدة، سيئات كثير متلاحقة عنهـا، متابعة للأولى في إتمامها وحيل الشيطان متكاثرة، فما أن تنتهي من الأول حتى ترد عليك الثاني ثم الثالثة وهكذا دواليـك. فالإنسـان إذا علـم أنه لا يحيا في الجنـة، وعلم كذلك أن هـذه الدنيا ليست دار خلـد وأبـد . فعليه كذلـك أن يعلم أن له أعداء أزلـين، يناصبونه العداء ويبارزونه العـراك، فإما أن ينـبري إلى لأمّة الحرب يلبسها ويحصن نفسـه بها، فيدخل المعركة وهـو جادٌّ مستعد لها، وأمـا أن ينهزم وينضوي تحت لوائهم معلنا لنفسه قبل أن يعلنها لهم، أنه لا طاقة به ولا حراك عنده، وانه مستسلم لإرادتهم خاضع لهم.

فالغفلـة تكاد تكون حالـه موازية لعدم الوعي والفهـم والإدراك، كأنها تشبه حالة السكـر والانتشـاء، فتجد صاحبها يترمـى ذات اليمين وذات الشمـال، ما يبين حقيقة ومـا يثبـت بعقله معرفة، فهـو في حاله من عدم الإدراك الحقيقي فكـأن عقله ذهب أو غُلـب عليه وحين يذهب العقل لا يبقى شيئًا للإنسـان يجعله يتحكم في نفسه أو يضبط تصرفاته، أو يفهم أمرا أو يدرك علمًا هو في ذلك كالمخدر السائر وراء زينة مزخرفة، وأشكال منمطة. فهو مبهور بما يرى، مخدوع بالنظر، غفلة قلبه، فلما غفل تاه .

تاهـت معه جميع جوارحه، فأخذ يطارد هذا الشكل المزين والمنظر المزخرف حتى تاه أكثر وتوغل في دروبه حتى وصل إلى حالة بين حالتين، إمَّا أن ينسى كل شيء ويهتم فقـط بما تحت يديـه، وبما حصل، وإمـا أن يأكله الندم ويصيبـه الوجع على ما فرط ونسى وغفل.

نعـم، إن مـن أسبـاب الغفلة عـدم العلم وكـثر الجهـل أو ادعاء المعرفـة والدليل

الصحيح، وكذلك اتباع النفس والهوى . وقد يكون على علم وفهم وإدراك إلا أنه يعاند ويستكبر ويركب طيش هواه ويستعين برياح نفسه وأمواج غضبه فيظنها قوه يعتمد عليها، هو في ذلك لا يدري أنه يعاند الحقائق! ولو درى من عاند أنه لا يعاند شخصا فحسب، إنما يعاند الحقائق، وهي ثابتة ما كانت لتعاند قط. فلو ظن أنه يعاند شخصا ما فهو مخطئ، وإنما هو يعاند حقيقة جاءته على لسان إنسان وقول البشر، وهذا لا يجعل الحقيقة منسوبة إليه. فما دوره في كل هذا إلا النقل والنقل فقط. فيكون مثلًا على فهم جيد، ثم يتركه لأراء اختلف حولها، وأناس تشاجر معهم، أو هكذا ظهرت في عقله أنه يريد أن ينزع يدًا من غير سبب واضح أو علة بينة. ولكن في كل هذا للكون حقائق ونواميس لا تحديد ولا تتبدل، فلا يغرنك قول قائل أو غضب شخص أو تعصب رأى أو حزن نفس أو تهجم إنسان أو معاداة أو فِراق أو ألم على أن يدفعك على أن تكون عكس الطريق الصحيح أو القواعد السليمة، اجعل انتمائك للمنهج نفسه، لا للشخص . ولاتجعل ردة الفعل مبدأ في حياتك تسير به. ولكن وطّن نفسك على اتباع ما هو صواب، وما هو حق وإن خالفك من خالفك مع حسن الأداء إليهم والتوضيح لهم وعدم طرح يد التعصب والهوى والنفس، وإنما الحق أحق أن يتبع.

أمَّا التغافل فهو حاله أخرى مغايرة تمام المغايرة للحالة الأولى، التي هي الغفلة. وهي كالنسيان والتناسي والعلم والتعامل، فهي حالة ليست حقيقة في إضافة الصفة إليها، وإنما هي ترك للشيء عن عمد لقصد شيء آخر، فهو يتغافل عن أمر ما مثلًا، لأنه لا يريد إحداث مشكلة ما أو يلجأ إلى تجاهل حالة ما، رغبه في عدم إفساد شيء أخر. فهو ترك شيء لشيء لغاية معينة وعلة معلومة. فهو يترك الإفصاح ويرتدي زي الغفلة ادعاء ظاهرا، لترجيح حدوث مصلحة على إتيان مفسدة. فهو كالمظهر صفه كاذبة ليست من خواص صفاته، وإنما ادعاء عليه لغرض نفسي أو سبب عقلي أو مصلحة راجحة أو منع مفسدة مؤكدة.

فالتغافل يمارسه المرء عن وعي وإدراك تام ولا يكون دائما، بل هو غائي لعلة واضحة وسبب ظاهر. فاذا انقضى سببه بطل حكمه. وأما ممارسته على الدوام فهو نوع من العقاب، وإحداث للألم في نفس الشخص الممارس لذلك الشعور. إذ أن النفس لها حظوظ كثيرة، لا أقول حظا واحدا. والإنسان يريد أن يشعر بوجوده، وهذا الشعور بالوجود له أسباب كثيرة ولا أقصد بالوجود، هذا الوجود المكاني، الجغرافي، وإنما الوجود النفسي التقديري. بل حتى تجد ذلك في الطفل الصغير غريزة طبيعية وجلبة إنسانية، وقد يمارس هذا النوع من التغافل على إنسان ما بقصد إيلامه وتعذيبه. وهذا لا يقع إلا في جانبين. الأول، جانب حبيب وقريب أو منتظر لكثير من البِر والودّ بحكم العاطفة أو قصدا للمعروف. والثاني: جانب الجماعة، حينما يعاقب بتغافل المجتمع له، فيمر عليه كأنه لا شيء، وفيه نوع من الهجران والترك. فيصبح عدمه كوجوده، لا يفرق أحدهما عن الآخر، من حيث تفاعل الجمع له، والتأثر به وبحديثه، كأنه ليس موجود، فتتم معاملته كالعدم وهو نوع من العقاب النفسي الشديد.

ومن ذلك يتبين أن للتغافل جانبين أحدهما للعقاب والألم، والآخر للمدح وإبقاء الود ونزع الخلاف. ولعل الناس قد مارست ذلك منذ القدم، والتغافل يتواجد فقط مع الفطنة والذكاء، أو لعلنا نقول يكون لديه مستوى مقبول من الانتباه والتيقظ . وقد يوجد فقط مع تأجج المشاعر وفرط العواطف، فتجد الإنسان يسلك سلوك التغافل لامتلاء قلبه وغليان فؤاده. وقد يتمثل هذا الطريق حينما تباغته المصائب تلو المصائب ويخوض التجارب تلو التجارب، فيصبح وقد جمد عموده وصلب ما كان لينا في نفسه، وقوى ما كان رقيقا في فؤاده، فتجده يتغافل كثيرا. وقد تجده لا حيلة له بين الناس، ولا قوة تنصره، ولامنعة تأويه، فهو مهان في قلوبهم، لا قيمة له في نفوسهم، فتجده يتغافل عما سمع لأنه لا حيلة له غير السكوت، ولا قوة عنده غير الصمت، وقد تجده يتغافل لإبقاء مصلحة بينه وبين غيره، فاذا ما انقضت، بارزه بالسيوف وانقض عليه بالطعون

والسهـام، تجريحا وطعنا فيفصح عما كان مخبأ له في ضميره، فيخرج له ما بخلجات نفسـه، فـلا يتركه إلا وقد قضى عليـه . وقد تجده يتغافل لإبقاء اسرتـه وبقاء الود مع أهله، وقد تجده يتغافل عن الكثير؛ طلبًا لرضا الرب -سبحانه وتعالى- رغبة في الثواب والأجر من عنده. وهو في كل ذلك متوكل عليه طالبا منه في جميع شئون أمره.

وقـد يتغافـل الإنسـان لمرضه الذي قعـده، أو لقله مالـه وضعف سلطانـه أو لوهن جسده وانعدام قوته وفتوته، والتغافل قد يمارسه الإنسان عزيزًا قويا مبرزا أنواع القوة والسلطان، وقد يمارسه ضعيفًا مجبورا مفروضا عليه.

وقـد يودي الإنسان شيء مـن التغافل رغبه منه لا قسرا وجـبرا. ومع ذلك يتقطع قلبه حسرات ويتلوى من الألم أهات، فهو مقبل عليه لحاجة ماسة وضرورة طارئة، فهو يـؤدي الأمـر مع التألم منه. إلا أنه عالم أن الألم جزء من مراحله. فالفقد والترك على الإنسان صعب جدًا ليس بالأمر الهين على الإطلاق، فيصاحبه مع ذلك إرهاصات من المعاناة والعذاب، لابد له في ذلك من خوضها وحده.

وليس من التغافل فقط ما قد ذكر، بل فيه أيضًا ما قد أتاه وبه من الفرح والسرور مبلغا عظيما. وهو أن يمارسه المرء حماية لغيره، كأنه يمنع عنه ما يريد أن يسقط فيه، أو يحجزه عن مصائب تتنازع في الوصول إليه . وقد يمارسه المرء مع حبيب له، وهو في أشد درجات الفرح أنه بفعله هكذا يدفع شرا ويجلبا خيرًا ويريح نفسا!

التغافـل قد يكون نظـام حياة للإنسان، فيتغافل كل شيء يريـد هو أن يتغافله وأن يتغاضـى عـن ذكره وإيراده، فيعيش بذلك حياته كلها. وقـد يمارسه منتظرا لحدوث شيء ما، أو يأتيه من باب المساواة في الفعل بين النظريين، وقد يمارسه معاندا به على نفسه، مشددا به على حياته، مضيقا به ما قد وسع عليه.

وكمـا سبق ذكره قد يكون لهذا التغافل آثارا طيبـة، تضفي جمالا ورفقا وقد يكون له آثار سيئة ضارة على كلا مما دخل في هذه النسبة. ويكون نافعا إذا ما تخير أسباب

نجاحه، وعلامات رشده، ووضع كل شيء في موضعه، وأن يجعل للأمور نصابا ومكيال تـوزن عليه فيحسـن، ويجعل ذلك لغاية مؤقتة، وبزمن معـين، وعلى تصرف أو مرحلة بعينها، فلا يكون عبثا، ولا يأتيه تكلفا.

وأن يرعـى في ذلك طبيعة الاختـلاف ومنهج الموازنة وحقيقة الاعتدال، وقبل ذلك سلامـة النفس بأن يجعلها صافية، فلا يلوثها بشوائب القيل والقال وغير ذلك. ويكون ضارا إذا حاول عكس ما ينبغي أن يؤتي فقطع ما أُمر به أن يوصل، وجحد حق من كان لـه نصيـب. وحَرّف الكلم عن موضعـه وأتى الكذب وغلب عليه الجمـود. وتستطيع أن تلخـص ذلـك في كلمتين، أن هذا الإنسان إذا كان طيب المعـدن أمل فيه غالبا تصرف الخـير، وإتيان البر. وإذا كان خبيث المعدن، زائفا، طائش الفكر، مهموم النفس غالبا تجد تصرفه قبيحا وفعله سيئا والتغافل هو من الأشياء التي يَجْمُلُ بالإنسان أن يتصف بهـا لمنع حدوث ضـرر، ولتجنب وقوع آثار سيئة، في حال إذا تكلم وأوضح الأمر وفصله وبـين عـور هذا ، وغلط ذلـك ، وجهل ثالث، تنشب كثير من الفـتن والمصائب. بل تجد الإنسـان في بيته لو أخذ يلاحظ كل شيء ويرصـد كل أمر لتعب وأتعب، ولهلك وأهلك. وإذا دخل يفتش هنا ويبحث هناك عن خطأ ليُحدث بسببه جدال ونقاش .. لكن الحياة لا تقوم هكذا، وإنما بالتغافل، والإحسان، والتعليم.

✍ **وقد صدق الشاعر حين قال:**

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفوا مشاربه

ومـن ذا الذي ترضـى سجاياه كلها كفـي المـرء نبـلا أن تعد معايبه

الحيـاة بمجموعها ليسـت مسألة صواب وخطأ وانتهى الأمـر، الحياة رحلة طويلة لابد فيها من ارتكاب بعض الأخطاء، نظرا للطبيعة البشرية، فليست المعاملة فيها فقط علـى ما يظن المـرء أنه جيد أو سيء ، وإنما هناك التجـاوز العفو، والرحمة، والتعليم، والإحســان. وغيرهـا من القيم ومن يأخذ كل شيء هكذا في حياته أبيض أو أسود فقط

يتعب كثيرا ، فالحياة ليست دائمًا هكذا وإنما هناك نوع من التغافل عن بعض الأشياء. فالناس تصيبهم حالات متعدد من تنوع الشعور والعواطف لديهم، وتعدد حالات العقل بين قوة وضعفا، ونشاط و وهن ، وتعدد حالتهم الجسدية والعُمرية بين صغيرا وكبيرا .. فلن تستطيع أبدًا أن تجد معيار واحد تقيس عليه كل شيء من حالتي البياض والسواد. بل هناك أشياء كثير منها المعروف والصلة والبر، فالإحسان أحيانًا قد يقتضي أن يتغافل عن الأشياء السيئة التي تحدث ولا يوليها أي اهتمام، حتى لا تترك في نفسه أثرا، وهو أصلًا ليس له قدرة عليها. إن النفس إذا أخذت تحزن من هذا، وتيأس من ذلك، وتشتد على آخر، ماذا بقي لها. ففي النهاية الإنسان هو الإنسان لدية طاقة تحمّل، فلا يدخل شيء إلى قلبه حتى ويترك فيه أثرا فإذا ما تزاحمت كل هذه الأمور في صدره حتى صار قلبه جامع لشتات أقوال الناس وبركة أفعالهم وأحداثهم. فلك أن تتخيل! إنسانا يولي اهتماما لكل شيء، لا يضع الأمر في نصابه الصحيح. فأي أمر يلقي له بالًا صغيرا كان أو حقيرا كأنه جهاز ضُبط وهُيأ لرصد أي شيء يحدث، لك أن تتخيل كيف تكون حياة مثل هذا الإنسان، وماهي مقدار آلامه وأحزانه، بل أصلًا كيف يعيش يومه!

الحياة لها قوانين معقدة، لا يعرفها المدعي إلا بالممارسة، ولها أطر مختلفة، وأشكال متنوعة، وخبايا تنتظره وحده ليَعلمها وليأخذ منها ما يعينه على حياته، وكلما كثرت تجاربه وتنوعت مشاهده عرف عن الحياة والناس أكثر. والناس أطياف كثيرون ليسوا حاصلين على صفات الخير والبر فقط، أو صفات الشدّة والضرر فقط، وإنما هو خليط بين هذا وذاك ، ترضي منهم خلقا لتكره منهم آخر. حتى في العلاقة الأسرية للرجل مع أهله، فمن المحال أن تجدهم متشابهين غاية الشبه أبدًا لن تجد ذلك إلا أن يكون في الأفاضل المعدودين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقلائل غيرهم . فلا وجود للعلاقة الأسرية المثالية في الحياة. وإنما إذا كرهت منها

خلقا رضيت منها الآخر، وإنما يغلب خيرها وتكون لك معها مرجعية مشتركة تصلوا من خلالها لحل جميع أنواع الطوارئ من المشكلات أو الخلافات، وكيفية تسوية الأمور، ومعالجة الأحداث معالجة قويمة. إلى آخر ذلك من الأمور المتشابكة. والشاهد في الأمر أن الكمال ليس موجودًا في أي شيء حتى في العلاقات البشرية، سواء كانت علاقات اجتماعية، علاقات أسرية، علاقات شخصية، علاقات عملية. إلى آخره . كل شيء تجد فيه ذلك النوع من النقصان فيناسبه أيضًا ذلك النوع من التغافل، الذي يسد به حاجة عظيمة لدى المرء، ويمنع عنه كثير من البلايا.

قال بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا   صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه   مقارف ذنب مرة ومجانبه

وهذه هي طبيعة البشر أنهم مخطئون والإنسان ظلوم جهول، مرة يخطئ وأخرى يصيب. فأنت في كل ذلك لا تستطيع أن تملي أوامرك ورغباتك على الناس، ولكن أن تسمع من هذا، وتعفو عن ذاك. وترحم آخر، وتتغافل لإنسان قولا، وتتجاوز عن آخر فعلا. وهكذا. لأن هذه هي الحياة بتعدد ألوانها ومشاربها وأشكالها.

ويعتبر التغافل وجه من أوجه الحكمة، فالعاقل الحكيم هو الفطن المتغافل؛ الذي يتجاهل بعض الأشياء لأجل ود عام ووصالٍ تام. حتى تستمر الحياة ويكتمل رباط الزوجية والأسرية فإن الفرد أيًّا كان موقعه أبا، زوجا. إذا أخذ يتعسر عن هذا وذاك ادخل الضيق على أهله وضيق خناق الود والمحبة، فتجده لا يمرر شاردة أو واردة، ولا يترك صغيرة ولا حقيرة، كأنه عينه فاحصة مدققة لكل شيء. فالتجاهل أحيانًا جيد، ولكن مع التنبيه بطريقة غير مباشرة أو بشكل طيب بأن هذا الأمر لا يصلح بهذا الشكل، وكم من الجميل أن يكون على مثال كذا. أو أنتم أهل خير وبركة، لو تصنعون كذا وكذا. وأصلح الله حالكم لو أتيتم الأمور بشكل أجمل وأحكم. وبارك

الله فيكم ما أجمل هذا المكان لو فقط زُين بكذا وكذا. سيسير قطعة فنية. وهكذا على هـذا المنوال يتجاهـل ويتغافل ويتجاوز عن أمور، ولكن ينبه عليها بطريقة حكيمة طيبة تشـرح النفوس وتثلج الصدور، تجعـل مُتَلَقِي الأدب مسارع إلى تنفيذ الطلب، لأنه يرى فيه جميل القول وحسن الأداء، لا تفريع السوط وإغلاظ القول وخوف السب والضرب.

فالمتغافـل إمَّـا أن يكون محبًـا، ويظهر ذلك في آثـار أفعاله ونتائـج أقواله، ويكون باعث فعله هذا هو الرحمة والإحسان والبر والصلة، ويكون ذلك في وجوه وأحوال عدة، وإمـا أن يكون المتغافل كارهًا ومتجنبًا، ويبـين عن ذلك في عدوانه وهمجيته ووحشيته، كأنـه أسـد هائج لا يرضى منـك معروفًا أو حقا، بـل لا يقبل منك شيئًـا أبدًا، وهو في حالته تلك يزبد لسانه بكلمات من الجفاء، ويرغي قلبه بأمواج الكراهية. وهو بين هذا وهـذا يزداد ضجيجًا وثورة واحتناقًا وغضبًا. فلا ترضيه نفسه إلا التغافل عن الأشياء جحـودًا ونكرًا، يمارس ذلك قولًا وفعلا، وما أورثه ذلك إلا العناد والحقد المتزايد، وما يصيبـه صفة من هذه الصفات إلا وهي تشتد عليـه وتزيد كأنها حجارة تحترق، ونارًا تـأكل نارًا فلما يحـرق كل شيء، فلا يبقى إلا نفسه فتصيبه من حرارتها وشدتها ثم لا تبقى على شيء، حتى لا ترضى إلا أن تحرقه هو نفسه. ولأن الغضب لا يفرق بين قريب وغريـب، بين نفـس وجماد، بين كبير وصغير. الغضب نار تـأكل لا تبقى على أحد حتى صاحبهـا، فتفنيه فيصير رمادًا فلا راحة لـه إلا بموته وهلاكه، وهذا يكون في ظنه هو فقـط، لأن اشتداد الحمية وقوة اتقاد الغضـب لا ينافسه في ذلك أحد حتى نفسه، هي مـن ضمن المعدودين وفي عـداد المصابين والهالكين فما من أحـد تصيبه صفة مهلكة أو عيـب شنيع أو مرضـ أيًا كان شدته أو ضعفه ليس هو وحده المصاب فيه، فمن حوله لهـم جـزء في المشاركة رضوا بذلك أم أبوا، قنعوا بالأمر أم لم يقنعوا وإن كان هو –أي المصـاب– في ظنـه أنه هو الوحيد الذي يعاني من الشـدة والهلاك والألم، إلا أن غيره كثيرون يشاركونه ذلك شعر بذلك أم لم يشعر.

حالة وهم

وإمـا أن يكـون المتغافل الـذي يأتي ذلك بعد طـول مناهدة، وعظـم مصيبة وثقل حاجـة وقوة ضاغطـة، وهو في ذلك ليس يأتيه مُحبًا أو كارهًـا، وإنما هو في حالة ثالثة من حالات تكتسبها النفس بعد طول مزاولة مع الناس واحتمال الأذى منهم، والتعرض لهـم تأخذ النفسـ مسارًا آخر هو للتأمل مثلًا أو للاتعاظ ممـا سبق، أو لعلك تقول أن نفسـ الشعـور الـذي كانت تكسبـه النفس من الفعل حـل محله أثر فعـل آخر، كان هو نتاجه. يكون التغافل هنا غير مقصود ولا مراد، وإنما تزاوله الجوارح من غير تكلف، ويسايـره القلب من غير نظر، ويمر على الآذان مـن غير سمع. فهو كطيف حل بالمكان من غير أن يرى أو يسمع، لأنه في طبيعته شفاف، خفيف الظل، سريع الزوال، فلا تلحق النفس أن تبقى منه أثر أو تأخذ منه شهادة قول كرسالة مشفرة لا تحوي رمزًا، واضح المعلم، مفهوم الكلم، مسطور الحروف.

لا تستطيـع أن تجـزم أن باعثه القلب، لأنه مثقل ناء بحمله. وإن كنت أيضًا لا تقدر علـى أن تعفيه من احتمال بعضـ المهام والتصرف، فمرور الأشياء قابع تحت سلطانه. غـير أنك تحـاول ملتاعًا أن تستشف عن حامله على ذلك. فتجد نفسك تصدم بحاجز عظيم، وهو عقبة اللامبالاة لا تقول في ذلك أن كل شيء أصبح واحدا في نظره، محال أن يقـع هـذا، ولكن ضعف أثر ما كان عنده عظيما فتسـاوى مع غيره، فأصبح ذا قيمة ضعيفـة قليلـة. فأصبحـوا في الأثر سـواء. إلا أن نتاج هـذه النفس التـي رَكّبَت أجزاء مستعارة بعضها إلى بعض، فتصبح متصنعة كأنها والأجزاء الحقيقية الطبيعية سواء، فظنت أنها نُفخت فيها روح من الله فبُعثت مضغة مُخَلّقَةٌ حية.

وإمـا أن يكـون المتغافل متكـبر، لا يرى في الوجود شـيء مثله أو يدانيـه أو أنه من الأفاضل الكرام الذين ينبغي أن تكون الأرض لهم وحدهم، لا يشاركهم فيها من دونهم مـن أصل الوضاعة والقلـة في الجمال والولد والحسب والنسب، إلا للخدمة أو التعظيم والمديـح والثناء بأنهم الأكابر الكبـار. فهؤلاء يرون الوجود حقيقـة، جسّدوا بأنفسهم

أعلاهــا وغيرهم أسفلها وأدناهــا، فيهم الحمية الجاهلية والأنانيــة المتباهية والغرور المنفتــح، والأرستقراطية المعوجة والزهو المتعالي، لا يحاطون إلا بمن ترتضيه نفوسهم ولــو كان من أصاغر القمم، ثـم إن هذا دليل جودهم وعطفهــم وكرمهم وإنسانيتهم. وهــذا هو عادة هــؤلاء المترفون في قلوبهم ونفوسهم وضمائرهــم، فلو نظرت من قديم الأزل إلى الآن وجدتهم بصفاتهم التي لا يتمايزون إلا بها غير نفخة من دوران الزمن، والتفاف الأرض تضفي على تصرفاتهم لتضاهي العصر الذي يواكبهم الذي يعيشون فيه.

ألم يقــل قوم نوح "مَا نَــرَاكَ إلا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَـكَ إلا الَّذِينَ هُمْ أرذلنا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ"

ألم يقل مشركي مكة "وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القرينين عظيم"

ألم يقــل قــوم شعيب "قالُــوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَــهُ كثيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّــا لَنَرَاكَ فِينَا ضعيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أنت عَلَيْنَا بعَزِيزٍ"

ألم يقل غيرهم "وَقَالَ الْمَلأُ من قَوْمِه الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بلقَاءِ الآخرة وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ .

وَلَئِــنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُــمْ إذا لَّخَاسِرُونَ، أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُــمْ إذا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ".

وانظــر لقوم عاد قالــوا "فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً"

كذلك تجد المترفين والمتكبرين في الأرض بغير الحق لا يرون إلا أنفسهم، كل شيء بجوارهــم كأنه شيء صغير لا وزن له ولا قدر، يقــدرون على سحقه بأقدامهم فيسوون بــه تراب الأرض، وهذا فعل من لا يرى إلا نفســه وقوته وماله وسلطانه، وهذا يأتي من الغــرور والاستغناء والكبر والاستعلاء وعاقبته وخيمة في الدنيا، قبل القصاص العادل يوم القيامة.

وهـذا النوع مـن التغافل هو المذموم المكـروه فعله وأثره، لأن فيـه تغافل عن الحق وتعامـى عن الصواب وتجاهـل للبرهان والدليل، كما كان يفعل قوم نـوح – "إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُـمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُـمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُـمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"

ومثلهم ومثل من جاء بعدهم في فعلهم وعنادهم وتكبرهم وإعراضهم عن الآيات، كما قال تعالى " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُـمْ فِي ظُلُمَـاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُـمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّـنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَـرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِـم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيـهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَـبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إن اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠)"

وقـد يكـون المتغافل لئيمًـا يؤدي دوره ببراعـة فائقة، حتى أتقن مـا يقوم به، حتى أنـه يَظْهـر بالشكل الذي لا تظن معـه أبدًا، أنه قد يُأتي بمثل هـذا الصنيع. واللئيم في فعله نفاق وكذب ومحاورة فارغة واستهلاك للزمن بحشوه معاني لا فائدة منها، وإنما الفائدة الوحيدة أنها تأكل الوقت فتضيع المقصد من الكلام والغاية من الحديث.

وإمـا أن يكون فعلـه جبلة لا قصد منه علـى الإطلاق، أي أن يؤديـه فقط لأن هذا هـو الـذي اعتاده، وهو الـذي دائمًا ما يمارسـه ويأتيه من التصرفـات، فليس في فعله نيـة مبيتة أو مكر وشـر، فلا قصد من ورائه أو غاية، وأما الآخـر فهو الذي يؤديه كما يمارس عملًا أسند إليه، ووظيفة ألقيت إليه، فهو فيها مخلص يؤديها مع شعائر الولاء والطاعـة مقدمًا نذور القسم بعـدم الالتفات، وإعطاء كل ما عنـده من طاقة لتحسين مـا فيه من موقع أو مؤسسة، فتجده دائمًـا دءوبًا محافظًا وهذا النوع من القسم نفسه تجـد باعثه قلبي. فقد تأثر بالدنيا وما فيها مـن مصائب وأحوال، غير أنك تكاد تلمح

فيه حالة من النقص في شيء ما، وإما أن تكون ذات بعد متأثر بحياته السابقة أم مهد طفولته وشبابه. وإما ضعفًا في حالة ما تَرّدَي معها بضعف آخر لحقها، وهو ضعف من الناحية الإيمانية، كأن رصيد الإيمان عنده يتناقص عند مباشرته ذلك اللئم الذي هو قد لا يرضاه لنفسه ولكنه قد ألفه فصار سجية من سجاياه لا تنفك عنه ولا تنفصل من كيانه. هكذا ظنه.

وأيّا ما كان نوعه أو صفته اللازمة له، التي لا ترضى حتى أن تنتزع عنه في إتيانه صفة أخرى، فانطباعها له في كل ما يأتي ويذر واضح جلي، فإن التغافل النافع المصاحب للأثر الطيب المندفع فيه لعلة مؤقتة وغاية حسنة، لا شك ممدوح وفاعله ممن يثنى عليهم، إذ أنه أتى من أطراف الحكمة حبل قويم في حل كثير من المشكلات والاضطرابات، وإصلاح جمع غفير ممن قد يستغلق حله فيهجر، لاستشكال فهمه وفتحه.

فهو ذا أثر طيب ومُمَارِسُه على ثغر عظيم، عليه الثبات عليه. هو كذلك علاج نافع حكيم، إلا أن الاستشفاء به له لفترة مؤقتة ومرات معدودة، فهكذا كل شيء حتى لا يظن الأمر استخفاف أو تبجحًا أو تقليلًا من الشأن أو تصاغرًا لمن يوجه الحديث إليهم. التغافل هو نوع من العلاج، وليس العلاج كله، وهو طرف من فنون الحكمة، وليس الحكمة كلها، وهو خلق عظيم مستقيم في التغاضي عن الزلل، والسكوت عن العيوب، والعمى عن العورات، والإطباق في الإفصاح عن النقائص والزلات، ففي ذلك من العافية الكثير حيث لا يهمك من الأمر إلا ما يعنيك مع الرغبة في الخير لغيرك وتمنى السلامة والخير لهم

هو نوع من الإصلاح للنفس قبل أن يكون طريقة لمعالجة الأمور الخارجية سواء كانت طارئة وعاجلة أو عادية وطبيعية فيه من ترك النفس تأخذ راحتها وتستجم بهدوئها، وتختلي بذاتها في صفاء من الفكر وعدم انشغال بالدوشة المرهقة والفرقعة الكاذبة خلو تبين فيه النفس، وتتضح فيه المعالم، وتظهر به الطرق، وتنجلي به كثير

من الغشاوة فيظهــر الفكر متجليًا على صحيفة من الهدوء والصفاء، فيشرح الأمر في سلاســة وانسيابية مطلقة. فتنطلق النفس في رحلاتهـا، التي تعيد فيها بناء الذات في جو من العذوبة والطيبة اللاملوثة بأخبار وأقوال تفسد صفاء الأمر، تحافظ فيه الروح على بقيتها من أن تلوث، فترتفع في عالم من الروحانيات وإشراق من الفكر وهدوء من البــال، وما أجمل قوله -عليه الصلاة والسلام- "لا تخــبروني عن إخواني شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأن سليم الصدر".

نعــم، ليس هــذا على الديمومــة، وإنما تتنوع الأوقــات بما حملت مــن أحداث وما أخرجــت مــن طياتها مــن أفعال وتصرفــات. وليس التغافـل دائمًا هو الحـل وإن كان يستر كثيرًا من السيئات ويدفن بعضًا من القبائح ففي بعض الأوقات يستلزم المواجهة والمقابلـة والتحـدث، لا بشـدة جاهلية أو نزعـة قبلية، ولكن بمودة ورحمــة . فليس كل الأمــور تعالــج بالترك والنسيــان أو بالتغافل والتجاهل، ولكن هنــاك أمور تواجه بعقل حكيــم يوازن الأمر ويضع اليد على الداء فينتزعه، ويصيب موضع العلة فيوقفها خوفًا مــن استشراء المرض وظهور الخلل . وذلك كله في إطار معالجة حكيمة فاهمة لما تأتى ومــا تدع، وما تفعل وما تترك تدرك العوامــل المساعدة ، والأسباب المبطلة ، والعناصر المنشطـة، والتدخلات السريعة ، والتحذيرات الهامة ، والتحصينات الوقائية يكون كل ذلك في وعيها الحاضر عند ممارستها لما تهم به، فتؤتي نتائج مثمرة وعواقب مبشرة .

وليســ التغافل شيئًا محضًا خالصًا مكونــه هو حروفه وما احتواه من معنى فقط، وإنمــا هــو عنصر في إطــار سلسلة من العناصــر والصفات المتراصــة والمتواصلة كلها ببعضــ . سلسلــة من الصفات كلهــا يؤدي إلى الآخــر ويتقدم في جانبــه كأنها المظهر مجســدًا، كــأن كل صفة شكلا مجسدًا ملحومًا بشكل آخر ليكمل بها بذلك بناءً كبيرًا ، منظومة متكاملة من الصفات، هيئة كاملة من المعاني، كلها تخدم غرضًا واحدًا ألا وهو "المعاملة والأخلاق" كلها في خدمة تلك البوتقة الكبيرة، كل إمكانياتها مسخرة لتقوم

بإظهار الشكل العام في أحسن تقويم، وأفضل قدرة تستطيع تقديمها، تشعر أن جميع الصفات موصولة بعضها ببعض فتكاد تنفصل واحدة عن أختها، إلا أنها بالنسبة إليها كيانها وامتدادها ومجالها الحيوي وطبيعتها النقية ورئتها الصالحة التي تتنفس بها، كلهم يد واحدة في عمل واحد كأنه نهر عذب المشرب جميل الطلعة طيب المذاق صافي الصفحة نقي السريرة واضح العمق. فليست كل تفصيلة منفصلة عن الأخرى، وليس كل معنى منقطع عمن جاوره وليست الصفة تحكي نفسها هي فقط، لا تخرج عنقها لتشير إلى ما هي عليه، وإنما هي جزء مجسد من رائعة حية إنها صفات متمازجة لنهر المعاملة ومواجهة الخلق، فكلها صفات متعددة تشير إلى مدلول واحد، وليس تعرف إلا بمجموعة دلالتها وتجامع معانيها، فيظن الخاطر لحظة أن ذلك المعنى إنما هو شيء يعبر بنفسه منقطع عن نظائره، يمكن تجربته هو فقط لا، إنها ليست تجربة واحدة، بل هي الواحدة المعبرة عن جزء لا يكاد ينفصل عن المجموع بأسره، فالصفحة تحي .. وحياتها ممارستها وإخراجها من حيز اللفظ المسطور إلى نطاق العالم المحسوس، فتمتزج في ذلك البنيان القائم من الخلق والمعاملة.

فكل صفة تصل أختها بقدر نسبي يزيد وينقص، فلا تنفصل عنها كأنها يتيمة الأب محرومة الأم لا نسب لها ولا صلة تتبعها، وإنما هي نطاق واحدة متعددة الأشكال والأنماط والتصورات والرؤى من تَفَهم أن الصفة الطيبة الخيرة تتوالد وتزيد وتتكاثر، لا سيما إن كانت من أمهات الطيبات ومن معادنه الرئيسة في الخيرات، فصفة تَبِرُ أختها في عائلة سعيدة من الصفات الحسنة والمعاني الخيرة، وكذلك الصفات السيئة رذيلة تدعو أختها وتنادي صاحبتها وهي كالطوق المتجمع في بيئة فاسدة من المعاني، فلا تجد معنى واحدًا منفصلا، وإن كانت لا صلة جامعة لهم إلا أنهم تجامعوا على المكروه والشرور فصار ذلك جامعهم، ونسبهم الذين يوصفون به، فالصفات لا تسير إلا في جماعات وأسراب. فلا تكاد تكون صفة سيئة مكروهة إلا وتماشيها صاحبتها وتسايرها وعلى هذا فقس.

ومـا التغافل عن ذلك ببعيد، فإن الصفـات الحسنة جذبته إلى حسن استخدامها وروعـة أدائهـا، وإن كانت صفات سيئة جنبتـه إلى توظيفها لديها لتطـوع بها رغباتها وتساير به نشاطه وتجده حيث شاءت وكيفما أرادت.

وهــذا يدفعنا إلى محور تالي، وهو هل التغافـل يكسبه المرء من الدخول في العديد من التجارب أم هو رزق طبيعي للإنسان في جبلته يمارسه بشكل عفوي؟

دعنا أولًا نوضح أن الله قد منح الإنسان ما قد يحتاجه لحياته على الأرض، وما قد يعينه على مسيرته لإتمام كفاحه وحياته، فأعطى الحواس والأعضاء الظاهرة والقدرة والإرادة وغيرهـا من الصفات المعنوية. هذه الأشياء البشر متساوون فيها ولكن هناك صنـف من النـاس يستعمل كل عضو وحاسـة فيما وضع له حقيقة، فالعين ليست للرؤية فقـط ولكـن للملاحظة والتأمل والانتبـاه للمقارنـة، للتعلم، للتفكـر، للوصول إلى شيء أكـبر للوصـول إلى السماء ورؤيـة القمر. وليسـت الآذان فقط للسمـع، ولكن للتحليل والتمييـز والتسجيل والإدراك ولفهم التفاصيل ولإدراك أكبر ولاحتواء أعلى وللتعاطف الكثـير. وهكذا حواس الإنسان تعمل جنبا لجنب مـع العقل الذي هو المبرمج والمتحكم بأجهـزة الغـدد والأعصـاب و... و... والله وهب الإنسان هذه الأشيـاء ليستعين بها لا ليعطلهـا، ليستعمل بطاقتها، ليصل بها ويدرك أنه الإله الكبـير المتعالي "قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ"

وأمـر سبحانه تعـالى بالقراءة وحث على التعلـم والتفهم، فجعـل أول آيات كتابه "اقرأ" ولما خاطب عباده، خاطبهم بالعلم والفهم والآيات يقول تعالى "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَـا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ"، وقوله تعـالى "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ"

وكثـيرا ما يقـرب الأمثلة ليوضح الفرق بـين العالم والجاهل فيقـول سبحانه "قُلْ هَـلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ"، وقوله تعالى "وَمَا يَسْتَوِي

الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ أن اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) ".

وهكذا لو تتبعنا الأمر في كتاب الله لطال بنا المقام عن غايتنا الذي قصرنا عليها كلامنا.

والشاهد من الكلام أن الله تعالى لما خلق الإنسان خلق فيه المؤهلات الطبيعية التي تساعده على المضي قدمًا في الحياة. بعض هذه المقومات لا يحتاج إلى عمل ونظر ومهارة ودقة. والبعض الآخر يحتاج هذه المهارة ويتطلبها فمع أنهم تساووا في الآلات التي هي الأعضاء والجوارح، إلا أنهم تباينوا في كيفية استخدام تلك الآلات، وبأي قوة يصلوا إلى المراد بالطريقة الصحيحة أم بالطريقة الخاطئة، هنا وقع الاختلاف والتباين، وهذا جزء واحد من الإجابة.

وحتى لا يطول بنا الكلام، فان التغافل فن يكتسب ومهارة تمارس، قد يؤدي جزء منها على السجية ولكنه جزء ليس بالكبير. ثم إنه لا يمارس اعتباطًا ولا يؤدى بلا معنى له أو هدف. فله أسبابًا تساعد على بقائه وأخرى تؤدي إلى انهياره ووفاته الحديث عنها شيق وممتع، ولكن ليس هذا أوان تفنيدها ثم أنها قد تزيد عن حدها فتضر مؤديها ضررا بالغا، ويكون ضررها واقع على النفس والقلب. والأمور النفسية مختلفة من شخص لآخر تبعًا لحالته وظروفه وثقافته وبيئته وهكذا إلى آخره غير أنها عندما تزيد عن حدها عند من يمارسها، فتزيد على حدها عند مؤديها، فتخرجها إلى حد البرود واللامعنى، إلى أن تصل لوصف الشخص بالغطرسة والأنانية و... و... بل قد تزيد فوق كل ما سبق إلى أن تكون تجسيدا للعبثية ولذا وبكل بساطة، التغافل .. هو فن الحكمة.

أمَّا ممارسة التغافل في حد ذاته كصفة محددة، أو أي صفة مشابهة مما قد تكتسي بهذا النوع من التأثير في المعاملة أو على وجه العموم تتطلب إضافة بعض الانكسارات الداخلية أو التجارب ذات الطابع المؤلم يبدو الطرح غريبًا في إبداءه ولكنه

تساؤل يثيره الذهن ويحث عليه الطبع، ولعلنا نغير مبناها في تغير صياغته بشكل مغاير. هل الانكسار كشعور يصيب النفس البشرية يؤدي إلى تغيير في الصفات أو المعاملات؟ أو هو المسئول عن تحول الشخصية من طور إلى طور مختلف في التفكير والمنهجية والمعاملة إلى آخره؟ يبدو لي بديهيًا بعض الشيء في إجابته ولكن هل العلاقة نفسها أي الانكسار هل هو العنصر المسئول عن ظهور التغافل بحد ذاته، كأنها مثلا علاقة فيزيائية في تأثير الخذلان أو الضياع أو الانكسار، تلك الانفعالات النفسية السلبية بظهور نوع جديد في المعاملة في الفكر.

الإنسان كائن ذو نظر، والنظر في الكون والتأمل في الطبيعة والانسجام فيما حوله من طبائع مختلفة عن طبيعته هو، يكسبه نوعًا من امتداد الأفق في التفكير وإطالة النفس في المعاملة، والصبر على كثير من الأمور. وليس ذلك مقصور على نوع بعينه من النظر وحالة واحدة من التجارب، ولكن الأمر هنا في تحديد الرؤية الفردية للكائن الحي فتجعله يرى كثيرًا مما خفي عليه، ويدرك أشياء لم تكن في استيعابه، ويشعر بجديدات ما كانت لتخطر على باله، كأنه ضم لروحه أرواحا أخرى. وحيي في عصور ودول ورأى وسمع وأبصر وشاهد وانتقل وتحول وتأمل وفكر. فنرى أن المرء ما دام في تطوير نفسه من شخص ذا طابع أحادي الجانب في التفكير إلى أن يسع فكره آراء كثيرة، ووجهات نظر متعددة. مع عدم تخليه عن الصواب وهجره للحق. فيضيف إلى إدراكه نوعًا التحمل والتصبر والتفهم، فيكون في أموره ذا نظرة بعيدة ورؤية شاملة متعددة بلا إفراط أو تفريط وتجاوز في ثوابت أو حقوق

إن كثير مما يفعله الإنسان في حياته يعود على منظوره الشخصي برؤيته وتحليله، بغض النظر عن كونه صحيحا أم خاطئ، فاسدًا أم صالحا ولكنه يزيد في تفهمه ويضخم من ثروته في التعامل البشري، فيكون ذا أداء أفضل وحنكة مكتسبة وتكسو نفسه طبقة من المقاومة التي تفيده في كثير في حياته أكان ذلك على المستوى الشخصي،

الاجتماعـي، العائلي، العملي. أيًا ما كان ونعم، وهذا لا يمنع أيضًا أن العلم النظري له مقـدار كبـير في هذه النظرة لا أحد يمـاري فيه أو يجادل. غير أنـه بقدر ثري محتواه وعمقه، وكان ذا كثافة كبيرة للمعلومات. ناهيك عن طريقة سياقه له وتنظيمه للأفكار ونقلـه للتجـارب إلا أن الواقع والحياة الملموسة تحتاج ذلـك ولابد غير أنها تضيف إليه الكثـير والكثـير، مما لم يظن أنه قد يحتاج إليه، وتعلمـه دروسًا لم يكن ليقرأ عنها في كتابـه المدرسـي، أو ليكـن يتخيلها في أحلامـه، أو حتى يخبره بها أحـد ممن يحادثه، لأنـه وبكل بساطة الحيـاة المقصودة، وهي المستقبل، والمستقبـل هو المجهول. ومجهول كل معادلـة ونظرية يختلف تمامًا عن مجاورتها ونظرتها. والحياة بطبيعتها تحمل إلى الإنسان مالا يتوقعه ومالا يعتاده، إذ لو اليوم كالذي يليه وهكذا الذي بعده سيكون ذلك حالة تدعى إلى الجمود والركود ، وسيكون الإنسان فيها كالآلة في المصنع يؤدي كل يوم عملـه بنفس التفاصيل، وبحالـة الروتين نفسها غير أن حياة الإنسان متجددة متنوعة، يـوم يسقط ويتعثر ويعيشـ الألم بمراحله. ويوم يسعد ويفرح ويدرك المجد بيديه. ويوم كباقي الأيام لا شيء جديد فيه . يوم يعلو فكره وتشتد همته. ويوم يخور عزمه، وتضعف نفسيتـه، ويسوء حاله. هكذا الإنسـان لا يبقى على حال ، وهذا من صميم النفع له. بل وممـا يفيد القلب حتـى لا يمرض إن بقى على حالة واحدة بنفسـ النبض لا يحور إلى غيره، ثم ينشرح الصدر في معرفته فوائد وحكم لتقلباته وأطوار نموه وهي ليست هذه فقـط، فهي متعددة ولكن نبقى على واحدة هنا فقط حتى لا يطول بنا المقام أكثر، وقد ذكرنـا شيئًـا منها قبلا فيعلم أن بعد العسر يسر يقينًـا أن هذه طبيعة الحياة، لا حزن يدون ولا سرور، وكل عارية مستردة والشواهد والأمثلة على نفس الإنسان وما حوله من الظواهر والأحداث، بل اختلاف الطبيعة، وتغير التاريخ لهو أكبر مثل شاهد على ذلك.

أمَّـا مسألة الاعتياد وما ينشـق عنها من تكلف للأشياء والوسائـل، أو فقدان لأثر الشـيء على النفس، أو انتهـاج اللاشعور كحالة خارجة مؤقتة مـن انعراج الإنسان في

سلـوك تصرف بعينه متجاهـلًا أو غافلًا عما حوله من أمور، وتملكه - أي هذا الشعور نفسـه - علـى كليته بمحل عجيب مؤقـتٍ أيضًا، بحيث لا يفرغ إلا لـه ولا ينتبه لما سواه عامـدًا أو غير عامـد. فجريان النفس على اعتياد شيء بعينه من الأمور، يفقدها طعم كل شـيء فيصير بـلا طعم ولا لون أو رائحـة فضلا عن امتلال ما يقـوم به، أوتنشط للنفسـ لإحداثـه ثم تفتر بعـد ذلك، أو تتهالك فيمـا سواه وتنشط لأدائـه، أو تمارسه فقـط لأنهـا اعتادته وسيقت فيه وقطعت في المسير به أشـواط متعددة، لهو قول يحتاج إلى فحص ونظر لا لخطئه بكليته ولكن لعدم استيفائه إلا لجزء بسيط من الحقيقة.

إن اجتزاء الحقيقة إلى أنصاف وأرباع وأخماس، تم تصدير كل جزء منفصل عن الآخـر في سيـاق مغاير، لإيهـام أن هذه هي الحقيقة، فهذا مـن الباطل القطعي، ومن الخـداع المقصود أو غـير المقصود. فالحقيقة بمجموعها، بمجمـوع حالاتها وأسبابها وأحداثهـا، فهي تعـرف بما يوضح المعنى المقصـود كليا، لا تقسيم الأمـر إلى أمور ثم بعث أمر واحد منها بأنه هو المجموع، وأميت وأدفن، أو أتجاهل ببساطة باقي المقومات والأشيـاء، فهـذا تشويه وطمسـ لمعالمها، ثم تزين مـا يريد أن يـبرزه القائل في سياق محشو بعواطف وبكثرة وإسهاب من الأدلة اللامنطقية أو للربط لها مع سياق الحديث الأصلي لإضفاء صيغة توهم الجَمْع صدق الكلام، وأن هذه هي الحقيقة.

الحقيقـة تعرف بمجموعها لا بأحاديتها . تعرف بـرد كل شيء لأصله، وتميزه عن نظـيره بصفة واضحة، بتحديد المعـاني، وتعريف المقصود منها، لا بإيهام اللفظ ليدل على عدد من المعاني كلها يصلح له، ثم يستنبط المعنى الذي يريده ليروي عليه قصص مـن خيالـه وأحلامـه . تحديد المعنى المقصـود من اللفـظ لا أن يستخـرج من اللفظ والنص ما يستهوي نفسه ويرغبه هواه فينتقيه، فيُفَرِغ الكلام من ظاهره ومعناه المراد. ثم يزعم بأن هذه هي الحقيقة! ثم يتحجج بأن هذه هو المراد نعم هذا هو المراد، ولكنه مـراد نفسه، وطمع هواه، وتزيين شيطانه وفكـره. لذلك يستحسن بالمرء حين يموج في

بحـار الألفاظ الزاخرة، ويقنع قلبه بكلمات ينطق بها لسانه، أن يوضح إرادته هو حين نطقـه لها لأن اللفظ له معنى لغوي يراد به، هـذا المعنى اللغوي قد ينقسم فيه أهل كل لغـة، كالعربية مثـلا. فإن العرب تعارفوا على أن اللفـظ الواحد له أكثر من معنى يدل عليه كل في سياق معين، وحالة لغوية خاصة بها. ثم استعمل أهل كل فن اللفظ اللغوي، ونقلـوا معناه إلى اصطلاحهم الذي يفسر اللفظ فيه على منهجهم ودراستهم وفهمهم وهـم "أهل الاصطلاح" فتجـد أن اللفظ الواحد قد يوجد له من المعاني الكثير والكثير فتحديـد معنى اللفظ، والمقصود منه وعـدم التلاعب به باستخدام الأساليب والحيل، والهروب منه إلى غيره، والتنقل بين المعاني في اللفظ الواحد، لهو أحد أسباب الوصول إلى الحقيقـة فإثبات حقيقه الشيء وعـدم الاعتماد على اشتراك الألفاظ في الحدود، وإيهـام المعنـى دون تحديد لـه، والتلاعب بين الجوهـر والعرض، والصفـة الأساسية الأصلية والصفة العرضية الجزئية هام جدًا في الوصول للصواب.

وكذلـك عدم الاعتماد على الحواس دون تمحيصـ من العقل، ونظر من الفكر، أو اتخـاذ المتغير أصلًا للثابـت أو المتحول المتقلب أساسا للدائـم الأصلي، أو تعميم شيء منفرد بحاله على جموع كثير بجامع أنه حالة منهم. هذا وإن كان يعطي احتمالا ويثبت ظنا، غير أنه لا يقبل أن يصير قانونا وقاعدة أو أساسا للشيء نفسه.

وخطر الاجتزاء في الإعماء على الحقيقة بأن يجذب الفكر كله بالنظر إلى الجزئي كأنـه كلي، فيبين عليه تفريعات وتقسيمات هي أصلًا غير منعقدة النسبة كذلك شحن العواطـف في إثـارة هذا الجزء وتفخيمـه، لإحلاله مكان الـكل. والعواطف إذا أثيرت وانفجـرت لا تنتظر أن ينظر للأمـر على أنه محل صواب أو جزء من الحل، أو على أنه حقيقة أو سراب. بل على أن هذا هو الصواب، وأن هذا هو ما يجب اتباعه، وغيره يجب رفضه. هذا لأن العواطف تنحاز أكثر مما تحكم وتقضي، وفيه تدغدغ المشاعر، وتثار العواطـف، وفيه أيضًا نوعًا من التلبيس على الجانب الآخـر فيهدمه كأنه ليس موجود

، أو يخفيـه كأنه ليس حاضر. ويكون هو الجزء المشاهد المرئي الحاضر، وأما ما سواه فأضغـاث أحلام وشعـوذة شيطان، ودجل ساحر وهكذا. ولا أريـد أن أخوض أكثر من ذلك، فالأمر عميق يستحق الدراسة والإيضاح لخطر أثره وعظم أهميته.

وانظـر إلى هذا الأثـر، حينما جاء رجل إلى عمر بن الخطـاب - رضي الله عنه- الخليفة الحكيم، يريده أن يقتص له من أخيه على ما فعل في عينه من إتلافها وإنهاب صورهـا وحلول عتمتهـا فقال له قولة حكيم فطـن لا يتدغدغ بالمشاعـر ولا ينقاد وراء مرسل القول، وحلـو الحديث، وإبهار الخطيب للمخاطب بلحن حديثه، وتزوير كلامه، وتقطيـع أنفاسه، قال عمـر: "إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئـت عينه فلا تقض له، حتـى يأتيـك خصمه . فلعلـه قد فقئت عيناه جمعيًـا "، وقال الفـاروق للرجل: تحضر خصمـك، فقال لـه الرجل: يا أمير المؤمنـين أمَّا أصابك الغضب إلا مـا أرى. فقال له عمر: فلعلـك قد فقأت عيني خصمك معًا، فحضر خصمه وقد فقئت عيناه معًا، فقال له عمر: "إذا سمعت حجة الآخر بان القضاء" وانكشف الحق وظهرت الحقيقة.

لذلـك ليست الحقيقة بالهـوى ولا بالمكـر وبالاستعداء على أهلهـا، أو شيطنة من اتصف بها وإفساد الصورة الخارجية لأهلها، محاولة لتعكير صفو الحقيقة وصدق الله العظيم إذ يقول،؛- "وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ"

فالحقيقـة هي الحقيقة لا وصف لهـا إلا ذاك ولا تعبير يوضح عن ماهيتها إلا تلك اللفظـة الحقيقـة ، التي تشـق الآذان وتصعق القلـوب الواهنة الضعيفـة، فهي ليست مجاملـة ولا إطـراء ولا تزيين، وليست كذلـك عداوة ومكر وخداع وشقـاق وأذى، فهي ليسـت تفريط وتـرك ومساومة، وكذلك لا تعد عناد وإنكـار وتشديد وتكلف، وإنما هي ليست بالظن ولا بالهوى، وإنما هي العلم الخالص والحق المبين والله تعالى يقول،. "قُلْ هَـلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إلى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إلى الْحَقِّ أَحَقُّ

أن يُتَّبَـعَ أَمَّـن لَّا يَهِدِّي إلا أن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلا ظَنًّا إن الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيئًا إن اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ"

وكذلك قوله تعالى "إن يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وإن الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيئًا" .

فالحق لا يعرف بالظن والهوى وقول فلان وتحيز علان ومصلحة آخر ورغبة غيره، وإنما الحق هو الحق. هو الدليل الصحيح، والبرهان المنزل، والحق الخالص، هو كلام الرب -عز وجل- وهو الذي لا يأتيه الباطن من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـد. والله يهدي إلى الحق ويدل عليه، لذا أنزل المناهج الصحيحة والطرق القويمة التـي لو اتبعهـا متبعٌ لولج في طريق الحق والصواب والرشـد وأدلف، ولقد جاءهم من ربهم الهدى.

ثـم نعـود إلى ما قبل الحقيقـة سريعًا حتى لا نطيل المقام في هـذه النقطة، ونختم بهـذا حديثنا فالاعتياد للشيء، وأخذ النفس على الإتيان له واندراجها عليه حتى يُطبع عليهـا، فيصير طبع آخر لها فـوق السجايا والصفات، وكما قـال العرب قديمًا العادة طبيعـة خامسة، وقالوا كذلك "العادة طبع ثـان"، وهكذا ما يتعود عليه الإنسان يصير جـزء من كيانه، يتمحور حوله ويتصف به لأنه قائم على آلية التكرار، وحاجة الإعادة، وكمـا قالـوا ما تكرر تقـرر. وهذه العادة التـي يكتسبها الإنسان قد تكـون جيدة يعتمد عليهـا، وقـد تكون سيئة يرجى خلاصـه منها وبعده عنها ويكون ذلـك برياضة النفس علـى البعـد عنها قبـل التمكن والتغلغـل، والأمر في أولـه يسير إزالتـه وفي آخره يشتد ويصعـب، ويصبح عادة ملازمة، وصفة دائمة. وفطام النفـس شديد بعد التمكن لاسيما إذا ذاقت وتلذذت.

والإنسـان قـد يعتـاد الشـيء فيُفْقِدُه طعم شـيء آخر، حتـى قد يُنسيـه شيئًا من الضروري وبعضًا من الواجب حتى يصل في امتداد تلك المرحلة إلى الجزم أن ما عليه

هو أجمل شيء وأفضله. ويشعر القصائد، ويكيل المدائح، ويطيل القول، لأن هذا الشيء الـذي امتلكه هـو لشدة التصاقه به عظم عنده وأصبح جـزءًا منه، فيخرجه إلى حالة مـن الوعي تفيده بأن هـذا هو ما ينبغي اتباعه وهو محسوب مـن فضائل الأمور، مالم يكن أفضلها.

وقد يعتاد الإنسان شيء فقط لأنه يحتاجه ويريده، لكي يقضي به مأربه ومقصده، مجـردًا في ذلـك عن المشاعر والعواطف. غـير أنه من الممكن أو من غـير المستبعد أن تظهـر لـه خلال مسيرته فيـه أشياء قد تسليـه، أو أحداثا درامية قد تشغلـه، أو أفكار قـد تتصارع في ذهنه فتلهيه عنه أصلًا، فيمشي فقط محركًا قدميه ساحبًا لجسده في طريقه، وهو مجرد من كل شيء آخر.

نقطة في الفراغ

نشـأ الوجود وأصبح حقيقة مشاهـدة، مسلم بها. يعتقد فيها الصغير قبل الكبير. يـرى الوجود في كل شيء حوله مـن أصغر حبة رمل إلى الكون كله باتساعه وضخامته، بـل يرى الوجـود في نفسه في كل تفصيلة في حياته، وفي بيئتـه ليكبر وينشأ هذا الطفل الصغـير ويكـبر معه كل شيء حتى مفهومـه عن الوجود فيعلق كل شـيء عليه أحلامه وآماله. يكبر كل شيء لدرجة أن يصبح الوجود هو حقيقته، فلا يرضى إلا بوجوده هنا وهنـاك، فيملأ الوجـود ضجيجًا بوجوده، وإن كان الوجود شيئـا واحدا وصفة واحدة، إلا أنـه يراه متعددًا جـدًا إلى آلاف التقسيمات بل يزيد فيرى الوجود بعين الإنسان، ثم يترك تلك العين ليراه بعين الحيوان بأنواعه وفصائله، ثم يرى الوجود بعين الطائر، ثم يـرى الوجود بعين السوابح من الأسماك والثدييات يـرى الوجود بعين الخائف الوجل، ويراه بعين الشجاع الصلب المقداد، ويراه بعين المتشائم والمتفائل.

يـرى الوجود بعين الحكيم العاقل، ثم يعود ليراه بعين الجاهل الغبي ثم يمازج بين تلـك الرؤى جميعًا، لـيرى الوجود الواحد ملايـين الرؤى بعين كل كائـن، فيثري عنده مفهـوم الوجـود ليصبح أعمق مـن أن يوضح في عبارة أو أن يشـرح في تعريف، لينظر في وجـود الحي والميت، وجود الموجود ووجود الغائب والوجـود المادي، والوجود المعنوي القلبـي. ليصبح الوجـود قضية متشابكة معقدة بكل تفاصيلهـا الصغيرة وكل أحوالها المتقلبـة، فهي تحـوي كل شـيء بداخلها، تحوي الوجـود كله بكل صراعاتـه وتحدياته ومصائبه وكذلك بكل نعيمه وجناته وفتنه، تراه في كل دقيقة التي لا تتشابه مع أختها، تـراه في اختـلاف الدقيقة الواحدة في حيـاة كل كائن حـي، وفي كل تفصيلة بسيطة أو معقدة، فما هو الوجود إلا بعض التفاصيل الكثيرة و اللامتناهية.

ثم ترى الوجود في العدم، وترى العدم من الوجود، ترى كل شيء قبل أن يتكون، قبل أن يصبح شيء في حالة متقدمة عن حالة الوجود نفسه، فترى العدم قبل الوجود، وتنظر إلى اشتقاق الموجود من العدم، بل تشاهد الفراغ الحائل قبل كل هذا، وترى الإنسان لا في وجوده الحضاري بل في عدمه وموته الأولى قبل أن يكون ميتًا، تراه في حالة موته غير المشاهدة حيث لم يكن موجود حينها أصلا، فتنظر إليه في حالته العدمية أو الموت الأسبق ثم البزوغ والحضور ثم الفناء والانعدام ثم الاستدعاء والبعث، ثم ترى ذلك الكائن في اختلافه وتنوعه في العدم الأول.

فترى الوجود في الفراغ نابعًا منه، مشتقًا من حالة إلى حالة، كحال أي شيء يتردى في أطوار متنوعة، من النشأة والوجود والظهور ثم القوة ثم الزوال و الاضمحلال. غير أن هذا الوجود مختلف بحسب الموجود نفسه، فوجود الإنسان غير وجود الطير والحيوان ، وهذا غير وجود الأمم والشعوب، غير وجود السلالات الحاكمة والأنساب العلوية، غير وجود الدولة والحضارة، فكل وجود يتشابه مع الآخر في أشياء ويختلف عن الآخر في تفاصيل هامة هي المُعَرِفَة لحقيقة وجود الشيء نفسه.

ولما كان الوجود بهذا التعقيد والتشعب، كان مثيله بهذا التعقيد والتنوع كذلك وليس مثيله في النوع، وإنما مشابهة في الحبكة الشديدة في الغموض والالتباس، وهو الفراغ .

الفراغ . تلك الكلمة ، حينما تذكرها على مسمع من جموع الخلق يتفاوت تفسير كل واحد منهم لمعناها بل تجد كل فريق يتسابق إلى تبرير المعنى الذي ذهب إليه وتفسيره، بل قد يُخَطِئ الآخر لأسباب كثير، منها أنه متوارد على الأفهام بعدد من المعاني والتعريفات، أو أنه بعيد النسبة غير متحقق إلا بإيراده في سياق قد يتصل به المعنى المراد. وهكذا تتغير المعاني بتغير أشياء كثيرة منها السياقات، الدلالات، الاصطلاحات. وكل عقل يأخذ ما يناسبه منها وما يروق له.

فقد تجد البعض يرى الفراغ في العدم المحض، الذي كان أول كل شيء فهو سابق

الوجــود مــن حيث الزمنية، وهو الحقيقــة الأزلية للكون، حيث جاء مــن العدم وأصبح وكــان بعــد أن لم يكن شيئًا، ولم يكن له شكل أو هيئة. فــلا تستطيع أن تتصوره كذلك، إذ لا حقيقــة لذلك التصور. وكيف -أصلًا- يتصــور العدم وهو اللا شيء؟ وهو انتفاء الوجــود ذاته فلا مظهر تستطيع نسب الأشياء إليه، فكل نسبته الواضحة التي تستطيع الاتكــال عليهــا هي انتفاء الوجود. وهذا هو العدم، فلا يُعــرف إلا بذلك، فلا جوهر له ولا طبيعــة كذلــك لا تستطيــع أن تتصوره إلا بصــورة واحدة، وهي محــو كل شيء من السجــل الكــوني الكبير كلوحه مرسومة مزينة بالأشكال والألــوان، فإذا أزالت كل هذه الأشكال والألوان والمرسوم أصبحت اللوحة فارغة من كل شيء، هذا هو العدم، هذا هو الفراغ. ثم إنك تستطيع أن تنسج الأساطير والأوهام عند هذا الحين، وتروج الخرافات والأوهــام، كبعض من الألفاظ المسموعة في الواقــع المشاهد أو المسطورة في بعض كتب التاريــخ، ولا يعلــم لها معنى ذا نســب إلى أصلها غير أنها من نسيــج الخيال والأوهام وعمــل نحو هذه الأفكــار في إحداث ثورة فكرية داخلية كما هو موجود في أساطير نشأة الوجود عند الأمم القديمة وما أدى إليه ذلك في بعض الحضارات والأمم. فيستخرجوا من العدم أشياء كثير، غير أن النسبة فيها غامضة غير متناسقة، فيصورنها بشكل ذا قــدرة خارقة، بشكل غير مألوف، وإن كان لا يقبله العقل. إلا أن عقل الإنسان لا يرضى بالعــدم ولا يرضــى بالفراغ، فلا يسكت في ذلــك حتى يعمل عقلــه ، ويفتعل النظريات ويشــكك ويؤمن ويجامــل ويبحث، يبحث عن سبب، فلا تعسفــه الأسباب. حسنا، حان إذا وقــت العقل ليبتكر شيئًا واحدا أو اثنين أو ثلاثة. وكذلك حان إذا وقت العقل ليلقي بإيمانه إلى هذه الأقوال، ناهيك عما إذا كان هذا باطلا لا يقبل، أو زورا لا يحسب. إنه فقــط لا يحب أن يقف هكــذا. يحب أن يعرف السبب، لا أن تخفيه عليه ولو كان لحكمة مــا، لا تضعــه في اللا مكان حيث لا شــيء يفسر بالمنطق . وإنما تكــون الاحتمالات هي سيــدة الموقف هناك، والنظريات هــي الحقائق والنتائج ثم التخبط حولها والضياع في

تفسيرها وتحليليها غير أنها ناشئة في حقيقتها ناشئة عن احتمال لا عن يقين، مبنية على ظن وتوقع. غير أنه سيظل يعمل بعقله فيما لا عمل لعقل به، ثم لا يرضى بعد إلا أن يعبد صنما احتماليا ناشئًا من فكره المحدود ليؤمن به ويعتقد فيه، ثم يكل إليه .

أمَّا أن يقف عند حد عقله ويعرف قدرات نفسه، فيقف حينما لا يسعه إلا الوقوف ويؤمن بأنه ذاتي محدود، وأنه مخلوق لا خالق وبأنه كذلك -وهي الأهم- لم يؤت علم كل شيء . فهو كأنه جاهل في ثياب متعالم، فلم يؤت من العلم إلا قدرا محدودا على قدر مملكته وبيئته التي يعيش فيها أمَّا ما جاوزها فلن يعينه هو بكثير فائدة وعظم نفع عليه، فإن كذلك نعم، وهلم إليه. وإلا فلا ينشغل بفضول لا طائل من ورائه ولعله لا فائدة من البحث فيه إلا الوقت الضائع والنتائج الكاذبة والتشويش الذهني والحيرة العقلية، ثم يظل يدور ويبحث في حلقة مفرغة لا نهاية لها. فينتهي عمره وعمر من بعده ولا يصلون جميعًا إلا إلى ظنيات، وما الظن إلا أكذب الحديث وأبعد عن الإيمان والأقرب إلى الجحود والنكران.

فتجد من أهم شيء في العلم، معرفة حدود ذلك العلم، وفيما يبحث، وعن أي شيء يبحث، أيبحث فيما له قيمة عائدة بالنفع، أم البحث لمجرد البحث إرضاءً للغرور وطواعية للذات وتلبيه للأنا العليا. وهكذا يوضح آلية بحثه ، وطرق انتهاجه فيه ، وما اعتمد على إثباته وتسطيره في داخلة ، وهل أعتم على الحقيقي الثابت أم النظريات والفرضيات. إلى آخر ذلك .

وقد تجد آخرين يرون الفراغ في الفضاء البعيد والمجرات الكونية وفي العوالم الفضائية. بل قد يكون تعريفهم أوسع من ذلك، فتجدهم ينظرون إلى الفراغ ، بأنه كل ما كان غير كوكب الأرض. فيرون الفراغ في المجموعة الشمسية بكواكبها وأقمارها الطبيعية حتى في الأقمار الصناعية التي تسبح حول محيط كوكب الأرض، إنها في الفراغ فهي بعيد عن الأرض غير متصلة بها إلا بالإشارة والتردد. فكل شيء عدا هذا

الكوكب الأزرق يعد فضاء وفراغ حتى ينسب الأشياء الخارجة منه لغيره، فبمجرد أن تكون مصنوعة لتغادر الكوكب الأرضي يطلق عليها هذه النسبة. كالمكوك الفضائي، الصاروخ الفضائي، المركبة الفضائية. وما الفضاء عندهم إلا مرادفا لأشياء خالية خاوية فارغة بعيدة عن كوكب الأرض.

ثم تجد النسبة تستفل شيئًا فشيئًا. فتجد آخرين، يرون الفراغ موجود على الكوكب وفي البيت والطريق. وجميع الأمكنة فالفراغ عنده مرادف للخواء والخلو. فكل خِواء بين مكانين أو حاجز بين شيئين لا يشغله شيء، ولا يوجد فيه ما يملأه يسميه فراغا ثم اشتهر بينهم على هذا المعنى. فيقول، هناك فراغ في هذا المكان، يقصد به اتساع وانبساط وفرجة ومنه ظهرت بعض المسميات، من فراغ المعدة، فراغ في المسامات، هندسية فراغية، قياس للفراغ. إلى آخر تلك المصطلحات، وهي كلها مرادفه للخلو وعدم إشغاله حيزا أو جزءا مما وجد فيه شغل للا شيء، فأصبح أجوفًا خاويا إلا أنه محاط بأشياء مشغولة لها حيز في الوجود، فهي والوضع هكذا حيز خالٍ من أي مادة شاغلة للمكان غير أنه وإن كان ظاهرا للعيان أنه خاويا من كل شيء إلا أن هذا الظن غير صحيح. إذا كيف ينتشر الصوت أو كيف يصل الضوء وينتقل وينكسر أو ينعكس، وكل هذا يلزم ناقل أو موصل، يعمل فيه هذه الأشياء، لتصل بين طرفين وهنا يقوم الهواء بهذا الدور الوسيط -على ما أظن- إذا هو محتوي على غازات وعناصر تصلح أن تكون موصلا جيدا، وإلا فماذا نحن نتنفس فراغا جامدا! وما هو الشهيق والزفير غير إدخال الأكسجين وإخراج ثاني أكسيد الكربون.

فالفراغ وإذا كان يبدو في النظر الأولى القاصرة أنه فضاء خالٍ، إلا أن هذا غير صحيح على الإطلاق ، إذا هو مملوء بالغازات المحاطة من حوله إذا هذا الكوكب في حد ذاته مملوء بالغازات والمواد الكيماوية، وما يعتري ذلك من تفاعلات . إلى آخر هذا مما هو يعد علوما متخصصة تدرس كل شيء في هذا الفراغ وإحداثياته وتحديد النقاط عليه وكيفية حسابه وتقديره. إلى آخر كل هذا.

ثم وما المادة في ذاتها إلا ثلاثة أشكال نعلمها، دائمة الظهور عليها، منوعة بينها، متقلبة من واحدة لأخرى في ظواهر طبيعية كل واحدة منها لها تفسيرها. وهي إمَّا تكون صلبة أو سائلة أو غازية، وإما أن تكون منوعة بينهم في هيئة واحدة. والحالة الغازية هنا هي أحد أشكال ظهور المادة. فالحالة الغازية نوع من أنواع الوجود في هذا الكون الشاسع، وإن كانت غير مرئية بالعين المجردة، إلا أنها محسوسة. فالإنسان لو وضع في غرفة مفرغة من الهواء لمات في دقائق معدودة بل إن استنشاقه للهواء لم يكن للفراغ نفسه، وإنما لشيء يدخله إلى داخل جسده يساعد على عمليات داخلية في الهضم والتنفس والأيض. غير أن الدم نفسه حامل لهذه الغازات وإلا أين يذهب ما يتنفسه الإنسان وكيف يخرج مغاير لما دخل فيدخل غاز معين (أكسجين) ويخرج آخر وهو (ثاني أكسيد الكربون) إلا أن لهذه المادة التي يدفعها داخل جسمه أثر في تفاعلات كيميائية داخلة فهو عامل مساعد في كثير من العمليات الحيوية في الإنسان، ومادام الأكسجين الداخل للجسد، مادة كيميائية تنتقل في الجسد الداخلي عبر الخلايا، وله عدد ذري، وهو ضمن العناصر الموجودة في الجدول الدوري، وله ضغط ودرجة حرارة، بل وله تكافئ إمَّا أن يكون أحادي أو ثنائي أو ثلاثي، وكذلك إمَّا أن ينضم إلى أحد أكبر التقسيمات بين الفلزات واللافلزات ولكل منهما خواصه وميزاته وتأثيراته، ويحول إلى أحد الأكاسيد عند تفاعله مع غيره من العناصر ، إلى غير ذلك.

ومع كل ما سبق إلا أنه لا يرى بالعين المجردة، غير أنه أحد أشكال الوجود لا العدم، فيكون عامل أساسيًا وعنصرًا مساعدًا أصليًا. إمَّا على الاشتعال أو على التنفس والإبقاء على صورة الوجود مستمرة، بل والعمليات الداخلية في جسم الإنسان، بل والحيوان كذلك. وهو عنصر مساعد في عملية البناء الضوئي للنبات، وهو كذلك مخزون في المياه التي هي تشكل مساحة أكبر من اليابسة، بل هو مخزون في التربة كذلك، ويؤثر فيها تأثيرا شديد. ويكفيك في ذلك عوامل النحت والتعرية التي يؤثر بها

علـى كل شيء ذا قالب متشكل. فهو من مكونـات التربة ، وموجود بين السماء والأرض ، وهـو مختلف في طبقاتـه وكمياته من خروجه من الأرض إلى العالم الخارجي غير أن ضغطـه المؤثر علـى الإنسان المعطى له نوعًا مـن الثبات على الكوكـب وإحاطته بشيء من الجاذبية، وتشكيل دروعًا خارجية تتأثر مع الأشعة الشمسية فتصرف مدارها إلى خارج النطاق الأرضي، فهو يؤثر ويتأثر بالنظام الشمسي ودخوله في حروب وتحالفات بـين الأكسدة والاختزال، والعمليـات الكيميائية، ونشاطه الـذري أو خموله، غير كثرة هـذه الغازات في الوجود فهي تزيد على المئـة عنصر كما في الجدول الدوري الحديث، ناهيـك عن وجودها في القشرة الأرضية والتفافها حـول الكوكب الأرضي ووجودها في أكثر كائنات الأرض بل كلها.

ومـع كل هذا فأنت ترى ذلك الخلو بـين المكانين فتحسبه فراغًا من المادة ولا شيء فيـه، إلا أنه يحتوي الكثير من المواد بل انظر إلى الإنسان في حاله عطاسه وتثائبه، هل يرى أثرًا لهذا الهواء الخارج المنبعث من الجسد ويحدد له شكلًا ، وإنما غاب عن ناظره ولعلـه أمامه منصوب أمام وجهـه وهو لا يراه لأنه ليس متشكلًا بحالتي المادة المرئيتين الصلبـة أو السائلة، إذًا فالفراغ قد يحتوي الكثير مـن التفاصيل التي لا يستطيع المرء إدراكها بقدرته الطبيعية وحواسه البشرية بل هي فوق ذلك الإدراك.

أيمكـن أن تكون الروح حالة من حالات المادة اللامرئية وشكل من أشكالها! أيمكن أن يكـون الجـن بحالته الأولية التـي خلق منها وهي النار ثم أصبـح مادة لا ترى للعين البشريـة المجردة، فهو هيئة موجـودة مجمع على وجودها وأنهـا ذات مصورة إلا أنها هيئـة مخفيـة محجوبة عن الرؤية البشريـة، لأنها حالة من حـالات الوجود اللامرئية وهـي الحالـة الغازية. فهـو يرانا ونحن لا نـراه، فنحن من الحالة الماديـة الأولى وهي الطـين المصور ثم نفخ فيه الروح، وهو يطعم الطعـام ويشرب الماء فجمع بين الحالات الثلاثـة إلا أنها في قالب صلـب ثابت له حركة محددة، فهو حالـة صلبة إلا أنها حاوية

للحالتين الآخرين. غير أن هذا لم يثبت كحقيقة علمية ثابتة، فهو ظن ورجم بالغيب واحتمال . فقد تقدم العلم وأصبح في أشد أشكاله إخافة، فعرف دقائق ما خفي على الأولين. وانفتح أمامه من طاقات العمل وتفسير الكون مالم يعط لأحد قبله، فطور وأنشأ وجدد وفسر. وأوجد لكثير من الظواهر تفسيرًا وتحليلًا . ونظر حالة الوجود والنشوء والكواكب والنجوم والأقمار والمادة والعناصر والتفاعلات الكيميائية والفيزيائية.

ومع أن الحالة الغازية لا ترى بالعين المجردة، إلا أن الإنسان اكتشف الآلات والمعدات الحديثة المتطورة التي يُقَرِبُ بها الوجود وعناصره، ويظهر تفاصيل كل صغيرة ودقيقة، وينظر للكون وإلى كوكبه الأزرق فيراقب الكواكب والأقمار والشهب ويرى المادة في حالاتها الخفية المعجزة للعين البشرية فاستعان بالعلم على رؤية بعضها، بل كثير منها، بل كلها. غير أنه لم يُثْبِت العلم أن حدد الروح بأنها هيئة غازية، ولو أنها كانت لسُجِلت وعُلمت وحُددت العناصر التي تحتويها وشكلها ولونها إلى آخره. غير أن لا أحد يعرف عنها شيئًا وكذلك الجن لو كان من تلك الهيئات الغازية لعلمها الإنسان ورآه في شكله الطبيعي، لا ما قد يتحول ويتصور عليه من أنماط الحالة الصلبة، من الكائنات الحية.

فهذا أيضًا يدعوك إلى التساؤل أهناك حالة رابعة للوجود لا يعلم الإنسان عنها شيئًا بل أصلًا هل يعلم باحتمالية أن قد يكون هناك حالة أخرى غير الحالات الثلاث المعهودة محجوبة عن الإنسان قد تفسر شيئًا من الغموض للأشياء التي لم يثبت العلم في البحث بها قيد أنملة من نتيجة أو فائدة نحو المقصود، فكل ما وصل إليه فيها لا يغني ولا يسمن من جوع، فهو العدم والسواء، فلو ضربنا إلى الاحتمالية لجاز لكل إنسان أن يعرف مالا يمكن أن يضعه في شيء مفهوم يعقل، فقد تخلو من المنطقية الفكرية وقد يتصل بها بعضًا من المنطق، غير أنها لا تثبت ولا تنفي تمامًا كالعدم لا أثر له فكل ما خلا الأثر منه، ولم يكن حقيقة في أي شيء فهو عدم. حتى وصفوا الشخص الذي لا يرجى نفعه بالعدم، مع أنه موجود إلا أن العدم هنا عدم الأثر والفضل والفائدة.

وليعلـم الإنسان أنه كما خفي عليه أشياء كثيرة من حقائق الوجود اكتشفها العلم مؤخـرًا فلا يجب عليه أن يكل كل شيء إلى سبب ظاهري ملموس، فهناك قوى خفية لا يعلـم الإنسان عنها شيئًا، لأنه ذا نظر محدود، وعلـم محدود، وقدرة محدودة في كون لا محـدود ولا متناهي في الضخامـة والكبر، فيجعله هذا يؤمن بحقائق الغيب المستورة لحكم كثيرة، وإلا لما لم يستطع أن يعلم حقيقة الجن أو الملائكة أو الأرواح! لا يعلم عنها شيئًـا غـير ما ذكره خالقهـا وخالق كل شـيء، الله العلي العظيم الخالـق المبدع، الإله الواحـد المستحق للعبادة، بل يذكر المولى – تعالى– أن المرء حال الموت يرى كل شيء، وأخـبر تعالى أنه جعل على البصر غشـاوة تمنعه من رؤية أمور معينة قصدًا للاختبار والامتحـان في التصديـق بقول الملك أو بالاعتماد على الحواس دون الاعتماد على من خلقها وهو الله الكبير المتعالي.

فيقـول سبحانه "وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَـا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ"

والبصر حينئذ يرى من الأشياء ومخلوقات الله –تبارك وتعالى–مالم يكن قد كان يشاهده وهو في حياته الدنيا.

بـل هناك تحـد أقامه الله –عز وجل– في قرآنه للدنيا جمعـاء، بكل طوائف البشر ومـا وصلوا إليه من التقـدم والتكنولوجيا والإبهار السمعي والبصري، وحالة التقدم أو لعلـك تقول الزوغـان الفكري من شدة العلـوم والمعارف وكثرتهـا وتقدمهم فيها يقيم هذا التحدي إلى الآن، ومازال البشر كلهم عاجزون مكبلون في ضعفهم، وقد جعل هذا التحدي في "الروح" وهو إذا كنت تظنون أنكم عالمون بكل شيء فأنتم مخطئون، بل في أنفسكـم تلك فيها من الأسرار مالم تقـدروا على أن تعلموه بعد، فإن كنتم تؤمنون بكل شيء ملموس فما وأين هيئة الروح التي هي فارقة بين الحياة والموت، التي هي إذ نزعت منكم صرتم جثة هامدة لا حراك لها ولا نطق بها.

إن استطعتم أن تروا هذه الروح فصوروها لغيركم، وإن قدرتم على تحديد هيئتها وحدودها فاحجزوها وامنعوها من الخروج من الجسد فتنعموا بالخلود الأبدي في الدنيا. ألستم تريدون أن تعمروا ألف سنة! وتودون إطالة أعماركم وتمنعوا أحبائكم ممن فارقكم بالموت والمغادرة، فامنعوا الروح عن الخروج من الجسد، وقفوا لها بالمرصاد واجتمعوا أنتم أيها الجنس البشري كله، بل وتعاونوا مع الجن لتدركوا تلك الحقيقية وتجدوها وتعرفوا حدودها. وما أنتم ببالغين، فالروح هي من أمر الله تعالى، والعمر هو قضاءه عزوجل.

لذلك ينصب الله الإعجاز والتحدي قائلا:

" أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ(٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ"

أأنتم المنكرون لحقيقة أن هذا الكلام هو من عندي – أي من عند الله تعالى- فقلتم إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر، وأنتم فيه شاكون مرتابون مكذبون بل وزدتم على ذلك أن جعلتم هذا رزقكم وعملكم بين الناس فصرتم تعقدون المحاضرات والندوات وتنشرون الكتب ارتزاقا من التكذيب بكلام الله تعالى والتحريف فيه "فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ" وهذا أحد أوجه إرادتهم -فكان التحدي-:

"فَلَوْلَا إذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٣٨)وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٤٨)وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ(٥٨)فَلَوْلَا إن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٦٨)تَرْجِعُونَهَا إن كُنتُمْ صَادِقِينَ"

فلولا، أي فهلا نظرتم بتلك العين الجاحدة المنكرة المكذبة إلى أحدكم وهو يموت وقد بلغت روحه الحلقوم، وأنتم تنظرون إليه فلا تملكون له نفعًا ولا ضرا، يموت بين أيديكم وأنتم فقط –تنظرون- لا تستطيعون له شيء ولا تقدرون له على عمل .

والملائكـة أقـرب إلى هذا المفـارق منكم حينما تخرج روحه من جسـده، وأنتم لا ترون شيئًـا من هـذا كله. وهو – هذا المسكين – أصبح لا يقوي علـى الكلام أو التحدث، أو أن يخبركـم بما يشاهـد أو يسمع ، غير أنكم معزلون عنه بأبصاركم المحدودة، أمَّا هو فبصره حديد يرى ويسمع ما يعجز عنه غيره .

فلـو كنتـم أنتم تكذبـون بهذا الكـلام وتنكرون هـذه الحقيقـة، وأن الدنيا جاءت عبثًـا وليس هناك حساب أو جزاء، وأنكم غير مسئولين عـن أعمالكم، وأنكرتم البعث والحسـاب والشرور، فهلا أرجعتم هذه الـروح إلى مكانها وسددتم عليها سبل الخروج بـكل مخرج تقدرون على إغلاقه. أما والأمر كذلك من بيان ضعفك وكذبكم. فانظروا حالكـم وآمنـوا بما أنزلت من الكتـب والرسل، واعلموا أن الدنيـا دار عمل والآخر دار جزاء، فاشغلوا أنفسكم بما خلقتم له وما أوجدتم من أجله.

وأعلمـوا أنه ليـس كل حقيقة ترى بالعين المجردة وتشاهد. بل الإخبار للمخلوق من الخالـق عن طريق الرسل والكتب، هو بمنزلـة الرؤية وهي إن كانت رؤية غير مشاهدة بالنظـر، إلا أنها رؤية بالقلب والبصيرة والإيمان والإذعان . وهنا تبرز حقيقة الإيمان جلية في أعظم أبوابها وهو الإيمان بالغيب فيما خفي واستتر ولم يكن للعين إليه سبيل.

وليعلـم الإنسان أن الروح والملائكة والجـن وغيرهم مما لا يعلمهم إلا الله تعالى، فهـم خلقه الذين أخفـي حقيقة هيئاتهم عنـا، ولكن تعالى أعلمنا ممـا خلقوا، فخلق الجـن من النار السمـوم، وخلق الملائكة الكرام من النـور، واختص بالروح، وجعل كل أمرها من عنده وحده فنحن وإن لم نراهم –الملائكة والجن– غير أننا نؤمن بوجودهم، لا على ما ترتضيه عقولنا وأنفسنا، وإنما عن طريق ما أخبر الله عز وجل ليسلم العقل ويقول "وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ وَمَا هِيَ إلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ" .

فَوُكِل علم هـذه الكائنات إلى الله وحده، واختصها لجنابه وجعلها من العلم الذي

لا يطلع عليه أحد ثم بين حقيقة أخرى أن كل هذا إنما هو تذكرة، وإيعاظ للبشر، حتى يؤمنوا ويتبعوا ويقروا بالعجز وبالفقر والضعف للرب الخالق العظيم.

وصدق اللّه العظيم إذ يقول "وَمَا هِيَ إلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ"

غير أن هناك آخرون يسفلون أكثر، فيرون الفراغ في الإنسان، هذا الكائن البشري ويعـددون أنواع الفراغ فيه، وليس فراغًا واحدًا يمكن معرفته عنه وإيضاحه منه، وإنما هـو أنواع مـن الفراغات المتعددة، وهي في صفات مشتقة من المادة. وبعضها مشتق من الصفـات الإنسانية، وبعضها مشتق من عمل القلـب والنفس غير أن كل واحد من تلك الأنـواع له قسم خاص بذاته منفصل عن الآخر مغايـر له، وهو قصة طويلة تشرح لك شـيء من الوجود في انعـدام بعضه، وشرح تجانس المادة والجوهـر وتبين لك الإنسان في مجمـوع الكون وتناسق كل شيء وتمازجـه فيه بين احتواءه وفقده وامتلاءه وفراغه، فهـي قصة طويلة كل جزء من هذا الإنسـان في فرده قصة مغايرة بحد ذاته في أفعاله وتصرفاتـه وصفاته وتأثره وتأثيره في عواطفه ومشاعره في حكمه وقضاءه وصبره. كل إنسـان قصة بحد ذاته، يمكـن أن تروي في مؤلفات . وياالعجيـب الأقدار بل لقد رويت أصـلا، فتجـد أحدهم يكتب سيرته الذاتية، وآخر يكتـب تجربته في كل ما يحب هو أن يكتبـه، فكتـب الإنسان الذي يريده و يعجبه أو قد يكتب كلاهما. أيّا ما كان، فإن البشر بالفعـل كتبوا كل شيء يتعلق بحياتهم مع أنفسهم ومع غيرهم ورحلاتهم واكتشافاتهم وقراراتهـم ودبلوماسيتهـم وتعاملهم مع الدول الأخـرى والأشخاص القابعين فيها، بل واكتشافاتهـم واختراعاتهم وما صادفهم مـن أوقات الضعف والجبن والشدة والرخاء والقـوة والشجاعة يسجلـون المواقف ويحكونهـا إمَّا بكتابتها في الكتـب أو روايتها على هيئة قصص يخبرون بها الآخرين ويظهرون ذلك الإنسان الصغير في داخلهم المتحفز للخروج من خلال التمهيد له بالشجاعة والكلام والعطاء والمهارة والعلم فيعظمون فيه إنسان "الأنا" التي تعلو شيئًا فشيئًا.

ومـع كثرة التجـارب البشريـة والسير الحياتيـة تجدها مختلفـة فحبكة القصة مختلفة والسياق مختلف والتسلسل الدرامي السردي مختلف، غير أن الشيء الذي قد ينشـأ به هو المعاني. فكل إنسـان ينفرد عن الآخر في كثير ويتشابه معه كذلك في كثير. فهـو يجسـد التنوع في أشياء محـددة، ويظهر الاختلاف ممازجًـا بعضه إلى بعضه في قصص لا تكاد تنتهي إلا بنهاية الجنس البشري نفسه.

ومـن أنواع هذا القسم، الفراغ النفسي، هل يمكن أن يكون للنفس فراغ؟ ولم يكون هذا؟ وكيف يكون؟

قـد ذكرنا أن النفس لابد أن تكون عاملة في شيء، مستخدمة في أمر، وإلا يصيبها نـوع من الفـراغ لا تهدأ فيه. بـل تتكالب عليها فيـه الشدائد والعلـل، ولا ترضى إلا أن تشغـل هذا الفراغ بأي شيء حتى ولو بالوهم. فإنهـا إن لم تجد لها شيء تفعله، تبحث فيما مضى من الأمور لتقلب فيها، أو لتحلل كل تفاصيل الحاضر بتحليل غاية في الدقة والرجحـان بعوامـل حدوثه و أسباب ذلـك ، وما يترتب عليه إلي آخـره فتظل في ذلك زمنا ، ثم لا تعدم نتائجه ، فيصيبها شيء منه. وهي قد كانت فيه ملء السمع والبصر، فإذا ما شرعت في مثل هذا ملئت القلب والجسد بما عملت فيه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشـر. ثـم يصيبها بعد ذلك شيء من النفـور والخروج عن المألـوف فتُمَثِل ما شرعت فيه، وإلا فهو لا يرضيها أو لا يكفي نهمها، فهي ذات نهم شديد تحرق ما تأخذ بسرعة شديدة لأنها جائعة لأي شيء تتأثر بأي كلمة، وتثور على أي هفوة فالتفصيلة الصغيرة تملأها حين دخولها إلى آلات الإدخال، ثم تقوم عليها فتوسعها طحنًا وضربًا، ثم تقوم بهضمهـا ولا تشبع بعـد ذلك . وهذا بطبيعـة الحال، يختلف من نفـس لنفس، فهناك نفوس كبار عظيمة، لا ترضى بالقليل. وهناك نفوس أخرى تقنع وترضى، وأيًا ما كانت تلك النفس، فإن هذا الفراغ المراد قد يضيف إليها شيء من الثوران والشدة، والجفاء، والخشونـة في القول، وهذا أحد تلك التفسيرات. إذ ربما تمارسه النفس لسوء هضمها

لما أدخل إليها، أو أنه كان سيئًا فاسدًا لا فائدة فيه فكان ضرره عليها شديدًا وأصابه منها مبلغًا عظيمًا. فالأسباب متعددة، غير أن عدم وجود شيء لها تدور عليه وتعمل به أحد الأسباب، وقد خصصت للنفس بابًا كاملًا أتحدث فيه عنها وأحوالها وأمراضها. إلى آخره.

ومن ذلك أيضًا، الفراغ العاطفي كما أن للنفس عمل وذهاب و رواح، كذلك القلب فله أعمال كثيرة من المحبة والرهبة والخشية والكراهية والعطف والرحمة والشدة والغلظة. فأعمال القلوب كثيرة وخلو القلب وفراغه من أحد هذه المشاعر يورث في النفس والجسد أشياء كثيرة، ربما تكون ضارة ، وقد تكون نافعة . فكما أن لكل شيء في جسم الإنسان عمل يقوم به ووظيفة له لابد من إتمامها. والقلب واحد من أجزاء البدن، فله كذلك أعمال وأشغال، غير أن بعضها طيب والآخر خبيث، تبعًا للصفات نفسها فالقلب يحتاج إلى أغلبها لا أقول الحب والعطاء والكرم والبذل فقط ، بل يحتاج كذلك إلى الكراهية والبغض والشدة، غير أنها بقدر معين، ولحكمة خاصة مؤقتة، وضرورة مخصوصة. توجد بوجودها وتنتفي بعدمها. وليس لازم كلامنا الحالة السلبية، تماما، ليس هذا هو المراد. فلا يجب على الإنسان أن يحب الخطأ والضلال والفساد، بل يجب عليه حتى يكون قلبه سليمًا أن يكره هذه الصفات ويبغضها، ويشدد على من اقتطع من حقوق الناس وأرزاقهم وأصابهم بالضرر والأذى في حياتهم.

فمثل هذا لا يعامل بالحب والرحمة، وإنما يعامل بالعدل والقسط ومن مقتضى العدل أن يشدد عليه في تنفيره لنفسه أن تأتي تلك الدنايا، وهذه الصفات الخبيثة ولهذا تجد أن العقاب فيه من الشدة والزجر والتهويل لردع النفس عن غيها واعتدائها. بل تجد الدول كذلك تخصص أماكن وسجون لمعاقبة هؤلاء المجرمين الذين يعتدون على حقوق الناس، ويقتطعون من أموالهم وأملاكهم وأعراضهم بغير حق، وهذا يوجب إظهار صفات الشدة والقوة، غير أنها في حالة طارئة على النفس فهي ليست الحالة الأصلية التي يجب أن تتعارف فيها للنفوس من صفات الحب والرحمة والعطاء والخير.

وهــذا يدعــو إلى النظر، هل الإنســان منفصل عن صفاته؟ أي هــل الإنسان شيء والصفة شيء آخر؟ وهذه قضية غاية في الخطورة. الإنسان ليس شيء مجردًا مفصولاً عــن كل شيء، إنما تعلق الأشياء به جائز ووارد لاسيما إذا كانت هذه المتعلقات صفات بعضها جبلي والآخر مكتســب. فالإنسان مكون من تفاصيل كثيرة، والصفات هي أحد تلك التفاصيل .

الصفة في حد ذاتها قد تظهر مجردة عن الانتساب، وهذا فقط لإعطائها نوع من التعريــف الذي يحدها ويحدد مقصدهــا ، فالرحمة مثلًا صفة مــن الصفات المجردة التــي لهــا تعريف خاص وآثــار منبعثة منهــا ، غير أنهــا لا تدل على أحــد ، وكذلك هي مفهــوم كلي حوي الرحمة بكل تفاصيلها ودقائقها ، ومــا يتشعب منها ويصل إليها وكل مــا يتصل بها من أفعال تُجسد على هيئة معينــة . فتُجَسَد الرحمة في الأقوال والأفعال والتصرفــات، أمَّا الشخص الممارس لأي صفة كانت، إمَّا أن تكون الصفة جبلة فيه، أو مكتســب لهــا وأيّا ما كان الأمر فإن الهيئة الممارسة للصفــة متنوعة ، سواء كانت هيئة إنســان أم حيــوان أم طــير أم جن. وكذلك إتيانــه للصفة ذاتها يكون بعــد مغايرة كل نــوع عــن الآخر ويختلف كذلك في مقدار إتيانه من هــذه الصفة، فالصفة نفسها تقبل القسمــة على أجزاء، فكم جزء من الصفة ذاتهــا استطاع أن يأتيه. فيختلف فيه أبناء الجنس الواحد.

من الإنسان مثلًا ، فنجد الرحمة في قلوب الخلق متفاوتة، فتجد إنسانًا رحيمًا أشد الرحمــة، و آخر يعــد رحيمًا ، ولكنه بقدر يقل عــن الأول إلى أن يصل بالدرجة إلى حدّ الجبلي فيها ، أو يصل بالصفة إلى حدها الأول. فلا يعقل أن تنزع الصفة من الإنسان فهــي موجودة فيه، ولكنها قد تقــل فيه وقد تزداد تبعًا للممارســات الفكرية والحالات النفسية والمعاملات البشرية، وهكذا.

ومـمــا سبــق، لا يعقل أن تنفصــل الصفة عن الإنســان، إذ هي شــيء ملازم له لا

يتركه. غير أنه يغلب على أفعاله نوع من التصرفات ينسب إليها فيكون الفعل هنا هو الحكم على الصفة التي غلبت عليه أو تتطبع بها وإلا فالإنسان الرحيم هو كذلك غليظ شديد قاسٍ، والإنسان القاسي الجلف هو كذلك رحيم حليم طيب، وعلى هذا فقس. فالصبر يكون بالتصبر والحلم يكون بالتحلم، فالصفة نفسها موجودة فيه ولكنها ضعيفة الأثر، فالمطلوب منه أن يزاول التصرفات التي ترفع من مقدار هذه الصفة في نفسه، وهذا يدلك أيضًا على أنه لا فرق بين الإنسان وصفاته، إذًا فإن مجموع السجايا والأخلاق تظهر وتتضح في معاملاته وأفعاله .

ثم إن وضوح أثر صفة لا يعني انعدامه من الأخرى. فالإنسان الشديد القوي الذي تظنه أنت لا يلين، هذا في ظنك أنت لما رأيت من أنه شديد في معاملاته لا يلين فيها، غير أنك لو تتبعت مواقفه كلها مع الناس جميعًا، لوجدت في بعضها نوع من اللين وشيء من الرحمة والتسامح والبر. لا تخطئ في الحكم على أحد، فالناس قد تكون مثقلة بالمتاعب والهموم التي جعلت هذه الصفة مدفونة تحت ركام من ضغوط الحياة، وصعوبات المعيشة والأحزان والمصائب فهذا يريد فقط هدم هذه الأسوار العالية من اليأس، والحواجز التي يضعها ليخفي وراءها ابتسامته أو دمعته، يخفي وراءها شغفه أو شجونه فما أن تزيل هذه الأتربة وترفع هذه الغشاوة ترى الصفة واضحة ظاهرة، وأمثلة ذلك في الحياة المشاهد كثيرة جدًا.

وهكذا الإنسان فأنت تحبه أو تكرهه لما يتصف به من الصفات التي يظهر مداها في المعاملة والممارسة. فتجد إنسانًا يقول أنا أحب فلان غير أني أكره فيه كذا وكذا ، وهذا عجيب . وهو من المغالطة المنطقية، لأن البشر هم دائمًا هكذا، فمن الذي رضى تمام الرضى عن صفات صاحبه أو من الذي أحب أخاه بكل سجاياه وتصرفاته! إذ المنطقي أنك تحبه لاتصافه بصفة طيبة جميلة، وتكره لتصافه بصفة سيئة فليس هناك معنى من محاولة بعض الناس فصل الشخص عن الصفة، فتجد أحدهم

مثـلاً يقول أنـا أحبه غير أني لا أحب صفاته، وهذا أعجب من سابقه. وهل الإنسان إلا صفات ومعـاني وأفعال مالم تحبه لأجل هذه الأشياء، هل تحبه لأجل صورته ومظهره، أو لأجـل صلته بك وقرابته منـك. ولكن إن أردت وجه الدقة والصواب في ذلك، لعلمت أن المحب يعمي عن جميع صفات محبوبه السيئة، فلا يرى فيه إلا الجميل حتى ولو غلب عليـه صفات سيئة فتجده يعمى عنها لصاحبه، لكثرة تعلقـه به. فالمحب متحيز دائمًا لحبيبه، فهو في عينه شيء آخر غير الناس، فلا يظهر عيوبه ولا ينشر بلاياه.

إلا عندمـا يقل هذا الحب شيئًـا فشيئًا، فكلما قل الحب ظهـرت العيوب والبلايا، أو قـل ظهـرت الحقائق وغـاب التجمل، وتجد ذلك كثـيرًا وتلك قاعـدة حياتية . فأما الأولى ففيهـا التزيـن والتجمـل وإظهار ما قد لا يكـون حقيقيًا، أضـف إلى ذلك قبول القلب على الأمر وحبه له وعشقه لإتيانه وهو في هذا محب ولهان، طائش قلبه عنه فلا يتتبـع الحقائق، وإنما النظر جميعه إلى قلبه فهو يتتبعـه مجيئه وذهابا . وقلبه حينئذ بكليتـه مقبل على الأمر مجمع عليه، فتجده لا يـرى إلا القليل من العيوب، وعندما تقل المحبة شيئًا فشيئًا تظهر العيوب بارزة ظاهرة. والعجيب الأغرب من سابقيه أنك تجده يتسـاءل، فيقول كيف لم يرَ هذه العيـوب وكيف لم يفطن لها؟ والجواب، أنه محب علق قلبـه، فعمي عن كل شيء لا يكاد يقبلـه فيه، وبل تجده قد يبرر الخطأ ويدافع عنه لأنه محب شديد الحب وهكذا الحب يأخذه في شعاب الغفلة عن الواقع.

أو قـد تقـول إنه قد يرزق الرضا عن فعل حبيبه، فيرضى به، إمَّا لأنه لا يراه أصلًا على حقيقته، أو أنه يراه مشوها ويتجاهله أو أن قلبه متحيز له فيتحيز كذلك لما يأتيه، أو أنـه يرضـى بكل ما يأتيه حبيبه أيًّا ما كان، فالمحبة هنا تزداد حتى تغلق شغاف قلبه وتمتلكـه وتسيطـر عليه. وذكر في درجات الحـب أنواع ودرجات كثـيرة، وهي تبين أثر المحبـة على المحبوب ودرجه ذلـك في القلب ومعلوم أن عين المحب غـير صادقة، لأنها ستتحيز النظر غافلة عن بعض الحقيقة.

ثم حينما يبدأ نفسه بالملامة، تجده في حالة أخرى عجيبة جدا. والعجب هنا ليس في وقوعه في تلك الحالة، بل التعجب هنا من تعجبه هو! تجده يمل ما كان هو أشد إعجابا به قبلا، وتجده ينفر مما كان أشد التصاقا له. وينشر الكلام ذما والأقوال سوءًا. فما كان حبه إلا حبا للشكل الظاهري، ولمّا كان الشكل الظاهر غير ثابت، بل متغير بتغير الأحوال والظروف. والإنسان من طبعه الملل، فهو ملول من كل شيء حتى لو كان مظهرا جميلا وشكلا حسنا، وكأن الملل طبيعة أخرى له. ما أكثر طبائعه! فالحب حينئذ زورا وباطلا، ولعله إلى الإعجاب الشكلي أقرب فيتمكن ذلك الشكل منه، وأصاب منه منزل. كطبع الإنسان في حب الحصول على الأشياء الجميلة، أمَّا الحب الذي يدوم هو الحب الناتج من العشرة، لا من النظرة المجردة فقط، الحب القائم على الاحترام المتبادل والصفات الحسنة والطيبة، الذي فيه تشابه العادات حتى ولو لم تكن كثيرة، إلا أنها كافية لإقامة حياة مشتركة وبيت متوازن. وحينئذ يصاحب حب القلب نظر العقل، وشيئًا من الحكمة فتجد أنه ليس قائم على الاضطراب وحب الامتلاك، وسيطرة الشهوة، واندفاع الإرادة، وسرعة التصرف. وإنما هو قائم على المحبة العقلية والتفاهم وحسن التصور وحنان النفس ورغبه القلب وانشراح الصدر.

والشاهد، أن الإنسان قد يتأثر بشيء من الصفات، ثم يعميه هذا التأثر عن بقية الصفات الأخرى، من ذلك تفهم انحياز بعض الناس لأشياء معينة، وأقصد هنا تلك الحالة المخصوصة، فليس الأمر على عمومه، لأنها وقتئذ سيطرت على القلب وجلست على كرسيه. غير أن الإنسان نفسه جامع لهذه الصفات ممارس لها ولكن بأقدار مختلفة، ثم إن الفراغ المقصود هنا، هو فراغ العاطفة.

والعاطفة هي انبعاث وأثر من آثار القلب تطلقه في بعض المواقف المختلفة، فليس يقصد بها فقط الحب، بل هي العطف والتسامح، البر، والإحسان، والحنان، والرحمة. هي جميع أنواع المشاعر المختلفة، وكل هذه هي طاقات قلبية يبعثها القلب عند تأثره

بـأي موقف يتعرض لـه الإنسان، فيتحـرك القلب محررا هذه العاطفـة وهي قد تكون جياشـة، مسيطـرة على الجسد، لا ينفع معها عقل أو حكمة، لأنها وصلت شغاف القلب وتمكنت منه. وقد تكون طبيعة يستطيع المرء السيطرة عليها ويسوقها إلى داخل قلبه.

وليسـت العاطفة فقـط في الأمور الإيجابيـة، بل تكون في صفـات أخرى كالغضب وغـيره وكل هذا يؤثر على الإنسان ويخزن داخليـا في عقله اللاوعي وتجاربه النفسية، فتجـد مـن تنوع العاطفة التـي هي فعل القلب بـين الخوف والرغبـة والحب والغضب والكراهيـة والحزن والسعادة والمـرح أنها ليست مرتبطة بشـيء واحد، بل هـي متعلقة بتفكـير المـرء وإدراكه ومشاعره السابقـة، وأثر تفاعل الشخص المواجـه له، ورد فعله وتأثـره. غـير أننا ما نريد بالعاطفة مفهومها العام الشامل، ولكن هذا الجزء البسيط منها الـذي يملأ الإنسان سعادة وسـرور وفرحه وانشراحا. ويكـون هو المكون لمزاجية الشخص، فبوجوده تكون حالته النفسية في درجات جيدة أو عالية، وبفقده يحدث لدي المرء نوع من الخيبة وفقد الأمل والضياع أو التشتت.

فتقـول أولًا، أن العاطفـة هـي جبلـة خلقهـا الله تعـالى في الإنسان، فلـم تكتسب مثـلًا عبر الحيـاة، وصرعاتنا وفيهـا، أو تجاربنـا. أو في مراحل نمونـا، وإنما الحياة وانعطافاتهـا ومنحنياتها هي التـي تجليها أو تهدمها. فعاطفة الحب العامة بين الرجل والمـرأة، بين الوالد وولـده، بين الأم وصغيرها، مشاعر مع الوالدين، مشاعر مع الأبناء والأحفـاد، مشاعر مع الأقارب والمعارف، مشاعر مع الأصدقاء والزملاء، مشاعر حتى مـع الحيوان والطير، وبعض هـذه المشاعر جبلية فطر الله المرء عليـه، وبعضها يجليه المرء في حياته بالتعرف على الناس، وبمعاملاتهم ثم الإعجاب بهم والانحياز لطرفهم أو بغضهم وكراهيته إياهم.

فـالله -عـز وجل- جبل الرجـل على حب المـرأة قال تعـالى "وَجَعَلَ بَيْنَكُـم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً"، وقال "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ" فجعل حب الرجل لامرأته يتجاوز كل

الحدود، لأنه جعله أول الأمر جبلي فيه، ثم كان ميله الطبيعي إليها. فهي نصفه الثاني الـذي خلق منه، حينما خلق الله تعالى حواء مـن ضلع آدم -عليه السلام- ثم جعل في تلـك العلاقة من الأمور ما يجعلها من أقرب الناس إليه، وأعلمهم به. وأنا لا أتكلم عن الواقـع المشاهـد، بل على الأصـل في الأمر الذي كان الحال عليـه، الذي هيئت فيه من الأمور والأشياء ما جعلها أن تُكون من العلاقات قرابة وارتباطا قويا .

وهـذا الحب تزيده الأيـام صلابة وقوة، وهـو يقوى بالأفعال الطيبـة والتصرفات الحسنـة، وينقص بالمعاملة الغليظة الخشنـة، ويقل حتى يصل أدناه . لأنه كأي عاطفة قلبيـة معرض للزيـادة والنقصان، فهنـاك عوامل تزيد منه وتأججـه، وأخرى تخمده وتطفئـه. والله تعـالى يقول لنبيه "فَبِمَـا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَـوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ " وفي الحديث: قال "ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه" وكذلك قوله " من يحرم الرفق يحرم الخير كله"

فالله عز وجل وصف المرأة بأنها صاحبة الرجل في حياته، فقال تعالى "وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ" فهي مصاحبة له في غالب أموره، لطول اتصال علاقته معها في عقد الزوجية . لذلـك عبر عن العلاقـة بينهما بالمصاحبة والصحبة، لأن الزواج - في الأصل - عقد دائم، قد يقطع بالوفاة أو بالفراق بأنواعه كالخلع والطلاق والتفريق. لكن هذه طوارئ عارضة، أنزلهـا الشارع لحكم محددة، وشدد في استعمالها، وجعل في طلبها و الركون إليهـا بغير سبب وجيه ، أو أمر معتبر من العذاب في الدنيا والأخرة . وذلك لأن الزواج ليس أمـرا هينا في الإسلام بل له تفاصيله و أحكامـه وأدابه التي شرعها الرب تبارك وتعالي ، فلا يحل أن يفك ذاك القيد العظيم الذي ربط به بين الرجل والمرأة إلا لحكمة وجيـه مقبولة. وذلك لأنه غلظ أمر هذا الميثاق -ميثاق الزواج - وأعلاه، وأباح فيه من الأمـور مالم يبح في غـيره . فقال " وأخذنا منك ميثاقا غليظا ". وجعل الإباحة للأمور التـي كانـت محرمة قبل الـزواج بين الرجل والمـرأة مرهونة بكلمـة الله وميثاقه. ففي

الحديث " فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ".

ومن هنا وقعت العقوبة الشديدة على التفريط والاستهانة بهذا الأمر. لأن منشأ كل هذا العلاقة منذ مبدأها إلى منتاها ، إنما هو التشريعات الحكيمة للخالق سبحانه لذلك يقول تعالى في عدة مواضع من كتابه "ولا تتخذوا آيات الله هزوا" وفي رواية أخرى " ولا تتخذوا آيات الله هزؤا" . أي لا تجعلوا موضع الآيات والتشريعات التي أنزلتها إليكم، موضع الاستهزاء والاستهانة، فتكون أهون ما تأتي عليكم ولو أدركتم أني أشرعها لكم، وجعلتها بحكمة بالغة لإصلاحكم، لوقفتم، وراعيتم الأمر، والتزمتم بالحدود.

وجعلها مصاحبة له، لأن كلاهما - في الغالب، أو قل هو الأصل - يصحب الآخر في حياته . لذلك أوصى تعالى وشدد على الإحسان إليها وإكرامها، فجعل من يكرمهم كريم، ولا يهينهم إلا لئيم. وذلك لأنه جعل جميع أو أكثر أمورها في يده، من حق القوامة عليها، ومنع خروجها أو سفرها إلا بإذنه، ولا تدخل أحد بيته إلا برضاه. إلى آخر ذلك. فلما علق أمرها هكذا عليه، أوجب صرف كثير من المحبة والبر إليها، فجعل جزء من هذه المحبة جبلية، وجزء آخر اكتسابي، يزيد أو ينقص بالمعاملة. وذكرها كذلك تعالى، وخصها بالذكر في قوله تعالى "وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ" لأنها تصحبه في أغلب أمور حياته، ثم انظر إلى هذا العلاقة التي عبر عنها بقوله تعالى "هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأنتم لباس لهن "وهي من أقرب الوصف الذي يكون بين كليهما، فمنزلة أحدهما بالنسبة للأخر، كاللباس الذي يستر المرء، ويغطى به كثيرا من خفاياه. ثم هو كذلك يزينه ويجمله. فكما أن اللباس يستر جميع البدن بعوراته، كذلك أحدهما بالنسبة للآخر. وعبر عنه في تقريب شديد، بأوله ما يلي الجلد من الأشياء هو اللباس، فكان هذا هو غاية القرب الذي قد يصل إليه أحد لذلك - أتكلم على الأصل من النظر في الآيات والشواهد، لا إلى الواقع والمعاينة - أن الله تعالى جعل المرأة، من أقرب الناس إلى

الرجل؟ فهي شِقه الآخر، وهي معينه ورفيقه الدائم، ونكتفي بهذا هنا حتى لا يطول الكلام أكثر، وإن كان تفصيلات الأمر أوسع وأكثر.

ثم عاطفة الوالدين لأبنائهم، جبلة مغروسة فيهما. إذ أن هذا النشء هو امتدادهما، وهو خليفتهما من بعدهما فإن الامتداد الطبيعي النَسَبِي للرجل، يكون في ذريته من بعده. فهما يشعران بأن هذه الهبة من المولود، رزقوا واختصوا بها، وهم يرون تلك الثمرة، التي هي نتيجة العلاقة الزوجية، من كون جزء منهما مصور على الأرض يمشي ويتحرك، فيرتبطان به نفسيًا وعاطفيًا وفكريًا. فيكون من أقرب الأشياء إليهما. لذلك لم يوصِ الله تعالى الوالدين على الأبناء في القرآن الكريم، لأن صرف أنواع المحبة والبر إليها جبلي فيها. وإنما وصي حيث بيان الحقوق، كالوصايا والعطايا والهبات ونحوه. وأنا إنما أذكر الأمر على حقيقته، وأتي به كما هو من غير حكم عليه بالجواز أو العدم أو الصحة والفساد، فلو أنك جئت مثلًا بأطفال إلى أب وأم وعرضتهم جميعًا عليهما، ثم عرضت عليهما أولادهم لاحظت الفرق واضح بيّن. فهو يشعر بالنسبة لما له بإلانتماء المتفرع منه، وهذه العاطفة كذلك تزداد على امتداد الأيام شدة وصلابة ولا عبرة بحال من انتكست فطرتهم واعوجت مشاعرهم، وذلك نابع من خلل فيهم وعلة بهم وحيث تعوج الفطرة وتنتكس فلا تنتظر إلا اعوجاجًا في التصرفات والأفعال يقابل الاعوجاج الأول.

ثم عاطفة الرجل مع الناس أيًا ما كانت علاقته بهم، أصدقاء، زملاء، أقرباء، وهذا من أثر المخالطة مع الناس والالتحاق بهم فتكون تجاه كل أحد منهم عاطفة تختلف عن الآخر قربًا وبعدًا، ومع ذلك في الغالب تكون عاطفته معهم متنوعة، إذ هي ليست جبلية هنا، وإنما هي مكتسبة مع المواقف والأحداث، وكذلك شخصية الرجل نفسه وحال قلبه، وإجمالا نقول كما قال الله تعالى "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان".

حينما يفرغ الرجل من هذا النوع من العاطفة فلا يكون أحد قريبًا منه أو صديقا

له . وتكون كذلك عاطفته مع الوالدين ضعيفة دائمًا، ليست في حالة علو وسفول، وإنما هي في تلك الحالة التي تستطيع أن تصفها مثلًا بالوهن أو الجمود. وكذلك من عاطفة المرأة في أم حنونة أو زوجة رفيقة أو أخت شفيقة. فلا أحد يحنو عليه أو يرحمه أو يتأثر به أو يؤثر فيه أو يحزن له أو يفرح بفرحه، يدفعه ذلك إلى حالات من العزلة والاكتئاب والحزن والقلق والألم يكون أثرها على نفسه وقلبه وجسده واضح ظاهر فهم جميعًا في بوتقة واحدة، ودائرة جامعة لهم، الأثر فيهم متجاوز لما بعده ينتشر في حالته هذه اللامبالاة الواضحة يعلوها كسر القلب، يشعر كأن قلبه انصدع وتفتق، فيعتزل المواقف والمناسبات الاجتماعية، ويشعر بالسوء تجاه الناس أجمعين إن لم يكن أغلبهم، شعوره متردد بين اللوم والتأكل الذاتي وهو يبحث في كل ذلك عن علل تبرر موقفه وحاله، ويستدعي لذلك أحوال كثيرة، يبرهن بها على صحة مذهبه كأنه يعيش في غابة وحشية، ثم يتهم البشر بالجمود العاطفي والنفسي تجاهه هو، ويدفعه ذلك إلى ظهور العدوانية في الأقوال والتصرفات، فهو محروم العاطفة الأسرية وهي أساس هذا كله، فلو أشبع بالعاطفة البيتوتية من أب وأم وأخ وأخت وقريب وصاحب وصديق لما تسربت إليه تلك المشاعر، ولما أصابه الهم والغم بسببها. فهي كالسم القاتل الذي يفتك بالجسد ، والتأكل الذاتي، والجلد النفسي الذي يهدم الشعور الإيجابي والعاطفة الطيبة.

فلما ضاع ذلك الدفء الأسري البيتي، شعر بالبرد فأخذ يسعى لأي شخص يدفئ تلك المشاعر. فينزل الطرقات يتحسس البيوت وينظر الناس، فما وجد في تربية الشارع إلا التشوهات والانحرافات وسوء الأخلاق، خرج الأب للعمل وكذلك الأم، أليس لهذا الطفل عاطفة وشعور من الذي سيشبعها! ومن سيعلمه القيم الأولى من كذا ومن كذا! من سيصوب أخطائه الأولى! من سيسعى لغرس كل شيء صالح طيب فيه، وهو صغير حتى يشب فرد صالح في المجتمع! أم أنه سيكبر ويبقى في داخله جانب كبير من الفراغ، تركه له الجمود الأسري، فلا حنان في البيت ولا مشاعر ولا دفء حينما تصدم

هـذه المشاعـر هكذا ، فإلى أين تتحرك وهي منطلقة مـن فراغ، وهنا لا يكون لها سوي أمرين ؛ فأي علاقة عابرة ترضيه، فتكثر علاقاته و إن كانت معدومة الأثر النافع عليه ، أو قل ليست لها الأثر المرجو وقوعه على نفسه. فهي إنما كانت إرضاء للرغبة نفسية، وإشباعـا لجوع عاطفي شديد، حتى تجد في علاقاته تلك، يطلق أكثر الكلمات عمقا في المعنـى وتعبـيرا عن الشعور هكذا علـي ما لا ينطبق الحال عليـه . و هو لا يدري حرمة الكلمـة، إنه يريد فقط أن يشعر بشـيء منها ومن فخامتها وامتلاء باطنها بالكثير من العواطف، فيلامس شيئًا منها فيهدئ جوعه، ويطفئ ذاك المستعر داخله.

فتجـد التهاون بالألفاظ حال خروجهـا، حتى كأنها تفقد ذلـك المعنى الأول الذي نصبـت لأجله، أو خلت من تلك الحالة النفسية التي تلائمها حال خروجها، فأصبحت هكـذا تطلق علي غير هدي ، وبدون حتي أن تراعي مقاصدها التي خرجت من أجلها ، فتفقـد معناها الذي يراد لها . فأصبحت الألفاظ غير مأصلة المعاني المقصودة منها ، وإنما تخرج هكذا ..

العاطفـة، تنشأ في النفـس، كحاجة طبيعية، فإما أن تشبـع أو يحل محلها نوع من الاضطـراب والنقص، يساوي الفقد الأول وقد يسوء الحال فيتضاعف هذا النقص في مشاعر متأججة غير متوازنة، فيؤدي إلى اهتزاز في الشخصية العامة للفرد والصورة الكاملـة له، لتزيده الأيـام والتجـارب، أو تضعفه وهناك عوامل كثـيرة داخلة في تلك العلاقة العاطفيـة النفسية الشخصية الجسدية المعقدة، فهـي علاقة متشابكة، يكون منبتهـا في النفس والقلـب لتعود على الشخصيـة فتؤثر في الجسد إمَّا سلبًـا أو إيجابًا وبهذا تعرف شيئًا من أسباب تقلبات البشر العاطفية أو نزعاتهم النفسية.

فالعاطفـة إمَّا أن تؤول بامتلاء، وله أسبابه وتشخيصاته، ثم توابعه، ولوازمه، وما قد يعلق عليه أو يلحق به. وكذلك إمَّا أن تؤول بنقص. وهنـاك حالة الوسط بين الاثنين، ولكل ذلك درجاته المختلفة، وعوامله المعقدة المتداخلة في كل شخصية بعينها.

فالأول - في أسباب ذلك الضعف العاطفي، الفراغ الأسري والحنان البيتي، والقيم التي تهدر فلا يتم تعليمها، فيشب الطفل عليها. ومنها إرخاء صوت الوازع البيتي، فلا ناصح بالمعروف، ولا مقيم بالحب والمودة.

ثانيًا، الجمود العاطفي الأسري، فالأب متزمت شديد لا يقول الكلمة الرقيقة، ولا يحضن الحضن الدافئ ولا يبتسم الابتسامة الجميلة . والأم مشغولة فلا تقول إلا كلمات خالية من الحنان والرأفة، فيؤثر ذلك في نفسية الولد. فتكون العلاقة الأسرية علاقة يتيمة، وكل شيء إنما هو المادة، لا وقت للضحك والهزار والمساءلة، والاطمئنان على الحال، ومراعاة الخاطر وحالة النفس، وإخراج الطاقة السلبية المكبوتة. فيصبح البيت حينئذ مستودع للطعام والشراب، ونُزُل للنوم فقط، فهو يرى كل شيء جاف قاسٍ فليس هناك حضن أسري دافئ أو قول مليء بالشغف والسرور، فلا لمسة عطف ولا نظرة حب أو قول برفق أو نصح بشفقة أو دعوة بإخلاص.

فكل ينصرف إلى توفير متطلبات الأبناء المادية ونسوا أن هناك عواطف قلبية هي أشد في الأثر على النفس من الطعام والشراب، مثل الاحترام والتقدير والتواصل البناء القائم على المشاركة، والتفاهم، لا الحوار القائم على الشدة والعنف والضرب. والحث على هذا والأمر به يستلزم النهي عما يضادها، فلا يكون هناك الاحترام ولكن الاستصغار والسب والشتم والاحتقار والتقليل من الذات والتواصل الهدام، الذي لا يحل مشكلة ولا ينشر فائدة، بل هو كله ضرر. وكذلك البرود العاطفي، فلا يبدي تعاطف معه في حالة حزنه وألمه، أو مشاركة له في حالة فرحه وسروره وسعادته، وكذلك لا يستهزئ ولا يستخف ولا يُحَقِر، فكل هذه الأسباب مدعاة إلى النفور ونشوء الفراغ العاطفي الذي هو كما ذكرنا ينخر في جسد الإنسان ونفسه حتى يتركه، وقد يهدمه نفسيًا وجسديًا والأمر يحتاج إلى تأصيلات كثيرة هامة، لكن هذا ليس موضوعنا، فهي إشارات عابرة تضيف شيء من الومضات الخافتة على الموضوع.

ومن أنواع هذا القسم أيضًا، الفراغ الديني حينما يكون أهم ضروريات المرء وأولوياته، هي إشباع حاجات جسده ومتطلبات أهله وبيته، ولو كانت دون الضروري اللازم، فيقدمها ولوكانت ترفيهيات عارضة أو أشياء ليس لها قيمة على الإطلاق، ما أحدثت بوجدها نفعا، أو منعت ضرر، أو حتى أوجدت حالة أخرى ذات أهمية. ولكنه ينطلق ليعمل ويعمل فقط، وينفق وقته وجهده كله على احتياجات المادة، فلا يولي للجانب الديني أهمية في حياته، فيعتبره عارضا، تزين به الأشياء عند المناسبات أو الاجتماعات فلا تجد أثرا للدين في أي مجال من مجالات حياته إلا قليلا أو أن يكون شكلا ديكوريا وفقط . فهو يغفل عنه وعن أثره في حياته، وحياة أولاده، بل في كل شيء، في كل مجال ومنحي. ويغفل كثيرً عن أوامر من خلقه، وما كانت تلك الغفلة، إلا بسبب النسيان الأول. وغفل عن أن الذي تركه، وغفل عنه هو ما ينفعه ويصلحه. وذلك بكل بساطة، أنه تعالى هووحده الصانع وهو أدرى بما يصلح وينفع ما صنعه. قال تعالى "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير".

الإنسان حينما يبتعد عن أوامر الله عز وجل ومنهجه وطريقه، يرمي بنفسه في هوات من الضياع والقلق، يصيبه من الأضرار النفسية والقلبية والجسدية في دنياه، ويكون ذلك جزاءً وفاقا لما قدم، وأسلفت يداه فمن واصل المسير في البعد عنه تعالى، سيكون الألم والعذاب مرافقا له في الدنيا. فهو في طريق، يختطفه فيه كل شيء، هو فيه عرضة لأي مفسد أو ضار. ثم كيف يعلم ذلك، إلا بمنهج الرب تعالى، الذي ارتضيه لنفسه. فحينما يبتعد و ينأي بنفسه عن منهجه تعالى،إنما هو يبتعد في اتصاله بنفسه كانه يجافيها ويعاديها ، فتصير هناك هوة بينه وبين ذاته، لا يستطيع أن يملأها. كأنه أنشا حربا منه عليه ، وذلك حينما يُفرغ نفسه من متطلبات الروح من الإيمان، والاعتقاد، واللجوء، والتضرع، والدعاء للرب الحكيم يصاب بالانكسارات النفسية المتتالية. إذ لا صلاح للنفس إلا مع خالقها. ولا طمأنينة لها على الحقيقة إلا في الرجوع إلى ربها.

فـأول ما يـترك الإنسان هـذا الطريق يتـوه توهانا عجيبـا بين الدنيـا ومشاغلها وأحوالها ومصائبها، تصيبه الدنيا بأرزائها ينسى نفسه حتى في خضم عمله، وذهابه وإيابـه فيكون كل ما يفكر فيه هو قوت يومه، أو شهره أو سنته. وهو ما كتبه اللّه له وهو الـرزق المقسـوم بين الخلق. لذلك طمئن اللّه عز وجل عبـاده في قضية الرزق، لأن أمر الـرزق يشغـل المرء كثيرا ، فقد يخرب عليه حياته، ويجعله ذلك يطلبه من غير محله ، فيطـرق أبواب ما حرمه تعالي جزعا وقنوطـا فيجعله ذلك يقتل ويسرق ويخون. لذلك قـال له "وفي السماء رزقكم وما توعـدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" فجعل لك رزقا معلوما سيصلك حيثما كنت، وهو الذي كتبه اللّه عليك .

وهنـاك نوع آخر من الرزق جعله اللّه تعالى مقترنا بتحصيل السبب وهو الذي علق فيـه الخروج إلى الأرض والسعي في أنحائهـا، سببا واضحا مباشرا، في إعطاء الرزق. فهو رزق معلق على سبب. وهذا كثير واضح معلوم، يغني وضوحه عن الإسهاب فيه. ثم إنـه لم يخلقك ليعذبك، فجعل لك مقدار مـن الرزق، يبعثه مثلًا على أيدي العباد لك، وهـو ما جعله في الأمر على التصدق والحث عليـه، والإنفاق. ولو تتبعنا، كلا الصنفين بالتأصيـل الواجب لطـال المقام وهنا نحن مع الصنف الثاني، فاللّه لمّا كان هو الرزاق، كان إرزاق كل دابة عليه هو، فلم يغفل منهم أحد، ولم يترك منهم شيئا. بل كما جعلك تنطـق وتتكلـم غريزة فيك تأتيها من غير تكلف أو صعوبـة أو حيلة منك تستعين عليها بذكـاء نفسـك أو غـيرك . فكما فطرك علـي الأولي و جعلها أمرا عليـه تعالي ، كذلك ضمن لك رزقا معلوما، يصل إليك فهو آتيك لا محالة بالسعي لا بالتواكل . يقول تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من من رزق وما أريد أن يطعمون، إن اللّه هو الرزاق ذو القوى المتين ".

ثم انظر العلاقة التي أقامها تعالي بين الرزق والكلام ، لتخرج منها بحكم و فوائد شتـي ، ومنهـا أنه كمـا اطمأننت في أمر الكـلام فلم تكن تحمل هـمّ النطق والحديث

، فكذلك اعلم أن الرازق علي الحقيقة الذي لا تنفد خزائنه هو الله تعالي ، وهو لا يتركك ولا يمنع عنك سبب رزقك . فقد جعل لك نصيب مقسوم في الدنيا لابد أن يصل إليك ، وقد نوع طرق الحصول عليه . فلم يخلق الله تعالي خلقا ثم يهمله و يتركه ، ولكن ضمن له أسباب بقاءه و سبل عيشه ، بل كذلك حدد تعالي بعظمته ورحمته ما يصل إليه . ثم قطع ذلك علي أسباب خاصة و عامة .منها الرزق العام الذي يصيب الناس أجمعين وغيرهم ، ورزق خاص جعل له أسبابه و مقوماته ، فلا يؤتي إلا بالسعي والطلب ، وهذا مطلب آخر له تفصيلاته.

فالله عز وجل – القوي شديد الركن هو الذي ضمن لك رزقك، وهو الذي سيوصله بعنايته ولطفه . فكما رزق الطير في السماء، والحوت في بطن البحر، والدواب على الأرض، والنمل والزواحف. في باطنها لن يغفل عن رزقك أنت، ومن تعول والله يقول "وما من دابه في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ". فجعل كل دابه في الأرض رزقها على الله لا على غيره فهي متوكلة عليه وحده.

ومن جميل ما سبق أن الله تعالي يريدك ألا تفزع وتهلع لقضية الرزق والمال ، ولكن ان تأتي الأشياء من أبوابها بحسن طلبها ، وكيفية الووصل إليها كما أراد منك تعالي . ثم يريدك ألا تفزع إن قلت ذات يدك و نضب مصدر القوت عندك ، لا تيأس ؛ واعلم أن لك ربا مدبرا وخالقا حكيما .. فلا تنقط . وا سع علي ابواب رزقك بالتقوي يرزقك تعالي من حيث لا تحتسب و لا تشعر . وهو يقول لك أنت، " ومن يتق الله يجعل له مخرجا. و يرزقه من حيث لا يحتسب "

ثم يقول لك " ومن يتوكل علي الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله كل شيء قدرا "

فأمرك وا حتياجك قد علم الله بهما ولكن أن تطلب ، أن تسأله فتخلص له المسأله ، وأن تدعوه فتخلص له الدعاء ؛ آتيا في ذلك آدابه و شروطه وحسن التضرع إليه .

فما لجأ إليه مضطر إلا كشف ضُره و أذهب همّه و فرج ما به . ثم يقول لك سيرزقك جتي من طرق ما كنت تظنها باب خير إليك ، ولكن سيدهشك بعطائه وينزل عليك من فضله . ولكن توكل عليه وحده ، واحتسب جميع أمورك عليه تعالي ، يعطيك ويزيدك . ثم يقول لك "لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا وسعها سيجعل الله بعد عسر يسرا "

هذا أمر الله أنزله إليكم، أنه سيجعل بعد العسر يسر ، وبعد الحزن فرحا ، وبعد الغم والنكد سرورا وسِعة . لأنه لا يعظم عليه شيء ، فأمره بعد الكاف والنون .. يقول كن ، فيكون . وانتهي الأمر ، ولكن يبلوا أحوالكم ، و يري أخبارك ، فينظر كيف تعملون . فيري كيف تكون عبادتكم له ، وتعظيمكم لأمره و اجتنابكم لنهيه ..

وبعد أن يتوه في متطلباته المادية وحاجاته الجسدية، يفقد طعم السكينة والطمأنينة ويذوق الألم والهم ويعيش حياة الغضب والسخط فلا يرضى على شيء ولا يقنع بشيء كل همه جمع المال، والترقي في المناصب والمراكز. أصبحت حياته صراع دائم وحرب لا تهدأ، صراع في العمل مع مديره وزملائه، صراع في البيت مع الزوجة والأولاد، ثم آخر الأقارب، صراع يشتعل مع الناس من أجل أشياء لا تستحق، وعلى أقل الأشياء. سرعة الغضب وسوء الحالة النفسية، الهم المتزايد والقلق المتراكم فوق جبينه حتى ناء به جسده.

ثم الحيرة والاضطراب التي تأكل حياته وتفسدها. تجده يأكل أحسن الطعام، ويشرب أحسن الشراب، ويرى ما جمل من المناظر، ويخالط الصفوة من الناس، وينام على الوثير من الفراش وهو في حالة تنعم جسدية فقط . أمَّا قلبه فَخَرِب، عمّرته حيّات الأرض وعقاربها. أصبحت الهموم والدواب تروح وتجيء، فصار مرتعا لها ولغيرها أصبح مكان لا يحتمله لأحد فأقصى ما يكون الجسد منعًا حينما يحيا قلبه وينبض بالطاعة والمعروف. فهناك شريك آخر ملازم له، وهو الروح وغير ذلك تكون إلى حياة

الأموات أقرب. فتضيق عليه سبل الراحة القلبية والنفسية فلا نعيم يغذي روحه وقلبه، فيحيا في خناق معنوي، لا يدرك معنى السعادة القلبية أو الإيمانية أو السرور القلبي الحقيقي، حياته القلبية تكاد تنتحر من انعدام أسباب الحياة والموصلات إليها.

قال تعالى "وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى"

وقال سبحانه "وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا . لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا".

وقال عزو جل "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"

إلى آخر تلك الآيات التي توضح أن المعرض على ذكر الله وعبادته ودينه له عقاب في الدنيا بحرمانه حياة القلب، ثم العذاب في الآخرة.

ومن أنواع هذا القسم أيضًا، الفراغ الأخلاقي وهو من أكبر المشكلات وأهمها، وأخطرها أثرًا في حياة الفرد والمجتمع والأمة بأسرها، إذ كما قال شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما ذهبت   فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فجعل بقاء الأمم في بقاء أخلاقها، وإن كانت الأخلاق فرع من فروع الدين إلا أنها لأهميتها العظيمة وأثرها الشديد، أفردتها لأشير إليها إشارة خافتة كأصحابها. إذ كل نوع في هذا الموضوع لهو جدير أن يكون بحثًا منفصلا بذاته، بل مقسما إلى أبحاث عدة. وإنما هي إشارات خافتة وعلامات على الطريق وإشارات في رحلة الحياة.

والأخلاق في أصلها إنما تظهر في المعاملة بأنواعها، المعاملة الفردية، الأسرية، الاجتماعية، التجارية، المجتمعية.

والمعاملة هي أصل الحوار والتواصل مع الناس، إذ الحوار والنقاش هو سبب من أسباب التواصل مع الخلق على جميع المستويات. وهكذا فإن ساء خلق المرء في نفسه ومع غيره من الناس كانت العاقبة سيئة الأثر عليه أولًا وعلى المجتمع ثانيًا، إذ

مـا المجتمع إلا مجموع أفراده، والأفراد بعضهـا يتأثر من بعض. ولذلك كانت الأخلاق تنتقل بالعدوى، فإذا ظهر سوء الخلق بين الناس تفشى وأصبح ظاهر وعاد ضرره على الجميـع وكان من نتائجه البجاحة الخلقية، وضياع الحقوق وعدم إظهار الأدب، وعدم احـترام الكبير، أو الرحمة به والعطف عليه بل ومن أبشع آثارها هي ظاهرة البلطجة، التـي تتفشى في المجتمعات حينما يغيب الوازع الديني والأخلاق، فحينئذ لا يقبل إلا ما يرضيـه ضميره، وأي ضمير هنا ضمير معوج منحرف الفطرة، جعل نفسه على الناس حاكمًا أو قاضيًا يأخذ من هذا ويعتدي على ذلك.

وما أعظم فجر وشطط من حكّم هواه في الناس، فالله عز وجل يخاطب نبيه ﷺ قائلا: "فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ "

وقولـه " وأنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ إنما يُرِيدُ اللَّهُ أن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ "

وقوله "وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ"

وكل هذا من سوء الخلق وسوء الفهم فتبعه سوء الفعل والتصرف.

والمصيبـة في الأمر أن سوء الخلق هذا يعـدي وينتشر حتى يصبح صيحة العصر، عـدم الاحـترام، وإظهار الابتذال وتقليـد التافه، وصعود الهمجي الأبلـه.. وإذا انتشر هذا في مجتمع فسد ولم تقم له قائمة، والمجتمع في حقيقة أفراده وفي لبنته الأولى التي هـي الأسرة والبيـت، فاذا ما حدث الخلـل في تلك النقطة حدث الخلـل وشاع الفساد والانحـلال. وهو في أصلـه تقصير الأفراد عن القيـام بواجباتهم تجـاه أنفسهم أولًا، ثـم تجاه ذويهم مـن زوج وأولاد وإخوة وأخـوات. حينها ما سبـق، ينصلح المجتمع كله ومـا الدعاوي لإصلاح المجتمـع في ذاته إلا دعاوي ناقصة في حـد ذاتها، فاذا صلحت قاعدة الشيء وأساسه، خرج سليمًا وأصبح ذا شكل حسن أمَّا إذا أهملت المنبع الأصلي وخرجت تتبع السواقي والفروع ما أصلحت شيء، فإصلاح الشيء أو إفساده يكون عند

منبـع ظهوره وخروجه، حيث السيطرة الكاملة عليه، قبل أن يتفرق ويتشعب، فلا تملك له قرارا أو فِكاكا. إذا أرادت إصلاح المجتمع أصلح شيئين الفرد في نفسه والأسرة في ذاتها.

لذلك قال الشاعر:

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب

وهـذا البيـت في الفرد والمجتمع، فان انتشر اللؤم في أفـراد الناس أصبحت كذلك الأسـرة، فينعـدي المجتمع بأثـره. لذلك وجب أن تكـون هناك ممانعة لهـذا الإفساد، بالنهي عنه أولًا، وبنشر الخلق السليم، والدين القويم، فهو الملح الذي يصلح به الأرض وكـان أحدهم يقول، يامعشر العلماء ياملـح البلد، ما يصلح الملح إذا الملح فسده والملح هنا هو الأخلاق والآداب والقيم.

الأزمـة الأخلاقيـة التي تعيشهـا أي أمة مـن الأمم، وأي مجتمع مـن المجتمعات، إنمـا كـان سببها فساد الفـرد في ذاتـه، والأسرة في بنائهـا، وحدوث نوع مـن الفراغ الأسـري والعاطفة البيتوتية الذي لا يبني أي جميـل في المرء لذلك فالطفل والبيت من أهـم الأشيـاء والأمور التي يجب الحديـث عنها، بل هي في غاية الخطـورة، فما يربى عليـه ينشئ به فيصير دأبـه وسلوكه، حتى يصبح شيخًا كبـيرًا فتلازمه تلك الأخلاق والسلوكيات التي تلقاها في مهده، وعلمها في صغره حتى خالطت لحمه وعظمه.

إن الاهتمـام بالطفل صغيرًا، والعناية به في كيفية نشوئه في كنف الدين حريصين علـى تعليمه وإفهامه، والدين متفاهمين لا متصارعـين في البيت، والطفل يشاهد هذا كل يـوم علـى مرأى ومسمع منه مشكلات لا تكاد تنتهي لتبـدأ، وألفاظ سيئة، وإهانات لا حصـر لهـا، بل قد يتعدى ذلك إلى أن يرى والدته تضرب وتهان وتذل، فينشئ عنده شعـور بالاضطهـاد والضعف والـذل والكراهية والحقـد تجاه الزوج المتسلـط أو الأب العنيـف الذي يؤذي زوجتـه التي هي أمه وهي تضرب وتهـان. كيف تتخيل هذا الطفل ليكـبر ويشـب ثم ينشأ هو نفسه أسـرة؟ ماذا سيفعل؟ ما هـي الاحتمالات المتاحة؟ ما

هــي العقد التي تستطيع حصرها وكتابها، والتي يكون قد اكتسبها في خلال عمره حتى أصبح رجلا يكتسب رزقه بيده؟

البيــت يسير حيثما يريد الأب، فهو ربان السفينــة وممسك الدفة بيده، وهو الذي يوجه المسار وحركة البيت كيف سيكون، وكل ما يفعله يؤثر على الأبناء بشكل مباشر أو غير مباشر، بل لعله يبقى كذلك في ذاكرتهم.

إن الــذي يعلــم حقيقة الاستخلاف، جيــلا يخلف جيلا يعلم أن هــذا الجيل الذي يربــى الآن تحت يدي الآباء، هو من سيقود الدفة غدًا، ويمسك بزمام الأمور. وسيكون كل شــيء مرهونًا بكلمته، موقوف على تصريحه، سيكــون ساعتها كل شيء تحت يده، فيأمــر فيه وينهــي . لذلك كان النشء عند المجتمعات الحريصــة، هو أهم ما يجب أن يهتم به، لأنه وبعد قليل، سيعود أمر الدولة إلى أيديهم ، فعلى ماذا سيربون أطفالهم.

بــل انظر في أقل شاهــد على انعــدام المسئولية، حينما يتخلى الوالــدان عن تربية النشــء الصغــير؛ إمَّا لسوء إدراة للأمــر منها، أو أنهما أصــلًا لا يعرفون كيف يربيان النشــء تربيــة صحيحــة سلميــة، أم أنهما يوليــان موضــوع التربية اهتمامــا ضعيفا، فيعتقــدان أن مرور الأيام وصحــة الطفل بخير كافٍ لهما. فنسيا أنهمــا يربيا إنسانا، يجــب أن تكــون لديه أخلاق، وقيم ومبــادئ، تنشأ فيه منذ صغــره. فمن الذي سيعلمه ويقومــه، وينصحه، ويؤدبه، ويقوم على إصلاحــه إن أخطأ. ويربي فيه الصح والغلط، ومــا يجب، وما لا يجب. أم أنه سيترك تربيته لغيره، للشارع، لأصدقاء السوء، للتلفاز، بــكل مــا يظهر عليه من نافع وضار، للإنترنت بكل ما عليــه من صلاح وفساد، إلى من سيــكل أمر تربيته! أمَّا موضوع التربية فمعروف، فهو إن لم تربيه أنت، فغيرك سيتولى ذلك ولكن قد لا تعجبك حقا النتائج.

أصبحــت علــى يقين أنه ليس من حق كل أحد أن يتــزوج هكذا، يجب على الأقل أن يكــون واعيا نفسيا وفكريا بهــذه المسئولية التي ستلقى على عاتقــه، ولن تكون نتيجتها

عليه وحده، وإنما على أهل بيته أولًا، ثم المحيط الأضيق، من الأهل والجيران، ثم يتسع هذا المحيط، حتى يشمل المجتمع بكليته.

كل ما أقوله هنا، أنه يجب أن يكون هناك اهتمام حقيقي بأمر التربية، فليس الأمر بالسهولة المظنونة، وليس صعبا كذلك. أمَّا العلم فمعروف أنه يذهب إلى المدرسة ثم الكلية ثم يخرج مثقلا بالمعرفة، ولكن هذه المعرفة هل ستكون حرة أم ستكون مضبوطة بالأخلاق والتربية، سيكون طبيبًا أو مهندسًا أو محاميًا أو أستاذا. أو أي درجة علمية يتلقاها كانت. ثم ليترقى بعد ذلك في سلم السلطة والجاه والحكم، وهو فاقد للآداب والتربية ويكون مصدر تربيته في حكمة يصادفها في كتاب أو على جدار حائط أو فائدة يسمعها من صديق، أو يشاهدها في مسلسل أو... أم أنه سيجعله عالمًا بلغ الغاية في المنزلة العلمية بلا آداب تحكمه أو أخلاق تمنعه .

إن تربية المرء بالإضافة إلى عناصر أخرى، هي التي تشكل شخصية الشخص، وهي التي تجعله، يأتي ما يأتي، ويذر ويدع، فهي المتحكمة فيه بلا وعي أو قصد منها، فهو يمارسها عادة وسجية تَخَلّق عليها.

حينما تدمر الحياة العائلية يكون هذه هي أحد النتائج والمصائب. ولا تتوقف المصائب هنا وتنتهي، بل تستمر حتى تصل إلى الدولة كلها. فيعج الفساد والانحلال فيها، ويكون ظاهر الأمر الطبيعي فيها هو الفساد وتمارس الأخلاق فيها على سبيل التستر والخفاء! ويصبح التقدم هو عدم التقيد بالدين والأخلاق والآداب. والتخلي عن كل هذا في سبيل أن يكون هو المتقدم المتفتح ذا عقل ورؤية بأن يصبح حرا من كل شيء! بأن يصبح عرضة لأي فساد ونقص فلا يقاومه ولا ينكره! بل بكل بساطة وفظاظة وبجاحة، يقبله، ثم يندمج فيه ويصبح جزءًا منه. بل ويدافع عن حقه في الظهور ويدافع عن كل أحد في فعل ما يريد. ولو سألت هذا المتبجح عن رأيه في حق كل إنسان أن يقتل نفسه، لتغيرت إجابته وتحول رأيه .

إن فساد الأخلاق أخطر من قتل النفس، إنه قتل للأمم، إنه قتل للشعوب، قتل للعقائد والإيمان. أنه التخلي عن القيمة التي تجعل للمرء قيمة . إن طريقا مثل هذا لهو الخبل والضياع بعينه وقلة الفكر وانعدام الرؤية بإطلاقها سوء الخلق سرطان يقتل فلا يبقى على أحد صالح أو طالح، ينال من الكل، ويتجرع من كأسه كل أحد .

إن حسن الخلق يبقيك آمن في بيتك، مع أولادك، في معاملاتك مع الناس. يبقيك آمن في مجتمعك. هو الضمان الوحيد الذي يبقى المجتمع مستمرًا إلى الأفضل، يجعل الحياة جيدة ويحسن من جودتها، ويرفع من قيمة كل شيء فيها يجعل الطير يحلق آمنا ويجعل الحيوان يحيا آمنًا، يجعل الناس تسير مع بعضها البعض وكلهم يأمن جانب الآخر. أما سوء الخلق، يجعلك تسمع ما يؤذي أذنك من سباب وشتائم، وإهانات ليلًا ونهارًا وأنت مع أهلك فتخاف على نفسك وأولادك، فتسير وأنت على قلق من كيف سيكون الحال مع هؤلاء الفاقدين للمروءة والأخلاق والقيم، تسير وأنت لا تأمن مَن بجوارك، تخاف على نفسك وعلى مالك وعلى عرضك. فتنفق المال الذي جمعته، لأجل تأمين حياتك وحياة أولاد، من تعيين الحراسات والتعاقد مع شركات الأمن، وهنا تكثر الأسلحة وتصبح وضعا طبيعيا، فكل إنسانا يشعر بالخطر، ويريد أن يحمي نفسه وهنا حيث ينقلب الأمر رأسا على عقب.

سوء الخلق قضية من أشد القضايا أهمية وخطورة. عليها وبها صلاح المجتمع أو فساده، فساد في الأرض بشتى أنواعه، وفساد في البحر بتدنيس، وفساد في الزرع، وفساد في البهم، وفساد في كل شيء بسبب عدم وجود الواعظ الديني والخلقي، فالأخلاق. ثم الأخلاق. ثم الأخلاق. أقول الأخلاق حتى ينبح صوتي وتضعف قوتي ويسقط قمي. الأخلاق ثم الأخلاق، ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلا ليصلحها ويكملها، "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

بل إن الإسلام دين الخلق والقيم العالية والأخلاق الرفيعة، بسموها يحيا الإنسان

فترفعه وتعلى من شأنه. قال تعالى "قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" فجعل الدين مجموعة من القيم والأخلاق التي يجب أن يملأ بها حياته، وإن من أخطر أنواع الفراغ الإنساني هذا النوع "الفراغ الخلقي".

إن انعدام الخلق، يجعلك محتقرا، معدم الأدب والقيمة التربوية، في بيتك وبين الناس، في ناديك ومجلسك. يفقد لك كرامتك ويذهب بحيائك ووقارك. انعدام الخلق لا يبقى على شيء، يبقيك من غير ملابس تسترك، إنه يجعلك عاريًا ولو ارتديت من الملابس ما ارتديت.

الآداب التي تحميك وتحفظك هي التي تجعل لك بين الناس قدرًا. الناس لا تحترم أو تقدر فاقد الأدب والخلق، بل تخاف منه لعدم احترامه وتقديره وفساده الداخلي واعوجاج لفظه وقوله. فاقد الأدب لا يؤمن جانبه يراه الناس قادمًا فيتحاشونه وينقشعون عنه، وهو من أسوء الناس عند الله منزلة. ففي الحديث "إن من أسوء الناس عند الله منزله يوم القيامة من يتقى لفحشه".

يبتعد الناس عنه لفحشه، وسوء قوله، وخبث طويته، صاحب لسان طويل لا يوقر كبير ولا يرحم صغير ولا يعرف لامرأة قدرًا ولا لمريض حقا ولا لجار واجبًا، كلهم عنده واحد. لا ميزان عنده يقيس به الأشياء. إنما مقياسه عقله، فما يستحسنه عقله يتحسنه، وما يستقبحه عقله يستقبحه، كأن عقله شرع له دينا جديدًا ما أنزل الله به من سلطان.

وكان على النقيض من ذلك، الحسن الخلق، من ظهر أده، وعلم بين الناس فضله.

انظر إلى قول في الحديث " إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة، الثّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ "

" مـا مـن شـيء أثقل في ميزان العبـد يوم القيامة من حسـن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء"

" وإن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار"

هـذا الفاحش البذيء السباب اللعان . الله عـز وجل يبغضه ويكره ، فلا يجعله في أهـل ولايتـه ولا فيمن أحبه و قربه ، بل هو عن جنابه مبعود ، وعن بابه مطرود . وكيف يقربـه وهـو يبغضـه ، وكيف يدانيه وهـو متلبس بمـا لا يحبه . ثم هو مـن أبعد الناس مجلسـا عـن النبى يوم القيامة ، وكان هذا لسوءه .. فمـا يقرب من النبى إلا كل خيّر طيب، سليم القلب ، جميل اللسان ، حسن الجوار ...

ضرب الله عزوجل المثل بالشجرة، فجعل الكلمة طيبة شجرة مثمرة جميلة ، طيبة الثمـر ، ناضجـة الأوراق ، متشابكـة الأغصـان ، واسعة الظل. وجعـل الكلمة الخبيثة كشجـرة خبيثة لا فائدة منها، فاجتثت من فوق الأرض، فإنما هي سيئة الأثر على كل شـيء كـان إنسانا كان أم حيوانـا، وهي كذلك شاغله حيز مـن الأرض فاجتثاثها خير من بقائها.

فظواهـر انعدام الخلـق والأدب وشيـوع الإباحيـة والفوضى والبلطجـة والإجرام والفساد. وظهور القدوات المنحلة خلقيا وفكريا وتأثيرها على النفس، بل انتشار تأثيرها على طبقات المجتمع ككل، لتصبح بعد أن كانت ظاهرة فقط، إلى واقع يجب قبوله.

ولمزيـد بيان أثر سوء الخلق ، وأنـه ينقلب إلي أمر عظيم بعد ذلك ، فيحدث بسببه مـن المصائب والبلايا ، ما لم يكن يتوسم فيه . وانظر مثلا لهذا القانون الذب يسمونه ب "تأثير الفراشة butterfly effect "بمعني أن الفراشة أثرها ضعيف وبسيطا في حـد ذاته إلا أنه يحـدث أثر في المعادلة. فيقولون إن رفرفة جناح فراشه في الصين، قـد يتسبب عنـه فيضانات وأعاصير في أمريكا وأوروبـا ". بالتأكيد الأمر هنا مجازي بحـت، إلا أن المقصـد، أثر الأشياء لا يكمن في قوته فقط، بل إن أمرا بسيطا قادر على

أن يغير المعادلة بشكل جذري، لا سيما إذا اجتمع معه عناصر أخرى تقويه وتدعمه. فضعف الشيء أو أثره، لا يعني أنه لن يضيف تغييرا جديدا، أو يحدث فرقا مختلفا. فالأمر يكمن، حول مدى قوة هذا التأثير ولوكان قليلا من عدمه، ثم مدي قابلية المؤَثر فيه كذلك، في مجموعة من العوامل المتشاركة والمتداخلة. وهكذا أي شيء في الحياة، يبدأ صغيرا ثم ينموا وينموا، باستعانة عوامل متنوعة، بعضها ذا أثر واضح، والآخر ذا أثر ضعيف. وبهم جميعًا يتشكل شيء جديد وأمر آخر.

الفكرة هنا، أن أي شيء في إطار محدد وخاص، غيرتَ في نظام سلوكه ولو بشيء طفيف بسيط، سيعود هذا الأثر واضحا بعد حين، تمامًا كنقطة الماء التي تصدع الصخر، وتقسمه. تمامًا كما جمعت الجبال وتكونت من الحصى والرمال، فهي في مفردها أشياء بسيطة، لكنها في مجموعها، بعد أن مرّ الزمان عليها، تغيرات فأصبحت شيئًا آخر.

إن كان التأثير الآن بشكل بسيط لا تراه، إلا أنه غدا ستراه معقدا في تصرفات كبرى. ويوضحه أكثر فكرة الكرة البسيطة الصغيرة، فأنت تراها صغيرة لا تحدث أي نوع من التأثير، ولكنها ما أن تتضخم، حتى يصبح الوضع شيئًا فشيئا خارج التحكم والسيطرة. ويطلقون عليها، "تأثير كره الثلج snowball effect" فإن الأحداث في بدايتها تكون بسيطة سهلة تراه أنت بعين الناظر المجرد عن فهم طبيعة الوضع وحقيقة الأشياء. ولكنها تصبح فيما بعد أكبر تأثيرا وأوضح أثرًا وأشد خطورة، فحينما تدحرج تلك الكرة في بدايتها تكون صغيرة ثم تجمع كتل الثلج حولها كلما تدحرجت، ويزداد حجمها وكتلتها . فطبيعة الحديث وطبيعة البيئة يعبران عن كيفية تضخمه وكذلك أيضًا سرعة تطوره، فإذا ظهرت بوادر مشكلة أو كارثة لا يراها الناس جميعًا، وإنما ينزعج من يعلم خطرها وشدة تأثيرها، تجده يحذر الناس هنا وهناك ويقيم المحاضرات واللقاءات والندوات ويشرح ويفصل لأنه يعلم أماراتها وبداية ظهورها

وكيفيـة تطورها وتفشيها في المجتمع، فإذا ما وقعت تلـك المصيبة وحلت وظهر أثرها، وتفشى المرض رآه الناس أجمعين.

والمصيبـة التي نحـن بصددها، هي ليست فقـط في سوء الخلـق والفراغ الخلقي وانعـدام الـوازع الدينـي، بل الأشد مـن ذلك خطر والأعظـم جرمًا، هـو التهويل من خطـورة سوء الخلق ثم محاربة الدعـاة والمصلحين الذين انـبروا ليعالجوا هذا الداء العضال، الذي هو أصل كل شر ومصيبة، ومنبع كل فساد وبَلِيَة. إياكم أن تهونوا من أثر الأخلاق أبدًا ما حييتم الأخلاق تاج على رأس صاحبه يتزين به، الأخلاق كنز عظيم لا ثمن له فهو أعظم من أن يثمن، وهو لا يقدر بثمن.

الأخـلاق أمـان في الدنيا، وفي القـبر إذا كان معهـا الإيمان بالله ورسولـه وإتيان الأعمـال الصالحة، ويوم القيامة الأخـلاق حارس أمين على النفس يمنعها من قول ما يستقبـح وفعل ما يستقذر. الأخلاق نِعْم الصاحـب والصديق الذي صحبته كلها خير، فهو في كل حاله نافع مفيد . الأخلاق دواء أمراض القلوب وعلل النفوس، صمام الأمان للفرد والأسرة والمجتمع والأمة.

الأخلاق – ثم الأخلاق – ثم الأخلاق، تحلوا بها وتخلقوا بطباعها، وعاتبوا النفس حتـى تصـير إليها وتطبـع عليها فإنما الصـبر بالتصبر والحلم بالتحلـم ومن يصبر يصبره الله.

الـوازع الأخلاقـي هو الذي ينفـع المرء حين تنعـدم سلطـة الأب والحاكم وسلطة القانـون. فالأخلاق هي التي تبني الشخصية من الداخل، فليس فيها من عقد النقص والجوع الأدبـي والفراغ الديني، وإنما هي متشبعة بالخلـق الحسن والصفات الحسنة الخـيرة فحينما تتلاشى القدرة عليه، ترى القـدرة عليها من نفسه التي تأمره وتنهاه، وتحثـه، وتعارضه . أمَّا الأخرى فهي التي تعمـل خوف السلطة والعقوبة، فإذا ما غابت هذه السلطة أو انعدمت في مكان ما، تجدهم مارسوا ما شاءوا من الانحراف والضلال

والبلطجة . فتجد أن المجتمعات ذات الواعظ الديني يقل فيها معدل الانحراف والجريمة والقتل والانتحار، "إذ هناك قائم على النفس بما كسبت وهو الدين والأخلاق" . لأن الخلق هو العنصر الهام في بناء المجتمعات والحضارات، وهو صاحب الأثر الأعظم في بقاء المجتمع أو ذهابه، فهو الذي يحافظ عليها ويبقيها، فيُبْقِى قيم العدل والأمانة والتقدم والتطور.

أمَّا المجتمعات التي يقل فيها الواعظ الديني والأخلاقي يكثر فيها الجريمة، والفساد والاغتصاب والقتل والسرقة إذ هناك يحافظون على القيم خوف من القانون وخوفًا من القبض عليهم، والزج بهم إلى غياهب السجون وفقدان حريتهم.

أمَّا إذا تلاشى هذا القانون ليلة واحدة، يكفيك أن تعلم ماذا سيفعل هؤلاء في تلك الليلة من القتل أو التخريب والإفساد والإتلاف للممتلكات العامة أو الخاصة والتعدي على حقوق الغير، إذ في تلك الحالة لا واعز للنفس، فالنفس تفعل ما يحلو لها بلا رقيب عليها ولا زاجر .

لذلك فالأخلاق – ثم الأخلاق – ثم الأخلاق .

ويكون ذلك بالحفاظ على كيان الأسرة ولم الشمل وإظهار الحنان الأسري والدفء العائلي، وتعليم القيم للأفراد الصغار، فيكون الوالدين قدوة حية للأبناء في كل شيء إذ أن الطفل يميل إلى التقليد أكثر من أي شيء آخر، فعالمه الداخلي بادئ في النشأة والتكوين، وهو يحذو نمط من يشاهده، فيأتي فعله، ويقلد قوله، ويكون بالنسبة إليه كل شيء. ثم الحفاظ على الحياة العائلية، والروح المنزلية، والتربية الأولية "تربية البيت، لا تربية الشوارع والطرق" والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها بأي نوع من أنواع الفساد، ومن أشدها، - الفراغ الديني، وانعدام الأخلاق، والتفكك الأسري، والتدهور الأخلاقي، والجمود العاطفي الأسري بانعدام الحنان والطمأنينة والسكينة والسعادة والرحمة والتعاون في البيت والأسرة، وذلك من أعظم أسباب الفساد، ومن

أهـم أسباب انتشار شروره وأثارة، وإن كان الموضـوع يريد تفصيلا وإيضاحا أكثر من ذلك بكثير.

وقـد تجد آخريـن يرون الفـراغ في شيء آخر، وهـو الزمن والوقـت. فيشير إليك أن فـلان هذا عنـده فراغ وقتي أو أن وقـت فراغه طويل. إلى آخـره وبغض النظر عن المدحـة والمذمة في ذلك، وسيأتي تفصيله بعدًا فالفراغ هنا في الزمن غير أنهم حقيقة لا يقصـدون به الفراغ الزمني، وإنما عدم انشغال يده بعمل يؤديه، أو عقله بفكر يعمل فيـه، فهو خـالي الوِفَاض من كل شيء، عملا وفكرا حتى أنك عندما تجلس مع أحدهم فتسمـع عبارة " فلان. إنه إنسان فاضي" يقصدون فراغ ذات يده من عمل يصنعه، أو نظره من فكر يؤديه، فليس لديه شيء يصنعه، إلا أن هذا فيه شيء من النظر.

أولا: الفـراغ الذي يذم صاحبه ويعبر عنه به ليس مقصودًا لذاته وإنما معبرًا عنه بعارض منـه فهم يقصدون بـه الراحة، فالفراغ هنـا يقصد به الراحـة وترك العمل والاتكال على الناس أو عدم الاكتساب والارتزاق، من حرفة يؤديها أو مصلحة ينتفع من وراءهـا. وهذا مذموم بلا شك، بل مضاره كثـيرة عظيمة، وأعظم أضراره، ـ هو إنفاق عمـر المـرء على ما لا فائدة فيـه هذا أولًا، ثم ثانيا اكتساب المـرء الكثير من الأمراض النفسية، من هم وغم وسرعة غضب وقلق، ثم لا يجد ما يكفي به حياته وكما هو معلوم المـال مطلوب لا لذاتـه ولكن للاستعانة به على أمور الحياة، فهو لا يصنع رجالا، ولكنه يحفـظ مروءة الرجـل وكرامته وهذا يدعونا إلى نظرة سريعة على البطالة، إذ هي أثر مـن آثار الراحة الطويلـة، ومنع آلة الجسد عن العمل والتكسـب والتربح، وذلك يهلك النفس والبدن. وفيه من ذل المسألة للناس، لذلك كان العمل أي كان نوعه ولكن يشترط أن يكـون حلالًا، من أعظم أسباب رضى النفسـ وتركها المسألة والسؤال، والنبي ﷺ جعـل الاحتطاب وحمل الرجل للحطب على ظهـره ليبيعه في السوق خير له من السؤال سواء أجيبت دعوته أم رفضت.

وفيه حفظ كرامته الذاتية وجعل قيمة لنفسه، وعدم النظر إليه على أنه عنصر لا قيمة له في المجتمع، عالة على غيرة. إنما هو عنصر بنّاء يساعد على بناء نفسه ومجتمعه بما تيسر له وبما قدر عليه وفي ذلك تربية للمروءة والشهامة في النفس، لا حب الراحة والدعة، وسؤال هذا وسؤال ذاك، وفقدان النفس لكرامتها وعزتها الذاتية. وبدلا من أن يصبح اليد العليا المعطاءة يتدنى فيكون اليد السفلى الآخذة وفيه رحمة بأهله وبيته فيلبي حاجاتهم ومتطلباتهم بل أخبر النبي ﷺ حينما جاءه أحد أصحابه أراد أن ينفق ماله فيتصدق به كله، فنهاه ذلك، وحدد له الثلث وقال الثلث والثلث كثير، ثم اتبعها بقوله "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" .

وفضل العمل واضح لا يخفى أثره، وأثر المال على الحياة وجودتها كذلك بين واضح. فالبطالة والفراغ من العمل أيًا ما كان ولو قليلًا ، ولو كان مكسبه قليلا وربحه زهيدا، غير أنه يكفي نفسه ذلك سؤال الناس، ويحفظ عليه كرامته وعزة نفسه . وهي وإن كانت في أساسها مشكلة مشتركة لجهات عدة، فهي متأثرة في الحالة الاقتصادية وهو أساسها، ثم الحالة الاجتماعية، ثم الحالة الإدارية والحالة المؤسسية للتنظيم. ولست بصدد الحديث عن أن شيء من هذا، غير سببها في نفس المرء وتعدي ذلك إلى سلوكه وانفعاله.

فتجده في حالته النفسية دمارًا بكل أنواعه، ويتعداه إلى اعتدائه على نفسه وأذيته لها. إذ أن المرء حينما لا يجد قيمة لحياته، ولا هدف لها، يشعر بالدونية وبتفاخر الناس عليه، حتى وإن كان هذا غير واقع وحالة الاستعداء التي تشن ضده. إلى آخره، فيشعر بالقلق والاكتئاب والإرهاق. ويدخل في حالة من اللامبالاة المميتة، وفقدان القيم الذاتية الداخلية . فإذا كنا أسهبنا شيئا ما في ذكر مساوئ سوء الخلق وخطورتها على الفرد والمجتمع، فالبطالة هنا مشكلة نفسية اقتصادية مادية اجتماعية، فيتعدى أثرها إلى كل الجوانب ويصبح الشخص فيها كقنبلة موقوتة قد تنفجر في وجه أي أحد،

بسبب فقدان القيمة هذا أولًا ثم عدم الاكتساب المادي وضعف ذات اليد، ثم حالة الاستعداء التي تشن ضده، وهو في أشد حالاته طلبًا إلى التعاون معه، والوقوف بجانبه ومساعدته. فيصيبه نوع من العجز الاقتصادي والنفسي، ثم ينظر حوله فيرى ظلمًا بينًا من انعدام الفرص، وذهاب فرص العمل لغير مستحقيها إلى آخره، ثم يرى ظلمًا اجتماعيا بينًا، فيدفعه ذلك إلى الإحباط الداخلي ثم معاداة المجتمع له فيفقد النسبة بينه وبينه ويصبح لا انتماء لديه لرؤيته يفقد حقه الطبيعي، ويصبح راغبًا في مغادرة الأرض إلى سواها طلبًا للرزق . ويتمثل في ذلك قول أبي الطيب:

وكل امرئ يولى الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

ثم بعد ذلك تجعله يتخلى عن أخلاقه وقيمه في سبيل الحصول على أي مال، بطريق مشروع أو غير مشروع. يكون همه حينئذ تكوين ثروة وجمع مال من أي مكان، فقد بلغ اليأس منه مبلغه واليأس كفر يفتك بصاحبه.

فلا تكون فقط أذيته النفسية مقتصرة عليه هو وحده، بل تتعدى ذلك إلى المحيط الاجتماعي، ثم المجتمع ككل فحينما نقول البطالة مشكلة مجتمعية قبل أن تكون مشكلة شخصية للفرد في نفسه وتقصيره من عدمه لا نكون مخطئين، فكل شيء مدار في فلك واحد، وكل متعلق بالآخر بطريقة أو بأخرى.

فتجد في مساوئ ذلك للمجتمع فقط، كثير من البلايا والتبِعات، واحدة منها تفتك بالجسد الكلى للمجتمع. ومنها مثلًا، شيوع التصرفات السيئة كالإدمان والمخدرات ثم السرقة والاعتداء على الملكيات العامة. وهكذا

ثم قد يدفعه ذلك إلى العنف والقتل، الذي قد يصاحب أي مصيبة من المصائب السابقة أو يأتي منفصلا عنها، فيصبح مجرمًا خطيرا، وتصبح الحياة في نفسه لا هدف لها، إلا أن تكون استغلالا للفرص، والجشع والحقد والأنانية والعنف. إذ لربما يدفعه تداخل ذلك كله مع انعدم هدف للحياة، وضياع القيمة. إلى أن يقضي على نفسه بنفسه، ظانا في ذلك راحته من الألم.

حالة وهم

حينما تضيع قيم الذات، وتصبح الحياة مرتعا لشهوات النفس، بلا قيم وأهداف ومبادئ. بلا شيء. يعيش من أجل لا شيء. وهذا أول أسباب قتل النفس وإعدامها رميا بالرصاص. من هنا يفقد الصلة بالحياة، وأي صلة تربطه بها، إذا كان لا سبب يبقيه على ظاهرها. الضعف يعدم كل ذلك، يدفعه إلى جميع أنواع الشعور السيئة. ناهيك عن شعوره بالضياع، باللاوجود الحقيقي بين نفسه حتى، قبل أن يكون بين الناس. حينما تنعدم الذاتية وتنزوي إلى ذلك الحد. تصبح من الهشاشة الفكرية والنفسية والعاطفية. التي يجعل تأججها بأي شيء، ولو ما تفه وحقر. أضف إليه تأنيب الضمير والشعور بالدونية والخزي والأذى. هذا تجاه الذات أمَّا الموقف الخارجي، فإنه لا يحسد عليه، فليس يغاير صاحبه الفائت كثيرًا حالة من العجز الاقتصادي والضعف المادي، والاستعداء المجتمعي، والتوصيف والتقريع والذم، بما تحمله كل واحدة من ألفاظ وأوصاف، لا داعي لسردها. ثم إن داعي هذا العداء هو نفسه، بحالة الاعتزال والاختفاء التي يضرب حول نفسه أولًا، هاربا أو متخلصا من الآخرين وفضولهم، وأسئلتهم، واحتقارهم.

حينما يكون إنسانا هكذا، لا تتوقع منه شيء. فهو في أضعف حالته، وأشدها شقاءً، كل شيء هنا على وشك الموت. ولكنه موت ببطء شديد.

وفيما سبق -لا شك- نوع من المبالغة في إيراد سياق الصفات، وإعطائها هذا المنحني التشاؤمي أو السلبي، فليس الواقع بهذا السوء- على ما أظن- وإن كان يمكن أن يكون بكل سهولة هكذا.

أما هو، فليس بتلك البشاعة وهذه القسوة. غير أنه يصيبه شيء مما سبق قد يزيد أو ينقص، تبعًا للشخص ذاته وفكره وبيئته ومجتمعه. وقد يشتد عليه كثيرًا حتى يُفقده توازنه، ويتضح أثره عليه مع مرور الأيام وانقضائها وأحوال الناس في ذلك كثيرة متعددة، لو جئت تقص أمثلتها لطال بك المقام، وخرج عن القصد نقول مثلًا، انظر

حال الذي فقد وظيفته، وليس له سوى ذلك من دخل، ولا يجد شيئًا ينفق به على نفسه، كيف يكون فكره ونظره. إلي آخر ذلك .

وهنا يجب إيضاح بعض القضايا، ومنها :

الحالة الأولى: ـ أن الأصل في حياة الإنسان العمل والنشاط. فهي طبيعة فيه، إن تركها هلك نفسيا وفكريا وعاطفيا، لما من التجانس بين هذه الثلاثة . فحالة العمل هي الأصل في حياة الإنسان، وهو مايحتاج إليها لتستمر حياته. والطبيعة شاهدة بذلك، فما تقسيم اليوم بين ليل ونهار، إلا لأن يكون الليل لباسا، والنهار نشاطا وعملا ومعاشا، كل يسعى فيه على معاش أمره، وقضاء شئون حياته فكان النهار للبيع والشراء والعمل والنشاط والجد والسعي فإذا أصبح الإنسان نائما، ودخل الليل عليه نائما، وكانت يقظته بينهما، لا تدري ما هو صانع فيها حينما يقضي يومه بين نوم ونوم ناهيك عن ضعفه الجسدي ساعتها وارتخائه العضلي وضعف أجهزته الحيوية، على ما يصيبه من اضطراب وخلل في ذلك . فلا يواصل إنسان النوم إلا إذا كان مريضا، أو مرهقا متعبا بإعياء شديد. فلا يواصل النوم هكذا بدون وجود أثر لهم في الحياة إلا الأموات. أمَّا الحي فعمله يُحيه نفسيا وعاطفيا وشعوريا ، بل يحمي ويحفظ عليه كرامته ومروءته من أن تذل بقول جارح، مؤذ لمشاعره العمل يجعل المرء متزن، نشيطا، مبدعا.

والنبي ﷺ يحث ويؤكد على تلك القضية، فيقول " ما أكل أحد طعاما خيرًا من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"

فهؤلاء الأنبياء يأكلون من عمل أيديهم، ومما تنتجه جهودهم وهم صفوة الخلق. والله تعالى يقول للمرسلين "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني تعملون عليم" .

ويقول للخلق أجمعين " يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان أنه لكم عدو مبين " .

ونادى على عباده المؤمنين بأن يأكلوا من الحلال الطيب. فقال "يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله أن كنتم إياه تعبدون".

فشعار الحياة التي ترفعه كل مع طلوع الشمس، هو العمل والسعي في الأرض، والخروج لتحصيل الرزق. تدفع أشعتها إلى الأرض، صارخة في وجه كل ظلام دامس وكسل جشوم، أن انقشع، فهذا وقت العمل قد حان وجاء. تدفع أشعتها لتلامس أعين النائمين، أن فوقوا من نومكم، واستيقظوا من سباتكم. فهذا وقت العمل. وصاحب العمل، هو صاحب إنتاج. والمجتمع المنتج، هو المجتمع الصحي الذي لا يتكاسل هو وأفراده، كل عن واجباته مجتمع صحي في تحصيل مطالبه بنفسه، بسعي أفراده وعملهم، وتعليمهم، وبعلوهم فكرا وثقافة واختراعا وفنا ونشاطا. إن كل شيء في الوجود يحث على العمل. فالعمل هو تجسيد رائع لحركة الحياة، وانسجام الكون، واستمرار الحياة صياح الديكة أذان للعمل، تحليق الطيور أذان للعمل، شقشقة الصباح أذان للعمل. إن الأخلاق في حد ذاتها أعمال. الدين نفسه، اعتقاد وعمل. ألا حي على العمل.

الحياة نفسها هي تجسيد لحالة العمل. لذلك كان أثره على الفرد والمجتمع عظيم فإن الإنسان بفكره وعواطفه ومشاعره، كل ذلك في حالة تفاعل مع العمل. تفاعلا إيجابيا ففيه قيم روحية، وحفظ للنفس والعرض، ومكاسب مادية ومعنوية، ولعل في بعضه رِفْعَة بين الناس. وليس الأمر في العمل وفقط، ولكن العمل بما يتطلبه من قيم بإخلاص وإتقان وإحسان. إحسان كل صانع في صنعته، وكل عامل في عمله. بهذا يرتفع المجتمع ويعلو شأن أفراده. فعلو المجتمع وتقدمه أو تخلفه وسفوله، يعتمد بوجه من الوجوه على أفراده المنتمين له. لذلك أَحْسِنْ فيما تفعله، أيّا ما كان، واجعله خالصا لله رب العالمين، تؤجر عليه نتيجة عمل ترضيك في الدنيا، وثوابا بين يدي الله تعالى يسرك يوم الحشر. ثم إنه في الدنيا ليس أجرا واحدا، بل أجورا كثيرة فليس الأجر المادي فقط، بل هناك أخرى نفسية وقلبية. وأيضًا إعلاء قيمة العمل، وبأن تكون مثالا

يحتذى به بين الناس، فيأخذ منك وعنك القيم والخير، فتؤجر أيضًا. ثم إنه أصلًا تطبيقا لما تؤمن به، ورفعة للمجتمع ككل. ثم به كذلك تحفظ نفسك من مال حرام، وما يجر من تبِعات سيئة ونكال مهين، إلى آخر ذلك. ولو تتبعنا فوائد العمل لكان هناك الكثير الذي يجب تسطيره، ولكن هنا، لعل في هذا كِفاية.

وفي الحديث، قال ﷺ "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"

والله عزوجل يقول تعالى في كتابه "إنا لانضيع أجر من أحسن عملا"

وفي ذلك فوائد عديدة. منها:

أولًا: إن الله عز وجل يحب أن يعمل العباد، وألا يتركوا أنفسهم عرضة للفقر والضياع، وسؤال الناس، كما في حديث "لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه". فكان عليهم أن يتحركوا، ويخرجوا ويضربوا الأرض استنباتا للزرع، والعقل استزراعا للفكر والعلم. وفيه أن الله عز وجل إذا أحب شيء ما، فيجب على السامع المسارعة في الفعل، والسرعة في الاستجابة فبذلك يحصل حبه تعالى، بأن يكون خالصا لوجه تعالي.

ثانيا: فيه إظهار قيمة الفرد في نفسه أولا ثم في مجتمعه ثانيا. وفي ذلك من القيم الكثير والكثير. منها أولًا، أنه يجب أن يعتمد على نفسه، وأن يفكر في حاله وأمره بشيء من القدرة الذاتية والاعتمادية الشخصية. فيعمل عقله وفكره. وليكن كما فعل أحد الصحابة وهو عبدالرحمن بن عوف لما جاء إلى المدينة مهاجرا، فأراد أحد الأنصار وهو سعد بن الربيع أن يناصفه كل شيء يملكه. فماكان من عبد الرحمن إلا أن قال له، بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق.

ثالثا: أن الله يحب أن يبذل المرء وسعه ويأتي طاقته، ويخرج ما عنده من علوم وفنون وقدرات. ثم يجعله حال إخراجه في أحسن حال وأفضله. ثم يحصل ما يتطلبه فنه وحرفته وصناعته، من لوازم أخرى، وليجيد ويتقن ما يأتيه. فينفع بذلك نفسه

أولًا، ثم يغني مجتمعه من الاحتياج إلى غيره، فيكثر المهرة والمتقنون لأعمالهم، المخلصون فيها، المداومون على عليها.

رابعا: العمل ليس مقصودا به العمل الجسدي فقط. بل إنه يمتد ليشمل كل ما يطلق عليه عمل، وما يؤدي فيه مجهود. سواء كان عمل فكري، إبداعي. فالطالب يحسن مذاكرته، والأستاذ يفرغ وسعه ويبذل طاقته في توصيله العلم لطلابه. والطبيب يبذل ما عنده لمرضاه، والمهندس يصمم بأفضل أساليب وصل إليها العلم، ويراعي في عمله الدقة والإخلاص .. حينما يقوم كل أحد بإتقان ما يفعله، حينها نستطيع أن نصل إلى حالة التمام والكمال البشري.

خامسا: بمفهوم المخالفة، فكما أن الله تعالى يحب أن يتقن العبد عمله، فهو لا يحب أن يتراخى في أدائه ولا أن يتجاوزه روتينيا، أو يؤديه بشكل هامشي. بل يبذل ما يستطيع، ويأتي ما يقدر. فلا يتصنع ويتلاءم، فيترك عمله أو يؤديه على الوجه الذي لا ينبغي عليه أدائه ، فيخدع هذا وذاك، ويستعمل فطنته وذكائه في التهرب من مهماته.

سادسا: أن من بذل طاقته في عمله، فقد أدى وسعه، فلا ينبغي أن يكلف فوق ذلك. لأنه كما قلنا سابقا، "ليس فوق القدرة إلا العجز" فحينما تطلب ما لا يمكن منه فعله، فأنت تطالبه بما يعجزه أو يهلكه، وهذا لا يليق أبدًا بأحد صنعه . ثم كذلك من أحسن صنعه وبذل فيه، ووضع فيه وقته وجهده وطاقته وحكمته وخبرته، فالله تعالى لن يضيع له ثواب عمله أبدًا، بل سيضاعفه له أجور كثيرة، سيراها في البركة في أشياء كثيرة، في الخير والفضل، في منع المصائب والنوازل من عليه. إلى آخر ذلك

سابعا: أن الذي لا يضع جهده ووقته وفكره في عمله هو أول من دعى بخراب هذا العمل، أو قل بعدم تقدمه وتطوره.

ثامنا: أن الأجر الذي يأخذه إنما هو قبيل صنعه وعمله، فهو تأجير لوقته وفكره أو قوته أو علمه. لوقت معلوم بثمن معلوم فإذا لم تبذل ما لأجله قد تم تعينك، فأنت

ضيعت أحد الشروط اللازمة عن العقد بينك وبينه. وما العمل، إلا تبادل منافع بأجرة محددة. فالأجر الذي تأخذه ليس نظير قرابة أو هدية وعطاء، وإنما أخذته نظير عمل تؤديه وتقوم به فتضييعك لقيمة هذا العمل وإهمالك فيه، **مما** لا يجدر بك صنعه، واعلم أن الأجر الذي تأخذه، هو مقابل الخدمة التي تقدمها. فأحسن بارك الله فيك.

تاسعا: أن الإنسان ليس عليه دائمًا أن يتقيد بقوانين عمله في الالتزام بأمور روتينية لا تخدم أحدًا، بل قد تعيق العمل نفسه. فهو مطالب بالإبداع في نفسه، قبل أن يكون مقيدا بقوالب حجرية صلبة لا يخرج عنها، فليبدع بفكره وعمله، ومن متطلبات ذلك أن تكون المدخلات العقلية والقلبية ذات قيمة جيدة، لا أقول في أحسن حال، ولكن معقولة إلى حد ما. فيكون ملما بما يصنع، وصاحب معرفة فيما يؤدي ثم إن تجامع هذه الإبداعات والنجاحات على مستوى الأفراد أو الجماعة بحد ذاته، شيء له أثر عظيم، يتطلب المدح والثناء، ثم المواصلة والاستمرار.

عاشرا: أنه ليس كل الناس يملكون نفس القوة أو المقدرة، أو كانوا بنفس الذكاء والفطانة. فتنوعوا واختلفوا في صفاتهم، ومن حكمة ذلك أنه لما يبذل الذكي الألمعي قدرته، والقوي الشديد طاقاته، والمخترع المفكر إبداعاته. يجبر النقص والضعف الموجود على الجانب الآخر، في طائفة لا تقدر أو تقوى على الإتيان بالأمر كما يجب أن يكون. إمَّا لضعف مقدرتهم الذاتية، أو لأنهم جاوزا حد السن التي تهيئهم من الإتيان بالأمر كما يجب أن يكون. وضعف هذه الفئة وغيرهم، يجبر في الطائفة الأولى. لذلك كانت الأوطان تبني على يد الأقوياء الأشداء، على يد الشباب ممن أفعموا بالقوة الإبداعية والنشاط العالي والقدرة على البذل. لذلك كان هو العمر المطلوب في كثير من الأشياء لإتمام الأمر، فالأمر يتم على قوة الشباب وحكمة الشيوخ وليس معنى إثبات القوة لفئة معينة، نفيها عن الأخرى بل لأنها في الأولى أشد وأظهر وهكذا، يتبين أن المرء حينما يقوم بعمله على أكمل وجه، أنه حينئذ يقوم بأدوار كثيرة. إن الضعف

الطبيعي في شيء ما، يقابله جبر له في جهة أخرى. إذا فالقادر يعين الآخر ويساعده ببذله، وإعطائه وقوته. وقد تكلمنا عن هذا في موضوع الصفات. وهنا من حيث الجمع بكليته، نقص هذا يجبره قوة ذاك، وذكائه وعلمه.

وإن كان في الأمر فوائد أكثر من ذلك، بل فيه من القيم والمنافع الشيء الكثير. ولكن نكتفي بهذا خوف إطالة المقام والإسهاب فيه. وأخيرًا إن إبراز قيمة العمل، هو إظهار لضعف ما سواها من الدعة والكسل والتقصير والإهمال.

الحالة الثانية : أن الفراغ ليس مذموما لذاته فهو في نظري، فرصة عظيمة لكي يطور المرء من نفسه، ويزيد من خبراته، ويوسع من مداركه ومعارفه فينظر أشياء جديدة، ويتعلم أمور قيمة ذات أثر عليه وعلى مجتمعه من حوله. إنما الفراغ مذموم لعدم استغلال الفرد له، وتركه يمضي أمامه، وهو لا يصنع معه شيئًا والفراغ هنا هو الوقت بترادف اللفظ.

فحالة الديمومة في كل شيء مرهقة ومتعبة، إن المرء لا بد أن يكون له وقت يفرغ فيه لنفسه، لأهله. فحالة العمل الذي يشغل جميع الوقت، حالة ليست بالصحية إطلاقا، وهي كذلك انفعال من أشياء أخرى متتالية. لابد للمرء أن يَفْرَغ، وإن لم يفرغ، فليُفَرِغ بعض الوقت لراحته وفكره وتأملاته ، بعض الوقت لصلاته وبره، لأهله وأقاربه. الحياة ليست رحلة في شيء واحد فقط، وإنما هي بتمام اجتماع عناصر عدة، وأشياء متلاحمة فليست لشيء بتمامه أو بخصوصه فهي باجتماع القيم تامة، وذلك ينبع من التفكير السليم المتوازن، المدرك لأشياء بتمامها ومجموعها. لا بتضخيم قيمة واحدة وإبرازها بأنها القيمة المطلقة ثم حمل الناس عليها، وإذا خالف أحد، شنعوا عليه بمخالفة القيمة نفسها، وأنه عدو لها. وأنه لا يريد كذا وكذا. وهو في أصلًا ليس مخالفًا للقيمة في ذاتها، بل هو يدعو إليها ويحث عليها. ولكن الإنكار حيث جاوزت تلك القيمة، وأثرت على القيم الأخرى، فقللت من شأنها وضعّفت من قدرتها وتأثيرها. والأمر هنا

ليس على القيمة في ذاتها، وإنما على الممارس لها، والمجسد لحقيقتها . فكان الإنكار على مقدار الزيادة أو النقص، لا على الشيء من حيث أصله، وإنما من حيث زيادته فيطغى، أو نقصانه فيضعف. والأمر هنا على التوازن والعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه.

من الضروري هنا، إثبات أن الفراغ والراحة لاستعادة النفس، وشحنها بالطاقة الإيجابية، وتفريغ ما بها من هموم والآلام وأحزان أمر ضروري . فالراحة – مثلا – حالة مؤقتة يسيرة، تستلزم، لكي يكمل الجسد عمله، والفكر اتزانه ورجاحته. فهي فترة يستريح بها، ليواصل، لا ليتكاسل بل ليعود نشيطا، فرحا، مستبشرا، مكتملا بالصحة والعافية، ليستطيع مزاولة العمل مرة أخرى، فإن تجاوز الإنسان الفترة المحدودة لراحته، أضره ذلك الأمر وأفسده وأصبح كل شيء في اتجاه لا يرجى منه خير أو نفع. الراحة الزائدة عن الحد الطبيعي، والرفاهية البالغة حد الإتراف والبذخ، كل هذا يؤذي النفس ويضرها ضررا شديدًا. ويكون وقعه عليها خطير جدًا، بشكل قد لا يتخيله المرء. ناهيك عن نشوء عادات وصفات سيئة متابعة للحالة الجديدة الناشئة فإن الازدياد في الشيء والإكثار منه، من أشد أسباب الفساد، إذ به ينقلب لضده، ويصبح النفع المرجو منه، ضرر محققا فالمحبة مثلًا، إذا زادت عن حدّها وجاوزت معتدلها، أصبحت دلال قد يفسد ودلع قد يؤذي. فكثير من المحبة بغير عقل وحكمة، قد يؤذي ويضر. وقليل من المحبة بعقل وحكمة قد يكفي وينفع. وقد قال أبو الطيب في ذلك:

وكم ذنب مولده دلال وكم بعد مولده اقتراب

وكذلك كما قال أبو العتاهية، في جعل الفراغ أحد أسباب الهلاك للمرء. في عدم إشغال النفس به بشيء نافع والشباب هو عزُّ القوة. لا سيما إذا ضممت إليه فتوة ضاربة، ومالًا وفيرا. فقال

أن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

يجب القول إن الفراغ ليس مذموما أو ممدوحا كذلك، فالذم إنما يقع على الأفعال

والتصرفات. فالأمر ليس دائر على الزمان أو الفراغ بحد ذاته، وإنما في استعماله المرء فيما يفيد وينفع أو يضر فهو فقط حاوى لأعمال الجوارح.

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ... ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضًا عيانا

ثم إن الفراغ لايذم دائما، فهو سعة على المرء ليوسع نشاطه ويكثر أعماله، ويزيد ربحه من الناحية التجارية. وكذلك ليعبد ربه وليقيم شعائر دينه. فيؤدي ما كتبه الله تعالى عليه فمن الناحية الدينية، يفعل ما كتبه الله تعالى عليه. ثم من الناحية الفكرية، ليقرأ ويوسع اطلاعاته، وليراجع مذاكرته، وليتعرف على علوم وفنون جديدة، وهكذا. ومن الناحية الاجتماعية، يقيم علاقات جديدة مع أناس أخرى، وليوسع من شبكة معارفه، ويجالس أهله وأولاده وأقاربه. إلى آخر ذلك. وهل يستطيع المرء أن يفعل ذلك إلا في أوقات فراغه، بالتأكيد إلا ما يمكن جمعه من شيئين معًا، كأن يطمئن على قريب بالهاتف وهو يؤدي عملا ما. فيقتطع منه دقائق معدودة ليمارس هذا الفعل. أمَّا تزامن هذا الأفعال في زمن واحد، فهذا من الصعوبة بمكان ناهيك عن أن هناك أعمالا لا تستطيع أن تقضي بجانبها أفعالا أخرى.

فإنك تجد مثلًا في الدول المتقدمة، الاهتمام بمفهوم الفراغ والراحة فيجعلوا هناك توازن بين عدد ساعات العمل والراحة اليومية لكل عامل أو موظف. وما كل هذا إلا رغبة منهم في زيادة إنتاجية العامل، وهم هنا لم ينظروا إلى الساعات من حيث الطول والقصر بقدر ما نظروا إلى الإنتاجية والأرباح العائدة إليهم من وراء ذلك. فإن القصد من العمل هو الربح والمنفعة، وليس جمع العمال ليقضوا عدد معين من الساعات لذلك اهتموا بهذا الأمر، وبحثوا فيما يمكن أن يزيد من إنتاجية هذا العامل، ولو في وقت أقل فلو نظرت مثلًا إلى العقل البشري، علمت أنه قدرة محدودة

يقـع فيهـا كامل تركيزه، ثم يقل هذا الإدراك ويضعف. ثـم يزداد مرة ثانية. ثم هناك محفـزات للعقل على العمـل والنشاط والإبداع. وجماع هذه العناصـر يؤدي إلى زيادة الإنتاجيـة. ناهيـك عن الأمر نفسه، هل وصل حد التنفيـذ أو هو أمر نظري فقط، فهو قيد الدراسة والبحث. المهم من ذلك، هو إدراك تلك النقطة. فتجد مثلًا، فيما يخص بالعمـل يعطون العمال إجـازات أسبوعية وسنوية، وخاصـة مرتبطة بمناسبات خاصة كالأعياد وما شابهه. الذي نريد أن نخرج منه هنا، هو أنهم لم يجعلوا كامل وقت المرء للعمل وفقط.

ليسـت الإجازات للهـو والترفيه فقط، وإنما قـد تستخدم في الثقافـة والفكر كما ذكرنـا سابقا. فهذا الوقت الخاص للمرء نفسه، ولكـن أن يشغله بما يعود عليه بالنفع والمصلحـة، هذا هـو الأمر . ثم للمرء أن يستغل وقت فراغه ولهـوه لأشياء نافعة تفيده وتزيـد ، لا في مـا يعود بالسلب والضـرر عليه . فيجعله فيما يصلحـه، حتى إن قل أثر هـذه المنفعـة، لا يضر كثـيرًا . الأمر هنـا أن يعيد نشاطه ويجدد فكـره وينشط جسده بالممارسـات الرياضية الهامة، لصحة الجسد وقوته –مثلا – و فلا يخرج من إجازته خالي الوفاض ، حيث ضيعها فيما ليس به أثر ..

الفـراغ، هـو نعمة عظيمة من الله تعالى، إمَّا أن ترفع المـرء وتعليه باستخدامه لها فيمـا ينفع، وإما أن تكون وبالا ونقمة عليه، حيـث يهلك بها نفسه، ويضيع روحه . ومن ذلـك ألا يقـدر الأشياء حق قدرها، فـلا يشعر بالشباب حتى يمـر وينقضي، ولا يشعر بالعمـر إلا في آخـره. ولا يشعـر بقيمـة الأوقات السعيـدة حتى تفنـى، ولا يشعر. بكذا وكـذا. وكل ذلك فيه مـن عدم تقدير الشيء قدره الصحيـح، ووزنه بميزان من العدل والإنصاف، فيضع الأمور نصابها قدر طاقته وإمكانياته .

فإنـه غالبا، يقـدر الأشياء حق قدرها، حـين فنائها وزوالها وكأنـه لا يشعر بقيمة الأشيـاء حقيقة إلا عندما تنعدم وكما قال أحدهـم " وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر "

ما دام الشيء موجودا واقعا تحت بصرك، فأنت معتاد لرؤيته ونظره. فتألفه كأنك لن تفارقه، أو كأنه لن يفارقك فيفقد مع مرور الأيام قيمته الحقيقية لإلف وجوده. فالعين تقلب نعمته وتميزه، إلى شيء طبيعي، فزال ذلك الهلال حوله الذي يميزه، فأصبح كأي شيء آخر موجود. فهو موجود، فأنت مطمئن من أمره، فقد تتركه وتبحث لما هو أقل منه قيمة، لذهاب نفسك إليه، وما ذاك إلا رغبته الحاثة له على امتلاك الجديد، ثم تزينه بشكل يوهم النفس، أنه ليس الأول الذي أخذته وانطلاق النفس وحرصها في الطلب عليه، مدعاة للنظر من حيث أن الغريب عنها مزين لها، محلى في عينها، فإذا امتلكته أو اطمأنت إلى وجوده أو عدم انصرافه عنها، أو وجودت بديلا عنه فقد القيمة الأولى الذي كان يحتلها في النفس. والأمر هنا غريب حقا! كأنه حيلة نفسية تقضي حالها.

هل كان الامتلاك الأول نابعا من القيمة، ولو كان كذلك فالقيم ثابتة لا تتغيروا لو كان نابعا من حب الامتلاك، فهل انتفى ذاك الحب الأول بمجرد ظهور شيء جديد. ولو كان نابعا من الشهوة في الاستماع، فما الذي اطفى النظر الأول والرغبة الأولى ألم تكن بنظر وفكر وقناعة! فكأن فقدك لشعور قيمة الأول، هو في امتلاك له، واستحواذك عليه. فكأن في الامتلاك بغير عقل وحكمة ونظر نوع في إذهاب بريق الشيء عنه. يزال هذا البريق حال الامتلاك، فأصبح كأي شيء آخر تملكه . وتطبيقات هذا الأمر على الحياة بمجالاتها واسع وكبير، أضف إلى ذلك أن النفس من طبعها أنها ملومة، لا تحب أن تثبت على حال واحد.

والنبي ﷺ، ذكر هذا النوع من الفراغ في الحديث وجعله نعمة. فقال عليه الصلاة والسلام: - "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ".

فجعلها من النعم المعدودة، وخصها على كثرة ما أنعم الله تعالى على عباده بالذكر. ثم قيد الذكر بالوصف فاختصها بقوله" مغبون فيهما كثير من الناس".

كـأن النـاس تائهين في حياتهم، عن هذين الكنزين العظيمين والفائدتين الجليلتين فبتـدأ بالصحة، وثني بالفراغ. والغبن، هو الخسران والضرر، أي أن الفراغ والصحة، مـع أنهمـا نعمتان يجب على النـاس استغلالهما والانتفاع بهمـا، إلا أنهم مضيعون لها. فهـو يملك من الجواهر واللآلئ الكثير، وهو لا يدري بهما. فلذلك كان مضيعا لنفسه، بعـدم استخدامـه وتصرفه لما عنده من الخـير والفضل ويمضي في حياتـه وهو إمَّا لا يدري حقا قيمة ما يملكه، أو أنه يدري ولكنه لا يعرف كيف يتصرف، وماذا يجب عليه أن يعمل.

إن الإنسـان قـد يضيع نفسه حقيقة بأمور كثيرة. منهـا جهله وعدم علمه ومعرفته قـدر نفسـه وما يستطيع أن يأتي مـن الأمور. وما يملك من المقومـات والمعطيات، التي يستطيع بها أن يضيف تغييرا عظيما على أي معادلة أو نظرية. ثم كذلك جهل بقيمة ما ترك أو ضيع ، وكيف أن في ذلك تضييعه لنفسه، إذ يحرمها من أثمان المبيع والمعروض، ومـا ذلـك إلا لأنه جهلت نفسه قدر كل ذلك. من قيمـة المبيع أو المعروض، وكذلك ثمن كل منهمـا وكذلك الخسـارة التي ضيعها على نفسه بفقدان أحدهمـا أو كليهما. فكان جاهـلا بحقيقة الشـيء أولًا، فلم يقدره قدره. وناشئ ذلك عنـده قلة العلم، أو الجهل التـام المطبـق أو النـاقص، ثم كذلك العند والتكبر والرفض. ثـم جهله بأوصاف المبيع وفضلـه وخيراته، أو رداءته ودناءتـه وقلة أصله والانتفاع به إلى آخر ذلك والموضوع في هذا يطول، ونكتفي هنا بهذا الإيراد . لذلك يدلل تعالى في كثير من آيات الذكر الحكيم في قولـه تعالى "وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" وقد وردت في عدة مواضع كثـيرة في كتـاب الله. وكذلك قوله تعالى "وما كان ربك بظـلام العبيد". فالإنسان هو الذي يحرم نفسه بيده، ويقطع الخير عن أن يصيبه بيده هو، لا بيد غيره. وتلك قضية أخرى تحتاج إلى شرح وتفصيل أكثر .

هـل لأن الإنسان نظر إلى الخارج طويلا فزاغ بصره، وتاهت نفسه. ثم فصل تلك

النظـرة عن داخله فلـم ينظر إليها نظرة صحيحة، فيعلم قيمتهـا فيما تحسن ، وعلى ماذا تقدر. ثم ماذا تستطيع أن تحققه وكيف تحققه وهل قَدّر ذلك في الزمان، فيسعفه الوقت وبماذا يبدأ؟ ولماذا؟ وماهي المعايير الداخلية التي يجب أن تكون واضحة في ذاته تمام الوضوح. وعلى أي معيار يقدم ويؤخر؟ إلى آخر هذه الأسئلة المهمة جدا. التي بها يتعـرف علـى نفسه، ويعرف قيمته، ويـدرك حقا ماذا عليه أن يصنـع أو يدع. والقيمة الهامـة التي يجب أن يتصف بها في الوقت الحـالي، ثم التي تليها. الملخص، أن يعرف ذاته، وقدراته. فيعرف ما حوله، وما الذي يناسبه أم لا.

ولكـن المشكلـة أنه عرف مـا يملك الآخـرون ونظر إليـه وتفحصه، ثـم أراد مثله فقـط. جاهلا أو متجاهلا ماذا دفع هذا الغير حتى يحقق ما حققه. ماهي التضحيات التـي قدمها، الأوقات التي بذلها، المجهودات التـي قدمها تناسى كل ذلك، وأراد فقط النتيجـة، أراد فقط ما وصل إليه، لا مـا خاضه، ما حارب من أجله، ما تعب فيه. عمم تلـك النظـرة على الأبطال والعظماء عـبر التاريخ وأمثالهم ، لتعلـم أن لكل شيء ثمن يجـب أن تقدمه لتحصل على ما تريـد. وأول تلك الأثمان التي يجب أن تحصن نفسك بهـا، هي العلـم والمعرفة، التي تقيك من شر نفسـك أولًا، وشر ما حولك، ومن حولك. أنـا لا أقصـد بالعلم هنا، المعلومات النظرية أو المعرفة الورقية فحسب ، وينتهي الأمر. إن طـرق تحصيل العلم والمعرفة ليست فقط محصـورة علي النظر في الكتب ، فهناك المعرفـة العملية والخبرات والتجارب والحكم الحياتيـة، ونحو ذلك، وكذلك المعلومات الشفهيةإلي آخر ذلك . فكل لو وفرت قليلا من الوقت لسماع شيء يسير ، ثم تضعه في عـداد الزمن ، لتجد نفسك بعد فترة حصلت شيئا ما وأنجزت أمرا جيد في وقت كنت تعده لن يحدث أثرا عليك . وفر قليلا من الوقت، في سماع أو قراءة أو تعلم مايفيد ..

فالفـراغ حينئذ في حد ذاته نعمـة، وأما المدحة والمذمة فيه تقع على ما ينتسب إلى الإنسان من فعال، فالأمر يقع في الحكم على الأفعال نفسها، وفي كيفية استعمال المرء

لهـا . فيحـدد ما الـذي سيفعله في هذا الوقـت، وعلى ماذا يحصل منـه. فيجعله مثلًا وقتـه الذي يكتشف فيه العالم مـن حوله، الكون في تساعه وامتـداده، العلوم والفنون. يتعلـم عن دينه، يتعلم عن حقيقة وجوده، يتعلـم عن حكمة خلقه، وسبب بقائه. يدرك الحقائق، وأسبابها، ونتائجها، والموصلات والطرق إليها.

وإما أن يستخدم فراغه في اللهو والعبث، وقتل الوقت وانقضاء العمر هباءً بأي أمر كـان، بـلا فائدة تذكر. فالمهم لديـه أن ينقضي وفقط، فهذا كلـه رهن به. هو صاحب الأمـر فيه، وهـو الحاكم على نفسه، المقدم لها والمؤخـر، فيدفعها حيث تريد، ويوقفها كما يرغب. لذلك كان الأمر كله تحت تصرفه، وفي يده.

ومـن هنا وقع ذم الناس للفراغ لاشتراك معنوي، حيـث أنهم ذكرو الفراغ وأرادوا بـه معنى في أذهانهـم، وهو عدم العمل والكسـل والسلبية فكان بالنسبـة للجمع العام مـرادف للمعنـي السلبي من عدم إدراك القيمة، والوقـت، وحقيقته. وكما قلنا سابقا، إن الفـراغ في ذاته نعمة عظيمة، إمَّا أن تشكر باستغلالها الاستغلال الأمثل، بالتنظيم والتخطيـط لكيفيـة قضائها. وإما أن تهمل وتترك، فـلا ينتبه لها حتى تمضي ولا يكاد المـرء يشعر بهـا، وما ذلك إلا لعـدم إنجازه فيهـا شيئًا ذا بال، فلما مـرت تعجب من انقضائها هكذا مسرعة.

وهكـذا أحـوال النـاسـ في تعاملهم مع الفـراغ. فمنهم مـن ينتفع بـه، وهو منتبه حريصـ. ومنهم من يهمله ويتغافل عنه، وهي في الأصل غافل عن حقيقته. ومنهم من هو مـدرك لحقيقته، غير أنه لا يعرف كيفية التعامل معه، فلا يعرف التنظيم والإدارة أو الجدولـة، فـلا ناصح يعينـه، ولا مرشد يهديـه، ولا معلم أو قدوة يأخـذ عنه ومنه. ومنهـم من يحسـن استخدامه تارة ويسيء أخرى، فهو أحيانًـا يغفل وأخرى يتجاهل . ومنهـم من هو مـدرك لحقيقته غير أنه يضيعه إمَّا كسلا منـه، أو انعدام همّة وضعف إرادة، أو أنه يريد أن يستمتع بحياته ولا يعكر صفو مزاجه بهذه المنغصات، ومنهم من

يريـد تمضية الوقت وفقط. المهم عنده أن يمر الوقت في أي شيء، ولكن يمر. ومن هنا ظهـر مصطلـح "killing time" إضاعـة الوقت " في أي شـيء تضيعه على أي شـيء، المهـم أن يضيع، فـلا يجد له أثرا في عقلـه أو قلبه. لا يريـد أن يشعر به، وهذا يأتـي من خلو الخاطر، وعدم انشغال الذهـن بالفكر والجسد بالعمل، فيصبح المشكلة عنـده في مرور الوقـت. غير أنه المشكلة حقيقة تقع في كيفية إدارة الأعمال والنشاطات التـي يقوم بها داخل هذا الوقت. فالزمن حاوي للعمـل نفسه، فعندما لا تستغله بشيء يضـرك، وكان ضرره عليك شديد. لذلك كان لابد من النظر إلى جدولته اليومية كيف تمـر، وهذا يمضـي جنبا إلى جنب مع ما يريـده هو من الحياة نفسها. مـاذا يريد أن يحقق لنفسه، حتى يسعى لتحقيقه، ماذا يريد لأهل بيته. ماهي أهدافه؟ أهدافا عامة للحيـاة بكليتها حتـى لا يفقد الأمل في لحظة من لحظاتها، ولا يعطي أحد الفرصة لكي يأخـذ منـه هذا الأمل فهو ملك لـه وحده. فهو جاء إلى الحياة مـن أجل هدف عظيم. مـا هو؟ ليكون نصب عينيه. ثم ينظر في مجـالات الحياة التي هو فيها، ماذا يريد من كل كجـال، مـاذا يريـد أن يحقق. ثم يسعـى لتحقيق كل هدف منهـم. ويصبر. ويقوم ويفشـل، ليقوم ثانية وثالثة. ومـا هي الحياة أصلًا إلا رحلة مـن الانكسارات! إلا رحلة مـن المحـاولات. يسعى فيها بجهده وطاقاتـه. ألم ينظر يومًا لنفسـه. وقال لم كل هذا الآلات الحيويـة، هذا الجسـد البشري وتلك النفس القابعة بداخلة، أليس لها هدف في هـذا الوجـود. ما الذي جاءت لأجلـه لم زودت بكل تلك الأشياء، لمـاذا اختلفت عن كل تلـك الكائنات المشاهدة بالعين ومـا الهدف من ذلك. ليسأل حتى يصل .. ليسأل حتى يعرف.. ليسأل حتى يتيقن أنه على الطريق الصحيح.

الإنسان ليس آلة للأكل والشرب وفقط. جميع الكائنات هكذا، الإنسان دائمًا وأبدا مختلـف، أين يجب أن يظهر ذلـك الوجه من الاختلاف. لماذا يتـوه الإنسان في خضم صراعـات الحياة، بل لعله يفقد ذاته فينسى الهدف الـذي من أجله وجده. يضيع لأنه

ينسـى. ولو ظل متذكرا لما غفل وضاع. أن يسأل الإنســان نفسه هذه الأسئلة ليس أمرا اختياريـا، أنه أمر حتمي إلزامي واجب. أيها الإنســان لم تخلق فقط للطعام والشراب .ليس هناك حتى رفاهية السـؤال. إنه ليس سؤال، ماذا سـأكل، أو أشرب، أو أرتدي. إنــه سؤال، لمــاذا أنا هنا، لماذا أنا مخلوق ومصور هكذا، مــا الهدف من وجودي ما هو المطلوب مني. ثم ماذا بعد. إنها أهداف وجودية إن لم تتضح هذا الأهداف والأسباب، بغاية الوضوح والشفافية، ما الذي يجب أن يتضح إذا. أنا حقا لا أفهم، ما الذي يمكن أن يكـون أكـثر أهمية من وجـود الإنسان نفسه علـى الأرض. و والله لـو أمضى حياته فقـط من أجـل هذا الغاية لكفتــه، في الوصول لربـه وخالقه. بل إن هذا مــا ينبغي أن تصــرف وتنفق فيه الأعمار. رحلة الوصول إلى الغاية من الخلق، ثم تحقيق تلك الغاية وتنفيذها، والعمل عليها، والصبر على ما يلاقي فيها. إنها سبب وجوده!

أمَّــا الآخر تجـده ضائع حرفيا هو يعيشـ في هذا الكون المتسع، علـى هذا الكوكب المتحـرك الدائر، على تلك البقعة من الأرض، لتكون اهتماماته البسيطة في ماذا عليه أن يـأكل أو يشرب وفقط. يمضي عمره من أجل تحقيق هذين الأمرين. إنه غفل غايته ونفســه وذاتــه. حينها يسعى لإهلاك الوقـت و خسارته . فكأنه بـذك يحرم نفسه من الوصول إلي ما يطمح إليه و يرجو نواله ، وهو في كل يخسر مادة حياته و عمره الزمنية التي جميع أقواله وأفعاله مستغرقة فيها.

إن الخطـأ في فهـم قيمــة الفراغ أو الوقــت، أو إن شئت توضيحــا أكثر دقة، هو في إدراك تلـك القيمة على حقيقتها. ولـو أدركها لم يتذوقها قلبه حقا. لأن القلب لو تذوق تلـك القيمــة، في رؤية أثرها ونتائجها على نفسه وغيره، لما كاد يضيع أو يترك، أو ينزع يـدا من اهتمام أو حرص. ولو أعمل الخاطر والفكر والنظـر، في كل ما سبق لتبين له حقيقة الأمر بوضوح وجلاء كبيرين مغنيان عن الاستزادة والتفصيل.

رحلة الروح وكشف للنفس

الإنسان كجنس من أجناس الكائنات الحية والحيوانات النامية، ركب من طبيعتين هما الركيزتين الأساسيتين في فهم حقيقته وتصرفاته وطرق اختياره وأسباب إقباله وإدباره . فهي تفسره هو، وتشرح ما ينبعث من صدى تلك الطبيعتين؛ طبيعة طينية، وأخرى روحية. أمَّا الأولى، كانت في خلقته الأولى حيث أراد المولى تبارك وتعالى أن يوجد جنس الإنسان ويجعله في الأرض، فركبه من الطين وتلك حقيقته المادية التي جمعت من عناصر الأرض ومكوناته، ومن ذلك اختلاف الشعوب والقبائل. واختلاف الصفات والطبائع، واختلاف الألوان والملامح. فلم يكن في تشكيله الأول كتلة موحدة العناصر، وإنما هي عناصر الأرض، لذلك كان احتياجه إلى التنوع في هذه العناصر لتمام حياته. ثم ركب فكان كل شيء متوازنا وموزنا. ثم بث في الأرض، وجعله جنسا آخر وخلقا مختلفا فكانت له سكنا وملجأ، فجعل فيها مقامه وعليها بيته. وابتدأ ذريته بأبيه آدم، فجعله للذرية أصلًا وأبا، وللخليقة نسبا. فكان أول جنسه، ومفتتح نوعه الإنساني ابتدأ خلقه من صلصال من حمأ مسنون، ثم جعل نسب ما بعده بالتزاوج لتتواصل الذريات بعضها ببعض فجعل منهم الزوجين الذكر والأنثى وجعلهم قرينين وشريكين. ثم تشعبت الحياة وتعقدت وتمازجت. أمَّا أصله المادي الطيني الذي تأثر فيه بعوامل الأرض والحياة، وتنوع تربتها وتمايز ألوانها بين الأبيض والأحمر والأسود، امتزج ذلك كله في الهيئة المصورة الطينية الأصل البشرية الملامح. فنتج عنها اختلاف في الأشكال والألوان والصفات الجبلية المتأصلة في نفس الإنسان. كل ذلك وغيره يرجع إلى الطبيعة الطينية الأولى.

ثم كانت بعد ذلك المرحلة الثانية، والطبيعة الأخرى، وهي النفخة الروحية

والإحيــاءة الأولى، قبـل الإحيــاءة الأبدية. وهي ذلــك الجوهر المحجوب عــن الرؤية، والممنوع من الاكتشاف، القابع في الإنسان من غير قدرة له عليه ولم يسعه حول حقيقته وماهيتــه سوى الإيمــان والتسليم للغيب. فتلك الروح هــي الحقيقة غير الملموسة، التي يؤمن بها جميع البشر على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، ونحلهم فالروح هي من أمر الله تعــالى الذي اختص علمها لجنابه. قال تعالى "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمــر بي" . نسبها الله تعالى لنفسه، واستفــرد بسرها لعظمته. فالإنسان على ما وصل إليــه مــن التقدم، وما حقق من التطور. لم يحقق في الوصــول إليها أية نتيجة ولو كانت ضعيفــة فهي الفيصل بين الحياة والموت، والوجود والعــدم فمعرفتها غاية عظمى إنك تجــد الإنسان يسير ثم يسقــط على الأرض بلا حراك، وقد سكــن كل شيء فيه وجمد فأصبح لا يتحرك صامتالاينطق حرفا، بعد أن ملأ الدنيا صياح وجلبة. فكان لا يرضي لنفســه إلا أن يجلــس فيما حسن مــن الأماكن وجمل وأن يلبس أحســن الثياب ويزينها بأجمــل الألوان، ويمسها بشــيء من الطِيب والعطر. ويتغنــى بأحسن الكلمات، ويحكي الفصيح من القول، فيخلب الألباب، ويطرب آذانهم، ويستجلب قلوبهم . بعد أن كان لا يعصــي أمره، ولايكسر قوله، ولايُقدم في الأمــور قبل مشورته، يسأل فيجيب، ويُستفهم عــن الأمــور فيفتي . ثم بين تــردده بين الأهل والأحبــة، وجلوسه في البيــت بين الذرية يضاحكهــم، يفرح بهــم ولهم، ويبكيهم ويتباكى معهم. وبــين توليه المناصب وترقيه في الدرجــات، إلى أن يكــون ملكا وحاكمــا أو قاضيا وآمرا. ثم فجــأة لا يتمالك نفسه، ولا يسنــد كتفــه، ولا يحمل جسده. فتخور قوتــه ويفقد تماسكه وصلابتــه، ليسقط مغشيا عليه، مزهوقة روحه يسقط على الأرض جثة هامدة، جسدا بلا روح، فيعود إلى الأرض بعــد أن قضــى عليها فترة من الزمــان، وزمانا من الوقت لينقطع أثــره الظاهر عنها، وليفارقهــا ليؤانــس مــن بباطنها، فيُحفظ فيهــا مكرما، حتى يحين الوقــت فتعود إليه روحه، فترد على جسده ليقوم إلى حياته الأبدية.

حالة وهم

قال تعالى " منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى"

قال البارودي:

كل حي سيموت — ليس فيها ثبوت
حركات سوف تفني — ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يحلو — بعده إلا السكوت
أيها السائر قل لي — أين ذلك الجبروت
كنت مطبوعا على النطق — فما هذا الصموت؟!
ليت شعري أهمود — ما أراه، أم قنوت؟
أين أملاك لهم — في كل أفق ملكوت
زالت التيجان عنهم — وخلت تلك التخوت
أصبحت أوطانهم من — بعدهم وهي خبوت
لا سميع يفقه القول — ولا حي يصوت
عمرت منهم قبور — وخلت منهم بيوت
لم تزد عنهم نحوس — الدهر إذ حانت بخوت
خمدت تلك المساعي — وانقضت تلك النعوت
إنما الدنيا خيال — باطل سوف يفوت
ليس للإنسان فيها — غير تقوى الله قوت

وهذا القصيدة لها عظيم الأثر على النفس وهي تحتاج حقيقة أن تتناول بالشرح، والأولى من ذلك هو أخذ العبرة والعظة منها فكل بيت بمثابة حقيقة كاشفة للمرء، مجلية لكثير مما قد يغيب أو يستتر عنه. غير أني سأقف مع بيت واحد وقفة يسيرة وهو قوله: خمدت تلك المساعي — وانقضت تلك النعوت

كل ما كان يسعى الإنسان لأجله في حياته خمد وأصبح رمادا وانتهى كل شيء.

فأصبح الأمر مقضي. كأن الإنسان كان في حرب من أجل كل شيء المال والمكسب والأملاك والأولاد، ثم خمد كل شيء وسكن . كما لو كان في حياته نارا مشتعلة يسعى هنا وهناك. حتى إذا انقضى ما بداخلها من الحطب وما ساعدها على الاشتعال سكنت وعادت رمادًا، وهدء كل شيء. كأن الإنسان في صراع على الوجود، فيقيم الحروب هنا تارة، والمعارك هناك تارة أخرى. وهو بين هذا وذاك مشتعل النفس، مضطرب البال، لا يقر له جفن، ولا يهدئ له بال حتى يئول كل أمره إلى الركود والسكوت، ويتم إعلان انتهاء رحلته، ويضرب جرس مغادرته، وناقوس رحيله، خمد كل ما في نفسه من آمال وأمنيات وأحلام. سكت كل شيء وصمت.

انقضى أوان ألقابه ونعوته، أصبح شيء من الماضي، ثم بَعُدَ حتى انصرم فأكل عليه الدهر وشرب. نُسي ما كان محبب إليه من الألقاب والنعوت وغفل عن ما كان يُدعى به من الكنى. انتهت هذه الألقاب إلى غير رجعة. ما بين نداء بملك أو حاكم، ورئيس، وزير، ومدير. إلى آخره لم تصبح ذات جدوى لم يعد شيئًا من الفائدة من ذكرها، غير استذكار أيام خلت ومرت واستئناس قلب وحنين نفس، ولكن الأمر على الحقيقة أن لا فائدة، فلا مجيب ولامحادث ولا حتى خطاب.

وقد أحسن المعري في ذكر معنى الأبدية في حياة الإنسان، فقال

خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعمال ... إلى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح ... الجسم فيه والعيش مثل السهاد

لتبقى الروح دليل يثبت عجز الإنسان وضعفه، مع تقدمه الذي وصل إليه ومعرفته الواسعة الكبيرة. وكل هذا لا يشفع له قيد أنملة أن يتسرب إليه شيء من حقيقة تلك الروح، أو أن يطلع على الغيب فيسترق السمع من الجن ليعلم شيء ما قد أوحي، ولكن هيهات. إن الروح هي حاضرة في جسد الإنسان الحي، كجزء لا ينفصل عنه حال

حياته. فحتى بعد ذهابها من الجسد، تجد الإنسان لا ينشغل بها ولا يسأل هنا، فلا همّ له إلا أن يواري الجسد التراب ويودعه الأرض ثم يمضي لحاجته، ليزاول عمله وحياته. يـترك مَيِتَهُ الذي عاش معه زمنـا طويلا فيودعه الأرض وحيـدا غريبا مستوحشا، ثم يمضـي بدونـه، ويسير من غيره، تاركا إياه بلا أنيس يؤنسه أو رفيق يصحبه، بل يتركه وينصرف يفقده فقدا تاما لا رجعة فيه ليثبت عجز الإنسان، وليوضح قدرة الله تعالى المحيـي المميـت، وليوقظ فريضة الفكـر في العمل وليُحي الشعـور في القلب. كيف لهذا الإنسـان الـذي لا يقدر على مفارقة مـا يحب، أن يودع من يحـب في الثري، ثم يمضي لسبيلـه فيتركه هكذا ويغـادر. يا لله ما أصعب هذا الفكر وأقسـاه على القلب وأوحشه في النفس.

كأن الإنسـان في فكره أو صناعته وتطوره وأبحاثه وأعماله، ما كان يظن أنه سيرجع إلى مـن خلقـه يومًا ما، فيقف بين يديـه ليحاسبه. كأنه ظن أنـه سيبلي مع الثري، ثم انتهـى الأمـر. سيعيده الله كما بـدأه أول مرة، وسينشئه تارة أخـرى، ليبعثه من رفات موته، ليشهده على عجزه .

ألا يرى روحا في جسده مهددة بالنزع، ومفارقة للموت هي تقول له أنا الفارقة بين الحيـاة والموت بنزعي منك، ويوما ما لابد مغـادرة! ألا يشاهد غيره تأخذ منه جبرا لا اختيـارا، فيفارق ولـو أراد البقاء! لا حيلة له في ذلك . أمَّـا شهد الموت مئات المرات في حياتـه، بين كل شخص يودعـه إلى مثواه الأخير في الدنيا، بين قـبرٍ يشاهده حوى من الأمـوات وابتلع من الأجساد شيء عظيما! أمَّـا رأى تنقله – أي الموت – من بين إنسان لأخر، يومًا يأخذ هذا ويوم يأخذ ذلك، فلا مبلغ عن قدوم! بل يأتي فاجئا فلا استئذان عرف، ولا طرقا على الدور طرق. إنه يقتحم على حين غرة، ويفجأ على حين غفلة. ما أقسى حقيقته وما أصعبها.

الحقيقة توقظ المرء من سباته العميق، وتخرجه من غياهب الظُلَمِ فهي وإن كانت

مؤلمـة إلا أنهـا لا تقتـل ، وإن كانت شديدة إلا أنها لا تفتك . فهـي تفتح له دروب الخير الحقيقـي لا المدّعي المؤَلَـف. تبصره بما له وما عليه، وإلى مـا سيكون المرد فيما بعد . فهـي طوق النجاة في خضم البحار الزواخر والأمـواج الكواسر وهي سفينة الخير إلى بر السعادة وشاطئ الرضا.

لما كان جسد الإنسان هو الظاهر، والروح خفية مستترة، أقبل الإنسان على جسده المادي يهتم به ويعتني لأمره ، يلحظ مرضا عليه فيسرع من فوره، ليعالجه وليداوي هذه العلـة وتلـك الإصابة. فحال مرضه مثلًا ، يهب إلى الطبيـب رغبة في التداوي والعلاج. فـإذا أصـاب الدواء الداء برء بـإذن الله. ثم إنك تجد اهتمامـه بمظهره واضح جلي، فيلبس أحسن الثياب وأجملها. وتعامل الإنسان مع الملموس المشاهد حقيقة واضحة فيه لا تخفي بل تجده على أساس ذلك يقبل وينكر، ويجيب ويرفض. فكل يرده إلى ما ظهر أمَّـا خفي عنه أو استتر تجده لا يوليه أهميـة، أو هو بكل بساطة يتجاهله راحة لنفسه، ولعـدم إزعاج الفكر والخاطـر. بل تجده قد يتجاوز ذلك كلـه إلى الجحود والإنكار في كل مـالا تـراه عينه، ولا تشعر بـه جوارحه، ولا يحيـط بإدراكه بأي وسيلـة من وسائل الإدراك كانـت وذلك فقط لأنه يؤمـن بالمشاهد المحسوس وهو يُرد في تفسيره لطبيعته الطينيـة الأولى، لذلك جاءت الشرائع السماوية وأمرت بالإيمان بالغيب، غير المشاهد أو المحسوس ابتلاءً واختبارا. ومدحت فاعل ذلـك لأنه جعل قول الرب تبارك وتعالى، بمثابـة الرؤية وتحقيق السماع، وإدراك الشـيء على كنه وحقيقته. وذلك لأن القلب لما آمـن وعقـد الإيمان على الاعتقاد بـه إلها واحدا فردا صمدا. جعـل قوله تعالى بمثابة الواقـع المحقق الذي لا يخالطه شك أو ريبة وبهذا وقع الامتحان بين النـاس هل يؤمنون بما لا يرونه، وكيف سيكون حالهم وتصرفهم؟

لما كان الإنسان لا يدرك حقيقة تلك الهيئة فلم يشاهدها مشاهدة العيان فلم يهتم كثـيرًا بمـا يصلحهـا أو يمرضها وما الذي به تتأثـر؟ وكيف تتأثر؟ وأيـن يتضح أثرها

واضحا جليا؟ أم أن الأثر خفي لا يدرك ولايرى كحقيقتها؟ ثم أثر المصائب والأحزان عليه وهل هي تؤثر في الجسد أم أن الجسد هو الذي يتأثر بها وبحركتها؟ إلى غير ذلك من الأمور وهي كثيرة، ولعل إهمال الإنسان لها كان لشدة تأثره بالموجود الملاحظ، ثم لطغيان حقيقة المادة عليه.

الأرواح هل تتأثر، وتؤثر في بعضها البعض أم أن حقيقة تأثير الروح ينبعث على الجسد وحده فلا يتعداه لما سواه.

أساس اعتمادنا في هذا الباب، هو على حديث النبى ﷺ " الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف".

إذن لها تأثير، ولها صفات وميزات فتؤثر وتتأثر في نفس الإنسان، وهذا الحديث أصل عظيم في هذا الباب لأمور منها، أنه ذكر أن الأرواح تتعارف وتتناكر فتجد إنسان يحب إنسانا ولا يعرف سبب ذلك، وليس لديه سابق علم أو معرفة به، فليس هناك علة ظاهرة تقدر أن تنسب هذه المحبة إليها، فكأن روحيها تتلاق وتتقارب ويؤثر كل منهما في الآخر تأثيرا إيجابيا، فتئتلف أي تجتمع وتقترن. وذلك أنه لما تقاربتا في الصفات وتشابهتا فيها من حيث الجبلة الأولى حدث نوع من الألفة غير الظاهري وتقاربوا. وعلى العكس من ذلك يحدث التنافر والتباعد، تجد أحدهم لا يقبل الآخر، ولايريده بيد أن هذا أول لقاء كذلك بينهما، وليس لديهما تجارب مسبقة تجد المرء يُحدث نفسه، ويتساءل ما مصدر هذا الشعور، وليس بيننا شيء! فلم يسيء الرجل بأي نوع من أنواع الإساءة أو يبدي مظهرا من مظاهر العداوة. ولكن تجد روحه ثقيلة عليك، كما يقولون في تعبيرهم الدارج ، وكأنك تريد أن تفر من مكانك وتهرب منه. ولكن لا يتخذ هذا ذريعة لأي شيء. بل الإنسان مأمور بالإحسان إلى الناس والصبر عليهم فغاية الأمر هنا الذي نريد إثباته وبيانه، هو أن للروح إقبال وإدبار، ولها من الصفات ماجعلها تقبل وترفض، وتحب وتبغض. أضف لذلك أنها تمرض كالجسد

تماما، فتحتاج إلى العناية النفسية، كما أن الجسد يحتاج إلى العناية السريرية.

فالنفس قد تصاب بالتثاقل والتعب الإرهاق. وتتأثر في ذلك بأغراض محسوسة وهيئات مشاهدة. ومما ورد في ذلك قصة هرقل مع بطارقته التي رواها البخاري في صحيحه وفيه، وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل سقفا على نصارى الشام يحدث أن هرقل أصبح يومًا خبيث النفس، فقالوا له قد استنكرنا هيئتك. فقال لهم إني نظرت الليلة في النجوم فرأيت ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن في الأمة. إلى آخر ما ورد في قصته.

غير أن الخبث والطهر لا ينسب إلى النفس، بل تكون في دلالة ما تبرهن به وتأتيه من الأفعال وتمارسه من التصرفات حتى فيما ورد في خبر وفاة الإنسان ومفارقته الحياة، تقول له الملائكة اخرجي أيتها الروح الطيبة أو اخرجي أيتها الروح الخبيثة، نسبة إلى آثار أعمالها في الدنيا من خير أو شر، وكيف عمّرت الأرض أبصلاح أم فساد؟ أكانوا نافعين للبلاد والعباد أم كانوا للضرر أعوانا وأحزابا؟ والله تعالى يذكر تلك الحقيقة في القرآن الكريم فيقول تعالى " ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقوها "

أي والنفس التي خلقها الله تعالى فجعلها على الفطرة السوية والحالة المستقيمة، ثم ألهم هذه النفس وبيّن لها الفجور والتقوى، وأرشدها بأن تختار الحق والخير. قال تعالى " قد أفلح من زكاها" بأن يحثها على الأخلاق القويمة والصفات الحسنة، وأن يطهرها من الشر والرذيلة . " وقد خاب من دساها" أي خاب من دساها، وأخفاها كناية عن المعاصي والرذائل التي ترتكب خفية بعيد عن الجهر بها والإفصاح عنها، فهو يسر بها ويخفيها. أو أن يدسها بأن يحملها على ترك الفضائل وارتكاب المحرمات، وهو تأكيد لما سبق بأن النفس توصف بالخيرية أو غيرها نسبة إلى أعمالها وتصرفاتها.

ومن تأثرها أنها إذا أقبلت على الطاعة وباشرت فعل الخير وإيتاء المعروف والإحسان وجدت في النفس همّة، وفي القلب راحة وهدوء وتجدها نشطة متنقلة من

خير لخير، تمارسه بخفة وروحانية عالية، وتقبل عليه إقبال الحبيب لحبيبه، حتى إذا ما كلّ بدنه وضعف جسده، ركن إلى سريره فذهب في نوم يريح فيه أعضائه وجوارحه، فيسكن به ما أصابه من الإجهاد والتعب، وهو ذا قلب نقي ونفس مستسلمة لربها مستريحة.

أمَّا إذا باشرت المعاصي مستقبلة لها، وأتت الشرور، وفعلت المنكرات، وجدت في النفس ثقلا وتعبا وهمّا وحزنا، تجده لا يأبه لشيء ولايراعي شيء بمقدار قد يزيد أو ينقص، إلا ما أرضى ضميره. فتجده مشتت الذهن خبيث النفس، مُتَثَقّلًا في أفعاله وأقواله، وهو مشغول القلب والفكر، ممتلئ بهمٍّ لا يفرغ أبدا، فيصير دائمًا في حزن ونكد وألم وشقاء. غير أنه يخفت أثره ويضعف وضوحه باللذة الكاذبة والكلمة الفارغة والجَلسة المؤنسة. فلايطمع بعد إذ إلا بغرور نفسه، وخداع حياته، وتدليس أقواله، بضحكات كاذبة، وأمالي باطلة، وأمنيات مزيفة. وكل ذلك نابت من اشتغال نفسه بالهوى الباطل ومعاقرة الكلام الفاسد والأفكار الخاطئة وهذا كخمر غلب على العقل فأفقده جماع فكره، وصواب رأيه فإذا ما أفاق من نزوته، ويقظ من سباته أصابته الآلام الظاهرة والباطنة وأخذ يتردى ويتهاوى من الألم والعذاب وضيق النفس. ولعله في هذا الحالة لم يفطن إلى مكمن دائه فأخذ يتلمس الدواء هنا وهناك، وهو لا يدري عظم البلوي " ولو أبصر الداء ومحله لكان ذلك أول مراتب الشفاء ومبتدأ سلم العلاج". فإما أن يصيب الحق ويرجع إلى الرشد وإما أن يظل في غيّه يعمه ، يُمنى نفسه بطول الأمد، ويسقيها من شجرة الغرور، حتى تنبت أوراقها ويشتد عودها، فيميل إليها وتميل إليه، ثم يركب هواه ويسرح بفكره فيلفيه حين يراه وهو معه، سائر لا يبالي، وهو في كلٍ ممني نفسه بكل خير وأنه في ركب الحق، وفي اتباع الصواب. حتى يصير ظلاما دامسا وخرابا عاجلا فيأوى إلى من شابهه، ويشايع من كان على صفته فيستقوى هو وشيعته ويظن الظن السيء، ثم يكون عمله مصدقا لظنه. وصدق

الله العظيـم إذ يقـول "قل كل يعمل على شاكلتـه" أي يعمل على ما يناسبه في الأخلاق والتصرفات، فهو يعمل على تلك الطريقة وهذا المبدأ.

ثـم إن القلـب لا يخلو من الفكر إما فيما يصلحه وإما فيمـا يفسده ،والنفس تعمل في هـذا أو ذاك فـإذا شغل فكـره بالصالح له، إما في دنيا تنفعـه وإما في آخرة فتشفع لـه في معاده ويوم لقائـه. وإما أن يشغل فكره بالطالح الفاسـد في دنياه، فيضيع عليها مصلحتهـا ومنافع الخير فيها، فيترك مواقع القطر ليذهـب ويتحسس أماكن الجدب فـلا يفيـد نفسه أو من يعول من أهله وذريته، فيقصر عن حاجته، وينشغل بما لا طائل من ورائه وقد قالوا في ذلك:

وعاجز الري مضياع لفرصته حتى إذا فات أمرا عاتب القدر

وإمـا أن يضيع مصلحتها في آخرتها بحرمانها من فعل الطاعات وإتيان الخيرات، أو ارتكـاب المحرمات وفعل السيئات وحينما يشغل فكره بذلك، فيصيب ذلك شيئًا من قلبـه فيتأثر به ويتلون بلونه، فينكت فيه من ألوان البياض أو السواد حتى يصير أبيضًا مثـل الصفا لا تضره فتنة. أو يصـير أسودا مرابدا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكـر منكرا إلا ما أشـرب من هواه، وما أدخل في نفسه . ثم تعمل نفسه في ذلك فتدور مع ما أدخل عليها وتدور عليه إن خيرًا فخير، وإن شرا فشرا حتى تصير - تلك النفس - غالب عليه فتصبح فاعلة للخيرات، أو جانحة للسيئات .

وتلك الـروح التي خلقها تعالى جعل عليها ملك يأمرها ويحثها على الخير وامتثال الأمـر وفعـل المعروف، وتسمى "لمة الملـك". و وكل بها قرين من الجـن يأمرها بالشر، ويدعوهـا إلى الفحشاء والغي، ويكذبها في الحـق، ويشككها فيما تذهب. وهو بين ذلك حيـث يأمر تلك النفـس ويقويها فتميل معه حيـث ما اعتادت عليه. فـإن اعتادت على الخـير أصابتها "لمـة الملك" وحثتها النفس وشجعتها. وإن اعتـادت على الشر مال إلى مـا كانت تميـل إليه. وهكذا كلما عـود نفسه على الخير، وأصلح مـا بها من الاعوجاج

والفساد، وأزال أسباب الضرر، وأصلح ما فسد، ورتق ما انفلق. بأن يجعلها فيما خلقت له فلا ينشغل بغيرها وفيما أتى أو ترك، بل ينشغل بنفسه.

وفيه من المصالح الكثيرة. منها، أن يوفر عليها الوقت الذي كانت تنظر فيه عيوب الناس، بالنظر في عيوبها فتصلحها، فتتم سعادتها. ومنها، أن انشغالها بعمل الخير والإكثار من المعروف والبر خير لها من كثرة القيل والقال، والنظر في أحوال الناس. فتنشغل بخاصتها فتطمئن.

إن النظر في أحوال الناس قاتل مميت لها، وفي أخف الضررين ممرض لها متعب. ومنها سعادة القلب بأن أخلته من ذكر فلان وفلان، وجعلته منعقدا مصبوبا على فعل واحد فوفرت عليها الشواغل والصوارف وألزمتها الأمر فانصرفت في قضائه بغير انشغال أو تعطيل. ومنها، راحتها في عدم سماعها ما يضرها، فينعكس عليها في الحال أو المآل أو الشعور أو انشغال الفكر بحال الجديد القادم، فينصرف القلب عما قد أزمع المضاء إليه فيتعطل الفكر بالنظر في عوارض الحوادث وأسبابها ونتائجها، وهو قد يضر النفس ضررا شديدا، فيقعد عما عزم ممارسته ثم قد يوثه ذلك الهم والحن والألم، فتؤذي من حيث ظنت النفع، وتصاب من حيث أيقنت الخير. والفوائد في ذلك كثيرة، وخشية أن يمضي بنا الكلام فننصرف عن وجهتنا، ولكنها تلزم بابا خاصا بها لأهميتها وخطرها وعظم أثرها على النفس والجسد.

فالنفس تتأثر بما تأتي من الأمور، وينعكس أثر ذلك على الأحداث والأفعال. فلا يخلوا حدث إلا وعليه طابعها وخاتمها. والنفس هي الجزء الخفي، فناسبها الأفعال التي لا يرى لها علة واضحة وسبب ظاهر. وكذلك القلب، فإن الفعل أو القول قبل خروجه يشتد منه، ويأخذ من قوته. وما اللسان في حقيقته إلا ناطق عن هذا مبين عن إرادة كلتاهما فما هو إلا مفصح ليس له من الأمر شيء. أما العمل فهو للقلب والعقل. فإذا اعتدل الفكر وكبح العقل جماح النفس ونفرة القلب، فيخرج الكلام منضبطا

ملجما محجوما. وذلك من عمل العقل والفكر. وإلا فلا سلطان إلا سلطان القلب وقد أحسن القائل في قوله " القلوب كالقدور، وألسنتها مغارفها ".

وقد قال تعالى لنبيه ﷺ " ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم" أي ولو نشاء لأعلمناك وأخبرناكم بهؤلاء القوم المخالفين لك، المظهرين المحبة، المضمرين لك الجفاء فعرفتهم واحدا واحدا، وأخبرناك بأشكالهم وعلاماتهم، فعرفتهم بسيماهم ولكن ستعرفهم في لحن أقوالهم لتظهر ما تبديه نفوسهم وسيكشف عن ذلك أيضًا فلتات لسانهم المخبرة بحال قلوبهم. وصفحات وجوههم مطبوع عليها ما تكنه صدورهم ومكتوب عليها شواهد أحوالهم. وهذا علامة ظاهرة توضح لك باطنهم وتعلمك بخفايا قلوبهم، وإن كان للأمر تفصيلات كثيرة، غير أنها إشارات. وهذا الذي يعبر عنه في العلم الحديث " لغة الجسد" وتعابير الوجه، وغيرها كل ذلك يستخدمونه في الدلالة على الباطن أو معرفة ما به كأنه قرينة ظاهرة لتعليق الحكم عليها، ولكن للأمر تفصيلات أخرى هامة، هي المأصلة لذلك كله.

والنفس قد تمرض، فيكون مرضها شديد، وعلاجها حينئذ واجب. فإن تركت استشري المرض حتى تفاقم فلا تجد منه فكاك فيصبح مزمنا عضالا لا يرجى شفاءه ولا يؤمل برءه . وهذا المرض نوعان إمَّا أن يجعلها تحوم حول الدنايا، وتفعل مالا يجب، من السير في مراتع الفساد. وتقع على ما تكره النفوس الأبية الشريفة، فتصبح خسيسة حقيرة، لا تتورع عن فعل القبائح والمفاخرة بها، بل والدعوة إليها أو ممارسة الجنايات ثم يصعب عليها أن تكون شريفة عفيفة لاعتيادها الطبع الأول واشتداد نفسها حوله فتتشبه بالأولى ثم يصعب عليها أن تتشبه بالثانية، ثم يهون عليها فعل القبائح. حتى يصير طبيعة كما قلنا وحالة نفسية تركن النفس إليها ، ثم تلوذ إليها حال وقت اشتدادها عليه فكأنها تترجم بذلك قول القائل " وداوني بالتي

كانت هي الداء". فهو يعلم بضررها إلا أنه يداوي نفسه بفعلها. وهذا من لعنات انتهاج هذا المنهج.

وإما أن يجعلها دنيئة خسيسة، لا تأتي المكارم، فترضي الذل، وتقبل الضيم وتستصغر حالها وشأنها، فتضيع في مركب كل سائر فهي ضعيفة متضاعفة، تلحق بأي شيء يكسبها نوعًا من القوة. أو أنها تسير إليه منجذبة غير مقاومة. فتستعظم ما تأتي ولوكان حقيرا هينا، وتعظم وتضخم من الأشياء لتصل بها إلى الدرجة التي تشعرها بالنشوة النفسية والفكرية، فتمتلأ بالفخر والتعاظم. إلى آخر ذك. وهي في ذلك أنواعا متعددة، وأقساما كثيرة منها المذموم، ومنها الممدوح، ومنها ما يسكت عنه.

وكما تهلك الأرض بالآفات والحشرات وانقطاع القطر عنها فتجدب كذلك النفس تمرض إذا حجبت عنها الخيرات، وتكاثرت عليها آفاتها، وحاصرتها الهموم من كل جانب، فامتلأت بكل شر وفساد فكأنها ممنوعة من مزاولة طرق الخير، ومن مواقع القطر ومنابت الزرع.

فمن عرف أرضه من يسكنها، وماذا يعمرها، وما الذي يجدبها، وعرف ما فيها من الكنوز والفضائل والنعم، وعرف كيفية حماية ذلك. فاز وربح ومن جهل نفسه، وجهل ساكن أرضه، ومن يرتع في فضاء ملكه، ومع ذلك يظن أنه ممسك للذمام، عارف ما خرج، ملم بما دخل، فهو الجاهل حقا. لأنه ضيع نفسه فأضاع حياته وفرط في ممتلكاته. وكان بتلك الشدة وهذه القوة لأن الإنسان مسئول عن نفسه، محاسب على فعلها فيما تأتي وتدع ويقول تعالى " وَاتَّقُوا يومًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ "

وكذلك قوله سبحانه " وَاتَّقُوا يومًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "لذلك كان أمرها عظيم يستحق التدبر، وإعمال الفكر والنظر، والعاقبة في الحال والمآل.

ومـن أعظـم أمراض النفس، وهو الظلم وهو في كل أشكالـه وأنواعه يعود بالضرر عليهـا فإمـا أن يظلم نفسه بأن يقصر عن فعل الخير والطاعة، أو يتأثم بارتكاب الشر وما يوجبه من العقوبة. وهنا تضيع نفسها من حيث المآل. فعمل المرء هو الذي يحاسب عليـه، وحينما يكثر المرء من إتيان الخير والفضائـل، إنما هو يكثر لنفسه هناك يقول تعـالى عن إخبـار المرء في ذلك متحسرا " ياليتني قدمت لحياتي" فأنت تقدم لحياتك الأخرويـة بما تأتيـه من الصالحات في الحيـاة الدنيوية. وقد كـان الفراعنة القدامى يفهمـون ذلـك فهمـا خاطئا، فكانـوا يجعلون مع الميـت في مقبرته أنواعـا من الطعام والشـراب والتماثيـل الصغـيرة والذهـب والفضة ونحو ذلـك. ظنا منهـم أنه عندما يستفيق الميت من غيبوبته ويقوم من موتته سيستخدم هذه الأشياء وينتفع بها وإن كان ظنهـم سيء فاسد، إلا أنهم اعتقدوا في الخلود بعـد الموت، والحياة الأخروية، فأخذوا يستعـدوا لها بالحاجات والمتطلبات الجسدية. أمَّا المؤمن بالله تعالى، فيعلم خطأ ذلك وفسـاده. وقد بين له تعـالى أن الحساب بالحسنات والسيئات وأنه الأمر سيكون عرض وميزان، فمن ثقلت حسناته فاز واغتنم، ومن ثقلت سيئاته خسر، وذلك هو الخسران المبين .

فالحســاب يكون بالأجور، وقـد بين له في الدنيا، ثواب ما يأتـي أو يدع من الأقوال والتصرفـات، فجعـل لكل عمل أو قول ثوابا معلوما وأخـبره به. فمن فعل كذا كان كمن فعل وقدم إلى الله كذا. ومن قال كذا له من أجور الحسنات كذا فبين له طرفا المعادلة فمثلا من الأفعال، التبكير بالذهاب لصلاة الجمعة قال ﷺ " مَن اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَـنْ رَاحَ فِي السَّاعَـةِ الثَّالِثَـةِ فَكَأَنَّما قَـرَّبَ كَبْشًا أَقْـرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَـةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَـا قَرَّبَ دَجَاجَـةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَـةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَيْضَـةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَـامُ حَضَرَتِ المَلاَئِكَـةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ ". ويقول ﷺ " مَنْ صَلَّى اثْنَتَى عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ، بنى لَـهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ" . فأعلمه نظـير عمله من الثواب وهذا فقط

مثال يتضح به المعنى وكذلك في الأقوال خاصة في الذكر، فيقول ﷺ في فضله " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ "، قالوا: بلى، فقال ﷺ، ذكر اللّه تعالى ويقول كذلك ﷺ " من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة".

وأن" لا حول ولاقوة إلا بالله " كنز من كنوز الجنة وعظّم الأجر على قراءة القرآن، فجعل بكل حرف تقرأه حسنة كاملة، فيعامل بالحرف الواحد فكلمة " الم" مثلًا هي ثلاثة حروف. ثم جعل الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، واللّه يضاعف لمن يشاء. إلى آخر ذلك وهو كثير. فألهمه تعالى بثمن المبيع الذي يبيع به عمره، وينفق فيه وقته. لينظر أي التجارتين هي الرابحة. والإنسان في جميع أموره بين بيع وشراء وقبول ورفض. فمعه يومه الكامل بتردد أيام الشهر والسنة، بل على مدار عمره. والوقت كله ملك له هو، فهو الذي ينفقه هنا أو هناك كل يوم هو صفقة وتجارة جديدة، إمَّا أن يربح فيها أو يخسر. الأمر قيد به وحده. فأي تجارة سيخوضها وأي ربح يريده، وكم من الخسران سيتكلف، هو رهن أعماله وأقواله.

لذلك يقول تعالى " ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله "يبيع نفسه ووقته، بل عمره كله ينفقه في سبيل طاعة اللّه. وهو بين طريقين إمَّا أن ينفق في سبيله أو في سبيل غيره، أي كان هذا الغير، على تعدد طرقه وأصنافه لذلك كما في الحديث " كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها " كل صباح يأتي، لديه نفس الوقت الذي يملكه غيره. ولكن في خاتمة اليوم تختلف الأعمال وتتمايز، فمنهم الذي يعتق نفسه من النار بما يأتي من الخير ومنهم من يوبقها بما يدع من الأول، ويأتي الثاني الذي هو الشر على اختلاف طرقه وأنواعه كذلك. فكل يعمل ويتاجر.

وحياة الإنسان فيها نوع من التجارة أو الصفقة يجريها بينه وبين غيره إمَّا أن

يكـون هـو الرابح فيهـا أو الخاسر. كما يقول تعـالى لعباده " ياأيها الذيـن ءامنوا هل أدلكـم علـى تجارة " أي نـوع من التجارة تلـك، وماهي تلك الصفقـة الرابحة. قال " تجـارة تنجيكـم من عذاب أليـم " وأي تجارة أعظم من أن تنقـذ نفسك، فلا تضيعها في مثواهـا الأخـير. وأي ربح أعظم من ربح الجنة بمـا فيها من خيرات ونعيم وأي فوز أعظـم من الفـوز برضا الله ورضوانه فلا يسخط عليك أبدا. ضـع كفتا الميزان، وأقم المحاكمـة، وأعدل قبل ذلك في الأقضية ضع هذا وهذا، فانظر أيهما خير وبركة. اعقد تلـك المحاكمـة، لترى فـرط ما ضيعت، وعظـم ما تركـت، وأي شيء تركـت! أمَّا وقد علمت الأثمـان والأجور، واطلعت على شيء من الأفضال والدرجات، فأَعْلَمَك وفَهَّمَك، وأخبرك بهذا وذاك، لتكون على بصيرة ووعي. فأعلمك أوصاف المبيع وثمنه وقدره في الدنيا والآخرة. ثم أخبرك غبن الآخر وخبثه وسوء أثره في الحالين والعاقبتين. ثم أنت ونفسـك في هـذه المحاكمة وتلك المعادلـة، ماذا ستقدم، ماذا ستؤخـر. إنه فكرك أنت وقرارك أنت. وأنت الفائز أو الخاسر.

فالإنسـان هو الذي يستكـثر من ذلك الخير أو يقلل، هذا شأنـه فقد يكثر غرسه، فينعـم بوافـر نتاجه، وقد يقلل، وقـد لا يغرس أصلا. ماذا تريد للأخـرة وفي الآخرة. اصنعـه الآن، ليقـدم لك في حياتك الأخرى ظاهرا بين يديـك. أمَّا علمت وشاهدت أن هـذه الدنيا مقطوعـة بالموت، فليست دائمة لأحد! إذا لمـاذا تضيع نفسك! لماذا تتركها هكـذا، وقد أعلمك كيف تأتـي الكنوز من الحسنات، وتنبي البيـوت والقصور العالية، وكيف تكثر من نخيل بيتك، فتملأه بهجة وروضة. أخبرك بأن لك فيها جنات من نخيل وأعنـاب ورومـان، بل ومـن كل فاكهة زوجين، وجعل لك فيها أنهـار من ماء غير أسن، وأنهـار من لبن لم يتغير طعمه، وأنها من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفي، ولـك فيها مـن كل الثمرات. ففاكهة مما تتخير، ولحم طير مما تشتهي. جعل لك فيها كل مـا تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنت فيها خالد غير خارج، وأبدى غير ميت، كيف

يضيع هذا الأجر عاقل! ثم ناهيك أنه ليس هناك عمل، انتهى الشقاء والتعب، فلا شيء إلا التنعيم والإحسان لك. أجهلت ذا الثمن !!

أمَّا علمت جزاء الآخر وثوابه من نار تلظى، شرابها الحميم، يصهر به ما فيه بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد يضربون بها . ثم طعامهم من شجرة الزقوم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . ثم ناهيك عن أنه فيها معذب مهان، لا كرامة يساق إليها سوقا، ويقذف فيها قذفا، بعد أن يدفع إليها دفعا، فليس له من شفيع أو صديق حميم يأخذ به ويخفف عنه بعض ما يجد . ثم هو فيها إلى قدر محدد لا يعلمه إلا الله، يكون فيها خالدا مؤبدا. فيلاقون فيها التقريع والتوبيخ، فلا أحد يأخذ بجانبهم، أو يلين لهم الحديث، لا كرامة لهم فيها أبدا. إلى آخر ذلك، والأمر يطول. ولكن هذه إشارة خاطفة إلى الأثمان والأجور.

فاتضح شيء من المبيع ووصفه، وصفته، أمَّا بيان صفته وقدره إلى آخر ذلك فهو شِعب آخر. فالشاهد في الأمر أن أعمالك إمَّا أن تشتري هذا أو هذا. فالأمر بيدك أنت فالله تعالى يتعجب في كتابه ممن يشتري العذاب بنفسه، وينفق فيه كامل عمره، ولا يدخر وسع لإنفاقه في سبيله وتجده في ذلك جلدا مسابرا، بل مستميتا على مأتاه هذا. فيقول تعالى " أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ" ما الذي يدعو هؤلاء للصبر على عذاب النار و إيلامها وإحراقها. ما الداعي الذي يستحق ذلك. فيشتروا الضلالة بأموالهم، وينفقون عليها، ويغذونها، ويصرفون في سبيل انتشارها مايشاءون ما الداعي لذلك، وما أصلًا الذي صبرهم على ما يعملون! لذلك كان مثل هؤلاء كما قال تعالى " أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ " فهؤلاء خسرت تجارتهم، وكسد بيعهم، وخاب ظنهم وسعيهم.

إمَّا أن يظلم نفسه بأن يضيع حقها في الدنيا، من منافع دنيوية أباحها وأحلها

لـه. وإما أن تظلم غيرها فتبوء بالإثم والبهتـان فيجاوز ظلمها نفسها لغيرها. فإما أن يظلمها في نفسه بالسب والطعن أو الانتقاص والاستهزاء. وإما أن يظلمها في ملكه بأن يقتطـع منــه ما ليس له، ولو بحياء نفس منه فحياء النفس قد لا يعد رضا، بل استشعار للحرج، وهو شيء يعتري النفس فتنقبض لاختلاف أسباب.

لذلـك، كان الإنسان حقا هو المضيع لنفسه. أمَّا وقد وعلم حقائق الأمور واتضحت لـه الأثمـان. فليس عليـه في ذلـك إلا أن يختار بـين أن يكسـب نفسـه أو أن يخسرها ويضيعها. لذلك يقول تعالى " وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

وكذلك قوله " وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ". وذلك كثير في كتاب الله تعالى

ولو تأملـت في أصل تلك الشرور وأنواع الفساد الظاهرة، لرأيت أصلها متجذرٌ من الظلم، اتخذ منه قاعدة له. وتحليل أمثلته سيخرج بنا عن المقام، بأمثلة الظلم للنفس أو غـير المتعـددة. لأن الظلـم في أصله تعدٍ وتجـاوز عن الحق. وخروج عـن العدل إلى جانحـة البغي والاعتداء فكل ماجـاوز العدل والحق، فبه نوع مـن الظلم، من أقله إلى أعظمه، وهذا باب واسع النفس فيه طويل من ظلم العبد نفسه وإساءته لها حتى يصل إلى مراتب الظلم.

ومنبـع ذلـك في أساسه يتعدد في أشياء منها، الجهل فقـد يظلم الإنسان نفسه أو غيره، وهو يظن أن ذلك تمام العدل والصواب. ومنها، الكبر والغرور والاستكبار ومن سلـك مسلك تلك الصفات فيكون داعي إلى الظلم، حريص عليه. بل إنه يتكلف لأجله فهـو فيعد ويخطط لإيتائـه. وإما الطمع والحقد ومن سار في ركـب تلك الصفات، من الحرص على تحصيل متع الدنيا ولذاتهـا، ولو كان باقتطاع ما لم يكن له، أو أخذه ولو بالجبر والاعتداء والإهـلاك. وفيه ضعف البصيرة، وقصر النظر على اللذة العاجلة، متغافـلا عن عاقبة صنيعه وعمله. وفيه كذلك ضعـف التوكل على الله، والخشية منه،

والرجوع والاعتماد عليه. فهو جعل المعادلة أرضية بحتة. بين تحصيل لما ترجوه نفسه، بوسيلة ظلم غيره أو انتقاصه أو. أو. إلى آخره. وفيه كذلك الغرور المتعالي، الذي تشمخه به نفسه، حتى تعلو به إلى أفق السماء، ليكون سقوطه عظة لغيره وعبرة.

إنك لو نظرت إلى الحياة نظرة حقيقة، وما فيها من المتع لعلمت أنه "متعة الغرور" والله يقول "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" فكأن متاعها كله معتمد على الغرور في مأتاه فهو يفعل الشيء برغبة من القلب، وحب ظهور للناس فكأنه يفعل الأشياء لأجله هم. فلا تتم سعادته مثلًا إلا بأن يتباهى بأن لبس كذا وكذا، وطعم كذا وكذا. ولو قصر كل ذلك على نفسه لما شعر بتلك النشوة النفسية، إنه يدرك من إخبار الآخرين بنجاحاته وأفعاله شيئًا من الانتصار، وببعضا من الغرور، قد يزيد ليبلغ عنان السماء، أو يقل بتحكم من العقل وسيطرة على النفس والقلب كأنه يأتي الفعل لأجل الناس، يمشي أمامهم متبخترا بأفعاله وصنائعه، وانتصاراته وشجاعته. لو احتفظ بها لنفسه، قد يشعر بشيء من الضيق. كأنه يشعر بشيء من وجوده بذلك بالإخبار عن نفسه، وبقص الحكايات عن ذاته. كأن في الغرور شيء من الاستظهار والعلو. أمَّا في إخفاء المرء في ذاته، نوع من الحجب والكبت. ولعل ما قد يشعر به في نفسه في انعزال عن الناس، هو الفرح الحقيقي، الذي تسعد فيه النفس وتفرح بفعل الخير والبر والصلة. وليس معنى هذا إنكار المشاركة والاجتماع بالناس والحكاية لهم والسماع منهم. أبد، ليس هذا المقصد، وإنما هو إيضاح نمط التصرف البشري في الترك والإيداع، وأثر ذلك على النفس من حيث التصرفات والأفعال. لا من حيث المعاملات والأحكام وما يتعلق بهما.

وأمرض النفس كثيرة لست بصدد كشفها كلها، ولكن اكتفيت بذكر أحدهما ليدل على الآخر في مضمونه وتفرعه. وظهور ذلك المرض على النفس، بمصاحبة الهم والغم أو اليأس والقنوط فتفقد لذة الإيمان وطعم الطاعة وفرحة القرب ولذة المؤانسة.

أو تكـون قلـة ـفي البركـة، أو انعـدام لأثرها. فيجـد الشيء لا بركة فيـه ولا خير، فلايكـثر نفعه، بل قد يعجـل بفنائه ويحكم بزواله . والبركة لا تفسـير لها إلا بها، فيه الزيـادة المادية أو المعنوية. وهي الخير الكثير، والكـرم الإلهي، والفضل الرباني الذي إن حلّ ـفي الشيء كثر به قليله، ونفع به حتى جاوز المدى، وهذا شيء منه . والبركة تحل مـن الله فقط، لا من غيرة فالبركة هي المضاعفـة المتضاعفة للشيء، بلا حساب لها. وانظـر لقوله تعالى " وَلَوْ أن أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ". فجعل الإيمان والتقوى سبب لفتح أبـواب البركات من السماء نازلة، ومن الأرض خارجة. ولم يجعلها واحدة، بل جعلها متعددة لا حصر لها، فقال بركات. وتلك البركـة الإلهيـة لا حد لها ولا منتهـي لأثرها، وتحصيلها ـفي رضا الـرب تبارك وتعالى ويضـاد ذلك، المحق والجدب والقلة القليلـة ـفي الشيء، فتجد منه أفراد معدودة لا أثر لهم ولا رجاء فيهم.

والبركة تقع ـفي الأقوال والأفعال، فينفع بها ما شاء الله أن تنفع، ولذلك كان القرآن أصل البركات ومصدرها لوجوه كثيرة لا يكفي سردها هنا. ولكن منها، انتفاع البشر به منـذ أنزل إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليه، وـفي عدد أفراد كثيرون جدًا على امتداد الأزمنـة والعصـور. فلم يعلم كتـاب بلغ مثل هذه الغايـة أو قاربها أو دنـى منها بشيء يذكـر. فإنه السمـاء العالية التي لا يطاولها شيء. ومنهـا، أن كلام الله تبارك وتعالى فقـال تعالى " كتاب أنزلنـاه إليك مبارك" مبارك ـفي كل شيء نافع وذلك لأنه من عند الـرب العظيم، الذي يعلم حاجات الناس، ويعلـم كذلك مصائبهم وعللهم. فجعل فيه شفـاء وخيرا. ثم يقـع النفع به ـفي الأقـوال والأفعال. و تحل بسببه البركـة ـفي الأشياء والأشخاص فتقـع ـفي الأشخاص وـفي الأشياء وـفي الأمكنـة وـفي الأزمنة وقد جعل تعالى هناك أشياء إذا فعلها العبد تعرض لتلك البركة وحلت عليه، ووصل تلك المنزلة فأصل البركات وهي الإيمان بالله تعالى وطاعته، وتقواه سبحانه ومراقبته ثم اعلم أن الطاعة أصل كل خير وبركة، والمعصية أصل كل مصيبة ومكروه ومحق.

ومنه أثر ابن عباس " إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه وظلمة في القلب ووهنًا في البدن ونقصًا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق". والأثر لا يحتاج وضوحا أكثر من هذا، وقد زاد وضوحه بجلب الشيء وضده، ليقوي المعنى ويبرزه ويوضحه، ثم يضيف إلى الأول هالة من الجمال والتعظيم والفضل، والآخر شيء من الدنو والتقصير والقلة. فالحسنات نور القلوب وإشراقها وضياءها، وبركات الأعمال، وفضل الله الذي يختص به من يشاء من عباده.

ومن نتائج الظلم كذلك، الهلاك في الحرث والنسل. فهو من آثار الظلم البينة كما ذكر في قصة أصحاب الجنة "فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصريم" فلما أدركوا شنع فعلتهم " قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ". فلما تذكروا ما وقعوا فيه من الظلم لغيرهم، وقطع حقهم الذي ليس ملكا لهم، فكأنهم أكلوه زورا، وباشروه بغرور وطيش وتكبر.

أو شيئًا من الخوف والجوع، يصيبهم به جزاء بما اقترفته أيديهم. كحال كثيرين منهم مثلًا قوم سبأ، الذين بدلوا نعم الله فكفروا. فكان جزاؤهم الحرمان والهلاك. حرمانا من النعمة، وإهلاكا للخير.

والقاعدة العامة في كل ذلك، أنه لا يحدث فساد أو ظلم أو طغيانا. إلا كان لسبب ظهوره شيء من العصيان والمخالفة .وإلا لو ءامنوا لفتحت عليهم السماء بالخير تصبه عليهم صبا، وفجرت لهم الأرض عيونا من الخيرات التي لا تنقطع أو تفني.

وقد يكون مرض النفس الانشغال بالناس وأحوالهم، والتعرض لهم في كل كبير وصغير. ويكون نتاج ذلك تغير حال القلب. فانعقاد الأمل عليهم، مع خلو تعلقه بالله تعالى والاعتماد عليه. فيورث ذلك خيبة الأمل، وكسرة القلب وتعب النفس، والهم

والغـم، وتضييع حق النفس في مباشـره مالها بتعطيل وانشغـال بذلك الحال العارض مـن القلب. أمَّا مداوته فشديدة، تتطلب الزمن، ومرور العمر ولا يخفي ما في ذلك من المفاسـد وضياع الوقت، الذي هو رأس عمر الإنسان. ناهيك عن بقاء أثره في النفس لا ينـزع ولا يترك. وكل ذلك من شدة تعلق القلب واجتماعـه على الشيء، فإذا حال بينه وبينه كأنما قد تصدع، ناهيك عما يصاحبه من الندم والحسرة. وهذا واضح. وهذا لا يعني عدم الاهتمام بالناس والسؤال عنهم ومؤانستهم والدعاء لهم، وحمل القلب على الرحمـة بهـم. وضابط ذلك مرجعه إلى القلب هل هذا الاهتمام يشغله عن حق نفسه، وتضيـع فروض ربه، ومسئولية ما عليه؟ وهذا الذي يـورث النفس شيئًا من الضياع في المقصـد أو الجهة. فيتبعه مزاولة النفس لأجل مـدح وكرامة أو خوف سخط أو غضب هـذا ما يتعب النفسـ ويثقل جانبها، التعلق القلبي الممرض بالناس وبرضاهم وخوف سخطهـم لأن الأمـر هنا محمـول على الإباحـة، أمَّا رضا النـاسـ في سخط الله تعالى خطير، فهذه قضية خاسرة وقسمة باطلة، فيورث غضب الله تعالى عليه ويورث كذلك غضب الناس وسخطهم ونقمتهم .

أمَّا من حيث الإباحة، فميلان القلب لشيء ما، يوجبه صرف شيء من المحبة والود لـه. والطبيعية الإنسانية تنتظر ردا وجزاءً، والحالة النفسية للمرء ليست بمعزل. وهنا حينمـا يدخل الاهتمام مرحلة التعلـق الشديد. والله تعالى يغار على قلب عبده أن يرى متعلقـا بغيره، فيسلطه عليـه، حتى يرجع إليه فيذوق القلب حـلاوة ما عند الله تعالى والله تعـالى كريم، لا يشدد علـى عبده، إذ لو شدد عليه لأهلكـه. ولكن يصيبه بالبلاء لكـي يرجع إليه، فيبتليه بألم القلب ليعلم أن الطريق إليه. ويوحشه من الناس، ليجعله يخلو به. بعبادته وذكره وشكره. وهنا سؤال هام لم خلق الله عباده؟ ألم يخلقهم لعبادته فـإذا انصرف العبد عن طريق العبادة، أعاده إليه، وسلط عليه النـاس في الأرض، من يحبهم منهم ومن يكره. يسلطهم جميعًا عليه، حتى يرجع إليه وحده، ليعلم أنه ليس له

إلا هـو وأنه وحده ناصره، وأنه وحده كاشف كربه وغمته، وأنه وحده الذي بيده نفعه أو ضره. فيرجع إليه محبا، متذللا، خاضعا، خاشعا، مستجيبا.

نعـم، واللّه إن اللّه ليوحشـك مـن الناس ليدخلـك عليه مجلس المحبـين المقربين فتكـون من أهله وخاصته، فـترزق النسبة إليه وتكون من أهله الذين يعبدونه ويصرون إليهـم جميـع أعمال قلوبهم. فليس لديهـم أحد في الدنيا أحب إليهـم منه تعالى، فهو حبيبهم وأنيسهم وقريبهم.

ومـن أمراض القلوب النظر إلى ما في أيدي الناس وإلى ما مَلّكَهم اللّه تعالى من النعم اختبارا وامتحانا. سواء أكان ذلك شيئًا معنويا، أو حسيا ماديا. وهو يورث القلب الحقد والحسد والألم والحسرة، بل قد يصل إلى الافتراء عليهم بالباطل، وقول الزور والكـذب، والظن بغـير دليل أو برهان وكل ذلك منبعه رغبة القلـب واشتهاؤه، ثم عقد المقارنـات وإبداء المفاضـلات كما قال تعالى " أم يحسدون النـاس على ما أتاهم اللّه من فضله "ولكن لو نظر إلى ما تحت يده وعلم فضل اللّه تعالى عليه، وماذا أنعم عليه مـن الخير والفضل، لهـدء داعي قلبه ونفسه. فبدلت حرقة قلبـه وألمه سرور وسعادة. ولقنع بما أوتي . إياك أن تنظر إلى ما عند الناس، فإنه يورث المرض والحقد والطمع. بـل انظر إلى ما منّ به عليـك فاشكر، ثم سل اللّه تعالى من فضله، يمددك، فإنه بيده خزائـن السماوات والأرض. وهو وحـده الذي يملك الإعطاء. واعلم أن تلك النظرة لن تزيدك إلا ألما وحسرة ولن تجني من وراءها إلا ما يزيد سابقها. ولمَ كانت تلك النظرة التـي تفتح عليك من الأمراض مالا يخفي. اخفض طرفك. وقل لهـا يا نفس إن الذي زرقه، هو الذي رزقني، أتعترضين على حكم اللّه في الرزق؟! فتسخطي...

مالك وللناس! أكلوا أم شربوا، قاموا أم قعدوا، زادوا أم نقصوا. وهل كنتي مسئولة عنهم، محاسبة عما يكنـون. كلفتي نفسا واحدة وحملتي نفسا فاصبري عليها، وقومي بحـق تلـك النفس عليـك. لمَ كثرة الالتفـات إلى الغير، والنظر إلى مـا في أيديهم. إن

كثرة النظر تورث القلب السخط. وإن كل ذلك من البلاء. ألا فهل لك في القناعة. إن القناعة كنز لا يفني، وكيف يفني هو قنوع بما أعطى أكان قليلا أم كثيرًا، والقناعة هي القبول بالشيء والرضا بالأمر وعدم السخط به أو عليه . و الرضا يورث راحة البال، واطمئنان النفس وذاك أغلي ما قد يطلبه الإنسان في الدنيا. فالرضا يكثر الشيء ولوكان قليلا ، ويعظم الأمر ولكان حقيرا. إذا أن الرضا في حقيقته، هو استكفاء النفس واستغناؤها بما كسبت. فهي مطمئنة به. والرضا يجعلك في منزلة أعلى ممن كسب الشيء نفسه. وذاك أن مالك الشيء قد لا يكون قانعا به، فهو وإن استنفع منه ماديا بوجوه إلا أن قلبه خلا من الرضا به فهو يحفزه، ولا يقعد به أي مقعد، فيورثه من شدة القلب عليه واستعصاءه مالا يخفي . ثم إن الرضا يستتبع من الصفات ما هو أغلي مما قد يشتري. وتجد ذلك مثلاً في راحة البال والفكر، واطمئنان النفس، ورضا القلب، ناهيك عما يحوز أمره من القناعة، فيورثه الشكر والحمد. وهو في ذلك بعيدا كل البعد مما يمرض القلب من الطمع فيما ليس له، أو الحرص المذموم. أو الحقد والحسد على ما في يد الغير. إلى آخره.

ومن أمراض القلوب، النظر إلى المحرم. واستشعار القلب لذلك، ومراودته وتزينه له، حتى يأتيه وهو لا يدري ما حقيقته. يأتيه والقلب مشتعل مأجج، لا همّ له إلا فعل ما زينه القلب وحلاه ثم يقويه في النفس ليشتد. وذلك يكون من تحول القلب والتفاته إلى ما ليس له، وإرادته ما ليس فيه مصلحته أو منفعته. والقلب هنا مندفع بفعل الإرادة والرغبة تحركه حيثما أرادت، فتُحَسن له القبيح لتراه حسنا جميلا ، فتباشره إمَّا بالفعل أو بالقول. ويورثه ذلك اتباع الهوى، وقول الباطل، من ابتداعه أقولا تحلي أفعاله وتلبسها بالحق خروجا من دائرة اللوم والتقريع. فيضل القلب بذلك، ويكسوه من كسوة ما قال أو فعل، فإذا عرض عليه الحق بعد ذلك ردّه أو رفضه. فيضل بذلك سبيل النجاة وطريق الوصول.

ومـن أمراض النفس كذلـك، غفلة القلب عما خلق له، ونسيانـه أو تناسيه ما كان سبـب وجوده وأصل حياتـه. وهذا سبب كثير من الشر. وهو الغفلـة عن الهدف الأول، فيضـل أو يتشعـب بأهداف أخرى كثيرة ليست هي المطلوبـة في أصلها. ثم يتمسك بها ويدافع حتى يهلك، وهو يظن أنه على الخير المبين. فينسي وذلك النسيان يورث القلب الغفلـة، فتنشغل بما ليسـ عائد عليها بالمنفعة الأخروية، وإنما منفعة عاجلة ليست هي المطلوبة لذاتها. إن المرء في الدنيا له هدف واضح وغاية كبري، وهي إرضاء الله تعالى، والسير في طريقه. ثم تأتي بعد ذلك البقية تبعًا لها. فلو غفل عن الغاية الأولى التي هي إرضاء الله. وانطلق في شعاب إرضاء الناس والنفس والهوى والملذات. وليس معنى هذا أنـه ليس عليه إرضاء نفســه أو غيره، بل أن يكون رضا هؤلاء جميعًا تابع لما يرضي الله تعالى، وهنا يحقق الوصول. والناس في هذه المنزلة درجات عدة اعلم أنك لن تقدر على إرضاء الجميع، لتضاد رغباتهم وتعاكس مطالبهم، فليست مطالبهم متقاربة متوافقة تستطيـع الجمع بينها، وإنما متباعـدة متناقضة، كأنهم يريدون أن يثبتوا الضدين معًا في حال واحد، وذاك من المحال وقوعه. وهنا يقف المرء بين أولويات متطلباته. فلو كان ذا منهجية واضحة، ورؤية وهدف بارزين، علم ما حقه التقديم، وما واجبه التأخير.

وفي أحـوال كثـيرة إرضـاءك لأحدهم هو إغضابـك للأخر. فأنت ما بـين إرضاء وإغضـاب، وهنـا يتقدم الواجب الذي يوازنه العقل ويرضـاه الرب تبارك وتعالي وأنت هكـذا فجميع أمورك بين تقديم وتأخير، فـلا تقدم ما حقه التأخير فتفسد من وجهين الأول، أنـك ظلمت من حقه أن يتقدم، ومنعته من حقه، ثم جازيته شرا بأن أخرته عن منزلتـه التي يستحقهـا جبرا وعدونا، فظلمتـه في الظلم أنواع، وأتيـت في الجور عليه أقسامـا. والآخـر، أن قدمـت ما حقه التأخـير، فأعطيته ما ليس مـن حقه فكان نكال ذلك عليك أن أفسد فضرك مما تتوقع منه النفع، وكان هذا لسوء فعلك وتدبيرك. ثم أعطيتـه نوعًا من الغرور والكـبر، وجعلت عليه هالة من التعظيم فانتفخ، وظن أنه أهل

لتلك المنزلة وهذه الرتبة، وهو أبعد ما يكون عنها، فكان في ذلك من الظلم له ولنفسك قسطا كبيرا.

ومن أمراض النفوس، خلو البال من الخاطر الصحيح، وفراغها من الأفكار المنضبطة والعقيدة السليمة والنفس كالكأس إن لم تملأ بشيء، ملئت بالهواء. وقالوا في ذلك، نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. والنفس تدور، فلا بد من شيء تدور عليه، فإن لم تجد. أعملت الفكر وابتدعت شيء من تلقاء نفسها وأخذت تدور معه تنسج حوله القصص، وتحكي الحكايات، وتبني عليه المشاعر وهذا أحد سيئات عدم استعمال وقت الفراغ فيما يفيد أو ينفع. فوقت الفراغ إن لم يستعمل في أوجهه الصحيحة، ويصرف في قنواته الطبيعية أضر وأفسد. لحقيقة جلية أن العقل ولابد وأن يفكر. فإن لم يفكر ويعمل بما يصح ويجب عليه، ارتد إلى العمل فيما يضره ويحرم عليه. والقلب كذلك لا بد وأن يولد عاطفة وشعور، فإن لم تستوعب وتصرف في نطاقها، خرجت عن المألوف، ورتعت فيما لا تملك، والنفس كصاحبتيها. هذه كلها الآلات إدراك وعمل وشعور، تستعمل في أي شيء، إن وضعت في الحق استعملت وأسهبت. وكذلك إن وضعت في الباطل أدت عملها وصنعت ما عليها. فهي حيث توجد تعمل، إن وجدت في الخير أنتجت خير وبرا ومعروفا. وأن وجدت في الشر والباطل، خرج نتاجها من جنس ما أدخل لها. والجوارح هي مؤدية تلك الآلات، إن صرّفتها يمينا انطلقت، وإن صرّفتها شمالا لم تمتنع. وهذا يوضح كثيرًا من الأمور والأشياء.

ومن أمراض النفس، التقوقع حول الذات والتمحور حولها. وذلك أنه لايري إلا نفسه وعمله فقط. ثم يظل يدور عليه جيئة وذهوبا، حتى تعظمه نفسه ثم عقله، ثم لا يراه لا مثل له. فهو لا يشاهد غير ذاته، كأنه لا أحد غيره في الوجود. وهذا يورثه الغرور والكبر، ويقوده إلى حالة العجب بنفسه وبما قدم ثم يشتد عليه ذلك الشعور حتى يطغي عليه. فلا يرضي بأي أمر أو شيء فيكثر سخطه في قوله وفعله. حتى يأتي آخر هذا

الطريق وهو الإنكار والتعدي والعلو فيصبح ولا يرى إلا غيره، والناس إمَّا معه أو ضده، يضيف الفكر في عقله، حتى لا يرى إلا رأيه ونفسه وفقط.

ولو مضينا نذكر أسقام النفس وأمراضها لطال بنا المقام. غير أن جامعها هو في التعدي والظلم، والخروج عن المنهج القويم الذي قد كتبه الله تعالى لها واتِّباع الهوى أو الرغبة من غير نور من هدي، أو برهان من دليل .

والنفس تظل بصاحبها حتى تغويه وتضله وتزين له السوء حتى يفعله، وتحليه في عينه، وتمتعه به في قلبه، فيأتيه وهو في حال الاشتياق والأمل والرغبة. وهو إن غضّ الطرفة الأولى، ونزع حال الخاطرة السابقة المتداخلة والفكرة المباغتة، لو منع أول الأمر فلم يترك فرصة للقلب ليتذوق، والخاطر ليعمل، والنفس لتحلم وتتمني، والفكر ليرغب ويقرب، لما تمكن. فإن النزع في أول الأمر أقرب وأسهل. أمَّا حين التمكن والاشتداد يصعب ويألم أشد الألم. وقد سبق ذكر أن النفس ذواقة تميل إلى الشيء فيصعب عليها الترك والنزع، فبه تستأنس، وإليه تركن، لاشتداد الواصلة والعلاقة بينهما. ثم إن من طبيعة النفس كذلك أنها لا تترك إلا لما هو أفضل وأعلي، فلو منيتها بما فيه خير مكانة وأفضل منزلة، لطمعت ورجت النوال، إذ أنها تحب ذلك، فلما ترى جمال ما تحب وروعته يشتد التعلق، لا سيما إذ ذكرت الوصف، وحددت الهيئة، وأعلنت الثمن. لذلك فنزاع النفس عندي لا يتم إلا بترغيبها أولًا بالترك المعوض عنه، بخير منه . فتترك هذا لأجل ذلك. هنا يهون عليها الترك، ويسهل الفراق. حينما تُخْبَر بما قد يقدم عليها أن فعلت أو تركت أو أخذت. ومن فوائد تلك الطريقة، تحريك الرغبة ولكن فيما يستحسن بتعلق الأمل والرجاء على الفضل الكبير. ثم إشعال جذوة الفكر بإخبار بالأوصاف والهيئات، فتعقد هي المحاكمات المنطقية، والأقضية الفكرية وكذلك توقد إرادة القلب واشتدادها. وحينئذ يهون عليها أن تترك ما فيها من السجايا من أقوال وأفعال لا يحسن بها، لأجل جناب الرب تبارك وتعالي وما أعده لها من النعيم

والفضـل. ولكن كذلك يكمـن الأمر في تخيير أوقات إخبارهـا، وكيفية إخباره بها، لأن هنـاك دعاة منفرين، يدعـون إلى الشيء بالتنفير عنه والأبعـاد، وكما يقال لكل مقام مقال، ولكل وقت أذان . يكمن الأمر في كيفية الدخول على النفس وإخبارها بمثل هذا.

إن النفس لما كان لها هذه الأمراض الكثيرة وغيرها، كان لابد لها من عيادة تتداوي فيهـا، وطبيب يكشف على أثار فعلها، فيعلم موضع الداء وأصل المرض، ليصف الدواء الناجـح وقبل ذلك، الإنسـان طبيب نفسه يعلم ما يحزنها ومـا يغضبها، وما يسعدها ومـا يرضيها لذلك كانـت أول خطي الاستشفـاء المحاسبة بتحديـد النفس لطبيعتها، ومطالبهـا، وبما تتأثر، وكيف تتأثر؟ وما الذي يمرضها ويتعبها. فهي حالة من التعرف علـى الذات أكثر، لتصنيفهـا، وليكون هيكل خاص بها، تستطيـع أن تحدد صفاته، ما يحب وما يكره. فتعلم نقاط ضعفها وأسباب وهنها. وكيف تأتي ذلك. ثم يبحث في دواء ناجح لذلك المرض والضعف. فيبحث في نفسه، ويري ما الذي يعيق تقدم تلك النفس، ومـا الذي يحول بينها وبين ما تريد. وهكـذا. فيستعين بالوسائل والسبل التي تفيده في ذلك، في دنياه أو أخراه.

لذلك كانت محاسبة النفس ومُسَألَتِهَا هامة جدا. فهي أقرب ما يكون من الإنسان. والله يقول " بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقي معاذيره"

فالإنسان بصير بنفسه، حتى حينما يلقي لها عذرا، وهو وحده الذي يعلم أهذا حقا عـذرا أم أنـه تلاعب و زور. هو أدرى بنفسه ولو ألقي ألف عذر يستشفع به على ما فعله أو قولـه. فالإنسـان الحق هو الذي يبصر أفعاله ويقيمها، ليعلم أهي فائزة أم خاسرة. هـو الـذي يتساءل نفسه كل يوم، هل هو راض حقا عما فعل؟ هل هو مسرور بتصرفاته وأفعالـه؟ ثـم ماذا يرجوويأمـل فيما بعد؟ ماذا يريد من غده القـادم؟ ماذا يريد من ساعته التالية؟ ماذا يريد من حياته ككل؟؟وهذا سيقوده مرة أخرى إلى ماهية وجوده، وأصل خلقته وهذا بلا شك.. ومن بديهيات الأشياء أن لكل خلقٍ هدفٌ وغاية. والإنسان

مخلـوق، فكان خلقـا، وكل خلق لابد من هدف في وجوده، وإلا كانت غاية وجوده عبثا لا فائـدة منها. وهذا محـال. إذا ماهي الغاية مـن الوجود؟ فأنت لم تـأت في الدنيا كما يقولون زيـادة عدد. وإنما جئت لمقصد وخلقت لسبب. فانظر لعل قلبك ينتفع، وعقلك يرتفع، ونفسك تسمو. كن ذا أثر، ولا تجعل حياتك مثل موتك، وبقاءك مثل عدمك، بل كن ذا بصمة مميزة، وذكر جميل، فإن الذكر بعد موت الإنسان عمر ثان له.

ولا بأس إن احتجـت إلى المساعـدة والعـون الخارجـي، من متخصص أو حكيم تشـاور رأيه، وتأخذ نصحـه، فيفيدك على الخروج من مرضـك، ويساعدك على المرور من مصيبتك.

الأرواح جنـود مجندة، فهي ذوات وهيئات منفصلة، عـرف عنها أوصاف محددة فهي توصـف بالتعارف والائتلاف والتناكر والاختلاف. كما أن الجسد له هيئة ظاهرة معلومـة لهـا مـن الصفات مالهـا. كذلك الروح، ما هـي إلا هيئة مخفيـة غير معلومة فكمـا أن للأجسـاد تأثر وتأثير وتفاعـل، فكذلك الأرواح هي هيئـات، الله تعالى أعلم بهـا وبحقيقتهـا وبشكلها ففي الحديث يقـول ملك الموت مخاطبا الـروح: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. فوصفها هنا بصفة الخروج، بأنها شيء ما موجود في البدن به قوامه وحياته. ثم حينما تخرج من البدن يصعد بها إلى السماء فيستفتـح لهـا فيفتح أو تـرد فتهبط نازلة .ولو كانت صالحة تحنـط وتكفن بحرير من الجنة. ففي الحديث قال ﷺ " أن الميت تحضُره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجـي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيـب، اخرجي حميدة وأبشِري برَوح وريحان، وربٍّ غير غضبان، قال: فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرَج بها إلى السمـاء، فيُستَفتح لها، فيُقال: مَن هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالرُّوح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى يُنتَهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجلَّ" . ثم أنها في

صعودها إلى السماء تتعرف عليها الملائكة، فتسأل عن صاحبها، ثم يفتح لها أن كانت صالحة طيبة. وهنا يثبت للروح كونها هيئة تنزع من الجسد ثم تتجمع، فلها صفات متعددة منها، الخروج والصعود، والهبوط والنزول. ثم هي تقبض، كما يتوفاها ملك الموت، فيخرجها من جسد ابن آدم ثم كذلك لها صفة التمتع والتألم وسنأتي لها فيما بعد وكل ذلك يثبت أنها هيئة منفصلة تمامًا وهنا سؤال، هل الألفة والتالف هي من آثار تجاذب الأرواح وتقاربها، والتناكر هو من آثار تباعد الأرواح وانفصالها؟

ثبت أن للروح هيئة ظاهرة. لها صفة التعارف والتناكر. وهذه الصفة لها مقوماتها التي تقوم بها، فليست تتم هكذا. إذ لابد أن يكون تعارف ولقي، فإما أن تتجاذب الأرواح وإما أن تتنافر. وقد ذكرنا قبل أن الإنسان قد ينكر شخصا ما حال لرؤيته بدون سبق معرفة له، أو يقبله كذلك. وذكرنا لذلك أسبابا. وقد نؤله هنا بأن تقارب روحي حدث له نوع من الألفة والمودة. فكما هو معروف أن الشيء إلى شبيهه وقرينه ملازم، وأن هناك تناسب بينهما من حيث الصفة فإما أن تتقارب فيحدث التعارف وإما أن تتباعد فيحدث التناكر. والشيء يلحق بجنسه ونوعه، وينفر عما يخالفه ويعاديه. وهذا قد يؤول بالصفات أو الطباع فإن سبب التناظر لتلك الروح إلى أختها وهروبها من ماثلتها، أمر يستدعي النظر والتوقف. فهل هناك مثلًا لقاءات بين تلك الأرواح؟ وكيف تكون؟ وما آثار هذه اللقاءات؟ إن علم الروح عند الله تبارك وتعالي لكنه بين لنا في كتابه شيء من ذلك. فقال سبحانه " اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" وفي ذلك من الآيات الكثير والكثير. سنأخذ منها ما يوافق حديثا عن أمر الروح من التلاقي من عدمه.

فتلك الأرواح تخرج من الأجساد، لا يعلم حقيقة ولا كيفية ذلك إلا الله تبارك وتعالي ثم ترد أرواح من تبقى لهم عمرا وأجلا. والأرواح التي حان أجلها وساعتها

رفعت فلا تعود. وقد ذكر تعالى النوم وشبهه بالموتة الصغرى لما فيه من نزع الروح من الإنسان، فكأنه كالميت ثم ترد عليه تلك الروح حال الاستيقاظ كما قال تعالى في سورة أخرى " وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إليه مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" فهو تعالى يتوفى الأنفس بالليل ثم يبعثها بالنهار، ثم لها مرجع آخر تؤوب فيه إلى ربها لينبئها بجميع ما عملت من خير أو شر. فثبت للروح حالة الخروج والدخول بهيئة وكيفية خفية لا يعلمها إلا الله. ثم إن ذلك لعله لا يمنعها من التلاقي والتقابل، بطريقة معلومة لا يعلمها كذلك إلا الله سبحانه.

إن الأرواح لها دار خاصة بها، وهي دار البرزخ، حيث كل شيء متعلق حولها وهنا يثبت لها صفة أخرى، وهي التنعم أو التألم. ولما كانت الأرواح متفاوتة متغيرة. كذلك كان مستقرها متغير متفاوت. فأرواح المؤمنين تلاقي الخير والفضل والنعيم وأرواح الشهداء منزلة أخري. قال تعالى " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموتا بل أحياء عن ربهم يرزقون، فرحين بما أتاهم الله من فضلهم ويستبشرون" وهنا أثبت للروح أنها تلقي الرزق، وأنها تفرح وتسعد. وأنها كذلك تستبشر بمن يأتي بعدها، ليلاقي مثل ما لاقت من الخير والنعيم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وفي الحديث يقول ﷺ " لما أصيب إخوانكم، يعني يوم أحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مظلة في ظل العرش". وفي حديث آخر قال ﷺ " إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة "إلى آخر ذلك وما من ذلك في الروح كثير جدًا ليس هذا محله أو مكانه. وإنما المقصد إثبات صفات معينة، ولما كانت الروح غيب لا يثبت إلا بدليل من كتاب أو سنة صحيحة عن النبي ﷺ كان لابد من إرفاق كل قول في المسألة بدليل يؤيد حجيتها وصحتها. أمَّا خير المنازل وأرفعا، هي للأنبياء والمرسلين، وهم أعظم الخلق على الإطلاق لا يساويهم أو يدانيهم أحد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فقد ثبت الآن أن للروح كثير صفة من التجمع والتلاقي، والتمتع والتألم والانقباض، والصعود والهبوط، بل هي هيئة تشتغل الملائكة بتحنيطهم من حنوط الجنة. ويكون لها ريح يعرفه أهل السماوات، فإما أن تكون طيبة ففي الحديث " تخرج رُوح المؤمن وهي أطيب ريحًا من المسك، فتصعد بها الملائكة الذين يتوَفَّونها، فتلقاهم ملائكة دون السماء، فيقولون: مَن هذا الذي معكم؟ فيقولون: فلانٌ، ويَذكُرونه بأحسن عمله، فيقولون: حيَّاكم الله وحيًّا مَن معكم، فتُفتَح له أبواب السماء، فيُصعَد به من الباب الذي كان يصعد عملُه منه" أمَّا عن كيفية تكفين الروح فكما في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال " أن المؤمن إذا احتُضِر أتته الملائكة بحريرة فيها مِسك وضبائر ريحان، فتُسلُّ رُوحه كما تُسلُّ الشعرة من العجين، ويقال: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي راضية مرضيًّا عنك، إلى رَوح الله تعالى وكرامته، فإذا خرجت رُوحه، وُضعت على ذلك المسك والريحان، وطُويت على الحريرة، وذُهِبَ به إلى عليين" .

أمَّا الكافر- عياذا بالله- تخرج منه كأنتن ريح، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، حتى يأتون به أرواح الكفار.

ومن هنا ثبت للأرواح أنها هيئات تنزع وتقبض، وترجع وتدخل. وأنها تكفن وتحنط كذلك، ويكون لها ريح طيب أو خبيث. وكذلك ثبت لها أنها تلاقي من النعيم أو تقابل العذاب والهلاك. وأنها تسعد وتفرح وتستبشر وأنها تخرج حال النوم لتبعث حال الاستيقاظ، لكن هل تخرج كاملة أو تكون قريبة من البدن أم بعيدة عنه، الله أعلم وكذلك ثبت أنها تتلاق في الجنة وثبت كذلك لها التعارف والتآلف، والتنافر والاختلاف.

الشاهد من حديثنا هذا عن الروح، أنها هيئات تتجانس وتتقابل. وأنها تميل إلى مثلها من حيث الصفات والطباع. فلكل يميل إلى من يشاكل روحه، فليس الأمر هنا بتشاكل الأجساد، فالجسد هنا هيئة ظاهرية مادية لها من الطباع الخاصة بها ما يتمايز عن الروح، فالميل إليها شكلي ظاهري فقط. أمَّا الأروح أمر آخر فلعلها- لأنه لا

يحق لنا أن نجزم - تكون مستكن الصفات والطباع. وعليها يقع التنافر والتقابل. وانظر إلى قوله تعالى " قل كل يعمل على شاكلته" أي يعمل على ما وافق تشكيله الأول، وما قابل روحه من الصفات الطيبة أو الخبيثة. ثم إن الأجساد هيئات صمّة لا حياة لها إلا بالروح. فهي قِوام بقاءه، وبنزعها يفارق الوجود الحياة، لتفني وكان التفاعل والمعايشة على صفات هذا الجسد المتحرك بين الناس، وبداخله تلك الروح قابعة فكان لها تأثير ولكن في الأرواح الأخرى، يظهر ذلك على هيئة قبول أو تنافر في الصفة والطبع. وهكذا.

ثم يجب أمضي سريعا كعادتي هنا، إلى نقطة أخرى من انبعاثات النفس، وهي العزلة النفسية أو حالة الانعزال بشكل عام. وهي تنسب إلى النفس عامة لأن الباعث عليها نفسي أو لأنها توصف بعزل النفس عما تريد أو تشتهي. أو لأنها ليست عرضا من عوارض الظاهر، بمعنى ليس للجسد في ذلك سبيل، فما كان إلا محمولا على الفعل، لا حاملا له.

إن داعي النفس للعزلة هو رجاء الوصول للاطمئنان والسلام الداخلي والشعور بالسكينة والرضي. وأيضا لما في ذلك من فصل النفس عن الصراعات اليومية والمخالطة المرهقة والمشاعر السلبية بأنواعها من الخذلان وغيره. والداعي إليها خارجي، أي أن الموصلة في طريق نهايته العزلة هو بسبب التأثر بالخارج والتفاعل معه. ذلك لأنها حالة طارئة على النفس. فالأصل في الإنسان المخالطة والاجتماع مع غيره والمشاركة والتفاعل بكل ما تقتضي تلك الصفات وما فيها من التفاعل وهي تظهر كنوع من أنواع الانشقاق عن الناس لأخذ منحني آخر في المعيشة، يعتمد على الانعزالية والاختلاء بالذات. لتجنب شيء ما كخوف وقوع ضرر، أو هروب من شيء خاص معين، أو يكون اعتزال في مطلقة لأسباب خاصة. وقد يحمل صبغة اجتماعية أو نفسية أو من دينية من حيث الأسباب الموصلة إليه. أو رجاء حصول نفع ما أو مصلحة أو ترقب

وقوعهـا. وقد يكون الاختلاء هذا للتأمل وقطع النفس عن الشواغل للتفكر فيما مضي، وللنظر في أحوال الدنيا أو العالم أو الكون بشموليته.

كحالـة ترفض الاجتماع بمـا فيه وما يصاحبه مـن صفات، جزئيًـا لا كليا. وتلك العزلة التي تضرب على النفس، لا تكون كلية أبديا، وإلا لو كانت كذلك قد تصبع ضارة للمـرء فتضره أكـثر ما تنفعه. ثم تصبح بعـد ذلك لتكون مرضية، لتـورث النفس من الأسقام والأمراض مالا يحمد. ثم تظهر عليها الصفات الغريبة وهي كحالة ناشئة في النفس مستغربـة عليها تنشأ معها صفات أخرى مشابه لها فتلك الصفات الأولى التي كـان يمارسها عادة. وكل هـذا طبيعي فالإنسان إذا دخل عدة مـن التجارب في طريق الحيـاة، وكانت شديدة أو قاسية عليه، أورثته تغييرات طارئة، ثم قد تدوم بعد ذلك أو يتقلب عنها إلى غيرها.

وأمـا فوائد العزلة فكثيرة على العـدّ. ولو تتبعنا فيها أقوال الناس منذ القدم حتى الآن، ومـا لاقـوا في ذلـك من نقل تجاربهـم وأحوالهـم وأخبارهم فيهـا، لتطلب ذلك المبحـث كتابا آخـر منفصلا، يُعقد في إيـراد تلك المسالة الخطـيرة مؤسسا ومفصلا ولكنـي سأتناولهـا من حيث نقطة معينه وهي منافعهـا ومضارها فقط لا شيء آخر في حيز ضيق جدًا، وباختصار شديد.

العزلـة نفسها حالة ليست بالمستهجنة أو بالغريبة، فهـي متأصلة في البشرية منذ القدم ثم لو نظرت كذلك إلى الشرائع السماوية لوجدت فيها شيء من ذلك.

فالنبـي ﷺ كان يحنث في غار حراء فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد. فينفرد عن الناس، ويذهب إلى أقاصي الجبال لكي ينظر في كون الله تعالى، ويوحد الله في نفسه. وليبتعد عما كان عليه الناس آنذاك من شرك وضلالة، فتصفو نفسه، ثم يتأمل في خلق السمـاوات والأرض معظما ربه بأعلى درجات التعظيم. وكذلك مما شرعه نبينا ﷺ من سنـة الاعتكاف في المسجد، تركـا لما عليه الناس، واختلاء بجانب الرب تبارك وتعالي،

ليفرغ للعبادة والتأمل والنظر في نفسه وفي تقصيره، ولتكون لحظات صادقة مع النفس للعظة والتدبر.

وقد تقع العزلة، بعدم الكلام، كما وقع لزكريا -عليه السلام- قال تعالى " قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آيَةً قَالَ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّام إلا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كثيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ". وكذلك تقع العزلة على الحقيقة بالهجر والترك، كما حدث لإبراهيم عليه السلام مع قومه حينما قال لهم " وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى إلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ". وهنا العزلة مقيدة مشروطة لها أحوالها ومواطنها والداعي إليها. وليس هذا محل حديثنا إنما نورد الأمر مجردًا، لأن الإسهاب هنا سيطول وسيخرجنا عن المقصود، فيكفينا هنا الإشارة إليها.

وقد تكون العزلة الاجتماعية، كنوع من عدم التواصل الطبيعي مع الناس وقد يميل إليها الشخص مختارا أو مجبرا. فيكون نتاج ضغوط وصعوبات أدت به في نهاية مطافه إلى عدم المخالطة مع الناس. وقد تكون نوعًا من الهروب من الواقع، إذ يكلّ ساعده على حمل ما قد ناء به من مشاكل لا يقدر على حلها، فيجد أن أسهل وسائله هي التجنب والابتعاد. وهي عكس الحالة الطبيعية وهي الاجتماعية أو التعايش الأفعال ولكنها ليست النقيض لها.

فالبشر وجدوا ليكونوا في جماعات، فيكون بعضهم بجوار الآخر يحاكيه ويحادثه. ولكن ظهرت العزلة كنوع آخر من تأثيرات مجتمعية وكذلك من قساوة أو خشونة المعاملة البشرية، وخلوها مما يجب أن يكون فيها من المراعاة أو الإحسان، إلى آخره. وهي حالة من عدم القدرة على مخالطة الناس أو إجراء الحوارات التفاعلية معهم في سياق اجتماعي أو أسري. ونحوه. كذلك الشعور بنوع من الغربة، وقد ذكرنا شيء من

الاغـتراب قبلا، وقلنا إنـه لا يقصد به فقط مغادرة البـلاد والرحيل، فالمرء قد يشعر بالغربة في نفسه، فيمن حوله، في محيطه الأقرب إليه. فقد يكون موجودا قريبا إلا أنه غريب عن جميع ما حوله وقد تعني البعد في الفهم أو عدم التواصل في المشاعر. كذلك من أحد الأسباب وهذا يأتي من الانعزال النفسي أو العاطفي، وهو مدفوع فيه بأسباب متعـددة منهـا فقدان حبيب أو تعـالى الشعور بالحرمان أو الفقـد بشكل مستطرد وفي سياقـات خطره، فيجاوز فيه حد الطبيعي المقبول. أو يكون بسبب ضعف في الشخصية أو الصـورة الذاتيـة للنفس تدفعه إلى الانطـواء على الذات، أو خـوف إنشاء علاقات اجتماعيـة صحيحـة أو الشعـور بالدونية وعدم التقديـر الذاتي، وهنا تكـون الصورة الداخليـة مضطربـة غير متسمة بالوضـوح، فيكون التواجه مع الخـارج حينئذ مشكلة صعبـة. وقد تكـون مشاعر سلبيـة تدفع بالمرء إلى الانـزواء، ليتجنـب معاملة الأفراد والتعامـل معهـم والخلطة بهم. ولذلك أنـت ترى النـاس في هذا النـوع أصناف عديدة وهي بالتأمل فيما سبق تتضح، منعا للإعادة.

إن المشكلة ليست تكمن في فعل الانعزال نفسه، ولكن فيما يكمن خلاله من عادات صحيـة قـد تكون خاطئة، بل قد تكون ضارة في كثير من الأحيان فقد يتلبس فيها برؤى سوداويـة، ويعتنق نظريات قاتمة عن الناس والأشيـاء حوله، وهي من تأثير الاندفاعة الأولى. فالعزلة إذا كانت باندفاعة المشاعر والعواطف، وإن كان فيها أنواعا من المنافع إلا أنهـا تؤذي المرء كثيرًا، لأن فيها نوعًا من الهروب. فالإنسان المصاب يعزل في مكان مـا ليشفي. كذلـك النفس هنا تكون مجروحـة مصابة، لا تريد بيـان أو سماع حديثا، إنهـا تريد الصمت والصمت فقط، لتفرغ تلك الطاقة السلبية، ولتهدأ جذوة تلك النار المشتعلـة، وليبرأ ذلك الجرح النـازف ويداوي. ودواء النفس في كثير من الأحوال يكون بالاعتـزال وإما أن يكون داعيها، هو العقل، والفكر والنظر. وهنا تكون محمودة لا شك فيهـا. لأن المحرض عليها قاصد لها لغايات محدودة وحكم مقصودة لذاتها. أمَّا الأول

فكان نوعًا من الهروب، كالملجأ يحتمي فيه مما يجد ويحاذر. والعزلة لا شك سنة كريمة لكن لها ضوابطها التي يحسن بالمرء اتباعها وأولها ألا تضيع واجبا أو تفضي إلى محرم، وهي هنا قد تكون سممت بشؤم المعصية أو بالتقصير في أداء الواجب. وهنا تقبح لأثرها ولما طرأ عليها وكذلك ألا يكون صاحبها من المتصدرين والساعين على حاجات الناس ومطالبهم، فهذا تكره كراهة شديدة له. لأن الله جعله بابا خير للناس ورحمة بهم وله، فلا يقطع ذلك الباب من نفسه. وكذلك أن يكون معه زاده الفكري والنفسي الذي يعينه على قضاء وقت مخصوص في التفكر والتدبر والعمل الذهني، ليسرح بفكره في أقطاب الأرض، ويزور أولها وآخرها، ويسافر من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها، وشريطة ذلك هو العلم النافع الذي يكون زاد المرء وقوامه في تلك السفرة النفسية. وهنا يكتسب المرء منها صفات جميلة طيبة، إذا تعينه على الصبر وترزقه الحكمة والبعد في الفهم، وبُعْدًا كذلك في الإدراك، ثم فهما لكثير من الغوامض والإشكالات. ففي ذلك الوقت يصفو البال والفكر من الانشغالات، فيحلل ما شاء من القضايا، ليصل إلى كثير من النتائج والاستدلالات. وكذلك يقدر على تجميع كثير من الأمور ليربطها في سياق واحد، لتتضح له كثير من الأشياء في سياقات محددة يستطيع أن يربطها به.

إن العزلة محمودة في ذاتها فهي تعزل المرء عن العوائق، وتفصله عن الشواغل والتوافه، وتقطعه عن القيل والقال، وتريحه مما يعانيه الناس سواء أكان ذلك من معاملة سيئة أو كلام محبط مثبط أو ألم جارح أو معذب قاسي. ثم أنها تساعده على الإبداع، وتحثه على التأمل وتنقي روحه مما علق بها من أدران المادية وأقذار الدنيا وشوائبها، فتصفيها وتجعلها نقية لتعلو بها إلى عنان السماء ناظرة متفكرة متأملة. فتعلو بمطالب الروح وحاجاته على مطالب الجسد ورغباته. ترقق الفكر وتصفو الخاطر، وترقب الفكرة وتهب الخاطرة. تجلو مرآة القلب وتهذب الفكر، توقظ الفطرة

السليمة في الإنسان فتجعلها تنشط إن همدت، وتبعثها إن ركدت وخبت. ثم يخليه من مشتتات الذهن، وما يتعب النفس ويشدّ العصب. فيريح الجسد من تكلف الفكر، وينقي الفكر من التعصب والقلب من التحيز، فتظهر له الأشياء على حقيقتها ثم يعرج في معراج السماوات يتلقى النور ويلمح الضياء، فيحلق في سماوات الفكر والإبداع. فينمي عنده مشاعر الخيال والتصور. ووضوح الرؤية. لينعكس كل ذلك الجمال على النفس في حالة من الروحانية المطلقة والصفاء الذهني والفكري والنفسي والإبداعي والتخيلي. إلى آخره. ويحدث ذلك في حالة من التجانس والاطمئنان والهدوء والراحة والخلو من مشاكل الخلق، وتصفية القلب من الشوائب النفسية من الحقد والحسد والغيرة واللؤم والأنانية وحب الذات. وتنقية الفكر من التحيز والكذب والمراءة والنفاق والخداع. كأنها فترة رياضة للنفس وتهذيب القلب وصلاح الأخلاق. وأثرها في إزالة العوائق والشبهات والشهوات واضح بين.

والعزلة إبعاد للنفس عن حياة الزور والأهواء والمخالطة الكاذبة الفارغة، لأن فيها النفس على حقيقتها من غير تجمل أو تزين أو خداع. فيها ينظر الإنسان إلى نفسه وحقيقتها والوجود وحقيقته والكائنات وطبيعتها ينظر إلى الوجود نظرة متخطية حدود المكان والجغرافية والزمان والقواعد والقوانين. فلو ضاقت عليه الدنيا، فقد وسعته نفسه بلا حدود، إذ حدود كل شيء هناك، هو غاية ما يصل إليه فكره وما يبلغه خياله وما تأتيه نفسه. فليست الأشياء تحد بذاتها وبجوهرها، وإنما مبلغه من العلم، ما يستطيع أن يأتيه من التصور، فليس كل من امتلك جناحان استطاع التحليق، وليس أول محاولة هي معيار النجاح وإثبات القدرة، فكل يأتي ما تسطيعه قدرته وما يملكه من الموهبة والإرادة والعزيمة.

إذا فهمت فلسفة العزلة وطبيعتها، وحقيقتها، وفوائدها على النفس والقلب والفكر والبدن وكيف أنها تقي كثيرًا من الأمراض والآلام والأحزان والأسقام وأنها

تزكي الروح وتصعد بالنفس إلى أعنان السماء وشمم الجبال وهي تعطي الإنسان دفعة للأمــام، وتحفيز على مواصلة المسير وإكمال الرحلة وتجلب رفات ما قد مضي وخفي، لتلقي عليه روح الفكر والنظر والتأمل، فترده ثانية خلقا آخر. إلى آخر ذلك كأنها رحلة لتهــدئ النفس، وتسبر أغوارها وتستخــرج مكنوناتها. وتغوص أعماقها لتخليها من كل شيء سلبي ثم تحليها وتزينها بالإيجابي النفعي.

إذا فهمــت ذلك واستوعبت مضمونه علمت لم كانــت العزلة ممدوحة أشد المدحة ولم كــان القدماء يوصون بها ويمارسونها. وعلمت كذلك اختلاف الناس لها بين مادح وذام، وبــين قابل ورافضـ وفهمت أيدلوجية كل من أدلي بدلوه في خضم الحديث عنها والنقاش حولها.

كذلــك لا يخلــو أثرها من التقاء شــرور الناس ومصائبهــم وأحوالهم، وقد ذكرنا حــال تعلــق النفس بذلك وتأثره وهي كذلك تصيب مما تسمــع أو تشاهد مما يعلق بها قوة وضعفا. وهذا يرجع حقيقة إلى ذات النفس وشدة تأثرها بالموجودات قوة وضعفا، وكذلك في التأثر.

إن نظــرة الإنســان إلى الحياة تكــاد تكون مرجعيــة أساسية، يجب علــى المرء أن يجاهــد نفسه لتعريفها، حتــى يتضح في نظره حقيقة كل شيء، وليعلم أين يضع قدمه، وكيف يدرك غايته. أهم شيء أن تُعَرِف تلك النظرة كيف ترى الوجود ككل، وكيف ترى قيــم الجمال والحق والعدل، تتضح كل تلك القيم في مرآة فكرك وصفحة قلبك يصبح كل شــيء معــرف في ذات نفسك، فتتضح الأشيــاء ودلالتها كيف تــرى طبيعة الأشياء في الحيــاة والوجود في أفــراده، وهذا بلا شك يستغرق مــن الإنسان وقتا طويلا. ولكن ماهي غاية الإنسان في الوجود إلا أن يعرف وينظر ويتعلم. فلتأخذ ما تشاء من الوقت. المقصــد أن تكون على الطريق محــاولا، لا أحد يطلب منه أن يكون آخر الطريق، وليس أصــلًا هــذا في الإمكان ولكن ما استطعت ومــا قدرته نفسك، وكل يأتــي ما قدر عليه.

ولكن هناك مقدار من الطبيعي الواجب الذي ينبغي أن يكون المرء ملم به. تجد البعض ينظر إلى الحياة على أنها حالة من الصراع الدائم الذي لن يهدأ وطيس حربه أبدا. ومنهم من يرى الحياة عبارة عن بنك من الفرص إمَّا أن تستغلها أو أن تضيع عليك، فعنده أن الغاية تبرر الوسيلة ومادامت الفرصة سانحة وتطلب بعض الوسائل الغير شريفة أو مباحة، فلا بأس بذلك.

ومنهم من يرى الحياة هي حالة من الجحيم غير المطاق، فيرى في كل شيء عذابا له ووجعا لنفسه. ويري الناس أعداء له، وأن كل شيء عبارة عن مؤامرة. ومنهم من يرى الحياة أن يتمتع باللذائذ، فيمتع نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يقضي وقته في نعيم وهناء. ومنهم من يرى أنه جاء ليؤسس دولة وليبني مجتمعا ويعيد قيما ويصلح المفاسد ويقيم المعوج. ومنهم من يرى أن الجماعة أهم من الفرد، فلا بأس من موت أو هلاك بعض الأفراد في سبيل تحقيق الغاية العظمي، وهي استمرار المجتمع وحماية الأمة. ويجب على كل فرد أن يبذل جهده وطاقته، وإلا يعتبر ذلك تقصيرا وخيانة. فهو لايري نفسه، بل يرى المجتمع أمامه مصورا في كل شيء. ومنهم من يرى عكس تلك الرؤية تمامًا ، ومنهم من يرى الحياة في جمالها وقيمتها وروعتها، فيعيش مستمتعا بمناظرها وما فيها، متذوقا لأطايبها، فرحا بشبابها وزينتها.

ومنهم من يرى الحياة في بذل طاقته وإفراغ وسعه، ثم بعد ذلك يرى نفسه مقصرا عن الهدف والمطلوب. ومنهم من يرى الحياة في إشباع رغبته، وإرضاء غروره واتِّباع هواه، ومجاراة نفسه في كل ما تطلب، فهو يريد أن يجرب كل شيء، ويسافر ليري كل شيء. هو في سباق مع تحقيق رغباته. ومنهم من يراها في العصبية والقبيلة أن ينتصر لنفسه ولقبيلته وأنصاره وأعوانه. فهو لايري الحق إلا في ذلك وعليه ينسب إلى الشيم والفخر. وعكس ذلك هو المذمة وعليه ينسب إلى العار. ثم هو يرى نفسه السيد الذي لا ينبغي أن يعصي، فلا ينبغي أن يعامل كبقية الخلق، وكأنه جنس آخر عنهم. فهو فوقهم

درجـات، وهم عليهم أن يبذلوا ويعنوا له صغارا ويخاطبوه مع إظهار الخشية والرهبة، كأنه الذي خلقهم وأحياهم، ثم رزقهم وتكفل بشئونهم وأمورهم.

ومنهـم من يـرى الحياة دار عمل، فهـي كالأرض وبقاؤه فيها إنمـا هو للزرع، زرع الأقـوال والأفعال والتصرفات. فهي عالم البذل والإعطاء والإنفاق ثم هناك دار أخرى للجزاء على ما قدم، وللمثوبة على ما فعل، أو العقوبة فيما أفسد. منهم من يرى الحياة رؤيـة دينيـة أو فلسفية أو مادية بحتـة أو روحانية أو انتهازية أو خليـط بين أبعاضهم. المفيـد من هـذا كله أن يكون لك تلـك الرؤية الحياتيـة، التي توضح لـك أمور حياتك كوجود مؤقت على كوكب الأرض.

فمصطلـح " الرؤية الحياتية " أو نظرة المرء إلى ما حوله في إطار توضح حقيقتها في نفســه، فيضع لكل شيء فكرا ونظـرا. وقد يتعمق في تلك النظرة ليصل إلى النظرة الوجوديـة المتعمقـة في كل شـيء. والأمر هنـا يحتـاج إلى التعمق فيه أكـثر من ذلك، ولكنهـا نظـرات عابرة توضـح أشياء على عجل فهـي تحتاج أصـلاً إلى بيان منفصل بذاتها يوضح صحيـح تلك الرؤي من سقيمها، وكيفية تقويم هذه الرؤية وأسباب ذلك والمعينات عليها، والخلفيات الثقافية والبيئية والمعرفية والدينية وراء كل ذلك، وهو أمر يستحق العناية به والاهتمام لشأنه إذ ذلك يدمج خلاصة حياة المرء وتجربته ومعرفته وطاقته وانعكاس كل ذلك عليه مع مراعاة آثار كل منها.

الأمر في كل ما سبق أنه قد يتبني رؤية خاطئة لحياته ولنفسه، فتكون نظرة مجانبة الصـواب في الحياة ككل. فيمشـي في طريق الوهم، ويمني نفسه بطـول الأمد المشكلة هنـا في العلامـات الكاذبة وفي السـراب الذي يلاحقه، وهو لا يـدري حقيقته، فيتوهم أنـه المقصد والمنزل، وماهو إلا سراب بقيعـة يحسبه الظمآن ماء. فالانخداع والانبهار بالمظاهـر الكاذبة الخادعة البراقة، التي قد تجعل البعض ينخلع من جلده ليواكب من يسـير معـه فتجعله يتخلى عن مبادئـه ويقينه ويترك كل شيء خلـف ظهره بعلل كثيرة

منها أنه يريد مصاحبة هؤلاء القوم مثلًا ، فيمشي في ركابهم ويلحق بهم في مسيرتهم، ليفرغ نفسه أولًا ثم ليصبح صورة جوفاء متمايلة لا معنى لها، غير أنها صورة منهم . وما أصعب ذلك على العاقل حينما ينظر إليه، فيجده يضيع نفسه ويغفل عن حقيقته ، والأصعب منه أن يبني تلك الرؤية على خدع مَظِّلُولَة، وليس فيها نفع لنفسه لا في دنيا يضمها إليه ولا آخرة يحلق في ركب أهله. بل لأجل الناس فقط، يضيع ذلك لأجل غيرة، يبني صورة مغلوطة إمَّا من أجل نظر الناس له، أو عليه، أو على أساس معاملتهم، أو على أساس رضاهم عنه، فيتخلى من اليقين الذي عنده والثوابت لأجل رضاهم وفرحهم به. ما أقسي تلك الحقيقة وأصعبها! وما أشقها على النفس والقلب والعقل!

حين ينبهر العقل والقلب تكون النتيجة واحدة وهي التقليد وياليته تقليد على هدي ونور، ولكنه تقليد أعمي، ضيق الأفق. وياليته فيما ينفع وبما يعود بالمصلحة والجدوى عليه أو على مجتمعه. ولكنه لما فُتِنَ قلبه صار كأنه أعمي البصيرة بعينين باصرتين. وغلف قلبه بمحبة ما رأي، وانصدعت نفسه مما غشاه، كأن طاقة من النور انفتحت أمامه فهو محدِق بناظره، فاغر فاه. وهو في تلك الحالة النفسية مؤهلا لأن يقبل كل شيء، فقد ضاع عقله النقدي، وتميزه بين الحقيقة والوهم هو الآن يتلقى فقط ويؤمن بما يسمع، فهو كأنه أمام أمرٍ لا قبل له به، لا طاقة له في فهمه أو تصوره، إلا في هؤلاء القوم فهو يعلق عليهم فهمه هو، فما يقولونه هو قوله ولو لم يقل به كان في تصوره أنهم لا يخطئون، إلى آخر تلك المبالغات فلما كان هذا مقدمة تصوره وكلامه، أصبحت نتيجته حتمية واضحة " فكل شيء يأتونه فهو حق وصدق" بل لو كان مخالفا لما عنده، لشك فيما لديه، ولم يتجرأ أن ينكر عليهم قولًا أو فعلًا بل قد يتركه كله في سبيل تلقي النور المزعوم والحقيقة الملفقة.

وقد يظهر هذا في الأفراد أو المجتمعات. حين تنفتح أمة من الأمم على غيرها أكثر منها معرفة وعلما وتقدما وتكنولوجية ومعرفة، فقد تجدهم يصابون بحالة من

الوقوف الجامد من هول صدمة ما يرون، من هذا الصروح العلمية الكبيرة، فتنهل من كل شيء عندها، فلا تقف عند حاجز العلوم والفنون، بل تجاوزه إلى العادات والتقاليد والصفات مما قد يكون خاصا بأمة من الأمم يناسبهم ويلائم ما عندهم، فهو امتداد لحضارتهم وثقافتهم وتاريخهم، وهو بُعْدٌ تأصل فيهم على عدد من القرون والأجيال، فهو يمثل وحدة لهم وأهمية أياما كانت ثقافية، معرفية، دينية.

فما بال هذا المتطفل الغريب، بل هو من أهل جنسه ووطنه يأخذ من هؤلاء بلا حكمة ولا واعز أو تدبر . بل قد تكون تلك العادات مناقضة لعادات قومه وأهله، فيتقبلها ويتلقاها منهم بصدر رحب وفرحة عارمة، بل قد يثور على قومه ويتهمهم بالجمود والتخلف والرجعية في أمور لا نسبة لهم بها وهذا لضعف فيه أو تحيز عنده أو شدة تأثير الأمر عليه وهو حينئذ ينخلع عن جلده ، ويلقي بكل شيء عرض الحائط فلا يبقى من حقيقة انتسابه لبلده أو ثقافته أو تاريخه أو عقيدته، غير مسمي الانتساب، ومظاهر فقط خارجية وإن تبقى فيها معنى واحد أو اثنين أو زاد، فلن يكثر كثرة مطردة ولا تحدثني حينئذ عن مفهوم الولاء والانتساب. فهي أصبحت ألفاظ صماء لا تعني في لفظ السامع غير دغدغة مشاعر وإثارة قلب، وعاطفية. ولا شيء أكثر من ذلك.

الإنسان قد يصيبه شيئًا من ذلك من غير إرادة منه أو وعي له. وذاك يكمن في مفهوم المخالطة وحده، فإنه يترك في نفسه من ذلك شيئًا بغير إرادة منه. وذلك لأن النفس تتشبع وتسقي بشيء من ذلك بمفهوم مطلق المخالطة وإلا كيف تفسر ما يبقى في المرء من مخالطته لأمور كثيرة وهو غير راغب فيها أو مريد لها، ولكنها تتعلق بروحه ونفسه. فيصاب منها بقدر مخالطته لها، ثم استعداده لتلقي هذا الأمر من عدمه وكيف أنهم يحاور أقوام أو يخالطهم، فيكتسب من صفاتهم، ويتشرب من عاداتهم من غير إرادة بل حتى في مجادلته إياهم تبقى في نفسه بقية من ذلك القول يتردد صداه في قلبه أو يتهاوى شعوره في قلبه، أو يخزنه في عقله، فيظهر في هيئات أو

شكال غير نمطية قد لا يدركها، أو يدركها فيتعجب كيف أصابه ذلك وهو غير مريد أصلًا في قرارة نفسه.

إن الفرد الذي يجلس فيستمع للحق والباطل، والصدق والكذب، ثم الزور والبهتان، ويلقي في باله الشبهات ونحوها لا شك أن نفسه تأخذ من ذلك ولها حظ منه فإنها إذا سمعت باطلا وكذبا، أو زورا وباطلا، أو سبا وشتما، اعتادت ولو بمقدار بسيط عليه، وألقي شيء منها في البال أو الخاطر، وتدور النفس عليه والفكر به. وكذلك لو عوّد نفسه على سماع الحق والصدق والخير، لما نطق إلا به، ولما نطق إلا على مراده. وحيث تعطي النفس من المعطيات، تأتي مخرجاتها من جنس ما أدخلت إليها، وإنك كما يقولون لا تجني من الشوك العنب. وانقسام الناس حول ذلك يكون تبعًا لما يسمعون، وعلى ماذا تعودوا. وكما قالوا قديما " كل إناء بما فيه ينضح". فمن اعتاد شيء نسب إليه، ومن تعود على أمر وكل إليه. وهذا أمر في غاية الخطورة، وينبغي أن يكون أن يصدر منفصلا في حديث آخر، ولكنه ترابط الكلام وارتباط بعضه ببعض، فالكلام نسب فيما بين بعضه، وتعلق بعضه بالآخر، وتأسيس الكلام عليه، ولتشعبه منه. فبعضه دال على صاحبه وهي كالشجرة المتشعبة الأغصان المورقة لها أصل واحد. ثم ما هي إلا علامات في الطريق، وإشارات خافته من النفس تبثها من سرداب الخاطر والفكر، ومن واقع التجربة والملامسة.

الإنسان رفيق من يجالس من الأفراد، وما يسمع من الأقوال، وما يشاهد من المشاهد، وما يقرأ من الكتب. كل ذلك يؤثر في تلك الشخصية المعرفية وفي حقيقته، ومن هو. فالإنسان في حقيقته أبعاض مأخوذة من أجزاء كثيرة متنوعة، جزء من أثر كلام هذا، وأثر من مشهد ذاك، وتأثير لقراءة كتاب ذلك. كل ذلك يصنع الإنسان، يصنع تلك العقلية ويملأ هذا الفراغ الداخلي فيه، من آلات الحس المعروفة. وهي في، ماذا يسمع؟ ماذا يقرأ؟ ماذا يشاهد؟ تلك المعطيات، لتأتي النتيجة في الأقوال والأفعال

والتصرفات والأحوال والصفات. فإن من استهان بآلات الحس تلك، وبماذا يُطْعِمُها من مسموع أو مقروء أو مشاهد، أضل نفسه وخسر خسارة كبيرة. إذ أن الإنسان في جميع مراحله التعليمية، بل في جميع حياته كلها ما يبني بناء معرفيا فكريا أو ثقافيا أو دينيا إلا من خلال ذلك. وتطبيقات هذا الأمر وأمثلته على الواقع المشاهد في جميع الأطر والأحوال كثيرة متعددة، وقاعدتها تغني بوضحها عن مثالها، إلا أن استعمالاتها في تغيير الفكر وتحويل الثقافة واللغة والعقيدة والهوية لأمر يستحق أن يسرد، لكن نكتفي بهذا خشية الإطالة في تلك النقطة.

وهذه الأبعاض يجمعها المرء خلال حياته وتطاول الزمن عليه واتساع المدارك المعرفية والروافد العلمية وتثقل كاهله بالتجارب وخوضه أغمار الحياة وأخذ العبر والمواعظ من توافد الأشياء عليه ومرورها من أمامه . فالإنسان يأتي الحياة لا علم لديه ولا معرفة يملكها، فيأتي الحياة طفلا صغيرًا لا يدري شيئًا ثم يبدأ رحلته الأولى بالمعرفة الأولية والتربية البيئية ثم ينضج شيئًا فشيئًا فيعلم أفراد أسرته وأسماء أشياء بسيطة ويعرف أثر الأشياء، فيعلم أن النار تحرق ويتعرف على الطعام وأنواعه وهكذا يتعود على محيطه الصغير ويتعرف على كل شيء فيه واحدة بعد واحدة، ثم تبدأ المرحلة التعليمية من البيئة ويتعرف المحيط الخارجي ثم المعلومات الأساسية ثم المرحلة المدرسية حتى يخرج منها شابًا قد استطاع أن يُكون – بصورة ما – رؤية للحياة ولنفسه وهكذا كل مرحلة تؤسس فيه نوعًا من الإدراك وشيء من المعرفة والتعلم سواء أكانت نظرية أم عملية، وهكذا يبني نفسه ويكون ذاته في رحلته على الأرض.

وهو كذلك أجزاء مقسمة على الزمن، فكلما مرّ منه برهة أو دقيقة مرّ جزء منه، فما حياته إلا مقياس للأفعال والتصرفات، وكل ذلك مضروب في الزمن، فمن أدرك حقيقة الزمن فهم حقيقة ذاته. ومن ضم لذلك رؤية جيدة ونظرة سليمة للحياة وجمع كل هذه الأبعاض السليمة الصحيحة بعضها لبعض أو غالبها أو ما يصلح له منها،

وصحح معوجها وأدرك مواطن الخلل والقصور فيها فغمدها بعنايته أصلح ونجح. وهذه إطلالة سريعة أرجو ألا تكون مجحفة وإن لم تكن مرّت على كثير من العناصر فهي قواعد إجمالية وكلمات تأصيلية، نمر عليها بشيء من العجالة، ثم كانت هنا كلمة لابد منها قبل أن ننهي الحديث عن العزلة وأثرها.

إن مفهوم العزلة ليس كما يترآى للناس، من أن صاحبها شخص حزين مكتئب يجلس على وسادته يبكي حظه ويندب ما وصل إليه حاله. وإن كانت في بعض تفاسيرها أنها محاولة للهروب من الحقيقة والتخلي عن الواقع، ولكن هذا أيضًا فيه نظر. الإنسان هذا الكائن له طاقة واحتمال ومشاعر، فحينما يعبئ من الحياة وما فيها مما يتعب ويهلك، لابد أن يفرغ ما في جعبته ويخلي عما في نفسه، حتى يعود إلى الحياة نشيطًا يمارس عمله بحيوية وإبداع وتفاءل، لا أن يمشي وقد هدّ حاله وضعف احتماله وساءت حالته، ثم لا يأخذ فترة يستريح فيها حتى يستطيع المواصلة وإكمال الرحلة ومتابعة المسير.

إن كثيرًا من الأفعال والتصرفات التي يأتيها المرء في حياته بها نوع من العزلة، وهي بالتأكيد العزلة الجزئية التي تقل حتى تصل دقائق معدودة، ثم تصل أقصاها في فترة من جبين الزمن. قد يفطن المرء لبعض منها أو لا. فليست العزلة فقط هي الابتعاد عن الناس أحقابا ودهور. وإنما قد تكون في بعض من التأمل يمارسه المرء. منها، الصلاة فالإنسان فيها يخلو بربه وينفرد عن الناس ويدخل في محراب رب الأرض والسماء ليناجيه ويدعوه ويتقرب إليه، وهو يأتي في ذلك حركات جسدية وأفعال قلبية ولسانه في كل ذلك لاهج بالحمد والشكر والتسبيح والتعظيم. حالة مناجاة لا مرئية، فهو يخاطب من يؤمن بوجوده ويعتقد فيه بالكمال المطلق فهو الإله المعبود والرب الخالق، وإن كان لا يراه إلا أنه يشعر بعظمته تزلزل كيانه وقلبه وقالبه تهزه هزة شديدة في داخله، تكاد تخلع قلبه من شدة الخشوع، كأنه انتقل إلى حالة أخرى مغايرة فهو ترك

الكلام المباح والأفعال الكثيرة ودخل في حالة من ممارسة أفعال معينة لها هيئات مخصوصة بأقوال مخصوصة بعزم قلب وإقبال نفس وخشوع قلب، فهو وإن لامس كتفه من يجاوره إلا أنه منفصل عنه كليًا، فهو يناجي ويدعو ويبتهل ويقرأ ويرتل، فهو منعزل عن الناس وإن كان مخالط لهم بقالبه، إلا أنه منفصل عنهم بقلبه، هو في لقاء مقدس مع ملك الملوك ورب الأرباب سبحانه وبحمده.

ومن ذلك أيضًا، محاسبة النفس، فهذا نوع منه، فالإنسان حينما يحاسب نفسه وينظر في أمره يسرح بفكره بعيدًا، ينطلق في رحلة بعيدة عن البشر في محاولة لإعادة شريط الأحداث لينظر إليه نظرة مغايرة عما كان هو نفسه في الحدث ذاته يبصر الخطأ ويعلم مدخله ومخرجه وكيفية الخلاص منه، ويرى أثره على نفسه قوة أو ضعفًا ومحاسبة الإنسان نفسه تكون شيء رفيعًا رحيمًا، لا يتصور فيه كراهية ولا غلظة ولا عنف، إذ أنه هو نفسه الذي يحاسب ويقدر وينظر، فلم ينتدب أحد ليرى في أمره ولم يعين قاضيًا لينظر قضيته، ولم يوكل محاميًا للدفاع عنه، كل هذه التقديرات غير موجودة إنما هو ونفسه، فإن أراد أن يعرف قدر نفسه ومواطن الخلل وكيفية تقييم ذاته استطاع وقدر. ولا عذر لأحد أنه لا يستطيع، إذ كل إنسان يفعل ذلك، بل ويصدر مئات الأحكام في مجلسه وهو يدري أو لا يدري، وهو يتحدث عن فلان وهذه القضية وتلك الحادثة، ليتحدث في كل شيء ويفتي فيما يعلم وما لا يعلم، ولو سكت عما لا يعلم، وسكت وتعلم لأراح واستراح، وازداد علمًا، ولكن يأبى عليه غروره إلا أن يدلوا بدلوه، ويهرف بما لا يعرف ويتحدث فيما لا يحسن، حتى يراه العقلاء مسخة ناطقة لا تهدأ ولا حتى تتكلف السكوت راحة لها قبل أن يكون راحة للناس.

وقالوا في ذلك، لو سكت من لا يعلم لقل الخلاف، ومن تكلم في غير فنه أتى بالعجائب، فكل شيء له قواعده وأسسه الذي ينبني عليها ، فلو سكت في حضرة العلماء والعقلاء لتعلم وفهم، وأما أن يناطح الرأي بالهوى والفكر بالجمود، فهذا حال

من لا يريد العلم أو الوصول إلى الحق، وإنما الوصول إلى شهرة الحديث والإلقاء والتفاخر على الناس، ومرضاة النفس، بأنه هو الذي يفهم الذي يعلم الذي عرف الأمر قبل أن يعرفه غيره، فهو متبع لهواه في كل ذلك، مندفع من وراء غرور نفسه وتكبر رأيه وتسلطه.

وأما الواجب على المرء هو أن يستمع ويتعلم، وتكون همته وصفته، الوصول إلى الحق فيعلى بذلك قيمة الحق والصواب لا اسم الشخص واسم أبيه، فيعظم الحق أيًا ما كان في يده هو أو في يد غيره، بل يأخذ من عدوه إن كان على الصواب، بلا تكبر ولا ضغينة، هو مع الحق حيث دار وإليه حيث انتهى، يسمع الحكمة ويعمل بها وإن أخذها من عدوه، فالحكمة ضالته أينما وجدها فهو أولى بها. وهو الرابح بأخذها والمستفيد بتطبيقها، وكما قالوا في ذلك العاقل من وعظ بغيره والجاهل من وعظ بنفسه . فالله – عز وجل – جعل للإنسان عينين لينظر ويتعلم ويبصر الحقائق، فلا ينتظر حتى يُختطف في شباك المصائب ليتعلم كيفية الخروج منها، بل له في التجارب السابقة وأحوال الناس الذين يخالطهم مرحًا كبيرًا لتنوع الأفعال وتغيرها، بل وتغير استجابة كل واحد منهم تبعًا لعوامل كثيرة، بل والكتب حاوية لتاريخ الأمم والأفراد وأحوالهم وتصرفاتهم وصفاتهم وكيفية معالجتهم لقضاياهم، وكيف فشلوا، ولماذا نجحوا؟ كل أمة بمجموعها في ثقافتها وعناصرها الذاتية الخاصة أو بالعناصر المشتركة فيها مع غيرها من الأمم.

فهناك فرق بين من عرف أنماط التاريخ ، وعلم طبيعة سلوك البشر ، وكيفية تطور الأحداث فبنى في عقله رسمًا أوليًا، وحاشية يتنبأ فيها بالأحداث القادمة ، وكيفية تصرفه عند وقوع الخطوب، وعنده من الخطط البديلة الكثيرة والكثيرة، وهي بالمناسبة ليست من بنات أفكاره وإنما من أفكار من سبقوه من الأولين مع إضافة ما يواكب عصره وزمانه والتغيرات الخاصة بحالته هو وتفاصيلها الدقيقة، فهو قد غير

ـ في شكلها الخارجي إلا مضمونه الأصلي هو من القديم سواء أدرك ذلك بنفسه أم كان على جهل به.

وتجـد هذه حال من أراد معرفة الحقيقة والتنـور بالمعرفة الصحيحة، تصيبه من صفات تلك الحالـة المعرفية والإدراكية الشيء الكثير فتجده مثلًا لا يتعصب للرأي ولا يوافـق الباطل .ولا يركب مركب التنطع والغلـو أو التسهيل والإفراط، فهو مع مناقشته الـرأي، يجد فيه مجابهة الحجة بالحجـة والقول بالقول، يحده مجموعة من المقدمات التـي أدت إلى هذه النتيجة، فيفنط هذه المقدمات ويتناولها بالبحث والدراسة الجادة غـير المتحيـزة المجردة عن الهوى فينظـر هل سقط شيء من هـذه المقدمات أدى إلى خلـل في النتيجة، أم أن نتيجة المنهج الذي قـدره لنفسه في استنباطه لتلك المقدمة، أو استقرائـه لهذه المعلومة، أو الخلل الذي وقع فيه مـن اشتراك اللفظ في كثير معنى، أو عـزل الخلفية الثقافية والبيئيـة والمعرفية، أو سوء ربط بين المقدمتـين أدى إلى نتيجة مضطربـة غـير سليمة النسبة، أو منطقيـة الأفكار وعوامل ذلك كثـيرة جدًا لها يليها الذي تذكر فيه.

وذلـك أيضًا لعلمه أن اتباعه الخطأ وطريق الهوى لن يزيده إلا ضلالًا وغرورًا ولن ينتفع فيه بشيء. فأن ترجع عن رأى رأيته أو قول قولته تبين لك فيه زيفه وخطأه، خير مـن أن تعاند فتسير في رحلة خاطئة وأرض شـوك وطريق معوج، وضررك في كل ذلك فاحش وسيء فقد عميت نفسك عن اتباع الحق، فحرمتها لذة الصواب وضيعت عليها نعيـم الحق، ومنعتها من أن تصبوا إلى الفضـل وشغلتها بالباطل عن الحق فأجهدتها ضعفًـا وأوسعتهـا باطلا. إلى آخـره، غير أنك لم تقف عند حـد نفسك فانبريت تنشر رأيـك وتعرضـ على النـاسـ مذهبك فتضل خلفًـا ممن انطلت عليهـم حيلتك وتزيين مكـرك فحرمت نفوسهم من السير في ركب الهدى وملاحقة الركبان والإبداع والفكر. فوضعـت لهـم رأيك عقبة فكريـة يأخذوا يومهـم وليلتهم في التفكير فيـه والتشدد له

والتعصب لصاحبها، وهم يرون في ذلك أنك صاحب الفضل عليهم والإحسان إليهم، ويأخذوا هم أنفسهم في الدعوة لهذا الفكر والتشيع لمذهبه، بل وقد تحصل بذلك من النزاعات والصراعات والمشاكل الكثير. ثم وهي في أصلها فكرة باطلة أحدثت صراعًا وجلبة، وقد تؤدي كذلك إلى نشوب متطاحنات فكرية سلبية لا طائل منها ولا فائدة من ورائها، فقد قامت على التعصب المذهبي واتِّباع كلٌ رأيه وهواه ونفسه. وهو في خاصة نفسه لا يهم أتضيع الحقيقة والصواب لما اتخذه من مذهب زور وقول باطل، فالمهم عند ألا يضيع هو، وألا يُحدث الناس بأنه تنازل أو تراجع بل أخطأ . وكم من حقيقة طمست وقول دفن في التراب لأجل أن صاحبه يخاف أن يظهر بمظهر التارك لرأيه المتنازل عنه. إنه لا يرضى ذلك أبدًا، أمَّا الحقيقة فهي أمر نسبي لا تعارض عليه فما أنت تراه حق أنا أراه خطأ وكلانا على الحق!!! هرقطات عجيبة ، وحالة عبثية من الفكر ، والمناداة بضم الأشياء إلى مايضادها. والتوحد رغم الفروق الجوهرية، وطمس المعالم، لإضفاء نكهة باردة لا معنى لها إلا الاستهزاء بالعقل والأشد عجبًا مما سبق الرضا بذلك من بعض العقلاء أخذًا بأعذار نفسية أو عقلية. وهذه قضية ثقافية تاريخية منفصلة، وهذا شيء بسيط من تلك المعاناة التي نعيشها..

فضلا عن إفساد الأوقات في إصلاح ما أفسده هؤلاء فبدلا من أن يندفع الناس للإبداع والتأليف والبحث وينطلق المصلحون في ربوع الدنيا لإرساء قيم السلام والعدل والمعروف والخير، ويهب الناس إلى الارتقاء بالحالة المعرفية العامة لجموع الشعب، إذ بهم يقيدون في أوحال من الطين، وعقبات على الطريق، فتجدهم يفندون مساعي هذا الضلال والخطأ العقلي والمنطقي، ويوضحون زيفه وفساد منهجه، ثم يأخذون في الرد على الأقوال واحدة بعد واحد، ويقيمون المحاضرات والمناظرات لتبين عور هذا الرأي وفساد هذا المنحنى، وكل هذا يأخذ وقتًا وزمنًا ليس بالقصير، ناهيك عن الجهد المبذول في سبيل هذا الطريق فكري ومعنوي ونفسي ومعرفي بل والعداء الذي قد ينشب بسبب هذا بين الناس بعضهم بعضًا.

وما كل ذلك سيئة من سيئات التعصب، واتِّباع الهوى والنظر إلى الشخوص والأنفس والأسماء والألقاب لا إلى القيمة والحقيقة والفكرة والقول، وكل هذا منشأه من اعوجاج الرؤية وحب النفس الحب المذموم والارتقاء بها فوق ما ينبغي أن تكون عليه من التواضع وحب الحقيقة والدفاع في سبيل الحق، لا في سبيل الشخص أو المذهب أو الهوى .

ولو علم صاحب التشدد المقيت والهوى المتبوع، أن رفعته حقًا تكون في اتباعه الصواب من الرأي فإن فعله مذموم ومقصده باطلا لا صحة فيه، وقصر فيما أراد من الوصول إلى الرفعة وعلو الشأن، وما علم هذا – المسكين – أن الرفعة والعلو التي يريدها والغاية المنشودة التي نصبها لنفسه إنما هي في إتباع الصواب والحق، ذلك لأن قيمة الشيء هي التي تعلي من قدر صاحبه وتسفل به، وما المدح والذم في حقيقته إلا مدحًا للقيم والصفات الحسان والأفعال المشهود بها، فلما كانت هذه القيم هي الغاية وكانت هي النجوم المعلقة في السماء، فكان المتصف بها يصيب من الرفعة والعلو بقدر ما أصاب من القيمة العليا نفسه.

فالأشخاص ذوات مجردة لا تمدح ولا تذم إلا على الالتصاق والتعلق والانفعال الخارجي من أقوال وتصرفات، فلو نظرت إلى الملائكة تجدهم مجموع خير جبلوا عليه وما كان لهم غيره، فكانوا مضرب الأمثال في المدح الخالص، وصاروا يصفون بالبراءة والطهارة والنقاء بهم لاتصافهم الدائم بما ألزموا به، وكذلك تجد الشياطين مضرب المثل في الشر المطلق، لأفعالهم القبيحة السيئة ولإرادتهم الشر وسعيهم إليه، وذهابهم للفساد وحثهم عليه بل وصنعه وتعليم صنعته وإبراز فنه وتزيينه للناس. وهكذا

تجد الإنسان يعلو قدره بمقياس ما أصاب من العلم بدرجاته والأدب والأخلاق، وكذلك يسفل بقدر ما انعدم من العلم والتقدم وفقدان شيمة الأدب والخلق وكلاهما مستلزم الآخر فالعلم يستلزم الخلق، بل الخلق والأدب قبله، فمعاملة الناس بعضهم

لبعض خلق، والمخالطة الواقعة في المجتمعات والأمم خلق، والحديث من الرجل لصاحبه وغيره خلق، فالأخلاق هي الحياة ولكي لا ننجرف للكلام عن الأخلاق وعلاقة العلم بها، يكفي القول أن العلم هو في المعرفة والتقدم وإزكاء النفس، والخلق هو للبشر بعضهم بعضًا في كل ما تستوجبه حياتهم بأنواعها واختلافاتها وما تغشاه من دروب وطرق حتى وأن ضاقت تجد الأخلاق هي سيدها وأساسها

فالخلق الخلق. وقد أحسن حافظ إبراهيم في وصف هذا المعنى فقال:

إنّي لَتُطرِبُني الخِلالُ كَريمَةً   طَرَبَ الغَريبِ بِأَوبَةٍ وَتَلاقِ
وَتَهُزُّني ذِكرى المُروءَةِ وَالنَدى   بَينَ الشَمائِلِ هِزَّةَ المُشتاقِ
ما البابِلِيَّةُ في صَفاءِ مِزاجِها   وَالشَربُ بَينَ تَنافُسٍ وَسِباقِ
وَالشَمسُ تَبدو في الكُئوسِ وَتَختَفي   وَالبَدرُ يُشرِقُ مِن جَبينِ الساقي
بِأَلَذَّ مِن خُلُقٍ كَريمٍ طاهِرٍ   قَد مازَجَتهُ سَلامَةُ الأَذواقِ
فَإِذا رُزِقتَ خَليقَةً مَحمودَةً   فَقَدِ اِصطَفاكَ مُقَسِّمُ الأَرزاقِ
فَالناسُ هَذا حَظُّهُ مالٌ وَذا   عِلمٌ وَذاكَ مَكارِمُ الأَخلاقِ
وَالمالُ إِن لَم تَدَّخِرهُ مُحَصَّنًا   بِالعِلمِ كانَ نِهايَةَ الإِملاقِ
وَالعِلمُ إِن لَم تَكتَنِفهُ شَمائِلٌ   تُعليهِ كانَ مَطِيَّةَ الإِخفاقِ
لا تَحسَبَنَّ العِلمَ يَنفَعُ وَحدَهُ   ما لَم يُتَوَّج رَبُّهُ بِخَلاقِ

فإنك تجد الخلق ذوات بشرية لو جردت عن الفعل المحمود أو المذموم، لخلت من الوصفية أبدًا، وهذا محال وإذا لم يوجد في البشرية منذ وجدت أحد اتصف بالعدم المجرد عن المدح أو الذم، وكل ذلك مردود إلى الأفعال والأقوال والصفات هي التي عليها مدار تقييم الشخص وتصنيفه في أي بقعه يقع من الخير والشر. وإذا قلنا لا يوجد إنسان يعدم الوصف، فمن خلا من الوصف، إمَّا يكون ذلك واقع لعدم العلم عن الشخص نفسه أو عدم معاشرته ومصاحبته، فالإنسان بين المدحة والمذمة سائر بين

الناس، ولا أقل أن أحد يركن إلى أحدهم فيتصف بهذه الصفة دائمًا، بل هو متقلب في أحواله بين هذه وذاك إلى القلة القليلة، ومَنْ مِنَ الناس لا يخطأ ولا يأتي المذلة أو تذل قدمه!، وإنما هو يوصف بحسب ما رجح عنه من الصفات ودام عليها وأصبحت أكثر مؤهلاته شيوعًا وتكرارًا إمَّا ممارس لها نفسه بأي طريقة كانت، أو كان يأتيها في معاملته مع الخلق، فمن وصف بالأمانة والصدق والإخلاص أو التواضع إلى آخر تلك الصفات لا يعني ذلك انعدمه من غيرها من الصفات الحسان الأخرى فالأمين قد يكون صادقًا وعطوفًا ومتواضعًا إلى آخره، وأيضا لا يعني ذلك انعدام صفات المذمة عنهم، فلا يعني ذلك أن خلا من الظلم كافة أو الإساءة مطلقة، إلى آخره، والأمر ما دام في تلك المرحلة فهو قائم على الاحتمالية المطلقة والنسبية العامة، فلا يترجح هذا ولا ذاك، وإنما هو أمر العلم به العلم بما يساويه وكذلك العلم بما يضاده ويناقضه.

والإنسان في اتصافه بالصفة أيًا كانت، فهي في ذاتها وصف جزئي لا تعميم له، فمن علم الإنسان وتغيره ومراحل تقلبه، بل وانحيازه السمة الظاهرة عنه، علم أنه قد يتصف بصفة الكرم مثلًا، فلا يعني ذلك أن الكرم ملازم له على الديمومة منذ خلق إلى يوم يموت، وإنما هي مرحلة معينة، نعم قد تمتد وتلاحقها مراحل أخرى تبعًا للمؤثرات والعوامل الكثيرة المتنوعة، فالصفة لا تنجح من تلقاء ذاته في نفس الشخص، فليس يقرر الإنسان أن يصبح صابرًا فيكون صابر فتتبعه الصفة، بل الصفة في ذاتها حاوية للشروط ومؤهلات كثيرة تتطلب منه أولًا تحقيقها، وبل وقد تطلب الصفة المراد الالتصاق صفة أخرى أو اثنتين بل ثلاثة، فليست كل صفة مجردة النسبة عن أختها بل كلها لها نوع من التعلق بعضها بالآخر، غير أنه هناك صفات تكون نسبة المتعلق بها عالية التردد أو منجذبة إليها في مقياس النسب فتطلبها، ومن لاحظ ذلك، علم أن لكل صفة أصلًا نواتج ومتعلقات منشقة عنها، والا كان الالتصاق بالصفة زورًا وبهتانًا، ويكون تعد غير مقبول وغير سليم النسبة في نظر العقلاء، فالصدق مثلًا والأمانة إلى

آخـره تلزمها تصرفات دالة عليهـا مبينة تلك الصفة ذاتها بوضوح شديد، لأن النفس أخذت منها أكبر الحظ ولجئت إليها سواء بسواء لجوء الحبيب إلى من يحبه وهكذا.

وأيضـا هناك علامات ظاهرة للصفة وهناك علامـات خفية باطنة لا يكاد ينظر إليهـا كل أحـد، أو يلاحظهـا جميع البشر غير الفطـن المتنبه. وهنـاك كذلك صفات معلقـة، ومرفوعـة النسبة إلى غيرهـا، فلا يتصف بهـا الإنسان للجوئـه إليها أو حبه لهـا. وإنمـا أنه مجبور على ذلك لتوائم تلك الحالة النفسيـة أو العقلية الجديد عليها. فلتعلقهـا يكـون منسـوب إلى الحدث نفسـه لا إلى الشخص ذاتـه . فالإنسان مثلًا قد يتباكـى وقد يظهر الحزن أو التـألم أو التعاطف، إلا أن هذه الصفة حدثت نتيجة لفعل خارجـي أجبره سواء كان ذلك طوعـا أم كرها على الإتيان بتلـك الصفة فقد يمارس الإنسـان الحـب أو البغض لشخـص ما اتقاء وقوع سبب ما، أو علـى خوف شيء ما، أو رغبـه في الوصول لشيء ما. وهذا الصفة تكـون متعلقة على الحدث الخارجي منسوبة إلية، موجودة بوجوده، وكذلك ترفع بمجرد زوال وانقطاع الحدث الخارجي.

وحينئـذ الحدث هو الذي يجلي الصفة ويوضحهـا، كالذي يريد أن يصل إلى حب شخص ما أو كراهيته، تجد ذلك الشخص يفتعل هو نفسه الحدث لإضفاء الصفة التي يريـد اثباتها في نفس الشخص المقابل أو المقصود بالحدث المفتعل. سواء كان إضفائه للصفـة زورا وباطـلا أو صدقا وحقيقة إلا أنه في كلا الحالتـين يفتعل الحدث لحدوث المقصـود. والإنسان قد تصيبه صفة ما فتظهر فيه نوعًا من الصفات الأخرى الثانوية العرضية، فهي ليست متـأصلة فيه، وليس كذلك نابعه من الحدث نفسه، وإنما هي من مـردود الصفـة ذاتها، فتواجد الصفـة لا يعني انعدم صفات أخـرى على الجسد غير حقيقية، وليست كذلك مزيفة أو غير منطقية وإنما هي تمام الصفة الرئيسية الأولى.

ومثالـه صفـه الضعف مثلًا فقـد تُظهر في الإنسـان حبا غير حقيقـي، ويكون إذا قـد تشبـع بأسباب أخـرى ليست نابعة مـن الضعف ذاته، وإنما كـان ذلك خارجا عن

الضعف، فيكون مثلًا أصالة فيه أو رحمه به أو صلة. إلى غير ذلك، وقد يأتيه قربة إلى الله تعالى. أمَّا مشتق صفه الضعف فيكون المودة الغير مقصودة لذاتها وإنما لغيرها إلى آخره. ولا أريد أن أسهب في ذكر الصفات المنشقة عن الصفة الأولى، ومن أعمل في الصفة الأولى عقله وراعي الأحداث والذاتي الأصلي والعرضي الثانوي فهم ذلك من غير قول أو توضيح.

وقد ذكر أبو الطيب شيء من هذا فقال:

والناس قد نبذوا الحِفَاظ فمُطلَق ... يَنسي الذي يُولَي وعاف يندم
لا يخدعنك من عدو دمعه ... وارحم شبابك من عدو تَرحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
يؤذي القليل من اللئام بطبعه ... من لا يَقِلُّ كما يَقِلُّ ويَلؤُم
الظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

وقال كذلك:

والذل يظهر في الذليل مودة ... وأودُّ منه لمن يود الأرقم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ... ومن الصداقة ما يضرُّ ويؤلم

وقال أيضًا، ولكنه ليس تأثر الصفة بأختها، وإنما وقوع الشعور في النفس من قبل الظاهر الخارجي في بناء حكم ظني نفسي داخلي من غير كلام أو حديث، وإنما هو مدخلات النفس وتعاريفه الظاهر أن تفسير شيء ما هو كذا، وعدم شيء ما هو كذا، والممازحة بينهما هو كذا. وهذا يتعلق بشكل مباشر على تعريف النفس للمدخلات أو المخرجات. فكل حدث خارجي له عنده تفسير معلوم، وحتى وأن تنكر من ذلك وزعم وراح يستنجد موافقه أحداثه، فإن النفس لابد أن تعرفه بشيء ما سواء كان ذاتي أو عرضي

وقوله هذا له علاقة مما سبق الحديث عنه، فيقول:

راعتك رائعة البياض بعارضي ولو أنهــا الأولى لراع الأسهم
لو كان يمكنني سفرت عن الصبا فالشيب من قبل الأوان تلثم
ولقــد رأيت الحادثات فلا رأى يققــا يميت ولا سوادا يعصم
والهــم يختــرق الجسيم نحافة ويشيب ناحية الصبي ويهرم

ولما كان ذلك الحكم السابق هو الحالة الأولى من أحوال النفس قال:

لهـــوي النفس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أنى أسلم

وهو-أبــو الطيب- وإن كان يقصد بهوى النفوس الحب والعشق، إلا أنه يعمم على كل ما تميل النفس إليه وترغب، مما قد لا يبدوا سببه ظاهرا واضحا فهو لا يعرف من أيــن نبت هذا الشعور، وكيــف تسرب. ثم هو يدلي بعذره أنه نظــر نظرة عارضة وظن سلامــه قلبه من تقلبــه وتحركه عليه. وكثير من أفعال القلوب هكــذا قد لا تستطيع أن تعلقها على سبب ظاهر ودليل بين غير أنها هكذا.

وهــذا قد يكون في حالات ضيقه حيث أني لا أسلم للصدفة أو العبثية في حدوث أي شيء . إن لكل شيء هدف وغاية، قد لا يعرفها الإنسان في حاله، لأن القلب مُجْمِع على الفعــل نفسه لا ينظر إلى ما سواه، فلا يملك تحليلا أو تفسيرا فتجده يحلل الأمور على ما يحلو له، أو إلى ما قد يترآى له وقد قال كذلك

لا يملك الطرب المحزون منطقه ودمعـــــه في قبضة الطرب

فالإنســان المحــزون أو المحب أو الكاره أو الغاضب، لا يملك منطقا يحادثك به وهو فيمــا سبق من تلك الحــالات أو غيرها هو في حالة أخرى عزلتــه عن التفكير المنطقي والإبداء الصحيح، فتجده يحدث فقط عما هو فيه. ولو أنصف لذكر الأمر كاملا، ولكن أنّي لــه ذلك، وهو في قبضة ما يمر به. فيحدثك عن مشاعره حال الموقف الذي مرّ به، وعواطفــه التي تعتريه حينما سمع أو شاهد. ولذلك فــكل واحد من الأصناف السابقة

أو غـيره به نـوع من العمى عن الحقيقة والضعف في إبصـار الصواب. فهو لا يسير إلا حيـث تدفعه نفسه، وهي مثقلة بالمشاعر والعواطـف. فتجده يرتكب ما لو كان في وعيه الطبيعـي وسلامه قواه، ما فعله. غير أنه حمل قوة تلك المشاعر وأسرع حيث أمرته به. فانظـر إلى الغضبان مـاذا يفعل من... ومن... وهو لا يريد فعـل ذلك. فمشاعره تلك غلبت قوة تحمله وطاقته، فانفجرت به وطاشت، ثم خرجت عن حد العقل.

لـذا فـكل فرد من هـؤلاء يتحدث حديـث المشاعـر والعواطف المحملـة بالرغبات والأهـواء والأماني، لا بحديـث المنطق السليم والعقل الرشيد. هـو هكذا يكون قد فقد جـزءا كبيرا من عقله. وقـد يشتد عليه ذلك الشعور حتى قد يأتـي الفعل وهو غير واع بمـا يفعـل، ويتكلم بالكلام وهو غير منتبـه لها يقول. وهو يكون حديـث القلب ولكن لا يدعـوك ذلك أن تخطيء النظر فتظنـه حديثا حقيقيا كاملا مواكبا لإرادته هو. محال أن يكـون كذلك، وأنا في هذه الحالة لا أسلم له بصدق الحديث، وإنما بصدق مشاعره وما يمر به مما يظهر في نبضات كلامه وأنين قوله، فما هو إلا اضطراب القلب وثوران النفسـ واشتغـال أجيجها، فأصبح يهذي. ثـم يحدث له نوعًا مـن الخلط بين مشاعر الرغبـة والرهبة والحب والكراهيـة والأخذ والترك يختلط كل شيء حتى تكاد تظن أن الأمـر معقـد، وما هو كذلـك إلا في الوهلة الأولى ولكن تطور الشعـور أدى إلى اكتسابه شعورا آخر غير ملحوظ مع تمازجه في عواطف أخرى، وهذا كله يكون في حاله اللاوعي للعقل، فيرخي العقل لجامه، ويترك العنان لخروج كل شيء، فينتفض القلب من مكمنه بمشاعر فياضه وأحاسيس مفرطة ولواهج ناطقه

غـير أن قلـب كل إنسان يحوي مقبرة كبيرة، قد تتضخـم حتى تحوي معظم قلبه. وقـد تتضايق شيئًـا فشيئا حتى تنعـدم وتتلاشى في وقت ما. فلا شـيء يموت غير أنه يخـزن في تلك الذاكرة الإنسانية، وهي تحـوي حياة الإنسان كلها بمشاهدها وأحداثها غـير أن الإنسـان أعطى منحة عظيمة وهي النسيان، حتـى يستطيع أن يكمل مسيرته،

ويعـدد أدواره ونشاطاته، وتعدد مع ذلك مشاعـره وعواطفه وحركات نفسه. إذ تصور لو كان الإنسان حالة واحدة من الشعور لا يستطيع أن يتعداها لما بعدها لتوقفت حياته، وأهلك نفسه. لذلك كان النسيان من النعم الجليلة على الإنسان .

مـن الخطـأ الشائع أن الإنسـان عندما يحزن، يظـن الدنيا تحزن معـه، والحياة تتحول مراعاة لألمه فتبكيه، فيستأنس بها وما ذاك إلا نابعا من اعتقاده الخاطئ المسبق الـذي كَوَنَه عبر مسيرة حياته مـن أقوال سمعها أو مشاهد رآها فأثرت فيه أيما تأثير. أو قـراءة لأشياء شكلت مضمون فكره ومعدن رأيه واعتقاده. وقد تكون مورثات أخذها سماعا عمن قبله من الآباء أو الأجداد. فهو يظن صدقها و واقعيتها لامحالة.

فهو ينظر نظرة ذاتية متحيز فيها لذاته، ناظر لنفسه فقط، ومصالحها ومنافعها كأنه هو وحده في هذه الدائرة من الشعور والفكر، فيورثه ذلك نوعًا من الأنانية، وعدم التعاطف، بل والظن أنه الوحيد المبتلى في نفسه أو جسده أو شعوره. والمشكلة أنه يعاني كذلـك بسبب شعـوره بأنه مختص بوقوع المصائب عليـه دون الناس فالإنسان إذ شعر أنـه هو وحده المصاب بالحزن والألم والمرض، زاد ألمه ألما آخر، لانفراده بهذا الشعور، وظـن ظنا كاذبا أنه ما أصيب هكذا إلا لعلـة خاصة به. فيندب حظه. وهذا يفسره أنه في طبيعتـه الأولى، وهي الاجتماعية والمخالطة، فيورثـه نوعًا من الشعور بالاستوحاش والانفراد. وما أشد ذلك على النفس حين يصيبها!

إن التكاتـف والتلاحم للناس بعضهم بعضًا في أوقات الضعف والحزن، مما يؤازر نفسـ المصاب ويأخذ بـه وكذلك لما يجد ما حوله عندهم ما عنـده بل أشد يهون ذلك الأثـر وتلك المصيبة عليه. ويحل عن القلـب عقدة من العقد المبرمة حوله فيهدئ منه. ومـن فهم مثـل هذا استراح كثيرا. وعلـم أنه من الأدب، بل من طبيعـة الإنسان أنه لا يحـب أن يرى إظهار حالـة الفرح والسرور عند حزنه وانكـدام قلبه. فلا تظهر الفرح أمـام الحزون المثـكل بالفواجع، بل تأثر لتأثـره، ثم أعنه على أمـره إن استطعت. وما

أجمل فعل عمر بن الخطاب لما دخل على النبي □ وأبي بكر فوجدهما يبكيان فسألهما عن حالهما وما الذي أصابهما حتى يبكيان، ثم تباكي معهم. وهذا من عظم أدبه رضوان الله عليه.

وكذلك حينما تجد إنسانا فرحا لا تثقله بالأقوال الحزينة، فتذهب فرحته، وتطفئ سعادته. ـ أحسن الله إليك لا تفعل! بل شاركه سعادته إن استطعت، وأظهر فرحك لفرحه، وضم قلبك لقلبه، ونفسك لنفسه، فشاركه شعوره. فإن ذلك مما يدخل السرور على قلبك أيضا. بل مثل هذا يشعرك بإنسانيتك وأنك تؤثر وتتفاعل.

التفاعل مع الناس في الصفات الموروثة ـ الجبلية ـ أو المكتسبة يكون في حق لا في باطل. فلا ينبغي للمرء أن يتفاعل مع المخطئ أو المذنب تفاعلا خاطئا، فيوهمه صدق مسلكه وصحة قوله وأنه لا جرم فيما ذهب إليه. بل الواجب أن يظهر له الحق ويبين له الأمر. ويخبره بسوء فِعاله وشناعة مذهبه في السلوك ولا بد أن يذوق شيء من العتاب، ولو كان جُرمه عظيما مأثرا مجاوزا الحد أن يمس بشيء من الزجر، ولكل حالة حالتها . وعقابه هنا لا للتنكيل به قصد الأذية والضرر، وإنما قصدا لإعلام النفس أنها جاوزت حدها. ورتعت في ملك غيرها، وتناولت ما حرم عليها، فكان لابد من زجرها حتى لا تعاود الكره، وتعتاد الفعل. وكما قالوا من أمن العقاب أساء الأدب. ثم إن هذا ليس له خاصة فقط، بل ولغيره أن ينظر فيتعلم أمرين. الأول: ـ ألا يحاول أن يسلك مسلكه ويزاول فعله، لأنه لا يريد أن يأخذ هذا الجزاء، ويؤلم بهذا العقاب، فيبتعد عن تلك الصفة المشينة بل وقد يأخذ يحذر الناس منها، ويعلمهم أنه رأى وشاهد، ويقص الواقعة فينزجر الناس ويرعوا عن إتيان مثل هذا الصنيع. الثاني: يعلمه قيمة الأشياء والمحرمات، وأن الأمر ليس بهين هذا الهوان الذي يظنه. فيحترم أملاك الناس، أكانت مادية في أرض وأموال وغيرها أم معنويه، وهي أعراضهم وأنسابهم وكرامتهم ومراعة حقوقهم. ويعلم قيمة ما غرمه المعتدي من تجاوزه وتطاوله. فيعلم أن من أذنب لابد

من عقابه وزجره، ويُعَلِم ذلك أهله وبيته وأقاربه. فلو لم تحفظ قيم الصدق بين الناس والأمانة، تجد المجتمع ينحني منحني خاطئ في شيوع الجريمة وانتشار الفاحشة ونحوهما فعندما تحفظ القيمة الأولى واضحة الأثر مطبقة على الناس، يمنع ذلك من ظهوره ما عدها.

وهكذا إن عدم الدفاع عن القيم الحسنة والصفات الطيبة، يورث ظهور عكسها. فأنت في ذلك بالخيار في الحالة الأولى بشرط المحافظة عليها، والأخذ على يد من يخالفها. وإما أنت كذلك ستسوق نفسك ومجتمعك إلى الحالة الثانية وهي ليست خيارا الخيار يقع في الحالة الأولى في الحفاظ عليها، فإن تركت ذلك الحفظ كنت بالاتباع في الثانية، وهي نتيجة إهمال الأولي. ونوضحها بمثال، إذا أنت لم تقبل الصدق، فأنت ضمنيا راضٍ بالكذب وقابل له بالخداع أو الزور أو النفاق. أو التحايل على المرء أيّا كانت تسميته فكل هذه الأوصاف وغيرها، هي تعريفات لما ناقض الكذب. ولنجعلها قاعد واضحة في "أن رفض الصفة هو قبول ضدها" وهي علاقة تضاد، وهي بالتأكيد على الغالب، فليس كل الأمور تسير هكذا، لكن كلامنا هنا على الصفات والقيم وماشابه.

إن مراعاة شعور الناس هو أصل عظيم وأمر هام، حث عليه الإسلام بكل وسيلة وطريقة. ولو تتبعنا كل الطرق لم يكفها المجلد من الكتب، ولكنها إشارات طفيفة في حديثنا عن النفس. إن جناب الشريعة المباركة راعي مشاعر الناس أيما مراعاة، واهتم بالإنسان في جميع المراحل في حال وجوده مع غيره، من احترامه وتوقيره والعطف عليه والإحسان له والبر به ومواضع ذلك في القران الكريم والسنة النبوية زاخرة. فاهتم بالكلمة وراعي أثرها، وما تؤدي إليه في قلوب الناس فقال ﷺ لمعاذ لما سأله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يارسول الله فقال له عليه الصلاة والسلام "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم"

فجعل الحساب على الكلمة تخرج من في الرجل إلى أخيه. فيجعل من الكلماتما يكون وقعه طيب الأثر نافع للنفس والقلب مشرح للصدر. والآخر خبيث منتن الرائحة سقيم الأثر مقبض القلب مؤلم له. فحينما تذكر السيد عائشة رضي الله عنها السيد صفية وتشير بيدها وفي بعض الروايات تقول إنها قصيرة فماذا كان ردّه ، قال " لقد قُلْتِ كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحرِ لَمَزَجَتْه" .

كلمة بسيطة قد لا يظنها المرء شيئًا، لكنها تقع في قلب الآخر ألما وعذابا، تغيره فتقلبه من حالة الفرح والسرور إلى الألم والحزن، تأخذ من طاقته وقوته، وكذلك وقته ليسير معها زمنا يمتصها، ثم يعالجها فكريا أو نفسيا، ثم تؤثر فيه ويظهر أثرها على أفعاله وأقواله. ناهيك عن تغير حالته المزاجية، وقلب هدفه المقصود الذي ينشده من تعطيل له، وانشغاله بكل تلك الأثار. فلنراعي مشاعر الناس ونكون رفقاء بهم. والنبي ﷺ يقول لبعض أصحابه لما أخبره شيئًا ما عن أحد أصحابه قال لهم "لا يُبلِّغُني أحدٌ عن أحدٍ مِن أصحابي شيئًا فإنِّي أحبُّ أن أخرجَ إليكُم وأنا سليمُ الصدرِ". إلى آخر هذه الأخبار وهي كثيرة على العدد .

بل وراعاه كذلك في الأفعال فقال "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، من أجل أن ذلك يحزنه". وقد ذكرنا هذا الحديث وما قبله قبلا ، ولكن نعيدهما للفائدة ولحاجة السياق. بل أمر بالإحسان إلى الناس كافة فقال تعالى " وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن أن الشيطان ينزغ بينهم أن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا" وقال لهم كذلك " وقولوا للناس حسنا" لجميع الناس بأصنافهم بتعدد مشاربهم وثقافتهم، عاملوا الناس بالحسنى وقولوا لهم من الكلام أطيبه وأحسنه، واختاروا لهم أجمله وأفضله، لأن الشيطان ينزغ بتلك الكلمات التي تخرج من فيك ليلقيها في نفس صاحبك وصدره، فلا يتركه إلا وقد ألبه عليك، وغيره ما في نفسه من الصفاء والود لك إلى الألم والحسرة، فيملأ صدره منك غيظا وحسدا. ولم كان ذلك؟ وما

الداعي إليه"" أحسن إلى الناس، واقطع على الشيطان طرقه وسبله، ولا تدع هناك مجالا لسوء الظن والشك.

أمرت الشريعة بإظهار التعاطف مع الآخرين والإحساس بمشاعرهم وعدم إشعارهم بالدونية أو التحقير منهم. بل حثت على منع الأسباب الموصلة لذلك، التي تفضي إلى الأمر نفسه. فانظر إلى قول النبي ﷺ " من أجل أن ذلك يحزنه " علل الأمر بعدم الرغبة في إشعاره بالحزن . وفيه قمة التعاطف وإعطاء الآخرين القيمة الذاتية، فلا يقلل من شأنهم كأشخاص أو من شأن أفعالهم كتصرفات. وفيه إظهار لنوع من الرحمة والإحسان. لا تؤذي الناس بالقول أو الفعل أو الإشارة أو التمويه. بل أحسن إليهم في اللقاء بهم بحفاوتهم وبمعاملتهم بالحسنى وبالبِشر والسرور، كن كالشجرة لا يعدم نفعها بظل أو ثمر أو ريح طيب أو منظر حسن. فهي على جميع حالها مفيدة.

ولو علم الإنسان حينما يغشاه الألم أن غيره كذلك مصاب بالألم كذلك، بل ربما أكثر. وأنه لو أصابه الهم أو الغم فغيره كذلك إذ لا يخلو الإنسان من التردد على جميع المشاعر والصفات الإنسانية، فليس معنى أنك مصاب بكذا أنك وحدك فقط، بل هناك ممن سواك مما ابتلى أو أصيب فوق ما أصبت به أضعاف مضاعفة ثم أن كل ما يحدث لك أنت، يحدث مع غيرك، فلست مخصوصا بالابتلاء أو التألم أو الفقد دون الباقي، بل كل مصيب من ذلك بقدر فجريان الصفات بأنواعها يكون على غيرك كما يكون عليك وهنا يظهر الاختلاف والتمايز في التصرف والفعل بين هذا وذاك، وهنا تكون المحمدة أو المذمة. وكذلك لست وحدك ممن تمني شيء فلم يصبه أو رام خيرًا فلم يوفق له، أو أراد نجاحا فلم يعطه. اعلم أنك لست وحدك في أي شيء مما أنت فيه بحياتك، بل هناك الكثير ممن تشابه وتقارب معك في أصل الاختبار، واختلفت أنت وإياه في الفعل والنتيجة.

إن الإنسان إذا أنشأ تلك الرابطة المعنوية في اشتراك البشر في الصفات الإنسانية،

لهدأ قلبه، واستراحت نفسه وعلم أن هذه طبيعة الحال أن يصاب أحيانًا ويألم أخرى. وأنـه ليس متفردا بما عنده، بل غيره كثـير ممن أصيب مثله، وكل ذلك من الابتلاء له والاختبار. ثم أن عمل المرء هنا أن يخرج نفسه مما هو فيه، لا أن يزيد الأمر سوءًا ثم هو بعد ذلك كي يصلح قلبه، عليه أن يتمن الخير للجميع، فليس هو الذي بيده مقادير الأشيـاء يتصرف فيهـا، وليس في تمنيها هذا أكثر من إصلاح قلبه، فليس عند خزائن السمـاوات والأرضـ يصرف منها على الخلق العباد فتمنيه الخـير لغيره، أثر من آثار صـلاح القلب وقوته، ويورثه ذلـك الإحسان، وأن لا يقابل السيئـة بمثلها فحينما تكون تربـة القلـب طيبة لا ينبت فيها إلا ما جمل وحسن أمَّا الآخر تربته جرداء لا زرع بها إلا الشوك والصبار، ولا يعتريها إلا الهوام من الدواب والسباع. وقد أشار القرآن إلى مثل هذه الرابطة في قوله تعالى "ولا تهنوا في ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما "

وكذلك قوله تعالي" إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين ءامنوا ويخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين"

فـإن تكونـوا تألمون فهم كذلك، وإن أصابكم ألم وقرح فهـم أيضًا كذلك. فليس ما بكـم شيء يصيبكم وحدكم. بل هـي المصائب والابتلاءات نداولها بـين الناس لنبتلي أخبارهـم، ونعلـم أحواهم، حتى يميز الخبيـث من الطيب. وليتخـذ الله منكم عدولا شهـداء له في الأرضـ على عباده. إن النـاسـ كلهم هكذا، كلهم مصـاب مبتلي، ولكن حجـب بعضهم عن بعض ستـار ما ابتلوا به، فظن أنه مبتلي دونهم، وأن الجميع معاف إلا هو. ثم هكذا الأيام تتداول بين الناس ليعلم الله الذين صبروا ويعلم الشاكرين. ثم بعـد ذلك الله لا يحـب الظالمين لا في أقوالهم أو أفعالهم، فابتعـدوا عن الظلم، وكونوا على حذر منه أن يصيبكم وأن تأتوه بأيديكم،

وبعـد أن ذكرنـا العزلة وضابطهـا، وما الفاصل فيها بين المحمـدة والمذمة، وكيف

تكـون؟ وأثرهـا؟ وبعض شروطها؟ ثم حتـى يكتمل المعنى هنا. كان لابـد أن ندلف إلى نقطـة أخرى، وهـي الحالة الطبيعيـة الأولى، وكانت العزلة طارئة عنهـا. حالة مؤقتة معمول بها بشروط خاصة، وتحت أسباب معينة، وبدواعي محدودة. وهي المخالطة.

إذا كان الإنسان مدني بطبعه، اجتماعي بفطرته فليس هناك أحد اجتماعي وغير اجتماعـي من حيث الطـور الأول. أي الطبيعـة الأولى الناشئة فيـه. فالإنسان لابد أن يحيـا بهـا، إذ لا يستطيـع أن يعيش معزولا عن الناس، وكيف تتم شئـون حياته إذا. إذ لابد له من نوع من المخالطة هي الحد الأدنى في تحقيق المعايشة لتتم الحياة. إذ إني لا أستطيع أن أتصور إنسان ينعزل أبد الدهر ليعيش وحيدا هائما على وجهه، في الجبال والصحاري فلابد لابد له أن يختلط مع الناس في طعامه وشرابه وبيعه وشرائه وقضاء حوائجه، فهذا ضرب من المحال الذي لا يتصور عقلا، إلا إذا كان هذا نوعًا من العذاب الـذي يضربه على نفســه، أو العقاب الذي يقضي فيه فترة عقوبته فهكذا الناس شبكة مترابطـة من العلاقـات والمعاملات لا تقـدر أن تفصل بعضها عن بعض. فلا يتخيل إنســان يعتمد على نفسه في جميع الأمور، إذ لابـد أن يحتك بغيره ويختلط به وهو منذ ظهر على الأرض، وهو يسير في جماعات، وعرف المشاركة والاجتماع من تكوين الأسرة الآدميـة الأولى إلى تكويـن العائلة ثـم القبيلة، ثم نزح في الأرض وانتشر نسله، وعمّر الأرض. بل أن أول بشـري نزل الأرض، وهو آدم -عليه السـلام- لم يترك وحيدا، بل خلـق له تعـالى زوجه حواء من ضلعه لتؤانسه، وليتم بها بدأ التناسل، ولتبدأ الذرية ثم تتكاثر مع مرور الزمان.

ولكـن ينظر لمفهوم الاجتماعية والانعزلية، من حيث المعاملة الاجتماعية مع الناس فـإذا أكـثر منها نسب إلى كونه مائلا إلى مخالطة النـاس ومعاملتهم كثيرًا، والتواجد معهـم وتفقد أحوالهـم، والخروج معهم في مناسباتهم ولقاءاتهـم أمَّا الآخر نسب إلى قيامه بالحد الأدنى من المعاملة مع الناس وقد يزيد ذلك شيئًا ما. ولكنه لا يرتقى أبدًا

إلى صاحبه الأول، ولكل مميزات وعيوب. إلا أننا لابد أن نتفق أولًا على أن الأصل في الإنسان أنه مدني مخالط لغيره. وأن العزلة طارئة عليه، لها أسباب داعية إليها. إلا أن تكون مرضا نفسيا يجب علاجه.

إن الله تعالى جعل أسباب التنوع والاختلاف، والتغاير في القوى الجسدية والمالية والاجتماعية والاقتصادية. وكان ذلك لهدف أسمى وغاية كبرى، وهي تكوين المجتمعات وبناء الدول وتشييد الحضارات ولا يكون ذلك إلا بالتكامل والتعاون والإصلاح، والنشاط والعمل والمثابرة. كل ذلك لأجل إقامة مجتمع صالح.

ويذكر الله تعالى الحكمة من المخالطة في كتابه، فيقول تعالى: "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بعضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ".

وكذلك قوله عزوجلّ: " وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فيه سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ"

وكذلك قوله سبحانه: " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إليه أن رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ"

وقوله تبارك وتعالي": " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرض خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ".

ونكتفي بهذه الآيات الاربع لبيان الحكمة من المخالطة التي جعلها الله تعالى طبيعة في الجنس البشري. ونبدأ بآخر أية. وهي تبدأ بتعجب الملائكة على خلق الله تعالى للإنسان وجعله خليفة في الأرض. وما سبب الحيرة أو التعجب، دلالة سابقة، من أن الخلق الذين قبلهم كانوا سافكين للدماء، مفسدين للأرض. فلا هم طائعون لله تعالى

في الأمـر، ولا مجتنبون النهـي، ولا لاهجين بالثناء لله تعـالى والشكر. فأجابهم تعالى بقوله " إني أعلم مالا تعلمون"

وهنـا مقـدم هذه الأسباب، هي النهي عـن الفساد أيّا كان نوعـه وجنسه. ووصف الإفسـاد بأنـه في الأرض، لأنها بيته الفسيح الذي جعلـه الله تعالى سكنا له. وهذا يأت بالاجتمـاع والمناصحـة والدعوة وقبل ذلك كله، العلم. الذي هـو أساس أي عمل صالح سليـم خال من التجـاوز أو الإقلال. ثم بقيام المحاكمات العادلـة فيما بينهم، فيمنعوا الظلـم، ويأخـذوا على يد الجـاني أيّا من كان شريـف كريما أو سيـد مطاعا. ويزيلوا الفسـاد. وكل هذا لا يأتي إلا بالاجتمـاع والمخالطة. والله تعالى يحث على ذلك ويدعوا إليه في كثير من أي القران. فيقول تعالى " ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها " وقوله " ولا تفسدوا أنه لا يحب المفسدين".

وقولـه تعالى" وإذا تولي سعى في الأرض ليفسد فيهـا ويهلك الحرث والنسل والله لا يحـب الفساد". إلى تلـك الآيات، فأخبر تعالى أنه لا يحب الفساد ولايحب المفسدين الذين يبطشون في الأرض بغير الحق تجبرا وعتوا وغيرهم ممن كان على شاكلهم. ثم أمـر بعدم الإفساد، والسعـي إلى الإصلاح بكل وسيلة ممكنة طيبـة. وأخبر أن المفسد ساعـي علـى هلاك نفسه، لمّا عرضـ نفسه لغضب الله تعالى وسخطـه. ولما في أضرار الفسـاد مالا يحصى على الخلق والأرض والحياة بشكل عام. فكان من أسباب اجتماع النـاس بعضهم لبعض، نهيهم عن الإفساد، وهذا ليس أصلًا في الحكمة من الاجتماع، ولكنـه أحـد الوسائل المعينة علـى استمرار هذا الاجتماع بخير وسـلام، وأن يكون كما يحبه الله ويرضاه.

وكـان من تمام حكمته تعـالى، أن علم آدم الأسماء كلها فلما علمه فهم فانطلق في الأرض يستخـرج خيرها بالعلم والمعرفة وهذا هو السبب الثاني في تلك المخالطة، وهو إرساء قواعد العلم ونشر الثقافة والمعرفة. وهي مستلزم لمنع حدوث الأول، إذ أن الجهل

أحد أسباب الفساد في الأرض. ومن لازم عدم الإفساد، العلم والمعرفة، ثم العدل والعلم لا يأتي غالبا إلا بالتفاعل بين شيئين في حالة الانفراد بين المادة المراد تعلمها، والمتلقي. في حالة الاجتماع وهي الحالة الطبيعية تكون بالتفاعل بين المدرس والطالب، في مكان التعلم الذي يتلقى فيه المعرفة أيّا ما كان مدرسة، معهد، جامعة، حِلق التعليم. ثم المادة المراد دراستها. ولما كان في العلم من أسباب المخالطة، فلا يجتمع الناس إلا ليستزيدوا من علوم غيرهم، ويأخذوا عنهم حكمتهم في الحياة ويتعلموا الدروس المستفادة من تجارب من سبقهم. ولذلك يجب أن يكون اجتماع الناس مع بعضهم البعض لشيئين، إمَّا ليتعلم منهم وليأخذ عنهم فيزيد الطالب من معرفته وثقافته فينفع نفسه، ثم يبلغ بذلك من بعده. وإما ليُعلم غيره ما تعلمه، زكاة لما درسه وأخذه، لينشر العلم ويرفع الجهل ويزول الفساد والضلال. وهذه أحد الحكم .

الحكمة الثالثة في قوله " نسبح بحمدك ونقدس لك" وهي و إن كانت على لسان الملائكة، إلا أن الملائكة ذكروا في سبب ذكر الأسباب الداعية لوجودهم، وهي تسبيحه تعالى وتنزيهه وتحميده. وهي كذلك لبني آدم فيسبح الإنسان ربه ويعظمه ظاهرا في قوله وفعله، وباطنا في نفسه وسره. ويشكره تعالى على ما أولاهم به من النعم والفضل. ويعبده وحده لا شريك له فيوحده في العبادة كما أمره بفعل الخيرات والكف عن المنكرات وإقامة الصلوات. وهكذا. وهي الغاية الأولى التي خلق الله تعالى الإنسان لأجلها أن يعبده ويتقرب إليه.

قال تعالى " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أن يُطْعِمُونِ (٥٧) أن اللَّه هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ" فالله تعالى ما خلق الخلق إلا ليعبدوه ويوحدوه ويبذلوا لجنابه ما يقدروا من أنواع الطاعة محبة وتعظيما، بفعل ما أمر وترك ما عنه نهي وزجر.

وأما الحكمة الرابعة من الإيجاد والمخالطة بين الناس، ذكرت في الآية الثالثة على لسان نبي اللّه صالح -عليه السلام- قال "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" .

فالعلة هنا، هي استعمار الأرض بجميع أنواع الاستعمار، فهي لفظ عام يدخل تحته كل ما يكون فيه إعمار ونفع للبشرية من الزراعة، والصناعة، والتجارة والرعي والصيد. كل ذلك فيه تعمير للأرض. وكذلك تعميرها بالذرية والنسل، وهو من مفهوم معنى الاستخلاف وجعل الإنسان على الأرض خليفة. أي بعضه يخلف بعضا، يخلف السابق السالف. وذلك يكون بالذرية فجيلا يخلف جيلا. وهكذا تستمر الحياة سلسلة من الذريات المتواصلة بعضها يخلف بعضًا ويتابعه. فلم يكن الاستعمار والعمران فقط في معنى البناء ولتشييد المباني والدور للسكنى. بل هو أوسع من ذلك وأعم، فهو شامل في مضمونه وموضوعه . وكل محور من هذا يستحق أن يكون مبحثا بحد ذاته. سواء أكان الإعمار الزراعي أم الصناعي أم الاقتصادي. إلى آخره. وفيه كذلك بل وفي القلب منه التقدم العلمي التكنولوجي، إذ أنه لا يمل نشاط من الأنشطة السابقة على وجهه إلا باستعماله والاستنجاد به، فهو حينئذ فرض لازم وواجب محتوم. ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب. وهذا الإعمار يقصد به الإعمار الصحي النافع، لا الضار الذي يتم به التضييق على الناس في معيشتهم وحياتهم وإن كان الاستعمار في ذاته مستغني عن هذا المعني، لأنه لا يدل على ما يتم به الصلاح والنفع والاعمار. ولكن الكلام عنه كأثر من آثار البشر فيه لا في الاستعمار ذاته. فالنسبة هنا إلى البشر أنفسهم، في فعالهم وتصرفهم فيه.

بل لعلها تتجاوز الإعمار المادي، إلى الإعمار غير الملموس المعنوي، من إعمار القلوب بالإيمان والخير والصلاح والرشاد. فيحدث الإعمار للأرض وللنفس وللقلب.

وبمفهوم المخالفة الأمر بالإعمار، نهي عن الفساد والإفساد ومن ذلك ترك الأراضي معطلة عن الاستزراع حتى تتصحر وتبور. بل يستع ليشمل كل ما فيه خراب واستخراب سواء أكان مادي أم معنوي.

والإعمار والتعمير لا يقوم به فرد واحد، فهو نتاج الأيدي المتجامعة والأكتاف المتراصة، والعمل الجماعي والمخالطة. ومن ذلك أن الإنسان حينما يجتمع مع غيره، إمَّا يعمر معهم الأرض بأي نوع من أنواعه بمساعدتهم على جلب ننفع أو دفع ضر. وإما بتعمير القلوب بقول الأقوال الإيجابية المشجعة وغيرها من القيم وقد ذكرنا كثيرًا من ذلك سابقا.

الحكمة الخامسة، وقد ذكرها تعالى في الآية الثانية. التي جعل فيها تفضيل الخلق على بعضهم بعضا. فلم يكن ذلك التفضيل مقصدا، لأن يعمر قوم الأرض بالأهواء والملذات، ويتجاوزا على أنفسهم مما رزقهم الله تعالى والإنفاق فيما حرم ومنع. أو أن يبخلوا بما أعطوا ويقتروا. فالأول قد سبق أن ذكرنا أن كل هذا من الابتلاء، ابتلاء النعمة. وجعل تعالى ذلك الاختلاف لحكمة التعايش والمخالطة وقد فصلنا الأمر كثيرًا من قبل في بيان السنن الكونية في الأرض، ومنها سنة التنوع والاختلاف. وشيء كذلك عندما ذكرنا الصفة ونقيضها وأن ذلك من تمام الحكمة، ونزيد هنا شيئًا يسيرا وهو أن الله تعالى قسم العباد ولم يغفل عنهم، وخلق الفقراء ولم يتركهم. فأعطى الأغنياء المال والرزق، ثم منع بعضه عن الفقراء. ثم جعل لهم أنصبة مفروضة وتزكيات معلومة واجبة الاستحقاق من هؤلاء لهؤلاء، وفيه أن يبحث الغني عن الفقير الذي أمره الله أن يعطيه وينفق عليه من مال الله الذي أعطه للغني في مبدأ الأمر اختبار. ثم ليس هو نعمة منه، بل واجب عليه يأثم بتركه ويستحق عليه العقوبة والنكال يوم القيامة. فابتلى الأول بالسعي والإنفاق من المال وعدم البخل فيه، ثم أخره فقال " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة" وفي أية أخرى " وله أجر كريم" وقال له كذلك" وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا " فرغبه في إعطاء الصدقات، وجعل له عليها الثواب المضاعف بأضعاف كثيرة. ثم ابتلى الفقير بالصبر على ما أصابه، لينظر صنيعه وفعله. ثم يختلطون في الدنيا ليعلم جزاء كل صانع، وفعل كل فاعل منهم، ليمتازوا وليختلفوا.

الحكمة السادسة وهي في قوله" ليتخذ بعضهم بعضًا سخريا" وفي هذا تمام المخالطة والمشاركة. أي يتخذ كل منهم غيرهم ليستعين به على قضاء أمره. ومتطلبات الحياة كثيرة متزايدة، لا يعقل أن يقوم بها أحد منفصل عن الناس أجمعين وهي تابعة للحكمة السابقة. لما يقتضي اتخاذ بعضهم بعضًا سخريا من وجود النقص عند هذا، ما يكمله عند آخر فيذهب فيطلبه منهم. وهنا يرى صبر الناس وتحملهم، وتعاملهم، وكيف يعاملون غيرهم بالحسنى أم بالمعروف أم بالعدل أم بالصبر أو بالإساءة أم بالكذب والخديعة. هل سيتخذون الحقيقة والصواب جانبهم أم يتعالوا عليهم ويرفضونهم أم يقبلونهم ويقومون لهم بما يقدروا عليه. هل يسعون معهم بالخير والحق أو يسعون بينهم بالمكر والنميمة وزرع الأحقاد والضغائن. أهل سيبخسون الناس حقهم ويظلمونهم أم يوفوهم حقوقهم ومالهم. أهل سيعاونهم أم يتركوهم أم يضعوا العراقيل دون تقدمهم، وينصبون الحواجز لغرض صدهم وكسرهم. كيف سيقوم هذا التفاعل البشري. كيف سيتفاعل الناس مع بعضهم في ظل تلك المعطيات كلها، كيف ستكون معاملتهم حال اجتماعهم وكذلك حال انفرادهم حين يخلون بأهليهم وأنفسهم. هل سيذكرون بعضهم بالسوء أم بالخير، أم سيتوقفون عنهم ويمسكوا ألسنتهم عن ذكر الناس بالسوء والبغضاء والمكروه. كيف سيكون حال هذا الجنس البشري على الأرض؟ وكيف سيكون أداؤه وفعله؟ والله سبحانه وتعالى، من فوق عرشه ناظر إليهم، خبير بهم، محيط بأسرارهم وماتخفي صدورهم، عالم بأحوالهم. وهنا يقوم جانب المعاملة بأكمله.

وهنا تكمن الحكمة السابعة. وهي أصل كل ما سبق، بل هي أصل الاجتماع والإعطاء والرزق والأنعام. وهو الابتلاء. الله تعالى لما خلق الإنسان وعلمه وكرمه، وزكاه بالعلم والمعرفة والنطق والبيان. وآلات الفكر والنظر والحس. إلى آخر ذلك كله. بل الأصل في الخلقة الأولى، هو الابتلاء والاختبار بين الشكر على النعمة والصبر على

البــلاء والعبادة الخالصة. فكان الاستخلاف نفسه على الأرض من تمام تلك الفكرة. قــال تعالى " إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سمعيا بصيرا" فخلقه ليبتليــه. وكــان هذا البــلاء في كل شيء في جميع مجــالات وسياقــات حياته. ليرى لمن سيعــود ويرجع؟ مــن سيدعو، وعلــى من سيعتمد؟ كيــف ستكون نظرتــه لحياته، ولمن حولــه؟ ولما حوله؟ وكيف سيعمل الجميع من إنســ وحيوان وطير ونبات وبيئة ومجتمع. ثــم ينظر أي الصفــات سيكتسب، وإلى أي القيم سيميل؟ إلى صفات الخير وما يترتب عليها من الأفعال والتصرفات أم إلى صفات الشر وما ينبع منها مما خبث وساء ولؤم. ثم ينظر كيفية تعاملك مع المصائب والشدائد، هل سيلجأ إلى نفسه ويعتمد عليها، إلى مــن يلجــأ إلى الناس ويطلب نجدتهم ويستصرخ إعانتهــم، أم يلجأ إلى الله تعالى لمن سيكــون نظره الأول إلى نفسه، العادات والتقاليد، الناس ورضاهم أو سخطهم أو رضا الرب تبارك وتعالى.

كيــف ستكون حياته بوجــه عام بما فيها من مشاهد وأحــداث، واختلافه فيها بين القــوة والضعف والصحة والمرض؟ ليرى صنيعه حال قوته وجبروته وامتلاكه وقدرته؟ وكذلــك يرى حاله على الجانب الآخر، ما الــذي سيصنعه هنالك؟ يرى الله تعالى كل ذلــك منه. ثــم يعود إليه ليحاسبه علــى ما قدم وفعل واقترفت يــداه، ونطق به لسانه، وتحركت به رجله. لذلك فالعلو والغنى والرفعة والجاه والسلطان. إلى آخر صفات العلو والســؤدد والغنى ابتلاء للمرء. وكذلك الفقر والمرض والحاجة والجوع والألم. إلى آخر صفــات النقصــ والضعف والوهن ابتلاء كذلك للمرء. قال تعــالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِــفَ الأرضــ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضــ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُــمْ أن رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" فجعل تعالى كل ما أعطاه المرء، إنما ليبتليه به.

ومن أساسيات هذه المخالطة، المعاملة مع البشر، وهي شاقة أحيانًا كثيرة، إذ أنك تخالــط إنسانا محملا بالأفكار والاعتقادات والأمنيــات والآمال والميول، التي قد تكون

مخالفة لك كل المخالفة. أو يكون هناك اختلاف في الطباع والصفات فلا تتقاربون، وليست هناك نقاط مشتركة تجمعكم معا أو يختلف ما بينكم من المشاعر، وهذا الذي تذكيه الحياة بمصاعبها وشدائدها أو تقله أو لو قلنا فقط لاختلاف الأشخاص بل الشخص نفسه في مشاعره وحالاته النفسية لكفى. وقد يكون لك في معاملته فتنة لك في نفسك، في فكرك، في آرائك. لذلك جعلها الله فتنة، بكل أنواع الفتن في المال والولد والفكر والاختلاف في الآراء ومناصبة العداء والمعاملة السيئة. وذلك يرجع في بعضه إلى ترك الإنسان ما هو مخول به أن يلتزمه ويفعله من القيم الشريفة والأهداف الطبية والغايات النبيلة.

والله تعالى يقول " وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " فتنهم تعالى ليري ماذا سيقول هؤلاء، وماذا سيفعلون

وانظر قوله تعالى " وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا "

أي جعل بعضكم فتنة لبعض في أمور كثيرة، سواء أكانت أمور الدين أم الدنيا، هل ستصبرون على ما فتناكم فيه. وكيف سيكون تعاملكم وجوابكم على هذا؟ أهو الصبر تقوله ألسنتكم وتمارسه فعالكم، أم هو الكفر تبدونه بالسخط والتأفف والغضب. واعلموا في كل ذلك أن الله بصير بكم، مطلع عليكم، عالم بأعمالكم.

الإنسان عاطفة متنقلة ومشاعر متغيرة وأهواء نفسية وتحيزات قلبية، كل هذا في مجموع هيئة بشرية مصورة ثم يجب عليك التعامل مع كل هذا، لذا كان التعامل مع الناس وسياستهم له متطلبات خاصة وقد ذكرنا شيئًا منها سابقا. وإن كان الصبر والتصبر والحلم والتحلم يُكلل هذه المعاملات كلها، إذ لابد فيها من الصبر على ما قد يبديه الناس والحلم على ما يظهرون من أشياء قد يكرهها المرء ولا يرغب فيها. هذا بشكل عام، وأن كان الأمر له تفصيلات أخرى.

الحكمة الثامنة. وهي أصل الاجتماع، وهي قوله " ليتعارفوا " التعارف بين الناس،

والاختلاط فيما بينهم لإتمام شئون حياتهم وليس مفهوم التعارف مقصورا على الناس فقط، وإنما هو بشموليته، وما قد يشتق منه من معنى فهو يتجاوزه إلى أنواع كثيرة يدخل فيه التعارف دخولا مباشرا. ومنها، التعرف على ثقافات وحضارات الأمم الأخرى، وقد ذكر الله تعالى أحوال بعضهم في القرآن وكذلك التعرف على أحوال الشعوب البائدة أو الحاضرة، مما يعود عليه به نفع أو إفادة. وكل ذلك قصدا للفهم وتوسيع للمدارك، واطلاعا على تصرفات الغير واستفادة من تجاربهم ومعرفة لعادات وتقاليد وثقافات جديدة فنأخذ من حسنها ونترك خبيثها وسيئها، وقد تعود علينا بأشياء نافعة. والقاعدة القرآنية في ذلك، هي قوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"

وقد يقصد بالتعارف كذلك معنى آخر، وهو اعرفوا أنسابكم وأرحامكم، واعلموا أصولكم حتى تبلغوا إليهم حقهم في الصلة وفيه إنشاء صلة المودة وإحيائها بالتعارف، وكذلك معرفة الأهل وفروعهم وأنسابهم وكذلك أصولهم، وحتى لا تختلط بعضها ببعض. فتُعلموهم لمن بعدكم تقوية للروابط ومحافظة على جسور الصلة ممدودة فيما بعدكم. فعلى المرء أن يعرف من أهله ويتواصل معهم . والإنسان قد نشأ بين مجتمعات مليئة بالأفراد، فيحسن به أنه يعرف من منهم يصل إليه بقربى أو صلة.

وكله داخل في قوله " ليتعارفوا" وإن كان المعنى أجده ضيقا بعض الشيء، إلا أنه مفهوم من مدلول ظاهر اللفظ. وإن كان المعنى الأول أوسع وأشمل ويدل على ذلك قرينة قوله "شعوبا وقبائل" من التعارف العام بين الناس بشعوبهم وقبائلهم ومن ذلك مراعاة الاختلافات فيما بينهم من فروق العادات والتقاليد والأعراف والثقافات واللغات. وغير ذلك. فهذا يحتاج إلى معرفة أمرهم ودراسة تاريخهم وثقافتهم ليكون تعارفنا معهم متينا قويما، ولنوثق هذا التعارف بوسائل المعروف والتبادل بأنشطة تعود علينا بالنفع والخير، ولا تصيبنا بشيء من الضرر في ثقافتنا أو لغتنا أو عقيدتنا. وكل

ذلـك من مستلزمات ذلك التعارف وإن كان الأمر يطول عن ذلك توضيحا أكثر بين ما يجـب وما يصح وما يحرم في ذلك التعـارف وماهي أسسه. إلى آخر ذلك فهو موضوع منفصـل بذاتـه. وغالبا كـان حديثي هنا بشكل عـام، فما يتم الحديث عنـه، إنما هو كليـات رئيسة ولكل ما يتعلق بها من الفروع والتقسيمات إلى آخره، إذ أن هنالك أفكار كثـيرة تستحق بذاتها أن تكـون مبحث دراسة منفصلة، وكذلـك لا تعلق بالحديث عن الجزئيات المتفرعة، وطرقها ودلالاتها، والأقوال حولها وما إلى ذلك وهو كثير جدا لأن البحث كذلك في المعاني المتولدة في كل فكرة والمشاركة لها أو متضمنة لها أو المستنبطة منهـا أو المستلزمـة لها لهو أمر طويل جدا. ويراعي فيه المنهج المتبع في كتابته، ومن أي زاوية أو نظرة سيدار كتابة هيكل الفكرة وماحولها.

ونقـف عنـد هذه النقطة، وإن كـان الكلام ذو شجون، والأفكار متـواردة، والنفس تواقـة إلى الاستـزادة. ولعل أن تكون لنا رحلة أخرى في شعب آخر، وفن مغاير وبعد أن ذكـرت العزلة والمحمود منها والمذموم والصفات وما يتعلق بها إلى آخره. ثم المخالطة وحكمها وأسبابها والداعي إليهـا، وأن المخالطة ليست نقيضا للعزلة، فكلاهما ملازم للآخر، وإن كانت العزلة لها أسبابها الداعية إليها كحالة جديدة على النفس، أو فترة يستريـح فيها الإنسان، يعود ليواصل مرة أخرى وهـي لمعرفة نفسك أكثر والهروب بها مـن فوضى المجتمع واللا منطقيـة المتزايدة والمشاعر القاسيـة والقلوب الجافية. هي فرصـة لتتعـرف على نفسك أكـثر وتدرس حالتك وذاتك، إنه هـو الوقت الذي تمضيه في الرجـوع إلى ذاتـك، بعد أن ضيعته أمواج المخالطة فتهدأ قليلا، لتعيد كل شيء مرة أخـرى في تلك النفس. فتستريح به من إجهاد الفكـر والنفس والعاطفة بسبب التدافع بشـكل غـير طبيعـي في معاملاتك مع العـالم الخارجي. وهنـا يجب أن نشـير إلى أن العزلـة ليست تعني الوحدة. الوحدة شيء آخر منفصـل عنها، فقد يؤدي إلى أمراض واضطرابات. وهو حالة مندفعة بالنفس إلى الهروب والانعزال، وهي قاتلة .

حالة وهم

ثم بقي أن أشير إلى حالات النفس وترددها بين ثلاث لا رابع لها وهي تقسيم شرعي ذكره الله تعالى في كتابه وقبل أن أخوض في لفت النظر إلى هذه الثلاث، أطوف سريعا محلقا في سماوات النفس وأنواعها، غير أنه لن حصي هذا الأنواع، بل هو طرف من الذكر، لنأتي على شيء من التصور لهذه النفس في تفاصيل بسيطة.

بعض النفوس جميلة ترى كل شيء في الوجود جميلا، تحب الخير وتسعى له. وتبذل ولا تنتظر جزاء، وتعطي ولا ترضي مقابلا. هي نفوس خيّره معطاءه، تتجاوز عن الزلات وتغفر التعديات وهي كذلك لا تقبل الضيم وترفض الظلم وتقف في وجه الظالم وهي مولعة بإيصال الحق لأهله. ترجوا أن تعطي الجميع، وتبذل الخير للكل وألا يكون هناك أحد محروم أو مظلوم، فتتأذي لرؤية ذلك وتهلع. وتسعي للمساعدة بكل ما تقدر. تجدها تعطي الناس أكثر من مما تعطي نفسها، عندها نوع من الإيثار غير طبيعي تشعر أنها أجزاء قسمت، وأبعاض تفرقت، وهي تفرقها بين المحتاج والمحروم والمكلوم والمظلوم تزرع الابتسامة إن كانت مثقلة بالهموم، مطفية بالحزن.

وهناك بعض النفوس ترى الألم في كل شيء، فهي في كل شيء منطوي على الألم بل حتى السعادة والسرور تراها مظهر من مظاهر الهروب من الحزن والألم، هروب من الحقيقة والواقع. ترى الألم حتى في اللذة. وترى أن الوصول إلى اللذة يتطلب الحصول على الألم ولو قليلا. ترى ثيابا سودا على كل شيء، تستخرج من قلب البياض سودا، ترى الهدوء من آثار الضجيج وقد تتكلف حتى في أوقات البساطة ترى كل شيء معقدا ومتكلفا.

وهناك بعض النفوس شفافة، تتأثر بكل ما تسمع، وتصدق فيما تري، تؤمن بالظاهر وتغفل عن مواطن الأشياء وحقائقها شديدة الصراحة، لاهجة بالمدح والثناء للغير، شديد الانبهار بالجديد والغريب متأثرة بالغير في الأقوال والأفعال، شديدة الميل والاندفاع قد تأتي الصبر غير أنها عجولة ملحة تتوتر سريعا وقد توافق الغير إرضاء له.

وهناك نفوس أخرى حزينة، اعتادت الحزن ولزمته فأصبح كأنه فطرة فيها لا

تحيد عنه ولا تميد. غير مبالية بشيء، تحركها فقط لكونها على قيد الحياة. لا علاقة بينهـا وبين الحياة غير مـا يبقيها على قيدها شديدة التأثـر كذلك، عطوفة مع الغير، رحيمة، كثيرة البكاء، شديدة العاطفة.

وهكـذا لـو تتبعـت النفوس لوجـدت فيها ما تـرى من صفـات البشـر وطبائعهم فبعضهـا حقود حاسد، وبعضهم لئيم بخيل والآخـر نقي صاف، وبعضهم جاحد منكر وكـاذب منافق، وبعضها طيب صادق. وهكذا تستطيع استنباط كل هذه الأنواع بالنظر والاستقراء لمذاهب البشر وطبائعهم وأمزجتهم ولا يعني هذا أن النفس قد تكون شيئًا واحـدا، بل هي جمـاع صفات متعددة. تتمازج بين أكثر من شـيء هي المكون الأساسي لشخصيـة الفرد الأولية أو لصفـات الجبلية التي يكون مطبوعـا عليها وهذا التقسيم ينزع في أغلبه إلى الاعتماد على الصفات وتنوعها واختلافها فهو تقسيم للنفس تبعًا لما تنسب إليه من الصفات، والأحوال.

أمَّـا التقسيـم الثاني، فهو جامع مانع يفصل الأمـر إلى ثلاثة خطوط رئيسة وهذه المواطن الثلاثة هي التي تتردد عليها النفس، وتذهب إليها وتؤوب منها راجعة إليها.

الموطـن الأول: ـ فهـي النفـس التي اعتادت الشـر، ومردت عن الطبـاع السوية وهيئـت كل مكروه بزينة خبيثـة. ووضعت له الأفخاخ تنصبهـا بشباكها وحبائلها فهي لا تقـع إلا علـى القبيح من الأفعـال والتصرفات فهـي غير آمرة بالخـير، حاثة عليه، محرضـة علـى إتيانه. فهي لا تأمر إلا بالسوء، والشر داعيـة إلى كل فساد، مؤذنة بكل منكـر، مهيجة للفتن والشر بـين النـاس، وإغرائهم والتحريش بينهم للوقيعة بهم. وهي النفـس الأمّـارة السوء وقد ذكر الله تعـالى ذلك في القرآن الكريم، علـى لسان امرأة العزيـز. قال تعـالى: " وما أبرئ نفسـي أن النفس لأمارة بالسـوء إلا من رحم ربي إن ربي غفور رحيم "

وهـي نفس لا يستقر صاحبهـا إلا على فساد أو ضلال، أو لإغواء جريمة أو مصيبة

أو شر. تجد في ذلك رضاها وبغيتها. بل لا تطمئن حتى تقضي وطرها من الشر وتقر عينها بوضوح أثره تفرح في المصائب ويشتد فرحها في الطامات والبلايا. وحين تقع المصائب تتهرب من فعلها وتنكر تحريضها، وتزعم الصلاح وتدعي الفلاح.

وصاحبها على خطر عظيم وشر كبير إلا أن يرجع عن غيه، ويستبدل الشر بما هو أشر منه.

وأما الموطن الثاني: فهو صاحب النفس المترددة بين الفعل والعدم، بين الصلاح والفساد فهي التي لا تميل لشيء ثم تنزع عنه. لا تستقر على رأى ولا تميل أتم الميلان فهي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. دائمًا تلوم على ما تأتيه وتحاوله من أفعال قد لا تريدها غير أنها ترغب في إتيانها، إمَّا عادة ما لطول ممارستها لها، فلا فكاك لها عن الإقلاع عنها. وإما تأتيها رغبة منها وشهوة، فهي حينئذ في قبضة الرغبة نفسها مقيدة بها، في غفلة عن إرادة العقل. فهو حينئذ مغطي بسحب الشهوات والشبهات والرغبات، فلا يكاد يبين أو يوضح شيئًا ثم ما أن يعود لرشده بعد أن يفضي إلى حاجته ويقضي رغبته. يعود العقل إليه مأنبًا ولائمًا فيما أتى وصنع، مما لم يأخذ فيه مشاورته ونصيحته، فعاد إلى فساد وخسران ثم يأخذ في تحليل ما مضى وماهو فيه وما سيستقبل له، وهو كذلك شديد في النصح عليه مثقل في الكلام إليه، أخذ بخطام قلبه خانق له، لتَرْوِيه سحائب الدمع مستشفعة طالبة العفو والمسامحة، ويَرِقُ القلب لفعلته ويندم. فيتركه العقل وهو عليه غاضب، وينظر إليه نظرة شَـزْرًا، مخبرا أنه ضاع أمله فيه وخسر ثقته به.

فتأخذ النفس من كلام العقل فتستلمحه ويرق لها فتعيده بعد أن يترك العقل الحوار ويتخافى عن الأنظار. فتلوم النفس القلب على اشتهائه ورغبته، وعلى طمعه وجشعه. فتقول، لمَ لا تقنع وأنت كذا وكذا! لمَ لا ترضى وأنت كذا وكذا!

فيستشيط القلب نارا تلظى، ويخاطبها وقد بلغ الغضب منه مبلغا الشدة المفرطة،

أيتها النفس الكاذبة اللئيمة التي لا تشبع، الآمرة بالأمر وهي مدعية فيما تدفع، الجاحدة لما تصنع، المحرضة على سفاسف الأمور ودناياها وما يفجع، الناشدة الدنايا وحقائر الأمور وما يقذع أمًّا لك في نفسك عبرة، فتأخذي خطاب التكليف وتحرضي على الخير وتأمري بالمعروف. ولكن أبيتي إلا النفاق بين أنك تحبين الشيء وترغبين به أشد الرغبة، وتحرضين على الوقوع فيه. ويكون حدوثه إليكِ أحب من كذا وكذا. فإذا ما حدث أشفقت خجلة من شدة العار، وصحت متبرئة من الإثم، معلنة التوبة. ثم تتلفتي الجوار لتلقي بلائمة الإغواء على غيرك، فتنفري مما اقترفته يداك. ثم الآن تنزلين قاعة المعركة وساحة الحرب مبارزة هل من مقاتل، ولو أبصرت مواطن العور فيك والسلبية الظاهرة عليك لأشفقت على حالك وسترت نفسك!

فيقع الكلام على النفس، وقع الرصاص على الجسد. فطأطات رأسها واعترفت بذنبها وتقصيرها وقالت أنا الملومة، لا تسمع عني ولا تأخذ مني. ولكن ألا يكون لك أيها القلب رقة فتعذرني، وتأخذ التوبة مني، وتتنازل عن تلك العثرة وهذه السيئة. غير أن جانبك ليس بمؤتمن فإنك إن كنت صادقا في كثير من قولك، إلا أنك أشربت حب هذا الفعل فقويته في عاضدي، وبثثته في روحي، وألهبت به كياني. فصرت لا أقوى إلا على أن آتيه مهما كانت النتائج ولو كان فيها قتلي. فأنا مندفعة بغرورك وحمقك وترويضك وتزينك ، ولكن لا أعفي نفسي من الذنب، ولا أبرأ من العيب. بل أنا مقرة به بكليتي، شاهدة عليه بيمني . ولو جاء يوم في ساحة الحكم منزلي لاعترفت بسابقتي، وأدخلت نفسي في قفص الانعزال ورضيته لنفسي . فما لي لا أرضى ما قد رضيته قبلا . أو أنبت فيك أيها القلب غرورا ونفاقا ليعود على دَخَنَهُ و كريه رائحته، ثم أنكره. ومالي أزرع في تربتك شيء مما سيعود على أثره عاجلا غير آجل. كلا أيها القلب، إني أشهد بذنبي واعترف بإثمي وجُرمي.

وقد ذكر الله تعالى حال تلك النفس في القرآن الكريم، فقال تعالى: " لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة "

وهذه إحدى طبائع النفس أنها تلوم صاحبها على فعله، حتى ولوكان خيرا. فتلومه لمَ جاء به على هذا الوجه! ولمَ لمْ يحسن فيه الإحسان الطلوب! ولمَ لمْ يزد فيه إلى الحد الأعلى! على أية حال هي لا تنتهي عن لومه، ولا تنزجر عن إيعازه، وإلقاء الملومة عليه فتظل توبخه وتعنفه.

والموطن الثالث: ـ وهو أفضل المواطن كلها وهي النفس الساكنة المستقرة على فعل الطيبات، فلم يبق في قلبها شهوة أو شبهة. فلم تُضَر نفسه ولم تتلوث فهي باقية على طهرها ونقائها وهي النفس المطمئنة. مطمئنة في نفسها ومطمئنة عن أن يصيبها مكروه أو تلحقها مضرة، وهذا فيه من تهدئتها وتطيب خاطرها لما بذلت وأعطت، وتصدقت، وركنت إلى الخير وفعلت الصالحات، وتجنبت السوء والشرور.

فجازاها الله ـ تبارك وتعالى ـ أن جعلها مطمئنة ولم يجعلها كذلك فحسب، بل سلمها فيما يستقبل فجعلها في مأمن جزاء وفاقا، فكانت في راحة وسكينة وطمأنينة وسعادة وسرور.

ويشير تعالى في كتابه، فيقول سبحانه: " يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي "

وهنا وصف النفس بثلاث صفات، الأولى أنها مطمئنة ثم راضية، ثم مرضية. والمفهوم من الآيات أن تلك النفس لاقت صعوبات أو خوف واضطرابات. ولكن الله تعالى امتن عليها بأن رزقها الهدوء والطمأنينة في حاضرها ومستقبلها. فإن الإنسان لا يكتمل اطمئنانه بالحاضر فقط، إذ هو دائمًا يحمل همّ المستقبل وخوف المجهول، فيشغل نفسه باحتمالات ما سيقع فيما يستقبل، فيقلق ويضطرب. ولا يتم اطمئنانه إلا بطمأنينته على مستقبله، وعلمه أن ما سيأتي إنما هو خير كله لا خوف فيه ولا وجل.

وهـذه الطمأنينـة له في الدنيا، غـير أنها تكون في الآخرة واضحة بينـة إذ حينما يفزع الناس للحساب تجده مطمئن هادي النفس في ظل عرش ربه.

وفيـه نوع من الإشعار بأن هذه النفس لاقت الكثير من المصاعب والبلايا والمحن، ومـرت بالكثير من التجارب التـي تركت فيه آثار صعبة مؤلمـة، فطمئنتها. والطمأنينة تقـال للشخص الهادئ الحـال المطمئن القلب مـن باب الزيـادة في الاطمئنان، ولكن الأصل أنها تقال للخائف الوجل أو المضطرب المتردد، حتى يهدأ أو يستريح .

ويحتمـل كذلـك أن تكـون الطمأنينة لمـا يحدث لها مـن الخوف والفـزع والرعب والقلـق حال الموت، فيطمئنها تعالى على مصيرها يوم القيامة، بأن لها الأمن والخير. فيبشرها في الدنيا وحال الموت وفي القبر ويوم القيامة.

قـال تعالى: " ألا إن أَوْلِيَاءَ اللَّه لَا خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة لَا تَبْدِيلَ لِكلِمَاتِ اللَّه ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ".

وقولـه سبحانـه " إن الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَـا اللَّه ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ألا تَخَافُـوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِـي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٠٣) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَـا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَـا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَـا تَدَّعُونَ (١٣) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ "

وقولـه عز وجـل " إن الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَـا اللَّه ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"

وكذلك قوله عز وجل " يُثَبِّتُ اللَّه الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا "

ولذلـك فإنك تجـد الله تعالى في قرآنه بعـد إثباته للأعمال الصالحـات وإتيانها لوجـه الله سبحانه وفي سبيله، من الإيمان به والعمل والبر والصلاة والإنفاق. يختمها بقولـه تعـالى " ولا خـوف عليهم ولاهـم يحزنون " ففـي كثير من المواضـع تتكرر تلك

الجملة ليؤكد هذه الحقيقة بأن من اتصف بصفتهم وفعل مثل هذه الأفعال ابتغاء رضاه تعالى كان له ألا يخاف ولا يحزن في الدنيا بتثبيته تعالى لهم بالقول الثابت، والبشري كذلك في الحياة، وعند الموت بنزول الملائكة تطمئنهم. ولاهم يحزنون بالموت لما تركوا فإن ما سيقدم عليه إنما هو النعيم والفضل. ولا يحزنون في الآخرة، حينما يحزن المذنبون والمقصرون على ما فعلوا وارتكبوا. أمَّا هم فلا يخافون من العذاب، ولا يحزنون لما يرون من هول المطلع وشدة الأمر يوم القيامة قال تعالى: "لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون"

ومما يؤيد هذا المعنى قوله "ارجعي إلى ربك" فالرجوع يكون حال الموت، لذلك تكون الطمأنينة المقصودة هنا هي، حال الموت. لما يحدث لهم من الانشراح والهدوء وهذا لا يمنع أن يطمئنهم في الدنيا.

ثم وصف الرجوع إلى الله تعالى بوصفين جميلين بأنها "راضية مرضية". وإن كانت الصفة هنا هي الرضا، وهي واحدة غير أنها من طرفين اثنين فتكون النفس راضية لما ترى من الخير والنعيم، ولما يحدث لها من الراحة والسكينة، ولما تقدم عليه من النعيم المقيم. هذا من جانب النفس. ولكن الله تعالى يزيدها درجات أعلى من الرضا نفسه. بأن يزيدهم تعالى على رضاهم هم، رضاه هو عليهم. كما يقول سبحانه لأهل لجنة هل رضيتم فيقولون، وكيف لا نرضى وقد بيضت وجهنا وأدختنا الجنة وأعزتنا من النار . فيزدهم تعالى بأن يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا. فيكون الرضا الأول من جانب العباد بأنهم قنعوا ورضوا بما أعطاهم تعالى من النعيم والفضل. ولكنه تعالى لا يرضي لهم هذا الرضا فحسب، بل يزيدهم تعالى من رضاه هو، غير رضاهم لأنفسهم.

وهكـذا فالرضا من جانب العبد بأن كانت راضية لما رأت وسمعت فاطمأنت ، وبين أن تكون مرضية من الله تعالى، فينزل عليها من أنواع الرضا فوق ما يرضيها أضعافا مضاعفة. وذلك لأنه عطاء الله سبحانه وفضله، عطاء من بيد مقادير كل شيء.

وإلى هنـا، تقف رحلتنا، فتهـدأ في حديثها عن النفس والغوص في أعماقها بعد أن رأت مـن أحوالها وتلمست من ضمائرها وسارت معها إلى خلجات بواطنها وإن لم نكن مررنـا على جميع مراحلها ونقاطها، ونزلنا إلى كل مشاهدها، وسطرنا كل ما يخصها مـن حقائقهـا وعجائبها، فما لبثنا بهـا إلا يسيرا. غير أننا رأينا جـزءا منها قد يكون غامضا أو متخفيا. وأسفرنا اللثام عن بعضه، وكشفنا النقاب عما تيسر منه. وحديثنا هنـا ينهي كشفنا لهـذه النفس وفحص أنواعهـا، وما ينتج عنها. غـير أننا اكتفينا في رحلتنـا تلك، لتسدل الستار عليها، ووصلنا فيهـا إلى نهايتها خوف الزيادة والإسهاب. فلتخفض أشرعة سفينتنا، لتعلن نهاية تلك الحكاية، وهنا حيث النهاية.

حلوان

الجمعة

13 جمادي الأول 1441هـ

2 فبراير 2020م

الفهرس

المقدمة 5
شيئًا من الموت 20
الحالة الجديدة القديمة 29
نمضي إلى فنائها 34
وهم الوعي 43
على هامش الصراع 49
نظرة على التغيير 62
محاولات متعددة 79
طرق زائفة 97
الأجيج الداخلي 109
مابين احزن.. ولا تحزن! 121
قوة الضعف 136
شيئًا من الكذب وكثيرا من الانتظار 155
أعمال خفية وأنماط مخيفة 181
هروب آخر 198
الإنسان بين أفكار وحريات 232
نظرة مقربة بين الإدراك والتغافل 280
نقطة في الفراغ 331
رحلة الروح وكشف للنفس 390

منشورات الفنار

ترحب منشورات الفنار دائمًا بآراء، ومُقترحات قرائها الأعزًاء، وتدعوهم دومًا لإفادتنا بملاحظاتهم لتطوير منتجها الثقافي على الدوام

راسلونا عبر بريدنا الالكتروني

elfnaar@gmail.com